

نَدْوَةُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ
فِي شَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

تأليف

الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب

المتوفى ١٢٣٣

الطبعة الثالثة

قوبلت على ثلاث نسخ خطية

المكتب الاسدي

نيسير العزير الجميد

مقوق إطببع مءفوظة للناسر

الطبعة الاولى ١٣٨٢

الطبعة الثانية ١٣٩٠

الطبعة الثالثة ١٣٩٧

ببىروت: ص.ب ١١-٣٧٧١ هاتف ٤٥٠٦٣٨- برقىا: إسلامىيا
ومشق: ص.ب ٨٠٠- هاتف ١١١٦٣٧- برقىا: إسلامى

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد ؛ فإننا نقدم للأخ القارئ كتاب « تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد » في طبعته الثانية ، بعد إلحاح الناس على طلبه ، لما لهذا الكتاب من فوائد جمة ، تصل المسلم بعقيدته الإسلامية الخالصة كما جاءت في كتاب الله المحكم وسنة رسوله الصحيحة . وقد كان لاهتمام العلماء وأهل التوحيد بهذا الكتاب ، وانصرافهم إلى دراسته وتدريبه ، أثر واضح في رواجه ، ودليل أكيد على أن هذا الكتاب لم يترك أصلاً من أصول العقيدة ، ولا فرعاً من فروعها إلا وذكر النصوص الواردة فيها مشفوعة بكلام الأئمة الأعلام من السلف الصالح لكشف المعنى المراد وبيان حقيقة التوحيد : جوهر الإسلام وعرضه .

والكتاب أيضاً فضل الرد على كل ما علق بالعقيدة الإسلامية من عقائد فاسدة تسربت إلى بعض المسلمين في الأزمنة المتأخرة ، بسبب جهلهم وبعدهم عن هدي القرآن والسنة وقلة الناصحين فيهم ، مما أدى إلى انتشارها وذيوها ، واعتقاد كثير من المسلمين بها - وهي عقائد كان أهل الجاهلية يدينون بها - وجاء الإسلام يبطلها .

أضف إلى ذلك أنه يرد على كثير من الطوائف التي انحرفت عن الصواب ولم تسر في فلك الكتاب والسنة وبسفه آراءهم ، ويفند مزاعمهم ، ويبطل حججهم بأسلوب محكم تتخلله النصوص القاطعة ، والتفسيرات الواضحة ، والمجيب الناصحة .

غير أن المؤلف - رحمه الله - لم يتم شرح الكتاب ، وإنما وقف في نهاية باب « ما جاء في منكوري القدر » . وكنت طلبت يومها من سماحة أستاذنا العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ المفتي الأكبر - عليه رحمة الله - التكرم بشرح ما تبقى من الكتاب ، ولكن لم يتيسر له الوقت الكافي ، فلذلك اجتهدت ونقلت من كتاب « فتح المجيد شرح كتاب التوحيد » للشيخ العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ شرح الأبواب الباقية ، مع بيان ذلك في المقدمة وفي مكان النقل ، فصادف ذلك قبولاً من العلماء الذين اطلعوا على الكتاب لأن كتاب « فتح المجيد » تهذيب واختصار لتيسير العزيز الحميد .

ومنذ أشهر كنت بقطر في مكتبة استاذي الجليل الشيخ محمد بن مانع ، عليه رحمة الله ، فوجدت نسخة مخطوطة جيدة لم نطلع عليها من قبل .

صنع ناسخها العالم الشيخ محمد بن عبد الله المزيدي ما صنعنا من نقل شرح باقي الأبواب من كتاب « فتح المجيد » .

هذا وقد اعتمدنا في الطبعة الأولى على نسخة خطها جيد في أوله ، حسن في وسطه ، مقروء في آخره ، بيد أن هذا القسم الأخير منه مليء بالأخطاء والتصحيقات والنقص .

كما قمنا بالمقابلة على نسخة ثانية لأستاذنا العلامة الشيخ محمد بن مانع ، غير أنها ناقصة ، وصل بها ناسخها إلى أوائل باب « ما جاء في التنجيم » ويعادل النقص فيها ثلث الكتاب تقريباً .

ولما وجدت نسخة الشيخ ابن مزيدي قابلتها على المطبوعة ، وبذلك جرى استدراك النقص والخطأ والتصحيح ، وما ندنا في الطبعة الأولى من هفوات ، وقد أشرنا إلى بعض ذلك في التعليقات بما جعل هذه الطبعة أمثل من سابقتها ضبطاً وتصحيحاً ، وقد زادت (٦٩) صحيفة عن الطبعة السابقة .

ونرجو الله أن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بسابقتها ، ويثبت الكتاب . وكتب الله لهذه الأمة العودة إلى دينها الموحد الذي فيه عصمة أمرها . والحمد لله رب العالمين .

ابوبكر
م. زهراني

بيروت ربيع الآخر ١٣٩٠
حزيران ١٩٧٠

ترجمة المؤلف

بقلم الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ

هو الحافظ المحدث الفقيه المجتهد الثقة أوجد الحفاظ تاج عصره وجمال زمانه : الشيخ سليمان بن الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولد سنة ١٢٠٠ هـ .

كان آية في العلم والحلم والحفظ والذكاء ، له المعرفة التامة في الحديث ورجاله وصحيحه ، وحسنه وضعيفه ، والفقه والتفسير ، والنحو ، وكان في معرفة رجال الحديث يسامي أكابر الحفاظ ، وضرب به المثل في زمنه بالذكاء والزكاه ، وكان حسن الخط ، ليس في زمنه من يكتب بالقلم مثله .

أخذ العلم عن أبيه ، والشيخ حمد بن معمر ، وعن عمه : الشيخ حسين ، والشيخ علي ، والشيخ حسين بن غنام ، والشيخ عبد الله بن فاضل ، والشيخ عبد الرحمن بن خميس ، والشيخ عبد الله الغريب ، وغيرهم ، وأجاز له الشيخ محمد بن علي الشوكاني .

برع في الفنون ، وكانت له اليد الطولى في الحديث ورجاله . يروى عنه أنه كان يقول : أنا برجال الحديث أعرف مني برجال الدعية ، لم ير شخص في زمنه حصل له من الكمال والعلوم والعصمات الحميدة سواء على

صغر سنه . صنف شرح د كتاب التوحيد ، لجلده ، فمن بعده عيال عليه فيه ، لكنه لم يكمله ، وله حاشية على شرحه ، و د الدلائل في حكم موالاة أهل الإشرارك ، كان طلبة العلم يحفظونها عن ظهر قلب ، ورسالة في عدد الجمعة لم ينسج على منوالها ، وله فتاوى كثيرة طبعت ضمن مجموع فتاوى أئمة الدعوة ورحمهم الله ، ومن وقف على كلامه شهد له بالشهامة والجودة والذكاء والحفظ وحسن الفهم . أخذ عنه العلم عدد كثير من أهل الدعية وغيرهم ، منهم الشيخ محمد بن سلطان وغيره .

وكان رحمه الله آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فلا يتعاطى رئيساً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يتصاغر ضعيفاً أتى إليه بطلب فائدة . وقد أكرمه الله تعالى بالشهادة سنة ١٢٣٣ هـ وذلك عندما وثى به بعض المنافقين إلى إبراهيم باشا بن محمد علي باشا بعد دخوله الدعية واستيلائه عليها فأخضره إبراهيم باشا^(١) وأظهر بين يديه آلات اللهو والمنكر لإغاظته له ، ثم أخرجه إلى المقبرة وأمر الجند أن يطلقوا عليه الرصاص جميعاً فزقوا جسمة ، وفاضت روحه إلى ربه ، رحمه الله ، وأجزل مثوبته ، وأسكنه فسيح جناته .

(١) ومن المعلوم أن إبراهيم باشا كان قد اصطحب معه في غزوه للحجاز ونجد المفتيات وآلات اللهو والمسكرات وبعض الضباط الأفراسيين وقد ساعده من جهة الخليج الاسطول الانكليزي .

هذا الكتاب المسمى بتيسير العزير الحميد
 في شرح كتاب التوحيد المشتمل على
 الشيخ الإمام عليهما الله الشيخ عبد الله
 ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب اجاز الله
 الشرايف وحسن
 المآب آمين
 ربه المدين
 ١١

لوحة رقم (١) لنسخة المصنف الإسلامي
 وهي المعتمدة في الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي رضي الاسلام للمؤمنين ديناً ، ونصب الأدلة على صحته وبينها تبييناً ، وغرس التوحيد في قلوبهم ، فأفترت باخلاصه فنرنا ، وأعانهم على طاعته هداية منه وكفى بربك هادياً ومعيناً .

والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الدن وكبره تكبيراً ، الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً ، ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه ومراجاً منيراً ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فهذا شرح لكتاب « التوحيد »^(١) - وافٍ إن شاء الله

(١) في النسخة « ١٦ » زيادة : تأليف الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب ، أحسن الله له المآب ، وأجزل له الثواب .

تعالى بالتنبية على بعض ما تضمنه من بيان أنواع التوحيد ، إذ هو المقصود بالأصالة هنا ، ولم أخله أيضاً من التنبية على بعض ما يتضمنه من غير ذلك ، إلا أن الأولى بنا هو بيان ما وضع لأجله الكتاب لعموم الضرر والفساد الواقع من مخالفة ما فيه .

والأصل في ذلك هو الإعراض عن الهدى والنور الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ من الكتاب والحكمة ، والاستغناء عن ذلك باتباع الآباء والأهواء والعادات المخالفة لذلك .

ولهذا كرر الله تعالى الأمر باتباع الكتاب والسنة في مواضع كثيرة من القرآن ، وضرب الأمثال لذلك ، وأكدته وتوعد على الإعراض عنه ، وما ذاك إلا لشدة الحاجة ، بل الضرورة إلى ذلك فوق كل ضرورة ، فإنه لا صلاح للعبد ولا فلاح ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بذلك ، ومتى لم يحصل ذلك للعبد فهو ميت .

كما قال تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) [الأنعام : ١٢٣] .

فسمى سبحانه وتعالى الخالي عن هذا الهدى والنور ميتاً ، وسمى من حصل له ذلك حياً ، وذلك أنه لا مقصود به في حياة الدنيا إلا توحيد الله تعالى ، ومعرفة وخدمته ، والاخلاس له ، والاستلذاذ بذكره ، والتذلل لعظمته ، والانقياد لأوامره ، والإنابة إليه ، والإسلام له ، فإذا حصل هذا للعبد ، فهو الحي ، بل قد حصلت له الحياة الطيبة في الدارين .

كما قال تعالى : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه

حياة طيبة ولنجزينهم أجورهم بأحسن ما كانوا يعملون ([النحل : ٩٨] فإذا فاتته هذا المقصود فهو ميت ، بل شر من الميت .

قال الله تعالى : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون) [الأعراف : ٣]

وقال تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) [الأنعام : ١٥٤] وقال تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) [المائدة : ١٨ - ١٩] .

وقال تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) [النساء : ١٧٤] .

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) [النساء : ٥٩]

(وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) [النساء : ٦٤] .

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً) [النساء : ٦٥] .

وقال تعالى : (وأنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئء وهدى ورحمة وبشرى المسلمين) [النحل : ٩٠] .

وقال تعالى : (وقد آتيناك من لدنا ذكرا . من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً) [طه : ١٠١ ، ١٠٢]
وقال تعالى : (فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) [طه : ١٢٤ - ١٢٥] .

قال ابن عباس : تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة .

وقال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) [الشورى : ٥٣] .

فيا عجباً ممن يزعم أن الهداية والسعادة لا تحصل بالقراءة ولا بالسنة ، مع أن النبي ﷺ لم يهتد إلا بذلك . كما قال تعالى : (قل إن ضللت فانا أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي اليّ ربي إنه سميع قريب) [سبأ : ٥١] ثم بعد ذلك يحيلها على قول فلان وفلان .

وقال تعالى : (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) [الحشر : ٨] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، فوجب على كل من عقل عن الله أن يكون على بصيرة ويقين في دينه .

كما قال تعالى : قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) [يوسف : ١٠٩] .

ومحال أن يحصل اليقين والبصيرة إلا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ،

وكيف يُنال الهدى والإيمان من زعم أن ذلك لا يحصل من القرآن إنما يحصل من الآراء الفاسدة التي هي زبالة الأذهان . فأنه لقد مسخت عقول هذا غاية ما عندها من التحقيق والعرفان .

وهذه المتابعة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ هي حقيقة دين الإسلام ، الذي افترضه الله على الخاص والعام ، وهو حقيقة الشهادتين الفارقتين بين المؤمنين والكفار ، والسعداء أهل الجنة والأشقياء أهل النار ، إذ معنى الإله : هو المعبود المطاع ، وذلك هو دين الله الذي ارتضاه لنفسه ، وملائكته ورسله وأنبيائه . فبه اهتدى المهتدون ، وإليه دعا المرسلون . (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) [الأنبياء : ٢٦] (أفغير دين الله يرغبون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون) [آل عمران : ٨٤] فلا يتقبل من أحد ديناً سواه من الأولين والآخرين .

كما قال تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) [آل عمران : ٨٦] .
شهد الله تعالى بأنه دينه قبل شهادة المخلوقين ، وأنزلها تنلي في كتابه إلى يوم الدين .

فقال تعالى وهو العزيز العليم : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) [آل عمران : ١٩] .
جعل أهلهم الشهداء على الناس يوم القيامة ، لما فضلهم به من الأقوال ، والأعمال ، والاعتقادات التي توجب إكرامه .

فقال تعالى ولم يزل عزيزاً حميداً : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً
لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) [البقرة : ١٤٤] .
وفضله على سائر الأديان ، فهو أحسنها حكماً ، وأقومها قِيلاً .

فقال تعالى : (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع
ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً) [النساء : ١٢٥]

وكيف لا يميز من له بصيرة بين دين أسس على تقوى من الله ورضوان ،
وارتفع بناؤه على طاعة الرحمن ، والعمل بما يرضاه في السر والإعلان ،
وبين دين أسس على شفا جرف هار ، فانهار بصاحبه في النار ، أسس على
عبادة الأصنام والأوثان ، والالتجاء إلى الصالحين وغيرهم من الانس والجان ،
عند الشدائد والأحزان ، وصرف منح العبادة لغير الملك الديان ، ورجا النفع
والعطاء والمنع ممن لا يملك لنفسه نقعاً ، ولا ضراً فضلاً عن غيره من نوع
الانسان ، ودعوى التصرف في الملك لصالح رميم في التراب والأكفان .
قد عجز عن دفع ما حل به من أمر الله ، فكيف يدفع عن دعاه من
بعيد الأوطان ؟ !

أو فاسق يشاهدون فسقه وفجوره فهو أبعد الناس من الرحمن ، أو
ساحر يريهم من سحره ما يحير به الأذهان ، فيظن المخدولون أنها كرامة
من الله ، وإنما هي من مخاريق الشيطان ، تباً لهم سدوا على أنفسهم باب
العلم والإيمان ، وفتحوا عليها باب الجهل والكفران . قابلوا خبر الله
بالتكذيب ، وأمره بالعصيان .

أخبر بأن الهدى والنور في كتابه ، فقالوا : كان ذاك فيما مضى من

الزمان ، وأمرهم باتباع ما أنزل إليهم من ربهم ، ولا يتبعوا من دونه
أولياء ، فقالوا : لا بد لنا من ولي غير القرآن . إن جثتهم بكتاب الله
قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه أهل الزمان ، أو جثتهم بسنة رسوله ﷺ
قالوا : خالفها الشيخ فلان ، وهو أعلم منا ومنكم ، فاعتبروا بأولي الإيمان .
عمدوا إلى قبور الأنبياء والصالحين ، فبنوا عليها البنيان ، ونقشوا ستوفها
والحيطان ، وحلوا بالغالي من الأثمان ، وألبسوها ألوان الستور الحسان ،
وجعلوا لها السدنة والخدام ، فعل عباد الأوثان والصلبان ، وذبحوا ونذروا
إن فيها ، وقربوا لهم القرбан ، وقالوا : هؤلاء شفعاؤنا في كشف الكروب
وغفران الذنوب ودخول الجنان .

فبأنه صف لي شرك المشركين ، هل هو بعينه إلا هذا كما نطق به
القرآن في سورة يونس ، والزمر ، وغيرهما من محكمات الفرقان . إن غرك
أن الأكثر عليه ، فقد حكم الله بأنهم أضل سبيلاً من الأنعام ، إذ استبدلوا
الشرك بالتوحيد ، والضلال بالهدى ، والكفر بالإسلام ، نعوذ بالله من موجبات
غضبه وأليم عقابه فهو السلام . أو غرك أن بعض من تعظمه قد رأى
شيئاً من هذا أو قاله ، فاحطأ جائز على من سوى الرسول من الأنام .
فعليك بالرجوع إلى العصمة الذي لا سبيل إلى تطرق الخطأ إليه ، وهو
كلام ذي الجلال والإكرام ، وسنة رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام ،
مع ما قاله العلماء الأعلام ، الذين نطقوا بكلمة التوحيد وحققوها بالأعمال
والكلام . ولم يزل الحال على ما وصفنا لك من الأمور العظام منتشراً في
أهل البلدان المتتبعين إلى الإسلام ، المارقين منه كما تمزق الرمية من السهام ،

إلى أن أراد الله إزالة تلك الظلمات ، وكشف البدع والضلالات ، ونفي
الشبهات والجهالات ، وتصديق بشارة رسول رب الأرض والسموات ، في
قوله ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد
لها دينها ، رواه أبو داود والحاكم ، والبيهقي في « المعرفة » وإسناده
صحيح - على يدي من أقامه هذا المقام ، ومنحه جزيل الفضل والانعام ،
أعني به الشيخ الإمام خلف السلف الكرام ، المتبع لهدي سيد الأنام ،
المنافع عن دين الله في كل مقام ، شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ،
أحسن الله له المآب ، وضاعف له الثواب ، فدعا إلى الله ليلاً ونهاراً ،
ومراً وجهاراً ، وقام بأمر الله في الدعوة إليه ، وما حابى أحداً فيه ولا
دارى ، فعظم على الأكثرين وأنفوا استكباراً ، ولم يثنه ذلك عن أمر
الله حتى قيص الله له أعواناً وأنصاراً ، فرفعوا ألوته وأعلامه حتى انتشرت
في الحافقين انتشاراً .

وصنف رحمه الله تعالى التصانيف في توحيد الأنبياء والمرسلين ، والرد
على من خالفه من المشركين ، ومن جعلتها كتاب « التوحيد » وهو كتاب
فرد في معناه ، لم يسبقه إليه سابق ، ولا لحقه فيه لاحق ، وهو الذي
قصدت الكلام عليه إثر شاء الله تعالى ، وإن كنت لست بمن يتصدى
لهذا الشأن ، لكن لما رأيت الكتاب لم يتعرض للكلام عليه أحد يعتد به ،
ورأيت تشوق الطلبة والاخوان إلى شرح يفي ببعض ما فيه من المقاصد ،
أحببت أن أسعفهم بمراهم على حسب طاقتي ، « والله في عون العبد ما كان
العبد في عون أخيه » ولذلك يسر الله الكلام عليه ، ومن به من عنده

وحده لا شريك له بحوله وقوته ، لا بحولي وقوتي ، فناسب أن يسمى :

« تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد »

وحيث أطلقت شيخ الاسلام ، فالمراد به الإمام أبو العباس ابن تيمية .

والحافظ فالمراد به أبو الفضل ابن حجر العسقلاني ، صاحب « فتح
الباري » وغيره رحمهما الله تعالى .

وأسال الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وسبباً للفوز بجنات
النعم ، إنه جواد كريم ، رؤوف رحيم .



بسم الله الرحمن الرحيم

افتتح المصنف رحمه الله كتابه بالبسملة ، اقتداء بالكتاب العزيز .
وعملًا بالحديث « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو
أقطع » رواه الحافظ عبد القادر الرهاوي في « الأربعين » من حديث
أبي هريرة مرفوعاً ، وأخرجه الخطيب في « الجامع » بنحوه .

فإن قلت : هلا جمع المصنف بين البسملة والحمدلة ، لما روى ابن ماجه
والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله
فهو أقطع » وفي رواية لأحمد : « لا يفتح بذكر الله فهو أبتوأقطع » .
قليل : المراد الافتتاح بما يدل على المقصود من حمد الله والثناء عليه ،
لأن الحمد متعين ، لأن القدر الذي يجمع ذلك هو ذكر الله وقد حصل بالبسملة .
وأيضاً فليس في الحديث ما يدل على أنه تتعين كتابتها مع النطق بها ،
فقد يكون المصنف نطق بذلك في نفسه .

واتفق العلماء على أن الجار والمجرور متعلق بمحذوف قدره الكوفيون فعلاً
مقدماً ، والتقدير : أبدأ ، وقدره البصريون اسماً مقدماً ، والتقدير : ابتدائي
كائن ، أو مستقر . قال : فالجار والمجرور في موضع نصب على الأول ، وعلى
الثاني في موضع رفع . وذكر ابن كثير أن القولين متقاربان ، وكل قد
ورد به القرآن .

أما من قدره باسم تقديره : باسم الله ابتدائي . فلقوله تعالى : (وقال
اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها) [هود : ٤٢] ومن قدره بالفعل أمراً
أو خبراً نحو : بدأ باسم الله ، وابتدأت باسم الله ، فلقوله تعالى (اقرأ باسم ربك
الذي خلق) وكلاهما صحيح ، فإن الفعل لا بد له من مصدر ، فلك أن
تقدر الفعل ومصدره ، وذلك بحسب الفعل الذي سميت به قبله إن كان قياماً
أو قعوداً ، أو أكلًا ، أو شرباً ، أو قراءة ، أو وضوءاً ، أو صلاةً .
فالمشروع ذكر اسم الله تعالى في ذلك كله تبركاً وتيمناً واستعانة على الاتمام
والتقبل . وقدره الزمخشري فعلاً مؤخراً ، أي : باسم الله اقرأ أو أتلو
لأن الذي يتلوه مقروء ، وكل فاعل يبدأ في فعله باسم الله كان مضمرأ
ما يجعل التسمية مبدأ له ، كما أن المسافر إذا حل أو ارتحل ، فقال :
بسم الله ، كان المعنى بسم الله أحل ، وبسم الله أرتحل ، وهذا أولى من أن
يضمّر أبدأ ، لعدم ما يطابقه ويدل عليه ، أو ابتدائي لزيادة الضمير فيه ،
وإنما قدم المحذوف متأخراً وقدم المفعول ، لأنه أهم وأدل على الاختصاص ،
وأدخل في التعظيم وأوفق للوجود ، فإن اسم الله تعالى مقدم على القراءة ،
كيف وقد جعل آله لها من حيث إبت الفعل لا يعتد به شرعاً ما لم
يصدر باسمه تعالى .

وأما ظهور فعل القراءة في قوله « اقرأ باسم ربك » فلأن الأهم شيء
القراءة ، ولذا قدم الفعل فيها على متعلقه ، بخلاف البسملة فإن الأهم فيها
الابتداء ، قاله البيضاوي . وهذا القول أحسن الأقوال ، وأظنه اختيار شيخ
الاسلام ، وقد ألم به ابن كثير إلا أنه جعل المحذوف مقدراً قبل البسملة .

وذكر ابن القيم لحذف العامل في بسم الله فوائد عديدة ، منها ...
أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله تعالى ، فلو ذكرت
الفعل وهو لا يستغني عن فاعله ، كان ذلك مناقضاً للمقصود ، فكان في
حذفه مشاكلة اللفظ للمعنى ليكون المبدوء به اسم الله ، كما تقول في
الصلاة : الله أكبر ، ومعناه : من كل شيء ، ولكن لا تقول هذا القدر
ليكون اللفظ مطابقاً لمقصود الجنان ، وهو أن لا يكون في القلب إلا
ذكر الله وحده ، فكما تجرد ذكره في قلب المصلي تجرد ذكره في لسانه .
ومنها : أن الفعل إذا حذف صح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول
وحركة ، وليس فعل أولى بها من فعل ، فكان الحذف أعم من الذكر ،
فأي فعل ذكرته كان المحذوف أعم منه .

(الله) : علم على الرب تبارك وتعالى . ذكر سيدييه أنه أعرف
المعارف . ويقال : إنه الاسم الأعظم ، لأنه يوصف بجميع الصفات ، كما
قال تعالى : (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن
الرحيم . هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن
العزیز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ
المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز
الحكيم) [الحشر : ٢٣ - ٢٥] فأجري الأسماء الباقية كلها صفات له .

واختلفوا هل هو اسم جامد أو مشتق ؟ على قولين أصحها أنه مشتق .
قال ابن جرير : فإنه على ما روي لنا عن ابن عباس قال : الله
ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين .

وذكر سيدييه عن الخليل أن أصله إله مثل فعال ، فأدخلت الألف
واللام بدلاً من الهزة . قال سيدييه : مثل الناس أصله أناس . وقال .

الكسائي والفراء : أصله الإله ، حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأول في الثانية ، وعلى هذا فالصحيح أنه مشتق من إله الرجل : إذا تعبد ، كما قرأ ابن عباس : (ويذكرك وإلهتك) أي عبادتك وأصله الإله ، أي المعبود ، فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة فالتقت اللام التي هي عينها مع اللام التي للتعريف ، فأدغمت إحداهما في الأخرى ، فصارتا في اللفظ لهما واحدة مشددة وفخمت تعظيما ، فقيل : الله .

قال ابن القيم : القول الصحيح أن الله أصله : الإله كما هو قول سيدييه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم ، وإن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى . قال : وزعم السهيلي وشيخه أبو بكر ابن العربي أن اسم الله غير مشتق ، لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها ، واسمه تعالى قديم ، والقديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق ، ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل ، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ، ولا ألم بقلوبهم ، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى ، كالعليم ، والقدير ، والغفور ، والرحيم ، والسميع ، والبصير . فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب ، وهي قديمة ، والقديم لا مادة له ، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله تعالى ثم الجواب عن الجميع أنا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى ، لا أنها متولدة منه تولد الفرع من أصله . وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلاً وفرعاً ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر ، وإنما

هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة . وذكر ابن القيم لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية ثم قال : وأما خصائصه المعنوية فقد قال فيها أعلم الخلق به ﷺ « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وكيف تحصى خصائص اسم مسماه كل كمال على الإطلاق وكل مدح وكل حمد وكل ثناء وكل مجد وكل جلال وكل إكرام وكل عز وكل جمال وكل خير وإحسان وجود وبر وفضل فله ومنه ، فما ذكر هذا الاسم في قليل إلا كثره ، ولا عند خوف إلا أزاله ، ولا عند كرب إلا كشفه ، ولا عند هم وغم إلا فرّجه ، ولا عند ضيق إلا وسعه ، ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة ، ولا ذليل إلا أقاله العز ، ولا فقير إلا أصاره غنياً ، ولا مستوحش إلا آانسه ، ولا مغلوب إلا أيده ونصره ، ولا مضطر إلا كشف ضره ، ولا شريد إلا آواه . فهو الاسم الذي تكشف به الكربات ، وتستنزل به البركات والدعوات ، وتقال به العثرات ، وتستدفع به السيئات ، وتستجلب به الحسنات ، وهو الاسم الذي به قامت السموات والأرض ، وبه انزلت الكتب ، وبه أرسلت الرسل ، وبه شرعت الشرائع ، وبه قامت الحدود ، وبه شرع الجهاد ، وبه انقسمت الخليقة إلى السعداء والأستقياء ، وبه حقت الحاقة ، ووقعت الواقعة ، وبه وضعت الموازين القسط ، ونصب الصراط ، وقام سوق الجنة والنار ، وبه عبد رب العالمين وحده ، وبجقه بعثت الرسل ، وعنه السؤال في القبر ويوم البعث والنشور وبه الحصام ، وإليه المحاكمة ، وفيه الموالاة والمعاداة ، وبه سعد من عرفه وقام بحقه ، وبه شقي من جهله وترك حقه ، فهو سر الخلق

والأمر وبه قاما وثبتا ، وإليه انتها ، فالخلق والأمر به وإليه ولأجله فما وجد خلق ولا أمر ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتدئاً منه ، منتهاً إليه ، وذلك موجبه ومقتضاه ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فكنا عذاب النار إلى آخر كلامه رضي الله عنه .

(الرحمن الرحيم) قال ابن كثير : اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ورحمن أشد مبالغة من رحيم . قال ابن عباس : وهما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر ، أي أوسع رحمة . وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يسأل يغضب .

قلت : كأن فيه إشارة إلى معنى كلام ابن عباس ، لأن رحمته تعالى تغلب غضبه ، وعلى هذا فالرحمن أوسع معنى من الرحيم كما يدل عليه زيادة البناء .

وقال أبو علي الفارسي : الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى ، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين . قال الله تعالى : (وكان بالمؤمنين رحيماً) [الأحزاب : ٤٤] ونحوه قال بعض السلف . ويشكل عليه قوله تعالى : (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) [البقرة : ١٤٤] وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث «رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها» فالصواب إن شاء الله تعالى ما قاله ابن القيم أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، فكان الأول للوصف والثاني للفعل ، فالأول دال على أن الرحمة صفته ، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته . وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى : (وكان بالمؤمنين رحيماً) (إنه بهم رؤوف رحيم) [التوبة : ١١٩] ولم يحىء قط رحمن بهم ، فعلم

أن رَحْمَن هو الموصوف بالرحمة ، ورحيم هو الراحم برحمته . والرحمن الرحيم نعتان لله تعالى . واعتوض بورود اسم الرحمن غير تابع لاسم قبله . قال تعالى : (الرحمن على العرش استوى) [طه : ٦] فهو علم فكيف ينعت به . والجواب ما قاله ابن القيم أن أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت فإنها دالة على صفات كماله ، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية ، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه تعالى لا ينافي اسميته ، فمن حيث هو صفة جرى تابعاً لاسم الله تعالى ، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع ، بل ورد الاسم العلم . ولما كان هذا الاسم مختصاً به سبحانه حسن بحيث مفرداً غير تابع كمجيء اسم الله ، وهذا لا ينافي دلالة على صفة الرحمة كاسم الله ، فإنه دال على صفة الألوهية فلم يجيء قط تابعاً لغيره بل متبوعاً ، وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها ، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة .

قلت : قوله عن اسم الله : « ولم يجيء قط تابعاً لغيره » بل لقد جاء في قوله تعالى : (إلى صراط العزيز الحميد . الله الذي له ما في السموات والأرض) [إبراهيم : ٢-٣] على قوادة الجر وجواب ذلك من كلامه المتقدم ، فيقال فيه ما قاله في اسم الرحمن .

الكتاب مصدر كتب يكتب كتاباً وكتابة وكتباً ومدار المادة على الجمع . ومنه تكتب بنو فلان : إذا اجتمعوا . والكتيبة لجماعة الحيل ، والكتابة بالقلم لاجتماع الكلمات والحروف ، وسمي الكتاب كتاباً لجمعه ما وضع له ، ذكره غير واحد . والتوحيد مصدر وحد يوحد توحيداً ، أي : جعله واحداً ، وسمي دين الاسلام توحيداً ، لأن مبناه على أن الله

واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له ، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له ،
واحد في إلهيته وعبادته لا ند له ، وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد
الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا به من عند الله ، وهي متلازمة ، كل نوع
منها لا ينفك عن الآخر ، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر ، فما ذاك
إلا أنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب . وإن شئت قلت : التوحيد
نوعان توحيد في المعرفة والاثبات ، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات ،
وتوحيد في الطلب والقصد وهو توحيد الإلهية والعبادة . ذكره شيخ
الاسلام وابن القيم وذكر معناه غيرهما .

(النوع الأول) توحيد الربوبية والملك ، وهو الإقرار بأن الله تعالى
رب كل شيء ومالكة وخالقه ورازقه ، وأنه المحيي المميت النافع الضار
المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار ، الذي له الأمر كله ، ويده الخير
كله ، القادر على ما يشاء ، ليس له في ذلك شريك ، ويدخل في ذلك الايمان
بالقدر ، وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الاسلام ، بل لا بد أن
يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الإلهية ، لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم
مقرون بهذا التوحيد لله وحده قال تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن
ملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر
الأمر فيقولون الله فقل أفلا تتقون) [يونس: ٣٢] وقال تعالى : (ولئن سألتهم
من خلقهم ليقولن الله) [الزخرف: ٨٨] وقال : (ولئن سألتهم من نزل من
السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) [العنكبوت: ٦٤]
وقال تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء
الأرض أله مع الله قليلا ما تذكرون) [النمل: ٦٣] فهم كانوا
يعلمون أن جميع ذلك لله وحده ولم يكونوا بذلك مسلمين ، بل قال

نعالي : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) [يوسف: ١٠٧] قال مجاهد في الآية : إيمانهم بالله قولهم : إن الله خلقنا وبرزقنا ويميتنا ، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . وعن ابن عباس وعطاء والضحاك نحو ذلك ، فتبين أن الكفار يعرفون الله ويعرفون ربوبيته ، وملكه وقهره ، وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصون له أنواعاً من العبادات كالطبخ والصدقة والذبيح والنذر والدعاء وقت الاضطراب ونحو ذلك . ويدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام ، فأنزل الله تعالى : (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) [آل عمران: ٦٨] وبعضهم يؤمن بالبعث والحساب ، وبعضهم يؤمن بالقدر .
كما قال زهير :

بؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
وقال عنترة :

يا عبل أين من النيسة مهرب إن كان ربي في السماء قضاها

ومثل هذا يوجد في أشعارهم ، فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمايتهم ، وسبي نسايتهم ، وإباحة أموالهم ، مع هذا الإقرار والمعرفة ، وما ذاك إلا لإشراكهم في توحيد العبادة الذي هو معنى لا إله إلا الله .

(النوع الثاني) : توحيد الأسماء والصفات ، وهو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، له المشيئة النافذة ، والحكمة البالغة ، وأنه سميع بصير ، رؤوف رحيم ، على العرش استوى ، وعلى الملك احتوى ، وأنه الملك

القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحانه الله عما يشركون ، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى ، والصفات العلى .

وهذا أيضاً لا يكفي في حصول الإسلام ، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه ، من توحيد الربوبية والإلهية . والكفار يقرون بجنس هذا النوع ، وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك ، إما جهلاً ، وإما عناداً ، كما قالوا : لا نعرف الرحمن إلا الرحمن اليمامة ، فأنزل الله فيهم : (وهم يكفرون بالرحمن) [الرعد: ٣٣] .

قال الحافظ ابن كثير : والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنّت في كفرهم ، فانه قد وجد في بعض أشعار الجاهلية تسمية الله بالرحمن .

قال الشاعر : وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق .

وقال الآخر : ألا قضب الرحمن ربي يمينها .

وهما جاهليان .

وقال زهير :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومها يكتم الله يعلم

قلت : ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد إلا في اسم الرحمن خاصة ، ولو كانوا ينكرونه لردوا على النبي ﷺ ذلك ، كما ردوا عليه توحيد الالهية .

فقالوا : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا شيء عجاب) [ص: ٦٩] لا سيما السور المكية مملوءة بهذا التوحيد .

(النوع الثالث) : توحيد الإلهية المبني على إخلاص التأله لله تعالى ، من المحبة والخوف ، والرجاء والتوكل ، والرغبة والرهبة ، والدعاء لله وحده . وينبني على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له ، لا يجعل فيها شيئاً لغيره ، لا لملك مقرب ، ولا لنبي مرسل ، فضلاً عن غيرهما . وهذا التوحيد هو الذي تضمنه قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) وقوله تعالى : (فاعبدوه وتوكلوا عليه وما ربك بغافل عما تعملون) [هود: ١٢٤] وقوله تعالى : (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) [التوبة: ٢٣١] وقوله تعالى : (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً) [مريم: ٦٦] وقوله تعالى : (عليه توكلت وإليه أنيب) [هود: ٨٩] وقوله تعالى : (وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً) [الفرقان: ٥٩] وقوله : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) . [الحجر: ١٠٠]

وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره ، وباطنه وظاهره ، وهو أول دعوة الرسل وآخرها ، وهو معنى قول : لا إله إلا الله . فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة ، والخشية ، والإجلال ، والتعظيم ، وجميع أنواع العبادة ، ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة ، وأرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار ، وسعداء أهل الجنة وأسقياء أهل النار . قال الله تعالى : (يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) [البقرة: ٢٢] فهذا أول أمر في القرآن . وقال تعالى : (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله

غيره) [المؤمنون : ٢٤] فهذا دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك .
وقال هود لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) [الأعراف : ٦٥]
وقال صالح لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) [هود : ٦٢] وقال
شعيب لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) [الأعراف : ٨٥]
وقال إبراهيم عليه السلام لقومه : (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات
والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) [الأنعام : ٨٠] وقال تعالى :
(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)
[الأنبياء : ٢٦] وقال تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا
أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) [الزخرف : ٤٦] وقال تعالى :
(وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) [الذاريات : ٥٧] وقال
هوقل لأبي سفيان لما سأله عن النبي ﷺ ما يقول لكم ؟ قال : يقول :
اعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آبائكم . وقال
النبي ﷺ لمعاذ : « إنك تأتي قوما أهل كتاب ما ينجون أول من دعاهم إليه
شهادة أن لا إله إلا الله » . وفي رواية : « أن يوحّدوا الله » وهذا التوحيد
هو أول واجب على المكلف ، لا النظر ولا القصد الى النظر ولا الشك
في الله ، كما هي أقوال لمن لم يدر ما بعث الله به رسول الله ﷺ من معاني
الكتاب والحكمة ، فهو أول واجب وآخر واجب ، وأول ما يدخل به
الاسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا ، كما قال ﷺ « من كان آخر كلامه
لا إله إلا الله دخل الجنة » حديث صحيح . وقال : « أمرت أن أقاتل
الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » متفق عليه .
وقد أفصح القرآن عن هذا النوع من الإفصاح وأبدأ به وأعيد ، وحرب
لذلك الأسماء ، بحيث إن سورة الفرقان في القرآن دليلاً على هذا

التوحيد ، ويسمى هذا النوع توحيد الإلهية ، لأنه مبني على إخلاص التاله ،
وهو أشد المحبة لله وحده ، وذلك يستلزم إخلاص العبادة ، وتوحيد العبادة
لذلك ، وتوحيد الارادة ، لأنه مبني على إرادة وجه الله بالأعمال ، وتوحيد
القصد ، لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده .
وتوحيد العمل ، لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده . قال الله تعالى :
(فاعبد الله مخلصاً له الدين) [الزمر : ٣] وقال : (قل إني أمرت أن أعبد
الله مخلصاً له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين) [الزمر : ١٢-١٣]
(قل الله اعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه) إلى قوله : (ضرب
الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله
بل أكثرهم لا يعلمون) إلى قوله : (قل أفرايتم ماتدعون من دون الله إن
أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات
رحمته) الآية إلى قوله : (اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا
لا يملكون شيئاً ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعاً) . الآية إلى قوله :
(وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون)
إلى قوله (قل أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون . ولقد أوحى إليك
وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين .
بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) [الزمر : ١٥-٧٦] إلى آخر السورة .
فكل هذه السور في الدعاء إلى هذا التوحيد ، والأمر به ، والجواب
عن الشبهات والمعارضات ، وذكر ما أعد الله لأهله من النعيم المقيم ،
وما أعد لمن خالفه من العذاب الأليم . وكل سورة في القرآن بل كل آية
في القرآن ، فهي داعية إلى هذا التوحيد ، شاهدة به ، متضمنة له ، لأن

القرآن إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهو توحيد الربوبية ، وتوحيد الصفات فذاك مستلزم لهذا ، متضمن له .

ولما دعاء إلى عبادته وحده لا شريك له ، وخلع ما يعبد من دونه أو أمر بأنواع من العبادات ، ونهي عن المخالفات ، فهذا هو توحيد الإلهية والعبادة ، وهو مستلزم للنوعين الأولين ، متضمن لهما أيضاً .

ولما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وطاعته ، وما فعل بهم في الدنيا ، وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده .

ولما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال ، وما يحل بهم في العقبى من الربال ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه ، كما قال النبي ﷺ « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » رواه البخاري ومسلم ، فأخبر أن دين الإسلام مبني على هذه الأركان الخمسة وهي الأعمال ، فدل على أن الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له ، بفعل المأمور ، وترك المحظور ، والإخلاص في ذلك لله .

وقد تضمن ذلك جميع أنواع العبادة ، فيجب إخلاصها لله تعالى ، فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في شيء فليس بمسلم .

فنها : الهبة ، فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في الهبة التي لا تصلح إلا لله ، فهو مشرك .

كما قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) إلى قوله تعالى : (وما هم بخارجين من النار) [البقرة : ١٦٦-١٦٨]
ومنها : التوكل ، فلا يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله .
قال الله تعالى : (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) [المائدة : ٢٧]
(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) [المجادلة : ١١] والتوكل على غير الله فيما يقدر عليه شرك أصغر .

ومنها : الخوف ، فلا يخاف خوف السر إلا من الله . ومعنى خوف السر ، هو أن يخاف العبد من غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته وإن لم يباشره ، فهذا شرك أكبر ، لأنه اعتقاد للنفع والضرر في غير الله . قال الله تعالى : (فأياي فارهبون) [النحل : ٥٢] وقال تعالى : (فلا تخشوا الناس واخشون) [المائدة : ٤٨] وقال تعالى : (وإن يبسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) [يونس : ١٠٨] .

ومنها : الرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله كمن يدعو الأموات أو غيرهم راجياً حصول مطلوبه من جهنم فهذا شرك أكبر . قال الله تعالى : (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) [البقرة : ٢١٩] وقال علي رضي الله عنه : لا يرجون عبد إلا ربه .

ومنها : الصلاة والركوع والسجود . قال الله تعالى : (فصل لربك وانحر)

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا

ربكم) [الحج : ٧٨] .

ومنها : الدعاء فيما لا يقدر عليه إلا الله ، سواء كان طلباً للشفاة

أو غيرها من المآل .

قال الله تعالى : (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قضاء
إف تدعهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة
يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير : فاطر : ١٤-١٥) .

وقال تعالى : (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، إف الذين
يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) (غافر : ٦١)

وقال تعالى : (ولا تدع من دون ما لا ينفعك ولا يضرك فإن
فعلت فإفك إفا من الظالمين) (يونس : ١٠٧)

وقال تعالى : (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا
لا يملكون شيئاً ولا يعقلون قل الله الشفاعة جميعاً) (الزمر : ٤٤) .

ومنها : الذبح ، قال الله تعالى : (قل إف صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي
لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) (الأنعام :
١٦٣-١٦٤) ، والنسك : الذبح .

ومنها : النذر ، قال الله تعالى : (وليودوا نذورهم) (الحج : ٣٠)
وقال تعالى : (يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) (الإنسان : ٨) .
ومنها : الطواف ، فلا يطاف إلا ببيت الله . قال الله تعالى :
وليطوفوا بالبيت العتيق) (الحج : ٣٠) .

ومنها : التوبة ، فلا يتاب إلا لله . قال الله تعالى : (ومن يغفر
الذنوب إلا الله) (آل عمران : ١٣٦) . وقال تعالى : (وتوبوا إلى الله
جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) (النور : ٣٢) .

ومنها : الاستعاذة فيما لا يقدر عليه إلا الله . قال الله تعالى :
(قل أعوذ برب الفلق) . وقال تعالى : (قل أعوذ برب الناس) .

ومنها : الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله . قال الله تعالى :
(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) [الأنفال : ١٠] .

فمن أشرك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص بالخالق تعالى من هذه
العبادات أو غيرها ، فهو مشرك . وإنما ذكرنا هذه العبادات خاصة ، لأن
عباد القبور صرفوها للأسموات من دون الله تعالى ، أو أشركوا بين الله
تعالى وبينهم فيها ، وإلا فكل نوع من أنواع العبادة ، من صرفه لغير الله ،
أو شرك بين الله تعالى وبين غيره فيه ، فهو مشرك . قال الله تعالى :
(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) [النساء : ٣٦]

وهذا الشرك في العبادة هو الذي كفر الله به المشركين ، وأباح به
دماءهم وأموالهم ونساءهم ، وإلا فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق
المدير ليس له شريك في ملكه ، وإنما كانوا يشركون به في هذه العبادات
ونحوها ، وكانوا يقولون في تلييتهم :

ليك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك

ملكه وما ملك

فأنهم النبي ﷺ بالتوحيد الذي هو معنى لا إله إلا الله الذي مضمونه
أن لا يعبد إلا الله ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، فضلاً عن غيرها
فقالوا : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا شيء عجاب) [ص : ٦] .
وكانوا يجعلون من الحوث والأنعام نصيباً لله وللآلهة مثل ذلك ، فإذا
صار شيء من الذي لله إلى الذي للآلهة تركوه لها ، وقالوا : الله غني ،
وإذا صار شيء من الذي للآلهة إلى الذي لله تعالى ردوه ، وقالوا : الله
غني ، والآلهة فقيرة .

فأنزل الله تعالى : (وجعلوا لله ما ذرأ من الحوث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) [الأنعام : ١٣٧] .
وهذا بعينه يفعلُه عباد القبور ، بل يزيدون على ذلك فيجعلون للأموال نصيباً من الأولاد .

إذا تبين هذا فاعلم أن الشرك ينقسم ثلاثة أقسام بالنسبة إلى أنواع التوحيد ، وكل منها قد يكون أكبر وأصغر مطلقاً ، وقد يكون أكبر بالنسبة إلى ما هو أصغر منه ، ويكون أصغر بالنسبة إلى ما هو أكبر منه .
القسم الأول : الشرك في الربوبية ، وهو نوعان : أحدهما : شرك التعطيل ، وهو أقبح أنواع الشرك ، كشرك فرعون . إذ قال : وما رب العالمين ؟ ومن هذا شرك الفلاسفة القائلين بقدوم العالم وأبديته ، وأنه لم يكن معدوماً أصلاً ، بل لم يزل ولا يزال ، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائل اقتضت إيجادها ، يسمونها : العقول ، والنفوس .
ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود ، كابن عربي ، وابن سبعين ، والعلفيل التلمساني ، وابن الفارض ، ونحوهم من الملاحدة الذين كسوا الإلحاد حلية الاسلام ، ومزجوه بشيء من الحق ، حتى راج أمورهم على خفافيش البصائر .

ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب وأوصافه ، من غلاة الجهمية ، والقرامطة .

النوع الثاني : شرك من جعل معه إلهاً آخر ولم يعطل أسمائه وصفاته

ودبوبيته ، كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة ، وشرك الجوس القائلين
باسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة .

ومن هذا شرك كثير من يشرك بالكواكب العلويات ، ويجعلها مدبرة
لأمر هذا العالم ، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم .

قلت . ويلتحق به من وجه شرك غلاة عباد القبور الذين يزعمون أن
أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت ، فيقضون الحاجات ، ويفرجون الكربات ،
وينصرون من دعاهم ، ويحفظون من التجأ اليهم ، ولأذبحهم ، فإن هذه من
خصائص الربوبية ، كما ذكره بعضهم في هذا النوع .

**القسم الثاني : الشرك في توحيد الأسماء والصفات ، وهو أسهل مما قبله ،
وهو نوعان :**

**أحدهما : تشبيه الخالق بالخلق ، كمن يقول : يد كيدي ، ومجمع
كسمعي ، وبصر كبصري ، واستواء كاستوائي ، وهو شرك المشبهة .**

الثاني : اشتقاق أسماء للآلهة الباطلة من أسماء الاله الحق . قال الله تعالى :
(والله الأسماء الحسنی فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون
ما كانوا يعملون) [الأعراف : ١٨٠] .

قال ابن عباس : يلحدون في أسمائه : يشركون ، وعنه : سموا اللات
من الإله ، والعزى من العزيز .

**القسم الثالث : الشرك في توحيد الالهية والعبادة . قال القرطبي : أصل
الشرك المحرم اعتقاد شريك لله تعالى في الالهية ، وهو الشرك الأعظم ، وهو
شرك الجاهلية ، ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل ، وهو**

قول من قال : إن موجوداً ماغير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده وإن لم يعتقد كونه الها ، هذا كلام القرطبي .

وهو نوعان :

أحدهما : أن يجعل لله ندأ يدعو كما يدعو الله ، ويسأله الشفاعة كما يسأل الله ، ويرجوه كما يرجو الله ، ويحبه كما يحب الله ، ويخشاه كما يخشى الله . وبالمجمل فهو أن يجعل لله ندأ يعبد كما يعبد الله ، وهذا هو الشرك الأكبر ، وهو الذي قال الله فيه : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) [النساء : ٣٦] وقال : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) [النحل : ٣٧] . وقال تعالى : (ويعبدون من دونه الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) [يونس : ١٩]

وقال تعالى : (الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تذكرون) [السجدة : ٥] . والآيات في النهي عن هذا الشرك وبيان بطلانه كثيرة جداً .

الثاني : الشرك الأصغر ، كيسيء الرياء والتصنع للمخلوق ، وعدم الاخلاص لله تعالى في العبادة ، بل يعمل لحظ نفسه تارة ، ولطلب الدنيا تارة ، ولطلب المنزلة والجاه عند الخلق تارة ، فله من عمله نصيب ، ولغيره منه نصيب ، ويتبع هذا النوع الشرك بالله في الألفاظ ، كالحلف بغير الله وقول : ما شاء الله وشئت ، ومالي الا الله وأنت ، وأنا في حسب الله وحسبك ، ونحوه . وقد يكون ذلك شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده . هذا حاصل كلام ابن القيم وغيره .

وقد استوفى المصنف رحمه الله بيان جنس العبادة التي يجب اخلاصها لله بالتبني على بعض أنواعها ، وبيان ما يضادها من الشرك بالله تعالى في العبادات والارادات والألفاظ ، كما سيمر بك ان شاء الله تعالى مفصلاً في هذا الكتاب ، فالحمد لله تعالى برحمه وبرحمته عنه .

فان قلت : هلا أتى المصنف رحمه الله بخطبة تنبئ عن مقصده ، كما صنع غيره ؟

قيل : كأنه - والله أعلم - اكتفى بدلالة الترجمة الأولى على مقصوده ، فانه صدره بقوله : (كتاب التوحيد) والآيات التي ذكرها وما يتبعها ، مما يدل على مقصوده ، فكأنه قال : قصدت جمع أنواع توحيد الإلهية التي وقع أكثر الناس في الإشراك فيها وهم لا يشعرون ، وبيان شيء مما يضاد ذلك من أنواع الشرك ، فاكتمى بالتلويح عن التصريح . والألف واللام في التوحيد للعهد الذهني .

قوله : وقول الله تعالى : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) [الذاريات : ٥٧] .

يجوز في قول الله ، الرفع والجبر ، وهكذا حكم ماير بك من هذا الباب .

قال شيخ الاسلام : العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على السنة الرسل .

وقال ايضاً : العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأقوال ، والاعمال الباطنة والظاهرة .

قال ابن القيم : ومدارها على خمس عشرة قاعدة ، من كملها كمل

مراتب العبودية ، وبيان ذلك أن العبادة تنقسم على القلب ، واللسان ، والجوارح . والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ، ومستحب ، وحرام ، ومكروه ، ومباح . وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح . وقال القرطبي : أصل العبادة : التذلل والخضوع ، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات ، لأنهم يلتزمون بها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى . وقال ابن كثير : العبادة في اللغة من الذلة ، يقال : طريق معبد وغير معبد ، أي : مذلل . وفي الشرع : عبادة مما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف ، وهكذا ذكر غيرهم من العلماء .

ومعنى الآية : أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الإنس والجن إلا لعبادته ، فهذا هو الحكمة في خلقهم ، ولم يرد منهم ما تريده السادة من عبيدها من الإعانة لهم بالرزق والإطعام ، بل هو الرازق ذو القوة المتين ، الذي يطعم ولا يطعم ، كما قال تعالى : (قل أغير الله أنخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أموت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين) [الأنعام : ١٥] .

وعبادته هي طاعته بفعل الأمور ، وترك المخطور ، وذلك هو حقيقة دين الإسلام ، لأن معنى الإسلام هو الاستسلام لله المتضمن غاية الانقياد ، في غاية الذل والخضوع . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، في الآية : إلا لأمرهم أن يعبدوني ، وأدعوم إلى عبادتي . وقال مجاهد : إلا لأمرهم وأنهم ، واختاره الزجاج وشيخ الإسلام . قال : ويدل على هذا قوله : (أوجب الإنسان أن يترك سدى) [القيامة ٣٧] قال الشافعي : لا يؤمر ولا ينهى .

وقوله : (قل ما يعبأ بكم وبي لولا دعاؤكم) [الفرقان : ٧٨] أي لولا عبادتكم إياه .

وقد قال في القرآن في غير موضع : (اعبدوا ربكم) (اتقوا ربكم) فقد أمرهم بما خلقوا له ، وأرسل الرسل إلى الجن والانس بذلك ، وهذا المعنى هو الذي قصد بالآية قطعاً ، وهو الذي يفهمه جماهير المسلمين ، ويحتجون بالآية عليه ، ويقولون أن الله إنما خلقهم ليعبدوه العبادة الشرعية وهي طاعته وطاعة رسله لا ليضيعوا حقه الذي خلقهم له . قال : وهذه الآية تشبه قوله تعالى : (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم) [البقرة : ١٨٦] وقوله : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بأذن الله) [النساء : ٦٥] ثم قد يطاع وقد يعصى . وكذلك ما خلقهم إلا للعبادة ، ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون . وهو سبحانه لم يقل : إنه فعل الأول وهو خلقهم ليفعل بهم كلمهم الثاني وهو عبادته ، ولكن ذكر الأول ليفعلوا هم الثاني فيكونوا هم الفاعلين له ، فيحصل لهم بفعله سعادتهم ، ويحصل ما يحبه ويرضاه منهم ولهم . انتهى .

والآية دالة على وجوب اختصاص الخالق تعالى بالعبادة ، لأنه سبحانه هو ابتداءك بخلقك والإنعام عليك بقدرته ومشيئته ورحمته من غير سبب منك أصلاً ، وما فعله بك لا يقدر عليه غيره ، ثم إذا احتجت إليه في جلب رزق أو دفع ضرر فهو الذي يأتي بالرزق لا يأتي به غيره ، وهو الذي يدفع الضرر لا يدفعه غيره .

كما قال تعالى : (أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور . أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل

لجوا في عتو ونفور) [الملك : ٢٠ - ٢١] .

وهو سبحانه ينعم عليك ، ويحسن اليك بنفسه ، فإن ذلك موجب ما تسمى به ، ووصف به نفسه ، إذ هو الرحمن الرحيم ، الودود المجيد ، وهو قادر بنفسه ، وقدرته من لوازم ذاته ، وكذلك رحمته وعلمه وحكمته ، لا يحتاج إلى خلقه بوجه من الوجوه ، بل هو الغني عن العالمين (فمن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم) [النمل : ٤٠] فالرب سبحانه غني بنفسه ، وما يستحقه من صفات الكمال ثابت له بنفسه ، واجب له من لوازم ذاته ، لا يفتقر في شيء من ذلك إلى غيره ، ففعله وإحسانه وجوده من كماله ، لا يفعل شيئاً بحاجة إلى غيره بوجه من الوجوه ، بل كل ما يريد فعله فإنه فعال لما يريد . وهو سبحانه بالغ أمره ، فكل ما يطلبه فهو يبلغه ويناله ويصل إليه وحده ولا يعينه أحد ، ولا يعوقه أحد ، لا يحتاج في شيء من أموره إلى معين ، وماله من المخلوقين من ظهير ، وليس له ولي من الدل ، قاله شيخ الإسلام .

قال : وقوله (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) [النمل : ٢٦] .

قالو : الطاغوت مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد . وقد فسرهُ السلف ببعض أفرادهِ . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الطاغوت : الشيطان . وقال جابر رضي الله عنه : الطواغيت : كهان كانت تنزل عليهم الشياطين . رواهما ابن أبي حاتم . وقال مجاهد : الطاغوت : الشيطان في

صورة الإنسان ، يتعاطفون إليه وهو صاحب أمرهم . وقال مالك : الطاغوت : كل ما عبد من دون الله .

قلت : وهو صحيح ، لكن لا بد فيه من استثناء من لا يرضى بعبادته .

وقال ابن القيم : الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع . فطاغوت كل قوم من يتعاطفون إلى غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله . فهذه طواغيت العالم ، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ، وعن طاعته ومتابعة رسوله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته .

وأما معنى الآية ، فأخبر تعالى أنه بعث في كل أمة ، أي : في كل طائفة وقرن من الناس رسولاً بهذه الكلمة : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت . أي : اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه ، فلماذا خلقت الخليفة ، وأرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) [الأنبياء : ٢٥] وقال تعالى : (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعوا وإليه مآب) [الرعد : ٣٦] وهذه الآية هي معنى : لا إله إلا الله ، فإنها تضمنت النفي والاثبات كما تضمنته لا إله إلا الله ، ففي قوله : (اعبدوا الله) الاثبات ، وفي قوله : (اجتنبوا الطاغوت) النفي . فدللت الآية على أنه لا بد في الاسلام من النفي والاثبات ، فيثبت العبادة لله وحده ، وينفي عبادة ما سواه وهو التوحيد الذي تضمنته سورة (قل يا أيها الكافرون) [الكافرون : ١] وهو معنى قوله : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله

فقد استمسك بالعبادة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ([البقرة : ٢٥٦] .

قال ابن القيم : وطريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالاثبات ، فينفي عبادة ما سوى الله ، ويثبت عبادته ، وهذا هو حقيقة التوحيد ، والنفي المحض ليس بتوحيد ، وكذلك الاثبات بدون النفي ، فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والاثبات ، وهذا حقيقة لا إله إلا الله . انتهى .

ويدخل في الكفر بالطاغوت بغضه وكراهته ، وعدم الرضى بعبادته بوجه من الوجوه .

ودلت الآية على أن الحكمة في إرسال الرسل هو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه ، وإن أصل دين الأنبياء واحد وهو الإخلاص في العبادة لله ، وإن اختلفت شرائعهم ، كما قال تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) [المائدة : ٤٨] وأنه لا بد في الأيمان من العمل رداً على المرجئة .

قال : قوله (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) [الاسراء : ٢٣] هكذا ثبت في بعض الأصول ، لم يذكر الآية بكاملها . قال مجاهد : وقضى يعني : وصى ، وكذلك قرأ أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم .

وروى ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : (وقضى ربك) يعني أمر . وقوله : (ألا تعبدوا إلا إياه) « أن » : هي المصدرية وهي في محل جر بالياء ، والمعنى : أن تعبدوه ولا تعبدوا غيره من لا يملك خيراً ولا نفعاً ،

وعن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رضى الرب في رضى الوالدين ، وسخطه في سخط الوالدين » رواه الترمذي ، وصححه ابن حبان والحاكم .

وعن أبي أسيد الساعدي ، قال : بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ اذ جاء رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله هل بقي من بر أبي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ فقال : نعم « الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقيهما » رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في « صحيحه » .

والأحاديث في هذا كثيرة قد أفردوا العلماء بالتصنيف وذكر البخاري منها شطراً صالحاً في كتاب « الأدب المفرد » . .

قال : وقوله : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) [الأنعام : ١٥٢ ، ١٥٤] .

قال ابن كثير : يقول الله تعالى لبيه ورسوله محمد ﷺ : قل يا محمد هؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرّموا ما رزقهم الله ، وقتلوا

أولادهم وكل ذلك فعلوه بآرائهم الفاسدة ، وتسويل الشيطان لهم (تعالوا)
أي : هلموا واقبلوا (أتل ما حرم ربكم عليكم) أي : أقصص عليكم ،
وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً ، لا تخوضوا ولا ظناً ، بل وحي منه وأمر
من عنده (ألا تشركوا به شيئاً) قال : وكان في الكلام محذوفاً دل عليه
السياق ، وتقديره : وصاكم أن لا تشركوا به شيئاً ، ولهذا قال في
آخر الآية (ذلكم وصاكم به) .

قلت : ابتداء تعالى هذه الآيات المحكمات بتحريم الشرك والنهي عنه ،
فحرم علينا أن نشرك به شيئاً فشمّل ذلك كل مشرك به ، وكل مشرك
فيه من أنواع العبادة ، فإن « شيئاً » من النكرات فيعم جميع الأشياء ،
وما أباح تعالى لعباده أن يشركوا به شيئاً فإن ذلك أظلم الظلم وأقبح
القيس ، ولفظ « الشرك » يدل على أن المشركين كانوا يعبدون الله ، ولكن
يشركون به غيره من الأوثان والصالحين والأصنام فكانت الدعوة واقعة على
ترك عبادة ما سوى الله ، وإفراد الله بالعبادة . وكانت « لا إله إلا الله »
متضمنة لهذا المعنى ، فدعاهم النبي ﷺ إلى الإقرار بها نطقاً وعملاً واعتقاداً ،
ولهذا إذا سئلوا عما يقول لهم ، قالوا : يقول : اعبدوا الله ولا تشركوا به
شيئاً واتركوا ما يقول آبائكم كما قاله أبو سفيان .

وقوله (وبالوالدين إحساناً) قال القرطبي : الإحسان إلى الوالدين برهما
وحفظهما وصيانتهم ، وامتنال أمرهما ، وإزالة الرق عنهما ، وترك السلطنة
عليهما و (إحساناً) نصب على المصدرية ، وناصبه فعل مضمّر من لفظه : تقديره :
وأحسنوا بالوالدين إحساناً .

وقوله : (ولا تقتلوا أولادكم من إِملاق نحن نوزقكم وإِيام)

[الأنعام : ١٥١] الاملاق الفقر، أي : لا تئدوا بناتكم خشية العيلة والفقر،
فإني رازقكم وإياهم ، وكان منهم من يفعل ذلك بالاناث والذكور خشية
الفقر ذكره القرطبي .

وفي « الصحيحين » عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله أي الذنب
أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . قلت : ثم أي؟
قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » ، قلت : ثم أي قال : أن
تأتي حليلة جارك » ثم تلا رسول الله ﷺ : (والذين لا يدعون مع الله
إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل
لك يلقى أثاماً) [الفرقان : ٦٨] .

(ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) قال ابن عطية : نهي
نام عن جميع أنواع الفواحش ، وهي المعاصي ، و « ظهر وبطن » :
حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء . وفي التفسير المنسوب إلى
أبي علي الطبري من الحنفية ، وهو تفسير عظيم (ولا تقربوا الفواحش)
أي : القبانح . وعن ابن عباس ، والضحاك ، والسدي ، أن من الكفار
من كان لا يرى بالزنا بأساً إذا كان سراً ، وقيل : الظاهر ما بينك وبين
الخلق ، والباطن ما بينك وبين الله . انتهى .

وفي « الصحيحين » عن ابن مسعود مرفوعاً « لا أحد أغبر من الله ، من
أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .

(ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) قال ابن كثير :
هذا بما نص تعالى على النهي عنه تأكيذاً ، وإلا فهو داخل في النهي
عن الفواحش .

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود مرفوعاً « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى : ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

وعن ابن عمر مرفوعاً « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » رواه البخاري .

(ذلكم وصاكم به لعلكم تفلحون) .

قال ابن عطية : ذلكم إشارة الى هذه المحرمات ، والوصية الأمر المؤكد المقرر . وقوله : (لعلكم تفلحون) ترج بالاضافة اليها ، أي : من سمع هذه الوصية يرجى وقوع أثر العقل بعدها .

قلت : هذا غير صحيح ، والصواب أن «لعل» هنا للتعليل ، أي : أن الله وصانا بهذه الرصايا لنعقلها عنه ، ونعمل بها ، كما قال : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيبة) [البينة : هـ] وفي تفسير الطبري الحنفي : ذكر أولاً (تعقلون) ثم (تذكرون) ثم (تتقون) لأنهم إذا عقلوا تذكروا ، فإذا تذكروا خافوا واتقوا الممالك .

(ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده)

قال ابن عطية : هذا نهي عن القرب الذي يعم وجوه التصرف ، وفيه سد الذريعة ، ثم استثنى ما يحسن وهو التشمير والسعي في غائه . قال مجاهد : (التي هي أحسن) التجارة فيه ، فمن كان من الناظرين ، له مال يعيش به ، فالأحسن إذا غر مال اليتيم أن لا يأخذ منه نفقة ولا أجرة ولا غيرهما ، ومن كان من الناظرين لآمال له ، ولا يتفق له نظر إلا بأن ينفق على نفسه من ربيع نظره ، وإلا دعت الضرورة إلى

ترك مال اليتيم دون نظر ، فالأحسن أن ينظر ويأكل بالمعروف . قاله ابن زيد .

وقوله : (حتى يبلغ أشده) قال مالك وغيره : هو الرشد وزوال السفه مع البلوغ . قال ابن عطية : وهو أصح الأقوال وأليقها بهذا الموضع . قلت : وقد روي نحوه عن زيد بن أسلم ، والشعبي ، وربيعة ، وغيرهم ، ويدل عليه قوله تعالى : (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) [النساء : ٦] فاشتراط تعالى للدفع إليهم ثلاثة شروط :

الأول : ابتلاؤهم ، وهو اختبارهم وامتحانهم بما يظهر به معرفتهم لمصالح أنفسهم وتدبير أموالهم .

والثاني : البلوغ .

والثالث : الرشد .

(وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) قال ابن كثير : يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء ، كما توعده عليه في قوله : (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين) [المطففين : ١ ، ٧] وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان . وقال غيره : القسط : العدل . وقد روى الترمذي وغيره بإسناد ضعيف عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان : « إنكم ولتم أمراً هلك فيه الأمم السالفة قبلكم » وروي عن ابن عباس موقوفاً بإسناد صحيح .

(لا تكلف نفساً إلا وسعها) قال ابن كثير : أي : من اجتهد في أداء الحق وأخذه ، فإن أخطأ بعد استقراغ وسعه وبذل جهده ، فلا حرج عليه .

وقد روى ابن مردويه عن سعيد بن المسيب مرفوعاً : « أوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها » قال : من أوفى على يده في الكيل والميزان - والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيها -- لم يؤاخذ ، وذلك تأويل وسعها . قال : هذا مرسل غريب .

قلت : وفيه رد على القائلين بجواز تكليف ما لا يطاق .

(وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) هذا أمر بالعدل في القول والفعل على القريب والبعيد . قال الحنفي : العدل في القول في حق الولي والعدو ، لا يتغير بالرضى والغضب ، بل يكون على الحق والصدق ، وإن كان ذا قربى فلا يميل إلى الحبيب ، ولا إلى القريب (ولا يجز منكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) [المائدة : ٨] .

(وبعهد الله أوفوا) قال ابن جرير : يقول : وبوصية الله التي وصاكم بها فأوفوا وانقادوا لذلك ، بأن تطيعوه فيما أمر به ونهاكم عنه ، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله ، وذلك هو الوفاء بعهد الله ، وكذا قال غيره .

قلت : وهو حسن ، ولكن الظاهر أن الآية فيما هو أخص ، كالبيعة والذمة والأمان والنذر ونحو ذلك ، وهذه الآية كقوله : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) [النحل : ٩١] فهذا هو المقصود بالآية ، وإن كانت شاملة ، لما قالوا بطريق العموم .

(ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) يقول تعالى : هذا وصاكم وأمركم به وأكد عليكم فيه لعلكم تذكرون ، أي : تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه .

قوله : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

ش : قال القرطبي : هذه آية عظيمة عطفها الله على ما تقدم ، فإنه لما نهى وأمر ، حذر عن اتباع غير سبيله وأمر فيها باتباع طريقه على ما بينته الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف . « وأن » في موضع نصب ، أي : واتلوا أن هذا صراطي عن الفراء والكسائي . قال الفراء : ويجوز أن يكون خفضاً ، أي : وصاكم به ، وبأن هذا صراطي . قال والصراط : الطريق الذي هو دين الاسلام . « مستقيماً » نصب على الحال ، ومعناه : مستوياً قوياً لا اعوجاج فيه ، فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان محمد ﷺ وشرعه ، ونهايته الجنة ، وتشعبت منه طرق ، فمن سلك الجادة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار . قال الله تعالى : (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) [الأنعام : ١٥٤] أي : تميل . انتهى . وروى أحمد والنسائي ، والدارمي ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، عن ابن مسعود قال : خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ، ثم قال : « هذا سبيل الله مستقيماً » ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، ثم قال : « وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ، ثم قرأ : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

وَعَنْ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ مَرْفُوعاً قَالَ : « ضَرَبَ اللَّهُ مِثْلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصِّرَاطُ سَوْرَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مَفْتُوحَةٌ ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سَتُورٌ مَرْخَاةٌ ، وَعَلَى الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعاً وَلَا تَعْوِجُوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ ، قَالَ : لَا تَقْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَقْتَحْهُ تَلْجُهُ .
فَالصِّرَاطُ : الْإِسْلَامُ ، وَالسَّوْرَانِ : حُدُودُ اللَّهِ ، وَالْأَبْوَابُ الْمَفْتُوحَةُ : مَحَارِمُ اللَّهِ ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ : كِتَابُ اللَّهِ ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ : وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ ، رَوَاهُ أَحْمَدُ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ .

وَعَنْ عَجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : (وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ) [الْأَنْعَامُ : ١٥٤] قَالَ : الْبَدْعُ وَالشُّبُهَاتُ . رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ . وَهَذِهِ السَّبِيلُ تَعَمُّ الْيَهُودِيَّةَ ، وَالنَّصْرَانِيَّةَ ، وَالْمَجُوسِيَّةَ ، وَعِبَادَ الْقُبُورِ ، وَسَائِرَ أَهْلِ الْمَلَلِ وَالْأَوْثَانِ ، وَالْبَدْعُ وَالضَّلَالَاتُ مِنْ أَهْلِ الشُّذُوزِ وَالْأَهْوَاءِ ، وَالتَّعَمُّقُ فِي الْجَدَلِ ، وَالْخَوْضُ فِي الْكَلَامِ ، فَاتَّبَاعُ هَذِهِ مِنْ اتِّبَاعِ السَّبِيلِ الَّتِي تَذْهَبُ بِالْإِنْسَانِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَى مُوَافَقَةِ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » وَفِي رِوَايَةٍ « كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » حَدِيثٌ صَحِيحٌ .

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ قَبْلَ أَنْ يَقْبِضَ ، وَقَبِضْهُ ذَهَابَ أَهْلُهُ ، أَلَا وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ وَالتَّعَمُّقَ وَالبَدْعَ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ . رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ .
قُلْتُ : الْعَتِيقُ هُوَ الْقَدِيمُ ، يَعْنِي مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الْهُدَى ، دُونَ مَا حَدَّثَ بَعْدَهُمْ ، فَالْهَرَبُ مِنَ الْهَرَبِ ، وَالتَّجَاءُ مِنَ التَّجَاءِ ،

والتمسك بالطريق المستقيم والسنن القويم ، وهو الذي كان عليه السلف الصالح ، وفيه المتجر الرابع ، قاله القرطبي .

وقال سهل بن عبد الله : عليكم بالأثر والسنة ، فإني أخاف أنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبي ﷺ والافتداء به في جميع أحواله ذمومه ونفروا عنه وتبرؤوا منه ، وأذلوه وأهانوه .

قلت : رحم الله سهلاً ما أصدق فراسته ، فلقد كان ذلك وأعظم ، وهو أن يكفر الإنسان بتجريد التوحيد والمتابعة ، والأمر باخلاص العباد لله ، وترك عبادة ما سواه والأمر بطاعة رسول الله ﷺ ، وتحكيمه في الدقيق والجليل .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ولنذكر في الصراط المستقيم قولاً وجيزاً ، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم عنه ، وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته ، وحقيقته شيء واحد وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلاً لهم إليه ، ولا طريق إليه سواه ، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسن رسله ، وجعله موصلاً لعباده إليه وهو أفراد بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة ، فلا يشرك به أحد في عبوديته . ولا يشرك برسوله أحد في طاعته ، فيجود التوحيد ، ويجرد متابعة الرسول ﷺ ، وهذا معنى قول بعض العارفين : إن السعادة كلها والفلاح كله مجموع في شيتين : صدق محبة ، وحسن معاملة . وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فأني شيء فسر به الصراط المستقيم ، فهو داخل في هذين الأصلين . ونكتة ذلك أن تحبه بقلبك كله ، وترضيه بجهدك كله ، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه ، ولا يكون

لك إرادة إلا متعلقة بروضاته ، فالأول يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، والثاني يحصل بتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله ، وهذا هو الهدى ودين الحق ، وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو معرفة ما بعث الله به رسوله والقيام به ، فقل ما شئت من العبارات التي هذا آخيتُها وقطب رحاها .

قال : وقوله (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) [النساء : ٣٦] هكذا أثبت في نسخة بخط شيخنا ولم يذكر الآية . قال ابن كثير : يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له ، فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الحالات ، فهو المستحق منهم أن يوحده ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته .

قلت : هذا أول أمر في القرآن ، وهو الأمر بعبادته وحده لا شريك له ، والنهي عن الشرك ، كما في قوله : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) [البقرة : ٢١] وتأمل كيف أمر تعالى بعبادته ، أي : فعلها خالصة له ، ولم يخص بذلك نوعاً من أنواع العبادة ، لا دعاء ولا صلاة ولا غيرهما ، ليعم جميع أنواع العبادة ، ونهى عن الشرك به ، ولم يخص أيضاً نوعاً من أنواع العبادة بجواز الشرك فيه .

وفي هذه الآية واللواتي قبلها دليل على أن العبادة هي التوحيد ، لأن الخصومة فيه ، وإلا فكان المشركون يعبدون الله ويعبدون غيره ، فأمرؤا بالتوحيد ، وهو عبادة الله وحده ، وترك عبادة ما سواه ، وفيه دليل على أن التوحيد أول واجب على المكلف ، وهو الكفر بالطاغوت ،

والإيمان بالله المستلزم لعبادته وحده لا شريك له ، وأن من عبد غير الله بنوع من أنواع العبادة فقد أشرك ، سواء كان المعبود ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صنأ .

(قال ابن مسعود من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) إلى قوله : (وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

ابن مسعود هو عبد الله بن مسعود بن غافل بعجمه وفاء ابن حبيب الهذلي أبو عبد الرحمن ، صحابي جليل من السابقين الأولين وأهل بدر وبيعة الرضوان ، ومن كبار العلماء من الصحابة ، أمره عمر على الكوفة ، ومات سنة اثنتين وثلاثين . وهذا الأثر رواه الترمذي وحسنه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني بنحوه ، وروى أبو عبيد وعبد بن حميد عن الربيع بن خثيم نحوه . قال بعضهم ما معناه ، أي : من أراد أن ينظر إلى الوصية التي كانها كتبت وختم عليها ، ثم طويت فلم تغير ولم تبدل ، تشبهاً لها بالكتاب الذي كتب ثم ختم عليه فلم يزد فيه ولم ينقص ، لأن النبي ﷺ كتبها وختم عليها وأوصى بها ، فإن النبي ﷺ لم يوص إلا بكتاب الله ، كما قال فيما رواه مسلم : « وإني ترك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله » .

قلت : وقد روى عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « أياكم يباعدني على هؤلاء الآيات الثلاث ، ثم تلا (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) حتى فرغ من ثلاث آيات ، ثم قال : « من وفى بهن فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فادركه الله في الدنيا كانت عقوبته ،

ومن أخره الى الآخرة كان أمره الى الله ، إن شاء أخذه ، وإن شاء عفا عنه ، رواه ابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، فهذا يدل على أن النبي ﷺ يعتني بهن ، ويبالغ في الحث على العمل بهن .

(وعن معاذ بن جبل قال : كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي : يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً . فقلت : يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال : لا تبشروهم فيتكلوا » أخرجه في « الصحيحين » .)

هذا الحديث في « الصحيحين » وبعض رواياته نحو ما ذكر المصنف . ومعاذ هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الانصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن صحابي مشهور من أعيان الصحابة ، شهد بدرأ وما بعدها ، وكان إليه المنتهى في العلم بالأحكام والقرآن رضي الله عنه ، مات سنة ثمان عشرة بالشام .

قوله : كنت رديف النبي ﷺ ، فيه جواز الإرداف على الدابة وفضيلة لمعاذ من جهة ركوبه خلف النبي ﷺ .

قوله : « على حمار » في رواية اسمه غفير بعين مهملة مضمومة ثم فاء مفتوحة .

قال ابن الصلاح : وهو الحمار الذي كان له ﷺ . قيل : انه مات في حجة الوداع ، وفيه تواضعه ﷺ للإرداف ولركوب الحمار ، خلاف ما عليه أهل الكبر .

قوله : « أندري ما حق الله على العباد ، الداية هي المعرفة ، وأخرج السؤال بصيغة الاستفهام ، ليكون أوقع في النفس ، وأبلغ في فهم المتعلم ، فان الانسان اذا سئل عن مسألة لايعلمها ثم أخبر بها بعد الامتحان بالسؤال عنها ، فإن ذلك أوعى لفهمها وحفظها ، وهذا من حسن إرشاده وتعليمه ﷺ .

وحق الله على العباد ، هو ما يستحقه عليهم ويجعله متحسناً ، وحق العباد على الله معناه أنه متحقق لاحالة ، لأنه قد وعدهم ذلك جزاء لهم على توحيدهم ، ووعدده حق ، إن الله لا يخلف الميعاد .

وقال شيخ الإسلام : كون المطيع يستحق الجزاء ، هو استحقاق لإنعام وفضل ، ليس هو استحقاق مقابلة كما يستحق المخلوق على المخلوق ، فمن الناس من يقول : لا معنى للاستحقاق إلا أنه أخبر بذلك ، ووعدده صدق ، ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقاً زائداً على هذا كما دل عليه الكتاب والسنة . قال تعالى : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) [الروم : ٤٨] .

ولكن أهل السنة يقولون : هو الذي كتب على نفسه الرحمة ، وأوجب هذا الحق على نفسه لم يوجب عليه مخلوق ، والمعتزلة يدعون أنه واجب عليه بالقياس على الخلق ، وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له ، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب ، وغلطوا في ذلك ، وهذا الباب غلطت فيه القدرية والجبرية أتباع جهم والقدرية النافية .

قوله : فقلت : الله ورسوله أعلم . فيه حسن أدب المتعلم ، وأنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول ذلك بخلاف أكثر المتكلمين .

قوله : (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) أي: يحددوه بالعبادة وحده ولا يشركوا به شيئاً . وفائدة هذه الجملة بيان أن التجرد من الشرك لا بد منه في العبادة ، والا فلا يكون العبد آتياً بعبادة الله بل مشرك ، وهذا هو معنى قول المصنف : إن العبادة هي التوحيد ، لأن الحصرية فيه ، وفيه معرفة حق الله على العباد ، وهو عبادته وحده لا شريك له .

فيامن حق سيده الإقبال عليه ، والتوجه بقلبه إليه ، لقد صانك وشرفك عن إذلال قلبك ووجهك لغيره ، فما هذه الإساءة القبيحة في معاملته مع هذا الشريف والصيانة ! فهو يعظمك ويدعوك الى الإقبال وأنت تأبى إلا مبارزته بقبايح الأفعال .

في بعض الآثار الالهية : إني والجن والانس في نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي ، خيري إلى العباد نازل ، وشرم إلي صاعد ، أتحب إليهم بالنعم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي . وكيف يعبد حق عبادته من صرف سؤاله ودعائه وتذله واضطراره وخوفه ورجاءه وتوكله وإثابته وذبحه ونذره لمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، من ميت رميم في التراب ، أو بناء مشيد من القباب ، فضلاً بما هو شر من ذلك .

قوله : « وحق العباد على الله ان لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » قال الحلواني : تقديره : أن لا يعذب من يعبد ولا يشرك به شيئاً ، والعبادة هي

الإتيان بالأوامر ، والانهاء عن المنهي ، لأن مجرد عدم الإشراف لا يقتضي .
نفي العذاب ، وقد علم ذلك من القرآن والأحاديث الواردة في تهديد
الظالمين والعصاة .

وقال الحافظ : اقتصر على نفي الإشراف ، لأنه يستدعي التوحيد
بالاقتضاء ، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم ، إذ من كذب رسول الله ،
فقد كذب الله ، ومن كذب الله ، فهو مشرك ، وهو مثل قول القائل :
من توطأ صحت صلاته ، أي : مع سائر الشروط ، فالمراد من مات حال
كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به .

قلت : وسأتي تقرير هذا في الباب الذي بعده إن شاء الله تعالى .

قوله : « أفلا أبشركم بالناس » فيه استعجاب بشارته المسلم بما يسره ،
وفيه ما كان عليه الصحابة من الاستبشار ، بمثل هذا ليه عليه المصنف .
قوله : قال : « لا تبشركم فيسكلوا » وفي رواية : « إني أخاف أن
يتسكلوا » ، أي : يعتمدوا على ذلك ، فيتركوا التنافس في الأعمال الصالحة .
وفي رواية : فأخبر بها معاذ عند موته قائلاً ، أي : تخرجاً من الائم .

قال الوزير أبو المظفر : لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله
على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة ، فأما الأكياس الذين إذا سمعوا
بمثل هذا ازدادوا في الطاعة ، ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة
فلا وجه لكتمتها عنهم .

وقال الحافظ : دل هذا على أن النهي للتبشير ليس على التحريم ، وإلا
لما أخبر به أصلاً ، أو أنه ظهر له أن المنع إنما هو من الأخبار عموماً ، فبادر
قبل موته فأخبر بها خاصاً من الناس .

وفي الباب من الفوائد غير ما تقدم التنبيه على عظمة حق الوالدين ، ونحوه عقوبتهما ، والحث على إخلاص العبادة لله تعالى ، وأنها لا تنفع مع الشرك ، بل لا تسمى عبادة شرعاً ، والتنبيه على عظمة الآيات المحكمات في سورة الأنعام ، ذكره المصنف . وجواز كتمان العلم للمصلحة ، ولا سيما أحاديث الرجاء التي إذا سمعها الجاهل ازدادوا من الآثام .
كما قال بعضهم :

فأكثر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كسريم
وتخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض ، وفضيلة معاذ ، ومثولته من العلم ، لكونه خص بها ذكر ، واستئذان المتعلم في إشاعة ما خص به من العلم ، والخوف من الاتكال على سعة رحمة الله ، وأن الصحابة لا يعرفون مثل هذا إلا بتعليمه ﷺ ، ذكره المصنف .

قوله : أخرجه في « الصحيحين » أي : أخرجه البخاري ومسلم في « صحيحهما » وإنما أضمرهما للعلم بهما .

والبخاري هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي مولاهم ، الحافظ الكبير صاحب « الصحيح » و « التاريخ » و « الأدب المفرد » وغير ذلك من مصنفاته .

روى عن الإمام أحمد بن حنبل والحيمدي وابن المديني وطبقتهم .
وروى عنه مسلم والترمذي والنسائي والفريزي راوي « الصحيح » وغيرهم . ولد سنة أربع وتسعين ومائة ، ومات سنة ست وخمسين ومائتين .
ومسلم هو ابن الحجاج بن مسلم أبو الحسين القشيري النيسابوري صاحب « الصحيح » و « العلل » و « الوجدان » وغير ذلك .

روى عن أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وأبي خيثمة ، وابن أبي شيبة ، وطبقتهم .

روى عنه الترمذي ، وإبراهيم بن محمد بن سفيان راوي « الصحيح » وغيرهم . ولد سنة أربع ومائتين ، ومات سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور رحمه الله تعالى .

باب فضل التوحيد وما يكفو من الذنوب

باب : خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هذا باب بيان فضل التوحيد ، وبيان ما يكفر من الذنوب ، و « ما » يجوز أن تكون موصولة ، أي : وبيان ما يكفره من الذنوب . ويجوز أن تكون مصدرية ، أي : وبيان تكفيره الذنوب ، وهذا أرجح ، لأن الأول يوم أن ثم ذنباً لا يكفرها التوحيد ، وليس بمراد ، ولما ذكر معنى التوحيد ، فاسب ذكر فضله وتكفيره للذنوب ترغيباً فيه وتحذيراً من الضد .

وقول الله تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) [الأنعام : ٨٣] .

قال بعض الحنفية في تفسيره : هذا ابتداء . قال ابن زيد وابن إسحاق : هذا من الله على فضل القضاء بين إبراهيم وقومه . قال الزجاج : سأل إبراهيم وأجاب بنفسه . وعن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية قالوا : فأينا لم يظلم ؟ قال عليه السلام : « إن الشرك لظلم عظيم » وكذا عن أبي بكر الصديق أنه فسره بالشرك ، فيكون الأمن من تأييد العذاب . وعن عمر أنه فسره بالذنوب ، فيكون الأمن من كل عذاب . وقال الحسن والكلبي : أولئك لهم الأمن في الآخرة وهم مهتدون في الدنيا . انتهى . وإنما ذكرته

لأن فيه شاهداً لكلام شيخ الإسلام الآتي في الحديث الذي ذكره حديث صحيح في «الصحيح» و «المسند» وغيرهما . وفي لفظ لأحمد عن عبد الله قال : لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) [الأنعام : ٨٣] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله فأينا لا يظلم نفسه . قال : « إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) [لقمان : ١٤] إنما هو الشرك »

قال شيخ الإسلام : والذي شق عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد لنفسه ، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه ، فبين لهم النبي ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله ، وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانهم بهذا الظلم ، فمن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء ، كما كان من أهل الاصطفاء في قوله : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه) [فاطر : ٣٢] وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب ، كما قال (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) [الزلزال : ٨-٩] وقد سأل أبو بكر رضي الله عنه النبي ﷺ عن ذلك فقال : يا رسول الله ، وأينا لم يعمل سوءاً فقال : « يا أبا بكر ألسنتك تنصب ، ألسنتك تحزن ، أليس تصيبك اللأواء ، فذلك ما تجزون به » . فبين أن المؤمن الذي إذا مات دخل الجنة ، قد يجزى بسيناته في الدنيا بالمصائب التي تصيبه ، قال : فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة ، يعني الظلم الذي هو الشرك ، وظلم العباد ، وظلمه لنفسه بما دون الشرك ، كان له الأمن التام والاهتداء التام ، ومن لم يسلم من ظلم نفسه كان له الأمن

والاهتداء مطلقاً ، بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة ، كما وعد بذلك في الآية الأخرى ، وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة ، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء ، بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه ، ليس مراد النبي ﷺ بقوله : « إنما هو الشرك » أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام ، فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف ، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من غير عذاب يحصل لهم ، بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط ومعهم أصل نعمة الله عليهم ، ولا بد لهم من دخول الجنة . وقوله « إنما هو الشرك » إن أراد به الأكبر فمقصوده أن من لم يكن من أهله ، فهو آمن بما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة ، وهو مهتد إلى ذلك ، وإن كان مراده جنس الشرك فيقال : ظلم العبد نفسه ، كبخله . لحب المال - ببعض الواجب وهو شرك أصغر ، وحب ما يبغض الله حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ، ونحو ذلك ، فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه ، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار . انتهى ملخصاً . وبه تظهر مطابقة الآية للترجمة ، فدللت على فضل التوحيد وتكفيره للذنوب ، لأن من أتى به تاماً فله الأمن التام والاهتداء التام ، ودخل الجنة بلا عذاب ، ومن أتى به ناقصاً بالذنوب التي لم يتب منها ، فإن كانت صفات كفرت باجتناب الكبائر ، آية (النساء) و (النجم) وإن كانت كبائر فهو في حكم المشيئة ، إن شاء الله غفر له ، وإن شاء عذبه ، ومآله إلى الجنة ، والله أعلم .

(عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل أخرجه ») .

عبادة هو بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أبو الوليد ، أحد النقباء بدري مشهور من جلة الصحابة ، مات بالرملة سنة أربع وثلاثين وله اثنان وسبعون سنة . وقيل : عاش الى خلافة معاوية .

قوله « من شهد أن لا إله إلا الله » ، أي : من تكلم بهذه الكلمة عارفاً لمعناها ، عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً ، كما دل عليه قوله : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) [محمد : ٢٠] وقوله : (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) [الزخرف : ٨٧] أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا اهل بمقتضاها ، فإن ذلك غير نافع بالاجماع .

وفي الحديث ما يدل على هذا ، وهو قوله : « من شهد » إذ كيف يشهد وهو لا يعلم ، ومجرد النطق بشيء لا يسمى شهادة به . قال بعضهم : أداة الحصر لقصر الصفة على الموصوف قصر افراد ، لأن معناه : الألوهية في الله الواحد في مقابلة من يزعم اشتراك غيره معه ، وليس قصر قلب ، لأن أحداً من الكفار لم ينفها عن الله ، وإنما أشرك معه غيره .

وقال النووي : هذا حديث عظيم جليل الموقع ، وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتمة على العقائد ، فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج عن

ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها ، فالتجبر ﷺ في هذه الأحرف على ما يبين به جميعهم . انتهى .

ومعنى « لا إله إلا الله » ، أي : لا معبود بحق إلا إله واحد ، وهو الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) [الأنبياء : ٢٦] مع قوله تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) [النحل : ٣٧] فصح أن معنى الإله هو المعبود ، ولهذا لما قال النبي ﷺ لكفار قريش « قولوا لا إله إلا الله » قالوا : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) [ص : ٦] وقال قوم هود : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) [الأعراف : ٧١] وهو إنما دعاهم إلى « لا إله إلا الله » فهذا هو معنى لا إله إلا الله ، وهو عبادة الله وترك عبادة ما سواه ، وهو الكفر بالطاغوت ، وإيمان بالله .

فتضمنت هذه الكلمة العظيمة أن ما سوى الله ليس بإله ، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل ، وإثباتها أظلم الظلم ، فلا يستحق العبادة سواه ، كما لا تصلح الإلهية لغيره ، فتضمنت نفي الإلهية عما سواه ، وإثباتها له وحده لا شريك له وذلك يستلزم الأمر باتخاذ إلهاً وحده ، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهاً وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات ، كما إذا رأيت رجلاً يستفتي أو يستشهد من ليس أهلاً لذلك ، ويدع من هو أهل له ، فتقول : هذا ليس بمفت ولا شاهد ، المفتي فلان ، والشاهد فلان ، فإن هذا أمر منه ونهي . وقد دخل في الإلهية جميع أنواع العبادة الصادرة عن تاله القلب لله بالحب والخضوع والانقياد له وحده لا شريك

له ، فيجب لإفراد الله تعالى بها ، كاللذراء والخوف والحبوة ، والتوكل والإقامة ، والتوبة ، والذبح ، والنذر ، والسجود ، وجميع أنواع العبادة فيجب صرف جميع ذلك لله وحده لا شريك له ، فمن صرف شيئاً مما لا يصلح لإله من العبادات لغير الله ، فهو مشرك ولو نطق بـ لا إله إلا الله ، إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والاختلاص .

ذكر نصوص العلماء في معنى الإله قال ابن عباس رضي الله عنه :
الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . وقال الوزير أبو المظفر في « الإفصاح » قوله : « شهادة أن لا إله إلا الله » يقتضي أن يكون الشاهد عالماً بأن : لا إله إلا الله ، كما قال : الله عز وجل (فاعلم أنه لا إله إلا الله) [محمد : ٢٠] ويلبغني أن يكون الناطق بها شاهداً فيها ، فقد قال الله عز وجل ما أوضح به أن الشاهد بالحق إذا لم يكن عالماً بما شهد به ، فإنه غير بالغ من الصدق به مع من شهد من ذلك بما يعلمه في قوله تعالى : (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) [الزخرف : ٨٧] قال : واسم الله تعالى مرتفع بعد « إلا » من حيث إنه الواجب له الألوهية . فلا يستحقها غيره سبحانه . قال : واقتضى الاقوار بها أن تعلم أن كل ما فيه أماراة للحدث ، فإنه لا يكون إلهاً ، فإذا قلت : لا إله إلا الله ، فقد اشتمل نطقك هذا على أن ما سوى الله ليس بإله ، فيلزمك لإفراده سبحانه بذلك وحده .

قال : وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة هي مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، فانك لما نفيت الإلهية وأثبتت الإيجاب لله سبحانه ، كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله .

وقال أبو عبد الله القرطبي في التفسير : لا إله إلا هو ، لمحي !
لا معبود إلا هو . وقال الزمخشري : الإله من أسماء الأجناس - كالرجل
والفرس - اسم يقع على كل معبود بحق أو بباطل ، ثم غلب على
المعبود بحق .

وقال شيخ الاسلام : الإله هو المعبود المطاع . وقال أيضاً : في لا
إله إلا الله ، إثبات انفراده بالإلهية ، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته
ورحمته وحكمته ، فقيا إثبات إحسانه الى العباد . فإن الإله هو المألوه ،
والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد ، وكونه يستحق أن يعبد هو بما
اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، الخاضع
له غاية الخضوع .

وقال ابن القيم رحمه الله : الإله هو الذي تأله القلوب بحبة وإجلالاً
وإنابة وإكراماً وتعظيماً وذلك وخضوعاً وخوفاً ورجاءاً وتوكلًا .

وقال ابن رجب رحمه الله : الإله هو الذي يطاع فلا يعصى هبة له
وإجلالاً ومحبة وخوفاً ورجاءاً وتوكلًا عليه وسؤالاً منه ودعاء له ، ولا
يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل ، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه
الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول :
لا إله إلا الله ، ونقصاً في توحيده ، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب
ما فيه من ذلك ، وهذا كله من فروع الشرك .

وقال البقاعي : لا إله إلا الله ، أي : انتهى انتفاء عظمياً أن يكون
معبود بحق غير الملك الأعظم ، فإن هذا العلم هو أعظم الذكري المنجية

من أهوال الساعة ، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً ، وإنما يكون نافعاً إذا كان الاذعان والعمل بما تقتضيه ، وإلا فهو جهل صرف .

وقال الطيبي : الإله فعال بمعنى مفعول ، كالكتاب بمعنى المكتوب ، من أله إلهة ، أي : عبد عبادة .

وهذا كثير جداً في كلام العلماء ، وهو إجماع منهم أن الإله هو المعبود ، خلافاً لما يعتقد عباد القبور وأشباههم في معنى الإله أنه الخالق أو القادر على الاختراع أو نحو هذه العبارات ، ويظنون أنها إذا قالوها بهذا المعنى ، فقد أتوا من التوحيد بالغاية القصوى ، ولو فعلوا ما فعلوا من عبادة غير الله ، كدعاء الأموات ، والاستغاثة بهم في الكربات ، وسؤالهم قضاء الحاجات ، والنذر لهم في الملمات ، وسؤالهم الشفاعة عند رب الأرض والسموات ، إلى غير ذلك من أنواع العبادات ، وما شعروا أن إخوانهم من كفار العرب يشاركونهم في هذا الإقرار ، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على الاختراع ، ويعبدونه بأنواع من العبادات ، فليكن أبو جهل وأبو لهب ومن تبعها بحكم عباد القبور ، وليكن أيضاً إخوانهم عباد ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، إذ جعل هؤلاء دينهم هو الاسلام المبرور .

ولو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجاهل ، لم يكن بين الرسول ﷺ وبينهم نزاع ، بل كانوا يبادرون إلى إجابته ، ويلبون دعوته ، إذ يقول لهم : قولوا : لا إله إلا الله ، بمعنى : أنه لا قادر على الاختراع إلا الله . فكانوا يقولون : سمعنا وأطعنا . قال الله تعالى : (ولئن سألتهم ليقولن الله) [الزخرف : ٨٨] (ولئن سألتهم من خلق السموات

والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ([الزخرف : ١٠]) قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ([يونس : ٣٢] الآيات إلى غير ذلك من الآيات .

لكن القوم أهل اللسان العربي ، فعلموا أنها تهدم عليهم دعاء الأموات والأصنام من الأساس ، وتكذب بناء سؤال الشفاعة من غير الله ، وصرف الإلهية لغيره لأم الرأس ، فقالوا : (مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) [الزمر : ٤] (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) [يونس : ١٩] (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) [ص : ٦] فتباً لمن كان أبو جهل ورأس الكفر من قريش وغيرهم أعلم منه بـ : « لا إله إلا الله » قال تعالى : (إنهم كانوا إذا قيل لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلہتنا لشاعر مجنون) : [الصفات : ٣٦ ، ٣٧] فعرفوا أنها تقتضي ترك عبادة ما سوى الله ، وإفراد الله بالعبادة ، وهكذا يقول عباد القبور إذا طلبت منهم إخلاص الدعوة والعبادة لله وحده : أنترك سادتنا وشفعاءنا في قضاء حوائجنا . فيقال لهم : نعم وهذا الترك والإخلاص هو الحق ، كما قال تعالى : (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) [الصفات : ٣٨] ف : « لا إله إلا الله » اشتملت على نفي وإثبات ، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى ، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم ، فليس ياله ، ولا له من العبادة شيء ، وأثبتت الإلهية لله وحده ، بمعنى أن العبد لا ياله غيره ، أي : لا يقصده بشيء من التاله وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة ، كالدعاء والذبيح والنذر وغير ذلك .

وبالجملة فلا ياله إلا الله ، أي : لا يعبد إلا هو ، فمن قال هذه الكلمة عارفاً لمعناها ، عاملاً بمقتضاها ، من نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به ، فهذا هو المسلم حقاً ، فإن عمل به ظاهراً من غير اعتقاد ، فهو المنافق ، وإن عمل بخلافها من الشرك ، فهو الكافر ولو قالها ، ألا ترى أن المنافقين يعملون بها ظاهراً وهم في الدرك الأسفل من النار ، واليهود يقولونها وهم على ما هم عليه من الشرك والكفر ، فلم تنفعهم ، وكذلك من ارتد عن الاسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها ، فإنها لا تنفعه ، ولو قالها مائة ألف ، فكذلك من يقولها بمن يصرف أنواع العبادة لغير الله ، كعبادة القبور والأصنام فلا تنفعهم ولا يدخلون في الحديث الذي جاء في فضلها ، وما أشبهه من الأحاديث . وقد بين النبي ﷺ ذلك بقوله : « وحده لا شريك له » تنبيهاً على أن الانسان قد يقولها وهو مشرك ، كاليهود والمنافقين وعبادة القبور ، لما رأوا أن النبي ﷺ دعا قومه إلى قول : « لا إله إلا الله » ظنوا أنه إنما دعاهم إلى النطق بها فقط ، وهذا جهل عظيم ، وهو عليه السلام إنما دعاهم إليها ليقولوها ويعملوا بمعناها ويتركوا عبادة غير الله ، ولهذا قالوا : (أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) [الصافات : ٣٧] وقالوا : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) [ص : ٦] فلهذا أبوا عن النطق بها ، وإلا فلما قالوها وبقوا على عبادة اللات والعزى ومناة لم يكونوا مسلمين ، ولقاتلهم عليه السلام حتى يخلعوا الأنداد ويتركوا عبادتها ، ويعبدوا الله وحده لا شريك له ، وهذا أمر معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة والإجماع ، وأما عبادة القبور فلم يعرفوا معنى هذه الكلمة ،

ولا عرفوا الإلهية المنفية عن غير الله الثابتة له وحده لاشريك له ، بل لم يعرفوا معناها إلا ما أقر به المؤمن والكافر ، واجتمع عليه الخلق كلهم من أن معناها : لا قادر على الاختراع ، أو أن معناها : الإله ، هو الغني عما سواه ، الفقير إليه كل ما عداه ، ونحو ذلك ، فهذا حق ، وهو من لوازم الإلهية ، ولكن ليس هو المراد بمعنى « لا إله إلا الله » فإن هذا القدر قد عرفه الكفار ، وأقروا به ، ولم يدعوا في آلهتهم شيئاً من ذلك ، بل يقرون بفقرهم ، وحاجتهم إلى الله ، وإن كانوا يعبدونهم على معنى أنهم وسائط وشفعاء عند الله في تحصيل المطالب ونجاح المآرب ، وإلا فقد سلموا الخلق والملك والرزق والإحياء والإماتة ، والأمر كله لله وحده لاشريك له ، وقد عرفوا معنى « لا إله إلا الله » وأبوا على النطق والعمل بها ، فلم ينفعهم توحيد الربوبية مع الشرك في الإلهية ، كما قال تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) [يوسف : ١٠٧] وعباد القبور نطقوا بها وجعلوا معناها ، وأبوا عن الإتيان به ، فصاروا كاليهود الذين يقولونها ولا يعرفون معناها ولا يعملون به ، فتجد أحدهم يقولها وهو ياله غير الله بالحُب والاجلال والتعظيم والخوف والرجاء والتوكل والدعاء عند الكرب ، ويقصده بأنواع العبادة الصادرة عن تاله قلبه لغير الله بما هو أعظم بما يفعله المشركون الأولون ، ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الأيمان صادقاً أو كاذباً ، ولو قيل له : احلف بحياة الشيخ فلان أو بتربيته ونحو ذلك ، لم يحلف إن كان كاذباً ، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أعظم في قلبه من رب الأرباب ، وما كان الأولون هكذا ، بل كانوا إذا أرادوا

التشديد في اليمين حلفوا بالله تعالى ، كما في قصة القسامة التي وقعت في الجاهلية ، وهي في « صحيح البخاري » وكثير منهم وأكثرهم يرى أن الاستغاثة بإلهه الذي يعبد عند قبوره أو غيره أنفع وأنجح من الاستغاثة بالله في المسجد ، ويصرحون بذلك ، والحكايات عنهم بذلك فيها طول ، وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين ، وكلهم إذا أصابهم الشدائد أخلصوا للمدفونين في التراب ، وهتفوا بأسمائهم ، ودعواهم ليكشفوا ضر المصاب في البر والبحر والسفر والإياب ، وهذا أمر ما فعله الأولون ، بل هم في هذه الحال يخلصون للكبير المتعال ، فاقروا قوله تعالى : (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) [العنكبوت : ٦٦] الآية ، وقوله : (ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يرميهم يشركون) [النحل : ٥٤ - ٥٥] وكثير منهم قد عطلوا المساجد وعمروا القبور والمشاهد ، فإذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه أخذ في دعاء صاحبه باكية خاشعاً ذليلاً خاضعاً ، بحيث لا يحصل له ذلك في الجمعة والجماعات وقيام الليل وإدبار الصلوات ، فيسألونهم مغفرة الذنوب وتفريج الكرب والنجاة من النار ، وأن يحطوا عنهم الأوزار ، فكيف يظن عاقل فضلاً عن عالم أن التلفظ بـ : « لا إله إلا الله » مع هذه الأمور تنفعهم ، وهم إنما قالوها بالسنتهم وخالفوها باعتقادهم وأعمالهم ، ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق أيضاً بشهادة أن محمداً رسول الله ولم يعرف معنى الإله ولا معنى الرسول وصلى وصام وحج ولا يدري ما ذلك إلا أنه رأى الناس يفعلونه فتابعهم ولم يفعل شيئاً من الشرك ، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه ، وقد أفتى

بذلك فقهاء المغرب كلهم في أول القرن الحادي عشر أو قبله في شخص: كان كذلك كما ذكره صاحب « الدر الثمين في شرح المرشد المعين » من المالكية ، ثم قال شارحه : وهذا الذي أفتوا به جلي في غاية الجلاء ، لا يمكن أن يختلف فيه اثنان انتهى . ولا ريب أن عباد القبور أشد من هذا لأنهم اعتقدوا الإلهية في أرباب متفوقين .

فان قيل : قد تبين معنى الإله والإلهية ، فما الجواب عن قول من قال : بأن معنى الإله القادر على الاختراع ونحو هذه العبارة ؟

قيل : الجواب من وجهين : أحدهما أن هذا قول مبتدع لا يعرف أحد قاله من العلماء ولا من أئمة اللغة ، وكلام العلماء وأئمة اللغة هو معنى ما ذكرنا كما تقدم فيكون هذا القول باطلاً .

الثاني : على تقدير تسليمه ، فهو تفسير باللائم للإله الحق ، فان اللازم له أن يكون خالقاً قادراً على الاختراع ، ومتى لم يكن كذلك ، فليس بإله حق وإن سمي إلهاً ، وليس مراده أن من عرف أن الإله هو القادر على الاختراع ، فقد دخل في الإسلام وأتى بتحقيق المرام من مفتاح دار السلام ، فان هذا لا يقوله أحد ، لأنه يستلزم أن يكون كفار العرب مسلمين ، ولو قدر أن بعض المتأخرين أرادوا ذلك فهو مخطئ يرد عليه بالدلائل السمعية والعقلية .

قوله : « وأن محمداً عبده ورسوله » أي : وشهد بذلك ، وهو معطوف على ما قبله ، فتكون الشهادة واقعة على هذه الجملة وما قبلها وما بعدها ، فإن العامل في المعطوف وما عطف عليه واحد ، ومعنى « العبد » هنا يعني المملوك العابد ، أي : مملوك لله تعالى ، وليس له من الربوبية والإلهية

فهي ، إنما هو عبد مقرب عند الله ورسوله ، أرسله الله كما قال تعالى :
(وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً قل إنما أَدْعُو
رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . قل إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا . قل
إِنِّي لَنْ يَحْيِيَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا . إِلَّا بَلَاغًا مِنَ
اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا)
[الجن : ٢٠ ، ٢٥] .

قيل : وقدم العبد هنا على الرسول ترقياً من الأدنى إلى الأعلى ، وجمع
بينهما لدفع الإفراط والتفريط الذي وقع في شأن عيسى عليه السلام ، وقد
أكد النبي ﷺ هذا المعنى بقوله : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن
مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » رواه البخاري عن عمر ابن
الخطاب . وذلك يتضمن تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانتباه
عما عنه زجر ، فلا يكون كامل الشهادة له بالرسالة من ترك أمره وأطاع
غيره ، وارتكب نهي .

قوله : « وان عيسى عبد الله ورسوله » وفي رواية « وابن أمته » أي
خلفاً لما يعتقد النصارى أنه الله أو ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علواً
كبيراً (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما
خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة
فتعالى عما يشركون) [المؤمنون : ٩٣ ، ٩٤] فيشهد بأنه عبد الله ، أي :
عابد لمولاه ، لا مالك ، فليس له من الربوبية ولا من الإلهية شيء ،
ورسول صادق ، خلافاً لقول اليهود : إنه ولد بغوي ، بل يقال فيه ما قال
عن نفسه كما قال تعالى : (قال إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا

وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً .
وبرأ بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً . والسلام علي يوم ولدت ويوم
أموت ويوم أبعث حياً . ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه
يترون) [مريم : ٣١ ، ٣٥] . وقال تعالى : (لن يستكف المسيح
أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) [النساء : ١٧٢] قال
القرطبي : ويستفاد منه ما يلقيه النصراني إذا أسلم .

قوله : « وكلمته » ، إنما سمي عليه السلام كلمة الله ، لصدوره بكلمة
« كن » ، بلا أب .

قاله قتادة وغيره من السلف .

قال الامام أحمد فيما أملاه في الرد على الجهمية : الكلمة التي ألقاها الى
مريم حين قال له : (كن) فكان عيسى ب (كن .) ، وليس عيسى هو
« كن » ، ولكن ب : « كن كان » ، ف : « كن من الله قول » ، وليس : « كن » ،
مخلوقاً ، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى ، وذلك أن
الجهمية قالت : عيسى روح الله وكلمته ، إلا أن الكلمة مخلوقة . وقالت
النصارى ، عيسى روح الله من ذات الله ، وكلمة الله من ذات الله ، كما
يقال : إن هذه الخرفة من هذا الثوب . وقلنا نحن : إن عيسى
بالكلمة كان ، وليس عيسى هو الكلمة . انتهى . يعني به ما قال
قتادة وغيره .

قوله : « ألقاها الى مريم » ، قال ابن كثير : خلق بالكلمة التي أرسل
بها جبرائيل عليه السلام إلى مريم ، فتفزع فيها في روحه بأذن ربه عز وجل ،

فكان عيسى باذن الله عز وجل ، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها ، بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله عز وجل ، ولهذا قيل لعيسى : إنه كلمة الله وروح منه ، لأنه لم يكن له أب تولد منه ، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له : كن ، فكان ، والروح التي أرسل بها جبرائيل عليه السلام .

قوله : (وروح منه) قال أبي بن كعب : عيسى روح من الأرواح التي خلقها الله عز وجل واستنطقها بقوله : (ألسن بربكم قالوا : بلى) [الأعراف : ١٧٢] بعثه الله إلى مريم فدخل فيها . رواه عبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم وغيرهم . وقال أبو روق (وروح منه) أي : نفخة منه ، إذ هي من جبرائيل بأمره ، وسمي روحاً ، لأنه حدث من نفخة جبرائيل عليه السلام .

وقال الامام أحمد (وروح منه) يقول : من أمره كان الروح فيه ، كقوله (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) [الجاثية : ١٣] يقول : من أمره .

وقال شيخ الاسلام : المضاف إلى الله تعالى إذا كان معنى لا يقوم بنفسه ولا إضافته إضافة مخلوق مربوب ، وإن كان المضاف عيناً قائمة بنفسها ، كعيسى وجبرائيل عليهما السلام وأرواح بني آدم ، امتنع أن يكون صفة لله تعالى ، لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره ، لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين : أحدهما : أن تكون تضاف إليه لكونه خلقها

وأبدعها ، فهذا شامل لجميع المخلوقات ، كقولهم : سماء الله ، وأرض الله ، ومن هذا الباب ، فجميع المخلوقين عبيد الله ، وجميع المال مال الله ، وجميع البيوت والنوق لله .

الوجه الثاني : أن يضاف إليه لما خصه به من معنى يحبه وبأمر به وپرضاء كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون في غيره ، وكما يقال عن مال الفيء والخمس : هو مال الله ورسوله ، ومن هذا الوجه فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره ، فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه . انتهى ملخصاً .

والمقصود منه أن إضافة روح الله هو من الوجه الثاني ، والله أعلم . قوله « الجنة حق والنار حق » أي : وشهد أن الجنة التي أخبر بها الله في كتابه أنه أعدها لمن آمن به وپرسوله حق ، أي ثابتة لا شك فيها ، وشهد أن النار التي أخبر الله في كتابه أنه أعدها للكافرين به وپرسله حق كذلك ، كما قال تعالى : (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعروض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) [الحديد : ٢١] وقال تعالى : (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) [البقرة : ٢٥] وفيها دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن ، خلافاً لأن البدع الذين قالوا : لا يخلقان إلا في يوم القيامة ، وفيه دليل على المعاد وحشر الأجساد .

قوله : أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ، هذه الجملة جواب الشرط وفي رواية : « أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الثانية » قال

القاضي عياض : وما ورد في حديث عبادة يكون خصوصاً لمن قال
ما ذكره عليه السلام وقرن بالشهادتين حقيقة الايمان والتوحيد الذي ورد في حديثه
فيكون له من الأجر ما يرجع على سيئاته ، ويوجب له المغفرة والرحمة
ودخول الجنة لأول وهلة .

قال : (ولها من حديث عتبان . فإن الله حرم على النار من
قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله » .

قوله : ولها ، أي للبخاري ومسلم في « صحيحهما » وهذا الحديث
طوف من حديث طويل أخرجه الشيخان كما قال المصنف . وعتبان
- بكسر المهملة بعدها مثناة فوقه ثم موحدة - ابن مالك بن عمر بن
العجلان الأنصاري من بني سالم بن عوف صحابي شهير ، مات في
خلافة معاوية .

قوله : « فإن الله حرم على النار ... الحديث » .

لعل أنه قد وردت أحاديث ظاهرها أنه من أتى بالشهادتين حرم على
النار ، كهذا الحديث ، وحديث أنس قال : كان النبي عليه السلام ومعاذ
رديفه على الرحل ، فقال : يا معاذ . قال ليك يا رسول الله وسعديك .
قال : « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، إلا
حرمه على النار » قال : يا رسول الله ألا أخبر بها الناس فيستبشروا .
قال : « إذا يتكلموا » فأخبر بها معاذ عند موته تأمناً . أخرجه .

ولمسلم عن عبادة مرفوعاً : « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً
عبده ورسوله ، حرم الله عليه النار » .

ووردت أحاديث فيها أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة ، وليس فيها أنه يحرم على النار .

منها حديث عبادة الذي تقدم قبل هذا ، وحديث أبي هريرة أنهم كانوا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك ... الحديث ، وفيه : فقال رسول الله ﷺ : « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقي الله بها عبد غير شاك فيعجب عن الجنة » رواه مسلم .

وحديث أبي ذر في « الصحيحين » مرفوعاً : « ما من عبد قال : لا إله إلا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة ... » .

وأحسن ما قيل في معناه ما قاله شيخ الإسلام وغيره : إن هذه الأحاديث إنما هي فيما قلنا ومات عليها كما جاءت مقيدة ، وقالها خالصاً من قلبه مستيقناً بها قلبه ، غير شاك فيها بصدق ويقين ، فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح الى الله جملة ، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ، دخل الجنة ، لأن الاخلاص هو انجذاب القلب الى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً ، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك فانه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، وما يزن خردلة وما يزن ذرة ، وتواترت بأن كثيراً ممن يقول : لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها ، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم ، هؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله ، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله .

لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقيل ، وأكثر من يقولها لا يعرف الاخلاص ولا اليقين ، ومن لا يعرف ذلك يخشى عليه أن يفتن عنها عند الموت ، فيحال بينه وبينها ، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة ، ولم يخاطب الايمان بشاشة قلبه وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء كما في الحديث : سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته . وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم وهم أقرب الناس من قوله تعالى : (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) [الزخرف : ٢٣] وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث ، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام ، لم يكن في هذه الحال مصراً على ذنب أصلاً ، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء ، فإذا لا يبقى في قلبه لإرادة لما حرم الله ولا كراهية لما أمر الله ، وهذا هو الذي يحرم من النار ، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك ، فإن هذا الايمان ، وهذه التوبة ، وهذا الاخلاص ، وهذه المحبة وهذا اليقين ، لا يتركون له ذنباً إلا يمحي كما يمحي الليل بالنهار ، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر ، فهذا غير مصراً على ذنب أصلاً ، فيغفر له ويحرم على النار ، وإن قالها على وجه خلص به على الشرك الأكبر دون الأصغر ، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك ، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات ، فيرجع بها ميزان الحسنات ، كما في حديث البطاقة فيحرم على النار ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه ، وهذا بخلاف من رجعت سيئاته على حسناته ومات مصراً على ذلك ، فإنه يستوجب النار ، وإن قال : لا إله الا الله وخلص بها من الشرك الأكبر ، لكنه لم يمت على ذلك ، بل أتى بعد

ذلك بسيئات رجعت على حسنة توحيده ، فإنه في حال قولها كان مخلصاً ، لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والاخلاص فأضعفته ، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك ، بخلاف المخلص المستيقن ، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته ، ولا يكون مصراً على سيئة ، فإن مات على ذلك دخل الجنة ، وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئات راجحة يضعف إيمانه ، فلا يقو لها باخلاص ويقين مانع من جميع السيئات ، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر ، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر ، فيضيف الى ذلك سيئات تنضم الى هذا الشرك ، فيرجع جانب السيئات ، فإن السيئات تضعف الايمان واليقين ، فيضعف بذلك قول : لا إله الا الله فيمتنع الاخلاص في القلب ، فيصير المتكلم بها كالمأذوي أو النائم ، أو من يحسن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعم ولا حلاوة ، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين ، بل يأتون بعدها بسيئات تنقص ذلك الصدق واليقين ، بل يقولونها من غير يقين وصدق ويموتون على ذلك ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة ، وإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها ، وقسا القلب عن قولها ، وكره العمل الصالح ، وثقل عليه سماع القرآن ، واستبشر بذكر غيره ، واطمأن إلى الباطل واستحلى الرفث ومخالطة أهل الغفلة ، وكره مخالطة أهل الحق ، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه ، وبفيه مالا يصدق عمله ، كما قال الحسن : ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال ، فمن قال خيراً وعمل خيراً قبل منه ، ومن قال شراً وعمل شراً لم يقبل منه .

وقال بكر بن عبد الله المزني : ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ، ولكن بشيء وقر في قلبه . فمن قال : لا إله إلا الله ولم يعم بوجوبها ، بل اكتسب مع ذلك ذنباً وسيئات ، وكان صادقاً في قولها موقناً بها ، لكن ذنبه أضعاف أضعاف صدقه وبقينه ، وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي ، رجعت هذه الأشياء على هذه الحسنة ، ومات مصراً على الذنوب ، بخلاف من يقولها بيقين وصدق تام ، فإنه لا يموت مصراً على الذنوب ، إما أن لا يكون مصراً على سيئة أصلاً أو يكون توحيد المتضمن لصدقة وبقينه رجح حسناته ، والذين يدخلون النار ممن يقولها قد فاتهم أحد هذين الشرطين : إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التامين المتأين للسيئات ، أو لرجحان السيئات ، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجعت على حسناتهم ، ثم ضعف لذلك صدقهم وبقينهم ، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق وبقين تام ، لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم ، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات بل ترجح سيئاتهم على حسناتهم . انتهى ملخصاً . وقد ذكر معناه غيره كابن القيم ، وابن رجب ، والمنذري ، والقاضي عياض ، وغيرهم . وحاصلة أن لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة ، والنجاة من النار ، ومقتض لذلك ، ولكن مقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه ، وانتفاء موانعه ، فقد يتخلف عنه مقتضاه لقوات شرط من شروطه ، أو لوجود مانع . ولهذا قيل للحسن إن ناساً يقولون : من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة ، فقال : من قال : لا إله إلا الله فادى حقها وفرضها دخل الجنة .

وقال وهب بن منبه ، لمن سأله : أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال : بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح . ويدل على ذلك أن الله رتب دخول الجنة على الإيمان والأعمال الصالحة ، وكذلك النبي ﷺ كما في « الصحيحين » عن أبي أيوب ، أن رجلاً قال : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة . فقال : « تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم » وفي « المسند » عن بشر بن الحصاصية قال : أتيت النبي ﷺ وسلم لأبأبعه ، فاشتروط علي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن أقيم الصلاة ، وأن آوتي الزكاة ، وأن أحج حجة الإسلام ، وأن أصوم رمضان ، وأن أجاهد في سبيل الله ، فقلت : يا رسول الله ، أما اثنان ، فوالله ما أطيقهما الجهاد والصدقة ، فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها وقال : « فلا جهاد ولا صدقة ، فم تدخل الجنة إذا ؟ ! » قلت : يا رسول الله أبأبعك عليهن كلهن . ففي الحديث أن الجهاد والصدقة شرط في دخول الجنة مع حصول التوحيد ، والصلاة ، والحج ، والصيام . والأحاديث في هذا الباب كثيرة . وفي الحديث دليل على أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد ، وبالعكس . وفيه تحريم النار على أهل التوحيد الكامل ، وفيه أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصاً لله تعالى .

قال : وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « قال موسى : يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به . قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله . قال : كل عبادك يقولون هذا . قال : يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري ، والأرضون السبع في كفة ، ولا

إله إلا الله في كفة ، مالت بين لآله إلا الله . رواه ابن حبان ،
والحاكم وصححه .

أبو سعيد : اسمه سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الانصاري الخزرجي ،
صحابي جليل ، وأبوه أيضاً كذلك ، استصغر أبو سعيد بأحد ، ثم
شهد ما بعدها ، مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين . وقيل :
أربع وسبعين .

قوله : أذكرك . هو بالرفع خبر مبتدأ محذوف ، أي : أنا أذكرك .
وقيل : بل هو صفة ، وأدعوك معطوف عليه ، أي : اثني عليك وأحمدك به ،
وأدعوك ، أي : أنوسل به اليك إذا دعوتك .

قوله : قل يا موسى : لا إله إلا الله . فيه أن الذاكر بها يقولها كلها ،
ولا يقتصر على لفظ الجلالة كما يفعله جهال المتصوفة ، ولا يقول أيضاً : هو
كما يقوله غلاة جهالهم ، فإذا أرادوا الدعاء قالوا : ياهو ، فإن ذلك بدعة
وضلالة . وقد صنف جهالهم في المسألتين ، وصنف ابن عربي كتاباً سماه
« ب » الهو » .

قوله : « كل عبادك يقولون هذا » هكذا ثبت بخط المصنف . يقولون
بجمع مراعاة لمعنى كل ، والذي في الأصول يقول بالإنفراد مراعاة للفظها
دون معناها ، لكن قد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو هذا
الحديث بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف أطول منه .

وفي « سنن النسائي » و « الحاكم » و « شرح السنة » بعد قوله : كل
عبادك يقولون هذا « إنما أريد أن تخصني به » ، أي : بذلك الشيء من بين

عموم عبادك فإن من طبع الإنسان أن لا يفرح فرحاً شديداً إلا بشيء يختص به دون غيره ، كما إذا كانت عنده جوهرة ليست موجودة عند غيره . مع أن من رحمة الله وسنته المطردة أن ما اشتدت إليه الحاجة والضرورة ، كان أكثر وجوداً ، كالحب والملح ، والماء ونحو ذلك دون الياقوت واللؤلؤ ، ولما كان بالناس بل بالعالم كله من الضرورة إلى لا إله إلا الله ما لا نهاية في الضرورة فوَقَّعَ كانت أكثر الأذكار وجوداً ، وأيسرها حصولاً ، وأعظمها معنى . والعوام والجهال يعدلون عنها إلى الأسماء الغريبة والدعوات المبتدعة التي لا أصل لها في الكتاب والسنة كالأحزاب والأوراد التي ابتدعها جهة المتصوفة .

قوله : « وعامرهن غيري » هو بالنصب عطف على السموات ، أي : لو أن السموات السبع ومن فيهن من العمار غير الله والأرضين السبع ومن فيهن وضعوا في كفة الميزان ، ولا إله إلا الله في الكفة الأخرى ، مالت بهن لا إله إلا الله .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته : « آمرك ب : « لا إله إلا الله ، فإت السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة رجعت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتن لا إله إلا الله ، وفيه دليل على أن الله تعالى فوق السموات .

قوله : في كفة بكسر الكاف وتشديد الفاء من كفة الميزان . قال بعضهم : ويطلق لكل مستدر .

قوله : مالت بهن لا إله إلا الله ، أي : رجحت عليهن ، وذلك لما اشتملت عليه من توحيد الله الذي هو أفضل الأعمال ، وأساس الملة ، ورأس الدين ، فمن قالها بإخلاص و يقين ، وعمل بمقتضاها ولوازمها ، واستقام على ذلك ، فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، كما قال تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم) [فصلت : ٣١ - ٣٢] .

والحديث يدل على أن « لا إله إلا الله » أفضل الذكر ، كما في حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » رواه أحمد والترمذي . وعنه أيضاً مرفوعاً : « يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر ، ثم يقال : أتتكر من هذا شيئاً ؟ فيقول : لا يارب ، فيقال : ألك عذر أو حسنة ، فيهاب الرجل فيقول : لا ، فيقال : بلى إن لك عندنا حسنات ، وإنه لا ظلم عليك ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول : يارب ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال : إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة » رواه الترمذي وحسنه ، والنسائي ، وابن

حبان والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم . وقال الذهبي في
« تلخيصه » : صحيح .

قال ابن القيم : فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها ، وإنما تتفاضل
بتفاضل ما في القلوب ، فتكون صورة العمل واحدة ، وبينها من التفاضل
كما بين السماء والأرض . قال : تأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ،
ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر ، فتثقل البطاقة ،
وتطيش السجلات ، فلا يعذب . ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة ،
وكثير منهم يدخل النار بذنوبه .

وعن أبي هريرة مرفوعاً : « ما قال عبد لا إله إلا الله مخلصاً قط إلا
فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر » رواه
الترمذي وحسنه والنسائي ، والحاكم وقال : على شرط مسلم .

قوله : رواه ابن حبان ، والحاكم . ابن حبان اسمه محمد بن حبان
— بكسر المهملة وتشديد الموحدة — ابن أحمد بن حبان أبو حاتم التميمي
البرستي الحافظ صاحب التصانيف كـ « الصحيح » و « التاريخ » و « الضعفاء »
و « الثقات » وغير ذلك قال الحاكم : كان من أوعية العلم في الفقه
واللغة والحديث والوعظ ومن عقلاء الرجال ، مات سنة أربع وخمسين
وثلاثمائة بمدينة بست بالمهملية .

وأما الحاكم ، فاسمه محمد بن عبد الله بن محمد الضبي النيسابوري أبو
عبد الله الحافظ ، ويعرف بابن البيع . ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ،
وصنف التصانيف كـ « المستدرک » و « تاريخ نيسابور » وغيرهما ،
مات سنة خمس وأربعائة .

قال : ولترمذي وحسنه عن أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول :
قال الله تعالى : يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني
لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفورة .

الترمذي اسمه محمد بن عيسى بن سورة - بفتح المهمله - ابن موسى
ابن الضحاك السلمي أبو عيسى صاحب « الجامع » وأحد الأئمة الحفاظ ،
كان ضريب البصر . روى عن قتبية وهناد والبخاري وخلق ، ومات سنة
تسع وسبعين ومائتين .

وأنس هو ابن مالك بن النضر الأنصاري الحزرجي ، خادم رسول الله
ﷺ خدمه عشر سنين ، ودعا له النبي ﷺ ، فقال « اللهم أكثر ماله
وولده وأدخله الجنة » ومات سنة اثنتين وقل : ثلاث وتسعين . وقد
جاوز المائة والحديث قطعة من حديث رواه الترمذي من طريق كثير بن
فائد : حدثنا سعيد بن عبيد ، سمعت بكر بن عبد الله المزني يقول :
حدثنا أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله
تعالى يا ابن آدم إنك مادعوتني ورجوتني إلّا غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ،
يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن
آدم لو أتيتني بقراب الأرض ... الحديث . قال ابن رجب : وإسناده
لابأس به . وسعيد بن عبيد : هو الهنائي : ذكره ابن حبان في
« الثقات » وقال الدارقطني : تفرد به كثير بن فائد عن سعيد بن
عبيد مرفوعاً .

قال ابن رجب : وتابعه على رفعه أبو سعيد مولى بني هاشم ، فرواه
عن سعيد بن عبيد مرفوعاً ، وقد رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذر

بعناه ، وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ . وروى مسلم من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال : « يقول الله : من تنرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً... » الحديث وفيه « ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة ، لا يشرك بي شيئاً لقينه بقرابها مغفرة »

قوله : لو أتيتني بقراب الأرض . قراب الأرض ، بضم القاف ، وقيل بكسرهما ، والضم أشهر ، وهو ملؤها أو ما يقارب ملأها .

قوله : ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً . شرط ثقيل في الوعد بمحصول المغفرة ، وهو السلامة من الشرك كثيره وقليله ، صغيره وكبيره ، ولا يسلم من ذلك إلا من سلمه الله ، وذلك هو القلب السليم . كما قال تعالى : (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) [الشعراء : ٨٩ ، ٩٠] .

قال ابن رجب : من جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة ، لكن هذا مع مشيئة الله عز وجل ، فإن شاء غفر له ، وإن شاء أخذ به بذنوبه ، ثم كان عاقبته أن لا يدخل في النار ، بل يخرج منها ثم يدخل الجنة ، فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه ، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه ، أو بقلبه ولسانه عند المات أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكلية ، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه ، أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيماً وإجلالاً ومهابة وخشية وتوكلًا ، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياها كلها ولو كانت مثل زبد البحر ، وربما قلبتها حسنات ، فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم ، فلو وضع منه ذرة على جبال الذنوب والخطايا لقلبها حسنات .

وقال شيخ الإسلام : الشرك نوعان : أكبر ، وأصغر ، فمن خلاص منها

وجبت له الجنة ، ومن مات على الأكبر ، وجبت له النار ، ومن خلص من الأكبر ، وحصل له بعض الأصغر مع حسنات راجحة على ذنوبه ، دخل الجنة ، فإن تلك الحسنات توحيد كثير مع يسير من الشرك الأصغر ، ومن خلص من الأكبر ، ولكن كثرة الأصغر حتى رجعت به سيئاته دخل النار ، فالشرك يؤخذ به العبد إذا كان أكبر أو كان كثيراً أصغر ، والأصغر القليل في جانب الإخلاص الكثير لا يؤخذ به .

وفي هذه الأحاديث كثرة ثواب التوحيد ، وسعة كرم الله وجوده ورحمته ، حيث وعد عباده أن العبد لو أتاه بلاء الأرض خطايا وقد مات على التوحيد فإنه يقابله بالمغفرة الواسعة التي تسع ذنوبه ، والرد على الجوارح الذين يكفرون المسلم بالذنوب ، وعلى المعتزلة الذين يقولون بالمنزلة بين المنزلتين وهي منزلة الفاسق ، فيقولون : ليس بمؤمن ولا كافر ويخلد في النار والصواب في ذلك قول أهل السنة أنه لا يسلب عنه اسم الإيمان على الإطلاق ، ولا يعطاه على الإطلاق ، بل يقال : هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن عاص أو مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته . وعلى هذا يدل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة .

وقال المصنف : تأمل الحس الراقي في حديث عبادة ، فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبين لك معنى قول لا إله إلا الله ، وتبين لك خطأ المغرورين وفيه أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على معنى قول لا إله إلا الله ، وفيه التنبيه لرجعائها بجميع المخلوقات مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه . وفيه أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله في حديث عتبان :

« ان الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله »
إذا ترك الشرك ، ليس قولها باللسان . انتهى ملخصاً .

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

أي : ولا عذاب . وتحقيق التوحيد : هو معرفته ، والاطلاع على حقيقته ،
والقيام بها علماً وعملاً ، وحقيقة ذلك هو انجذاب الروح الى الله محبة وخوفاً ،
وإنابة وتوكلًا ، ودعاء وإخلاصاً وإجلالاً وهيبة ، وتعظيماً وعبادة . وبالجملة
فلا يكون في قلبه شيء لغير الله ، ولا إرادة لما حرم الله ، ولا كراهة
لما أمر الله ؟ وذلك هو حقيقة لا إله إلا الله ، فإن الإله هو المألوه المعبود .

وما أحسن ما قال ابن القيم :

فليوحد كن واحداً في واحد أعني سبيل الحق والإيمان

وذلك هو حقيقة الشهادتين ، فمن قام بها على هذا الوجه فهو من السبعين
ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب .

قوله : وقال تعالى : (إن إبراهيم كان أمةً قالنأ الله حنيفاً ولم يك من
المشركين) [النحل : ١٢١] مناسبة الآية للترجمة من جهة أن الله تعالى
وصف إبراهيم عليه السلام في هذه الآية بهذه الصفات الجليلة التي هي أعلى
درجات تحقيق التوحيد ، ترغيباً في اتباعه في التوحيد ، وتحقيق العبودية
باتباع الأوامر ، وترك النواهي ، فمن اتبعه في ذلك ، فإنه يدخل الجنة بغير
حساب ولا عذاب كما يدخلها إبراهيم عليه السلام .

الأولى : أنه كان أمةً ، أي : قدوة وإماماً معلماً للخير ، وإماماً يقتدى
به . روي معناه عن ابن مسعود . وما كان كذلك إلا لتكميله مقام الصبر

واليقين اللذين بهما تنال الإمامة في الدين . كما قال تعالى : وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ([السجدة : ٢٥] :

الثانية : أنه كان قائماً لله ، أي : خاشعاً مطيعاً ، دائماً على عبادته وطاعته كما قال شيخ الإسلام : القنوت في اللغة : دوام الطاعة . والمصلي إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده ، فهو قائم في ذلك كله . قال تعالى : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) [الزمر : ١٠] فجعله قائماً في حال السجود والقيام . انتهى .

فوصفه في هاتين الصفتين بتحقيق العبودية في نفسه أولاً علماً وملاً .

وثانياً : دعوة وتعليماً واقتداءً به ، وما كان يقتدى به إلا لعمله به في نفسه ، ووصفه في الثانية بالاستقامة على ذلك كما قال تعالى : (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين) [فصلت : ٣٤] فتضمنت العلم والعمل والاستقامة والدعوة .

الدعوة الثالثة : أنه كان حنيفاً ، والحنف الميل ، أي : مائلاً منحرفاً قصداً عن الشرك كما قال تعالى حكاية عنه : (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) [الأنعام : ٨٠] وقال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) [الروم : ٣١] .

الرابعة : أنه ما كان من المشركين . أي : هو موحد خالص من شوائب الشرك مطلقاً ، فنفى عنه الشرك على أبلغ وجوه النفي ، بحيث لا ينسب إليه شرك وإن قل ، تكذيباً لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام . وقال المصنف في الكلام على هذه الآية (إن

إبراهيم كان أمة ([النحل : ١٢١]) لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين (قانتاً لله) لا للملوك ولا للتجار المترفين (حنيفاً) لا يميل ميمناً ولا شمالاً كفعل العلماء المقتونين (ولم يك من المشركين) خلافاً لمن كثروا سوادهم وزعم أنه من المسلمين . قلت : وهو من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية ، لكنه ينبه بالأدنى على الأعلى . وقوله : لئلا يستوحش . تنبيه على بعض معنى الآية ، وهو المنفرد وحده في الخير . وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : (إن إبراهيم كان أمة قانتاً) كان على الاسلام ولم يكن في زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره ، فلذلك قال الله (كان أمة قانتاً) ولا تنافي بينه وبين كلام ابن مسعود المتقدم .

قوله : وقال (والذين هم بربهم لا يشركون) [المؤمنون : ٦١] مناسبة الآية للترجمة من جهة أن الله تعالى وصف المؤمنين السابقين إلى الجنات بصفات ، أعظمها الثناء عليهم بأنهم بربهم لا يشركون ، أي : شيئاً من الشرك في وقت من الأوقات فإن الإيمان النافع مطلقاً لا يوجد إلا بترك الشرك مطلقاً . ولما كان المؤمن قد يعرض له ما يقدر في إيمانه من شرك جلي أو خفي ، نفى عنهم ذلك ، ومن كان كذلك فقد بلغ من تحقيق التوحيد النهاية ، وفاز بأعظم التجارة ، ودخل الجنة بلا حساب ولا عذاب .

قال ابن كثير : (والذين هم بربهم لا يشركون) [المؤمنون : ٦١] أي : لا يعبدون معه غيره ، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه لا نظير له .

قال عن حصين بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض الباردة ؟ فقلت : أنا . ثم

قلت : أما إني لم أكن في صلاة ، ولكني لدغْتُ قال : فما صنعت ؟
قلت : ارتقيت . قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت : حديث حدثناه الشعبي .
قال : وما حدثكم الشعبي ؟ قلت : حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه
قال : لا رقية إلا من عين أو حمة . فقال : قد أحسن من انتهى إلى
ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ قال : عرضت علي
الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي
وليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم ، فظننت أنهم أمي ، فقبل
لي : هذا موسى وقومه . فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقبل لي : هذه
أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ، ثم
نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين
صحبوا رسول الله ﷺ . وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في
الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه
فقال : «هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»
فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم
فقال : ألت منهم ، ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ،
فقال : سبقك بها عكاشة .

ش : هكذا أورد المصنف هذا الحديث غير معزو ، وقد رواه البخاري
مختصراً ومطولاً ومسلم واللفظ له ، والترمذي ، والنسائي .

قوله : عن حصين بن عبد الرحمن هو السلمي أبو الهذيل الكوفي
ثقة ، تغير حفظه في الآخر ، مات سنة ست وثلاثين ومائه ، وله ثلاث
وتسعون سنة . وسعيد بن جبير هو الامام الفقيه من جلة أصحاب ابن

عباس ، روايته عن عائشة ، وأبي موسى مرسلة ، وهو كوفي مولى لبني
أسد ، قتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين ، ولم يكمل الحسین .
قوله : انقض هو بالقاف والضاد المعجمه ، أي : سقط والبارحة
هي أقرب ليلة مضت . قال أبو العباس ثعلب : يقال قبل الزوال :
رأيت الليلة ، وبعد الزوال : رأيت البارحة ، وهكذا قال غيره ، وهي
مشتقة من برح : إذا زال .

قوله : أما إني لم أكن في صلاة . القائل هو حصين ، خاف أن
يظن الحاضرون أنه ما رأى النجم إلا لأنه يصلي ، فأراد أن ينفي عن
نفسه إيهام العبادة وأنه يصلي مع أنه لم يكن فعل ذلك ، وهذا يدل
على فضل السلف الصالح وحرصهم على الاخلاص ، وشدة ابتعادهم عن الرياء
بخلاف من يقول : فعلت وفعلت ليوم الأعمار أنه من الأولياء ، وربما
علق السبحة في عنقه أو أخذها في يده يمشي بها بين الناس إعلاماً للناس
أنه يسبح عدد ما فيها من الحُرز . وقد قال الامام محمد بن وضاح :
حدثنا أسد عن جرير بن حازم عن الصلت بن برهام قال : مر ابن مسعود
بامرأة تسبح به فقطعه وألقاها ، ثم مر برجل يسبح بحصى فضربه برجله
ثم قال : لقد جثمت بيدعة ظلماً ، أو : لقد غلبتم أصحاب محمد ﷺ
علماً ؟ ! .

قوله : ولكني لدغنتُ . هو بضم أوله وكسر ثانيه مبني لما لم يسم
فاعله ، أي : لدغته عقرب أو نحوها .

قوله : قلت : ارتقيت لفظ مسلم : استرقيت ، أي : طلبت
من يرقيني .

قوله : فما حمله على ذلك ؟ فيه طلب الحجة على صحة المذهب .
قوله : حديث حدثناه الشعبي ، أي : حملني عليه حديث حدثناه
الشعبي ، واسمه عامر بن ثرجيل الهمداني - بسكون الميم - الشعبي .
ولد في خلافة عمر وهو من ثقات التابعين وحفاظهم وفقهائهم ، مات سنة
ثلاثة ومائة .

قوله : عن بريدة - بضم أوله وفتح ثانيه - تصغير برودة - بن الحصيد -
بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين - ابن عبد الله بن الحارث الأسامي ،
صحابي شهير . مات سنة ثلاث وستين . قاله ابن سعد .

قوله : لارقية إلا من عين أوحمة . هكذا روي هنا موقوفاً ، وقد
رواه أحمد وابن ماجه عنه مرفوعاً ، ورواه أحمد وأبو داود والترمذي عن
عمران بن حصين به مرفوعاً . قال الهيثمي : رجال أحمد ثقات .
والعين : هي إصابة العائن غيره بعينه ، والجمة - بضم المهملة وتخفيف
الميم - سم العقرب وشبهها . قال الخطابي : ومعنى الحديث : لارقية أشقى
أو أولى من رقية العين والجمة . وقد رقى النبي ﷺ وري . قلت :
وسبأني ما يتعلق بالرقى إن شاء الله تعالى .

قوله : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، أي : من أخذ بما بلغه
من العلم وعمل به فقد أحسن ، لأنه أدى ما وجب وعمل بما بلغه من العلم ،
بخلاف من يعمل بجهل أو لا يعمل بما يعلم فإنه مسيء آثم . وفيه فضيلة
علم السلف وحسن أدبهم وهديم وتلطفهم في تبليغ العلم ، وإرشادهم من
أخذ بشيء - إن كان مشروعاً - إلى ما هو أفضل منه ، وإن من عمل بما بلغه عن

الله وعن رسوله فقد أحسن ، ولا يتوقف العمل به على معرفة كلام أهل المذاهب أو غيرهم .

قوله : **واكن** حدثنا ابن عباس . هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي ابن عم النبي ﷺ ، دعا له النبي ﷺ فقال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » . فكان كذلك . قال عمر : لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عشره منا أحد ، أي : ما بلغ عشره في العلم ، مات بالطائف سنة ثمان وستين . قال المصنف : فيه عمق علم السلف ، لقوله : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن كذا وكذا ، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني .

قوله : عرضت علي الأمم . وفي رواية الترمذي والنسائي من رواية عبيد بن القاسم ، عن حصين بن عبد الرحمن أن ذلك كان ليلة الإسراء ولفظه : لما أسري بالنبي ﷺ جعل ير بالنبي ومعه الراشد . قال الحافظ : فإن كان ذلك محفوظاً ، كانت فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء ، وأنه وقع بالمدينة أيضاً غير الذي وقع بمكة ، كذا قال ، وليس بظاهر ، بل قد يكون رأى ذلك ليلة الإسراء ولم يحدث به إلا في المدينة . وليس في الحديث ما يدل على أنه حدث به قريباً من العرض عليه .

قوله : فرأيت النبي ومعه الرهط : هو الجماعة دون العشرة ، قاله النووي :

قوله : والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد . فيه أن الأنبياء متفاوتون في عدد أتباعهم ، وأن بعضهم لا يتبعه أحد ، وفيه

الرد على من احتج بالأكثر ، وزعم أن الحق محصور فيهم ، وليس كذلك ، بل الواجب اتباع الكتاب والسنة مع من كان وأبن كان .

قوله : إذ رفع لي سواد عظيم . السواد : ضد البياض ، والمراد هنا : الشخص الذي يرى من بعيد ، أي : رفع لي أشخاص كثيرة .

قوله : فظننت أنهم أمتي . استشكل الاسماعيلي كونه ﷺ لم يعرف أمته حتى ظن أنهم أمة موسى عليه السلام ؛ وقد ثبت حديث أبي هريرة : كيف تعرف من لم تر من أمتك ؟ فقال : « لمنهم غر محجلون من أثر الوضوء وأجاب بأن الأشخاص التي رآها في الأفق لا يدرك منها إلا الكثرة من غير تمييز لأعيانهم . وأما ما في حديث أبي هريرة فمحمول على ما إذا قربوا منه ، ذكره الحافظ . قوله : فقيل لي : هذا موسى وقومه ، أي : موسى بن عمران ، كلم الرحمن ، وقومه : الذين اتبعوه وفيه فضيلة موسى وقومه .

قوله : فنظرت فإذا سواد عظيم . لفظ مسلم بعد قوله : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر الى الأفق فنظرت ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : انظر الى الأفق الآخر ، فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي : هذه أمتك . قوله : ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ، أي : لتحقيقهم التوحيد .

قال الحافظ : المراد بالمعية المعنوية ، فإن السبعين ألفاً المذكورين من جملة أمته ، لكن لم يكونوا في الذين عرضوا إذ ذاك ، فأريد الزيادة في تكثير أمته بإضافة السبعين ألفاً إليهم . قلت : وما قاله ليس بظاهر

فإن في رواية ابن فضيل : ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً . وقد ورد في حديث أبي هريرة في « الصحيحين » وصف السبعين ألفاً بأنهم تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر . وفيها عنه مرفوعاً : « أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ، والذين على آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة » وجاء في أحاديث أخر أن مع السبعين ألفاً زيادة عليهم ، فروى أحمد والبيهقي في البعث حديث أبي هريرة في السبعين ألفاً فذكره وزاد . قال : « فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً » قال الحافظ : وسنده جيد . وفي الباب عن أبي أيوب عند الطبراني ، وعن حذيفة عند أحمد ، وعن أنس عند البزار ، وعن ثوبان عند أبي عاصم قال : فلهذه طرق يقوي بعضها بعضاً . قال : وجاء في أحاديث أخر أكثر من ذلك ، فأخرج الترمذي وحسنه والطبراني وابن حبان في « صحيحه » من حديث أبي أمامة رفعه « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً مع كل ألف سبعين كذا ألفاً لحساب عليهم ولا عذاب ، وثلاث حثيات من حثيات ربي » وروى أحمد وأبو يعلى من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، فاستزدت ربي عز وجل فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً . قال الحافظ : وفي سنده راويان ، أحدهما ضعيف الحفظ والآخر لم يسم . قلت : وفيه أن كل أمة تحشر مع نبيها .

قوله : ثم نهض ، أي : قام

قوله : فخاض الناس في أولئك . قال النووي هــ بالحاء والضاد

المعجمتين ، أي : تكلموا وتناظروا . قال : وفي هذا إباحة المناظرة في العلم والمباحثة في نصوص الشرع على جهة الاستفادة وإظهار الحق ، وفيه عمق علم السلف لمعرفة أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعلم ، وفيه حرصهم على الخير ؛ ذكره المصنف .

قوله : فقال هم الذين لا يسترقون . هكذا ثبت في «الصحيحين» وفي رواية مسلم التي ساقها المصنف هنا زيادة : « ولا يرقون » وكأن المصنف اختصرها كغيرها لما قيل : إنها معلولة . قال شيخ الإسلام : هذه الزيادة وهم من الراوي ، لم يقل النبي ﷺ : لا يرقون ، لأن الراقي محسن إلى أخيه . وقد قال ﷺ وقد سئل عن الرقى قال : « من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه » وقال : « لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً » قال : وأيضاً فقد رقى جبريل النبي ﷺ ، ورقى النبي ﷺ أصحابه . قال : والفرق بين الراقي والمسترق في أن المسترق سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه ، والراقي محسن . قال : وإنما المراد وصف السبعين ألفاً بتمام التوكل فلا يسألون غيرهم أن يرقهم ولا يكويهم ولا يتطيرون . وكذا قال ابن القيم ؛ ولكن اعترضه بعضهم بأن قال : تغليط الراوي مع إمكان تصحيح الزيادة لا يصار إليه ، والمعنى الذي حمله على التغليط موجود في المرقى ، لأنه اعتل بأن الذي لا يطلب من غيره أن يرقه تام التوكل ، فكذا يقال : والذي يفعل به غيره ذلك ينبغي أن لا يمكنه منه لأجل تمام التوكل ، وليس في وقوع ذلك من جبريل عليه السلام دلالة على المدعى ، ولا في فعل النبي ﷺ له أيضاً دلالة في مقام التشريع ، وتبين الأحكام كذا قال هذا القائل وهو خطأ من وجوه :

الأول : أن هذه الزيادة لا يمكن تصحيحها إلا بحملها على وجوه لا يصح حملها عليها كقول بعضهم : المراد لا يرقون بما كان شركاً أو احتمله فإنه ليس في الحديث ما يدل على هذا أصلاً وأيضاً فعلى هذا لا يكون للسبعين مزية على غيره ؛ فإن جملة المؤمنين لا يرقون بما كان شركاً .

الثاني : قوله : فكذا يقال الخ لا يصح هذا القياس ، فإنه من أفسد القياس وكيف يقاس من سأل وطلب على من لم يسأل ؟ ! مع أنه قياس مع وجود الفارق الشرعي ، فهو فاسد الاعتبار ، لأنه تسوية بين ما فوق الشارع بينها بقوله : « من اكتوى أو استرقى فقد برئ » من التوكل ، رواه أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه ، وصححه ابن حبان والحاكم أيضاً وكيف يجعل ترك الإحسان إلى الخلق سبباً للسبق إلى الجنان ؟ ! وهذا بخلاف من رقى أو رقى من غير سؤال ، فقد رقى جبريل النبي ﷺ . ولا يجوز أن يقال : إنه عليه السلام لم يكن متوكلاً في تلك الحال .

الثالث : قوله : ليس في وقوع ذلك من جبريل عليه السلام . الخ ، كلام غير صحيح بل هما سيدا المتوكلين ، فإذا وقع ذلك منهما ، دل على أنه لا ينافي التوكل فاعلم ذلك .

قوله : « ولا يكتون » أي : لا يسألون غيرهم أن يكوهم ، كما لا يسألون غيرهم أن يرقهم استسلاماً للقضاء وتلذذاً بالبلاء . أما الكي في نفسه ، فجائز كما في « الصحيح » عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ ، بعث إلى أبي بن كعب طبيباً ، فقطع له عرقاً وكواه . وفي « صحيح البخاري » عن أنس : أنه كوى من ذات الجنب والنبي ﷺ حي . وروى الترمذي وغيره عن أنس : أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوك . وفي

« صحيح البخاري » عن ابن عباس مرفوعاً : « الشفاء في ثلاث : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار . وأنا أنهى عن الكي » وفي لفظ : « وما أحب أن أكتوي » .

قال ابن القيم : فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع . أحدها : فعله ، والثاني : عدم محبته له . والثالث : الثناء على من تركه . والرابع : النهي عنه . ولا تعارض بينها بحمد الله ، فإن فعله له يدل على جوازه ، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه . وأما الثناء على تاركه ، فيدل على أن تركه أولى وأفضل ، وأما النهي عنه ، فعلى سبيل الاختيار والكراهية . قوله : « ولا يتطيرون » أي : لا يتشاءمون بالطيور ونحوها ، وسيأتي بيان الطيرة وما يتعلق بها في بابها إن شاء الله تعالى .

قوله : « وعلى ربهم يتوكلون » . ذكر الأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال وهو التوكل على الله ، وصدق الالتجاء إليه ، والاعتماد بالقلب عليه الذي هو خلاصة التفريد ، ونهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء ، والرضى به رباً وإلهاً ، والرضى بقضائه ، بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء ، وعدة من النعماء ، فسبحان من يتفضل على من يشاء بما يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً كما يظنه الجبهة ، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم ، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) [الطلاق : ٤] أي : كافيه إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلًا على الله ،

كالاستوقاء والاكتواء فتتركهم له ليس لكونه سبباً لكن لكونه سبباً مكروهاً ، لاسيما والمريض يتشبث بما يظنه سبباً لشفائه بخيط العنكبوت .
 أما نفس مباشرة الأسباب ، والتداوي على وجه لا كراهية فيه ، فغير قاذح في التوكل ، فلا يكون تركه مشروعاً كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة مرفوعاً : « ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء » وعن أسامة ابن شريك قال : كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب ، فقالوا يا رسول الله ! أنتداوى ؟ فقال : نعم يا عباد الله تداووا ، فإن الله عز وجل لم لم يضع داءً إلا وضع له شفاء ، غير داء واحد قالوا : ما هو ؟ قال : « الهرم » رواه أحمد .

قال ابن القيم : فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات ، وإبطال قول من أنكرها والأمر بالتداوي ، وأنه لا ينافي التوكل كما لا ينفيه دفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها ، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً ، وإن تعطيلها يقدر بمباشرة في نفس التوكل ، كما يقدر في الأمر والحكمة ، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى من التوكل ، فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ، ودفع ما يضره في دينه ودنياه . ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلاً للأمر والحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزاً .

وقد اختلف العلماء في التداوي ، هل هو مباح وتركه أفضل ، أو مستحب أو واجب ؟ فالمشهور عن أحمد الأول لهذا الحديث وما في معناه ،^{١٠}

ولكن على ماتقدم لا يتم الاستدلال به على ذلك ، والمشهور عند الشافعي الثاني ، حتى ذكر النووي في « شرح مسلم » أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف . واختاره الوزير أبو المظفر .

قال : ومذهب أبو حنيفة أنه مؤكذ حتى يداني به الوجوب قال : ومذهب مالك أنه يستوي فعله وتركه فإنه قال : لا بأس بالتداوي ولا بأس بتركه . وقال شيخ الإسلام : ليس بواجب عند جماهير الأئمة إنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد .

قوله : فقام إليه عكاشة بن محصن . بضم العين وتشديد الكاف ويجوز تخفيفها ومحصن بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين - ابن حريثان - بضم المهملة وسكون الراء وبعدها مثناة - الأسدي من بني أسد بن خزيمه ومنه خلفاء بني أمية ، كان من السابقين إلى الإسلام، ومن أجل الرجال - هاجر وشهد بدرأ وقاتل فيها . قال ابن إسحاق : وبلغني أن النبي ﷺ قال : - « خير فارس في العرب عكاشة » ومناقبه مشهورة استشهد في قتال أهل الردة مع خالد بن الوليد بيدي طليحة الأسدي سنة اثنتي عشرة ثم أسلم طليحة بعد ذلك .

قوله : قال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : « أنت منهم » . في رواية البخاري : « فقال اللهم اجعله منهم » وكذلك في حديث أبي هريرة عند البخاري مثله . وفي بعض الروايات : أمنهم أنا يا رسول الله ؟ قال : نعم . قال الحافظ : ويجمع بأنه سأل الدعاء أولاً ، فدعاه ثم استفهم هل أجيب ؟ فأخبره . وفيه طلب الدعاء من الفاضل .

قوله : ثم قام إليه رجل آخر . لم نقف على تسميته إلا في طريق واهية ذكرها الخطيب في « المبهات » من رواية أبي حذيفة إسحاق بن بشر أحد الضعفاء من طريقين له عن مجاهد أن رسول الله ﷺ لما انصرف من غزاة بني المصطلق ، فساق قصة طويلة فيها ذلك . قال الحافظ : وهذا مع ضعفه وإرساله يستبعد من جهة جلالة سعد بن عبادة فإن كان محفوظاً ، فلعله آخر باسم سيد الخزرج واسم أبيه ، فإن في الصحابة كذلك آخر له في « مسند بقي بن مخلد » وفي الصحابة سعد بن عماره فلعل اسم أبيه تحرف .

قوله : : سبقك بها عكاشة ، قال ابن بطال : معنى قوله سبقك . أي : إلى إحراز هذه الصفات ، وهي التوكل وعدم التطير وما ذكر معه ، وعدل عن قوله : لست منهم ، أولست على أخلاقهم تلطفاً بأصحابه ، وحسن أدب معهم . وقال القرطبي : لم يكن عند الثاني من الأحوال ما كان عند عكاشة ، فلذلك لم يجب إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضراً فيتسلسل الأمر ، فسد الباب بقوله ذلك ، وهذا أولى من قول من قال : كان منافقاً لوجهين . أحدهما : أن الأصل في الصحابة عدم النفاق فلا يثبت ما يخالف ذلك إلا بنقل صحيح ، والثاني : أنه قل أن يصدر مثل هذا السؤال إلا عن قصد صحيح ، ويقين بتصديق الرسول ﷺ . وكيف يصدر ذلك من منافق . قلت : هذا أولى ما قيل في تأويله ، وإليه مال شيخ الإسلام . قال المصنف : وفيه استعمال المعارض وحسن خلقه ﷺ .

باب الخوف من الشرك

ش : لما كان الشرك أعظم ذنب عصي الله به ، ولهذا رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه من إباحة دماء أهله وأموالهم وسبي نسائهم وأولادهم ، وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه ؛ نبه المصنف بهذه الترجمة على أنه ينبغي للمؤمن أن يخاف منه ويحذره ويعرف أسبابه ومبادئه وأنواعه لئلا يقع فيه ، ولهذا قال حذيفة : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه . . رواه البخاري . وذلك أن من لم يعرف إلا الخير قد يأتيه الشر ولا يعرف أنه شر فإما أن يقع فيه ، وإما أن لا ينكره كما ينكره الذي عرفه ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية . قال شيخ الإسلام : وهو كما قال عمر ، فإن كمال الإسلام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقام ذلك بالجهاد في سبيل الله ، ومن نشأ في المعروف ، فلم يعرف غيره ، فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه ، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم ؛ ولهذا يوجد الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه والجهاد لهم ما ليس عند غيره . ولهذا كان الصحابة أعظم إيماناً وجهاداً من بعدهم لكمال معرفتهم بالخير والشر ، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر لما علموه من حسن حال الإيمان والعمل الصالح ، وقبح حال الكفر والمعاصي .

قال : وقول الله : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما

دون ذلك لمن يشاء) [النساء : ٤٨] .

قال ابن كثير : أخبر تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به ، أي : لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ، ويغفر ما دون ذلك ، أي : من الذنوب لمن يشاء من عباده .

قلت : فتبين بهذا أن الشرك أعظم الذنوب ، لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره ، أي : إلا بالتوبة منه ، وما عداه ، فهو داخل تحت مشيئة الله إن شاء غفره بلا توبة وإن شاء عذب به . وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب الذي هذا شأنه عند الله ، وإلما كان كذلك ، لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم إذ مضمونه تنقيص رب العالمين ، وصرف خالص حقه لغيره ، وعدل غيره به كما قال تعالى : (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) [الأنعام : ٢] ولأنه منافض للمقصود بالخلق والأمر مناف له من كل وجه ، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين ، والاستكبار عن طاعته والذل له ، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك . فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة ، كما قال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله » رواه مسلم . ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية من ملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده . فمن علق ذلك للمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فضلاً عن غيره شبيهاً بمن له الخلق كله ، وله الملك كله ويده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله . فأزمة الأمور كلها بيديه سبحانه ، ومرجعها إليه فما شاء كان وما لم يشأ لم

يكن ، لا مانع لما أعطى ، ولما معطي لما منع ، الذي إذا فتح للناس
رحمة ، فلا يمسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز .
الحكيم . فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات ،
ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه
بوجه من الوجوه ، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم
والاجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستعانة
وغاية الحب مع غاية الذل كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون
لله وحده ، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره ، فمن فعل
شيئاً من ذلك لغيره ، فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبه له ولا مثل له
ولا ند له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله ، فلهذه الأمور وغيرها أخبر
سبحانه أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة ، هذا معنى كلام
ابن القيم .

وفي الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب ، وعلى المعتزلة القائلين
بأن أصحاب الكبائر يدخلون النار ولا يبد ، ولا يخرجون منها ، وهم
أصحاب المنزلة بين المنزلتين . ووجه ذلك أن الله تعالى جعل مغفرة
مادون الشرك معلقة بالمشيئة ، ولا يجوز أن يحمل هذا على التأكيد ،
فإن التائب لا فوق في حقه بين الشرك وغيره كما قال تعالى في الآية
الأخرى : (قل يا عبادي الذين أسروا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة
الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) [الزمر : ٥٤] وهنا عظم وأطلق ،
لأن المراد به التائب ، وهناك ختم وعلق لأن المراد به ما لم يقب . قاله
شيخ الإسلام .

قوله : وقال الخليل عليه السلام : (واجتنبني وبني أن نعبد الأصنام)
[إبراهيم : ٣٦]

الضم : ما كان منحوتاً على صورة البشر . والوثن : ما كان منحوتاً على غير ذلك . ذكره الطبري عن مجاهد ، والظاهر أن الضم ما كان مصوراً على أي صورة ، والوثن بخلافه كالجبر والبنية ، وإن كان الوثن قد يطلق على الضم ، ذكر معناه غير واحد ، ويرى عن بعض السلف ما يدل عليه . وقوله : (واجتنبني) أي : اجعلني وبني في جانب عن عبادة الأصنام ، وباعد بيني وبينها . قيل : وأراد بذلك بنيه وبناته من صلبه ، ولم يذكر البنات لدخولهم تبعاً في البنين ، وقد استجاب الله دعاءه وجعل بنيه أنبياء وجاهدوا الأصنام ، ولما دعا إبراهيم عليه السلام بذلك ، لأن كثيراً من الناس افتتنوا بها ، كما قال : (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) [إبراهيم : ٣٧] فخاف من ذلك ودعا الله أن يعافيه وبنيه من عبادتها ، فإذا كان إبراهيم عليه السلام يسأل الله أن يعفوه ويحجب بنيه عبادة الأصنام ، فما ظنك بغيره ؟ كما قال إبراهيم التيمي : ومن يأمن من البلاء بعد إبراهيم ؟ ا رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وهذا يوجب للقلب الحي أن يخاف من الشرك ، لا كما يقول الجاهل : إن الشرك لا يقع في هذه الأمة ، ولهذا آمنوا الشرك فوقعوا فيه ، وهذا وجه مناسبة الآية للترجمة .

قال : وفي الحديث « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، فستل عنه فقال : « الرياء »

ش : هكذا أورد المصنف هذا الحديث مختصراً غير معرف ، وقد رواه الإمام أحمد والطبراني ، وابن أبي الدنيا ، والبيهقي في « الزهد » ، وهذا لفظ أحمد قال : حدثنا يونس ، ثنا ليث عن يزيد ، يعني ابن الهاد ، عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال : « الرياء » يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء . قال المنذري : ومحمود بن لبيد رأى النبي ﷺ ولم يصح له منه سماع فيما أرى . وذكر ابن أبي حاتم أن البخاري قال : له صحبة . قال : وقال أبي : لاتعرف له صحبة ، ورجح ابن عبد البر والحافظ أن له صحبة وقال : جل روايته عن الصحابة ، وقد رواه الطبراني بإسناد جيد عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج . وقيل : إن حديث محمود هو الصواب دون ذكر رافع . مات محمود سنة ست وتسعين . وقيل : سنة سبع ، وله تسع وتسعون سنة .

قوله : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » هذا من رحمته ﷺ لأمته وشفقته عليهم ، وتحذيره مما يخاف عليهم ، فإنه مامن خير إلا دلهم عليه وأمر به ، وما من شر إلا وأخبرهم به وحذرهم عنه . كما قال ﷺ فيما صح عنه : « ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم » .

ولما كانت النفوس مجبولة على محبة الرياسة والمنزلة في قلوب الخلق إلا من سلم الله ، كان هذا أخوف ما يخاف على الصالحين ، لقوة الداعي إلى

ذلك ، والمعصوم من عصمه الله ، وهذا بخلاف الداعي الى الشرك الأكبر ، فإنه إما معدوم في قلوب المؤمنين الكاملين ، ولهذا يكون الإلقاء في النار أسهل عندهم من الكفر . وإما ضعيف ، هذا مع العافية ، وإما مع البلاء ، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء . فلذلك صار خوفه ﷺ على أصحابه من الرياء أشد لقوة الداعي وكثرته ، دون الشرك الأكبر لما تقدم ، مع أنه أخبر أنه لا بد من وقوع عبادة الأوثان في أمته ، فدل على أنه ينبغي للانسان أن يخاف على نفسه الشرك الأكبر إذا كان الأصغر مخوفاً على الصالحين من الصحابة مع كمال إيمانهم ، فينبغي للانسان أن يخاف الأكبر لنقصان إيمانه ومعرفته بالله ، فهذا وجه إيراد المصنف له هنا مع أن الترجمة تشمل النوعين .

قال المصنف : وفيه أن الرياء عن الشرك ، وأنه من الأصغر ، وأنه أخوف ما يخاف على الصالحين ، وفيه قرب الجنة والنار ، والجمع بين قربيهما في حديث واحد على عمل واحد متقارب في الصورة .

قال : وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « من مات وهو يدعو لله ندأ دخل النار » رواه البخاري .

ش : قال ابن القيم : الند : الشبه ، يقال : فلان ند فلان ونديده ، أي : مثله وشبهه انتهى . وهذا كما قال تعالى : (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) [البقرة : ٢٣] وقال تعالى : (وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار) [الزمر : ٩]

أي : من مات وهو يدعو لله ندأ ، أي : يجعل لله ندأ فيما يختص به تعالى ويستحقه من الربوبية والإلهية دخل النار ، لأنه مشرك ، فان الله تعالى هو المستحق للعبادة لذاته ، لأنه المألوه المعبود الذي تأله القلوب وتوغب إليه ، وتفزع إليه عند الشدائد ، وما سواه فهو مفتقر إليه ، مقهور بالعبودية له ، تجري عليه أقداره وأحكامه طوعاً وكرهاً ، فكيف يصلح أن يكون ندأ ؟ قال الله تعالى : (وجعلوا له من عباده جزءاً لئن الإنسان لكفور مبين) [الزخرف : ١٦] وقال : (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) [مريم : ٩٥ ، ٩٧] وقال تعالى : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد) [فاطر : ١٦] فبطل أن يكون له نديد من خلقه ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) [المؤمنون : ٩٣ ، ٩٤]

واعلم أن دعاء الند على قسمين : أكبر وأصغر ، فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه ، وهو الشرك الأكبر . والأصغر كيسير الرياء ، وقول الرجل ماشاء الله وشئت ، ونحو ذلك . فقد ثبت أن النبي ﷺ لما قال له رجل : ماشاء الله وشئت . قال : « أجعلني لله ندأ ؟ بل ماشاء الله وحده » رواه أحمد وابن أبي شعبة ، والبخاري في « الأدب المفرد » والنسائي ، وابن ماجه ، وقد تقدم حكمه في باب فضل التوحيد .

قال : ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار » .

ش : جابر : هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام بمهملتين الأنصاري ثم السلمي بفتحيتين ، صحابي جليل مكثر ، ابن صحابي ، له ولأبيه مناقب مشهورة رضي الله عنها . مات بالمدينة بعد السبعين ، وقد كف بصره وله أربع وتسعون سنة .

قوله : من لقي الله لا يشرك به شيئاً . قال القرطبي : أي : من لم يتخذ معه شريكاً في الإلهية ولا في الخلق ، ولا في العبادة . ومن المعلوم من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة أن من مات على ذلك ، فلا بد له من دخول الجنة وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة ، وإن مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة ، ويخلد في النار أبداً الآباد من غير انقطاع عذاب ، ولا تصرف آماد ، وهذا معلوم ضروري من الدين ، مجمع عليه بين المسلمين . وقال النووي : أما دخول المشرك إلى النار ، فهو على عمومته ، فيدخلها ويخلد فيها ، ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني ، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة من المرتدين والمعطلين ، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره ، ولا بين من خالف ملة الاسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجهده وغير ذلك . وأما دخول من مات غير مشرك الجنة ، فهو مقطوع له به ، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة أولاً ، وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها ، فهو تحت المشيئة ، فإن عفا عنه دخل الجنة أولاً ، وإلا عذب في النار ثم أخرج فيدخل الجنة .

وقال غيره : اقتصر على نفي الشرك لاستدعائه التوحيد بالافتضاء ، واستدعائه لإثبات الرسالة بالزوم ، إذ من كذب رسل الله ، فقد كذب الله ، ومن كذب الله ، فهو مشرك ، وهو قولك : من توطأ صحت صلاته ، أي مع سائر الشروط ، فالمراد من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به إجمالاً في الإجمالي ، وتفصيلاً في التفصيلي .

قلت : قد تقدم بعض ما يتعلق بذلك في باب فضل التوحيد .

قال المصنف : وفيه تفسير لا إله إلا الله ، كما ذكره البخاري في « صحيحه » يعني أن معنى لا إله إلا الله : ترك الشرك وإفراد الله بالعبادة والبراءة من عبده سواه كما بينه الحديث ، وفيه فضيلة من سلم من الشرك .

باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

ش : لما بين المصنف رحمه الله الأمر الذي خلقت له الخليفة وفضله وهو التوحيد ، وذكر الخوف من ضده الذي هو الشرك ، وأنه يوجب لصاحبه الخلود في النار ، به بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه كما يظن الجاهل ؛ ويقولون : اعمل بالحق واترك الناس وما يعينك من الناس ، بل يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ، كما كان ذلك شأن المسلمين وأتباعهم إلى يوم الدين ، وكما جرى للمصنف وأشباهه من أهل العلم والدين والصبر واليقين .

وإذا أراد الدعوة إلى ذلك ، فليبدأ بالدعوة إلى التوحيد الذي هو معنى شهادة أن : لا إله إلا الله ، إذ لا تصح الأعمال إلا به فهو أصلها الذي تبنى عليه ، ومتى لم يوجد ، لم ينفع العمل ، بل هو حابط ، إذ لا تصح

العبادة مع الشرك ، كما قال تعالى : (ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون) [التوبة : ١٩] ولأن معرفة معنى هذه الشهادة هو أول واجب على العباد ، فكان أول ما يبدأ به في الدعوة .

قال : وقوله تعالى : (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) [يوسف : ١٠٩] .

ش : قال ابن كثير : يقول تعالى لرسوله ﷺ آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله ، أي : طريقته وسنته ، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى مادعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة وبرهان عقلي شرعي . وقوله : (سبحان الله) ، أي : وأنزه الله وأجل وأعظم عن أن يكون له شريك ونديد ، تبارك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

قلت : فتبين وجه المطابقة بين الآية والترجمة . قيل : ويظهر ذلك إذا كان قوله : (ومن اتبعني) عطفاً على الضمير في (أدعو إلى الله) فهو دليل على أن أتباعه هم الدعوة إلى الله تعالى ، وإن كان عطفاً على الضمير المنفصل ، فهو صريح في أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم ، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين ، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله .

وفي الآية مسائل نبه عليها المصنف منها التنبيه على الإخلاص ، لأن كثيراً ولو دعا إلى الحق ، فهو يدعو إلى نفسه . ومنها أن البصيرة من الفرائض ، ووجه ذلك أن أتباعه ﷺ واجب ، وليس أتباعه حقاً إلا

أهل البصيرة ، فمن لم يكن منهم فليس من أتباعه ، فتعين أن البصيرة من الفرائض . ومنها أن من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه الله عز وجل عن المسبة ، ومنها أن من أقبح الشرك كونه مسبة لله . ومنها إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير معهم ولو لم يشرك ، وكل هذه الثلاث في قوله : (سبحان الله) الآية .

قال : وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له : « إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوم إليه شهادة أن لا إله إلا الله » وفي رواية : « إلى أن يوحدوا الله » فان هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ؛ فان هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فان هم أطاعوك لذلك ، فاياك وكراهم أموالهم : واثق دعوة المظلوم ، فانه ليس بينها وبين الله حجاب » أخرجه .

ش : قوله : لما بعث معاذاً إلى اليمن . قال الحافظ : كان بعث معاذاً إلى اليمن سنة عشر قبل حج النبي ﷺ كما ذكره المصنف - يعني البخاري - في أواخر المغازي . وقيل : كان ذلك في آخر سنة تسع عند منصرفه ﷺ من تبوك . رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك ، وأخرجه ابن سعد في « الطبقات » عنه ثم حكى ابن سعد أنه كان في ربيع الآخر سنة عشر . وقيل : بعثه عام الفتح سنة ثمان . واتفقوا أنه لم يزل على اليمن إلى أن قدم في عهد أبي بكر ، ثم توجه إلى الشام

فمات بها ؛ واختلف هل كان معاذ والياً أو قاضياً ، فجزم ابن عبد البر
بالثاني ، والغساني بالأول .

قلت : الظاهر أنه كان والياً قاضياً .

قوله : إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب . قال القرطبي : يعني به
اليهود والنصارى ، لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب أو
أغلب ، وإنما نهى على هذا لينهاً لمناظرتهم ، وبعد الأدلة لامتثالهم ، لأنهم
أهل علم سابق ، بخلاف المشركين وعبداء الأوثان . وقال الحافظ : هو
كالتوطئة للوصية ليجمع همه عليها ، ثم ذكر معنى كلام القرطبي .

قلت : وفيه أن مخاطبة العالم ليست كمخاطبة الجاهل ، والتنبيه على
أنه ينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة في دينه ، لئلا يبتلى بمن يورد
عليه شبهة من علماء المشركين ، ففيه التنبيه على الاحتراز من الشبه ،
والحرص على طلب العلم .

قوله : فليكن أول ما تدعوهن إليه شهادة أن لا إله إلا الله . يجوز
رفع « أول » مع نصب « شهادة » وبالعكس .

قوله : وفي رواية : « إلى أن يوحّدوا الله » هذه الرواية في التوحيد
من « صحيح البخاري » وفي بعض الروايات : « فادعهم إلى شهادة أن
لا إله إلا الله وأني رسول الله » وفي بعضها « وأن محمداً رسول الله »
وأكثر الروايات فيها ذكر الدعوة إلى الشهادتين . وأشار المصنف رحمه الله
بإيراد هذه الرواية إلى التنبيه على معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، إذ معناها
توحيد الله بالعبادة ، وترك عبادة ما سواه . فلذلك جاء الحديث مرة
بلفظ « شهادة أن لا إله إلا الله » ومرة « إلى أن يوحّدوا الله » ومرة

« فليكن أول ما تدعوم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات » وذلك هو الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله الذي قال الله فيه : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) [البقرة : ٢٥٧] .

ومعنى الكفر بالطاغوت : هو خلع الأنداد والآلهة التي تدعى من دون الله من القلب ، وترك الشرك بها رأساً ، وبغضه وعداوته . ومعنى الإيمان بالله : هو إفراده بالعبادة التي تتضمن غاية الحب بغاية الذل والانقياد لأمره ، وهذا هو الإيمان بالله المستلزم للإيمان بالرسول عليهم السلام ، المستلزم لإخلاص العبادة لله تعالى ، وذلك هو توحيد الله تعالى ودينه الحق المستلزم للعلم النافع ، والعمل الصالح ، وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله ، وحقيقة المعرفة بالله ، وحقيقة عبادته وحده لا شريك له . فله ما أفقه من روى هذا الحديث بهذه الألفاظ المختلفة لفظاً المتفقة معنى ، فعرفوا أن المراد من شهادة أن لا إله إلا الله هو الإقرار بها علماً ونطقاً وعملاً ، خلافاً لما يظنه بعض الجهال أن المراد من هذه الكلمة هو مجرد النطق بها ، أو الإقرار بوجود الله أو ملكه لكل شيء من غير شريك ، فإن هذا القدر قد عرفه عباد الأوثان وأقروا به ، فضلاً عن أهل الكتاب ؛ ولو كان كذلك لم يحتاجوا إلى الدعوة إليه .

وفيه دليل على أن التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وترك عبادة ما سواه هو أول واجب ، فلماذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام ، كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) [الأنبياء : ٢٦]

وقال ﷺ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا
الطاغوت ([النحل : ٢٧] .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وقد علم بالاضطرار من دين الرسول
ﷺ ، واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام ، وأول ما يؤمر به الخلق
شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلماً ،
والعدو ولياً ، والمباح دمه وماله معصومٌ الدم والمال ، ثم إن كان ذلك
من قلبه ، فقد دخل في الإيمان ، وإن قاله بلسانه دون قلبه ، فهو في
ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان ، وفيه البداءة في الدعوة والتعليم بالأهم
فالأهم ، واستدل به من قال من العلماء : إنه لا يشترط في صحة الإسلام
النطق بالتبري من كل دين يخالف دين الإسلام ، لأن اعتقاد الشهادتين
يستلزم ذلك وفي ذلك تفصيل .

وفيه : أنه لا يحكم بإسلام الكافر إلا بالنطق بالشهادتين . قال شيخ
الإسلام : فأما الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق
المسلمين ، وهو كافر باطناً وظاهراً عند سلف الأمة وأئمتها ، وجماهير علمائها .
قلت : هذا والله أعلم فيمن لا يقربها أو بأحدهما ، أما من كفره مع
الإقرار بهما ففيه بحث ، والظاهر أن إسلامه هو توبة عما كفر به .

وفيه أن الإنسان قد يكون قارئاً عالماً وهو لا يعرف معنى لا إله إلا
الله أو يعرفه ولا يعمل به ، نبه عليه المصنف .

وقال بعضهم : هذا الذي أمر به النبي ﷺ معاذاً ، هو الدعوة
قبل القتال التي كان يوصي بها النبي ﷺ أمراءه قلت : فعلى هذا فيه

استجاب الدعوة قبل القتال لمن بلغته الدعوة ، أما من لم تبلغه فتجب دعوته .

قوله : فإن هم أطاعوك لذلك ، أي : شهدوا وانقادوا لذلك .

قوله : فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات ، فيه أن الصلاة بعد التوحيد والإقرار بالرسالة أعظم الواجبات وأحبها ، واستدل به على أن الكفار غير مخاطبين بالفروع حيث دعاهم أولاً إلى التوحيد فقط ، ثم دعوا إلى العمل ورتب ذلك عليها بالفاء ، وأيضاً فإن قوله : « فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم » يفهم منه أنهم لو لم يطيعوا لم يجب عليهم شيء . قال النووي : وهذا الاستدلال ضعيف ، فإن المراد أعلمهم بأنهم مطالبون بالصلوات وغيرها في الدنيا ، والمطالبة في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام ، ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها ، ويزاد في عذابهم بسببها في الآخرة ، قال : ثم اعلم أن المختار الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهي عنه ، هذا قول المحققين والأكثرين . قلت : ويدل عليه قوله تعالى : (قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب يوم الدين حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين) [المدثر : ٤٤ ، ٤٩] الآيات . وفيه دليل على أن الوتر ليس بفرض إذ لو كان فرضاً لكان صلاة سادسة لاسيما وهذا في آخر الأمر .

قوله : فإن هم أطاعوك لذلك ، أي : آمنوا بأن الله افترضها عليهم وفعلوها . قوله : فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فيه دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلاة ،

وأنها تؤخذ من الأغنياء ، وتصرف إلى الفقراء ، وإنما خص النبي ﷺ الفقراء بالذكر مع أنها تدفع إلى المجاهد والعامل ونحوهما وإن كانوا أغنياء ، لأن الفقراء - والله أعلم - هم أكثر من تدفع إليهم ، أو لأن حقهم أكد . وفيه أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها إما بنفسه أو نائبه ، فمن امتنع عن أدائها إليه أخذت منه قهراً . قيل : وفيه دليل على أنه يكفي لإخراج الزكاة في صنف واحد كما هو مذهب مالك وأحمد . وعلى ما تقدم لا يكون فيه دليل . وفيه أنه لا يجوز دفعها إلى غني ولا كافر ، وأن الفقير لازكاة عليه ، وأن من ملك نصيباً لا يعطى من الزكاة من حيث إنه جعل المأخوذ منه غنياً وقابله بالفقير . ومن ملك النصاب فالزكاة مأخوذة منه فهو غني ، والغنى مانع من إعطاء الزكاة إلا من استثنى ، وأن الزكاة واجبة في مال الصبي والمجنون ، كما هو قول الجمهور لعموم قوله : من أغنيائهم .

قوله : « فإياك وكرائم أموالهم » هو بنصب « كرائم » على التحذير ، والكرائم جمع كريمة ، أي : نفيسة . قال صاحب « المطالع » . وهي جامعة الكمال الممكن في حقها من غزارة لبن وجمال صورة ، أو كثرة لحم وصوف . ذكره النووي . وفيه أنه يحرم على العامل اخذ كرائم المال في الزكاة ، بل يأخذ الوسط ، ويحرم على صاحب المال إخراج شر المال ، بل يخرج : الوسط ، فإن طابت نفسه بإخراج الكريمة جاز .

قوله : « واتق دعوة المظلوم » أي : احذر دعوة المظلوم واجعل بينك وبينها وقاية بفعل العدل وترك الظلم ، لئلا يدعو عليك المظلوم . وفيه

تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم ، والنكته في ذكره عقب المنع من أخذ الكرائم إشارة إلى أن أخذها ظلم ، ذكره الحافظ .

قوله : فانه - أي الشأن - ليس بينها وبين الله حجاب . أي : لا تحجب عن الله تعالى ، بل ترفع إليه فيقبلها وإن كان عاصياً ، كما في حديث أبي هريرة عند أحمد مرفوعاً : « دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه ، وإسناده حسن ، قاله الحافظ . وقال أبو بكر بن العربي : هذا وإن كان مطلقاً ، فهو مقيد بالحديث الآخر أن الداعي على ثلاث مراتب : إما أن يعجل له ما طلب ، وإما أن يدخر له أفضل منه ، وإما أن يدفع عنه السوء مثله . وهذا كما قيد مطلق قوله (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) [النمل : ٦٣] بقوله تعالى (فيكشف ما تدعون إليه إن شاء) [الأنعام : ٤٢] وفي الحديث أيضاً قبول خبر الواحد العدل ووجوب العمل به ، وأن الإمام يبعث العمال لجباية الزكاة وأنه يعظ عماله وولاته ، ويأمرهم بتقوى الله ، ويعلمهم ما يحتاجون إليه ، وينهاهم عن الظلم ، ويعرفهم قبح عاقبته والتنبيه على التعليم بالتدريج ، ذكره المصنف .

واعلم انه لم يذكر في هذا الحديث ونحوه الصوم والحج ، مع أن بعث معاذ كان في آخر الأمر كما تقدم ، فأشكل ذلك على كثير من العلماء . قال شيخ الإسلام : أجاب بعض الناس أن الرواة اختصر بعضهم الحديث وليس الأمر كذلك ، فإن هذا طعن في الرواة ، لأن هذا إنما يقع في الحديث الواحد مثل حديث عبد القيس حيث ذكر بعضهم الصيام وبعضهم لم يذكره . فأما الحديثان المنفصلان ، فليس الأمر فيها كذلك ، ولكن عن هذا جوابان :

أحدهما : أن ذلك بحسب نزول الفرائض ، وأول ما فرض الله الشهادتان ثم الصلاة ، فإنه أمر بالصلاة في أول أوقات الوحي ، ولهذا لم يذكر وجوب الحج في عامة الأحاديث إنما جاء في الأحاديث المتأخرة . قلت : وهذا من الأحاديث المتأخرة ولم يذكر فيها الجواب .

الثاني : أنه كان يذكر في كل مقام ما يناسبه ، فيذكر تارة الفرائض التي يقاتل عليها كالصلاة والزكاة ، ويذكر تارة الصلاة والصيام إن لم يكن عليه زكاة ، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصيام ، فإذا أن يكون قبل فرض الحج كما في حديث عبد القيس ونحوه ، وإذا أن يكون الخطاب بذلك لاحق عليه .

وأما الصلاة والزكاة ، فلها شأن ليس لساير الفرائض ، ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه القتال عليهما ، لأنها عبادتان ظاهرتان بخلاف الصوم ، فإنه أمر باطن وهو بما ائتمن عليه الناس ، فهو من جنس الوضوء والغتسال من الجنابة ونحو ذلك بما يؤمن عليه العبد ، فإن الإنسان يمكنه أن لا ينوي الصوم وأن يأكل سراً ، كما يمكنه أن يكتم حديثه وجنابته ، بخلاف الصلاة والزكاة ، وهو ﷺ يذكر في الإعلام الأعمال الظاهرة التي يقاتل الناس عليها ، ويصيرون مسلمين بفعلها ، فلماذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصيام ، وإن كان واجباً كما في آيتي (براءة) فإن (براءة) نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس . وكذلك لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن لم يذكر في حديثه الصيام ، لأنه تبع وهو باطن ولا ذكر الحج ، لأن وجوبه خاص ليس بعام ، وهو لا يجب في العمر إلا مرة واحدة . انتهى ملخصاً بمعناه .

قوله : أخرجاه ، أي : أخرجه البخاري ومسلم في « الصحيحين »
وأخرجه أيضاً أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

قال : ولها عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر :
لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ،
يفتح الله على يديه ، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ؟ فلما
أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها . فقال :
أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يشتكي عينيه قال : فأرسلوا إليه ،
فأتى به ، فبصق في عينيه ، ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع ،
فأعطاه الراية وقال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم
إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله
لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من مهر النعم « يدوكون
أي : يخوضون .

ش : قال شيخ الإسلام : هذا الحديث أصح ما روي لعلي رضي الله
عنه من الفضائل أخرجاه في « الصحيحين » من غير وجه .

قوله : عن سهل . هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصاري
الحزرجي الساعدي أبو العباس صحابي شهير ، وأبوه صحابي أيضاً . مات
سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة .

قوله : قال يوم خيبر ، أي : في غزوة خيبر . في « الصحيحين »
واللفظ لمسلم عن سلمة بن الأكوع قال : كان علي رضي الله عنه قد تخلف
عن النبي ﷺ في خيبر ، وكان رمداً ، فقال : أنا تخلفت عن رسول الله
ﷺ ، فخرج علي رضي الله عنه فليق بالنبي ﷺ ؛ فلما كان مساء الليلة

التي فتحها الله عز وجل في صباحها قال رسول الله ﷺ : « لأعطين الراية
أو ليأخذن بالراية غداً رجل يحب الله ورسوله » أو قال : « يحب الله
ورسوله يفتح الله عليه » فإذا نحن بعلي وما نرجوه . فقالوا : هذا علي :
فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ، ففتح الله عليه . وهذا يبين أن علياً
رضي الله عنه لم يشهد أول خيبر ، وأنه عليه السلام قال هذه المقالة مساء
الليلة التي فتحها الله في صباحها .

قوله : « لأعطين الراية » قال الحافظ في رواية بريدة : « إني دافع
اللواء إلى رجل يحب الله ورسوله » والراية بمعنى اللواء ، وهو العلم الذي
يحمل في الحرب ، يعرف به موضع صاحب الجيش وقد يحمله أمير الجيش ،
وقد يدفعه لمقدم العسكر . وقد صرح جماعة من أهل اللغة بتوادفها ،
لكن روى أحمد والنسائي من حديث ابن عباس : كانت راية
رسول الله ﷺ سوداء ، ولواؤه أبيض . ومثله عند الطبراني عن بريدة ،
وعند ابن عدي عن أبي هريرة وزاد : مكتوب فيه : لا إله إلا الله محمد
رسول الله ، وهو ظاهر في التغاير فلعل التفرقة بينها عرفية .

قوله : يحب الله ورسوله ويحب الله ورسوله . فيه فضيلة عظيمة لعلي
رضي الله عنه ، لأن النبي ﷺ شهد له بذلك ، ولكن ليس هذا من
خصائصه . قال شيخ الإسلام : ليس هذا الوصف مختصاً بعلي ولا بالأئمة ،
فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن بقي يحب الله ورسوله ، لكن هذا
الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذي يتبرؤن منه ولا يتولونه ،
بل لقد يكفرونه أو يفسقونه كالأرج . لكن هذا الاحتجاج لا يتم على
قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل

ردّتهم ، فإن الحوارج تقول في علي مثل ذلك ، لكن هذا باطل فإن الله ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم أنه يموت كافراً . وفيه إثبات صفة المحبة لله ، وفيه إشارة إلى أن علياً قام الاتباع لرسول الله ﷺ حتى أحبه الله ، ولهذا كانت محبته علامة الإيمان ، وبغضه علامة النفاق . ذكره الحافظ بمعناه .

قوله : يفتح الله على يديه . صريح في البشارة بحصول الفتح على يديه ، فكان الأمر كذلك ، ففيه دليل على شهادة أن محمداً رسول الله .

قوله : فبات الناس يدوكون ليلتهم ، هو بنصب « ليلتهم » على الظرفية ، ويدوكون قال المصنف : يخوضون . والمراد أنهم باتوا تلك الليلة في خوض واختلاف فيمن يدفعها إليه ، وفيه حرص الصحابة على الخير ومزيد اهتمامهم به ، وذلك يدل على علو مراتبهم في العلم والإيمان .

قوله : أيهم يعطاها . فهو برفع « أي » على البناء .

قوله : فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها . وفي رواية أبي هريرة عند مسلم : أن عمر قال : أحببت الإمارة إلا يومئذ . فإن قلت : إن كانت هذه الفضيلة لعلي رضي الله عنه ليست من خصائصه ؛ فلماذا تقي بعض الصحابة أن يكون له ذلك ؟ قيل الجواب كما قال شيخ الاسلام أن في ذلك شهادة النبي ﷺ لعلي بإيمانه باطلاً وظاهراً ، وإثبات لموالاته لله ورسوله ، ووجوب موالاته المؤمنين له ، وإذا شهد النبي ﷺ لمعين بشهادة أو دعا له بدعاء أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة ، ومثل ذلك الدعاء ، وإن كان النبي ﷺ يشهد بذلك لخلق كثير ويدعو به لخلق كثير ، وكان تعيينه لذلك المعين

من أعظم فضائله ومناقبه ، وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس وعبد الله ابن سلام وغيرهما ، وإن كان قد شهد بالجنة لآخرين ، والشهادة لمحبة الله ورسوله للذي ضرب في الحمر . قلت : وفي هذه الجملة أيضاً حرص الصحابة على الخير .

قوله : فقال : ابن علي بن أبي طالب . قال بعضهم : كأنه ﷺ استبعد غيبته عن حضرته في مثل ذلك الموطن ، لاسيما وقد قال : لأعطين الراية إلى آخره وقد حضر الناس وكلهم طمع بأن يكون هو الذي يفوز بذلك الوعد . وفيه سؤال الإمام عن رعيته وتفقده أحوالهم وسؤاله عنهم في مجامع الخير .

قوله : فقل له : هو يشتكي عينيه ، أي : من الرمد كما في « صحيح مسلم » عن سعد بن أبي وقاص فقال : ادعوا لي علياً ، فأتي به أرمده فبصق في عينيه .

قوله : قال : فأرسلوا إليه . بهمزة قطع ، أمر من الإرسال ، أمرهم بأن يرسلوا إليه فيدعوه له . ولمسلم من طريق إياس بن سلمة عن أبيه قال : فأرسلني إلى علي ، فبحثت به أقوده أرمده ، فبصق في عينيه فبرأ . قوله : فبصق بفتح الصاد ، أي : تفل .

قوله : ودعاه فبرأ . وهو بفتح الراء والهمزة ، بوزن ضرب ، ويجوز الكسر بوزن علم ، أي : عوفي في الحال عافية كاملة ، كأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر أصلاً . وعند الطبراني من حديث علي : فما رمدت ولا صدعت منذ دفع إلي النبي ﷺ الراية . وفيه دليل على الشهادتين .

قوله : فأعطاه الراية . قال المصنف : فيه الإيثار بالقدر لحصولها لمن لم يسع ، ومنعها ممن سعى ، وفيه التوكل على الله ، والإقبال بالقلب إليه ، وعدم الالتفات إلى الأسباب ، وإن فعلها لا ينافي التوكل .

قوله : وقال انفذ على رسلك . أما « انفذ » فهو بضم الفاء ، أي : امض لوجهك . ورسلك : بكسر الراء وسكون السين ، أي : على رفئك ولينك من غير عجلة ، يقال لمن يعمل الشيء برفق . وساحتهم : فناء أرضهم ، وهو حوالها . وفيه الأدب عند القتال ، وترك الطيش والأصوات المزعجة التي لا حاجة إليها ، وفيه أمر الإمام عماله بالرفق واللين من غير ضعف ولا انتقاض عزيزة كما يشير إليه قوله : حتى تنزل بساحتهم .

قوله : ثم ادعهم إلى الإسلام ، أي : الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ومن هذا الوجه طابق الحديث الترجمة . وفي حديث أبي هريرة عند مسلم : فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، فأعطاه الراية وقال : امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك . فسار علي شيئاً ثم وقف ولم يلتفت ، فصرخ : يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس ؟ فقال : قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ، وفيه أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، المراد بها الدعوة إلى الاخلاص بها وترك الشرك وإلا فاليهود يقولونها ، ولم يفرق النبي ﷺ في الدعوة إليها بينهم وبين من لا يقولها من مشركي العرب ، فعلم أن المراد من هذه الكلمة هو اللفظ بها ، واعتقاد معناها ، والعمل به ، وذلك هو معنى قوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة

سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ([آل عمران : ٦٥] وقوله : (قل إنما أُمِرْتُ أَنْ أُعْبِدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ شيئاً إلهه أدعو وإليه مآب) [الرعد : ٣٩] وذلك هو معنى قوله : ادعهم إلى الإسلام الذي هو الاستسلام لله تعالى ، والانقياد له . بفعل التوحيد وترك الشرك . وفيه مشروعية الدعوة قبل القتال ، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداء ، لأن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون ، وتستحب دعوتهم لهذا الحديث وما في معناه ، وإن كانوا لم تبلغهم وجبت دعوتهم .

وقوله : وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه . أي : في الإسلام ، أي : إذا أجابوا إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقوقه التي لا بد من فعلها ، كالصلاة ، والزكاة ، وهذا كقوله في حديث أبي هريرة : « فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وقد فسره أبو بكر الصديق لعمر رضي الله عنها لما قاتل أهل الردة الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقال له عمر : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ؟ » قال أبو بكر : فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلهم على منعها .

وحاصله أنهم إذا أجابوا إلى الإسلام الذي هو التوحيد فأخبرهم بما

يجب عليهم بعد ذلك من حق الله تعالى في الاسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام الظاهرة وحقوقه فان أجابوا إلى ذلك فقد أجابوا إلى الاسلام حقاً ، وإن امتنعوا عن شيء من ذلك فالقتال باق بحاله إجماعاً . فدل على أن النطق بكلمتي الشهادة دليل العصمة لا أنه عصمة ، أو يقال : هو العصمة لكن بشرط العمل ، يدل على ذلك قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) [النساء : ٩٤] الآية ولو كان النطق بالشهادتين عاصماً لم يكن للتثبت معنى ، يدل على ذلك قوله تعالى : (فان تابو) أي عن الشرك وفعلوا التوحيد (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) [التوبة : ٧] فدل على أن القتال يكون على هذه الأمور . وفيه أن الله تعالى حقوقاً في الإسلام من لم يأت بها لم يكن مسلماً ، كإخلاص العبادة له والكفر بما يعبد من دونه . وفيه بعث الإمام الدعاة إلى الله ، كما كان النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون يفعلون . وفيه تعليم الإمام أمراءه وعماله ما يحتاجون إليه .

قوله : فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم « أن » : هي المصدرية ، واللام قبلها مفتوحة ، لأنها لام القسم ، وأن مدخولها مسبوك بمصدر مرفوع على أنه مبتدأ خبره « خير » وجر بضم المهملة وسكون الميم . والنعم بفتح النون والعين المهملة . أي : خير لك من الإبل الحمر ، وهي أنفس أموال العرب ، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء . قيل : المراد خير من أن تكون لك فتصدق بها . وقيل تقتلها وتملكها . قلت : هذا هو الأظهر ، والأول لا دليل عليه . أي

أنكم تحبون متاع الدنيا ، وهذا خير منه . قال النووي : وتشبه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام ، وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها ، وأمثالها معها . وفيه فضيلة الدعوة إلى الله ، وفضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد ، وجواز الحلف على الفتيا والقضاء والخبر ، والحلف من غير استحلاف .

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

ش : أي تفسير هاتين الكلمتين ، والعطف لتغاير اللفظين ، وإلا فالمعنى واحد . ولما ذكر المصنف في الأبواب السابقة التوحيد وفضائله ، والدعوة إليه ، والخوف من ضده الذي هو الشرك ، فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة هذا الأمر الذي خلقت له الخليفة ، والذي بلغ من شأنه عند الله أن من لقيه به غفر له ، وإن لقيه بلاء الأرض خطايا ؛ بين رحمه الله في هذا الباب أنه ليس اسماً لا معنى له ، أو قولاً لا حقيقة له كما يظنه الجاهلون الذين يظنون أن غاية التحقيق فيه هو النطق بكلمة الشهادة من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني ، والخاذق منهم يظن أن معنى الإله هو الخالق المتفرد بالملك ، فتكون غاية معرفته هو الاقرار بتوحيد الربوبية ، وهذا ليس هو المراد بالتوحيد ، ولا هو أيضاً معنى « لا إله إلا الله » ، وإن كان لا بد منه في التوحيد بل التوحيد اسم لمعنى عظيم ، وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني .

وحاصله هو البراءة من عبادة كل ما سوى الله ، والإقبال بالقلب والعبادة على الله ، وذلك هو معنى الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله ،

فهو معنى « لا إله إلا الله » كما قال تعالى : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) [البقرة : ١٦٤] وقال تعالى حكاية عن مؤمن يس : (ومالي لأعبد الذي فطرني وإليه ترجعون : أتأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا يتقنون . إني إذا لفي ضلال مبين) [يس : ٢٣ - ٢٥] وقال تعالى : (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصاً له ديني) [الزمر : ١٢ - ١٥] وقال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون : (ويقوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار . تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أن ماتدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة) [غافر : ٤٢ - ٤٤] والآيات في هذا كثيرة تبين أن معنى « لا إله إلا الله » هو البراءة من عبادة ما سوى الله من الشفعاء والأنداد ، وإفراد الله بالعبادة . فهذا هو الهدى ، ودين الحق الذي أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه .

أما قول الإنسان « لا إله إلا الله » من غير معرفة لمعناها ، ولا عمل به ، أو دعواه أنه من أهل التوحيد ، وهو لا يعرف التوحيد ، بل ربما يخلص لغير الله من عبادته من الدعاء والخوف والذبح والنذر والتوبة والإنابة وغير ذلك من أنواع العبادات ، فلا يكفي في التوحيد ، بل لا يكون إلا مشركاً والحالة هذه ، كما هو شأن عباد القبور . ثم ذكر المصنف آيات تدل على هذا فقال :

وقول الله تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة

أُيهم أقرب ويرجون رحمة ويخافون عذابه) [الاسراء : ٥٨] الآية .
قلت بين معنى هذه الآية التي قبلها ، وهي قوله (قل ادعوا الذين زعمتم
من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً أولئك الذين يدعون)
[الاسراء ٥٧] الآية .

قال ابن كثير : يقول تعالى : قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من
دونه من الأنداد ، وارغبوا إليهم ، فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم ،
أي : بالسكينة ، ولا تحويلاً ، أي : أن يحولوه الى غيركم ، والمعنى : إن
الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له . قال العوفي عن ابن عباس
في الآية : كان أهل الشرك يقولون : نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً وهم
الذين يدعون يعني : الملائكة وعزيراً .

وقوله (أولئك الذين يدعون) الآية وروى البخاري عن ابن مسعود
في الآية قال : ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا . وفي رواية : كان
ناس من الانس يعبدون ناساً من الجن ، فأسلم الجن ، وتمسك هؤلاء
بدينهم . وقال السدي عن ابي صالح عن ابن عباس في الآية : قال : عيسى
وأمه وعزير . وقال مغيرة عن ابراهيم : كان ابن عباس يقول في هذه
الآية : هم عيسى وعزير والشمس والقمر . وقال مجاهد : عيسى وعزير
والملائكة وقوله : (ويرجون رحمة ويخافون عذابه) [الاسراء : ٥٨]
لاتم العبادة إلا بالخوف والرجاء .

وفي التفسير المنسوب إلى الطبري الحنفي قل للمشركين : يدعون
أصنامهم دعاء استغاثة فلا يقدرون كشف الضر عنهم ، ولا تحويلاً إلى غيرهم
أولئك الذين يدعون ، أي : الملائكة المعبودة لهم يتبادرون إلى طلب

القرية إلى الله ، فيرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً ، أي : بما يحذره كل عاقل . وعن الضحاك وعطاء ، أنهم الملائكة .
وعن ابن عباس : أولئك الذين يدعون عيسى وأمه وعزيراً .

قال شيخ الإسلام : وهذه الأقوال كلها حق ، فإن الآية تعم من كان معبوده عابداً لله سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر ، والسلف في تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل ، كما يقول الترجمان لمن سأله مامعنى لفظ الحيز ؟ فيريه رغيماً ، فيقول : هذا ، فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه ، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع مع شمول الآية للنوعين ، فالآية خطاب لكل من دعا دون الله مدعواً . وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة ، ويرجو رحمته ، ويخاف عذابه . فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها ، فقد تناولته هذه الآية ، كما تناول من دعا الملائكة والجن ، ومعلوم أن هؤلاء كلهم يكونون وسائط فيما يقدره الله بأفعاله ، ومع هذا فقد نهى الله عن دعائهم ، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله ، لا يرفعونه بالكلية ، ولا يحولونه من موضع إلى موضع ، كتنغير صفته أو قدره ، ولهذا قال : (ولا تحويلاً) فذكر نكرة تعم أنواع التحويل فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين ، أو دعا الملائكة أو دعا الجن ، فقد دعا من لا يغيثه ، ولا يملك كشف الضر عنه ، ولا تحويله انتهى . ونحن ما تقدم من كلام هؤلاء قال جميع المفسرين : فتبين أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله : هو ترك ما عليه المشركون من دعوة الصالحين ، والاستشفاع بهم إلى الله

في كشف الضر وتحويله ، فكيف بمن أخلص لهم الدعوة ، وانه لا يكفي في التوحيد دعواه ، والنطق بكلمة الشهادة من غير مفارقة لدين المشركين ، وان دعاء الصالحين لكشف الضر أو تحويله هو الشرك الأكبر نبه عليه المصنف .

قال : وقوله : (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون . إلا الذي فطرني) [الزخرف : ٢٧ - ٢٨] الآية . قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الخلفاء ، ووالد من بعث بعده من الأنبياء ، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها : إنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال (إنني براء مما تعبدون . إلا الذي فطرني فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه) [الزخرف : ٢٧ - ٢٨] أي : هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ماسواه من الأوثان ، وهي لا إله إلا الله أي : جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام . لعلمهم يرجعون ، أي : اليها . قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله : (وجعلها كلمة باقية في عقبه) : يعني لا إله إلا الله ، لا يزال في ذريته من يقولها . وقال ابن زيد : كلمة الإسلام ، وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة .

قلت : وروى ابن جرير عن قتادة في قوله : (إلا الذي فطرني) [الزخرف : ٢٨] قال : خلقتني : وعنه (إنني براء مما تعبدون . إلا الذي فطرني) [الزخرف : ٢٧ - ٢٨] قال : إنهم يقولون : إن الله ربنا (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) [الزخرف : ٨٨] فلم يبرأ من ربه . رواه عبد بن حميد . قلت : يعني أن قوم إبراهيم يعبدون الله ويعبدون غيره ، فتنبرأ مما يعبدون إلا الله ،

لا كما يظن الجاهل أن الكفار لا يعرفون الله ، ولا يعبدونه أصلاً. وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة (وجعلها كلمة باقية في عقبه) [الزخرف : ٢٩] قال : الإخلاص والتوحيد ، لا يزال في ذريته من يوحد الله ويعبده .

فتبين بهذا أن معنى لا إله إلا الله هو البراءة بما يعبد من دون الله ، وإفراد الله بالعبادة ، وذلك هو التوحيد لا مجرد الإقرار بوجود الله ومملكته وقدرته وخلقه لكل شيء ، فإن هذا يقر به الكفار وذلك هو معنى قوله (إنني براء بما تعبدون . إلا الذي فطرني) فاستثنى من المعبودين ربه وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي شهادة أن لا إله إلا الله . قاله المصنف .

قال : وقواه تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) [التوبة : ٣٣] .

ش : الأحبار : هم العلماء . والرهبان : هم العباد . وهذه الآية قد فسرها رسول الله ﷺ ، لعدي بن حاتم ، وذلك أنه لما جاء مسلماً دخل على رسول ﷺ وهو يقرأ هذه الآية قال : فقلت : إنهم لم يعبدوه ، فقال : « إنهم حرموا عليهم الحلال وحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياه » رواه أحمد والترمذي وحسنه وعبد بن حميد وابن سعد وابن أبي حاتم والطبراني وغيرهم من طرق . وهكذا قال جميع المفسرين . قال السدي : استنصحوهم الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، ولهذا قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا الله) [التوبة : ٣٣] أي : الذي إذا حرم شيئاً فهو الحرام وما حلله حل ، وما شرعه اتبع . سبحانه .

تعالى عما يشركون ، أي : تعالى وتقدس عن الشركاء والنظراء والأضداد ،
والأنداد ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

ومراد المصنف رحمه الله بإيراد الآية هنا أن الطاعة في تحريم الحلال ،
وتحليل الحرام ، من العبادة المنفية من غير الله تعالى ، ولهذا فسرت
العبادة بالطاعة ، وفسر الإله بالمعبود المطاع ، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك
فقد عبده ، إذ معنى التوحيد ، وشهادة أن لا إله إلا الله يقتضي إفراد
الله بالطاعة ، وإفراد الرسول بالمتابعة ، فإن من أطاع الرسول ﷺ ،
فقد أطاع الله ، وهذا أعظم ما يبين التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ، لأنها
تقتضي نفى الشرك في الطاعة ، فما ظنك بشرك العبادة ، كاللجوء والاستغاثة
والتوبة وسؤال الشفاعة وغير ذلك من أنواع الشرك في العبادة ، وسيأتي
مزيد لهذا إن شاء الله تعالى في باب من أطاع العلماء والأمرأ .

قال وقوله : (ومن الناس من يتخذ من دون الله آلداداً يحبونهم
كحب الله) [البقرة : ١٦٦] .

ش : قال المصنف رحمه الله في مسائله : ومنها ، أي : من الأمور
المبينة لتفسير التوحيد ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، آية البقرة في الكفار
الذين قال الله فيهم : (وما هم بخارجين من النار) [البقرة : ١٦٨]
وذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ،
ولم يدخلهم في الإسلام ، فكيف بمن أحب الله حباً أكبر من حب الله ؟
فكيف بمن لم يحب إلا الله وحده ، ولم يحب الله ؟ قلت : مراده أن
معنى التوحيد ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، هو إفراد الله بأصل الحب
الذي يستلزم إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وعلى قدر التفاضل

في هذا الأصل ، وما يبنى عليه من الأعمال الصالحة يكون تفاضل الإيمان والجزاء عليه في الآخرة . فمن أشرك بالله تعالى في ذلك ، فهو المشرك ، لهذه الآية ، أخبر تعالى عن أهل هذا الشرك أنهم يقولون لأهلهم وهم في الجحيم : (تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين) [الشعراء : ٩٨ - ٩٩] ومعلوم أنهم ما ساووه به في الخلق والرزق والملك ، وإنما ساووه به في المحبة والإلهية والتعظيم والطاعة . فمن قال لا إله إلا الله وهو مشرك بالله في هذه المحبة ، فما قالها حق القول وإن نطق بها ، إذ هو قد خالفها بالعمل ، كما قال المصنف . فكيف بمن أحب الندحاً أكبر من حب الله ؟ وسيأتي الكلام على هذه الآية في بابها إن شاء الله تعالى .

قال في «الصحيح» عن النبي ﷺ قال : « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله » .

ش : قوله في « الصحيح » أي : « صحيح مسلم » عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه عن النبي ﷺ فذكره . وأبو مالك اسمه سعد بن طارق . كوفي ثقة مات في حدود الأربعين ومائة ، وأبوه طارق بن أشيم بالمعجمة والمنشأة التحية وزن أحمر ابن مسعود الأشجعي صحابي له أحاديث . قال مسلم : لم يرو عنه غير ابنه .

قوله : « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله » اعلم أن النبي ﷺ في هذا الحديث علق عصمة المال والدم بأمرين : الأول : قول لا إله إلا الله . الثاني : الكفر بما يعبد من دون الله ، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى ، بل لابد من قولها والعمل بها .

قال المصنف : وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله ، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع التلفظ بها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم دمه وماله حتى يضيف الى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه ، فيا لها من مسألة ما أجلبها ، وباله من بيان ما أوضحه ، وحجة ما أقطعها للنزاع .

قلت : وقد أجمع العلماء على معنى ذلك فلا بد في العصمة من الإتيان بالتوحيد ، والتزام أحكامه ، وترك الشرك كما قال تعالى : (وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) [الأنفال : ١٤٠] والفتنة هنا : الشرك ، فدل على أنه إذا وجد الشرك ، فالقتال باق بحاله كما قال تعالى : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) [التوبة : ٣٧] وقال تعالى : (فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذلهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن ظفروا فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) [التوبة : ٧] فأمر بقتالهم على فعل التوحيد ، وترك الشرك ، وإقامة شعائر الدين الظاهرة ، فإذا فعلوها خلى سبيلهم ، ومتى أبوا عن فعلها أو فعل شيء منها ، فالقتال باق بحاله إجماعاً . وله قالوا لا إله إلا الله .

وكذلك النبي ﷺ علق العصمة بما علقها الله به في كتابه كما في هذا الحديث . وفي « صحيح مسلم » . عن أبي هريرة مرفوعاً « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم

إلا بحقها وحسابهم على الله ، وفي « الصحيحين » عنه قال : لما توفي رسول الله وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر بن الخطاب لأبي بكر : كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله ، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله » فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه . فقال عمر بن الخطاب : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق . لفظ مسلم ، فانظر كيف فهم صديق الأمة أن النبي ﷺ لم يرد مجرد اللفظ بها من غير إلزام لمعناها وأحكامها ، فكان ذلك هو الصواب ، واتفق عليه الصحابة ، ولم يختلف فيه منهم إثنان إلا ما كان من عمر حتى رجع إلى الحق . وكانت فهم الصديق هو الموافق لنصوص القرآن والسنة . وفي « الصحيحين » أيضاً عن عبيد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوه عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

فهذا الحديث كآية براءة يبين فيه ما يقاتل عليه الناس ابتداء ، فإذا فعلوه ، وجب الكف عنهم إلا بحقه ، فإن فعلوا بعد ذلك ما يناقض هذا الإقرار والدخول في الإسلام ، وجب القتال حتى يكون الدين كله لله ، بل لو أقروا بالأركان الخمسة وفعلوها ، وأبوا عن فعل الرضوء للصلاة ونحوه ، أو عن تحريم بعض محرمات الإسلام كالربا أو الزنا أو نحو ذلك وجب

قتالهم إجماعاً ، ولم تعصمهم لا إله إلا الله ولا ما فعلوه من الأركان . وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله ، وأنه ليس المراد منها مجرد النطق ، فإذا كانت لا تعصم من استباح محرماً ، أو أبى عن فعل الوضوء مثلاً بل يقاتل على ذلك حتى يفعله ، فكيف تعصم من دان بالشرك وفعله وأحبه ومدحه ، وأثنى على أهله ، ووالى عليه ، وعادى عليه ، وأبغض التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله ، وتبرأ منه ، وحارب أهله ، وكفرهم ، وصد عن سبيل الله كما هو شأن عباد القبور ، وقد أجمع العلماء على أن من قال : لا إله إلا الله ، وهو مشرك أنه يقاتل حتى يأتي بالتوحيد .

ذكر التنبيه على كلام العلماء في ذلك فإن الحاجة داعية إليه لدفع شبه عباد القبور في تعلقهم بهذه الأحاديث وما في معناها مع أنها حجة عليهم بحمد الله لا لهم .

قال أبو سايمان الخطابي في قوله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » : معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دوت أهل الكتاب ، لأنهم يقولون : لا إله إلا الله ، ثم يقاتلون ، ولا يرفع عنهم السيف .

وقال القاضي عياض : اختصاص عصم المال والنفس بن قال لا إله إلا الله تعبير عن الاجابة إلى الايمان ، وأن المراد بذلك مشركو العرب ، وأهل الأوثان ، ومن لا يحد ، وهم كانوا أول من دعي إلى الاسلام ، وقوتل عليه ، فأما غيرهم من يقر بالتوحيد فلا يكتفى في عصمته بقوله لا إله إلا الله ، إذ كان يقوه في كفره ، وهي من اعتقاده ، لذلك

جاء في الحديث الآخر : « ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » .
وقال النووي : لا بد مع هذا من الايمان بجميع ما جاء به رسول
الله ﷺ ، وكما جاء في الرواية الأخرى : « ويؤمنوا بي وبما جئت به »
وقال شيخ الاسلام : لما سئل عن قتال التتار مع التمسك بالشهادتين ، ولما
زعموا من اتباع أصل الاسلام ، فقال : كل طائفة ممتعة من التزام شرائع الاسلام
الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه ،
وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين ملتزمين ببعض شرائعه كما قاتل أبو بكر
والصحابه رضي الله عنهم مانعي الزكاة ، وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدم
قال : فأما طائفة ممتعة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات ، أو الصيام
أو الحج ، أو عن التزام تحريم الدماء أو الأموال أو الحر أو الميسر ، أو نسكاح
ذوات المحارم ، أو عن التزام جهاد الكفار ، أو ضرب الجزية على أهل
الكتاب ، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التي لا عذر لأحد
في جحودها أو تركها ، التي يكفر الواحد بجحودها ، فإن الطائفة الممتعة تقاتل
عليها وإن كانت مقرة بها ، وهذا بما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء .

قال : وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة ، بل هم
خارجون عن الاسلام بمنزلة مانعي الزكاة . ومثل هذا كثير في كلام العلماء .

والمقصود التنبيه على ذلك ، ويكفي العاقل المنصف ما ذكره العلماء
من كل مذهب في باب حكم المرتد ، فإنهم ذكروا فيه أشياء كثيرة
يكفر بها الانسان ، ولو أتى بجميع الدين . وهو صريح في كفر عباد
القبور ، ووجوب قتالهم إن لم ينتهوا حتى يكون الدين لله وحده ، فإذا
كان من التزام شرائع الدين كلها إلا تحريم الميسر أو الربا أو الزنا يكون

كافراً يجب قتاله ، فكيف بمن أشرك بالله ودعي إلى إخلاص الدين لله والبراءة والكفر بمن عبد غير الله ، فأبى عن ذلك ، واستكبر وكاث من الكافرين ؟ ! .

قوله : « وحسابه على الله » أي : إلى الله تبارك وتعالى ، هو الذي يتولى حسابه ، فإن كان صادقاً من قلبه جازاه بمجنات النعيم ، وإن كان منافقاً عذبه بالعذاب الأليم . وأما في الدنيا ، فالحكم على الظاهر ، فمن أتى بالتوحيد والتزم شرائعه ظاهراً ، وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك . واستدل الشافعية بالحديث على قبول توبة الزنديق ، وهو الذي يظهر الاسلام ، ويسر الكفر . والمشهور في مذهب أحمد ومالك أنها لا تقبل ، لقوله تعالى : (إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) [البقرة : ١٦١] والزنديق لا يتبين رجوعه ، لأنه مظهر للاسلام ، مسر للكفر ، فإذا أظهر التوبة لم يزد على ما كان منه قبلها . والحديث بحمول على المشرك . ويتفرع على ذلك سقوط القتل وعدمه ، أما في الآخرة فإن كان دخل في الاسلام صادقاً قبلت .

وفيه وجوب الكف عن الكافر إذا دخل في الإسلام ولو في حال القتال حتى يتبين منه ما يخالف ذلك .

وفيه أن الانسان قد يقول : لا إله إلا الله ، ولا يكفر بما يعبد من دون الله .

وفيه أن شرط الايمان الاقرار بالشهادة ، والكفر بما يعبد من دون الله مع اعتقاد ذلك واعتقاد جميع ما جاء به الرسول ﷺ . وفيه أن

أحكام الدنيا على الظاهر ، وأن مال المسلم ودمه حرام إلا في حق كالقتل قصاصاً ونحوه ، وتغريبه قيمة ما يتلفه .

قوله : وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب . يعني أن ما يأتي بعد هذه الترجمة من الأبواب شرح للتوحيد ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، لأن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ، أن لا يعبد إلا الله ولا يعتقد النفع والضر إلا في الله ، وأن يكفر بما يعبد من دون الله ، ويتبرأ منها ومن عابديها ، وما بعد هذا من الأبواب بيان لأنواع من العبادات والاعتقادات التي يجب إخلاصها لله تعالى ، وذلك هو معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ، والله أعلم .

باب

من الشرك لبس الحلقة والحيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

ش : رفع البلاء : ازالته بعد حصوله ، ودفعه : منعه قبله ، ومن هنا ابتدأ المصنف في تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله بذكر شيء مما يضاد ذلك من أنواع الشرك الأكبر والأصغر ، فإن الضد لا يعرف إلا بضده .

كما قيل : وبضدها تتبين الأشياء .

فمن لا يعرف الشرك لم يعرف التوحيد وبالعكس ، فبدأ بالأصغر الاعتقادي انتقالاتاً من الأدنى الى الأعلى فقال :

وقول الله تعالى (أفأؤتيم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره) : [الزمر : ٣٩] .

ش : قال ابن كثير في تفسيرها ، أي : لا تستطيع شيب من الأمر .
قل : حسبي الله ، أي : الله كافي من توكل عليه ، وعليه يتوكل المتوكلون ،
كما قال هود عليه السلام حين قال له قومه : (إن نقول إلا اعتراك بعض
آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء بما تشركون من دونه
فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم مامن
دابة إلا هو آخذ بناصيتها) [هود : ٥٥ - ٥٧]

قلت : حاصله أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يقول للمشركين :
أرايتم ، أي : أخبروني عما تدعون من دون الله ، أي : تعبدونهم وتسالونهم
من الأنداد والأصنام والآلهة المسميات بأسماء الإناث الدالة أسماؤهن على
بطلانهم وعجزهن ، لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة ، كالكالات والعزى
(إن أرادني الله بضر) أي : بمرض أو فقر أو بلاء أو شدة (هل من
كاشفات ضربه) أي : لا يقدر على ذلك أصلاً (أو أرادني برحمة) أي :
صحة ، وعافية ، وخير ، وكشف بلاء . (هل من مسكات رحمته) قال
مقاتل : فسألهم النبي ﷺ وسلم فسكتوا ، أي : لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها ،
ولمّا كانوا يدعونها على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله ، لأنهم يكشفون
الضر ويحييرون دعاء المضطر ، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قال تعالى :
(ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق
منكم يرميهم بشر كون) [النحل : ٥٤ - ٥٥] وقد دخل في ذلك كل من
دعي من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين ، فضلاً عن غيرهم فلا
يقدر أحد على كشف ضر ولا إمساك رحمة كما قال تعالى : (ما يفتح الله
للناس من رحمة فلا يسلكها وما يسلك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز

الحكيم) [فاطر : ٣] وإذا كان كذلك بطلت عبادتهم من دون الله ، وإذا بطلت عبادتهم فبطلان دعوة الآلهة والأصنام أبطل وأبطل ، وليس الحلقة والحيط لرفع البلاء أو دفعه كذلك ، فهذا وجه استدلال المصنف بالآية وإن كانت الترجمة في الشرك الأصغر ، فإن السلف يستدلون بما نزل في الأكبر على الأصغر ، كما استدل حذيفة وابن عباس وغيرهما وكذلك من جعل رؤوس الحمر ونحوها في البيت والزرع لدفع العين كما يفعله أشباه المشركين ، فإنه يدخل في ذلك ، وقد يحتجون على ذلك بما رواه أبو داود في المراسيل عن علي بن الحسين مرفوعاً : « احرثوا فإن الحرث مبارك ، وأكثروا فيه من الجاهم » وعنه أجوبة :

أحدها : أنه حديث ساقط مرسل وأبو داود لم يشترط في مراسيله جمع المراسيل الصحيحة الاسناد ، وقد ضعفه السيوطي وغيره .

الثاني : أنه اختلف في تفسير الجاهم ، ف قيل : هي البذر ، ذكره العزيمي في « شرح الجامع » . وقيل : الحشبة التي يكون في رأسها سكة الحرث ، قاله أبو السعادات ابن الأثير في « النهاية » . وقيل : هي جهاجم رؤوس الحيوان ذكره العزيمي وغيره . وعلى هذا ف قيل : أمر يجعلها لدفع الطير ، ذكره العزيمي وغيره ، وهذا هو الأقرب لو ثبت الحديث مع أنه باطل . وقيل : بل لدفع العين ، وفيه حديث ساقط أنه أمر بالجاهم في الزرع من أجل العين ، وهو مع ذلك منقطع ، ذكره السيوطي وغيره ، وهذا المعنى هو الذي تعلق به أشباه المشركين ولا ريب أنه معنى باطل ، لم يردّه النبي ﷺ لو كان الحديث صحيحاً ، وكيف يريد أن أمر بقطع الأوتار كما في « الصحيح » وقال : « من تعلق شيئاً وكل إليه » . وقال :

« من تعلق ودعة فلا ودع الله له » وكانوا يجعلون ذلك من أجل العين كما سيأتي ، فهلا أرخص لهم فيه ؟! .

الثالث : أن هذا مضاد لدين الإسلام الذي بعث الله به رسله ، فانه تعالى إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده ولا يشرك به شيء ، لا في العبادة ولا في الاعتقاد ، وهذا من جنس فعل الجاهلية الذين يعتقدون البركة والنفع والضرر فيما لم يجعل الله فيه شيئاً من ذلك ، ويعلقون التائم والودع ونحوهما على أنفسهم لدفع الأمراض والعين فيما زعموا .

فإن قيل : الفاعل لذلك لم يعتقد النفع فيه استقلالاً ، فإن ذلك لله وحده ، فهو النافع الضار ، وإنما اعتقد أن الله جعله سبباً كغيره من الأسباب .

قيل : هذا باطل أيضاً ، فإن الله لم يجعل ذلك سبباً أصلاً وكيف يكون الشرك سبباً لطلب الخير ولدفع الضرر ، ولو قدر أن فيه بعض النفع ، فهو كالخنزير والميسر فهما لماثم كبير ومنافع للناس ، وإلها أكبر من نفعها .

فإن قيل : كيف يكون شركاً وقد روى أبو داود ذلك في مراسيله وغيره من العلماء يروون الحديث ولم ينكروه .

قيل : أهل العلم يروون الأحاديث الضعيفة والموضوعة لبيان حالها وإسنادها لا للاعتقاد عليها واعتقادها ، وكتب المحدثين مشعونة بذلك ، فبعضهم يذكر علة الحديث ، ويبين حاله وضعفه إن كان ضعيفاً ، ووضعه إن كان موضوعاً ، وبعضهم يكتفي بإيراد الحديث بأسناده ويرى أنه قد

بريء عن عهده إذا أوردته بإسناده لظهور حال رواته ، كما يفعل ذلك الحافظ أبو نعيم ، وأبو القاسم بن عساكر وغيرهما ، فليس في رواية من رواه وسكوته عنه دليل على أنه عنده صحيح أو حسن أو ضعيف ، بل قد يكون موضوعاً عنده ، فلا يدل سكوته عنه على جواز العمل به عنده ، وسيأتي في الكلام على حديث قطع الأوتار ما يدل على النهي عن هذا من كلام العلماء .

قال : عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ وأى رجلاً في يده حلقة من صفر . فقال : « ماهذه ؟ » قال : من الواهنة . فقال « انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً » فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً » رواه أحمد بسند لا بأس به .

ش : هذا الحديث ذكره المصنف بمعناه ، أما لفظه فقال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، ثنا المبارك عن الحسن قال أخبرني عمران بن حصين أن النبي ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة قال : أراه قال : من صفر ، فقال : « ويحك ماهذه » قال من الواهنة قال : « أما إنها لا تزيدك إلا وهناً ، انبذها عنك فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً » ورواه ابن ماجه دون قوله « انبذها » الى آخره ، وابن حبان في « صحيحه » وقال : « فإنك إن مت وكلت اليها » والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، واهله الذهبي : قال المنذري : روه كلهم عن مبارك بن فضالة عن الحسن عن عمران . ورواه ابن حبان أيضاً بنحوه عن أبي عامر الخزاز ، عن الحسن ، وهذه متبعة جيدة ، إلا أن الحسن اختلف في سماعه من عمران . قال ابن المديني

وغيره : لم يسمع منه ، وقال الحاكم : وأكثر مشايخنا على أنه سماع منه .
قلت : رواية الإمام أحمد ظاهرة في سماعه منه وهو الصواب .

قوله : عن عمران بن حصين . أي : ابن عبيد بن خلف الخزاعي أبو نجيد
- بنون وجيم مصغر - صحابي ابن صحابي . أسلم بعام خير ، ومات سنة
اثنين وخمسين بالبصرة .

قوله : رأى رجلاً ، في رواية الحاكم دخلت على رسول الله ﷺ
وفي عضدي حلقة صفر فقال : « ماهذه؟ » قلت : من الواهنة فقال : « انبذه »
فالمهم في رواية أحمد ومن وافقه هو عمران راوي الحديث .

قوله : فقال ماهذا ؟ يحتمل أن الاستفهام للاستفصال هل لبسها تحلياً
أم لا ؟ ويحتمل أن يكون للانكار فظن اللابس أنه استفصل .

قوله : من الواهنة . قال أبو السعادات : الواهنة : عرق يأخذ في
المنكب وفي اليد كلها ، فيرقى منها وقيل : هو مرض يأخذ في العضد ، وربما
علق عليها جنس من الحرز بقاء له . خرز الواهنة ، وهي تأخذ الرجال
دون النساء قال : وإنما نهى عنها ، لأنه اتخذها على معنى أنها تعصمه من
الآلم ، فكان عنده في معنى التمايم المنهي عنه . قلت : وفيه استفصال
المفتي واعتبار المقاصد .

قوله : انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً . لفظ الحديث « انبذه »
وهو أبلغ ، أي : اطرحها . والنزع هو الجذب بقوة ، والنبذ يتضمن ذلك
وزيادة وهو الطرح والابعاد ، أمره بطرحها عنه وأخبر أنها لا تنفعه بل
تضره ، فلا تزيدك إلا وهناً ، أي : ضعفاً . وكذلك كل أمر نهى عنه فإنه

لا ينفع غالباً أصلاً ، وإن نفع بعضه ، فضره أكبر من نفعه ، وفيه النهي ،
عن تعليق الحلق والحز وفتحهما على المريض أو غيره ، والتنبيه على النهي
عن التدأوي بالحرام . وروى أبو داود بإسناد حسن وإليه يهني عن أبي
الدرداء مرفوعاً في حديث : « تداووا ولا تداووا بحرام » ، فإن قيل :
كيف قال ﷺ « لا تريدك إلا وهناً » وهي ليس لها تأثير ؟ وقيل : هذا
- والله أعلم - يكون عقوبة له على شركه لأنه وضعها لدفع الواهنة ،
فعوقب بنقيض مقصوده .

قوله : فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً ، أي : لأنه مشرك
والحالة هذه ، والفلاح هو الفوز والظفر والسعادة .

قال المصنف : فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر
الكبائر ، وأنه لم يعذر بالجهالة ، والإنكار بالتغليظ على من فعل مثل
ذلك . قلت : وفيه أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح أبداً ، ففيه
رد على المغرورين الذين يفتخرون بكونهم من ذرية الصالحين ، أو من
أصحابهم ، ويظنون أنهم يشفعون لهم عند الله ، وإن فعلوا المعاصي . وفيه
أن رتب الإنكار متفاوتة فإذا كفى الكلام في إزالة المنكر لم يحتاج
إلى ضرب ونحوه . وفيه أن المسلم إذا فعل ذنباً وأنكر عليه فتاب منه
فإن ذلك لا ينقصه ، وأنه ليس من شرط أولياء الله عدم الذنوب .

قوله : رواه أحمد بسند لا بأس به . هو الإمام أحمد بن محمد بن
حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، أبو عبد الله المروزي ، ثم البغدادي ،
إمام أهل عصره وأعلمهم بالفقہ والحديث ، وأشدهم ورعاً ومتابعة للسنة .
روى عن الشافعي ويزيد بن هارون وابن مهدي ويحيى القطان وابن عيينة

وعفان وخلف . وروى عنه ابنه عبد الله وصالح والبخاري ومسلم وأبو داود وأبو بكر الأثرم والمروزي وخلق لا يحصون ، مات سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة .

قال : وله عن عقبة بن عامر مرفوعاً : « من تعلق تيممة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له » وفي رواية : « من تعلق تيممة فقد أشرك » ش : الحديث الأول رواه أحمد كما قال المصنف ، ورواه أيضاً أبو يعلى والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي .

وقوله « وفي رواية » : هذا يوم أن هذا في بعض الأحاديث المذكورة ، وليس كذلك ، بل المراد أنه في حديث آخر رواه أحمد أيضاً فقال : حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، ثنا عبد العزيز بن مسلم ، ثنا يزيد ابن أبي منصور ، عن دخين الجبوري ، عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد . فقالوا : يا رسول الله ، بايعت تسعة وأمسك عن واحد . فقالوا : يا رسول الله ، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا ؟ قال إن عليه تيممة فأدخل يده فقطعها ، فبايعه وقال : « من علق تيممة فقد أشرك » ، ورواه الحاكم بنحوه ، ورواته ثقات .

وقوله : في هذا الحديث : فأدخل يده فقطعها . أي : الرجل ، بينه الحاكم في روايته .

قوله : عن عقبة بن عامر . هو الجهني ، صحابي مشهور ، وكان فقيهاً فاضلاً ولي إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين ومات قريباً من الستين . قوله : « من تعلق تيممة ، أي : متمسكاً بها عليه وعلى غيره من طفل

أو دابة ونحو ذلك . قال المنذري : يقال : إنها خريزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات واعتقاد هذا الرأي جهل وضلالة إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى . وقال أبو السعادات : التائم جمع تيمة وهي خريزات كانت العرب تعلقها على أولادهم ، يتقون بها العين في زعمهم ، فأبطله الإسلام . قال : كانوا كانوا يعتقدون أنها تنائم الدواء والشفاء .

قوله : « فلا أتم الله له » دعاء عليه بأن الله لا يتم له أموره .

قوله : « ومن تعلق ودعة » بفتح الواو وسكون المهملة . قال في « مسند الفردوس » شيء يخرج من البحر يشبه الصدف ، يتقون به العين .

قوله : « فلا ودع الله له » بتخفيف الدال ، أي : لا جعله في دعة وسكون ، وقيل : هو لفظ بني من الودعة ، أي : لا خفف الله عنه ما يخافه ، قاله أبو السعادات وهذا دعاء عليه ، فيه وعيد شديد لمن فعل ذلك ، فإنه مع كونه شركاً ، فقد دعا عليه رسول الله ﷺ بنقيض مقصوده .

قوله : « من تعلق تيمة فقد أشرك » قال ابن عبد البر : إذا اعتقد بدي علقها أنها ترد العين ، فقد ظن أنها ترد القدر ، واعتقاد ذلك شرك . وقال أبو السعادات : إنما جعلها شركاً ، لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة لهم ، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعه .

قال : « ولا بن أبي حاتم » عن حذيفة أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه وتلا قوله : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) [يوسف : ١٠٧] .

ش : هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم كما قال المصنف .

ولفظه : حدثنا محمد بن الحسين بن إبراهيم بن إشكاب ، ثنا يونس ابن محمد ثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود ، عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض ، فرأى في عضده سيراً فقطعه أو انتزعه ثم قال : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) . وابن أبي حاتم هو الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي التميمي الحنظلي ، الحافظ ابن الحافظ ، صاحب « الجرح والتعديل » والتفسير وغيرهما . مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة . وحذيفة هو ابن الجان ، واسم الجان حسيل بهملتين مصغراً ويقال حسل بكسر ثم مكون ، العبسي بالوحدة ، حليف الأنصار ، صحابي جليل من السابقين ويقال : صاحب السر ، وأبوه أيضاً صحابي ، مات حذيفة في أول خلافة علي سنة ست وثلاثين .

قوله : رأى رجلاً في يده خيط من الحمى . أي : من أجل الحمى لدفعها ، وكان الجهال يعلقون لذلك التائم والحبوط ونحوها . وروى وكيع عن حذيفة أنه دخل على مريض يعوده ، فلمس عضده فإذا فيه خيط فقال : ما هذا ؟ فقال : شيء رقي لي فيه ، فقطعه فقال : لو مت وهو عليك ما صليت عليك .

قوله : فقطعه ، فيه إنكار هذا ، وإن كان يعتقد أنه سبب فإن الأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله ورسوله ﷺ ، مع عدم الاعتماد عليه ، فكيف بما هو شرك كالتائم والحبوط والحُرز والطلاسم ونحو ذلك بما يعلقه الجهال ؟ وفيه إزالة المنكر باليد بغير إذن الفاعل ، وإن كان يظن أن الفاعل يزيله ، وإن إتلاف آلات المنكر واللهم جائزة وإن لم يأذن صاحبها .

قوله : وتلا قوله (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)
[يوسف : ١٠٧] استدل حذيفة بهذه الآية على أن تعليق الحيط ونحوه
لما ذكر شرك ، أي : أصغر كما تقدم في الحديث ، ففيه صحة الاستدلال
بما نزل في الأكبر على الأصغر ، ومعنى الآية أن الله أخبر عن المشركين
أنهم يجمعون بين الإيمان بالله ، أي : بوجوده ، وأنه الخالق الرزاق المحيي
الميت ، ثم مع ذلك يشركون في عبادته فسرّها بذلك ابن عباس وعطاء
ومجاهد والضحاك وابن زيد وغيرهم .

باب

ما جاء في الرقى والتأتم

ش : أي : في حكمها . ولما كانت الرقى على ثلاثة أقسام ، قسم
يجوز ، وقسم لا يجوز ، وقسم في جوازه خلاف ؛ لم يجزم المصنف بكونها
من الشرك ، لأن في ذلك تفصيلاً بخلاف لبس الحلقة والحيط ونحوهما لما
ذكر ، فإن ذلك شرك مطلقاً .

قال في « الصحيح » عن أبي بشير الأنصاري أنه كان مع النبي
ﷺ في بعض أسفاره ، فأرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير
قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت .

ش : قوله : في « الصحيح » أي في « الصحيحين » قوله عن أبي
بشير بفتح أوله وكسر المعجمة - الأنصاري ، قيل : اسمه قيس بن عبيد ،
قاله ابن سعد ، وقال ابن عبد البر : لا يوقف له على اسم صحيح ، وهو
صحابي شهد الخندق ومات بعد الستين ، يقال : جاوز المائة .

قوله : في بعض أسفاره . قال الحافظ : لم أقف على تعيينها .
قوله : فأرسل رسولا . هو زيد بن حارثة . وروى ذلك الحارث
ابن أبي أسامة في « مسنده » قاله الحافظ .

قوله : أن لا يبقين . هو بالمشاء والقاف المفتوحين ؛ وفي رواية
لا تبقين بحذف « أن » ، والمثناة الفوقية والقاف المفتوحين أيضاً . و « قلادة »
مرفوع على أنه فاعل و « الوتر » بفتحتين . واحد أوتار القوس .

قوله : « أو قلادة إلا قطعت » هو برفع « قلادة » أيضاً ، عطف على
الأول ، ومعناه أن الراوي شك ، هل قال شيخه قلادة من وتر ؟ فقيده
القلادة بأنم من وتر ، وقال : قلادة وأطلق ولم يقيده . ويؤيده ما روي
عن مالك أنه سئل عن القلادة فقال : ما سمعت بكراهمها إلا في الوتر .
وفي رواية أبي داود : « ولا قلادة » بغير شك ، والأولى أصح ، لاتفاق
الشيخين عليهما ، والرخصة في القلائد ، إلا الأوتار وكما روى أبو داود
واللساني من حديث أبي وهب الجشمي مرفوعاً « اربطوا الخيل وقلدوها ،
ولا تقلدوها الأوتار » ولأحمد عن جابر مرفوعاً مثله وإسناده جيد .

قال البغوي في « شرح السنة »^(١) : تأول مالك أمره عليه السلام
بقطع القلائد على أنه من أجل العين ، وذلك أنهم كانوا يشدون بتلك
الأوتار والتأثم والقلائد ، ويعلقون عليها العوذ ، يظنون أنها تعصم من

(١) ذكر ذلك في كتاب الجهاد باب قطع القلائد والأوتار ، وهو كتاب
عظيم في بابه ولم يطبع حتى الآن . وقد باشرنا تحقيقه منذ سنوات ، وقد كدنا
نفرغ منه . وسبقنا قريبا إلى الطبع إن شاء الله ويقع في تقديرنا في اثني عشر مجلداً .

الآفات ، فنهزم النبي ﷺ عنها ، وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئاً .
وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : كانوا يقلدون الإبل الأوتار لثلاث تصيبتها
العين ، فأمرهم النبي ﷺ بإزالتها إعلالاً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئاً ،
وكذلك قال ابن الجوزي وغيره .

قال الحافظ : ويؤيده حديث عقبة بن عامر رفعه : « من تعلق قيمة
فلا تم الله له » ، رواه أبو داود ، وهي ما علق من القلائد خشية العين
ونحو ذلك . انتهى . فعلى هذا يكون تقليد الإبل وغيرها الأوتار وما في
معناها لهذا المعنى حراماً ، بل شركاً ، لأنه من تعليق التائم المحرمة ، ومن
تعلق قيمة فقد أشرك ولم يصب من قال : إنه مكروه كراهة بزيه .

قال : وعن ابن مسعود سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن
الرقى والتائم والتولة شرك » رواه أحمد وأبو داود .

ش : الحديث رواه أحمد ، وأبو داود ، كما قال المصنف ، وفيه
قصه كان المصنف اختصرها . ولفظ أبي داود : عن زينب امرأة عبد
الله بن مسعود أت عبد الله بن مسعود رأى في عنقي خيطاً ، فقال :
ما هذا : قلت : خيط رقي لي فيه . قالت : فأخذه فقطعه ثم قال :
« إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك » سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« إن الرقى والتائم والتولة شرك » فقلت : لم تقول هكذا ؟ لقد كانت
عيني تقذف ، وكنتم أختلف إلى فلان اليهودي يرقيا ، فإذا رقاها سكنت :
فقال عبد الله : إنما ذلك عمل الشيطان ينخسها بيده ، فإذا رقيتها كف
عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول :
« أذهب البأس رب الناس ، واشف أنت الشافي شفاء لا يغادر سقماً »

ورواه ابن ماجة وابن حبان ، والحاكم وقال : صحيح وأقره الذهبي .
قوله : إن الرقى . قال المصنف : الرقى هي التي تسمى العزائم ،
وخص منه الدليل ما خلا من الشرك ، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من
العين والحمة . يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركاً هي الرقى
التي منها شرك ، من دعاء غير الله ، والاستغاثة والاستعاذة به كالرقى
باسماء الملائكة والأنبياء والجن ونحو ذلك ، أما الرقى بالقرآن وأسماء الله
وصفاته ودعائه والاستعاذة به وحده لا شريك له ، فليست شركاً ، بل
ولا بمنوعة ، بل مستحبة أو جائزة .

قوله : فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة ، تقدم ذلك
في باب من حقق التوحيد ، وكذلك رخص فيه من غيرها ، كما في
« صحيح مسلم » عن عوف بن مالك قال : كنا نرقى في الجاهلية فقلنا :
يا رسول الله ، كيف ترى في ذلك فقال : « اعرضوا علي رقاكم ، لا
بأس بالرقى ، ما لم يكن فيه شرك » وفيه عن أنس قال : رخص
رسول الله ﷺ في الرقية من العين والحمة والنملة . وعن عمران بن حصين
مرفوعاً « لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم » رواه أبو داود وفي الباب
أحاديث كثيرة .

قال الخطابي : وكان عليه السلام قد رقى ورقى ، وأمر بها وأجازها ،
فإذا كانت بالقرآن أو بأسماء الله تعالى ، فهي مباحة أو مأمور بها ، وإنما
جاءت الكراهية والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب ، فإنه ربما كان
كفراً ، أو قولاً يدخله الشرك ، قال : ويحتمل أن يكون الذي يكره من

ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها ، وأنها تدفع عنهم الآفات ،
ويعتقدون ذلك من قبل الجن ومعونتهم .

قلت : ويدل على ذلك قول علي بن أبي طالب : إن كثيراً من
هذه الرقى والتأثير شرك ، فاجتنبوه . رواه وكيع ، فهذا يبين معنى
حديث ابن مسعود ونحوه .

وقال ابن التين : الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله تعالى هو
الطب الرباني ، فإذا كان على لسان الأبرار من الخلق ، حصل الشفاء بأذن
الله تعالى ، فلما عفي عن هذا النوع ، فزع الناس إلى الطب الجسماني
وتلك الرقى المنهي عنها التي يستعملها المعزم وغيره بمن يدعي تسخير الجن له
فيأتي بأمور مشبهة مركبة من حق وباطل يجمع إلى ذكر الله تعالى
وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين والاستعانة بهم والتعوذ بمردهم .
ويقال : إن الحية لعداوتها الإنسان بالطبع تصادق الشياطين لكونهم
أعداء بني آدم ، فإذا عزم على الحية بأسماء الشياطين أجابت وخرجت من مكانها
وكذا اللدغ إذا رقي بتلك الأسماء سالت سمها من بدن الإنسان ،
ولذلك كره الرقى ما لم تكن بآيات الله وأسمائه خاصة ، وباللسان العربي
الذي يعرف معناه ، ليكون بريئاً من شوب الشرك ، وعلى كراهية الرقى
بغير كتاب الله علماء الأمة .

قال شيخ الإسلام : كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به ، فضلاً
عن أن يدعوه ولو عرف معناه ، لأنه يكره الدعاء بغير العربية ، وإنما
يرخص لمن لا يعرف العربية ، فأما جعل الألفاظ العجمية شعاراً ، فليس

من الإسلام . قلت : وسئل ابن عبيد السلام عن الحروف المقطعة ، فنع منها ما لا يعرف ، لئلا يكون فيه كفر . وقال السيوطي : قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط : أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته ، وباللسان العربي وبما يعرف معناه ، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى ، فتلخص أن الرقية ثلاثة أقسام .

قوله : والتائم . تقدم كلام المنذري وابن الأثير في معناه في الباب قبله وظاهر تخصيص التائم بما ذكرناه . وقال المصنف : التائم شيء يعلق على الأولاد من العين . وقال الحلخالي : التائم جمع تيمة وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام لدفع العين ، وهذا منهي عنه ، لأنه لا دافع إلا الله ، ولا يطلب دفع المؤذيات إلا بالله وأسمائه وصفاته ، وظاهره أن ما علق لدفع العين وغيرها ، فهو تيمة من أي شيء كان ، وهذا هو الصحيح . وقد يقال : إن كلام المنذري وابن الأثير وغيرهما لا يخالفه . قال المصنف : لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه ، منهم ابن مسعود .

اعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا في جواز تعليق التائم التي من القرآن وأسماء الله وصفاته ، فقالت طائفة : يجوز ذلك ، وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره ، وهو ظاهر ما روي عن عائشة ، وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد في رواية ، وحملوا الحديث على التائم الشركية ، أما التي فيها القرآن وأسماء الله وصفاته ، فكالرقية بذلك . قلت : وهو ظاهر اختيار ابن القيم . وقالت طائفة : لا يجوز ذلك ، وبه

قال ابن مسعود ، وابن عباس وهو ظاهر قول حذيفة ، وعقبة بن عامر ، وابن عكيم رضي الله عنهم ، وبه قال جماعة من التابعين ، منهم أصحاب ابن مسعود ، وأحمد في رواية اختارها كثير من أصحابه ، وجزم بها المتأخرون ، واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه فإن ظاهره العموم لم يفرق بين التي في القرآن وغيرها ، بخلاف الرقى فقد فرق فيها ، ويؤيد ذلك أن الصحابة الذين رروا الحديث فهموا العموم كما تقدم عن ابن مسعود . وروى أبو داود عن عيسى بن حمزة قال : دخلت على عبدالله بن عكيم وبه حمرة . فقلت : ألا تعلق تيممة ؟ فقال : نعوذ بالله من ذلك قال رسول الله ﷺ « من تعلق شيئاً وكل إليه » وروى وكيع عن ابن عباس قال : اتفل بالمعوذتين ولا تعلق ، وأما القياس على الرقية بذلك ، فقد يقال بالفرق ، فكيف يقاس التعليق الذي لا بد فيه من ورق أو جلود ونحوهما على ما لا يوجد ذلك فيه ، فهذا إلى الرقى المركبة من حق باطل أقرب . هذا اختلاف العلماء في تعليق القرآن وأسماء الله وصفاته ، فما ظنك بما حدث بعدم من الرقى بأسماء الشياطين وغيرهم وتعليقها ؟ ابل والتعلق عليهم ، والاستعاذة بهم ، والذبيح لهم ، وسؤالهم كشف الضر ، وجلب الخير مما هو شرك محض ، وهو غالب على كثير من الناس إلا من سلم الله ، فتأمل ما ذكره النبي ﷺ ، وما كان عليه أصحابه والتابعون ، وما ذكره العلماء بعدم في هذا الباب وغيره من أبواب الكتاب ، ثم انظر إلى ما حدث في الخلوف المتأخرة ، يتبين لك دين الرسول ﷺ وغرته الآن في كل شيء ، فانه المستعان .

قوله : والتولة شرك . قال المصنف : هو شيء يصنعونه يزعمون أنه

يجب المرأة إلى زوجها ، والزواج إلى امرأته ، وكذا قال غيره أيضاً وبهذا فسر ابن مسعود راوي الحديث كما في « صحيح ابن حبان » والحاكم . قالوا : يا أبا عبد الرحمن هذه الرقى والتائم قد عرفناهما ، فما التولة . قال شيء يضعه النساء يتجهبن إلى أزواجهن . قال الحافظ : التولة بكسر المشنة وفتح الواو واللام مخففاً شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها ، وهو ضرب من السحر ، وإنما كان ذلك من الشرك ، لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله .

قال : وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً : « من تعلق شيئاً وكل إليه » رواه أحمد ، والترمذي .

ش : ورواه أيضاً أبو داود والحاكم .

قوله : عن عبد الله بن عكيم . هو بضم المهملة مصغراً ، ويكنى أبا معبد الجهني الكوفي . قال البخاري : أدرك زمن النبي ﷺ ، ولا يعرف له سمع صحيح ، وكذا قال أبو حاتم : قال معناه أبو زرعة ، وابن حبان وابن منده ، وأبو نعيم . وقال البغوي : يشك في سماعه . وقال الخطيب : سكن الكوفة ، وقدم المدائن في حياة حذيفة ، وكان ثقة ، وذكر ابن سعد عن غيره أنه مات في ولاية الحجاج ، وظاهر كلام هؤلاء الأئمة أن الحديث مرسل .

قوله : من تعلق شيئاً وكل إليه . التعلق يكون بالقلب ويكون بالفعل ، ويكون بهما جميعاً ، أي : من تعلق شيئاً بقلبه ، أو تعلقه بقلبه وفعله ، وكل إليه ، أي : وكله الله إلى ذلك الشيء الذي تعلقه ، فمن تعلق نفسه بالله ، وأنزل حوائجه بالله ، والتجأ إليه ، وفوض أمره كله إليه ، كفاه كل مؤنة ، وقرب إليه كل بعيد ، ويسر له كل عسير ، ومن تعلق بغيره أو سكن

~ إلى علمه وعقله ودوائه وغناؤه ، واعتمد على حوله وقوته ، وكله الله إلى ذلك وخذله ، وهذا معروف بالنصوص والتجارب . قال الله تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) [الطلاق : ٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، ثنا أبو سعيد المؤدب ، ثنا من سمع عطاء الخراساني ، قال : لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت ، فقلت له : حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز قال : نعم ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود : يا داود أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبيدي دون خلقي أعرف ذلك من نيتيه فتكيد السموات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن إلا جعلت له من يئنه مخرجاً ، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبيدي بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيتيه ، إلا قطعت أسباب السماء من يده ، وأسخت الأرض من تحت قدميه ، ثم لا أبالي بأي واد هلك .

قال : وروى الإمام أحمد عن رويغ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يارويغ ، لعل الحياة تطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وترأ أو استنجد برجيع دابة أو عظم ، فإن عمداً بريء منه » .

ش : الحديث رواه الإمام أحمد عن يحيى بن إسحق ، والحسن بن موسى الأشيب ، كلاهما عن ابن لهيعة ، وفيه قصة ، فاختصرها المصنف ، وهذا لفظ الحسن . قال : حدثنا ابن لهيعة : ثنا عياش بن عباس ، عن شبيب بن بيتان قال : ثنا رويغ بن ثابت قال : كان أحدنا في زمان رسول الله ﷺ يأخذ جمل أخيه على أن يعطيه النصف مما يغنم ، وله

النصف ، حتى إن أحدهما ليصير له النصل والريش ، والآخري القدح ، ثم قال : قال لي رسول الله ﷺ : يا رويفع لعل الحياة تطول بك ، فأخبر الناس أنه من عقد لحيته ، أو تقلد وترأ ، أو استنجد برجييع دابة أو عظم فإن محمداً بريء منه ، ثم رواه أحمد عن يحيى بن غيلان ، ثنا الفضل ، حدثني عياش بن عباس أن شميم بن بيتان أخبره أنه سمع شيبان القتباني يقول : استخلف مسامة بن غلدرويفع بن ثابت الأنصاري على أسفل الأرض ، قال : فسرنا معه ، فقال : قال لي رسول الله ﷺ الحديث . وفي الإسناد الأول ابن لهيعة ، وفيه مقال ، وفي الثاني شيبان القتباني قيل فيه : مجهول ، وبقية رجالها ثقات . ورواه أبو داود من طريق الفضل به مطولاً وسكت عليه ، ثم قال : حدثنا يزيد بن خالد ، أنا مفضل عن عياش أن شميم بن بيتان أخبره أيضاً بهذا الحديث عن أبي سالم الجيثاني ، عن عبد الله بن عمرو يذكر ذلك وهو معه مرابط بحصن باب أليون . قال أبو داود : حصن أليون بالفسطاط على جبل .

قلت : وهذا إسناد جيد . رواه النسائي من رواية شميم عن رويفع ، وصرح بسماعه منه ولم يذكر شيبان ، فإن كان ذكر شيبان وهماً فالإسناد صحيح ، وحسنه النووي ، وصححه بعضهم . قال الحافظ أبو زرعة في « شرح أبي داود » : ورواه الطحاوي مختصراً فذكر منه الاستنجد برجييع دابة أو عظم فقط . ورواه محمد بن الربيع الجيزي في كتاب من دخل مصر من الصحابة أولاً ، وفيه أن من عقد لحيته في الصلاة .

قوله : فأخبر الناس . دليل على وجوب إخبار الناس بذلك على رويفع ، وليس هذا مختصاً به ، بل كل من كان عنده علم ليس عند

غيره مما يحتاج إليه الناس ، وجب عليه تبليغه للناس ، وإعلامهم به ، فإن اشترك هو وغيره في علم ذلك ، فالتبليغ فرض كفاية . هذا كلام أبي زرعة .

قوله : لعل الحياة تطول بك . علم من اعلام النبوة ، لأنه وقع كما أخبر به ﷺ ، فإن رويغاً طالت حياته إلى سنة ست وخمسين ، مات فيها ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها ، وهو من الأنصار . وقيل : مات سنة ثلاث وخمسين ، قاله ابن يونس .

قوله : أن من عقد لحيته . بكسر اللام لاغير ، قاله في « المشارق » والجمع لحى ، بالكسر والضم ، قاله الجوهري .

قال الخطابي : وأما نهيه عن عقد اللحية ، فإن ذلك يفسر على وجهين : أحدهما : ما كانوا يفعلونه من ذلك في الحروب ، كانوا في الجاهلية يعتقدون لحام ، وذلك من زي بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها .

قلت : كأنهم كانوا يفعلونه تكبراً وعجباً ، كما ذكره أبو السعادات . قال : فأنه : أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجمد ، وذلك من فعل أهل التوضيع والتأنيث . وقال أبو زرعة ابن العراقي : والأولى حسنه على عقد اللحية في الصلاة كما دلت عليه رواية محمد بن الربيع المتقدم ذكرها ، فهو موافق للحديث الصحيح في النهي عن كف الشعر والثوب ، فإن عقد اللحية فيه كفها وزيادة .

قوله : أو تقلد وترأ . أي : جعله قلادة في عنقه أو عنق دابته ونحو ذلك . وفي رواية محمد بن الربيع : أو تقلد وترأ ، يريد تميمة ،

فهذا يدل على أنهم كانوا يتقلدون الأوتار من أجل العين ، إذ فسرهم بالتميمة وهي تجعل لذلك .

قوله : أو استنجى برجيع دابة أو عظم ، فإن محمداً بريء منه . قال النوري : أي : بريء من فعله . وقال بهذه الصيغة ليكون أبلغ في الزجر .

قلت : فيه النهي عن الاستنجاء برجيع الدواب والعظام . وقد ورد في ذلك أحاديث ، منها ما في « صحيح مسلم » عن ابن مسعود مرفوعاً : « لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام ، فإنه زاد إخوانكم من الجن » وعلى هذا فلا يميز الاستنجاء بهما كما هو ظاهر مذهب أحمد ، واختار شيخ الإسلام وجماعة الإجزاء وإن كان محوماً . قالوا : لأنه لم ينه عنه لكونها لا ينقيان ، بل لافسادهما .

قلت : الأول أولى ، لما رواه ابن خزيمة والدارقطني من طريق الحسن بن الفرات ، عن أبيه ، عن أبي حازم الأشجعي ، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ نهى أن يستنجى بعظم أو روث وقال : « إنها لا يطهران » وهذا إسناد جيد .

قال : وعن سعيد بن جبير ، قال : « من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة » رواه وكيع .

ش : هذا عند أهل العلم له حكم الرفع ، لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي فيكون على هذا مرسلاً ، لأن سعيداً تابعي ، وفيه فضل قطع التائم ، لأنها من الشرك . ووكيع هو ابن الجراح بن وكيع الكوفي ،

ثقة إمام ، صاحب تصانيف منها « الجامع » وغيره . روى عنه الإمام أحمد وطبقته . مات سنة سبع وتسعين ومائة .

قال : وله عن إبراهيم ، كانوا يكرهون التائم كلها ، من القرآن وغير القرآن .

ش : إبراهيم : هو إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي يكنى أبا عمران ، ثقة إمام ، من كبار فقهاء الكوفة . قال المزني : دخل على عائشة ولم يثبت له سماع منها ، مات سنة ست وتسعين وله خمسون سنة ونحوها . قوله : كانوا يكرهون التائم إلى آخره . مراده بذلك أصحاب عبد الله بن مسعود كعلقمة والأسود وأبي وائل والحارث بن سويد وعبيدة السلماني ، ومسروق والريبع بن خيثم وسويد بن غفلة وغيرهم من أصحاب ابن مسعود وهم من سادات التابعين ، وهذه الصيغة يستعملها إبراهيم في حكاية أقوالهم كما بين ذلك الحفاظ كالعراقي وغيره .

باب

من تترك بشجرة أو حجر ونحوهما

ش : كبقرة وغار وعين وقبر ونحو ذلك مما يعتقد كثير من عباد القبور وأشباههم فيه البركة فيقصدونه رجاء البركة . ويعني بقوله : تترك أي : طلب البركة ورجاها واعتقدها ، أي : ما حكمه هل هو شرك أم لا ؟ .

قال : وقول الله تعالى : (أفروا أيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما نهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) [النجم : ٢٠ ، ٢٤] .

ش : هكذا ثبت في خط المصنف الآيات يعني إلى قوله (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) قال القرطبي لما ذكر الوحي إلى النبي ﷺ وذكر من آثار قدرته ما ذكر ، حاج المشركين ، إذ عبدوا ما لا يعقل . وقيل : أفرايم هذه الآلهة التي تعبدونها أوحين إليكم شيئاً كما أوحى إلى محمد ﷺ ؟ وكانت اللات لثقيف ، والعزى لقريش وبني كنانة ، ومناة لبني هلال . وقال ابن هشام : كانت مناة لهذيل وخزاعة .

ذكر صفة هذه الأوثان

ليعرف المؤمن كيفية الأوثان ، وكيفية عبادتها ، وما هو شرك العرب الذين كانوا يفعلونه حتى يفرق بين التوحيد والإخلاص وبين الشرك والكفر ، فأما اللات فقرأ الجمهور بتخفيف التاء ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحيد وأبو صالح ورويس عن يعقوب : اللات بتشديد التاء ، فعلى الأولى قال الأعمش : سموا اللات من الآلهة والعزى من العزيز . قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقوا اسمها من الله تعالى ، فقالوا : اللات مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

قال : وكذا العزى من العزيز . قال ابن كثير : وكانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف ، له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش ، قال ابن هشام : وكانت في موضع مسجد الطائف اليسرى ، فلم يزل كذلك إلى أن أسلمت ثقيف ، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبه فهدمها وحرقها بالنار ، وعلى الثانية قال ابن عباس : كان رجلاً يلبث السوق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره ،

ذكره البخاري . وقال ابن عباس كان يبيع السوق والسمن عند صخرة ويلته عليها ، فلما مات ذلك الرجل ، عبت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السوق . وعن مجاهد نحوه ، وقال : فلما مات عبدوه . رواه سعيد بن منصور والفاكهي ، وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : أنهم عبدوه . وقال ابن جريج : كان رجل من ثقيف يلت السوق بالزيت ، فلما توفي جعلوا إلى قبره وثناً ، وبنحو ذلك قال جماعة من أهل العلم ، ولا تخالف بين القولين ، فإن من قال : إنها صخرة لم ينف أن تكون صخرة على القبر أو حواليه فعظمت وعبت تبعاً لا قصداً ، فالعبادة إنما أرادوا بها صاحب القبر ، فهو الذي عبدوه بالأصالة ؛ يدل على ذلك ما روى الفاكهي عن ابن عباس أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحي : إنه لم يمّت ، ولكنّه دخل الصخرة فعبدوها ، وبنوا عليها بيتاً ، فتأمل فعل المشركين مع هذا الوثن ، ووازن بينه وبين بناء القباب على القبور ، والعكوف عندها ودعائها ، وجعلها ملاذاً عند الشدائد .

وأما العزى فقال ابن جرير : كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة بين مكة والطائف كانت قريش يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال رسول الله ﷺ : « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » وروى النسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل قال لما فتح رسول الله ﷺ مكة ، بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى ، فأثاها خالد وكانت على ثلاث سمرة فقطع السمرة ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : ارجع فإنك لم تصنع شيئاً ، فرجع خالد ،

فلما أبصرته السدنة وهم حجبها امتنعوا في الجبل وهم يقولون : يا عزي
يا عزي فأثاها خالد ، فإذا امرأة عربية نائسة شعرها ، تحفن التراب
على رأسها فعلاها بالسيف حتى قتلها ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره
فقال : تلك العزي .

قال ابن هشام : وكانوا يسمعون منها الصوت . وقال أبو صالح :
العزي نخلة كانوا يعلقون عليها السيور والعهن ، رواه عبد بن حميد وابن
جرير . فتأمل فعل المشركين مع هذا الوثن ، ووازن بينه وبين ما يفعله
عباد القبور من دعائها ، والذبح عندها ، وتعليق الحيوط وإلقاء الخرق
في ضرائح الأموات ونحو ذلك ، فأنه المستعان .

وأما مناة ، فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة ، وكانت
خزاعة والأوس والحزرج يعظمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة وأصل
اشتقاقها من اسم الله المنان ، وقيل : من منى الله الشيء : إذا قدره .
وقيل : سميت مناة لكثرة ما يبنى ، أي : يراق عندها من الدماء للتبرك
بها . قال ابن هشام : فبعث رسول الله ﷺ علياً فهدمها عام الفتح .
قال ابن اسحاق في « السيرة » : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة
طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ،
وتهدي لها كما يهدي للكعبة ، وتطوف بها وتنجر عندها ، وهي تعرف
فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام
ومسجده . قلت : هذا الذي ذكره ابن اسحاق من شرك العرب هو بعينه
الذي يفعله عباد القبور ، بل زادوا على الأولين . إذا تبين هذا فمعنى

الآية كما قال القرطبي : إن فيها حذفاً تقديره : أفرأيت هذه الآلهة هل نفعت أو ضرت حتى تكون شركاء لله ؟ ! .

وقال غيره : ومناة الثالثة الأخرى ، ذم ، وهي المتأخرة الوضعية المقدار كقوله : (وقالت أولام لأخراهم) [الأعراف : ٣٩] أي وضعاؤهم لرؤسائهم . وقوله : (ألكم الذكر وله الأنثى) [النجم : ٢١] قال ابن كثير : أي أنجعلون له ولداً وتجعلون ولده الأنثى ، وتختارون لكم الذكور ؟ ! وقال غيره : يجوز أن يراد اللات والعزى ومناة إناث ، وقد جعلتموهن لله شركاء ، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث وتستكفوا من أن يولدن لكم ، أو ينسبن إليكم ، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله وتسموهن آلهة ؟ ! .

قلت : ما أقرب هذا القول إلى سياق الآية .

وقوله : (تلك إذا قسمة ضيزى) أي : جور وباطلة ، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً ، فتزهون أنفسكم عن الإناث ، وتجعلونهن لله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ؟ !

وقوله : (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) [النجم : ٢٤] قال ابن كثير ، ثم قال منكراً عليهم فيما ابتدعوه ، وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام ، وتسميتها آلهة : (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) أي : من تلقاء أنفسكم (ما أنزل الله بها من سلطان) ، أي : من حجة (إن يتبعون إلا الظن) أي : ليس لهم

مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ،
ولاحظ أنفسهم في رياستهم ، وتعظيم آبائهم الأقدمين !

وقوله : (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) .

ش : قال ابن كثير : ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير ،
والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به ولا انقادوا له .

قلت : في هذه الآيات من الدلائل القطعية على بطلان عبادة هذه
الطواغيت ، وأشباهاها بما لا مزيد عليه ، فسبحان من جعل كلامه شفاه
وهدى ورحمة ، وبشرى للمسلمين . منها أنها أسماء مؤنثة دالة على اللين
والرخاوة ، وما كان كذلك فليس بإله ، ومنها أنكم قاسمتم الله بزعكم
فجعلتم له هذه الأسماء المؤنثة شركاء ودعوتهم له الأولاد ، ثم جعلتموهم بنات
واختصتم بالذكر ، فجعلتم له المكروه الناقص ، ولكم المحبوب الكامل
(للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ، وله المثل الأعلى وهو العزيز
الحكيم) [النحل : ٦١] ومنها أنها أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ،
ابتدعتموها ، ومنها أنها ما أنزل الله بها من سلطان ، أي : حجة وبرهان ،
ومنها أنكم لم تستندوا في تسميتها إلى علم وبقين ، وإنما استندتم في ذلك
إلى الظن والهوى اللذين هما أصلا الهلاك دنیا وأخرى . ومنها (ولقد
جاءهم من ربهم الهدى) [النجم : ٢٤] ، أي : بإبطال عبادتها ،
وما كان كذلك ، فهو عين الحال البين البطلان ، وكل واحد من هذه
الأدلة كاف شاف في بطلان عبادتها .

فإن قلت : فإين دليل الترجمة من الآيات ؟

قيل : هو بين بحمد الله ، لأنه إن كان التبرك بالشجر والقبور والأحجار من الأكبر فواضح ، وإن كان من الأصغر ، فالسلف يستدلون بما نزل في الأكبر على الأصغر .

قال : وعن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها : ذات أنواط فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط : فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر إنها السنن ، قلتم : والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال : إنكم قوم تجهلون ، لتركبن سنن من كان قبلكم » رواه الترمذي وصححه .

ش : الحديث رواه الترمذي كما قال المصنف : وأفظه : حدثنا سعيد بن عبد الرحمن الخزومي حدثنا سفيان عن الزهري عن سنان بن أبي سنان عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ ، لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها : ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم ، قالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال النبي ﷺ : « سبحان الله هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم » هذا حديث حسن صحيح . وأبو واقد الليثي اسمه الحارث بن عوف وفي الباب عن أبي سعيد ، وأبي هريرة ، هذا لفظ الترمذي بحروفه . وفيه مخالفة لما في الكتاب لفظاً ومعنى ، وقد اتفق اللفظان على المقصود هنا . وقد رواه أحمد وأبو داود وأبو يعلى وابن أبي شيبه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني

بنحوه . وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده نحوه أيضاً .

قوله : عن أبي واقد الليثي . اسمه الحارث بن عوف ، كما قال الترمذي ، وقيل : الحارث بن مالك ، صحابي مشهور . مات سنة ثمان وستين وله خمس وثمانون سنة .

قوله : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين . في حديث عمرو بن عوف ، قال : غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح ونحن ألف ونيف حتى إذا كنا بين حنين والطائف . ولا مخالفة بينها في المعنى ، فإن غزوة الفتح وحنين كانتا في سفر واحد .

قوله : ونحن حدثاء عهد بكفر ، أي : قريبو عهد بكفر ، ففيه دليل أن غيرهم لا يجهل هذا ، وإن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادات الباطلة ، ذكره المصنف .

قوله : يعكفون عندها . الاعتكاف : هو الإقامة على الشيء بالمكان ، ولزومها ، ومنه قوله : (ما هذه التماثيل التي لها أنتم عاكفون) [الأنبياء : ٥٣] وكانوا يعكفون عند هذه السدرة تبركاً بها . وفي حديث عمرو بن عوف قال : كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط ، وكانت تعبد من دون الله ، فلما رآها رسول الله ﷺ ، صرف عنها في يوم صائف إلى ظل هو أدنى منها . . . الحديث فيجمع بينها بأن عبادتهم... هي العكوف عندها رجاء لبركتها .

قوله : وينوطون بها أسلحتهم ، أي : يعاقونها عليها للبركة .

قوله : يقال لها : ذات أنواط . قال أبو السعادات : سألوه أن يجعل لهم مثلها ففهم عن ذلك . وأنواط جمع نوط ، وهو مصدر سمي به المنوط .
قوله : فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط . أي : شجرة . مثلها نعلق عليها ، ونعكف حوالها ، ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله فقصدوا التقرب إلى الله بذلك ، وإلا فهم أجل قدراً ، وإن كانوا حديثي عهد بكفر عن قصد مخالفة النبي ﷺ

قوله : فقال النبي ﷺ : « الله اكبر » هكذا في بعض الروايات . وفي رواية الترمذي « سبحان الله » والمقصود باللفظين واحد ، لأن المراد تعظيم الله ، وتنزيهه عن الشرك ، والتقرب به إليه ، وفيه تكبير الله وتنزيهه عند التعجب ، أو ذكر الشرك ، خلافاً لمن كرهه .

قوله : إنها السنن ، بضم السين ، أي : الطرق .

قوله : « قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو اسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهاً ... الخ » أخبر ﷺ أن هذا الأمر الذي طلبوه منه ، وهو اتخاذ شجرة للعكوف عندها ، وتعليق الأسلحة بها تبركاً ، كالأمر الذي طلبه بنو اسرائيل من موسى عليه السلام حيث قالوا : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة ، والعكوف عندها ، اتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يعبدونها ، ولا يسألونها ، فما الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات ، والاستغاثة بهم ، والذبح ، والنذر لهم ، والطواف بقبورهم ، وتقبيلها ، وتقبيل أعتابها وجدرائها ، والتمسح بها ، والعكوف عندها ، وجعل السدنة والحجاب لها ؟ وأي نسبة بين هذا ، وبين تعليقي الأسلحة على شجرة تبركاً ؟

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي من أئمة المالكية : فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ، ويعظمونها ، ويرجون البرء والشفاء من قبلها ، ويضربون بها المسامير والحرق ، فهي ذات أنواط فاقطعوها . وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة في كتاب « البدع والحوادث » : ومن هذا القسم أيضاً ما قد عم الابتلاء به من تزوين الشيطان للعامة ، تخليق الحيطان والعمد ، وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك ، ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه ، ويظنون أنهم متقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها ، ويرجون الشفاء لمراضهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم ، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر ، وفي مدينة دمشق صانها الله من ذلك مواضع متعددة كعونية الحما خارج باب توما ، والعمود المخلق داخل باب الصغير ، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها ، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث ثم ذكر الحديث المتقدم ، وكلام الطرطوشي الذي ذكرنا ، ثم قال : ولقد أعجبني ما صنعه الشيخ أبو إسحاق الجبيناوي رحمه الله تعالى أحد الصالحين ببلاد أفريقية في المائة الرابعة حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبد الله محمد ابن أبي العباس المؤدب أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية ، كان العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق ، من تعذر عليها نكاح أو ولد قالت : امضوا بي إلى العافية ، فتعرف بها الفتنة ، قال أبو عبد الله : فأنا في السحر ذات ليلة إذ

سمعت أذان أبي إسحق نحوها ، فخرجت فوجده قد هدمها وأذن الصبح عليها ثم قال : اللهم إني هدمتها لك فلا ترفع لها رأساً ، قال : فما رفع لها رأس إلى الآن . قلت : أبو إسحق الذي هدمها إمام مشهور من أئمة المالكية زاهد اسمه إبراهيم بن أحمد بن علي بن أسلم ، وكان الإمام أبو محمد ابن أبي زيد يعظم شأنه ، ويقول : طريق أبي إسحق خالية لا يسلكها أحد في الوقت ، وكان القابسي يقول : الجبيلي إمام يقتدى به . مات سنة تسع وستين وثلاثمائة .

وذكر ابن القيم نحو ما ذكره أبو شامة ، ثم قال : فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ، ولو كانت ما كانت ، ويقولون : إن هذا الحجر ، وهذه الشجرة ، وهذه العين تقبل النذر ، أي : تقبل العبادة من دون الله ، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له . وسأقي شيء يتعلق بهذا الباب عند قوله : « اللهم لا تجعل قبوري وثناً يعبد » وفي هذه الجملة من الفوائد ، أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها ، والعكوف عندها ، والذبح لها ، هو الشرك ، ولا يغتر بالعوام والطعام ، ولا يستبعد كون هذا شركاً ، ويقع في هذه الأمة . فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً ، وطلبوه من النبي ﷺ حتى بين لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل : اجعل لنا إلهاً ، فكيف بغيرهم مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة ؟ وفيها أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء ، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبتهم كطلبة بني إسرائيل ، ولم يلتفت إلى كونهم سموا ذات أنواط ، فالمشرك وإن سمي شركه ماسماً ، كمن يسمي دعاء الأموات ، والذبح لهم والنذر ونحو ذلك تعظيماً ومحبة ،

فإن ذلك هو الشرك ، وإن سماه ماسماه ، وقس على ذلك . وفيما أن من عبد فهو إله ، لأن بني إسرائيل والذين سألوا النبي ﷺ لم يريدوا من الأصنام والشجرة الخلق والرزق ، وإنما أرادوا البركة ، والعكوف عندها ، فكان ذلك انحاذاً له مع الله تعالى . وفيما أن معنى الإله هو المعبود ، وأن من أراد أن يفعل الشرك جهلاً فنهى عن ذلك فانهى لا يكفر . وأن لا إله إلا الله تنفي هذا الفعل مع دقته وخفائه على أولئك الصحابة . ذكره المصنف ، فكيف بما هو أعظم منه ؟ ففيه رد على الجاهل الذين يظنون أن معناها الإقرار بأن الله خالق كل شيء ، وأن ماسواه مخلوق ونحو ذلك من العبارات ، والإغلاظ على من وقع منه ذلك جهلاً .

قوله : « لتركبن ، بضم الموحدة ، أي : لتبعن أنتم أيها الأمة سنن من كان قبلكم بضم السين ، أي : طرقهم ومناهجهم وأفعالهم ، ويجوز فتح السين ، وهذا خبر صحيح وجد كما أخبر ﷺ ففيه دليل على شهادة أن محمداً رسول الله . وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم ، النهي عن التشبه بأهل الجاهلية من أهل الكتاب والمشركين ، وأنه متقرر عندهم أن العبادات مبهما على الأمر ، فصار فيها التنبيه على مسائل القبر ، أما من ربك ؟ فواضح ، وأما من نبيك ؟ فمن إخباره بأنباء الغيب ، وأما مدينك ؟ فمن قولهم : اجعل لنا إلهاً إلى آخره ، قاله المصنف . وفيه أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة كما وقع فيمن قبلها ، ففيه رد على من قال : إن الشرك لا يقع في هذه الأمة ، وفيه سد الذرائع والغضب عند التعليم ، وأن ما ذم الله به اليهود والنصارى ، فإنه لنا لتحذره ، ذكر ذلك المصنف .

تنبيه : ذكر بعض المتأخرين أن التبرك بآثار الصالحين مستحب كشراب

سؤرم ، والتمسح بهم أو بشياهم ، وحمل المولود إلى أحد منهم ليحنكه
بتمرة حتى يكون أول ما يدخل جوفه ريق الصالحين ، والتبرك بعرقهم
ونحو ذلك ، وقد أكثر من ذلك أبو زكريا النووي في « شرح مسلم » في
الأحاديث التي فيها أن الصحابة فعلوا شيئاً من ذلك مع النبي ﷺ ، وظن
أن بقية الصالحين في ذلك كالنبي ﷺ .

وهذا خطأ صريح لوجوه : منها عدم المقاربة فضلاً عن المساواة للنبي ﷺ
في الفضل والبركة . ومنها عدم تحقق الصلاح ، فإنه لا يتحقق إلا بصلاح القلب ،
وهذا أمر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بنص ، كالصحابة الذين أثنى الله عليهم
ورسوله ، أو أئمة التابعين ، ومن شهر بصلاح ودين كالأئمة الأربعة ونحوهم
من الذين تشهد لهم الأمة بالصلاح وقد عدم أولئك ، أما غيرهم ، فغاية
الأمر أن نظن أنهم صالحون فنرجو لهم . ومنها أنا لو ظننا صلاح شخص ،
فلا نأمن أن يختم له بخاتمة سوء ، والأعمال بالخواصم ، فلا يكون أهلاً
للتبرك بآثاره . ومنها أن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره لافي
حياته ، ولا بعد موته ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه ، فهلا فعلوه مع
أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم من الذير شهد لهم النبي ﷺ بالجنة ،
وكذلك التابعون هلا فعلوه مع سعيد بن المسيب وعلي بن الحسين وأويس
القرني ، والحسن البصري ونحوهم ممن يقطع بصلاحهم ، فدل أن ذلك
مخصوص بالنبي ﷺ . ومنها أن فعل هذا مع غيره ﷺ لا يؤمن أن يفتنه ،
وتعجبه نفسه ، فيورثه العجب والكبر والرياء ، فيكون هذا كالدح في
الوجه بل أعظم .

باب

ما جاء في الذبح لغير الله

أي : من الوعيد ، وهل يكون شركاً أم لا ؟

قال وقول الله تعالى (قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) [الأنعام : ١٦٤] .

ش : قال ابن كثير : يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ، ويذبحون لغير اسمه وحده لا شريك له ، وهذا كقوله (فصل لربك وانحر) [الكوثر : ٣] . أي : أخلص له صلاتك وذبيحتك ، فان المشركين يعبدون الاصنام ، ويذبحون لها ، فأمر الله بمخالفتهم ، والانحراف عنهم فيه ، والإقبال بالقصد والنية ، والعزم على الإخلاص لله تعالى . قال بجاهد في قوله : (صلاتي ونسكي) [الأنعام : ١٦٢] قال : النسك الذبح في الحج والعمرة ، وقال النووي عن السدي عن سعيد بن جبير : ونسكي : ذبيحي ، وكذا قال الضحاك . وقال غيره : ومحياي ومماتي ، أي : وما آتبه في حياتي ، وأموت عليه من الإيمان والعمل الصالح لله رب العالمين خالصة لوجهه ، لا شريك له ، وبذلك من الإخلاص أمرت ، وأنا أول المسلمين ، لأن إسلام كل نبي متقدم لإسلام أمته كما قال قتادة : وأنا أول المسلمين ، أي : من هذه الأمة . قال ابن كثير : وهو كما قال ، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الاسلام ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) [الأنبياء : ٢٦] وأخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه

قال لقومه : (فان توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا عا ، الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين) [يونس : ٧٣] وذكر آيات في هذا المعنى .

قلت : وفي الآية دلائل متعددة على أن الدبح غير الله شرك ، كما هو بين عند التأمل ، وفيها بيان العبادة ، وأن التوحيد مناف للشرك مضاد له .

قال وقوله : (فصل لربك وانحر) قال شيخ الإسلام : أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين ، وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار ، وحسن الظن ، وقوة اليقين ، وطمأنينة القلب إلى الله ، وإلى عذته ، عكس حال أهل الكبر والنفرة ، وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم يسألونه إياها ، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر . ولهذا جمع بينهما في قوله : (قل إن صلاتي ونسكي) الآية والنسك : الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجهه ، فإنها أجل ما يقترب به إلى الله ، فانه أتى فيها بالغاء الدالة على السبب ، لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله من الكوثر ، وأجل العبادات البدنية الصلاة ، وأجل العبادات المالية النحر ، وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها ، كما عرفه أرباب القلوب الحية . وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين ، وحسن الظن أمر عجيب . وكان النبي ﷺ كثير الصلاة ، كثير النحر .

وقال غبه - : أب : فاعبد ربك الذي أعزك بإعطائه ، وشرفك وصانك

من ممن الخلق مراغماً لقومك الذين يعبدون غير الله ، وانحر لوجهه
وباسمه إذا نحرت مخالفاً لهم في النحر للأوثان . انتهى . وهذا هو الصحيح
في تفسيرها

وأما ما رواه الحاكم عن علي بن أبي طالب قال : لما نزلت هذه
السورة على النبي ﷺ (إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر) ،
[الكوثر : ٢ - ٣] قال رسول الله ﷺ لجبريل : « ما هذه النجيرة
التي أمرني بها ربي ؟ قال : إنها ليست بنجيرة ، ولكن يأمرك إذا أحرمت
للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت ، وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من
الركوع ، الحديث . فهو حديث منكر جداً ، في إسناده إسرائيل بن
حاتم ، قال ابن حبان : يروي عن مقاتل الموضوعات والأوابد والطامات
من ذلك خبر يرويه عمر بن صبح عن مقاتل ، وظفر به إسرائيل فرواه
عن مقاتل عن الأصبغ بن نباته عن علي لما نزلت (فصل لربك وانحر)
الحديث ...

قال عن علي رضي الله عنه : قال : حدثني رسول الله ﷺ بأربع
كلمات : « لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من لعن والده ،
ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غير منار الأرض » . رواه مسلم

ش : الحديث رواه مسلم من طرق بمعنى ما ذكره المصنف ، وفيه
قصة . ورواه الإمام أحمد كذلك . وعلي بن أبي طالب هو الإمام أبو
الحسن الهاشمي ابن عم النبي ﷺ . وزوج ابنته فاطمة الزهراء - واسم
أبي طالب عبد مناف ابن عبد المطلب ابن هاشم القرشي - كان من السابقين

الأولين الى الإسلام ومن أهل بدر وبيعة الرضوان ، وأحد العشرة
المشهود لهم بالجنة ، ورابع الخلفاء الراشدين ، ومناقبه كثيرة رضي الله
عنه . قتله ابن ملجم الخارجي في رمضان سنة أربعين .

قوله : « لعن الله » . قالوا : اللعنة : البعد عن مظان الرحمة ومواطنها .
قيل : واللعين والملعون : من حقت عليه اللعنة ، أو دعي عليه بها .
قال أبو السعادات : أصل اللعنة ، الطرد والإبعاد من الله ، ومن الخلق :
السب والدعاء .

قوله : « من ذبح لغير الله » .

قال النووي . المراد به أن يذبح باسم غير اسم الله تعالى ، كمن
يذبح للضم أو للصليب أو لموسى أو لعيسى صلى الله عليهما وسلم ، أو للكعبة
ونحو ذلك ، وكل هذا حرام ، ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح
مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً نص عليه الشافعي واتفق عليه أصحابنا ، فإن
قصد مع ذلك تعظيم المذبح له غير الله والعبادة له ، كان ذلك كفراً ،
فإن كان الذابح مسلماً قبل ذلك صار بالذبح مرتدّاً . ذكره في « شرح
مسلم » ونقله غير واحد من الشافعية وغيرهم .

وقال شيخ الإسلام قوله تعالى : (وما أهل به لغير الله) [البقرة :
١٧٤] ظاهره أنه ما ذبح لغير الله مثل أن يقال : هذه الذبيحة لكذا .
وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ . وتحريم هذا أظهر
من تحريم ما ذبحه للحم ، وقال فيه : باسم المسيح ونحوه ، كما أن ما ذبحناه
مقربين به إلى الله كان أذكى وأعظم بما ذبحنا للحم ، وقلنا عليه :

بسم الله . فإن عبادة الله بالصلاة له والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور ، فكذلك الشرك بالصلاة لغيره . والنسك لغيره أعظم من الاستعانة باسم غيره في فواتح الأمور ، فاذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة ، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى ، فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله ، كما قد يقعله طائفة من منافقي هذه الأمة ، الذين قد يتقربون إلى الكواكب بالذبح والنجوم ونحو ذلك ، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال ، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان . ومن هذا الباب ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن ، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن ذبائح الجن . قلت : هذا الحديث رواه البيهقي عن الزهري مرسلًا ، وفي إسناده عمر بن هارون ، وهو ضعيف عند الجمهور إلا أن أحمد بن سيار روى عن قتبية أنه كان يوثقه ورواه ابن حبان في الضعفاء من وجه آخر عن عبد الله بن أذينة عن ثور بن يزيد ، عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة مرفوعاً . قال ابن حبان : وعبد الله يروي عن ثور ما ليس من حديثه . قال الزعشرى : كانوا إذا استروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تصيبهم الجن ، فأضيفت الذبائح إليهم ، لذلك قال النووي : وذكر الشيخ إبراهيم المروذي من أصحابنا أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقريباً إليه أفتى أهل بخارى بتحريمه لأنه مما أهل به لغير الله .

قال الرافعي : هذا إنما يذبحونه استبشاراً بقدومه ، فهو كذبح العقيقة

لولادة المولود . قلت : إن كانوا يذبحون استبشاراً كما ذكر الرافعي . فلا يدخل في ذلك ، وإن كانوا يذبحونه تقرباً ، إليه فهو داخل في الحديث . قوله : « لعن الله من لعن والديه » . قال بعضهم : يعني أباه وأمه وإن علوا وفي « الصحيح » أن رسول الله ﷺ قال : « إن من الكبائر شتم الرجل والديه » . قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » فإذا كان هذا حال المتسبب فما ظنك بالمباشر ؟

قوله : « ولعن الله من آوى محدثاً » . أما « آوى » بفتح الهمزة ممدودة أي : ضم إليه وحى ، وقال أبو السعادات : يقال : أويت إلى المنزل وأويت غيري وأويته ، وأنكر بعضهم المقصور المتعدي . وقال الأزهري : هي لغة فصيحة . وأما « محدثاً » فقال أبو السعادات : يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول ، فعنى الكسر : من نصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين أن يقتص منه ، والفتج : هو الأمر المبتدع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى به والصبر عليه ، فانه إذا رضي بالبدعة وأقر عليها فاعلمها ، ولم ينكر عليه ، فقد آواه .

قلت : الظاهر أنه على الرواية الأولى يعم المعنيين ، لأن المحدث أعم من أن يكون بجناية أو ببدعة في الدين ، بل المحدث بالبدعة في الدين شر من المحدث بالجناية ، فايواؤه أعظم إثمًا ، ولهذا عده ابن القيم في كتاب « الكبائر » وقال : هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث في نفسه ، فكلما كان الحدث في نفسه أكبر ، كانت الكبيرة أكبر .

قوله : « ولعن الله من غير منار الأرض » . قال المصنف : هي
المراسم التي تفرق بينك وبين جارك . وقال النووي : منار الأرض
- بفتح الميم - علامات حدودها ، والمعنى واحد . قيل : وتغيرها أن
يقدمها أو يؤخرها ، فيكون هذا من ظلم الأرض الذي قال فيه ﷺ :
« من ظلم شبراً من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين » رواه
البخاري ومسلم .

وفي الحديث دليل على جواز لعن أنواع الفساق ، كقوله : « لعن الله
آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه » ونحو ذلك ، فأما لعن الفاسق المعين
ففيه قولان : ذكرهما شيخ الإسلام أحدهما : أنه جائز اختاره ابن
الجوزي وغيره .

والثاني : لا يجوز ، اختاره أبو بكر عبد العزيز وشيخ الإسلام ، قال :
والمعروف عن أحد كراهة لعن المعين كاللجاج وأمثاله ، وأن يقول كما
قال الله تعالى : (ألا لعنة الله على الظالمين) [هود : ١٩] .

قال : وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال : « دخل
الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب » . قالوا : وكيف
ذلك يا رسول الله ؟ قال : « مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد
حتى يقرب له شيئاً . فقالوا لأحدهما : قرب . قال : ما عندي شيء .
قالوا : قرب ولو ذباباً ، فقرب ذباباً فخلوا سبيله ، فدخل النار . وقالوا
للآخر : قرب . قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل .
فضربوا عنقه ، فدخل الجنة » . رواه أحمد .

ش : هذا الحديث . ذكره المصنف معزواً لأحمد ، وأظنه تبع ابن القيم في عزوه لأحمد .

قال ابن القيم : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال : « دخل رجل الجنة في ذباب .. » الحديث . وقد طالعت « المسند » فما رأيته فيه ، فلعل الإمام رواه في كتاب الزهد أو غيره .

قوله : عن طارق بن شهاب . أي : البجلي الأحمسي أبو عبد الله رأى النبي ﷺ ، وهو رجل ، ويقال : إنه لم يسمع منه شيئاً .

قال البغوي : ونزل الكوفة . قال أبو حاتم : ليست له صحبة . والحديث الذي رواه مرسل . وقال أبو داود : رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً . قال الحافظ : إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ ، فهو صحابي على الراجح ، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه ، فروايته عن مرسل صحابي ، وهو مقبول على الراجح . وقد أخرج له النسائي عدة أحاديث ، وذلك مصير منه إلى اثبات صحبته . وكانت وفاته على ماجزم به ابن حبان سنة ثلاث وثمانين .

قوله : « دخل الجنة رجل في ذباب » ، أي : من أجل ذباب .

قوله : قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله . سألوا عن هذا الأمر العجيب لأنهم قد علموا أن الجنة لا يدخلها أحد إلا بالأعمال الصالحة كما قال تعالى : (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) [النحل : ٣٣] وأن النار لا يدخلها أحد إلا بالأعمال السيئة . فكانهم تقالوا ذلك وتعجبوا واحتقروا ، فبين لهم النبي ﷺ ماصير هذا الأمر الحقير عندهم عظيماً يستحق هذا عليه الجنة ،

ويستحق الآخر عليه النار ، ولعل هذين الرجلين من بني إسرائيل ، فإن النبي ﷺ يحدثهم عن بني إسرائيل كثيراً .

قوله : فقال : « مر رجلان على قوم لهم صنم ، الصنم : ما كان منحوتاً على صورة .

قوله : لا يجاوزه ، أي : لا يمر به ولا يتعداه أحد حتى يقرب له شيئاً وإن قل .

قوله : قالوا : قرب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلوا سبيله فدخل النار . في هذا بيان عظمة الشرك ولو في شيء قليل ، وأنه يوجب النار ، ألا ترى إلى هذا لما قرب لهذا الصنم أرذل الحيوان وأخسه وهو الذباب كان جزاؤه النار ، لا شراكه في عبادة الله ، إذ الذبيح على سبيل القربة والتعظيم عبادة ، وهذا مطابق لقوله تعالى : (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار) [المائدة : ٧٦] وفيه الحذر من الذنوب وإن كانت صغيرة في الحسبان ، كما قال أنس : إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات . رواه البخاري .

قال المصنف مامعناه : وفيه أنه دخل النار بسبب لم يقصده ، بل فعله تخلصاً من شرهم . وفيه أن الذي دخل النار مسلم ، لأنه لو كان كافراً لم يقل : دخل النار في ذباب ، وفيه أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان .

قوله : وقالوا للآخر : قرب . قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل إلى آخره . في هذا بيان فضيلة التوحيد والإخلاص .

قال المصنف : وفيه معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين ، كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر ، وفيه شاهد للحديث الصحيح : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شركه نعله ، والنار مثل ذلك » قلت : وفيه التنبيه على سعة مغفرة الله وشدة عقوبته ، وأن الأعمال بالخواتيم .

باب

لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

ش : أي أن ذلك لا يجوز لما سيذكره المصنف .

قال : وقول الله تعالى : (لا تقم فيه فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) [التوبة : ١٠٨] .

ش : حاصل كلام المفسرين في الآية أن الله نهي رسوله ﷺ أن يقوم في مسجد الضراد في الصلاة فيه أبداً ، والأمة تبع له في ذلك ، ثم حثه على الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم بني فيه على التقوى ، وهي طاعة الله ورسوله ﷺ ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ، ومعقلاً ومنزلاً للإسلام وأهله بقوله : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) [التوبة : ١١٠] والسياق إنما هو في مسجد قباء ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة في مسجد قباء كعمرة » . وفي « الصحيح » أن رسول الله ﷺ كان يزور قباء راكباً وماشياً . وقد صرح بأن المسجد المؤسس على التقوى هو مسجد قباء .

ذكره جماعة من السلف ، منهم ابن عباس وعروة وعطية والشعبي والحسن وغير واحد . وقيل : هو مسجد رسول الله ﷺ لحديث أبي سعيد قال : تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ، فقال رجل : هو مسجد قباء ، وقال الآخر : هو مسجد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « هو مسجدني هذا » رواه مسلم . وهو قول عمر وابنه وزيد بن ثابت وغيرهم . قال ابن كثير : وهذا صحيح ، ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى . وهذا بخلاف مسجد الضرار الذي أسس على معصية الله تعالى كما قال تعالى : (والذين اتخذوا مسجدا ضراباً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) [التوبة : ١٠٩] فلهذه الأمور نهى الله نبيه صلى الله عليه وسلم عن القيام فيه للصلاة . وكان المنافقون الذين بنوه جازوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى تبوك فسألوه أن يصلي فيه ليعتجوا بصلاته فيه على تقريره . وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إنما على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » . فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل الوحي بخبر المسجد ، فبعث إليه فهدمه قبل مقدمه إلى المدينة .

وجه الدلالة من الآية على الترجمة من جهة القياس ، لأنه إذا منع الله رسوله صلى الله عليه وسلم عن القيام لله تعالى في هذا المسجد المؤسس على هذه المقاصد الخبيثة مع أنه لا يقوم فيه إلا لله ، فكذلك المواضع المعدة للذبح لغير

الله لا يذبح فيها الموحدة ، لأنها قد أسست على معصية الله والشرك به ،
يؤيده حديث ثابت بن الضحاك الآتي .

وقوله : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) [التوبة : ١١٠] روى
الإمام أحمد وابن خزيمة والطبراني والحاكم عن عويم بن ساعدة الأنصاري
أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم في مسجد قباء فقال : « إن الله قد أحسن عليكم
الثناء في الطهور في قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذي تطهرون به ؟
فقالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود
فكانوا يغسلون أديبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا ، وفي رواية عن جابر
وأنس مرفوعاً « هو ذاك فعليكموه » رواه ابن ماجه وابن أبي حاتم
والدارقطني والحاكم .

وقوله : (والله يحب المطهرين) أي : الذين يتنزهون من القاذورات
والنجاسات بعد ما يتنزهون من أوضاع الشرك وأقذاره . قال أبو العالية :
إن الطهور بالماء لحسن ، ولكنهم المتطهرون من الذنوب . قال ابن كثير :
وفيه دليل على استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين المتنزهين عن ملابسة
القاذورات ، المحافظين على إسباغ الوضوء . قلت : وفيه إثبات المحبة .

قال : عن ثابت بن الضحاك ، قال : نذر رجل أن ينحر إبلاً
ببوانة فسأل النبي ﷺ فقال : « هل كان فيه وثن من أوثان الجاهلية
يعبد ؟ قالوا : لا . قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا :
لا . فقال رسول الله ﷺ : أوف بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية
الله ولا فيا لا يملك ابن آدم » رواه أبو داود وإسناده على شرطها .

ش : هذا الحديث رواه أبو داود ، فقال : حدثنا داود بن رشيد قال :

ثنا شعيب بن إسحاق عن الأوزاعي قال : حدثني يحيى بن أبي كثير ، قال : حدثني أبو قلابة ، قال : حدثني ثابت بن الضحاك . قال : نذر رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحر إبلاً ببوانة ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هل كان فيها وثن وثن . . . » الحديث . وهذا إسناد جيد ، وروى أبو داود أيضاً عن سمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : إني نذرت أن أذبح بكان كذا وكذا ؛ مكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية قال : « لصم » ، قالت : لا قال : « لوثن ؟ » قالت : لا قال : « أوف بنذرك » مختصر ومعنى قوله : « لصم » إلى آخره . هل يذبحون فيه لصم أو وثن فيكون كحديث ثابت .

قوله : عن ثابت بن الضحاك ، أي : ابن خليفة الأشهلي ، صحابي مشهور ، روى عنه أبو قلابة وغيره ومات سنة أربع وستين .

قوله : نذر رجل . يحتمل أن يكون هر كرم بن سفيان والد ميمونة لما روى أبو داود عنها ، قالت : خرجت مع أبي في حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم « قالت : فدنا إليه أبي . فقال : يا رسول الله ، إني نذرت إن ولد لي ولد ذكر أن أنحر على رأس بوانة في عقبة من الثنايا عدة من النعم . قال : لا أعلم إلا أنها قالت خمسين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل بها من هذه الأوثان شيء ؟ قال : لا . قال : فأوف بما نذرت لله » وذكر الحديث .

قوله : أن ينحر إبلاً في حديث ميمونة ، قال : فأوف بما نذرت لله قال : فجمعها فجعل يذبحها ، فانفلتت منه شاة فطلبها . وهو يقول : اللهم

أوف بنذري فظفروها فذبحها . فيحتمل أن يكون نذر إبلا وغنماً ويحتمل أن يكون ذلك قضيتين !

قوله : بيوانة . بضم الباء وقيل بفتحها . قال البغوي : موضع في أسفل مكة دون يلملم ، وقال أبو السعادات : هضبة من وراء ينبع .
قوله : فقال : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قال في «عروة المفتاح» الصنم : هو ما له صورة ، والوثن : ما ليس له صورة . قلت : هذا هو الصحيح في الفرق بينها ، وقد جاء عن السلف ما يدل على ذلك . وفيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن من أوثانهم ، ولو بعد زواله . ذكره المصنف .

قوله : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قال شيخ الإسلام : العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد ، عائداً إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك ، والمراد به هنا الاجتماع المعتاد من اجتماع الجاهلية ، فالعيد يجمع أموراً منها يوم عائد كيوم الفطر ويوم الجمعة ، ومنها اجتماع فيه ، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات . وقد يختص للعيد بمكان بعينه ، وقد يكون مطلقاً . وكل من هذه الأمور قد يسمى عيداً ، فالزمان كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة : « إن هذا يوم جعله الله للمسلمين عيداً » والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس : شهدت العيد مع رسول الله ﷺ . والمكان كقوله : « لا تتخذوا قبوري عيداً » وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه ، وهو الغالب كقول النبي ﷺ لأبي بكر « دعها يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً » . انتهى . وفيه استقصال المفتي ، والمنع من الوفاء بالنذر إذا

كان في المكان عيد من أعياد الجاهلية ولو بعد زواله ، والحذر من مشابهة
المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده . ذكره المصنف .

قوله : فأوف بـنـذرك . هذا يدل على أن الذبح لله في المكان الذي
يذبح فيه المشركون لغيره ، أو في محل أعيادهم معصية ، لأن قوله :
فأوف بـنـذرك تعقيب للوصف بالحكم بحرف الفاء ، وذلك يدل على أن
الوصف سبب الحكم ، فيكون سبب الأمر بالوفاء وجود النذر خالياً عن
هذين الوصفين ، فيكونان مانعين من الوفاء ، ولو لم يكن معصية لجاز
الوفاء به ، ولأنه عقبه بقوله : فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله . فدل
أن الصورة المسئول عنها مندرجة في هذا اللفظ العام لأن العام إذا أورد على
سبب فلا بد أن يكون السبب مندرجاً فيه ، ولأنه لو كان الذبح فيما ذكر
جائزاً لسوغ ﷺ للنادر الوفاء به كما سوغ لمن نذرت الضرب بالدفع أن
تضرب به لأنه عليه السلام استفصل . فلما قالوا : لا . قال له : « فأوف
بـنـذرك » . وهذا يقتضي أن كون البقعة مكاناً لعيدهم ، أو بها وثن من
أوثانهم مانع من الذبح بها وإن نذر ، وإلا لما حسن الاستفصال ،
هذا معنى كلام شيخ الإسلام . وفيه أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به
إذا خلا من الموانع .

قوله : فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله . دليل على أن هذا نذر
معصية ، لا يجوز الوفاء به لما تقدم (١) ، وعلى أن نذر المعصية لا يجوز

(١) قوله : لما تقدم . أي من أن العام إذا ورد على سبب فلا بد أن يكون
داخلاً فيه .

الوفاء به . وقد أجمع العلماء على ذلك لهذا الحديث ، وحديث عائشة
الآتي وما في معناها ، واختلفوا هل تجب به كفارة يمين ؟ على قولين :
هما روايتان عن أحمد ، أحدهما : تجب وهو المذهب المشهور عن أحمد .
وروي عن ابن مسعود وابن عباس ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه لحديث
عائشة مرفوعاً : « لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين » رواه أحمد
وأهل السنن ، واحتج به أحمد وإسحاق . والثاني : لا كفارة عليه . روي
ذلك عن مسروق والشعبي ، والشافعي لحديث الباب ، وحديث عائشة الآتي .
ولم يذكر فيها كفارة ، وجوابه أن عدم ذكر الكفارة لا يدل على
عدم وجوبها .

قوله : ولا فيما لا يملك ابن آدم .

قال في « شرح المصابيح » : يعني إذا أضاف النذر إلى معين
لا يملكه بأن قال : إن شفى الله مريضى فله علي أن أعتق عبد فلان ،
أو أتصدق بثوبه ونحو ذلك ، فأما إذا التزم في الذمة شيئاً لا يملكه
فيصح نذره ، مثاله إن شفى الله مريضى ، فله علي أن أعتق رقبة ،
وهو في ذلك الحال لا يملك رقبة ولا قيمتها ، فيصح نذره ، وإذا شفى
ثبت النذر في ذمته .

قوله : رواه أبو داود وإسناده على شرطيهما ، أي : شرط البخاري
ومسلم ، وأضمرهما للعلم بذلك . وأبو داود اسمه سليمان بن الأشعث بن
إسحاق بن بشر بن شداد الأزدي السجستاني ، صاحب الإمام أحمد ،
ومصنف « السنن » وغيرها ثقة إمام حافظ من كبار العلماء . مات سنة
خمس وسبعين ومائتين .

باب

من الشرك النذر لغير الله

ش : أي انه من العبادة ، فيكون صرفه لغير الله شركاً ، فإذا نذر طاعة وجب عليه الوفاء بها وهو عبادة ، وقربة إلى الله . ولهذا مدح الله الموفين به ، فإن نذر لخلق تقرباً إليه ليشفع له عند الله ، ويكشف ضره ونحو ذلك فقد أشرك في عبادة الله تعالى غيره ضرورة ، كما أن من صلى لله وصلى لغيره ، فقد أشرك ، كذلك هذا ، لقوله تعالى : (يوفون بالنذر) [الدهر : ٨] وجه الدلالة من الآية على الترجمة أن الله تعالى مدح الموفين بالنذر ، والله تعالى لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب ، أو ترك محرم ، لا يمدح على فعل المباح المجرد ، وذلك هو العبادة ، فمن فعل ذلك لغير الله متقرباً إليه فقد أشرك .

قال : وقوله : (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه) [البقرة : ٢٧١] .

وجه الدلالة من الآية على الترجمة أن الله تعالى أخبر بأن ما أنفقناه من نفقة أو نذرناه من نذر متقربين بذلك إليه أنه يعلمه ، ويجازينا عليه . فدل ذلك أنه عبادة . وبالضرورة يدري كل مسلم أن من صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فقد أشرك .

قال ابن كثير : يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات . وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ، ابتغاء وجهه ، ورجاء موعوده . فإذا علمت ذلك فهذه النذور الواقعة من عباد القبور وأشباههم لمن يعتقدون فيه نفعاً أو

ضراً فيتقرب اليه بالنذر ، ليقضي حاجته أو ليشفع له . كل ذلك شرك في العبادة ، وهو شبهه بما ذكر الله عن المشركين في قوله : (وجعلوا لله بما ذرأ من الحرت والانعام نصيباً فقالوا هذا الله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) [الأنعام : ١٣٧] روى ابن أبي حاتم في الآفة . يعني : جعلوا لله جزءاً من الحرت ولشركائهم ولأوثانهم جزءاً ، فما ذهبت به الريح بما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه ، وقالوا : الله عن هذا غني ، وما ذهبت به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه . وعباد القبور يجعلون لله جزءاً من أموالهم بالنذر والصدقة ، وللأموات والطواغيت جزءاً كذلك ، وقد نص غير واحد من العلماء ، على أن النذر لغير الله شرك .

قال شيخ الإسلام : وأما ما نذره لغير الله كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك ، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات ، والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة ، وكذلك الناذر للمخلوق ليس عليه وفاء ولا كفارة ، فإن كليهما شرك ، والشرك ليس له حرمة ، بل عليه أن يستغفر الله من هذا العقد ويقول ما قال النبي ﷺ حيث قال : « من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله » وقال أيضاً فيمن نذر للقبور ونحوها دهنًا لتتور به ويقول : إنها تقبل النذر كما يقول بعض الضالين . فهذا النذر معصية باتفاق العلماء ، لا يجوز الوفاء به ، وكذلك إذا نذر مالا من النقد أو غيره للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة ، فإن هؤلاء السدنة فيهم شبه من السدنة التي كانت لللات والعزى ومناة يأكلون

أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله والمجاورون هناك فيهم شبه من العاكفين الذين قال فيهم إبراهيم الخليل عليه السلام : (ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) [الأنبياء : ٥٣] والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام وقوله تعالى : (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم) [الأعراف : ١٣٨] فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع التي لا فضل للشريعة في المجاورة فيها نذر معصية ، وفيه شبه من النذر لسدنة الصليبان المجاورين عندها ، أو لسدنة الأبدال التي في الهند والمجاورين عندها ، ثم هذا المال إذا صرفه في جنس تلك العبادة من المشروع مثل أن يصرفه في عمارة المساجد أو للصالحين من فقراء المسلمين ، يستعينون بالمال على عبادة الله كان حسناً. وقد تقدم كلام ابن القيم في قوله : ويقولون إنها تقبل النذر ، أي : تقبل العبادة من دون الله ، فإن النذر عبادة إلى آخره .

وقال الإمام الأذرعي « في شرح منهاج النووي » : وأما النذر للمشاهد التي بنيت على قبر ولي أو شيخ ، أو على اسم من حلما من الأولياء ، أو تردد في تلك البقعة من الأنبياء والصالحين ، فإن قصد الناظر بذلك وهو الغالب أو الواقع من قصود العاقد في تعظيم البقعة والمشهد والزاوية ، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه ، أو بليت على اسمه ، فهذا النذر باطل غير منعقد ، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات لأنفسها ، ويرون أنها بما يدفع به البلاء ، ويستجلب به النعماء ، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء ، حتى أنهم يندرون لبعض الأحجار لما قيل : إنه جلس إليها أو استند إليها عبد صالح ، ويندرون لبعض القبور السرج والشموع والزيت ،

ويقولون : القبر الفلاني أو المسكن الفلاني يقبل النذر ، يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض ، وقدوم غائب ، وسلامة مال ، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة . فهذا النذر على هذا الوجه باطل لاشك فيه ، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً ، من ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الحليل عليه السلام ، ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء ، فإن الناذر لا يقصد بذلك إلا الإيقاد على القبر تبركاً وتعظيماً ، ظاناً أن ذلك قرينة ، فهذا بما لا ريب في بطلانه . والإيقاد المذكور محرم سواء انتفع به هناك منتفع أم لا إلى آخر كلامه .

وقال الشيخ قاسم الحنفي في « شرح درر البحار » : النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد ، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة ضرورية ، فيأتي إلى بعض الصالحاء ، ويجعل على رأسه سترة ويقول : يا سيدي فلان إن رد الله غائبي أو عوفي مريضاً أو قضيت حاجتي ، فلك من الذهب كذا أو من الفضة كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الماء ومن الشمع والزيت كذا ، فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه . منها : أنه نذر مخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عبادة ، والعبادة لا تكون لمخلوق . ومنها أن المندور له ميت والميت لا يملك . ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله ، واعتقاد ذلك كفر ، إلى أن قال : إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليهم فحرام بإجماع المسلمين . نقله عنه ابن نجيم في « البحر الرائق » في آخر كتاب الصوم . ومنه نقله المرشدي أيضاً في « تذكرته » ، ونقله غيرهما عنه وزاد : وقد ابتلي الناس بهذا لاسيما في مولد أحمد البدوي .

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الخفي في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء ، وأثبت الأجر في ذلك : فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان وفلان فهو لغير الله ، فيكون باطلاً . وفي التنزيل : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) [الأنعام : ١٢٢] وقوله : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له) [الأنعام : ١٦٤] أي : صلاتي وذبحي لله ، كما فسر به قوله : (فصل لربك وانحر) [الكوثر : ٣] وفي الحديث : « لا نذر في معصية الله » رواه أبو داود وغيره . والنذر لغير الله لإشراك مع الله ، إلى أن قال : فالنذر لغير الله كالذبح لغيره .

وقال الفقهاء : خمسة لغير الله شرك : الركوع والسجود والنذر والذبح واليمين . قال : والحاصل أن النذر لغير الله فجور ، فمن أين تحصل لهم الأجور ؟ انتهى ملخصاً . وقال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي : قد نهي عن النذر ، وندب إلى الدعاء ، والسبب فيه أن الدعاء عبادة عاجلة ، ويظهر به التوجه إلى الله تعالى ، والتضرع له ، وهذا بخلاف النذر فإن فيه تأخير العبادة إلى حين الحصول وترك العمل إلى حين الضرورة . فقد نص أبو بكر على أن الدعاء والنذر عبادتان ، ولا يتري مسلم أن من عبد غير الله فقد أشرك ، ولكن كما قال تعالى : (وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) [يونس : ١٠٢] .

قال : وفي « الصحيح » عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » .

ش : قوله في « الصحيح » أي : « صحيح البخاري » .
قوله : عن عائشة هي أم المؤمنين ، وزوج النبي ﷺ ، وبنت أبي بكر
الصديق رضي الله عنها ، تزوجها النبي ﷺ وهي بنت سبع سنين ، ودخل
بها وهي بنت تسع سنين ، وهي أفقه النساء مطلقاً ، وأفضل أزواج النبي
ﷺ إلا خديجة فقيها خلاف كثير . ماتت سنة سبع وخمسين على الصحيح ،
قاله الحافظ .

قوله : « من نذر أن يطيع الله فليطعه » أي : فليفعل ما نذره
من طاعة الله وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة بشرط يبرجوه
كقوله : إن شفى الله مريضاً فعلي أن أتصدق بكذا ونحو ذلك ، وجب
عليه أن يوفي بها مطلقاً إذا حصل الشرط ، إلا أنه حكى عن أبي حنيفة
أنه لا يلزمه الوفاء بما لا أصل له في الوجوب ، كالاعتكاف ، وعبادة
المريض . والحديث حجة عليه ، لأنه لم يفرق بين ماله أصل في الوجوب
وما لا أصل له ، فإنه نذر ابتداء كقوله : الله تعالى علي صوم شهر فالحكم
أيضاً كذلك في قول الأكثرين . وعن بعضهم أنه لا يلزم ، والحديث
حجة عليه أيضاً ، لأنه لم يفرق بين ما علقه على شرط وبين ما نذره ابتداء .

قوله : « ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » زاد الطحاوي « وليكفر
عن يمينه » . قال ابن القطان : عندي شك في رفع هذه الزيادة أي :
لا يفعل المعصية التي نذرهما . وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء
بنذر المعصية .

قال الحافظ في « الفتح » : واتفقوا على تحريم النذر في المعصية ،
وتنازعوا هل ينعقد موجباً للكفارة أم لا ؟ وقد تقدم ذلك في الباب

قبله . وقد يستدل بقوله : « ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » بصحة النذر في المباح ، كما هو مذهب أحمد وغيره . يؤيده ما رواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ورواه أحمد والترمذي عن بريدة أن امرأة قالت : يا رسول الله إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدف . فقال : « أوف بنذرك » وإذا صححناه بحكمه حكم الحلف على فعله ، فيخير بين فعله وكفارة اليمين . وأما نذر اللجاج والغضب ، فهو يمين عند أحمد ، فيخير بين فعله وكفارة اليمين ، لحديث عمران بن حصين مرفوعاً « لا نذر في غضب » وكفارته كفارة يمين ، رواه سعيد وأحمد ، والنسائي ، وله طرق ، وفيه كلام ، فإن نذر مكروهاً كالطلاق ، استحب أن يكفر ولا يفعل .

باب

من الشرك الاستعاذة بغير الله

الاستعاذة : الالتجاء ، والاعتصام ، والتحرز ، وحقيقتها : الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه ، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذاً ، وملجأً ووزراً ، فالعائد بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكه ، وفر إليه ، وألقى نفسه بين يديه واعتصم به ، واستجار به ، والتجأ إليه ، وهذا تمثيل وتفهم ، وإلا لما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله ، والاعتصام به ، والاطراح بين يدي الرب ، والافتقار إليه ، والتذلل بين يديه ، أمر لا تحيط به العبارة . هذا معنى كلام ابن القيم .

وقال ابن كثير : الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من

شر كل ذي شر . والعياذ يكون لدفع الشر . واللياذ لطلب الخير . وهذا
 معنى كلام غيرهما من العلماء ، فتبين بهذا أن الاستعاذة بالله عبادة لله ، ولهذا
 أمر الله بالاستعاذة به في غير آية ، وتواترت السنن عن النبي ﷺ بذلك .
 قال الله تعالى : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع
 العليم) [فصلت : ٣٧] وقال (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين .
 وأعوذ بك رب أن يحضرون) [المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠] وقال : (فاستعذ
 بالله إنه هو السميع البصير) [غافر : ٥٦] وقال : (قل أعوذ برب الفلق)
 [الفلق : ٢] وقال تعالى : (قل أعوذ برب الناس . ملك الناس إله الناس)
 [الناس : ١ ، ٢] فإذا كان تعالى هو ربنا وملكنا وإلهنا ، فلا مفزع لنا في
 الشدائد سواه ، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ، ولا معبود لنا غيره ، فلا ينبغي
 أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ولا يحب غيره ، ولا يذل ولا يخضع لغيره ،
 ولا يتوكل إلا عليه ، لأن من تخافه وترجوه وتدعوه وتتوكل عليه ، إما
 أن يكون مربيك والقيم بأمرورك ، ومتولي شأنك ، فهو ربك ، ولا رب لك
 سواه ، وتكون مملوكه وعبدته الحق ، فهو ملك الناس حقاً ، وكلهم عبيده
 ومالئكه ، أو يكون معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين ،
 بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك ، فهو الإله الحق
 إله الناس ، فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعينوا
 بغيره ، ولا يستنصروا بسواه ، ولا يلجأوا إلى غير حمائه ، فهو كافهم
 وحسبهم وناصرهم ووليهم ومتولي أمورهم جميعاً برؤيته وملكه وإلهيته لهم ،
 فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه وملئكه
 وإلهه ، وهذه طريقة القرآن محتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على توحيد

الإلهية ، هذا معنى كلام ابن القيم ، فإذا تحقق العبد بهذه الصفات : الرب والملك والإله ، وامتلأ أمر الله واستعاذ به ، فلا ريب أن هذه عبادة من أجل العبادات ، بل هو من حقائق توحيد الإلهية ، فإن استعاذ بغيره فهو عابد لذلك الغير ، كما أن من صلى لله وصلى لغيره يكون عابداً لغير الله كذلك في الاستعاذة ، ولا فرق إلا أن المخلوق يطلب منه ما يقدر عليه ويستعاذ به فيه ، بخلاف ما لا يقدر عليه إلا الله ، فلا يستعاذ فيه إلا بالله ، كالدعاء ، فإن الاستعاذة من أنواعه .

قال : وقول الله تعالى : (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً) [الجن : ٧] .

ش : المعنى والله أعلم على قول أن الانس زادوا الجن باستعاذتهم بهم رهقاً ، أي : إثمًا وطغيانًا وشرًا ، فضمير الفاعل على هذا للعائدين من الانس وضمير المفعول المستعاذ بهم من الجن ، وعلى القول الثاني بالعكس ، وزيادتهم للانس رهقاً بإغوائهم وإضلالهم ، وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى في وادٍ قفر في بعض سيره وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ، يريد الجن وكبيرهم . قال مجاهد : كانوا يقولون إذا هبطوا وادياً : نعود بعظم هذا الوادي ، فزادهم رهقاً . قال : زادوا الكفار طغياناً . رواه عبد بن حميد ، وابن المنذر . والآثار بذلك عن السلف مشهورة ، ووجه الاستدلال بالآية على الترجمة أن الله حكى عن مؤمني الجن أنهم لما تبين لهم دين الرسول ﷺ وآمنوا به ، ذكروا أشياء من الشرك كانوا يعتقدونها في الجاهلية ، من جملتها الاستعاذة بغير الله .

وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله ، ولهذا فهو عن الرقى التي لا يعرف معناها ، خشية أن يكون فيها شيء من ذلك . قال ملا علي القاري الحنفي : ولا تجوز الاستعاذة بالجن ، فقد ذم الله الكافرين على ذلك فقال : (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً) [الجن : ٧] إلى أن قال : وقال تعالى : (ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض) [الأنعام : ١٢٩] فاستمتع الإنسي بالجن في قضاء حوائجه وامتنال أوامره ، أو إخباره بشيء من المغيبات ، واستمتع الجن بالإنسي تعظيمه إياه ، واستعاذته به ، واستغاثته وخضوعه له . وفيه أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك . ذكره المصنف .

قال : وعن خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرجع من منزله ذلك » رواه مسلم . قوله : عن خولة بنت حكيم . أي : ابن أمية السلمية ، يقال لها : أم شريك . ويقال لها : خويلة بالتصغير ، ويقال : أمها هي الواهة ، وكانت قبل نحت عثمان بن مظعون . قال ابن عبد البر : وكانت صالحة فاضلة .

قوله : أعوذ بكلمات الله التامات . هذا ما شرعه الله لأهل الإسلام أن يستعينوا به بدلاً عما يفعلوه أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن ، فشرع الله للمسلمين أن يستعينوا به أو بصفاته . قال القرطبي في « المقهم » :

قيل : معناه الكلمات التي لا ياحقها نقص ولا عيب ، كما يلحق كلام البشر .
وقيل : معناه الشافية الكافية ، وقيل : الكلمات هنا : هي القرآن ، فإن الله
أخبر عنه بأنه (هدى وشفاء) [فصلت : ٤٥] وهذا الأمر على جهة
الارشاد إلى ما يدفع به الأذى . ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى
والالتجاء إليه ، كان ذلك من باب المندوب إليه المرغب فيه . وعلى هذا
فحق المتعوز بالله تعالى وبأسمائه وصفاته أن يصدق الله في التجائه إليه ،
وبتوكل في ذلك عليه ، ويحضر ذلك في قلبه ، ففى فعل ذلك وصل إلى
منتهى طلبه ، ومغفرة ذنبه . وقال غيره : وقد اتفق العلماء على أن
الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز ، واستدلوا بحديث خولة ، وقالوا : فيه دليل
على أن كلمات الله غير مخلوقة ، وردوا به على الجهمية والمعتزلة في قولهم
بخلق القرآن ، قالوا : فلو كانت كلمات الله مخلوقة لم يأمر بها النبي ﷺ
بالاستعاذة بها ، لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك .

وقال شيخ الإسلام : وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا تجوز
الاستعاذة بمخلوق ، وهذا مما استدلوا به على أنه كلام الله غير مخلوق .
قالوا : لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك ، ولهذا
نهى العلماء عن التعازيم والتعاويد التي لا يعرف معناها خشية أن يكون
فيها شرك .

وقال ابن القيم : ومن ذبح للشيطان ودعاه واستغاث به ، وتقرب
إليه بما يحب ، فقد عبده وإن لم يسم ذلك عبادة ، ويسميه استخداماً ،
وصدق هو استخدام الشيطان له ، فيصير من خدم الشيطان وعباديه ،
وبذلك يخدمه الشيطان لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة ، فإن
الشيطان لا يخضع له ويعبده كما يفعل هو به .

قوله : (من شر ما خلق) [الفلق : ٣] أي : من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره ، إنسياً كان أو جنياً أو هامة . أو دابة ، أو ريحاً أو صاعقة ، أي نوع كان من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة وما ههنا موصولة ليس إلا ، وليس المراد بها العموم الاطلاق ، بل المراد التقييدي الوصفي والمعنى من شر كل مخلوق فيه شر ، لا من شر كل ما خلقه الله تعالى ، فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر ، هذا معنى كلام ابن القيم . قال : والشر يقال على شيئين على الألم وعلى ما يفضي إليه .

قوله : لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك . قال القرطبي : هذا خبر صحيح وقول صادق علمنا صدقه دليلاً وتجربة ، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته ، فلدغني عقرب بالمهديّة ليلاً ، فتفكرت في نفسي فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات . قال المصنف : فيه فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره .

باب

من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

ش : قال شيخ الإسلام : الاستغاثة هي طلب العون ، وهو إزالة الشدة كالاستنصار طلب النصر ، والاستعانة طلب العون . وقال غيره : الفرق بين الاستغاثة والدعاء : أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب كما قال تعالى : (فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه) [القصص : ١٦] وقال : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) [الأنفال : ١٠] والدعاء أعم من الاستغاثة لأنه يكون من المكروب

وغيره ، فعلى هذا عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص .
وقال أبو السعادات : الاغاثة : الإعانة ، فعلى هذا تكون الاستغاثة هي
الاستعانة . ولا ريب أن من استغاثك فأغثته فقد أعنته ، إلا أن لفظ
الاستغاثة مخصوص بطلب العون في حالة الشدة ، بخلاف الاستعانة .
وقوله : أو يدعوا غيره . المراد بالدعاء هنا . هو دعاء المسألة فيما لا يقدر
عليه إلا الله تعالى ، فإن ذلك شرك لما سيذكره المصنف من الآيات .
واعلم أن الدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة كما حققه غير واحد
منهم : شيخ الإسلام وابن القيم وغيرهما ، ويراد به في القرآن هذا تارة ،
وهذا تارة ، ويراد به مجموعهما ، وهما متلازمان . فدعاء المسألة هو طلب
ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضرر ، فالمعبود لابد أن يكون مالكا
للتنفع والضرر ، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك
ضرراً ولا نفعاً كقوله : (قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً
ولا نفعاً والله هو السميع العليم) [المائدة : ٨٠] وقوله : (ويعبدون
من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله)
[يونس : ١٩] وذلك كثير في القرآن يبين أن المعبود لا بد وأن
يكون مالكا للتنفع والضرر ، فهو يدعى للتفيع والضرر دعاء المسألة ، ويدعى
خوفاً ورجاء دعاء العبادة ، فعلم أن النوعين متلازمان . فكل دعاء
عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة .

وبهذا التحقيق يندفع عنك ما يقوله عباد القبور إذ احتج عليهم بما ذكر
الله في القرآن من الأمر باخلاص الدعاء له . قالوا : المراد به العبادة ،

فيقولون في مثل قوله تعالى : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) [الجن : ١٩] أي : لا تعبدوا مع الله أحداً ، فيقال لهم : وإن أريد به دعاء العبادة ، فلا ينفي أن يدخل دعاء المسألة في العبادة ، لأن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة ، كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، هذا لو لم يرد في دعاء المسألة بخصوصه من القرآن إلا الآيات التي ذكر فيها دعاء العبادة . فكيف وقد ذكر الله في القرآن في غير موضع . قال الله تعالى : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين) [الأعراف : ٥٥] وقال تعالى : (وادعوه خوفاً وطمعاً) [الأعراف : ٥٦] وقال تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله) [آل عمران : ١٣٦] وقال تعالى : (واسألوا الله من فضله) [النساء : ٣٢] وقال تعالى : (قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) [الأنعام : ٤١ - ٤٢] .

وقال تعالى : (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغة وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) [الرعد : ١٦] وقال تعالى : (عن إبراهيم عليه السلام) (إن ربي لسميع الدعاء) [إبراهيم : ٤٠] وقال عنه أيضاً : (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) [مريم : ٤٩ - ٥٠] وقال تعالى : (ثم إذا مسكم الضر فإليه يجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم

إذا فريق منكم يشركون ([النحل : ٥٤-٥٥] وقال تعالى : (قل ادعوا
 الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) [الأنعام :
 ٥٦] وقال تعالى : (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه
 فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً) [الأنعام : ٦٨]
 وقال تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء
 الحسنى) [الأنعام : ١١١] وقال تعالى عن زكريا عليه السلام : (قال
 رب أني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب
 شقياً) [مريم : ٤] وقال تعالى : (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوا فلم
 يستجيبوا لهم) [القصص : ٦٥] وقال تعالى : (فإذا ركعوا في الفلك دعوا
 الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) [العنكبوت :
 ٦٦] فكفى بهذه الآيات نجاة وحجة وبرهاناً في الفرق بين التوحيد
 والشرك عموماً وفي هذه المسألة خصوصاً . وقال تعالى : (فابتهلوا عند الله
 الرزق) [العنكبوت : ١٨] وقال تعالى : (وإذا مس الإنسان ضر دعاه
 منيلاً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل
 الله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار)
 [الزمر : ٩] وقال تعالى : (والذين تدعون من دونه ما يملكون
 من قطمير . إنا تدعواهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم
 ويوم القيامة يكفرون بشرككم) [فاطر : ١٤ - ١٥] وقال تعالى :
 (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون
 جهنم داخرين) [غافر : ٦١] وغير ذلك من الآيات .

وفي الأحاديث عن النبي ﷺ ما لا يحصى ، منها قوله ﷺ فيما رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي ، كلّم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلّم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي كلّم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم » . رواه مسلم وقوله ﷺ : « ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ثم يقول : من يدعوني فأستجب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » رواه البخاري ومسلم . وقوله : « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان ، والحاكم وصححه . وقوله : « من لم يدع الله يغضب عليه » رواه أحمد وابن أبي شيبه والحاكم وقوله : « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل » رواه الترمذي ، وقوله : « الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض » رواه الحاكم وصححه . وقوله : « الدعاء هو العبادة » رواه أحمد والترمذي . وفي حديث آخر : « الدعاء منج العبادة » رواه الترمذي . وقوله لما سئل : أي العبادة أفضل ؟ قال : « دعاء المرء لنفسه » رواه البخاري في « الأدب » وقوله : « لن ينفع حذر من قدر ولكن الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل فعليك بالدعاء يا عباد الله » رواه أحمد . وقوله : « سلوا الله كل شيء حتى الشسع إذا انقطع ، فإنه إن لم يبسر له لم يتيسر » رواه أبو يعلى بإسناد صحيح . وقوله : « ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع وحتى يسأله الملح » رواه البزار بإسناد صحيح .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إني لأحمل هم الإجابة ، ولكن هم الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء علمت أن الإجابة معه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أفضل العبادة الدعاء وقرأ (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) [غافر : ٦١] رواه ابن المنذر والحاكم وصححه . وقال مطرف : تذكرت ما جماع الخير ؟ فإذا الخير كثير ، الصلاة والصيام ، وإذا هو في يد الله تعالى ، وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله إلا أن تسأله فيعطيك رواه أحمد . والأحاديث والآثار في ذلك لا يحيط بها إلا الله تعالى .

فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجل العبادات ، بل هو أكرمها على الله كما تقدم ، فإن لم يكن الإشراك فيه شركاً ، فليس في الأرض شرك ، وإن كان في الأرض شرك فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركاً من الإشراك في غيره من أنواع العبادة ، بل الإشراك في الدعاء - هو أكبر شرك المشركين الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة ، ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند الله ، ولهذا يخلصون في الشدائد لله وينسون ما يشركون ، حتى جاء أنهم إذا جاءتهم الشدائد في البحر يلقون أصنامهم في البحر ويقولون : يا الله يا الله ، لعلمهم أن آلهتهم لا تكشف الضر ولا تجيب المضطر . وقال تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون) [النمل : ٢٥] فهم كانوا يعلمون أن ذلك لله وحده ، وأن آلهتهم ليس عندها شيء من ذلك ، ولهذا احتج سبحانه وتعالى عليهم بذلك أنه هو الإله الحق ، وعلى بطلان إلهية ما سواه . وقال تعالى : (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) [العنكبوت : ٢٦]

فهذه حال المشركين الأولين . وأما عباد القبور اليوم فلا إله إلا الله ،
كم ذا بينهم وبين المشركين الأولين من التفاوت العظيم في الشرك ، فإنهم
إذا أصابهم الشدائد برأً وبحراً أخلصوا لأنفسهم وأولادهم التي يدعونها من دون
الله ، وأكثرهم قد اتخذ ذكر إلهه وشيخه ديدنه ، وهجيراً إن قام وإن
قعد وإن عثر . هذا يقول : يا علي ، وهذا يقول : يا عبد القادر ، وهذا يقول :
يا ابن علوان ، وهذا يدعو البدوي ، وهذا يدعو العيدروس . وبالجملة ففي كل
بلد في الغالب أناس يدعونهم ويسألونهم قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات .
بل بلغ الأمر إلى أن سألوهم مغفرة الذنوب ، وترجيح الميزان ، ودخول
الجنة والنجاة من النار ، والتثبيت عند الموت والسؤال ، وغير ذلك من
أنواع المطالب التي لا تطلب إلا من الله . وقد يسألون ذلك من أناس
يدعون الولاية ، وينصبون أنفسهم لهذه الأمور وغيرها من أنواع النفع
والضر التي هي خواص الإلهية ، ويلفقون لهم من الأكاذيب في ذلك عجائب .
منها أنهم يدعون أنهم يخلصون من التجأ إليهم ولاذ بحماهم من النار والعذاب ،
فيقول أحدهم : إنه يقف عند النار فلا يدع أحداً ممن يرتجيه ويدعوه يدخلها
أو نحو هذا ، وقد قال تعالى لسيد المرسلين صلى الله عليه وعليهم أجمعين :
(أفمن حق عليه العذاب أفأنت تنقذ من في النار) [الزمر : ٢٠]
فإذا كان النبي ﷺ لا يقدر على تخلص أحد من النار ، فكيف بغيره ،
بل كيف بمن يدعي نفسه أنه هو يفعل ذلك ؟ ومنها أن أكثرهم يلقى
حكايات في أن بعض الناس استغاث بفلان فأغاها ، أو دعا الولي الفلاني
فأجابها ، أو في كربة ففرج عنه ، وعند عباد القبور من ذلك شيء كثير
من جنس ما عند عباد الأصنام الذين استولت عليهم الشياطين ، ولعبوا بهم
لعب الصبيان بالكرة .

ويوجد شيء من ذلك في أشعار المادحين لسيد المسلمين ﷺ الذين جاوزوا الحد في مدحه ﷺ وعضوه في نبيه من الغلو فيه ، وإطرائه كما أطرت النصارى ابن مريم ، وصار حظهم منه ﷺ هو مدحه بالأشعار والقصائد ، والغلو الزائد ، مع عصيانهم له في أمره ونبيه ، فتجد هذا النوع من أعصى الخلق له صلوات الله عليه وسلامه ، ويقع من ذلك كثير في مدح غيره ، فإن عباد القبور لا يقتصرون على بعض من يعتقدون فيه الضر والنفع ، بل كل من ظنوا فيه ذلك بالغوا في مدحه وأنزلوه منزلة الربوبية وصرفوا له خالص العبودية ، حتى أنهم إذا جاءهم رجل وادعى أنه رأى رؤيا مضمونها أنه دفن في المحل الفلاني رجل صالح ، وبادروا إلى المحل وبنوا عليه قبه وزخرفوها بأنواع الزخارف ، وعبدوها بأنواع من العبادات . واما القبور المعروفة أو المتوهمة ، فأفعالهم معها وعندها لا يمكن حصره ، فكثير منهم إذا رأوا القباب التي يقصدونها كشفوا الرؤوس فنزلوا عن الأكوار ، فاذا أتوها طافوا بها واستلموا أركانها ، وتمسحوا بها ، وصلوا عندها ركعتين ، وحلقوا عندها الرؤوس ووقفوا باكين متذللين متضرعين سائلين مطالبهم ، وهذا هو الحج ، وكثير منهم يسجدون لها إذا رأوها ، ويعفرون وجوههم في التراب تعظيماً لها ، وخضوعاً لمن فيها ، فإن كان الإنسان منهم حاجة من شفاء مريض أو غير ذلك ، نادى صاحب القبر ، ياسيدي فلان جئتك قاصداً من مكان بعيد ، لانتخبني ، وكذلك إذا قحط المطر ، أو عقرت المرأة عن الولد ، أو دهمهم عدو أو جراد ، فزعروا إلى صاحب القبر ، وبكوا عنده فإن جرى المقدور بحصول شيء مما يريدون ، استبشروا وفرحوا ونسبوا ذلك إلى صاحب القبر ، فإن لم يتيسر شيء من ذلك اعتذروا عن

صاحب القبر بأنه إما غائب في مكان آخر ، أو ساخط لبعض أعمالهم ،
أو أن اعتقادهم في الولي ضعيف ، أو أنهم لم يعطوه نذره ونحو هذه الخرافات .

ومن بعض أشعار المادحين لسيد المرسلين ﷺ قول البوصيري :

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلى باسم منتقم
فإن لي ذمة منه بتسميتي محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم
إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

فتأمل ما في هذه الأبيات من الشرك .

منها أنه نفى أن يكون له ملاذاً إذا حلت به الحوادث ، إلا النبي
ﷺ ، وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له ، فهو الذي ليس للعباد
ملاذ إلا هو .

الثاني أنه دعاه وناداه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه ،
وسأل منه هذه المطالب التي لا تطلب إلا من الله ، وذلك هو الشرك
في الالهية .

الثالث : سؤاله منه أن يشفع له في قوله :

ولن يضيق رسول الله ... البيت :

وهذا هو الذي أراده المشركون بمن عبدوه ، وهو الجاه والشفاعة
عند الله ، وذلك هو الشرك وأيضاً فإن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله
فلا معنى لطلبها من غيره ، فإن الله تعالى هو الذي يأذن للشافع أن يشفع
لأن الشافع يشفع ابتداء

الرابع قوله : فإن لي ذمة . . . الى آخره .

كذب على الله وعلى رسوله ﷺ فليس بينه وبين من اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة ، لا بمجرد الاشراك في الامم مع الشرك .

الخامس قوله :

إن لم يكن في معادي . . . البيت .

تناقض عظيم وشرك ظاهر ، فإنه طلب أولاً أن لا يضيق به جأه ، ثم طلب هنا أن يأخذ بيده فضلاً وإحساناً ، وإلا فيأهلاكه .

فيقال : كيف طلبت منه أولاً الشفاعة ثم طلبت منه هنا أن يتفضل عليك فإن كنت تقول : إن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله ، فكيف تدعو النبي ﷺ وترجوه وتسأله الشفاعة ؟ فهلا سألتها من له الشفاعة جميعاً الذي له ملك السموات والأرض الذي لا تكون الشفاعة إلا من بعد إذنه ، فهذا يبطل عليك طلب الشفاعة من غير الله .

وإن قلت : ما أريد إلا جأه ، وشفاعته بأذن الله .

قيل : فكيف سألته أن يتفضل عليك ويأخذ بيدك في يوم الدين ، فهذا مضاد لقوله تعالى : (وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) [الانقطار : ١٨ ، ٢٠] فكيف يجتمع في قلب عبد الايمان بهذا وهذا .

وإن قلت : سألته أن يأخذ بيدي ، ويتفضل علي بجأه وشفاعته .

قيل : عاد الأمر إلى طلب الشفاعة من غير الله ، وذلك هو محض الشرك . السادس : في هذه الأبيات من التبري من الخالق - تعالى . تقدس والاعتماد على المخلوق في حوادث الدنيا والآخرة ما لا يخفى على

مؤمن ، فأين هذا من قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) [الفاتحة : ٥] وقوله تعالى : (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) [التوبة : ١٣٩] وقوله : (وتوكل على الحسي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً) [الفرقان : ٥٩] وقوله تعالى : (قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً . قل إني لن يغيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً . إلا بلاغاً من الله ورسالاته) [الجن : ٢١-٢٣] .

فإن قيل : هو لم يسأله أن يتفضل عليه ، وإنما أخبر أنه إن لم يدخل في عموم شفاعته فيأهلاكه . قيل : المراد بذلك سؤاله ، وطلب الفضل منه ، كما دعاه أول مرة وأخبر أنه لا ملاذ له سواه ، ثم صرح بسؤال الفضل والإحسان بصيغة الشرط والدعاء ، والسؤال كما يكون بصيغة الطلب يكون بصيغة الشرط كما قال نوح عليه السلام : (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) [هود : ٤٧] .

ومن شعر البرعي قوله :

ماذا تعامل يا شمس النبوة من أضحي إليك من الأشواق في كبدي
فامنع جناب صريع لاصريخ له فائي المزار غريب الدار مبتعد
حليف ودك واه الصبر منتظر لغارة منك ياركني وباعضدي
أسير ذنبي وزلائي ولا عمل أرجو النجاة به إن أنت لم تجد
وجري في شركه إلى أن قال :

وحل عقدة كربني يا محمد من هم على خطرات القاب مطرد
أرجوك في سكرات الموت تشهديني كما يهون إذ الأنفاس في سعد

وإن نزلت ضريحاً لا أنيس به فكأن أنيس وحيد فيه منفرد
وارحم مؤلفها عبد الرحيم ومن يليه من أجله وانعشه واقتقد
وإن دعا فأجبه واحم جانبه من حاسد شامت أو ظالم نكد
وقوله من أخرى :

يا رسول الله يا ذا الفضل يا بهجة في الحشر جاهلاً ومقاماً
عد على عبد الرحيم الملتجى بحمى عزك يا غوث اليتامى
وأقلني عثرتي يا سيدي في اكتساب الذنب في خمسين عاماً
وقوله :

يا سيدي يا رسول الله يا أملي ياموئلي ياملاذي يوم يلتقي
هني بجاهك ما قدمت من زال جوداً ورجح بفضل منك ميزاني
واسمع دعائي واكشف ما يساورني من الخطوب ونفس كل أحزاني
فأنت أقرب من ترجى عواطفه عندي وإن بعدت داري وأوطاني
إني دعوتك من « نيابتي برع » وأنت أسمع من يدعوه ذو شان
فامنن جنائي وأكرمني وصل نسبي برحمة وكرامات وغفران

لقد أنشأنا هذا ما قبله ، وهذا بعينه هو الذي ادعته النصراني في عيسى عليه السلام ، إلا أن أولئك أطلقوا عليه اسم الإله ، وهذا لم يطلقه ولكن أتى بلباب دعواهم وخلاصتها ، وترك الاسم ، إذ في الاسم نوع تمييز ، فرأى الشيطان أن الإتيان بالمعنى دون الاسم أقرب إلى ترويض الباطل ، وقبوله عند ذوي العقول السخيفة ، إذ كان من المقرر عند الأمة المحمدية أن دعوى النصراني في عيسى عليه السلام كفر . فلو أنهم بدعوى النصراني اسماً ومعنى لردوه وأنكروه ، فأخذ المعنى وأعطاه البرعي

وأضرابه ، وترك الاسم للنصارى وإلا فما ندرى ماذا أبقى هذا المتكلم
الحديث للغالى تعالى وتقدس من سؤال مطلب أو تحصيل مأرب ، فإله
المستعان . وهذا كثير جداً في أشعار المادحين لرسول الله ﷺ ، وهو حجة
أعداء دينه الذين يجوزون الشرك بالله ، ويحتجوت بأشعار هؤلاء ، ولم
يقتصروا أيضاً على طلب ذلك من النبي ﷺ ، بل يطلبون مثل ذلك من
غيره ، كما حدث بعض الثقة أنه رأى في راية صاحب مشهد من المشاهد :
هذه راية البحر التبار ، به أمتعت ، وأستجير ، وبه أعوذ من النار .

وقال بعضهم في قصيدة في بعض آلهم :

يا سيدي يا صفى الدين يا سدي يا عدي بل ويا ذخري ومفتخري
أنت الملاذ لما أخشى ضرورته وأنت لي ملجأ من حادث الدهر

إلى أن قال :

وامن علي بتوفيق وعافية وخير خاتمة مما انقضى عوري
وكف عنا أكف الظالمين إذا ام ستدت بسوء لأمر مؤلم نكر
فانني عبدك الراجي بودك ما أملت يا صفى السادة الغرر

قل بعض العامة : فلا ندرى أي معنى اختص به الخالق تعالى بعد
هذه المنزلة ، وماذا أبقى هذا المتكلم الحديث خالقه من الأمر ، فإن
المشركين أهل الأوثان ما يؤهلون من عبوده شيء من هذا . انتهى .

وكثير من عباد القبور ينادون الميت من مسافة شهر وأكثر يسألونه
حوادثهم ، ويعتقدون أنه يسمع دعاءهم ويستجيب لهم ، وتسمع عندهم حال
ركوبهم البحر واضطرابه من دعاء الأموات والاستغاثة بهم ما لا يخطر على
بال ، وكذلك إذا أصابهم الشدة ، من مرض ، أو كسوف ، أو ريح

شديدة ، أو غير ذلك ، فالولي في ذلك نصب أعينهم ، والاستغاثة به هي ملاذهم ، ولو ذهبنا نذكر ما يشبه هذا لطال الكلام .

إذا عرفت هذا ، فقد تقدم ذكر دعاء المسألة .

وأما دعاء العبادة ، فهو عبادة الله تعالى بأنواع العبادات ، من الصلاة ، والذبح ، والنذر ، والصيام ، والحج وغيرها ، خوفاً وطمعاً ، يرجو رحمته ، ويخاف عذابه ، وإن لم يكن في ذلك صيغة سؤال وطلب ، فالعابد الذي يريد الجنة ويهرب من النار ، وهو سائل راغب راهب ، يرغب في حصول مراده ، ويندفع من فواته ، وهو سائل لما يطلبه بامتنال الأمر في فعل العبادة ، وقد فسر قوله تعالى : (ادعوني أستجب لكم) [غافر : ٦١] بهذا وهذا . قيل : اعبدوني وامثلوا أمري أستجب لكم ، وقيل : سلوني أعطكم ، وعلى هذا القول تدل الأحاديث والآثار .

إذا تبين ذلك ، فاعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئاً من نوعي الدعاء لغير الله فهو مشرك ، ولو قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وصلى وصام ، إذ شرط الإسلام مع التللفظ بالشهادتين أن لا يعبد إلا الله ، فمن أتى بالشهادتين وعبد غير الله فما أتى بها حقيقة وإن تلفظ بها كاليهود الذين يقولون : لا إله إلا الله وهم مشركون ، وبجرد التللفظ بها لا يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناها واعتقاده إجماعاً .

ذكر شيء من كلام العلماء في ذلك وإن كنا غنيين بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ عن كل كلام ، إلا أنه قد صار بعض الناس منتسباً إلى طائفة معينة ، فلو أتته بكل آية من كتاب الله وكل سنة عن رسول الله ﷺ

لم يقبل حتى تأتبه بشيء من كلام العلماء ، أو بشيء من كلام طائفته التي ينتسب إليها .

قال الامام أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي صاحب كتاب « الفنون » الذي ألفه في نحو أربعائة مجلد ، وغيره من التصانيف . قال في الكتاب المذكور : لما صعبت التكليف على الجاهل والطغام ، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم ، فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم ، وهم عندي كفار لهذه الأوضاع ، مثل تعظيم القبور ، وخطاب الموتى بالحوائح ، وكتب الرقاع فيها : يا مولاي افعل بي كذا وكذا ، أو القاء الحرق على الشجر اقتداءً بن عبد اللات والعزى . نقله غير واحد ، مقررين له ، راضين به ، منهم الامام أبو الفرج بن الجوزي ، والامام ابن مفلح صاحب كتاب « الفروع » وغيرهما .

وقال شيخ الاسلام في « الرسالة السنية » : فاذا كان على عهد النبي ﷺ من انتسب إلى الاسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة ، فليعلم أن المنتسب إلى الاسلام والسنة في هذه الأزمان أيضاً قد يرق أيضاً من الاسلام وذلك بأسباب : منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه حيث قال : (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) [النساء : ١٧١] . وكذلك الغلو في بعض المشايخ ، بل الغلو في علي بن أبي طالب ، بل الغلو في المسيح عليه السلام ، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية ، مثل أن يقول : ياسيدي فلان انصرتني ، أو أغثنني ، أو ارزقني أو اجبرني ، أو أنا في حسبك ، ونحو هذه الأقوال ، فكل هذا شرك وضلال ، يستتاب صاحبه ، فإن تاب وإلا قتل ، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده ،

ولا يدعى معه إله آخر والذين يدعون مع الله آلهة أخرى ، مثل المسيح ،
والملائكة ، والأصنام ، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلاق أو تنزل
المطر ، أو تنبت النبات ، وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم ، أو
يعبدون صورهم ، يقولون : (إنما نعبدكم ليقربونا إلى الله زلفى) [الزمر : ٥]
ويقولون : (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) [يونس : ١٩] فبعث الله رسوله تنهى
أن يدعى أحد من دونه ، لا دعاء عبادة ، ولا دعاء استغاثة . انتهى .

وقد نص الحافظ أبو بكر أحمد بن علي المقرئ صاحب كتاب
« الحطط » في كتاب له في التوحيد على أن دعاء غير الله شرك .

وقال شيخ الاسلام : من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم
يدعوهم ويسألهم ، كفر إجماعاً ، نقله عنه غير واحد مقررين له ، منهم
ابن مفلح في « الفروع » وصاحب « الانصاف » وصاحب « الغاية »
وصاحب « الاقناع » وشارحه وغيرهم ، ونقله صاحب « القواطع » في كتابه
عن صاحب « الفروع » .

قلت : وهو إجماع صحيح معلوم بالضرورة من الدين ، وقد نص العلماء
من أهل المذاهب الأربعة ، وغيرهم في باب حكم المرتد ، على أن من أشرك
بالله فهو كافر ، أي : عبد مع الله غيره بنوع من أنواع العبادات . وقد
ثبت بالكتاب والسنة والاجماع أن دعاء الله عبادة له ، فيكون صرفه
لغير الله شركاً .

وقال الامام ابن النحاس الشافعي في كتاب « الكبائر » : ومنها إيقادهم
السرر عند الأحمجار ، والأشجار والعين ، والآبار ، ويقولون : إنها تقبل
النذر ، وهذه كلها بدع شنيعة ومنكرات قبيحة تجب إزالتها ومحو أثرها ،

فإن أكثر الجاهل يعتقدون أنها تنفع وتضر ، وتجلب وتدفع ، وتشفي المرض وتود الغائب ، إذا نذر لها ، وهذا شرك ومحادثة لله تعالى ولرسوله ﷺ .

قلت : فصرح رحمه الله أن الاعتقاد في هذه الأمور أنها تضر وتنفع وتجلب ، وتدفع ، وتشفي المريض وتود الغائب إذا نذر لها ، أن ذلك شرك ، وإذا ثبت أنه شرك ، فلا فرق في ذلك بين اعتقاده في الملائكة والنبين ، ولا بين اعتقاده في الأصنام والأوثان ، إذ لا يجوز الاشراك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص بالخالق سبحانه ، كما قال تعالى : (ولا يأمر بم أن تتخذوا الملائكة والنبين أرباباً يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) [آل عمران : ٨١] وهذا بعينه هو الذي يعتقده من دعا الأنبياء والصالحين ، ولهذا يسألونهم قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، وشفاء ذوي الأمراض والعاهات ، فثبت أن ذلك شرك .

وقال الامام ابن القيم رحمه الله تعالى في « شرح المنازل » ومن أنواعه أي : الشرك ، طلب الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم ، والتوجه إليهم ، وهذا أصل شرك العالم ، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فضلاً لمن استغاث به أو سأله أن يشفع إلى الله ، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده ، فإن الله سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، والله سبحانه لم يجعل سؤال غيره سبباً لإذنه ، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد ، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن ، والميت محتاج إلى من يدعو له ، كما أمرنا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم ، وندعو لهم ، ونسأل لهم العافية والمغفرة ، فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة ، وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد ، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير

دينه ، ومعاداة أهل التوحيد ، ونسبتهم إلى التنقص بالأموات ، وهم قد تنقصوا الخالق سبحانه بالشرك وأوليائه الموحدين بدمهم ومعاداتهم ، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص ، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا ، وأنهم أمروهم به ، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان . وما أكثر المستجيبين لهم ! والله در خليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال : (واجنبي وبني أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) [ابراهيم : ٣٦-٣٧] وما نجا من أشرك بهذا الشرك الأكبر ، إلا من جرد توحيده لله ، وعادى المشركين في الله ، وتقرب بمقتهم إلى الله .

وقال الإمام الحافظ ابن عبد الهادي في رده على السبكي وقوله : أي : قول السبكي : إن المبالغة في تعظيمه ، أي تعظيم الرسول ﷺ واجبة : إن أريد به المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيماً ، حتى الحج إلى قبره ، والوجود له ، والطواف به ، واعتقاد أنه يعلم الغيب ، وأنه يعطي ويمنع ، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع ، وأنه يقضي حوائج السائلين ، ويفرج كربات المكروبين ، وأنه يشفع فيمن يشاء ، ويدخل الجنة من يشاء ، فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك وانسلاخ من جملة الدين .

قلت : هذا هو اعتقاد عباد القبور فيمن هو دون الرسول ﷺ فضلاً عن الرسول ﷺ كما تقدم بعض ذلك ، والأمر أعظم وأطم من ذلك وفي « الفتاوى البزازية » من كتب الحنفية ، قال علماؤنا : من قال : أرواح المشايخ حاضرة تعلم ، يكفر . فإن أراد بالعلماء علماء الشريعة فهو حكاية للاجماع على كفر معتقد ذلك ، وإن أراد علماء الحنفية خاصة ، فهو حكاية

لانتفاقمهم على كفر معتقد ذلك ، وعلى التقديرين تأمله تجده صريحاً في كفر من دعا أهل القبور، لأنه مادعاهم حتى اعتقد أنهم يعلمون ذلك ، ويقدرّون على إجابة سؤاله ، وقضاء مأموله .

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في كتابه الذي ألفه في الرد على من ادعى أن الأولياء تصرفاً في الحياة وبعد الممات في سبيل الكرامة: هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن الأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات ، ويستغاث بهم في الشدائد والبلبات ، وبهممهم تكشف المهات ، فيأتون قبورهم ، وينادونهم في قضاء الحاجات ، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات ، وقالوا : منهم أبدال ونقباء ، وأوقاد ونجباء ، وسبعون وسبعة ، وأربعون وأربعة ، والقطب هو الغوث للناس ، وعليه المدار بلا التباس ، وجوزوا لهم الذبائح والندور ، وأثبتوا لهم فيها الأجور . قال : وهذا الكلام فيه تقريظ وإفراط ، بل فيه الهلاك الأبدي ، والعذاب السرمدى ، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق ، ومخالفة أئمة الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة . وفي التنزيل : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) [النساء : ١١٥] إلى أن قال : الفصل الأول فيما انتحلوه من الإفك الرخيم والشرك العظيم ... إلى أن قال : فأما قولهم : إن الأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات ، فيرده قوله تعالى (أله مع الله) [النمل : ٦١] (ألا له الخلق والأمر) [الاعراف : ٥٤] (الله ملك السموات والأرض) [المائدة : ١٢١] ونحوه من الآيات الدالة على أنه المنفرد بالخلق والتدبير ، والتصرف والتقدير ، ولا شيء لغيره في شيء ما يوجه من الوجوه ، فالكل

تحت ملكه وقهره تصرفاً وملكاً ، وإحياء وإماتة ، وخلقاً ، وتمدح الرب سبحانه بانفراده في ملكه بآيات من كتابه كقوله : (هل من خالق غير الله) [فاطر : ٤] (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) [فاطر : ١٤] وذكر آيات في هذا المعنى ثم قال : فقوله في الآيات كلها (من دونه) أي : من غيره ، فإنه عام يدخل فيه من اعتقدته من ولي وشيطان تستمده ، فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يد غيره ، إلى أن قال : فكيف يتصور لغيره من ممكن أن يتصرف ، إن هذا من السفاهة لقول وخيم ، وشرك عظيم ، إلى أن قال : وأما القول بالتصرف بعد المات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة . قال جل ذكره : (إنك ميت وإنهم ميتون) [الزمر : ٣١] (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت) [الزمر : ٤٣] (كل نفس ذائقة الموت) [آل عمران : ١٨٦] (كل نفس بما كسبت رهينة) [المدثر : ٣٩] وفي الحديث : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله » . الحديث ، فجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت ، وأن أرواحهم ممسكة ، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان ، فدل ذلك أن ليس للميت تصرفاً في ذاته فضلاً عن غيره بحركة ، وأن روحه محبوسة مرهونة بعمليها من خير وشر ، فاذا عجز عن حركة نفسه فكيف يتصرف في غيره ؟ فأنه سبحانه يخبر أن الأرواح عنده ، وهؤلاء الملحدون يقولون : إن الأرواح مطلقة متصرفة . قل أنتم أعلم أم الله ؟ .

قال : وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات ، فهو من

المغالطة ، لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم بها أوليائه ، لا قصد لهم فيه ولا تهدي ، ولا قدرة ولا علم ، كما في قصة مريم بنت عمران وأسيد بن حضير وأبي مسلم الحولاني .

قال : وأما قولهم : فيستغاث بهم في الشدائد ، فهذا أقبح مما قبله ، وأبدع لمصادمته قوله جل ذكره : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أله مع الله) [النمل : ٦٣] (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) [الأنعام : ٦٤] وذكر آيات في هذا المعنى ثم قال : فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره ، وأنه المتعين لكشف الشدائد والكرب وأنه المنفرد بإجابة المضطرين ، وأنه المستغاث لذلك كله ، وأنه القادر على دفع الضر ، والقادر على إيصال الخير ، فهو المنفرد بذلك فإذا تعين هو جل ذكره ، خرج غيره من ملك ونبي وولي .

قال : والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو مبيع ونحوه كقولهم : يا يزيد يا لقوم يا مسلمين كما ذكروا ذلك في كتب النحو بحسب الأسباب الظاهرة بالفعل ، وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير ، أو في الأمور المعنوية من الشدائد ، كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه ، فمن خصائص الله ، فلا يطلب فيها غيره . قال : وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية والجهال ، وينادونهم ويستنجدون بهم ، فهذا من المنكرات ، إلى أن قال : فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربه أو قضاء حاجته تأثيراً ، فقد وقع في وادي جهل خطير ، فهو على شفا حفرة من السعير . وأما كونهم

مستدلين على أن ذلك منهم كرامات ، فحاشى لله أن تكون أولياء الله بهذه المثابة ، فهذا ظن أهل الأوثان كذا أخبر الرحمن (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) [يونس : ١٩] (مانعبدكم إلا ايقرؤنا إلى الله زلفى) [الزمر : ٤] (ألتخذ من دونه الهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون) [يس : ٢٤] فان ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من ني رولي وغيره على وجه الإمداد منه إشراك مع الله ، إذ لا قادر على الدفع غيره ، ولا خير إلا خيره قال : وأما ماقلوه : من أن منهم أبداً ونقباء ، وأوتاداً ونجباء ، وسبعين وسبعة ، وأربعين وأربعة ، والقطب هو الغوث للناس ، فهذا من موضوعات إفكهم ، كما ذكره القاضي المحدث ابن العربي في « سراج المريدين » وابن الجوزي وابن تيمية . انتهى باختصار .

ومثل هذا يوجد في كلام غيرهم من العلماء ، والمقصود أن أهل العلم ما زالوا ينكرون هذه الأمور ويبينون أنها شرك ، وإن كان بعض المتأخرين ممن ينتسب إلى العلم والدين ممن أصيب في عقله ودينه قد يرخص في بعض هذه الأمور ، وهو مخطيء في ذلك ، ضال مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين ، فكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا قول ربنا وقول رسوله ﷺ ، فإن ذلك لا يتطرق إليه الخطأ بحال ، بل واجب على الخلق اتباعه في كل زمان ، على أنه لو أجمع المتأخرون على جواز هذا لم يعتد بإجماعهم المخالف لكلام الله وكلام رسوله في محل النزاع ، لأنه إجماع غير معصوم ، بل هو من زلة العالم التي حذرنا من اتباعها ، وأما الاجماع المعصوم ، فهو إجماع الصحابة والتابعين وما وافقه ، وهو السواد الأعظم الذي ورد الحث على اتباعه وإن لم يكن عليه الا الغرباء الذين

أخبر بهم ﷺ في قوله : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء » رواه مسلم ، لا ما كان عليه العوام والطغام ، والحلف المتأخرون الذين يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون .

قال : وقول الله تعالى : (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هـ) [يونس : ١٠٧ - ١٠٨] .

ش : قال ابن عطية : معناه قيل لي : ولا تدع ، فهو عطف على « أم » ، وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ إذا كانت هكذا ، فأحرى أن يحذر من ذلك غيره وقال غيره : (فإن فعلت) معناه : فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فكفى عنه بالفعل إيجازاً (فإنك إذاً من الظالمين) إذا جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر ، كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان ، وجعل من الظالمين ، لأنه لا ظلم أعظم من الشرك (إن الشرك لظلم عظيم) [لقمان : ١٤] .

قلت : حاصل كلام المفسرين أن الله تعالى نهى رسوله ﷺ أن يدعو من دونه ما لا ينفعه ولا يضره ، والمراد به كل ما سوى الله ، فانهم لا ينفعون ولا يضررون وسواء في ذلك الأنبياء والصالحون وغيرهم ، كما قال تعالى : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) [الجن : ١٩] وقال النبي ﷺ لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك » رواه الترمذي ، وقال : حسن صحيح .

وفي الآية تنبيه على أن المدعو لا بد أن يكون مالِكاً للنفع والضرر حتى يعطي من دعاه أو يبطلش بمن عصاه ، وليس ذلك إلا الله وحده ، فتعين أن يكون هو المدعو دون ما سواه ، والآية شاملة لنوعي الدعاء . وقوله : (فان فعلت فانك إذا من الظالمين) [يونس : ١٠٧] أي المشركين ، وهذا كقوله : فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين [الشعراء : ٢١٤] وقوله : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك وتكونن من الخاسرين) [الزمر : ٦٦] وقوله : في الأنبياء : (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) [الأنعام : ٨٩] فإذا كان هذا الأمر لا يصدر من الأنبياء وحاشاهم من ذلك لم يفكوا أنفسهم من عذاب الله ، فما ظنك بغيرهم ؟ فلم يبق شيء يقرب إلى الله ويباعد من سخطه إلا توحيده والعمل بما يرضاه ، لا الاعتماد على شخص أو قبر أو صنم أو وثن أو مال أو غير ذلك من الأسباب (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون) [المؤمنون : ١١٨] والآية نص في أن دعاء غير الله والاستغاثة به شرك أكبر ، ولهذا قال : (وإن يسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) [الأنعام : ١٨] لأنه المتفرد بالملك والقهر والعطاء والمنع ، ولأزم ذلك أفرادة بتوحيد الإلهية لأنها متلازمان ، وإفرادة بسؤال ككشف الضر وجلب الخير ، لأنه لا يكشف الضر إلا هو ، ولا يجلب الخير إلا هو (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا يسلكها وما يسلك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) [فاطر : ٣] فتعين أن لا يدعى لذلك إلا هو ، وبطل دعاء من سواه ، من لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً فضلاً عن

غيره ، وهذا ضد ما عليه عباد القبور ؛ فانهم يعتقدون أن الأولياء والطواغيت الذي يسمونهم المجاذيب ينفعون ويضرون ويمسون بالضرر ويكشفونه ، وأن لهم التصرف المطلق في الملك ، أي : على سبيل الكرامة ، وهذا فرق شرك كفار العرب ، ولما على سبيل الوساطة بينهم وبين الله بالشفاعة وهذا اشرك الذين قالوا : (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) [الزمر : ٤] .

وفي الآية دليل على أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين . ذكره المصنف . وقوله : (يصيب به من يشاء من عباده) [يونس : ١٠٨] فلا يرده عنه راد ، لأنه العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع ولا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، فأى فائدة في دعاء غيره لشفاعة أو غيرها ؟ فإنه تعالى فعال لما يريد ، لا يغنيه عنه شفيع ولا غيره ، بل لا يتكلم أحد عنده إلا بأذنه ، ولا يشفع أحد إلا بأذنه : (ما لكم من دونه ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون) [السجدة : ٥] .

وقوله : (وهو الغفور الرحيم) [يونس : ١٠٨] أي لمن تاب إليه وأقبل عليه حتى ولو كان من الشرك .

قال : وقوله : (فابتهوا عند الله الرزق واعبدوه) [العنكبوت : ١٨] .

ش : أمر الله تعالى بابتغاء الرزق عنده لا عند غيره بمن لا يملك رزقاً من الأوثان والأصنام وغيرها ، كما قال في أول الآية : (إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً) [العنكبوت : ١٨] قال ابن كثير : وهذا أبلغ في الحصر كقوله : (إياك نعبد وإياك نستعين)

[الفاتحة : ٦] (رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة) [التحريم : ١٢]
ولهذا قال : (فابتنوا عند الله الرزق) ، أي : لا عند غيره لأنه
المالك له وغيره لا يملك شيئاً من ذلك (فاعبدوه) ، أي : اخلصوا له
العبادة وحده لا شريك له (واشكروا له) ، أي : على ما أنعم عليكم
(وإليه ترجعون) أي : فيجازي كل عامل بعمله .

قلت : في الآية الرد على المشركين الذين يدعون غير الله ليشفعوا
لهم عنده في جلب الرزق ، فما ظنك بمن دعاهم أنفسهم ، واستغاث بهم
ليرزقوه وينصروه كما هو الواقع من عباد القبور ؟ وقال المصنف : وفيه
أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله ، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه .
قال : وقوله (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب
له إلى يوم القيامة) [الأحقاف : ٦] .

ش : حاصل كلام المفسرين أن الله تعالى حكم بأنه لا أضل ممن يدعو
من دون الله ، لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة واستغاثة من هذه حاله .
ومعنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً ممن
عبد غير الله ودعاه ، حيث يتكون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل
كل بغية ومرام ، ويدعون من دونه من لا يستجيب لهم ، ولا قدرة به
على استجابة أحد منهم مادام في الدنيا وإلى أن تقوم القيامة ، كما قال
تعالى : (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء
إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا
في ضلال) [الرعد : ١٦] وقوله : (وهم عن دعائهم غافلون)

[الأحقاف : ٦] أي لا يشعرون بدعاء من دعاهم ، لأنهم إما عباد مسخرون مشغولون بأحوالهم كالملائكة ، وإما أموات كالأنبياء والصالحين وإما أصنام وأوثان . وقوله : (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) [الأحقاف : ٧] أي : إذا قامت القيامة وحشر الناس للحساب عادوهم وكانوا بعبادتهم الدعاء وغيره من أنواع العبادة كافرين ، كما قال تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّاً) [مريم : ٨٣-٨٤] فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرة ، لا تتولاهم بالاستجابة في الدنيا ، وتُجحد عبادتهم في الآخرة وهم أحوج ما كانوا إليها .

وفي الآيتين مسائل نبه عليها المصنف : أحدها : أنه لا أضل ممن دعا غير الله . الثانية : أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه الثالثة : أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له . الرابعة : تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو . الخامسة : كفر المدعو بتلك العبادة . السادسة : أن هذه الأمور هي سبب كونه أضل الناس .

قال : وقوله : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) [النمل : ٦٣] .

ش : يقرر تعالى أنه الإله الواحد الذي لا شريك له ، ولا معبود سواه بما يشترك في معرفته المؤمن والكافر ، لأن القلوب مفطورة على ذلك ، فمضى جاء الاضطراب رجعت القلوب إلى الفطرة ، وزال ما ينافيها ، فالتجأت إليه وأنابت إليه وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : (ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يرمي بكم يشركون) [النحل : ٥٤ - ٥٥] وقال تعالى : (فإذا مس الإنسان

ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله . قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار) [الزمر : ٩] ومثل هذا كثير في القرآن .

يبين تعالى أنه المدعو عند الشدائد ، الكاشف للسوء وحده ، فيكون هو المعبود وحده ، وكذا قال في هذه الآية : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) ، أي : من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه والذي لا يكشف ضر المضطرين سواه ، ومن المعلوم أن المشركين كانوا يعلمون أنه لا يقدر على هذه الأمور إلا الله وحده ، وإذا جاءتهم الشدائد أخلصوا الدعاء لله ، كما قال تعالى : (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) [العنكبوت : ٦٦] فتبين أن من اعتقد في غير الله أنه يكشف السوء أو يجيب دعوة المضطر ، أو دعاه لذلك فقد أشرك شركاً أكبر من شرك العرب كما هو الواقع من عباد القبور .

قال : وروى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤدي المؤمنين . فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق . فقال النبي ﷺ : « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله » .

ش : قوله : روى الطبراني هو : الإمام الحافظ الثقة ، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها . روى عن النسائي وإسحاق بن إبراهيم الديري وخلق كثير ، ومات سنة ستين وثلاثمائة ، وقد يئس المصنف لاسم الراوي ، وكأنه والله أعلم نقله

عن غيره أو كتبه من حفظه ، والحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

قوله : انه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤدي المؤمنين . هذا المنافق لم أقف على تسميته ، ويحتمل أن يكون هو عبد الله بن أبي ، فانه معروف بالأذى للمؤمنين بالكلام في أعراضهم ونحو ذلك ، أما أذاهم بنحو ضرب أو زجر ، فلا نعلم منافقاً بهذه الصفة .

قوله : فقال بعضهم . أي : بعض المؤمنين ، وهذا البعض القائل لذلك يحتمل أن يكون واحداً ، وأن يكون جماعة ، والظاهر أنه واحد ، وأظن في بعض الروايات أنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

قوله : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ . مرادهم الاستغاثة به فيما يقدر عليه بكف المنافق عن أذاهم ، بنحو ضربه أو زجره ، لا الاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله .

قوله : « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله » . قال بعضهم : فيه التصريح بأنه لا يستغاث بالنبي ﷺ في الأمور ، وإنما يستغاث بالله . والظاهر أن مراده ﷺ إرشادهم إلى التأدب مع الله في الألفاظ ، لأن استغاثتهم به ﷺ من المنافق من الأمور التي يقدر عليها ، إما بزجره أو تعزيزه ونحو ذلك ، فظهر أن المراد بذلك الإرشاد إلى حسن اللفظ والحماية منه ﷺ لجناب التوحيد ، وتعظيم الله تبارك وتعالى . فإذا كان هذا كلامه ﷺ في الاستغاثة به فيما يقدر عليه ، فكيف بالاستغاثة به أو بغيره في الأمور المهمة التي لا يقدر عليها أحد إلا الله كما هو جار

على السنة كثير من الشعراء وغيرهم؟! وقل من يعرف أن ذلك منكر، فضلاً عن معرفة كونه شركاً .

فإن قلت : ما الجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى : (فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه) [القصص : ١٦] فأت ظاهر الحديث المنع من إطلاق لفظ الاستغاثة على المخلوق فيما يقدر عليه ، وظاهر الآية جوازه . قيل : تحمل الآية على الجواز ، والحديث على الأدب والأولى ، والله أعلم . وقد تبين بما ذكر في هذا الباب وشرحه من الآيات والأحاديث وأقوال العلماء أن دعاء الميت والغائب والحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله والاستغاثة بغير الله في كشف الضر أو تحويله ، هو الشرك الأكبر ، بل هو أكبر أنواع الشرك ، لأن الدعاء مخ العبادة ، ولأن من خصائص الإلهية إفراد الله بسؤال ذلك ، إذ معنى الإله هو الذي يعبد لأجل هذه الأمور ، ولأن الداعي إنما يدعو إلهه عند انقطاع أمله بما سواه ، وذلك هو خلاصة التوحيد ، وهو انقطاع الأمل بما سوى الله ، فمن صرف شيئاً من ذلك لغير الله ، فقد ساوى بينه وبين الله ، وذلك هو الشرك ، ولهذا يقول المشركون لآلهتهم وهم في الجحيم (ثلثه إن كنا أفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين) [الشعراء : ٩٨ ، ٩٩] ولكن لعباد القبور على هذا شبهات ، ذكر المصنف كثيراً منها في « كشف الشبهات » ونحن نذكر هنا ما لم يذكره .

فمن ذلك أنهم احتجوا بحديث رواه الترمذي في « جامع » حيث قال : حدثنا محمود بن غيلان ، ثنا عثمان بن عمرو ، ثنا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر

أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني ، قال : « إن شئت دعوت ، وإن شئت صبرت ، فهو خير لك » ، قال : فادعه ، فأمره أن يتوضأ ، ويحسن وضوءه ، ويدعو بهذا الدعاء « اللهم إني أسألك ، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، إني توجهت به إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي ، اللهم فشفعه في » ، قال : هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من رواية أبي جعفر ، وهو غير الخطمي ، هكذا رواه الترمذي ورواه النسائي وابن شاهين والبيهقي كذلك ، وفي بعض الروايات « يا محمد إني أتوجه ، إلى آخره » .

وهذه اللفظة هي التي تعلق بها المشركون ، وليست عند هؤلاء الأئمة . قالوا : فلو كان دعاء غير الله شركاً لم يعلم النبي ﷺ الأعمى هذا الدعاء الذي فيه نداء غير الله .

والجواب من وجوه :

الأول : أن هذا الحديث من أصله وإن صححه الترمذي ، فإن في ثبوته نظراً ، لأن الترمذي يتساهل في التصحيح كالحاكم ، لكن الترمذي أحسن نقداً ، كما نص على ذلك الأئمة . ووجه عدم ثبوته أنه قد نص أن أبا جعفر الذي عليه مدار هذا الحديث هو غير الخطمي ، وإذا كان غيره ، فهو لا يعرف ، ولعل عمدة الترمذي في تصحيحه أن شعبة لا يروي إلا عن ثقة ، وهذا فيه نظر ، فقد قال عاصم بن علي : سمعت شعبة يقول : لو لم أحدثكم إلا عن ثقة لم أحدثكم إلا عن ثلاثة ، وفي نسخة عن ثلاثين ، ذكره الحافظ العراقي ، وهذا اعتراف منه بأنه يروي عن الثقة وغيره فينظر في حاله ، ويتوقف الاحتجاج به على ثبوت صحته .

الثاني : أنه في غير محل النزاع ، فأين طلب الأعمى من النبي ﷺ أن يدعو له ، وتوجهه بدعائه مع حضوره ، من دعاء الأموات ، والسجود لهم ، ولقبورهم ، والتوكل عليهم ، والالتجاء إليهم في الشدائد والنذر والذبح لهم ، وخطابهم بالحوائح من الأمكنة البعيدة : ياسيدي يامولاي افعل بي كذا ؟! فحديث الأعمى شيء ، ودعاء غير الله تعالى والاستغاثة به شيء آخر ، فليس في حديث الأعمى شيء غير أنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له ، ويشفع له ، فهو توسل بدعائه وشفاعته ، ولهذا قال في آخره « اللهم فشفعه في » فعلم أنه شفع له . وفي رواية أنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له ، فدل الحديث على أنه ﷺ شفع له بدعائه ، وأن النبي ﷺ أمره أن يدعو الله ويسأله قبول شفاعته ، فهذا من أعظم الأدلة على أن دعاء غير الله شرك ، لأن النبي ﷺ أمره أن يسأل قبول شفاعته ، فدل على أن النبي ﷺ لا يدعى ، ولأنه ﷺ لم يقدر على شفاعته إلا بدعاء الله له . فأين هذا من تلك الطوام ، والكلام إنما هو في سؤال الغائب أو سؤال المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله ، أما أن تأتي شخصاً مخاطبك فتسأله أن يدعو لك فلا إنكار في ذلك على ما في حديث الأعمى ، فالحديث سواء كان صحيحاً أو لا ، وسواء ثبت قوله فيه : يا محمد أو لا ، لا يدل على سؤال الغائب ، ولا على سؤال المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله بوجهه من وجوه الدلالات . ومن ادعى ذلك ، فهو مفتر على الله وعلى رسوله ﷺ ، لأنه إن كان سأل النبي ﷺ نفسه ، فهو لم يسأل منه إلا ما يقدر عليه ، وهو أن يدعو له ، وهذا لا إنكار فيه وإن كان توجهه به من غير سؤال منه نفسه ، فهو لم يسأل منه ، وإنما سأل من الله به ،

سواء كان متوجهاً بدعائه ، كما هو نص أول الحديث وهو الصحيح ، أو كان متوجهاً بذاته على قول ضعيف ، فإن التوجه بذوات المخلوقين ، والإقسام بهم على الله بدعة منكورة ، لم تأت عن النبي ﷺ ، ولا عن أحد من أصحابه ، والتابعين لهم بإحسان ، ولا الأئمة الأربعة ونحوهم من أئمة الدين . قال أبو حنيفة : لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به . وقال أبو يوسف : أكره بحق فلان وبحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت ، والمشعر الحرام . وقال القدوري : المسألة بحق المخلوق لا تجوز ، فلا يقول : أسألك بفلان أو ببلادك أو أنبيائك ونحو ذلك ، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق ، واختاره العز بن عبد السلام ، إلا في حق النبي ﷺ خاصة إن ثبت الحديث ، يشير إلى حديث الأعمى ، وقد تقدم أنه على تقدير ثبوته ليس فيه إلا أنه توسل بدعائه لا بذاته .

وقد ورد في ذلك حديث رواه الحاكم في « مستدركه » ، فأبعد النجعة من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه ، رفع رأسه إلى العرش ، فقال : أسألك بحق محمد إلا غفرت لي ... الحديث . وهو حديث ضعيف بل موضوع ، لأنه مخالف للقرآن . قال تعالى : (قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) [الأعراف : ٢٣] فهذا هو الذي قاله آدم . قال الذهبي في هذا الحديث : أظنه موضوعاً ، وعبد الرحمن بن زيد متفق على ضعفه ، قال ابن معين : ليس حديثه بشيء .

الثالث أن قوله : يا محمد إني أتوجه الخ لم تثبت في أكثر الروايات . وبتقدير ثبوتها لا يدل على جواز دعاء غير الله ، لأن هذا خطاب لحاضر

معين يراه ويسمع كلامه ، ولا إلكار في ذلك ، فإن الحي يطلب منه الدعاء كما يطلب منه ما يقدر عليه ، فإن هذا من دعاء الغائب والميت لو كان أهل البدع والشرك يعلمون ؟!

واحتجوا أيضاً بحديث رواه أبو يعلى وابن السني في « عمل اليوم واليلة » فقال ابن السني : حدثنا أبو يعلى ثنا الحسن بن عمرو بن شقيق ثنا معروف بن حسان ثنا أبو معاذ السمرقندي عن سعيد عن قتادة عن أبي بردة عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فليناد يا عباد الله احبسوا » هكذا في كتاب ابن السني . وفي « الجامع الصغير » : « فإن الله عز وجل في الأرض حاضراً سيحبسه عليكم » والجواب أن هذا الحديث مداره على معروف ابن حسان وهو أبو معاذ السمرقندي . فقله في الأصل : ثنا أبو معاذ السمرقندي خطأ أخله من النسخ . قال ابن عدي : منكر الحديث وقال الذهبي في « الميزان » : قال ابن عدي : منكر الحديث ، قدروى عن عمرو بن ذر نسخة طويلة كلها غير محفوظة ، وقال السيوطي : حديث ضعيف ، وأقول : بل هو باطل ، إذ كيف يكون عند سعيد عن قتادة ، ثم يغيب عن أصحاب سعيد الحفاظ الأثبات مثل يحيى القطان ، وإسماعيل بن علية ، وأبي أسامة ، وخالد بن الحارث ، وأبي خالد الأحمر وسفيان ، وشعبة ، وعبد الوارث ، وابن المبارك ، والأنصاري ، وغندر ، وابن أبي عدي ونحوهم ، حتى يأتي به هذا الشيخ المجهول المنكر الحديث . فهذا من أقوى الأدلة على وضعه ، وبتقدير ثبوته لا دليل فيه ، لأن هذا من دعاء الحاضر فيما يقدر عليه كما قال : « فإن الله في الأرض حاضراً سيحبسه عليكم » .

واحتجروا أيضاً بحديث رواه الطبراني في « المعجم الكبير » فقال :
حدثنا طاهر بن عيسى بن قيس المصري ثنا أصبغ بن الفرغ ، ثنا
ابن وهب عن أبي سعيد المكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الحطمي
المديني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان
ابن عفان في حاجة له فكان عثمان لا يلتفت إليه ، ولا ينظر في حاجته ،
فلقي ابن حنيف فشكا إليه ذلك ، فقال له عثمان بن حنيف : ائت
المبضاة فتوضأ ، ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ، ثم قل : اللهم إني
أسألك ، وأتوجه إليك بنينا محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى
ربك ليقضي لي حاجتي ... الحديث . والجواب من وجوه :

الأول : أن راويه طاهر بن عيسى ممن لا يعرف بالعدالة بل هو
مجهول ، قال الذهبي : طاهر بن عيسى بن قيس أبو الحسين المصري
المؤدب عن سعيد بن أبي مریم ، ويحيى بن بكير ، وأصبغ بن الفرغ .
وعنه الطبراني . توفي سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، ولم يذكر فيه جرحاً
ولا تعديلاً ، فهو إذاً مجهول الحال لا يجوز الاحتجاج بخبره ، لاسيما فيما
يخالف نصوص الكتاب والسنة .

الثاني : قوله : عن أبي سعيد المكي أشد جهالة من الأول . فإن
مشايخ ابن وهب المكيين معروفون كداود بن عبد الرحمن ، وزمعة بن
صالح ، وابن عينة ، وطلحة بن عمرو الحضرمي ، وابن جريح ،
وعمر بن قيس ، ومسلم بن خالد الزنجي ، وليس فيهم من يكنى أبا سعيد ،
فتبين أنه مجهول .

الثالث : إن قلنا بتقدير ثبوته ، فليس فيه دليل على دعاء الميت والغائب ،

غاية ما فيه أنه توجه به في دعائه ، فأين هذا من دعاء الميت ؟ فإن التوجه بالخلق سؤال به لا سؤال منه ، والكلام إنما هو في سؤال المخلوق نفسه ودعائه والاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله ، وكل أحد يفرق بين سؤال الشخص ، وبين السؤال به ، فإنه في السؤال به قد أخلص الدعاء لله ، ولكن توجه على الله بذاته أو بدعائه . وأما في سؤاله نفسه ما لا يقدر عليه إلا الله ، فقد جعله شريكاً لله في عبادة الدعاء ، فليس في حديث الأعمى ، وحديث ابن حنيفة هذا إلا إخلاص الدعاء لله كما هو صريح فيه ، إلا قوله ، يا محمد إني أتوجه بك ، وهذا ليس فيه مخاطبة ميت فيما لا يقدر عليه ، إنما فيه مخاطبته مستحضراً له في ذهنه كما يقول المصلي : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .

الرابع : أنهم زعموا أنه دليل على دعاء كل غائب وميت من الصالحين ، فخرجوا عما فهموه من الحديث بفهمهم الفاسد إلى أنه دليل على دعاء كل غائب وميت صالح ، ولا دليل فيه أصلاً على دعاء الرسول ﷺ بعد موته ، ولا في حياته فيما لا يقدر عليه ، ثم لو كان فيه دليل على ذلك لم يكن فيه دليل على دعاء الغائب والميت مطلقاً ، لأن هذا قياس مع وجود الفارق ، وهو باطل بالإجماع ، إذ ما ثبت للنبي ﷺ من الفضائل والكرامات لا يساويه فيه أحد ، فلا يجوز قياس غيره عليه ، وأيضاً فالقياس إنما يجوز للحاجة ولا حاجة إلى قياس غيره عليه ، فبطل قياسهم بنفس مذهبهم ، هذا غاية ما احتجوا به بما در موجود في بعض الكتب المعروفة ، وما سوى هذه الأحاديث الثلاثة فهو ما وضعوه بأنفسهم ، كقولهم : إذا أعيتم الأمور فعليكم بأصحاب القبور ، وقولهم : لو حسن أحدكم ظنه بمحجر لنفعه . قال ابن القيم : وهو من وضع المشركين عباد الأوثان .

باب

قول الله تعالى (أئشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون) [الأعراف : ١٩٢]

ش : المراد من هذه الترجمة بيان حال المدعين من دوت الله أنهم لا ينفعون ولا يضرّون، وسواء في ذلك الملائكة والأنبياء الصالحون والأصنام، مكل من دعي من دون الله فهذه حاله ، كما قال تعالى : (يا أيها الناس سرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطوب . ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز) [الحج : ٢٣ - ٢٤]
ويكفيك في ذلك قوله تعالى لأكرم الخلق : (قل إني لأملك لكم ضرأ ولا رشداً . قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً . إلا بلاغاً من الله ورسالاته) [الجن : ٢٣ - ٢٤] وقال : (قل لأملك نفسي نفعاً ولا ضرأ إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) [الأعراف : ١٨٩]
وقال : (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرأ ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) [الفرقان : ٤]
ومن المعلوم أنهم كانوا قد عبدوا الملائكة والأنبياء والصالحين ، ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن الملائكة أنهم يتبرؤون منهم يوم القيامة ، كما قال تعالى : (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) [سبأ : ٤٢ - ٤٣] إذا تبين ذلك فحاصل كلام المفسرين على الآية المترجم

لها أن قوله تعالى: (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون) [الأعراف: ١٩٢] توبيخ وتعنيف للمشركين بأنهم يعبدون مع الله تعالى عبادة لا تخلق شيئاً وليس فيها ما تستحق به العبادة من الخلق والرزق والنصر ، لأنفسهم أو لمن عبدهم وهم مع ذلك مخلوقون محدثون ولهم خالق خلقهم ، وإن خرج الكلام مخرج الاستفهام ، فالمراد به ما ذكرناه .

وقوله: (ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون) [الأعراف: ١٩٢] أي : ويشركون به ، ويعبدون من هذه حاله لا يستطيع نصر عابديه ولا نصرته بأن يدفع عن نفسه من أراد به الضر ، ومن هذه حاله فهو في غاية العجز ، فكيف يكون لهم معبوداً ؟ وجميع الأنبياء والملائكة والصالحين وغيرهم داخلون في هذه الأوصاف ، فلا يقدر أحد منهم أن يخلق شيئاً ولا يستطيعون لمن عبدهم نصراً ، ولا ينصرون أنفسهم ، وإذا كان كذلك بطلت دعوتهم من دون الله .

قال : وقوله تعالى (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير)
[فاطر : ١٣]

ش : حاصل كلام المفسرين كابن كثير وغيره أنه تعالى يخبر عن حال المدعويين من دونه من الملائكة والأنبياء والاصنام وغيرها بما يدل على عجزهم وضعفهم ، وأنهم قد انتفت عنهم الشروط التي لابد أن تكون في المدعو وهي الملك ، وسماع الدعاء ، والقدرة على استجابته ، فمضى عدم شرط بطل أن يكون مدعواً ، فكيف اذا عدمت كلها ، فنفى عنهم الملك بقوله : (ما يملكون من قطمير) .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، والحسن ، وقتادة :

الامور وما لها وما تصير اليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعني نذر ، تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لاحالة .

قال : وفي « الصحيح » عن أنس . قال : شج النبي ﷺ يوم أحد فقال : « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ » فنزلت (ليس لك من الأمر شيء) [آل عمران : ١٢٩]

ش : قوله في « الصحيح » ، أي « الصحيحين » فعلقه البخاري عن حميد وثابت عن أنس ، ووصله أحمد والترمذي والنسائي ، عن حميد ، عن أنس به . ووصله مسلم عن ثابت عن أنس وقال ابن اسحق في « المغازي » : حدثني حميد الطويل ، عن أنس قال : كسرت رباعية النبي ﷺ يوم أحد وشج في وجهه ، فجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ » فانزل الله الآية .

قوله : شج النبي ﷺ . قال أبو السعادات : الشج في الرأس خاصة في الأصل ، وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه ، ثم استعمل في غيره من الأعضاء . وذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي ﷺ السفلى ، وجرح شفته السفلى ، وأن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجه في جبهته ، وأن عبد الله بن قنينة جرحه في وجنته ، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، وأن مالك بن سنان مص الدم من وجه رسول الله ﷺ ثم زدرده ، فقال له : « لن تمسك النار » .

الامور وما لها وما تصير اليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعني نذر ، تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لاحالة .

قال : وفي « الصحيح » عن أنس . قال : شج النبي ﷺ يوم أحد فقال : « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ » فنزلت (ليس لك من الأمر شيء) [آل عمران : ١٢٩]

ش : قوله في « الصحيح » ، أي « الصحيحين » فعلقه البخاري عن حميد وثابت عن أنس ، ووصله أحمد والترمذي والنسائي ، عن حميد ، عن أنس به . ووصله مسلم عن ثابت عن أنس وقال ابن اسحق في « المغازي » : حدثني حميد الطويل ، عن أنس قال : كسرت رباعية النبي ﷺ يوم أحد وشج في وجهه ، فجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ » فانزل الله الآية .

قوله : شج النبي ﷺ . قال أبو السعادات : الشج في الرأس خاصة في الأصل ، وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه ، ثم استعمل في غيره من الأعضاء . وذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي ﷺ السفلى ، وجرح شفته السفلى ، وأن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجه في جبهته ، وأن عبد الله بن قنينة جرحه في وجنته ، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، وأن مالك بن سنان مص الدم من وجه رسول الله ﷺ ثم زدرده ، فقال له : « لن تمسك النار » .

وروى الطبراني من حديث أبي أمامة . قال : رمى عبد الله بن قثمته رسول الله ﷺ يوم أحد ، فشججه في وجهه ، وكسر رباعيته . فقال : خذها وأنا ابن قثمته . فقال رسول الله ﷺ : « مالك أقماك الله » فسلط الله عليه تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة .

قال القرطبي : والرابعة - بفتح الراء وتخفيف الياء ، وهي كل سن بعد ثنية . قال النووي : وللإنسان أربع ربايعات . قال الحافظ : والمراد أنها كسرت فذهب منها فلقه ولم تقلع من أصلها . قلت : فظهر بهذا أن قول بعضهم : إنه شج في رأسه فيه نظر .

قال النووي : وفي هذا وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لينالوا جزيل الأجر والثواب ، ولتعرف أنهم وغيرهم ما أصابهم ، ويتأسوا بهم . قال القرطبي : وليعلم أنهم من البشر تصيبيهم عن الدنيا ، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ليتيقنوا أنهم مخلوقون مربوبون ، ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات ، ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم .

قوله : « يوم أحد » جبل معروف إلى الآن ، كانت عنده الواقعة المشهورة فأضيفت إليه .

قوله : فقال : « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ » . زاد مسلم من طريق ثابت عن أنس « وكسروا رباعيته وأدموا وجهه » .

قوله : فأنزل الله : (ليس لك من الأمر شيء) قال ابن عطية : كان النبي ﷺ لحقه في تلك الحال يأس من فلاح كفار قريش ، فذلت نفسه إلى أن يستأصلهم الله ، ويربح منهم . فقليل له :

بسبب ذلك (ليس لك من الأمر شيء) أي : عواقب الأمور بيد الله فامض أنت لشأنك ، ودم على الدعاء لربك .

وقال غيره : المعنى أن الله تعالى مالك أمرهم ، فإما أن يهلكهم أو يكتبهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصروا ، وليس لك من أمرهم شيء ، وإنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم ، فعلى هذا يكون قوله : (ليس لك من الأمر شيء) اعتراض المعطوف والمعطوف عليه . وقال ابن إسحاق : أي ليس لك من الحكم بشيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم .

قال : وفيه عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر : « اللهم العن فلاناً وفلاناً » ، بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد . فأنزل الله : (ليس لك من الأمر شيء) وفي رواية : يدعو على صفوان ابن أمية ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ، فنزلت : (ليس لك من الأمر شيء) .

ش : قوله : وفيه : أي في « الصحيح » والمراد به « صحيح البخاري » ، ورواه النسائي .

قوله : عن ابن عمر . هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، صحابي جليل ، من عباد الصحابة ، شهد له رسول الله ﷺ بالصلاح . مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها ، أو أول التي تليها .

قوله : إنه سمع رسول الله ﷺ إلى آخره . هذا القنوت على هؤلاء هو بعد ما شج ، وكسرت رباعيته يوم أحد .

قوله : « اللهم العن فلاناً وفلاناً » . قال أبو السعادات : أصل اللعن : الطرد والابعاد من الله ، ومن الخلق السب والدعاء . قلت : الظاهر أنه من الخلق طلب طرد الملعون وإبعاده من الله بلفظ اللعن ، لا مطلق السب والشم .

قوله : فلاناً وفلاناً ، يعني صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام كما بينه في الرواية التي بعدها . وفيه جواز الدعاء على المشركين في الصلاة ، وتسمية المدعو عليهم ولهم بأسمائهم في الصلاة ، وأن ذلك لا يضر الصلاة .

قوله : بعدما يقول : سمع الله لمن حمده . قال أبو السعادات ، أي : أجاب حمده وتقبله . وقال السهيلي : مفعول « سمع » محذوف ، لأن السمع متعلق بالأقوال والأصوات دون غيرها ، فاللام تؤذن بمعنى زائد وهو الاستجابة المقارنة للسمع ، فاجتمع في الكلمة الإيجاز والدلالة على الزائد ، وهو الاستجابة لمن حمده . وقال ابن القيم رحمه الله تعالى ما معناه : عدى سمع الله لمن حمده باللام لتضمنه معنى : استجاب له ، ولا حذف هناك ، وإنما هو مضمن .

قوله : ربنا ولك الحمد . في بعض روايات البخاري بإسقاط الواو . قال النووي : لا ترجيح لإحداهما على الأخرى . وقال ابن دقيق العيد : كأن إثباتها دال على معنى زائد ، لأنه يكون التقدير مثلاً : ربنا استجب ولك الحمد ، فيشتمل على معنى الدعاء ، ومعنى الجبر .

قال شيخ الإسلام : والحمد ضد الذم ، والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له ، إذا أن الذم يكون على مساوئه مع البغض له ،

وكذا قال ابن القيم ، وفرق بينه وبين المدح بأن الإخبار عن محاسن الغير ، إما أن يكون إخباراً مجرداً عن حب وإرادة ، أو مقروناً بحبه وإرادته ، فإن كان الأول ، فهو المدح ، وإن كان الثاني ، فهو الحمد . فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه ، ولهذا كان خبراً يتضمن الإنشاء بخلاف المدح ، فإنه خبر مجرد . فالقائل إذا قال : الحمد لله ، وقال : ربنا ولك الحمد ، تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الجملة المحققة والمقدرة ، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى ، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ، ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه ، وهو الحميد المجيد . وفيه التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد ، وهو قول الشافعي وأحمد وأبي يوسف ، وخالف في ذلك مالك وأبو حنيفة فقالا : يقتصر على قول : سمع الله لمن حمده .

قوله : وفي رواية يدعو على صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام . إنما دعا عليهم رسول الله ﷺ لأنهم رؤساء المشركين يوم أحد ، والسبب في تلك الأفاعيل التي جرت على سيد المرسلين ﷺ هم وأبو سفيان ، ومع ذلك فما استجيب له فيهم ، بل أنزل الله عليه : (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون) [آل عمران : ١٢٩] فتاب الله عليهم وآمنوا ، مع أنهم فعلوا أشياء لم يفعلها أكثر الكفار ، منها غزوهم نبيهم ﷺ في بلاده ، وشجهم له ، وكسر رباعيته ، وقتلهم بني عمهم المؤمنين ، وقتلهم الأنصار والتمثيل بقتلى المسلمين ، وإعلانهم بشركهم وكفرهم ، ومع هذا كله لم يقدر النبي

ﷺ أن يدفعهم عن نفسه ، ولا عن أصحابه ، كما قال تعالى : (قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً . قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً . إلا بлагاً من الله ورسالاته) [الجن : ٢١ - ٢٣] بل لجأ ﷺ إلى ربه المالك القادر على النفع والضرر وإهلاكهم ، ودعا عليهم ﷺ في الصلاة المكتوبة جهراً ، وخلفه سادات الأولياء يؤمنون على دعائه ، ومع هذا كله ما استجاب الله له فيهم ، بل تاب عليهم وآمنوا ، فلم كان عنده ، ﷺ من النفع والضرر شيء لكان يفعل بهم ما يستحقونه على هذه الأفعال العظيمة ، ولكن الأمر كما قال تعالى : (هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب) فأين هذا مما يعتقد عباد القبور في الأولياء والصالحين بل في الطواغيت الذين يسمونهم المجاذيب والفقراء أنهم ينفعون من دعائهم ، وينصرون من لاذ بجهام ، ويدعونهم برأ وبجراً في غيبتهم وحضرتهم .

قال : وفيه عن أبي هريرة قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه (وألنذر عشيرتك الأقربين) [الشعراء : ٢١٥] قال : « يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً » .

ش : قوله : وفيه ، أي : في « صحيح البخاري » .

قوله : عن أبي هريرة . اختلف الحفاظ في اسمه على أكثر من ثلاثين قولاً ، وصحح النووي أن اسمه عبد الرحمن بن صخر ، كما رواه الحاكم في

« المستدرك » عن أبي هريرة قال : كان اسمي في الجاهلية عبد شمس بن صخر ، فسميت في الاسلام عبد الرحمن . وقال غيره : اسمه - عبد الله بن عمرو ، وقيل : ابن عامر . وقال ابن الكلبي : اسمه عمير بن عامر ، ويقال : كان اسمه في الجاهلية عبد شمس وكنيته أبو الأسود ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وكناه أبا هريرة . وروى الدولابي بإسناده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سماه عبد الله ، وهو دوسي من فضلاء الصحابة ، وحفاظهم ، وعلمائهم ، حفظ عن النبي ﷺ أكثر مما حفظه غيره ، وروى له في كتب السنة أكثر من خمسة آلاف حديث ، ومات سنة سبعة أو ثمان أو تسع وخمسين ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة .

قوله : قام رسول الله ﷺ . في « الصحيح » من رواية ابن عباس صعد النبي ﷺ على الصفا .

قوله : حين أنزل الله عليه (وأنذر عشيرتك الأقربين) عشيرة الرجل : هم بنو أبيه الأذنون أو قبيلته . والأقربين : أي الأقرب فالأقرب منهم ، لأنهم أحق الناس ببرك وإحسانك الديني والدنيوي ، كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) [التحريم : ٧] . وقال النبي ﷺ لمن قال له : من أبر ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ، قال : « ثم أباك » ، ثم أختك وأخاك ، ولأنه إذا قام عليهم في أمر الله كان أدعى لغيرهم إلى الانقياد ، والطاعة له ، وإثلا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من الرأفة والمحابة فيحاييهم في الدعوة والتخويف ، ولذلك أمر بانذارهم خاصة ، وقد أمره الله أيضاً بالندارة العامة كما قال : (لتبشّر به المتقين وتنذر به قوماً لداً) [مريم : ٩٩] وقال : (لتنذر

قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) [يس : ٦١] ولا تنافي بينها ، لأن النذارة الخاصة فرد من أفراد العامة .

قوله : « يا معشر قريش » المعشر كمسكن : الجماعة .

قوله ، أو كلمة نحوها . هو بنصب « كلمة » على أنه معطوف على ما قبله ، أي : أو قال كلمة نحو قوله : يا معشر قريش ، أي : بمعناها .

قوله : استروا أنفسكم . أي : بتوحيد الله ، وإخلاص العبادة له ، وعدم الإشراك به ، وطاعته فيما أمر ، والانتفاء عما عنه زجر ، فإن جميع ذلك ثمن النجاة ، والإخلاص من عذاب الله ، لا الاعتماد على الأنساب ، وترك الأسباب ، فإن ذلك غير نافع عند رب الأرباب . ودفع بقوله : لا أغني عنكم من الله شيئاً ما عساه أن يتوهم بعضهم أنه يغني عنهم من الله شيئاً بشفاعته ، فإذا كان لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا يدفع عن نفسه عذاب ربه لو عصاه ، كما قال تعالى : (قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) [الزمر : ١٤] فكيف يملك لغيره نفعا أو ضرا ، أو يدفع عنه عذاب الله ؟ ! وأما شفاعته ﷺ في بعض العصاة ، فهو أمر من الله ابتداءً فضلاً عليه وعليهم ، لا أنه يشفع فيمن يشاء ، ويدخل الجنة من يشاء . وفي « صحيح البخاري » بعد قوله : « لا أغني عنكم من الله شيئاً » يا بني عبيد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً « فلعل المصنف اختصرها .

قوله : يا عباس بن عبد المطلب . بنصب « ابن » ويجوز في « عباس » الرفع والنصب ، وكذا القول في قوله . وبإصافية عممة رسول الله ، وبإصافية بنت محمد ﷺ .

قوله : سألني من مالي ما شئت . في رواية مسلم عن عائشة .
 قالت لما نزلت (وأنذر عشيرتلك الأقربين) [الشعراء : ٢١٥] قام
 رسول الله ﷺ ، فقال : « يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب ،
 يا بني عبد المطلب ، سلوني من مالي ما شئتم » ، فبين ﷺ أنه لا ينجم
 من عذاب الله ، ولا يدخلهم الجنة ، ولا يقربهم إلى الله ، وإنما الذي
 يقرب إلى الله ، ويدخل الجنة ، وينجي من النار برحمة الله ، هو طاعة
 الله . وأما ما يقدر عليه ﷺ من أمور الدنيا فلا يبخل بها عنهم ، كما قال :
 « سلوني من مالي ما شئتم » وكما قال : « ألا إن لكم رجماً سألها بيلالها ، رواه
 أحمد وعبد بن حميد وابن المنذر ، وهو عند مسلم في حديث آخر .
 فإذا صرح وهو سيد المسلمين لأقاربه المؤمنين وغيرهم ، خصوصاً سيدة نساء
 العالمين وعمه وعمته ، وآمن الإنسان أنه لا يقول إلا الحق ، ثم نظر إلى
 ما وقع في قلوب كثير من الناس من الاعتقاد فيه وفي غيره من الأنبياء
 والصالحين ، أنهم ينفعون ويضررون ويغنون من عذاب الله حتى يقول
 صاحب « البردة » .

فأنت من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم
 تبين له التوحيد ، وعرف غربة الدين ، فأين هذا من قول صاحب
 « البردة » ، والبرعي وأضرابها من المادحين له ﷺ بما هو يتبرأ منه ليلاً
 ونهاراً ، وبين اختصاصه بالخالق تعالى وتقدس ، كما قال تعالى : (قل
 لا أملك لنفسي نقماً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت
 من الخير وما مenni السوء إنا أنا نذير وبشير لقوم يؤمنون) [الأعراف :
 ١٨٨] فإذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون . كذلك حقت كلمة

ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) [يونس : ٣٣ - ٣٤] تالله
لقد تاهت عقول تركت كلام ربها ، وكلام نبيها لوساوس صدرها ، وما
ألقاه الشيطان في نفوسها .

ومن العجب أن اللعين كادهم مكيدة أدرك بها مأموله ، فأظهر لهم
هذا الشرك في صورة محبة ﷺ وتعظيمه ، ومحبة الصالحين وتعظيمهم ،
ولعمري إن ثبوتهم من هذا التعظيم والمحبة ، هو التعظيم لهم والمحبة ،
وهو الواجب المتعين . وأظهر لهم التوحيد والإخلاص في صورة بغض النبي ﷺ ،
وبغض الصالحين ، والتقصص بهم ، وما شعروا أنهم تنقصوا الخالق سبحانه
وتعالى ، وبخسوه حقه ، وتنقصوا النبي ﷺ والصالحين بذلك .

أما تنقصهم للخالق تعالى ، فلأنهم جعلوا المخلوق العاجز مثل الرب
القادر في القدرة على النفع والضر .

وأما نخسهم حقه تعالى ، فلأن العبادة بجميع أنواعها حق لله تعالى ،
فاذا جعلوا شيئاً منها لغيره ، فقد بخسوه حقه .

وأما تنقصهم للنبي ﷺ ، وللصالحين ، فلأنهم ظنوا أنهم راضون منهم
بذلك أو أمروهم به وحاشا لله أن يرضو بذلك أو يأمرؤا به ، كما قال
تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا
فاعبدون) [الأنبياء : ٢٦] .

وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم ، جده ﷺ في هذا الأمر ،
بحيث فعل ما نسب به إلى الجنون ، وكذلك لو يفعله مسلم الآن ،
قاله المصنف .

وفيه دليل على الاجتهاد في الأعمال وترك البطالة والاعتماد على مجرّد الانتساب إلى الأشخاص كما يفعله أهل الطيش والحق بمن ينتسب إلى نبي أو صالح ونحو ذلك ، لأنه ﷺ إذا خاطب بنته وعمه وعمته وقرابته بهذا الخطاب كان تنبيهاً لذريتهم ونحوهم على ذلك ، لأنه إذا كان لا يغني عن هؤلاء شيئاً ، كان ذريتهم أولى أن لا يغني عنهم من الله شيئاً ، وقد قال تعالى لمن اكتفى بالانتساب إلى الأنبياء عن متابعتهم : (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) [البقرة : ١٣٤] وفيه أن أولى الناس برسول الله ﷺ هم أهل طاعته ، ومتابعته في حياته ومماته ، كما قال ﷺ : « ألا إن آل أبي - يعني فلاناً - ليسوا لي بأولياء ، إنما وليي الله وصالحو المؤمنين ، رواه مسلم . وروى عبد ابن حميد عن الحسن أن النبي ﷺ ، جمع أهل بيته قبل موته فقال : « ألا إن لي عملي ولكم عملكم ، ألا إني لا أغني عنكم من الله شيئاً ، ألا إن أوليائي متكم المتقون ، ألا لا أعرفنكم يوم القيامة تأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم ويأتي الناس يحملون الآخرة » .

باب

قول الله تعالى . (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير) [سبأ : ٢٤] .

ش : أراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة بيان حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عبد من دون الله ، فإذا كان هذا حالهم مع الله تعالى ، وهيبتهم منه ، وخشيتهم له ، فكيف يدعوم أحد من دون الله ؟ وإذا كانوا لا يدعون مع الله تعالى لا استقلالاً ، ولا وساطة بالشفاعة ، فغيرهم

بمن لا يقدر على شيء من الأموات والأصنام أولى أن لا يدعى ، ولا يعبد ،
 ففيه الرد على جميع فرق المشركين الذين يدعون مع الله من لا يداني
 الملائكة ، ولا يساويهم في صفة من صفاتهم . وقد قال تعالى فيهم (وقالوا
 اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مَكْرُمون . لا يسبقونه بالقول وهم
 بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى
 وهم من خشيته مشفقون) [الأنبياء : ٢٩، ٣٧] فهذه حالهم وصفاتهم ،
 وليس لهم من الربوبية والإلهية شيء ، بل ذلك لله وحده لا شريك له ،
 وكذا قال في هذه الآية (حتى إذا فزع عن قلوبهم) أي : زال الفزع
 عنها ، قاله ابن عباس ، وابن عمر ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والشعبي
 والحسن وغيرهم . والضمير عائد على ما عادت عليه الضمائر التي للغيبة في
 قوله (لا يعلكون) (وفي أموالهم) (وماله منهم) . ودحتى ، تدل
 على الغاية ، وليس في الكلام ما يدل على أنه غاية له ، فقال ابن عطية :
 في الكلام حذف يدل عليه الظاهر ، كأنه قال : ولا هم شفعا كما تزعمون
 أنتم ، بل هم عبدة مسلمون أبداً ، يعني : منقادون ، حتى إذا فزع عن
 قلوبهم ، والمراد الملائكة على ما اختاره ابن جرير وغيره . قال ابن
 كثير : وهو الحق الذي لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار .
 وقال أبو حيان : تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ ، أن قوله
 (حتى إذا فزع عن قلوبهم) إنما هي في الملائكة ، إذا سمعت لוחي
 إلى جبريل يأمر الله به ، سمعت كبحر سلسلة الحديد على الصفوان ،
 فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيباً . قال : وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في
 صدر الآيات تنسق هذه الآية على الأولى ، ومن لم يشعر أن الملائكة

مشار إليهم من أول قوله (الذين زعمتم) لم تتصل له هذه الآية بما قبلها .
وقال ابن كثير : هذا مقام رفيع في العظمة ، وهو أنه تعالى إذا
تكلم بالوحي ، فسمع أهل السموات كلامه ، أرعدوا من الهيبة حتى ينحقم
مثل الغشي . قاله ابن مسعود ومسروق وغيرهم .

وقوله : قالوا الحق . أي : قالوا : قال الله الحق ، وذلك لأنهم
إذا سمعوا كلام الله وضعوا ثم أفاقوا ، أخذوا يتساءلون ، فيقولون .
(ماذا قال ربكم ؟) فيقولون : (قال الحق) .

قوله : (وهو العلي) أي : العالي ، فهو فوق كل شيء ، وهو تعالى
على العرش الذي هو فوق السموات كما قال : (الرحمن على العرش استوى
[طه : ٦] .

قال : في « الصحيح » عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إذا
قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاء لقوله ،
كأنه سلسلة على صفوان ينقذهم ذلك (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا
ماذا قال ربكم ، قالوا الحق وهو العلي الكبير) [سبأ : ٢٣] فيسمعها
مسترق السمع ، ومسترقو السمع هكذا بعضه فوق بعض ، وصفه سفيان
بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه ، فيسمع الكلمة فيلقها إلى من تحته ،
ثم يلقها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقها على لسان الساحر والكاهن
فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها ، وربما ألغها قبل أن يدركه ،
فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ،
فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء .

ش : قوله : في « الصحيح » أي « صحيح البخاري » .

قوله : إذا قضى الله الأمر في السماء . أي : إذا تكلم الله بأمره الذي قضاه في السماء بما يكون ، كما روى سعيد بن منصور ، وأبو داود ، وابن جرير عن ابن مسعود قال : إذا تكلم الله بالوحي ، سمع أهل السماوات صلصلة كجهر السلسلة على الصفوان . وروى ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : لما أوحى الجبار إلى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليعينه بالوحي ، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي ، فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله ، فقالوا : الحق ، وعلموا أن الله لا يقول إلا حقاً .

قوله : ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله . أي : لقول الله تعالى . قال الحافظ : خضعاناً بفتح الخاء من الخضوع ، وفي رواية بضم أوله وسكون ثانية ، وهو مصدر بمعنى خاضعين .

قوله : كأنه سلسلة على صفوان . أي : كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان ، وهو الحجر الأملس . قال الحافظ : هو مثل قوله في بد الوحي : صلصلة كصلصلة الجرس ، وهو صوت الملك بالوحي . وقد روى ابن مردويه من حديث ابن مسعود رفعه « إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان » ... الحديث .

قوله : ينفذهم ذلك . هو بفتح التثنية وسكون النون وضم الفاء والذال المعجمة ، ذلك ، أي القول ، والضمير في ينفذهم عائد على الملائكة . أي ينفذ الله ذلك القول إلى الملائكة ، أي : يلقيه إليهم . وقيل : وهو أظهر . أي : يخلص ذلك القول ، ويضي في قلوب الملائكة حتى يفزعوا من ذلك ، كما في حديث النواس . وفي حديث ابن عباس عن ابن مردويه من طريق

عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه : فلا ينزل على أهل سماء إلا صعدوا . وفي حديث ابن مسعود عند أبي داود وغيره مرفوعاً : « إذا تكلم الله بالوحي ، سمع أهل السماء الدنيا صلصلة كجمر السلسلة على الصفا ، فيصعدون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتهم جبريل » ... الحديث .

قوله : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) [سبأ : ٢٤] أي : أزيل عنها الخوف والغشي .

قوله : (قالوا ماذا قال ربكم) أي : قال الملائكة بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم .

قوله : (قالوا الحق) أي : قالوا : قال الله الحق ، علموا أن الله لا يقول إلا حقاً .

قوله : فيسمعها مسترق السمع أي : يسمع الكلمة التي قضاها الله مسترق السمع ، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً ، فيسمعون أصوات الملائكة بالأمر يقضيه الله ، كما قال تعالى (وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) [الحجر : ١٨ ، ١٩] وفي « صحيح البخاري » عن عائشة مرفوعاً : « إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب ، فتذكر الأمر قضي في السماء ، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه ، فتوحيه إلى الكهان فيكتبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم » وظاهر هذا أنهم لا يسمعون كلام الملائكة الذين في السماء الدنيا ، وإنما يسمعون كلام الملائكة الذين في السحاب .

قوله : وصفه سفيان بكفه . أي : وصف ركوب بعضهم فوق بعض . وسفيان هو ابن عينة أبو محمد الهلالي الكوفي ثم المكي ، ثقة حافظ فقيه

إمام حجة ، إلا أنه تغير حفظه بأخرة ، وربما دلس لكن عن الثقات .
مات سنة ثمان وتسعين ومائة وله إحدى وتسعون سنة .

قوله : فجرفها . بجاء مهملة وراء مشددة وفاء .

قوله : وبدد . أي : فرق بين أصابعه .

قوله : فيسمع الكلمة فيلقيا إلى من تحته . أي : يسمع المسترق
الفوقاني الكلمة من الوحي ، فيلقيا إلى الشيطان الذي تحته ، ثم ينقيا
الآخر من تحته ، حتى يلقيا على لسان الساحر والكاهن ، وحينئذ
يقسع الرجم .

قوله : فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيا . الشهاب : هو النجم الذي
يرمى به . أي : ربما أدرك المسترق الشهاب إذا رمى به قبل أن يلقى الكلمة
إلى من تحته ، وربما ألقاها المسترق قبل أن يدركه الشهاب ، وهذا يدل
على أن الرجم بالنجوم كان قبل المبعث ، كما روى أحمد ومسلم والترمذي
والنسائي عن معمر عن الزهري عن علي بن حسين عن ابن عباس قال : كان
رسول الله ﷺ جالسا في نفر من أصحابه فرمى بنجم فاستثار ، فقال
« ما كنتم تقولون إذا كان هذا في الجاهلية » قالوا : كنا نقول : يولد عظيم ،
أو يموت عظيم ، قال « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ، ولا لحياة ، ولكن
ربنا إذا قضى أمرا سبغ حملة العرش ، ثم سبغ أهل السماء الذين يلون حملة
العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟
فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ،
وتخطف الجن السمخ فيرمون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم
يحرفونه وي زيدون فيه ، قال معمر : قلت للزهري : أكان يرمى بها في

يستمع إليه : نعم . قال أرايت (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن منه فهو أباّ رصداً) [الجن : ١٠] قال : غلظت ، وتدّد أمرها حين بعث رسول الله ﷺ . وفيه الرد على المنجمين الذين ينسبون الخير والله لإعطاء والمنع إلى الكواكب بحسب السعور منها والنحوس ، وعلى حسب كونها في البروج الموافقة ، أو المنافرة ، ونحو ذلك لما في الرمي بها من الدلالة على تسخيرها لما خلقت له ، كما قال تعالى (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) [الأعراف : ٥٤]

قوله : فيكذب معها مائة كذبة ، أي : يكذب الكاهن أو الساحر مع الكلمة التي ألغاها إليه وليه من الشياطين مائة كذبة ، بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة ، أو يكذب الشيطان مع الكلمة التي استرقها مائة كذبة ، ويخبر بالجميع وليه من الانس ، فما جاؤوا به على وجهه فهو صدق ، وما خلط فيه فهو كذب ، ومع هذا فيفتن الانس بالانس الساحر والكاهن ، وفيه ان بوليها من الشياطين ، ويتقبلون ما جاؤوا به من الصدق والكذب ، لكونهم قد يصدقون ما يأتيهم به من خبر السماء .

قوله : فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا كذا : هكذا بيض المصنف في هذا الموضع ، ولفظ الحديث في « الصحيح » فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا هكذا ، والمعنى أن الذين يأتون الكهان يصدقونهم في كذبهم ، ويستدلون على ذلك بكونهم يصدقون بعض الأحيان فيما سمعوه من الوحي ، ويذكرون أنه أخبرهم بشيء مرة فوجدوه حقاً ، وتلك الكلمة

من الحق كما في « الصحيح » عن عائشة قلت : يا رسول الله : إن الكهان كانوا يحدثونا بالشيء فنجده حقاً ، قال : « تلك الكلمة الحق يخطفها الجني فيقذفها في أذن وليه ، ويزيد فيها مائة كذبة » وفيه قبول النفوس للباطل ، كيف يتعلقون بواحدة ، ولا يعتبرون بمائة كذبة ؟ ! ذكره المصنف . وفيه أن الشيء إذا كان فيه نوع من الحق لا يدل على أنه حق كله ، بل لا يدل على إباحته كما في الكهانة والسحر والتنجيم .

قوله : فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء . أي : يستدلون على صدقها .

قال : وعن النواس بن سميان قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي ، أخذت السموات منه رجفة أو قال : رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فاذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرروا لله سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم ير جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء يسأله ملائكته ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال : الحق وهو العلي الكبير قال : فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل » .

ش قوله : عن النواس بن سميان بكسر السين ، أي : ابن خالد الكلبي ، ويقال : الأنصاري ، صحابي ، ويقال : إن أباه صحابي أيضاً . قال أبو حاتم الرازي : سكن الشام .

قوله : إذا أراد الله أن يوحى بالأمر ... الخ هذا والله أعلم في جميع الأمور التي يقضيها الرب تبارك وتعالى ، كما يدل عليه عموم اللفظ ،

ويدل على ذلك. أيضاً حديث أبي هريرة الذي تقدم وغيره من الأحاديث المتقدمة .

قوله : أخذت السماوات منه رجفة . هو برفع «رجفة» على أنه فاعل، أي : أصاب السماوات منه رجفة ، أي : ارتجفت ، كما روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : إذا قضى الله أمراً تكلم وتبارك وتعالى، رجفت السماوات والأرض والجبال ، وخوت الملائكة كلهم سجداً .

قوله : أو قال : رعدة شديدة . يعني أن الراوي شك هل قال النبي ﷺ رجفة ، أو قال : رعدة ، وهو بفتح الراء بمعنى الأول .

قوله : خوفاً من الله عز وجل . لا ينكر أن السماوات والأرض ترجف وترتعد خوفاً من الله عز وجل ، فقد قال تعالى : (تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً) [الاسراء : ٤٥] وقال تعالى (فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أثينا طائعين) [فصلت : ١٢] وقال تعالى : (تكاد السماوات يتفطرون منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً) [مريم : ٩٢] قال تعالى : (وإن من الجبال لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون) [البقرة : ٧٥] وفي « البخاري » عن ابن مسعود قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات ، فسمع لمن تسبيح كخنين النحل ، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان . وهو حديث مشهور في « المسانيد » . وكذلك في « الصحيح » قصة

حين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ قبل اتخاذ المنبر ، ومثل هذا كثير .

قوله : صعقوا وخروا لله سجداً ، أي : يقع منهم الأمران : الصعق - وهو الغشي - والسجود ، والله أعلم أيها قبل الآخر ، فإن الواو لا تقتضي ترتيباً .

قوله : فيكون أول من يرفع رأسه جبريل معنى جبريل . عبد الله كما روى ابن جرير ، وأبو الشيخ الأصبهاني عن علي بن حسين قال : اسم جبريل عبد الله ، واسم ميكايل عبيد الله ، وإسرافيل عبد الرحمن ، وكل شيء راجع إلى إيلع فهو معبد لله عز وجل . وفيه دليل على فضيلة جبريل عليه السلام ، كما قال تعالى (إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين) [التكويد : ٢٠ ، ٢٢] قال أبو صالح في قوله (عند ذي العرش مكين) قال : جبريل يدخل في سبعين حجاً من نور بغير إذن . وقد ورد في صفة جبريل أحاديث صحيحة ، منها ما رواه أحمد بأسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود قال : رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته ، وله ستائة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت فالله به عليم .

قوله : ثم يمر جبريل على الملائكة إلى آخره . معناه ظاهر ، فإذا كان هذا حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم ممن عبد من دون الله ، وشدة خشيتهم من الله ، وهيبتهم له مع ما أعطاهم الله من القوة العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ، ومع هذا فقد نفى عنهم الشفاعة بغير إذنه كما قال : (ولم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد

ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى) [النجم : ٢٧] وأخبر أنهم لا يملكون كشف الضر عن دعائهم ولا تحويله . فقال : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون يكشف الضر عنكم ولا تحويلاً) [الإسراء : ٥٧] وفي ضمن ذلك النهي عن دعائهم وعبادتهم الشفاعة وغيرها ، كما قال تعالى : (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعاً) [الزمر : ٤٤ ، ٤٥] فكيف يدعومهم المشرك ويظن أنهم يشفون له عند الله كما يشفع الوزراء عند الملوك ، وإذا بطلت دعوتهم مع أنهم أحياء فاطقون مقربون عند الله ، فدعاء غيرهم من الأموات الذين لا يستطيعون سمعاً ولا يملكون ضراً ولا نفعاً أولى بالبطالان . (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) [الأعراف : ١٩٤] وقال : (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أياهم يعثون . إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) [النحل : ٢٠ - ٢٢] . قوله : ثم ينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل . قد بيض المصنف رحمه الله بعد هذا ، ولعله أراد أن يكتب تمام الحديث ومن رواه . وقامه : إلى حيث أمره الله عز وجل من السماء والأرض . ورواه ابن جرير وابن خزيمة وابن أبي حاتم والطبراني ، وفي الحديث من ألفوا إثنائ الكلام خلافاً للجهمية ، وإثبات الصوت خلافاً لهم وللشاعرة .

باب الشفاعة

لما كان المشركون في قديم الزمان وحديثه إثنائاً وقعوا في الشرك لتعلقهم بأذيال الشفاعة ، كما قال تعالى : (ويعبدون من دون الله مالا

يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ([يونس : ١٩]
وقال تعالى : (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى
الله زلفى) [الزمر : ٤] وكذلك قطع الله أطماع المشركين منها ،
وأخبر أنه شرك ، ونزه نفسه عنه ، ونفى أن يكون للخلق من دونه
ولي أو شفيع ، كما قال تعالى : (الله الذي خلق السموات والأرض
وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالك من دونه من ولي
ولا شفيع أفلا تتذكرون) [السجدة : ٥] أراد المصنف في هذا الباب
إقامة الحجج على أن ذلك هو عين الشرك وأن الشفاعة التي يظنها من دعا
غير الله ليشفع له كما يشفع الوزير عند الملك منتفية دنيا وأخرى ، وإنما
الله هو الذي يأذن للشافع ابتداء ، لا يشفع ابتداء كما يظنه أعداء الله .
فإن قلت : إذا كان من اتخذ شفيعاً عند الله ، إنما قصده تعظيم الرب
تعالى وتقدس أن يتوصل إليه إلا بالشفعاء ، فلم كان هذا القدر شركاً ؟!

قيل : قصده للتعظيم لا يدل على أن ذلك تعظيم لله تعالى ، فكم من
يقصد التعظيم لشخص ينقصه بتعظيمه ، ولهذا قيل في المثل المشهور : يضر
الصديق الجاهل ما لا يضر العدو العاقل . فإن اتخذ الشفعاء والأنداد من
دون الله هضم لحق الربوبية ، وتنقص للعظمة الإلهية ، وسوء ظن برب
العالمين ، كما قال تعالى (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين
والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ،
ولعنهم وأعد لهم جهنم ومساوئ مصيراً) [الفتح : ٧] فإنهم
ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به ، ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق
توحيده ، ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم ما قلدروه حق

قدره وكيف يقدره حتى قدره من اتخذ من دونه نداً ، أو شافعاً
يحبه ويخافه ويرجوه ، وينذل له ، ويخضع له ويهرب من سخطه ويؤثر
مرضاته ويدعوه ويذبح له وينذر ، وهذه هي التسوية التي أثبتتها المشركون
بين الله وبين آلهتهم وعرفوا وهم في النار أنها كانت باطلاً وضلالاً ، فيقولون
وهم في النار : (تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين)
[الشعراء : ٩٨ و ٩٩] ومعلوم ، أنهم ما ساووه به في الذات والصفات
والأفعال ، ولا قالوا : إن آلهتكم خلقت السموات والأرض ، وإنما نحيي
ونميت ، وإنما ساووه به في المحبة والتعظيم والعبادة ، كما ترى عليه أهل
الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام ، وإنما كان ذلك هضماً لحق الربوبية ،
وتنقصاً لعظمة الإلهية ، وسوء ظن برب العالمين ، لأن المتخذ للشفعاء
والأنداد ، إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه
من وزير أو ظهير أو معين ، وهذا أعظم التنقص لمن هو غني عن كل
ما سواه بذاته ، وكل ما سواه فقير إليه بذاته ، وإما أن يظن أن
الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرته الشفيع ، وإما أن يظن أنه لا يعلم
حتى يعلمه الشفيع ، أو لا يرحم حتى يجعله الشفيع يرحم ، أو لا يكفي
وحده ، أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده كما يشفع عند
المخلوق ، أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الشفيع أن يرفع حاجتهم
إليه ، كما هو حال ملوك الدنيا . وهذا أصل شرك الخلق ، أو يظن
أنه لا يسمع حتى يرفع الشفيع إليه ذلك ، أو يظن أن للشفيع عليه حقاً ،
فهو يقسم عليه بحقه ، ويوسل إليه بذلك الشفيع ، كما يتوسل الناس إلى
الأكابر والملوك بمن يعز عليهم ، ولا تمكنهم مخالفته ، وكل هذا تنقص
للربوبية ، وهضم لحقها . ذكر معناه ابن القيم . فلهذه الأمور وغيرها أخبر
سبحانه وتعالى أن ذلك شرك ، ونزه نفسه عنه فقال : (ويعبدون من

دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتقون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ([يونس : ١٩] .

فان قلت : إنما حكم سبحانه وتعالى بالشرك على من عبد الشفعاء ، أما من دعاهم للشفاعة فقط ، فهو لم يعبدكم ، فلا يكون ذلك شركاً . قيل : مجرد اتخاذ الشفعاء ملازم للشرك ، والشرك لازم له ، كما أن الشرك ملازم لتقص الرب سبحانه وتعالى ، والتقص لازم له ضرورة ، شاء المشرك أم أبى ، وعلى هذا فالسؤال باطل من أصله لوجود له في الخارج ، وإنما هو شيء قدره المشركون في أذهانهم ، فإن الدعاء عبادة ، بل هو منع العبادة ، فإذا دعاهم للشفاعة ، فقد عبدكم وأمرك في عبادة الله شاء أم أبى .

قال : وقول الله عز وجل : (وأُنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُمَشِّرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) [الأنعام : ٥٢] . ش : الإنذار : هو الاعلام بموضع المخافة . وقوله : « به » ، قال ابن عباس بالقرآن . وقوله : (الذين يخافون أن يمشروا إلى ربهم) [الأنعام : ٥١] ، أي أنذر يا محمد بالقرآن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . الذين يخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب ، وهم المؤمنون ، كما روي ذلك عن ابن عباس والسدي . وعن الفضيل بن عياض : ليس كل خلقه عاتب ، إنما عاتب الذين يعقلون فقال : (وأُنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُمَشِّرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ) أي : وهم المؤمنون أصحاب القلوب الواعية ، فإنهم المقصودون ، والمنظور إليهم لا أصحاب التجميل والسيادة ،

فإن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .
وقوله : (ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع) [الأنعام : ٥٢]
قال الزجاج : موضع « ليس » نصب على الحال كأنه قال : متخلين من ولي
وشفيع ، والعامل فيه « يخافون » . وقال ابن كثير : ليس لهم من دونه
يومئذ ولي ولا شفيع من عذابه إن أرادهم به لعلمهم يتقون ، فيحملون
في هذه الدار حملاً ينتجهم الله به من عذابه يوم القيامة . قلت : نفى
سبحانه وتعالى عن المؤمنين أن يكون لهم ولي أو شفيع من دون الله كما
هو دين المشركين ، فمن اتخذ من دون الله شفيعاً ، فليس من المؤمنين ،
ولا تحصل له الشفاعة . وليس في الآية دليل على نفي الشفاعة لأهل الكبائر
بإذن الله كما ادعته المعتزلة ، بل فيها دليل على نفي اتخاذ الشفعاء من
المؤمنين ، وعلى نفيها بغير إذن الله ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع
كما قال : (ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه
أفلا تذكرون) [يونس : ٤] .

قال وقوله : (قل لله الشفاعة جميعاً) [الزمر : ٤٥] .

ش : هكذا أوردها المصنف ، ونتكلم عليها وعلى الآية التي قبلها
ليتضح المعنى . قال الله تعالى : (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو
كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات
والأرض ثم إليه ترجعون) [الزمر : ٤٥] فقوله : أم اتخذوا ،
أي : بل اتخذوا ، أي : المشركون والهمزة الانكار من دون الله
شفعاء ، أي : أتشفع لهم عند الله بزعمهم كما قال : (ويعبدون من
دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) .

[يونس : ١٩] . وقال : (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) [الزمر : ٤] فكذبهم وكفرهم بذلك . وقال تعالى : (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك لإفكهم وما كانوا يفترون) [الأحقاف : ٢٩] فهذا هو مقصود المشركين بمن عبدوهم وهو الشفاعة لهم عند الله .

قوله : من دون الله . أي : من دون إذنه وأمره ، والحال أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، وأن يكون المشفع له مرتضى ، وههنا الشرطان مفقودان ، فإفك الله سبحانه لم يجعل اتخاذ الشفعاء ودعاءهم من دونه سبباً لإذنه ورضاه ، بل ذلك سبب لمنعه وغضبه .

قوله : (قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقاون) [الزمر : ٤٤] أي : أيشفعون ولو كانوا على هذه الصفة كما تشهدونهم جمادات لا تقدر ولا تعلم ، أو أموات كذلك ، حتى ولا يملكون الشفاعة كما قال : (قل لله الشفاعة جميعاً) [الزمر : ٤٥] أي : هو مالكها كلها فليس لمن تدعونهم منها شيء ، قال البيضاوي : لعله رد لما عسى يجيبون به وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون ، هي قائلهم . والمعنى : أنه مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه ، ولا يستقل بها . وقوله : (له ملك السموات والأرض) [الحديد : ٣] تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه بانه مالك الملك كله ، لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه ، فاندرج في ذلك ملك الشفاعة ، فإذا كان هو مالكها بطل اتخاذ الشفعاء من دونه كائناً من كان . وقوله : (ثم إليه ترجعون) . أي :

فتعلمون أنهم لا يشفعون ، ويخيب سعيكم في عبادتهم ، بل يكونون عليكم ضدّاً ويتبرؤون من عبادتكم كما قال تعالى : (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّاً) [مريم : ٨٣] وقال تعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين) [يونس : ٢٩ - ٣٠] .

قال : وقوله : (من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه) [البقر : ٢٥٦] في هذه الآية رد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام المصورة على صور الصالحين وغيرهم ، وظنوا أنهم يشفعون عنده بغير إذنه فأنكر ذلك عليهم ، وبين عظيم ملكوته وكبريائه وأن أحداً لا يتالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام كقوله : (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن) [النبا : ٣٩] وقوله : (يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه) [هود : ١٠٧] قال ابن جرير في هذه الآية : نزلت لما قال الكفار : ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى . فقال الله تعالى : (له ما في السموات وما في الأرض) [النساء : ١٧١] وتقرر في هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء بالشفاعة ، وهم الأنبياء والعلماء وغيرهم ، والأذن راجع إلى الأمر فيما نص عليه كـ محمد ﷺ إذا قيل له : اسفع تشفع ، وكذلك قاله غير واحد من المفسرين .

قال : وقوله (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) [النجم : ٢٧] .

ش : قال أبو حيان : « كم » خبرية ومعناها : التكثير وهي في موضع رفع بالابتداء والخبر « لا تغني » والغناء جلب النفع ، ودفع الضرر بحسب الأمر الذي يكون فيه الغناء . و « كم » : لفظها مفرد ، ومعناها جمع . وإذا كانت الملائكة المقربون لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذن الله ورضاه أن يرضاه أهلاً للشفاعة ، فكيف تشفع الأصنام لمن عبدها ؟ قلت : في هذه الآيات من الرد على من عبد الملائكة والصالحين لشفاعة أو غيرها ما لا يخفى ، لأنهم إذا كانوا لا يشفعون إلا بأذن من الله ابتداء ، فلا ي معنى يدعون ويعبدون ؟ وأيضاً فإن الله لا يأذن إلا لمن ارتضى قوله وعمله ، وهو الموحّد لا المشرك كما قال : (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولاً) [طه : ١١٠] والله لا يرتضى إلا التوحيد كما قال : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) [آل عمران : ٨٥] وقال النبي ﷺ : « أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » فلم يقل : أسعد الناس بشفاعتي من دعائي . فإن قال المشرك : أنا أعلم أنهم لا يشفعون إلا بأذنه لكن أدعهم ليأذن الله لهم في الشفاعة لي . قيل : فإن الله لم يجعل الشرك به ودعاء غيره سبباً لإذنه ورضاه ، بل ذلك سبب لغضبه ، ولهذا نهى عن دعاء غيره في غير آية كقوله : (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فانك إذأ من الظالمين) [يونس : ١٠٧] .

فتبين أن دعاء الصالحين من الملائكة والأنبياء وغيرهم شرك كما كان المشركون الأولون يدعونهم ليشفعوا لهم عند الله ، فأنكر الله عليهم ذلك ، وأخبر أنه لا يرضاه ، ولا يأمر به كما قال تعالى : (ولا يأمركم

أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ([آل عمران : ٨١] وقال تعالى : (إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) [البقرة : ١٦٧] .

قال ابن كثير : تبرا من الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدنيا : فتقول الملائكة : تبرا إليك ما كانوا إيانا يعبدون . وقال تعالى : (ولما قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) [المائدة : ١٢٠] وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً) [الإسراء : ٥٧] روى سعيد بن منصور والبخاري والنسائي وابن جرير عن ابن مسعود في الآية : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم نفر من الجن وتمسك الانسيون بعبادتهم فأنزل الله : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) [الإسراء : ٥٨] كلاهما بالياء . وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه . فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضر من مسلم ومشرک ، ففشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) [الحج : ٥٣] فلما بين الله قضاءه وبراه من سجع الشيطان انقلب المشركون بعداوتهم وضلاتهم للمسلمين ، واشتدوا عليه . وهي قصة مشهورة صحيحة رويت عن ابن عباس من طرق بعضها صحيح . ورويت عن جماعة من التابعين بأسانيد صحيحة

منهم عروة وسعيد بن جبير وأبو العالية وأبو بكر بن عبد الرحمن وعكرمة والضحاك وقتادة ، ومحمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس والسدي وغيرهم . وذكرها أيضاً أهل السير وغيرهم وأصلها في « الصحيحين » والمقصود منها قوله : (تلك الغرائيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) فإن الغرائيق هي الملائكة على قول ، وعلى آخر هي الأصنام ، ولا تنافي بينها فإن المقصود بعبادتهم الأصنام الملائكة والصالحين كما تقدم عن البيضاوي . فلما سمع المشركون هذا الكلام المقتضي لجواز عبادة الملائكة رجاء شفاعتهم عند الله ظنوا أن رسول الله ﷺ قاله ، فرضوا عنه وسجدوا معه ، وحكموا بأنه قد وافقهم على دينهم من دعاء الملائكة والأصنام للشفاعة حتى طارت الكلمة كل مطار ، وبلغ المهاجرين إلى الحبشة أنهم صالحوا رسول الله ﷺ ، فعرفت أن الفارق بينهم وبين رسول الله ﷺ هي مسألة الشفاعة ، لأنهم يقولون : نريد من الملائكة والأصنام المصورة على صورهم بزعمهم أن يشفعوا لنا عند الله ، والرسول ﷺ قد كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيراً . وفي رواية عنه عندهما في قوله : (فلا يملكون كشف الضر عنكم) [الإسراء : ٥٧] قال عيسى وأمه وعزير . وقال تعالى : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) [الأنبياء : ٩٩] إلى قوله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) [الأنبياء : ١٠٢] . قال ابن اسحاق : لما ذكر قصة ابن الزبعرى ومخاصمته لرسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية قال : وأنزل الله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) [الأنبياء : ١٠٢ - ١٠٣] الآيتين ، أي : عيسى وعزير ومن عبد من الأبحار

والرهبان الذين مضوا على أمر الله ، فاتخذهم من يعبدون من أهل الضلالة أرباباً من دون الله وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان) [الحج : ٥٣] . وروى ابن أبي حاتم عن الزهري قال : نزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقرناه وأصحابه ، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من السب والشم والشر ، وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما نال أصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنه ضلالتهم ، فكان يتمنى هدامهم ، فلما أنزل الله سورة النجم قال : أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الاخرى) [النجم : ٢٠ ، ٢١] ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الطواغيت فقال : تلك الغواني العلى ، وإن شفاعتن لترجيى ، وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة ، وذلت بها ألسنتهم ، وتباشروا بها وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه . فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم ، سجد ، وسجد كل من حضر من مسلم ومشرك ، ففشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) [الحج : ٥٣] . فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بعداوتهم وضلالتهم للمسلمين ، واشتدوا عليه . وهي قصة مشهورة صحيحة ^(١) رويت عن ابن عباس من طرق بعضها صحيح . ورويت عن جماعة من التابعين بأسانيد صحيحة منهم

(١) بل باطلة لا تصح ولا تثبت . وانظر تفصيل ذلك في « نصب المجانيق في . نسف قصة الغرائيق » للأستاذ الفاضل الألباني ، طبع المكتب الاسلامي .

عروة وسعيد بن جبير وأبو العالية وأبو بكر بن عبد الرحمن وعكرمة ،
والضحاك وقتادة ، ومحمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس والسدي وغيرهم .
وذكرها أيضاً أهل السير وغيرها وأصلها في « الصحيحين » والمقصود منها قوله :
تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى . فإن الغرائق هي الملائكة على قول ،
وعلى آخر هي الأصنام ولا تنافي بينهما ، فإن المقصود بعبادتهم الأصنام
الملائكة والصالحين كما تقدم عن البيضاوي . فلما سمع المشركون هذا الكلام
المقتضي لجواز عبادة الملائكة رجاء شفاعتهم عند الله ظنوا أن رسول الله ﷺ
قاله ، فرضوا عنه وسجدوا معه ، وحكموا بأنه قد وافقهم على دينهم من دعاء
الملائكة والأصنام للشفاعة حتى طارت الكلمة كل مطار ، وبلغ المهاجرين
إلى الحبشة أنهم صالحوا رسول الله ﷺ ، فعرفت أن الفارق بينهم وبين
رسول الله ﷺ هي مسألة الشفاعة ، لأنهم يقولون : نريد من الملائكة والأصنام
المصورة على صورتهم بزعمهم أن يشفعوا لنا عند الله ، والرسول ﷺ قد أأثم
بإبطال ذلك ، والنهي عنه ، وتكفير من دان به وتضليلهم وتسفيه عقولهم
ولم يرخص لهم في سؤال الشفاعة من الملائكة ، ولا من الأنبياء ولا
الأصنام ، بل أأثم بقوله تعالى : (قل لله الشفاعة جميعاً) [الزمر : ٤٥]
وقوله : (أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم
شيئاً ولا ينقذون . إني إذاً لفي ضلال مبين) [يس : ٢٤ ، ٢٥] وهذا
كثير جداً لمن تتبعه . والمقصود أن المشركين الأولين يدعون الملائكة
والصالحين ليشفعوا لهم عند الله ، كما تشهد به نصوص القرآن ، وكتب
التفسير والسير ، والآثار طافحة بذلك ، ويكفي العاقل المنصف قوله تعالى :
(ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا
سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون)
[سبأ : ٤١ - ٤٢] .

قال : وقوله : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) [سبأ : ٢٣]

ش : هذه الآية هي التي قال فيها بعض العلماء : إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب لمن عقلها . قال ابن القيم في الكلام عليها : وقد قطع الله الأسباب التي تتعلق بها المشركون جميعها قطعاً ، يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله ولياً ، فمثل كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبست العنكبوت ، فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له به من النفع ، والنفع لا يكون إلا بمن يكون فيه خصلة من هذه الأربع : إما مالك لما يريد عابده منه ، فإن لم يكن مالكا كان شريكاً للمالك ، فإن لم يكن شريكاً له ، كان معيناً له وظهيراً ، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً ، كان شقيقاً عنده ، فنفي سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً منتقلاً من الأعلى إلى مادونه ، فنفي الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك ، وأثبت شفاعة لانصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه ، قال : فهو الذي يأذن للشافع ، وإن لم يأذن له لم يتقدم في الشفاعة بين يديه كما يكون في حق المخلوقين ، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له ، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها ، وأما كل ماسواه فقير إليه بذاته وهو الغني بذاته عن كل ماسواه ، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟ فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً ونجاة وتجييداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها .

والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته ، وتضمنه له ، ويظنه في نوع ، وقوم قد خلوا من قبل

ولم يعقبوا وارثاً ، وهذا الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن ، ولحمر الله إن كان أولئك قد خلوا ، فقد ورثهم من هو مثلهم وشر منهم ودونهم ، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك ، ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية . وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك ، وما دعا به القرآن وذمه ، وقع فيه وأقره ، ودعا إليه وصوبه وحسنه ، وهو لا يعرف أنه الذي كان عليه الجاهلية ، أو نظيره أو شر منه أو دونه ، فتنتقض بذلك عرى الإسلام ، ويعود المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، والبدعة سنة ، والسنة بدعة ، ويكفر الرجل ببعض الإيمان وتجريد التوحيد ، ويبعد بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع ، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً ، فالله المستعان .

وقال الله تعالى حاكياً عن أسلاف هؤلاء المشركين : (والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) [الزمر : ٣-٤] فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً يزعم أنه يقربه إلى الله تعالى ، وما أعز من يخلص من هذا بل ما أعز من يعادي من أنكره . والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله ، وهذا عين الشرك . وقد أنكره الله عليهم في كتابه ، وأبطله ، وأخبر أن الشفاعة كلها له ، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله تعالى أن يشفع له فيه ، ورضي قوله وعمله . وهم أهل التوحيد الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء ، فإنه سبحانه وتعالى يأذن في الشفاعة فيهم لمن يشاء ، حيث لم يتخذوهم شفعاء

من دونه ، فيكون أسعد الناس بشفاعته من يأذن الله تعالى له ، صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعاً من دون الله . والشفاعة التي أثبتها الله تعالى ورسوله ﷺ هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده ، والتي نفاها الله تعالى هي الشفاعة الشركية التي في قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء ، فيعاملون بنقيض مقصودهم من شفاعتهم ، ويفوز بها الموحدون . انتهى .

ولكن تأمل الآية كيف أمرهم تعالى بدعاء الملائكة أمر تعجيز ، والمراد بيان أنهم لا يملكون شيئاً ، فلا يدعون لا لشفاعة ولا غيرها ، ثم أخبر أنهم هم الذين اتخذوهم بزعمهم شفعاء فنسبه إلى زعمهم ولمفكرهم الذي ابتدعوه من غير برهان ولا حجة من الله وهذه الآية نزلت في دعوة الملائكة ، ودخول غيرهم فيها من باب أولى ، كما روى ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : (وماله منهم من ظهير) [سبأ : ٢٣] يقول : من عون الملائكة . وكما يدل عليه قوله تعالى : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) [سبأ : ٢٤] كما تقدم . فإذا كان اتخاذ الملائكة شفعاء من دون الله شركاً ، فكيف باتخاذ الأموات كما يفعله عباد القبور ؟ أم كيف باتخاذ الفجار والفساق إخوان الشياطين من المجاذيب الذين جذبهم إبليس إلى جانبه وطاعته شفعاء ؟ وأعظم من ذلك اعتقاد الربوبية في هؤلاء الملائعين مع ما يشاهده الناس منهم من الفجور ، وأنواع الفسوق ، وترك الصلوات ، وفعل المنكرات ، والمشي في الأسواق عراة .

كما قال بعض المتأخرين .

كقوم عراة في ذرى مصر ما يرى على عورة منهم هناك ثياب .

يدورون فيها كاشفين لعورة تواتر هذا لا يقال كذاب
يعدونهم في مصرهم فضلاءهم دعاؤهم فيما يرون مجاب

ومن العجب أنهم لم يأتوا بشيء يدل على كون هؤلاء الشياطين من
جملة المسلمين ، فضلاً عن كونهم أولياء ، فضلاً عن كونهم يدعون ويستغاث
بهم إلا بشيء من الخاريق والسحر والشعبذة ، يدعون أن لهم كرامات ،
وأنهم أولياء لما يظهرونه من الخاريق .

واعلم أن الضلال والكفر إنما استولى على أكثر المتأخرين بسبب نبذهم
كتاب الله وراء ظهورهم ، وإحسان الظن بمن سحرهم ، ودعا إلى نفسه ،
واقتصارهم على القوانين والدعاوي والأوضاع التي وضعوها لأنفسهم ، وإلا
فلو قرؤوا كتاب الله ، وعلموا بما فيه ، ورجعوا عند الاختلاف إليه لوجدوا
فيه الهدى والشفاء والنور ولكن نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً
فبئس ما يشترون وتقدم الكلام على بقية الآية .

قال المؤلف : قال أبو العباس : نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به
المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عوناً
له ، ولم يبق إلا الشفاعة . فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما
قال : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) [الأنبياء : ٢٩] فهذه الشفاعة التي
يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن ، وأخبر النبي
ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولاً ، ثم يقال له :
ارفع رأسك ، وقل يسمع ، واسأل تعط واشفع تشفع . وقال له أبو
هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : « من قال لا إله إلا الله
خالصاً من قلبه » فذلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ، ولا تكون

لمن أشرك بالله . وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص ، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه ، وينال المقام المحمود . فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع . وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص . انتهى كلامه .

ش : قوله : قال أبو العباس . هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية ، الإمام المشهور ، صاحب « المصنفات » شهرته وإمامته في علوم الإسلام وتقننه تغني عن الإطناب في وصفه . قال الذهبي : لم يأت قبله بخمس مائة سنة مثله ، وفي رواية : بأربع مائة وقال أيضاً : لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني لم أر مثله ، وما رأى بعينه مثل نفسه رحمه الله . وقال ابن دقيق العيد : لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه ، يأخذ ما يشاء ، ويدع ما يشاء . وبالجملة فما أتى بعد عصر الإمام أحمد له نظير ، وكانت وفاته سنة ثمان وعشرين وسبع مئة .

قوله : نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، أي : أن الله تعالى نفى في الآية المذكورة قبل ما يتعلق به المشركون من الاعتقاد في غير الله من الملك والشركة فيه والمعاونة والشفاعة ، فهذه الأمور الأربعة هي التي يتعلق بها المشركون .

قوله : فنفى أن يكون لغيره ملك ، وذلك في قوله تعالى : (لا يملكون . مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) [سبأ : ٢٣] ومن لا يملك هذا المقدار فليس بأهل أن يدعى .

قوله : أو قسط منه . أي من الملك ، والقسط - بكسر القاف - هو النصيب من الشيء ، وذلك في قوله : (وما لهم فيها من شرك) أي ما لمن تدعون من الملائكة وغيرهم فيها ، أي : في السموات والأرض من شرك ومن ليس بمالك ولا شريك للمالك فكيف يدعى من دون الله ؟

قوله : أو أن يكون عوناً لله ، وذلك في قوله : (وما له منهم من ظهير) أي ما لله ممن تدعونهم عون .

قوله : ولم يبق إلا الشفاعة ، فتبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ... الخ . جملة الشروط التي لابد وان يكون أحدها في المدعو ، أربعة حتى يقدر على إجابة من دعاه .

الاول : الملك ، فنفاه بقوله : (لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) .

الثاني : إذا لم يكن مالكا فيكون شريكا للمالك ، فنفاه بقوله : (وما لهم فيها من شرك) [سبأ : ٢٣] .

الثالث : إذا لم يكن مالكا ولا شريكا للمالك فيكون عوناً ووزيراً فنفاه بقوله : (وما له منهم من ظهير) .

الرابع : إذا لم يكن مالكا ولا شريكاً ولا عوناً فيكون شافعاً ، فنفي سبحانه وتعالى الشفاعة عنده إلا بإذنه ، فهو الذي يأذن للشافع ابتداء فيشفع ، فنفي هذه الأمور بطلت دعوة غير الله ، إذ ليس عند غيره من النفع والضرر ما يوجب قصده بشيء من العبادة ، كما قال تعالى : (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) [الفرقان : ٤]

وقال تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) [يس : ٧٥ - ٧٦] وقال تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً) [الفرقان : ٥٦] .

قوله : فهذه الشفاعة التي يطلبها المشركون . هي منتفية يوم القيامة ، كما نفاها القرآن . يعني أن الشفاعة التي يطلبها المشركون من الشفعاء والأنداد من دون الله منتفية دنيا وأخرى ، كما قال تعالى عن مؤمنين : (ألتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون . إني إذا لفي ضلال مبين) [يس : ٢٤ - ٢٥] وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون : (لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة) [غافر : ٤٤] وقال تعالى : (فلولاً نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) [الأحقاف : ٢٩] وقال تعالى : (فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيب) [هود : ١٠٣] وقال تعالى : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) [الأنعام : ٩٥] وقال تعالى : (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوا فلم يستجيبوا لهم وراوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) [القصص : ٢٥] فهذه حال كل من دعي من دون الله لشفاعة أو غيرها في الدنيا والآخرة .

قوله : وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولاً ... إلى آخره . هذا ثابت في « الصحيحين » وغيرهما من حديث أنس وغيره عنه ﷺ في حديث الشفاعة قال : « فأقوم فأمشي بين ممطين من المؤمنين حتى استأذن على ربي ، فإذا رأيته وقعت له ، أو خورت ساجداً لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم قال : ارفع محمد ، قل يسمع واشفع تشفع ، وسل تعطه فأرفع رأسي فأحمد بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ، ثم أعود إليه الثانية ، فإذا رأيت ربي وقعت له ، أو خورت ساجداً لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقول : ارفع محمد ، قل يسمع فتعطه . واشفع تشفع . فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لي حداً ، فأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة ، فإذا رأيت ربي وقعت له ، أو خورت ساجداً لربي ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال : ارفع محمد ، قل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ، ثم أعود الرابعة فأقول : يا رب ما بقي إلا من حبسه القرآن ... الحديث ، فبين ﷺ أنه لا يشفع إلا بعد الإذن في الشفاعة وفي المشفوع فيهم ، كما قال : « فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة » .

قوله : وقال أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك إلى آخره . هذا الحديث رواه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة قال : قلت : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ، فقال : « لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله

إلا الله خالصاً من قبل نفسه ، وفي رواية : « خالصاً مخلصاً من قلبه أو نفسه » رواه أحمد من طريق آخر ، وصححه ابن حبان ، وفيه : « وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً ، يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه » قال شيخ الإسلام : فجعل أسعد الناس بشفاعته أكملهم إخلاصاً . وقال في الحديث الصحيح : « من سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة » ولم يقل : كان أسعد الناس بشفاعتي ، فعلم أن ما يحصل للعبد بالتوحيد والإخلاص من شفاعته الرسول ﷺ وغيرها مالا يحصل بغيره من الأعمال ، وإن كان صالحاً لسؤال الوسيلة للرسول ﷺ ، فكيف بما لم يأمر به من الأعمال ، بل نهى عنه ، فذلك لا يئصال به خير لا في الدنيا ولا في الآخرة ، مثل غلو النصارى في المسيح ، فإنه يضرهم ولا ينفعهم ، ونظير هذا في « الصحيح » عنه ﷺ أنه قال : « لكل نبي دعوة مستجابة » وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً ، وكذلك في أحاديث الشفاعة كلها إنما يشفع في أهل التوحيد ، فبحسب توحيد العبد لربه ، وإخلاصه دينه لله تعالى يستحق كرامة الله بالشفاعة وغيرها .

وقال ابن القيم ما معناه : تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد ؛ عكس ما عند المشركين من أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء ، وعبادتهم وموالاتهم من دون الله ، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب ، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد ، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع . ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذ ولياً أو شفيعاً أنه يشفع له ، وينفعه عند الله ، كما يكون خواص

المذكور والولاية تنفع من والام ، ولم يعلموا أن الله لا يشفع عند أحد إلا بإذنه ، ولا يأذن في الشفاعة إلا من رضي قوله وعمله ، كما قال تعالى في الفصل الأول : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) [البقرة : ٢٥٦] وفي الفصل الثاني : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) [الأنبياء : ٢٩] وبقي فصل ثالث وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده ، واتباع رسوله ﷺ . فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعها وعقلها . انتهى ملخصاً .

وقال الحافظ : المراد بهذه الشفاعة ، المسؤول عنها هنا بعض أنواع الشفاعة ، وهي التي يقول ﷺ : « أمني أمتي » فيقال له : أخرج من النار من كان في قلبه وزن كذا من الإيمان . فأسعد الناس بهذه الشفاعة من يكون إيمانه أكمل بمن دونه ، وأما الشفاعة العظمى فالإراحة من كرب الموقف . فأسعد الناس بها من يسبق إلى الجنة ، وهم الذين يدخلونها بغير حساب ، ثم الذين يلونهم وهو من يدخلها بغير عذاب بعد أن يحاسب ويستحق العذاب ، ثم من يصيبه لقع من النار ولا يسقط .

واعلم أن شفاعته ﷺ في القيامة ستة أنواع كما ذكره ابن القيم :

الأول : الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهي إليه فيقول : « أنا لها » وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف . وهذه شفاعة يختص بها ، لا يشركه فيها أحد .

الثاني : شفاعته لأهل الجنة في دخولها . وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه .

الثالث : شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار ،
فيشفع لهم أن لا يدخلوها .

الرابع : شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين دخلوا النار بذنوبهم ،
والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ . وقد أجمع عليها الصحابة وأهل
السنة قاطبة ، وبدعوا من أنكروها ، وصاحوا به من كل جانب ، وفادوا
عليه بالضلال .

الخامس : شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم ،
وهذه بما لم ينازع فيها أحد .

السادس : شفاعته في بعض الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه ،
وهذه خاصة بأبي طالب وحده .

قوله : وحقيقته . أي : حقيقة الأمر ، أي : أمر الشفاعة أن الله سبحانه
هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص ، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له
أن يشفع ، ليكرمهم ، وينال المقام المحمود . فهذا هو حقيقة الشفاعة ،
لا كما يظن المشركون والجهال أن الشفاعة هي ككون الشفع يشفع
ابتداء فيمن شاء ، فيدخله الجنة وينجي من النار . ولهذا يسألونها من
الأموات وغيرهم إذا زارهم وذلك أنهم قالوا : إن الميت المعظم الذي
لروحه قرب ومزية عند الله لا تزال تأتيه الألفاظ من الله ، وتقضى على
روحه الخيرات ، فإذا علق الزائر روحه به ، وأدناها منه فاض من روح
المزور على روح الزائر من تلك الألفاظ بواسطتها ، كما ينعكس الشعاع
من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له . قالوا : فتأم الزيادة
أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت ، ويعكف بهمة عليه ، ويوجه

قصده كله وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره . وكل ما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به ، وشفاعته له .

قال ابن القيم : وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابي وغيرهما ، وصرح بها عباد الكواكب في عبادتها وقالوا : إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها منها النور . وهذا السر عبدت الكواكب ، واتخذت لها الهياكل ، وصنفت لها الدعوات ، واتخذت الأصنام المجددة لها ؛ وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذ أعياد ، وتعليق الستور عليها ، وإيقاد السرج عليها ، وبناء المساجد عليها ، وهو الذي قصد الرسول ﷺ لإبطاله وعموه بالكلية ، وسد الذرائع المفضية إليه ، فوقف المشركون في طريقه ، وناقضوه في قصده وكان ﷺ في شق وهؤلاء في شق . وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو الشفاعة التي ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها ، وتشفع لهم عند الله . قالوا : فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجه المقرب عند الله ، وتوجه بهمة إليه ، وعكف بقلبه عليه ، صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله ، وشبهوا ذلك بمن يخدم ذابحاً وحظوة وقرب من السلطان ، فهو شديد التعلق به ، فما يحصل لذلك السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلق بحسب تعلقه به . فهذا سر عبادة الأصنام وهو الذي بعث الله رسوله ، وأزول كنهه بإبطاله وتكفير أصحابه ، ولعنهم ، وأباح دماءهم ، وأموالهم ، وسبي ذرائعهم ، وأوجب لهم النار ، والقرآن من أوله إلى آخره ، مملوء من الرد على أهل وإبطال مذهبهم . انتهى .

قوله : وينال المقام المأمود ، أي : المقام الذي يحمد فيه الخلاق

كلهم وخالقهم تبارك وتعالى : قال ابن جوير : قال أكثر أهل التأويل :
ذلك المقام الذي يقوم به عليه السلام الشفاعة للناس ليرحمهم بهم بما هم فيه من شدة
ذلك اليوم . وقال ابن عباس : المقام المحمود مقام الشفاعة ، وكذا قال
ابن أبي نجيح عن مجاهد . وقال قتادة : هو أول من تنشق عنه الأرض ،
وأول شافع ، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود .

قوله : فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك . يعني : أن
الشفاعة التي نفاها الله في القرآن هي الشفاعة التي فيها شرك بالله ، من دعاء
غير الله وعبادته ليشفع له عند الله ، فإن الله سبحانه نفى هذه الشفاعة ،
وأخبر أنها لا تكون أبداً ، بل أخبر أن ذلك شرك ، ووزنه نفسه عنه ،
ونفى أن يكون المؤمنين ولي أو شفيع من دونه ، مع أن الشفاعة
يوم القيامة لهم بإذنه ، لا للمشركين كما قال تعالى : (يومئذ لا تنفع
الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً) [طه : ١١٠] فنفى
سبحانه أن تنفع الشفاعة أحداً إلا من أذن له الرحمن ورضي قوله وعمله ،
وهو المؤمن المخلص . وأما المشرك الداعي لغير الله ليشفع له فلا تنفعه
الشفاعة ، ولا يؤذن لأحد في الشفاعة فيه . كما قال : (فما تنفعهم
شفاعة الشافعين) [المدثر : ٤٩] وقال تعالى : (وقيل ادعوا
شركاءكم فدعواهم فلم يستجيبوا لهم وراوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون)
[القصص : ٦٥] .

قوله : وقد بين النبي ﷺ إلى آخره . تقدم ما يتعلق بذلك والله أعلم .

باب

قول الله تعالى : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) [القصص : ٥٧]

أراد المصنف رحمه الله الرد على عباد القبور الذين يعتقدون في الأنبياء
والصالحين أنهم ينفعون ويضرون ، فيسألونهم مغفرة الذنوب ، وتقريب
الكروب ، وهداية القلوب ، وغير ذلك من أنواع المطالب الدنيوية
والآخروية ، ويعتقدون أن لهم التصرف بعد الموت على سبيل الكرامة .
وقد وقفت على رسالة لرجل منهم في ذلك ، ويحتجون على ذلك بقوله : (لهم
ما يشاؤون عند ربهم) [الزمر : ٣٥] يقول قائلهم في حق رسول الله ﷺ :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فإذا عرف الانسان معنى هذه الآية ومن نزلت فيه ؛ تبين له بطلان
قولهم وفساد شرهم ، لأن رسول الله ﷺ أفضل الخلق وأقربهم من الله ،
وأعظمهم جاهاً عنده ، ومع ذلك حرص واجتهد على هداية عمه أبي طالب
في حياة أبي طالب . وعند موته ، فلم يتيسر ذلك ولم يقدر عليه ، ثم استغفر
له بعد موته ، فلم يغفر له حتى نهاء الله عن ذلك .

ففي هذا أعظم البيان ، وأوضح البرهان على أنه ﷺ لا يملك ضراً
ولا نفعاً ، ولا عطاء ولا منعاً ، وأن الأمر كله بيد الله ، فهو الذي يهدي
من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويعذب من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويكشف
الضر عن يشاء ، ويصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم . وهو
الذي من جوده الدنيا والآخرة ، وهو بكل شيء عليم . ولو كان عنده
ﷺ من هداية القلوب ومغفرة الذنوب وتقريب الكروب شيء ؛ لكان
أحق الناس به ، وأولاهم من قام معه أتم القيام ونصره ، وأحاطه من بلوغه

ثمان سنين ، وإلى ما بعد النبوة بثمان سنين أو أكثر ، بل قال تعالى : (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) [الأعراف : ١٨٨] وقال تعالى : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي) [الأنعام : ٥١] فبل يجتمع في قلب عبد الإيمان بهذه الآيات وما أشبهها ، والإيمان بذلك البيت وما أشبهه ، ولكن قاتل الله أعداءه الذين جاوزوا الحد في إطرانه والغلو فيه .

وأما معنى الآية فقال ابن كثير : يقول تعالى لرسوله ﷺ : إنك يا محمد لا تهدي من أحببت ، أي : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة كما قال تعالى : (ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء) [البقرة : ٢٧٣] وقال : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) [يوسف : ١٠٤] وهذه الآية أنص من هذا كله فإنه قال : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) [القصص : ٥٧] أي : أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية . وقد ثبت في « الصحيحين » أنها نزلت في أبي طالب ، وقد كان يحوطه وينصره ، ويقوم في حقه ، ويحبه حباً طبعياً لا حباً شرعياً ، فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه ، واختطف من يده ، واستمر على ما كان عليه من الكفر والله الحجة البالغة .

فإن قلت : قال الله تعالى : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم)

[الشورى : ٥٣] فالجمع بينها وبين الآية المترجم لها ، قيل : الهداية التي تصح نسبتها لغير الله بوجه ما هي هداية الارشاد والدلالة ، كما قال : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) أي : ترشد وتبين ، والهداية المنفية عن غير الله هي هداية التوفيق وخلق القدرة على الطاعة ، ذكره بعضهم بمعناه .

قال : في « الصحيح » عن ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل فقال : يا عم قل : لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله ، فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم فأعادا ، فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لك ما لم أنه عنك . فأنزل الله عز وجل : (ما كان فني والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى) [التوبة : ١١٥] وأنزل الله في أبي طالب : (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) [القصص : ٥٧] .

ش : قوله في « الصحيح » . أي « الصحيحين »

قوله : عن ابن المسيب . هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمرو بن غزوم القرشي الخزومي ، أحد العلماء الأثبات ، الفقهاء الكبار ، الحفاظ العباد ، اتفقوا على أن مرسلاته أصح المراسيل . وقال ابن المديني : لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه . مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين ، وأبوه المسيب صحابي ، بقي إلى خلافة عثمان رضي الله عنه ، وكذلك جده حزن صحابي ، استشهد باليامة .

قوله : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، أي : حضرت علامات الوفاة وإلا
فلو كان انتهى إلى المعاينة لم ينفعه الإيمان لو آمن . ويدل على ذلك ما وقع
من المراجعة بينه وبينهم ، ويحتمل أن يكون انتهى إلى تلك الحالة ، لكن
رجا النبي ﷺ أنه إذا أقر بالتوحيد ولو في تلك الحالة أن ذلك ينفعه
بخصوصه ، وبسوغ فيه شفاعته ﷺ . ولهذا قال : أجادل لك بها ، وأشهد
لك بها ، وأحاج لك بها . ويدل على الخصوصية أنه بعد أن امتنع من الإقرار
بالتوحيد ، ومات على الامتناع منه لم يترك النبي ﷺ الشفاعة له ، بل شفع له
حتى خفف عنه العذاب بالنسبة إلى غيره . وكان ذلك من الخصائص في حقه .

قوله : جاءه رسول الله ﷺ . يحتمل أن يكون المسيب حضر هذه
القصة ، فإن المذكورين من بني مخزوم وهو أيضاً مخزومي ، وكانوا يومئذ
كفاراً فمات أبو جهل على كفره ، وأسلم الآخرون . وقول بعض الشراح :
إن هذا الحديث من مراسيل الصحابة مردود ، وفي هذا جواز عيادة المشرك
إذا رجي إسلامه ، وجواز حمل العلم إذا كان فيه مصلحة راجحة على عدمه .
قوله : يا عم . منادى مضاف يجوز فيه إثبات الياء وحذفها .

قوله : قل لا إله إلا الله . أي : قل هذه الكلمة ، عارفاً لمعناها ،
معتقداً له في هذه الحال وإن لم تعمل به ، إذ لا يمكن عند الموت إلا ذلك ،
ولا بد مع ذلك من شهادة أن محمداً رسول الله .

قوله : كلمة . قال القرطبي : أحسن ما تقيد « كلمة » بالنصب على أنه
بدل من لا إله إلا الله ، ويجوز رفعها على احتمال المبتدأ .

قوله : أحاج لك بها عند الله . هو بتشديد الجيم من « الحاجة » وهي
مفاعلة من الحجة ، والجيم مفتوحة ، على الجزم جواب الأمر ، أي : أشهد لك

بها عند الله كما في الرواية الأخرى . وفيه دليل على أن الأعمال بالحوادث ، لأنه لو قالها لنفعته ، وإن مات على التوحيد نفعته الشفاعة وإن لم يعمل شيئاً غير ذلك ، وأن من كان كافراً بمجرد إذا قالها عند الموت أجريت عليه أحكام الإسلام ، فإن كان صادقاً من قلبه نفعته عند الله ، وإلا فليس لنا إلا الظاهر ، بخلاف من كان يتكلم بها في حال كفره .

قوله : فقال له : أترغب عن ملة عبد المطلب . ذكرناه الحجة الملعونة التي يتعلق بها المشركون من الأولين والآخرين ، ويردون بها على الرسل ، وهي تقليد الآباء والكبراء ، وأخرجنا الكلام مخرج الاستفهام مبالغة في الإنكار لعظمة هذه الحجة في قلوب الضالين ، وكذلك اكتفينا بها في المجادلة مع مبالغته ﷺ وتكريره ، فلأجل عظمتها ووضوحها عندم اقتصرنا عليها . قال المصنف : وفيه تفسير لا إله إلا الله بخلاف ما عليه أكثر من يدعمه العلم . وفيه أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال الرجل : قل لا إله إلا الله . ففبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام .

قوله : فأعاد عليه النبي ﷺ وأعاد ، أي : أعاد عليه النبي ﷺ مقالته ، وأعادا عليه مقالته مبالغة منه ﷺ ، وحرصاً على إسلام همه ، ومع ذلك لم يقدر النبي ﷺ على ذلك ، ولا على تخليصه من عذاب الله ، بل سبق فيه القضاء المحتوم ، واستمر على كفره ليعلم الناس أن لا إله إلا الله . فلو كان عند النبي ﷺ من هداية القلوب ، وتقريب الكروب شيء ، لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به الذي فعل معه ما فعل . وفيه الحرص في الدعوة إلى الله ، والصبر على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإن رد ذلك على صاحبه ، وتكريره وعدم الاكتفاء بمرة واحدة .

قوله : فكان آخر ما قال - هو بنصب آخر على الظرفية - أي آخر زمن تكليمه لإمام ، ويجوز رفعه .

قوله : هو علي ملة عبد المطلب . الظاهر أن أبا طالب قال : أنا ، فغيره الراوي أنفة أن يحكي كلام أبي طالب استباحاً للفظ المذكور ، وهي من التصرفات الحسنة ، قاله الحافظ . وقد رواه الإمام أحمد باللفظ أنا . فدل على ما ذكرناه .

قوله : وأبى أن يقول لا إله إلا الله . قال الحافظ : هذا تأكيد من الراوي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب ، وكأنه استند في ذلك إلى عدم سماعه منه في تلك الحال . كذا قال وفيه نظر ، بل نفيه مستند إلى إباء أبي طالب عن قولها بقوله : وهو علي ملة عبد المطلب .

قال المصنف : وفيه الرد على من زعم لإسلام عبد المطلب وأسلانه ، ومضرة أصحاب السوء على الإنسان ، ومضرة تعظيم الأسلاف والأكابر . أي : زيادة على المشروع بحيث يجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع .

قوله : فقال النبي : « لا تستغفرون لك ما لم انه عنك » . أقسم ﷺ ليستغفرون له . إلا أن ينهى عن ذلك ، كما في رواية مسلم : « أما والله لأستغفرن لك » قال النووي : وفيه جواز الحلف من غير استعلاف ، وكان الحلف هنا تأكيد العزم على الاستغفار ، وتطبيعاً لنفس أبي طالب . وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة بقليل . قال ابن فارس : مات أبو طالب ورسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً . وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بعد موت أبي طالب بثمانية أيام .

قوله : فأنزل الله : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) [التوبة : ١١٥] أي : ما ينبغي لهم ذلك ، وهو خبر بمعنى النهي . وقد روى الطبراني عن عمرو بن دينار قال : قال رسول الله ﷺ « استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك ، فلا أزال استغفر لأبي طالب حتى نفاني عنه ربي » فقال أصحابه : نستغفر لأبائنا كما استغفر نبينا لعمه فنزلت : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) [التوبة : ١١٥ ، ١١٦] وهذا فيه إشكال لأن وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة اتفاقاً . وقد ثبت أن النبي ﷺ أتى قبر أمه لما اعتمر فاستأذن ربه أن يستغفر لها فنزلت هذه الآية . وفيه دلالة على تأخر نزول الآية عن وفاة أبي طالب ، ولكن يحتمل أن يكون نزول الآية تأخر وإن كان سببها تقدم ، ويكون لنزولها سببان : متقدم : وهو أمر أبي طالب ، ومتأخر : وهو أمر أمه . ويؤيد تأخر النزول استغفاره ﷺ للمنافقين حتى نزل النهي عن ذلك ، فإن ذلك يقتضي تأخر النزول وإن تقدم السبب . ويشير إلى ذلك أيضاً قوله في حديث الباب ، وأنزل الله في أبي طالب : (إنك لانهدي من أحببت) [القصص : ٥٧] لأنه يشعر بأن الأولى نزلت في أبي طالب وفي غيره ، والثانية فيه وحده . ويؤيد تعدد السبب ما أخرج أحمد عن علي قال : سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله (ما كان للنبي والآية . قاله الحافظ ، وفيه تحريم الاستغفار للمشركين ، وتحريم موالاتهم ومحبتهم ، لأنه إذا حرم الاستغفار لهم ، فموالاتهم ومحبتهم أولى .

باب

ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم وهو الغلو في الصالحين
أما تركهم فهو مجرور عطفاً على المضاف إليه ، ولما ذكر المصنف
رحمة الله بعض ما يفعله عباد القبور مع الأموات من الشرك ، أراد أن
يبين السبب في ذلك ليحذر ، وهو الغلو مطلقاً لاسيما في الصالحين ، فإنه
أصل الشرك قديماً وحديثاً لقرب الشرك بالصالحين من النفوس فإن الشيطان
يظهره في قالب المحبة والتعظيم ،

وقول الله عز وجل : (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم)
[المائدة : ٧١] قال العلماء : الغلو هو مجاوزة الحد في مدح الشيء أو
ذمه ، وضابطه تعدي ما أمر الله به وهو الطغيان الذي نهى الله عنه في
قوله : (ولا تطغوا فيه فيعمل عليكم غضي) [طه : ٨٢] وكذا
قال تعالى في هذه الآية : (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) أي
لاتعدوا ما حدد الله لكم . وأهل الكتاب هنا هم اليهود والنصارى ،
فإنهم عن الغلو في الدين ونحن كذلك ، كما قال تعالى : (فاستقم كما
أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير) [هود : ١١٤] .

والغلو كثير في النصارى ، فإنهم غلوا في عيسى عليه السلام ، فنقلوه
من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدون الله ،
بل غلوا فيمن زعم أنه على دينه من أتباعه ، فادعوا فيهم العصمة ، فاتبعوهم
في كل ما قالوه ، سواء كان حقاً أو باطلاً ، وناقضتهم اليهود في أمر عيسى
عليه السلام ، فغلوا فيه فحطوه من منزلته حتى جعلوه ولد بغي .

قال شيخ الإسلام : ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى وغلا

في الدين يافراط فيه أو تقريط وضاهام في ذلك ، فقد شابههم كالحوارج المارقين من الإسلام ، الذين خرجوا في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقتلهم حين خرجوا على المسلمين بأمر النبي ﷺ ، كما ثبت ذلك من عشرة أوجه في « الصحاح » و « المسانيد » وغير ذلك ، وكذلك من غلا في دينه من الرافضة والقدرية والجهمية والمعتزلة والأشاعرة . وقال أيضاً : فإذا كان على عهد النبي ﷺ من انتسب إلى الإسلام ، وقد مرق منه مع عبادته العظيمة ، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يرق أيضاً من الإسلام وذلك بأسباب :

منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه حيث قال : (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) [المائدة : ٧١] وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حرق الغالية من الرافضة فأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كندة ، فقتلهم فيها واتفق الصحابة رضي الله عنهم على قتلهم ، ولكن ابن عباس كان مذهبه أن يقتلوا بالسيف من غير تحريق ، وهو قول أكثر العلماء .

قال : في « الصحيح » عن ابن عباس في قول الله تعالى : (وقالوا لا نذرنا آلهتكم ولا نذرنا وداً ولا سواهاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) [نوح : ٢٤] قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسجوها بأسمائهم ، ففعلوا ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبت .

ش : قوله : في « الصحيح » أي « صحيح البخاري » وهذا الأثر اختصره المصنف ، وقد رواه البخاري عن ابن عباس ولفظه :

وصارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدئذ ، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث ، فكانت لمراد ، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق ، فكانت لهمدان ، وأما نسر ، فكانت لمجير لآل ذي الكلاع ، أسماء رجال صالحين في قوم نوح إلى آخره . وهكذا روي عن عكرمة والضحاك وابن إسحاق نحو هذا .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس : أن يغوث ويعوق ونسرا كانوا قوماً صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كانوا أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصورهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون ، دب إليهم إبليس ، فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم . قال سفيان عن أبيه عن عكرمة قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، وروى ابن أبي حاتم عن عروة ابن الزبير أنهم كانوا أولاد آدم لصلبه ، وكان ود أكبرهم وأبرهم به ، هكذا رواه عمر بن شبة في « أخبار مكة » من طريق محمد بن كعب القرظي ، وذكر السهيلي في « التعريف » : أن يغوث بن شيث بن آدم فيما قيل ، وكذا سواع وما بعده . فكانوا يتبركون بدعائهم ، وكلما مات منهم أحد مثلوا صورته وتمسحوا بها إلى زمن مهلايل ، فعبدوها بتدريج الشيطان لهم ، ثم د - ل سنة في العرب في الجاهلية .

ولا أدري من أين سرت تلك الأسماء أمن قبل الهند ؟ فقد قيل : إنهم كانوا المبدأ في عبادة الأصنام بعد نوح عليه السلام ، أم الشيطان ألهم العرب

ذلك . انتهى . وقد روى الفاكهي عن ابن الكلبي قال : كان لعمر بن ربيعة رثي من الجن فأثاه فقال : أجب أبا ثامة وادخل بلا ملامة ، ثم أتت سيف جدة ، تجذبها أصناماً معدة ، ثم أوردتها تهامة ولا تهب ، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب .

قال : فأتى عمرو ساحل جدة فوجد بها رداً وسواعاً ويغوثاً ويعوقاً ونسراً ، وهي الأصنام التي عبدت على عهد نوح وإدريس ، ثم إن الطوفان طوحها هناك فسقى عليها الرمل ، فاستأثرها عمرو وأخرج بها إلى تهامة ، وحضر المومنين ودعا إلى عبادتها فأجيب .

وعمر بن ربيعة : هو عمرو بن لحي ، قاله الحافظ . قلت : وهو سيد خزاعة ، وكان أول من سبب السوائب ، وغير دين إبراهيم عليه السلام . وكانت العرب قبله على دين أبيهم إبراهيم عليه السلام ، حتى نشأ فيهم عمرو فأحدث الشرك ، كما روى ابن جرير عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكم بن الجون : « يا أكم رأيت عمرو بن لحي بن قبة ابن خندف يحرق قصبه في النار لما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به ولا به منك » فقال أكم : أتخشى أن يضرك في شبهه يا رسول الله ؟ ! فقال رسول الله ﷺ : « إنك مؤمن ، وهو كافر ، إنه أول من غير دين إبراهيم ، وبحر البعيرة ، وسبب السائبة ، وحمى الحامي » إسناده حسن .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يحرق قصبه في النار ، كان أول من سبب السوائب » .

قوله : ان انصبوا . بكسر الصاد المهملة .

قوله : أنصباً جمع نصب ، وأصله ما نصب كغرض ونحوه ، والمراد به هنا الأصنام المصورة على صورهم المنصوبة في مجالسهم .

قوله : حتى إذا هلك أولئك ، أي : الذين نصبوها ليكون أشوق إليهم إلى العبادة ، ولتذكروا برؤيتها أفعال أصحابها .

قوله : ونسي العلم . أي : زالت المعرفة بحالها وما قصده من صورها ، وغلب الجهال الذين لا يميزون بين التوحيد والشرك ، وذهب العلماء الذين يعرفون ذلك .

قوله : عبدت . تقدم أنه دب إليهم إبليس ، فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم . وفي رواية أنهم قالوا : ما عظم أولنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله ، فعبدوهم فهذا هو السبب في عبادة هؤلاء الصالحين ، وهو رجاء شفاعتهم عند الله ، وكذلك هو السبب في عبادة صورهم ، وهذه هي الشبهة التي ألقاها الشيطان على المشركين من الأولين والآخرين . وقد بين الله ذلك في القرآن بياناً شافياً ، وتقدم في هذا الكتاب من الكلام على ذلك ما يكفي لمن هداه الله .

قال : وقال ابن القيم : قال غير واحد من السلف : لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمر فعبدوهم .

ش : قوله : وقال ابن القيم . هو الإمام العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية ، تلميذ شيخ الإسلام ، وصاحب المصنفات الكثيرة في فنون العلم . قال الحافظ السخاوي في حقه : العلامة الحجة ، المتقدم في سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان ، المجمع

عليه بين الموافق والمخالف ، صاحب التصانيف السائرة والمحسن الجملة . مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة .

قوله : قال غير واحد من السلف إلى آخره . الظاهر أن ابن القيم ذكر ذلك بالمعنى لا باللفظ ، وقد روي من غير واحد من السلف معنى ذلك ، منهم أبو جعفر الباقر وغيره ، وتقدم ما يدل على ذلك .

قوله : ثم طال عليهم الأمد فعبدهم . أي : طال عليهم الزمان ، ونسوا ما قصده الأولون بتصوير صورهم ، فعبدهم ، فتبين أن مبدأ الشرك بالصالحين هو الغلو فيهم ، كما أن سبب الشرك بالنجوم هو الغلو فيها واعتقاد النجوس فيها والسعود ، ونحو ذلك . وهذا هو الغالب على الفلاسفة ونحوهم ، كما أن ذاك هو الغالب على عباد القبور ، ونحوهم ، وهو أصل عبادة الأصنام ، فإنهم عظموا الأموات تعظيماً مبتدعاً ، فصوروا صورهم ، وتبركوا بها ، فقال الأمر إلى أن عبدت الصور ومن صورته ، وهذا أول شرك حدث في الأرض ، وهو الذي أوحاه الشيطان إلى عباد القبور في هذه الأزمان ، فإنه ألقى إليهم أن البناء على القبور والعكوف عليها من محبة الصالحين وتعظيمهم ، وأن الدعاء عندها أرجى في الإجابة من الدعاء في المسجد الحرام والمساجد ، فاعتادوها لذلك . فإذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى الدعاء به والإقسام على الله به . قال ابن القيم رحمه الله تعالى : وهذا أعظم من الذي قبله ، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه ، أو يسأل بأحد من خلقه فإذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى دعائه وعبادته ، وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثناً يعكف عليه ، وتعلق عليه القناديل والستور ويطاف به ويستلم ، ويقبل ويحج إليه ، وينذبح عنده ، فإذا

تقرر ذلك عندهم ؛ نقله منه إلى دعاء الناس إلى عبادته ، واتخاذ عيدا ومنسكا ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم ، وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ ، من تجريد التوحيد لله ، وألا يعبد إلا الله ، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى من نهى عن ذلك ، فقد تنقص أهل الرقب العالية ، وحطهم عن منزلتهم ، وزعم أنهم لا حرمة لهم ، ولا قدر ، وغضب المشركون ، واشتأزت قلوبهم كما قال تعالى : (وإذا ذكر الله وحده اشتأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) [الزمر : ٤٦] وصرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حتى عادوا أهل التوحيد ، ورموهم بالعظائم ، ونفروا الناس عنهم ، ووالوا أهل الشرك وعظموهم ، وزموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله ، ويأبى الله ذلك (وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون) [الأنفال : ٣٥] .

قلت : وفي القصة فوائد نبه المصنف على بعضها .

منها أن من فهم هذا الباب وما بعده تبين له غربة الإسلام ، ورأى من قدرة الله ، وتقليبه القلوب العجب .

ومنها معرفة أن أول شرك حدث في الأرض بشبهة محبة الصالحين .

ومنها معرفة أول شيء غير به دين الأنبياء .

ومنها معرفة سبب قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تنكروها .

ومنها أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل ، فالأول محبة الصالحين ،

والثاني فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً فظن من بعدهم أنهم أرادوا غيره .

ومنها معرفة جيلة الانسان في كوث الحق ينقص في قلبه ،
والباطل يزيد .

ومنها أن فيها شاهداً لما نقل عن بعض السلف أن البدعة سبب للكفر ،
وأنها أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن المعصية يتاب منها ، والبدعة
لا يتاب منها .

ومنها معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ، ولو حسن قصد الفاعل .
ومنها معرفة القاعدة الكلية وهي النهي عن الغلو ، ومعرفة
ما يؤول إليه .

ومنها مضرة العكوف على قبر لأجل عمل صالح .

ومنها معرفة النهي عن التمايل ، والحكمة في إزالتها .

ومنها معرفة عظم شأن هذه القصة ، وشدة الحاجة إليها مع
الغفلة عنها .

ومنها - وهي أعجب العجب - قراءتهم إياها في كتب التفسير
والحديث ، ومعرفتهم بمعنى الكلام ، وكون الله حال بين قلوبهم ، حتى
اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات ، واعتقدوا أن نهي الله
ورسوله هو الكفر المبيح للدم والمال .

ومنها التصريح أنهم لم يريدوا إلا الشفاعة .

ومنها ظنهم أن العلماء الذين صرخوا بالصور أرادوا ذلك .

ومنها التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم ، ففيها معرفة قسده
وجوده ، ومضرة فقلده .

ومنها أن سبب فقد العلم موت العناء . انتهى بمعناه .
ومنها شدة حاجة الخلق بل ضرورتهم إلى الرسالة ، وأن ضرورتهم
إليها أشد وأعظم من ضرورتهم إلى الطعام والشراب .

ومنها الرد على من يقدم الشبهات التي يسميها عقليات على ما جاء
من عند الله ، لأن ذلك الذي أوقع المشركين في الشرك .

ومنها مضرة التقليد وكيف آل بأهله إلى المروق من الإسلام .
قال : وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لا تطروني كما
أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله »
أخرجاه .

ش : قوله عن عمر . هو ابن الخطاب بن نفيل بنون وفاء مصفراً بن
عبد العزى بن رياح بتحتانية بن عبد الله بن قوط بضم القاف بن رزاح
براء ثم زاي خفيفة بن عدي بن كعب القرشي العدوي ، أمير المؤمنين
وأفضل الصحابة بعد الصديق رضي الله عنهما ، ولي الخلافة عشر سنين
ونصفاً ، فامتألت الدنيا عدلاً ، وفتحت في أيامه بمالك كسرى وقيصراً ،
واستشهد في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين .

قوله : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم » . الإطراء :
مجاورة الحد في المدح ، والكذب فيه ، قاله أبو السعادات . وقال غيره :

لا تطروني بضم التاء وسكون الطاء المهمة من الإطراء ، أي : لا تمدحوني بالباطل ، أو لا تجاوزوا الحد في مدحي .

قوله : إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله أي : لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى ، فادعوا فيه الربوبية ، وإنما أنا عبد لله فصفوني بذلك كما وصفني به ربي ، وقولوا عبد الله ورسوله . فابى عباد القبور إلا مخالفة لأمره ، وارتكاباً لنهيه ، وناقضوه أعظم المناقضة ، وظنوا أنهم إذا وصفوه بأنه عبد الله ورسوله ، وأنه لا يدعى ولا يستغاث به ، ولا ينذر له ، ولا يطاف بحجروته ، وأنه ليس له من الأمر شيء ، ولا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله ، أت في ذلك هضمًا لجنابه ، وغضًا من قدره ، فرفعوه فرق منزلته ، وادعوا فيه ما ادعت النصارى في عيسى أو قريباً منه ، فسألوه مغفرة الذنوب ، وتقريع الكروب .

وقد ذكر شيخ الإسلام في كتاب « الاستغاثة » عن بعض أهل زمانه أنه جوز الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث فيه بالله ، وصنف فيه مصنفًا . وكان يقول : إن النبي ﷺ يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله . وعكس عن آخر من جنسه يباشر التدريس ، وينسب إلى القيا أنه كان يقول : إن النبي ﷺ يعلم ما يعلمه الله ، ويقدر على ما يقدر الله عليه ، وأن هذا السر انتقل بعده إلى الحسن ، ثم انتقل في ذرية الحسن إلى أبي الحسن الشاذلي ، وقالوا : هذا مقام القطب الغوث الفرد الجامع ، ومن هؤلاء من يقول في قول الله تعالى : (وسبحوه بكرة وأصيلًا) [الأحزاب : ٤٣] إن الرسول ﷺ هو الذي يسبح

بكثرة وأصيلاً ومنهم من يقول : نحن نعبد الله ورسوله ، فيجعلون الرسول معبوداً .

قلت : وقال البوصيري :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فجعلى الدنيا والآخرة من جوده ، وجزم بأنه يعلم ما في اللوح المحفوظ ، وهذا هو الذي حكاه شيخ الإسلام عن ذلك المدرس ، وكل ذلك كفر صريح . ومن العجب أن الشيطان أظهر لهم ذلك في صورة محبة عليه السلام وتعظيمه ومتابعته ، وهذا شأن العين لا بد وأن يمزج الحق بالباطل ليروج على أشباه الأنعام اتباع كل فاعق ، الذين لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق ، لأن هذا ليس بتعظيم ، فإن التعظيم محله القلب واللسان والجوارح وهم أبعد الناس منه ، فإن التعظيم بالقلب : ما يتبع اعتقاد كونه عبداً رسولاً ، من تقديم محبة على النفس والولد والوالد والناس أجمعين .

ويصدق هذه الهبة أمران :

أحدهما : تجريد التوحيد ، فإنه ﷻ كان أحوص الخلق على تجريده ، حتى قطع أسباب الشرك ووسائله من جميع الجهات ، حتى قال له رجل : ما شاء الله وشئت . قال : « أ جعلتني لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده » ونهى أن يحلف بغير الله ، وأخبر أن ذلك شرك . ونهى أن يصلى إلى القبز أو يتخذ مسجداً أو عيداً ، أو يوقد عليه سراج ، بل مدار دينه على هذا الأصل الذي هو قطب رحا النجاة ، ولم يقر أحد ما قرره النبي

بقوله وفعله ، وسد الذرائع المنافية له ، فتعظيمه ﷺ بموافقة على ذلك لا يناقضه فيه .

الثاني : تجريد متابعتة ، وتحكيمه وحده في الدقيق والجليل من أصول الدين وفروعه ، والرضى بحكمه ، والإنقياد له والتسليم ، والإعراض عما خالفه ، وعدم الالتفات الى ما خالفه ، حتى يكون وحده هو الحاكم المتبع المقبول قوله ، المردود ما خالفه ، كما كان ربه تعالى وحده هو المعبود المألوه المخوف المرجو المستغاث به ، المتوكل عليه ، الذي إليه الرغبة والرهبة ، الذي يؤمل وحده لكشف الشدائد ومغفرة الذنوب ، الذي من جوده الدنيا والآخرة ، الذي خلق الخلق وحده ، ورزقهم وحده ، ويعيشهم وحده ، ويغفر ويرحم ويهدي ويضل ، ويسعد ويشقي وحده ، وليس لغيره من الأمر شيء كائناً من كان ، لا للنبي ﷺ ولا لجبريل عليه السلام ولا غيرهما . فهذا هو التعظيم الحق المطابق لحال المعظم ، النافع للمعظم في معاشه ومعاده ، والذي هو لازم لإيمانه وملزومه .

وأما التعظيم باللسان ، فهو الثناء عليه بما هو أهله بما أثنى به عليه ربه وأثنى على نفسه من غير غلو ولا تقصير ، كما فعل عباد القبور ، فإنهم غلوا في مدحه إلى الغاية .

وأما التعظيم بالجوارح ، فهو العمل بطاعته ، والسعي في إظهار دينه ، ونصر ما جاء به ، وجهاد ما خالفه .

وبالجملة فالتعظيم النافع هو التصديق فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانتفاء مما عنه نهى وزجر ، والموالاتة والمعاداة والحب والبغض لأجله ، وتحكيمه وحده ، والرضى بحكمه ، وأن لا يتخذ من دونه طاغوت يكون

التحاكم إلى أقواله فما وافقها من قوله ﷺ قبله ، وما خالفها رده أو تأوله أو أعرض عنه ، والله سبحانه يشهد وكفى به شهيداً وملائكته ورسله وأوليائوه ، أن عباد القبور وخصوم الموحدين لبسوا كذلك ، والله المستعان .

وقال المصنف : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو » .

ش : هكذا ثبت هذا البياض في أصل المصنف ، وذكره أيضاً غير معزو . والحديث رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس ، وهذا لفظ ابن ماجه : حدثنا علي بن محمد حدثنا أبو أسامة عن عوف عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته : « القط لي حصي » . فلقطت له سبع حصيات هن حصي الحذف فجعل ينفضهن في كفه ويقول : « أمثال هؤلاء فارموا ، وإياكم والغلو في الدين ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين » . وهذا إسناد صحيح . وعوف ، هو الأعرجي ثقة مشهور .

قوله : إياكم والغلو ... إلى آخره . قال شيخ الإسلام : هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال ، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار وهو داخل فيه ، مثل الرمي بالحجارة الكبار ، بناء على أنه أبلغ من الصغار ثم علله بما يقتضي بجانبه هديهم ، أي : هدي من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به ، وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك .

قال : ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هلك المتنطعون » قالها ثلاثاً .

ش : قوله : « هلك المتطعون » . قال الخطابي : المتطع المتعمق في الشيء ، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام ، الداخلين فيما لا يعنيه الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم .

وقال أبو السعادات : هم المتعمقون الغالون في الكلام ، المتكلمون بأقصى حلوهم ؛ مأخوذ من النطع وهو الغار الأعلى من الفم ، ثم استعمل في كل متعمق قولاً وفعلاً .

وقال غيره : هم الغالون في عبادتهم بحيث تخرج عن قوانين الشريعة ، ويستترسل مع الشيطان في الوسوسة . وكل هذه الأقوال صحيحة ، فإن المتكلمين من أهل الكلام متطعون ، والمتقرون في الكلام ومخارج الحروف متطعون ، والغالون في عبادتهم متطعون ، وبالجملة فالتطع : التعمق في قول أو فعل كما قال أبو السعادات . وقال النووي : فيه كراهة المتعمر في الكلام بالتشدد ، وتكلف الفصاحة ، واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم .

قوله : قالها ثلاثاً . أي : قال هذه الكلمة ثلاث مرات ، مبالغة في التحذير والتعليم ، فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين ، فما ترك شيئاً يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا أخبرنا به ، وإنما ضل الأكثرون بمخالفة هذه الأحاديث وما في معناها ، ففعلوا وتطعوا فهلكوا ، ولو اقتصرنا على ما جاءهم من ربهم على يدي رسول الله ﷺ لسلموا وسعدوا ، قال تعالى : (أُولَئِكَ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [العنكبوت : ٥٢] .

باب

ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده ١٢ .

أي : عبد القبر أو الرجل الصالح ، ولما كان عباد القبور إنما دها من حيث ظنوا أنهم محسنون ، فرأوا أن أعمالهم القيحة حسنة ، كما قال تعالى : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً) [فاطر : ٩] الآية .
نوع المصنف التحذير من الافتتان بالقبور ، وأخرجه في أبواب مختلفة ، ليكون أوقع في القلب ، وأحسن في التعليم ، وأعظم في الترهيب ، فإذا كان قصد قبور الصالحين لعبادة الله عندها فيه من النهي والوعيد ما سيمر بك إن شاء الله ، فكيف بعبادة أربابها من دون الله واعتيادها لذلك في اليوم والأسبوع والشهر مرات كثيرة .

قال : في « الصحيح » عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور . فقال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » .

فهؤلاء جمعوا بين الفتنين : فتنة القبور وفتنة التماثيل .

ش قوله : في « الصحيح » . أي في « الصحيحين » .

قوله : أن أم سلمة . هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية ؛ تزوجها النبي ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع ، وقيل ثلاث ، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة ، ماتت سنة اثنتين وستين .

قوله : ذكرت لرسول الله ﷺ . كان ذكر أم سلمة هذه الكنيسة للنبي ﷺ في مرض موته ، كما جاء مبيناً في رواية في « الصحيح » وفي « الصحيحين » أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ .

قوله : كنيسة . وفي رواية يقال : لها مارية ، وهي بفتح الكاف وكسر النون : معبد النصارى .

قوله : أولئك . بفتح الكاف وكسرها .

قوله : إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح . هذا والله أعلم شك من بعض رواة الحديث ، هل قال النبي ﷺ هذا أو هذا ، ففيه التحري في الرواية ، وجواز رواية الحديث بالمعنى ..

قوله : بنوا على قبره مسجداً ، أي : موضعاً للعبادة ، وإن لم يسم مسجداً كالكنائس والمشاهد .

قوله : وصوروا فيه تلك الصور . الإشارة بتلك الصور إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التماثيل التي في الكنيسة ، كما في بعض ألفاظ الحديث فذكرتا من حسناتها وتماثيلها .

قوله : أولئك شرار الخلق عند الله . مقتضى هذا تحريم ما ذكر ، لاسيما وقد ثبت اللعن عليه . قال البيضاوي : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ، ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها ، واتخذوها أوثاناً ، لعنهم النبي ﷺ ، ومنع المسلمين عن مثل ذلك . قال القرطبي : ولما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها ، ويتذكروا أفعالهم للصلاح ، فيجتهدون كالجهنم ، ويعبدون الله عند قبورهم ، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ، ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون

هذه الصور ويعظمونها ، فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك .

قوله : فمؤلاء جمعوا بين الفتنين ... إلى آخره . هذا من كلام شيخ الإسلام ، ذكره المصنف عنه . يعني أن الذين بنوا هذه الكنيسة جمعوا فيها بين فتنين ، ضل بها كثير من الخلق . الأولى : فتنة القبور ، لأنهم افتتنوا بقبور الصالحين ، وعظموها تعظيماً مبتدعاً ، فآل بهم إلى الشرك ، وهي أعظم الفتنين ، بل هي مبدأ الفتنة . الثانية : وهي فتنة التماثيل ، أي : الصور ، فإنهم لما افتتنوا بقبور الصالحين وعظموها ، وبنوا عليها المساجد ، وصوروا فيها الصور للقصد الذي ذكره القرطبي ، فآل الأمر إلى أن عبدت الصور ومن هي صورته من دون الله ، وهاتان الفتنتان هما سبب عبادة الصالحين كاللوات وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وغيرهم من الصالحين .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : وهذه العلة هي التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور ، وهي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر ، أو فيما دونه من الشرك ، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين ، وتماثيل يزعمون أنها طلائع لكواكب ونحو ذلك ، فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر . ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون ، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر ، ومنهم من يسجد لها ، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد ، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ

مادتها حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته ، كما يقصد بصلاته بركة المساجد . كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها ، لأنها أوقات يقصد المشركون فيها الصلاة للشمس ، فمنه أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ما قصده المشركون سداً للذريعة . قال : وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة في تلك البقعة ، فهذا عين المحادة لله ورسوله ، والخالفة لدينه ، وابتداع دين لم يأذن به الله ، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله ﷺ أن الصلاة عند القبور منهي عنها ، وأنه لعن من اتخذها مساجد . فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها ، واتخاذها مساجد ، وبناء المساجد عليها ، فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه . وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة . وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك ، وطائفة أطلقت الكراهة . والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم إحساناً للظن بالعلماء ، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهي عنه .

قال : ولما عنها قالت : لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها فقال وهو كذلك : لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً . أخرجه

ش : هكذا ثبت في أول هذا الحديث « ولها » وفي آخره : « أخرجاه »
بخط المصنف ، وأحد اللفظين يعني عن الآخر ، لأن المراد صاحب « الصحيحين » .
قوله : لما نزل . هو بضم النون وكسر الزاي . أي : نزل به
ملك الموت والملائكة الكرام عليهم السلام .

قوله : طفق بكسر الفاء وفتحها والكسر أفصح ، وبه جاء
القرآن ومعناه : جعل .

قوله : خميسة بفتح المعجمة كساء له أعلام .
قوله : فإذا اغتم بها كشفها ، أي : إذا احتبس نفسه عن الخروج
كشفها عن وجهه .

قوله : لعن الله اليهود والنصارى ... إلى آخره . لعنهم ﷺ على
هذا الفعل بعينه وهو اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، أي : كنائس
ويسبحون ويتعبدون ويسجدون فيها لله ، وإن لم يسموها مساجد ، فإن الاعتبار
بالمعنى لا بالاسم . ومثل ذلك القباب والمشاهد المبنية على قبور الأنبياء
والصالحين ، فإنها هي المساجد الملعون من بناها على قبورهم وإن لم يسمها
من بناها مساجد . وفيه رد على من أجاز البناء على قبور العلماء والصالحين
تمييزاً لهم عن غيرهم ، فإذا كان ﷺ لعن من بنى المساجد على قبور
الأنبياء ، فكيف بنى بناها على قبور غيرهم ؟!

قوله : يحذر ما صنعوا . الظاهر أن هذا من كلام عائشة رضي الله
عنها ، أي : أن الرسول ﷺ لعن اليهود والنصارى على ذلك تحذيراً لأمتهم
أن تصنع ما صنعوا . قال القرطبي : وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى
عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام .

قوله : ولولا ذاك . أي : لولا تحذير النبي ﷺ ما صنعوا ولعن من فعل ذلك .

قوله : لأبرز قبره ، أي : لدفن خارج بيته ومنه الحديث : كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس . أي : جالساً خارج بيته .

قوله : غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً . روي بفتح الحاء وضمها بالبناء للفاعل والمفعول ، قالوا : فأما رواية الفتح ، فإنها تقتضي أن النبي ﷺ هو الذي أمرهم بذلك ، وأما رواية الضم ، فيحتمل أن تكون عائشة هي التي خشيت كما في لفظ آخر ، غير أني أخشى . أو هي ومن معها من الصحابة . قلت : وهذا أظهر ورواية : غير أني أخشى ، لا تخالفه .

قال القرطبي : ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ ، فأعلوا حيطان تربته ، وسدوا المداخل إليها ، وجعلوها محدة بقبره ﷺ ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين ، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة ، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين ، وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره .

قلت : وفي الحديثين مسائل نبه المصنف على بعضها . منها : ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه على قبر رجل صالح ، ولوصحت نية الفاعل . ومنها : النهي عن التمايل بتخليط الأمر . ومنها : نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر . ومنها : أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم . ومنها : لعنه إياهم على ذلك . ومنها : مراده بذلك

تحذيره إيانا عن قبره ، ومنها : العلة في عدم إبراز قبره ، ومنها : ما يلي به ﷺ من شدة النزع .

قلت : ومنها التنبيه على علة تحريم ذلك ، وعلة لعن من فعله .

قال : ولمسلم : عن جندب بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : « إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولو كنت متخذاً من أممي خليلاً لا اتخذت أباً بكر خليلاً ، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إني أنهاكم عن ذلك » فقد نهى عنه وهو في آخر حياته ، ثم إله لعن - وهو في السياق - من فعله ، والصلاة عندها من ذلك ، وإن لم يبين مسجداً ، وهو معنى قوله : أخشى أن يتخذ مسجداً ، فات الصحابة لم يكونوا لينبوا حول قبره مسجداً . وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً ، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً كما قال ﷺ : « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » .

ش : قوله : عن جندب بن عبد الله . أي : ابن سفيان البجلي أبو عبد الله ، وينسب إلى جده ، صحابي مشهور مات بعد الستين .

قوله : إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، أي : أمتنع من هذا وأنكره . والخليل : هو المحبوب غاية المحبة ، مشتق من الخلّة بفتح الحاء وهي تخلل المودة في القلب ، كما قال الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلاً

هذا هو الصحيح في معناه ، كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وغيرهم .

قال القرطبي : وإنما كان ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله ، وتعظيمه ومعرفته ، فلا يسع لخالة غيره .

قوله : فإن الله قد اتخذني خليلاً . فيه التصريح بأن الحلة أكمل من المحبة قال ابن القيم : وأما ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبة أكمل من الحلة ، وأن إبراهيم خليل الله ، وعبد ﷺ حبيب الله ، فمن جهلهم ، فإن المحبة عامة والحلة خاصة ، وهي نهاية المحبة ، قال : وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد اتخذته خليلاً ، ونفى أن يكون له خليل غير ربه ، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب رضي الله عنهم وغيرهم . وأيضاً فإن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ويحب الصابرين ، وخلته خاصة بالخليلين . وفيه جواز ذكر الإنسان ما فيه من الفضل إذا دعت الحاجة الشرعية إلى ذلك .

قوله : « ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً » فيه دليل على أن الصديق أفضل الصعابة ، حيث صرح ﷺ أنه لو اتخذ خليلاً غير ربه ، لاتخذ أبا بكر ، ففيه رد على الرافضة وعلى الجهمية الذين هم شر أهل البدع ، بل أخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة . وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور ، وهم أول من بنى عليها المساجد قاتلهم الله ، قاله المصنف . وفيه إشارة إلى خلافته ، لأن من كانت محبته لشخص أشد ، فهو أحق الناس بالنيابة عنه ، لاسيما وقد قال

ذلك في مرض موته ، خصوصاً وقد استخلفه على الصلاة بالناس ، وغضب
لما صلى بهم عمر .

واسم أبي بكر : عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن
سعد بن قيس بن مرة ، الصديق الأكبر ، خليفة رسول الله ﷺ ، وأفضل
الصحابة بإجماع من يعتد به من أهل السنة ، مات في جمادى الأولى سنة
ثلاث عشرة ، وله ثلاث وستون سنة .

قوله : ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، إلى
آخر الحديث . قال الخليلي : وإنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا يخرج على
وجهين ، أحدهما : أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لهم ، والثاني :
أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء والسجود في مقابرهم ، والتوجه إليها
حالة الصلاة نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله ، والمبالغة في تعظيم الأنبياء .
والأول هو الشرك الجلي ، والثاني الخفي ، فلذلك استحقوا اللعن .

قلت : الحديث أعم من ذلك ، فيشمه ويشمل بناء المساجد والقباب
عليها .

قوله : فقد نهى عنه في آخر حياته ، أي : كما في حديث جندب .
قوله : ثم إنه لعن - وهو في السياق - من فعله ، أي : كما في
حديث عائشة .

قوله : والصلاة عندها من ذلك ، وإن لم يكن مسجداً ، يعني : أن
الصلاة عند القبور وإليها من اتخاذها مساجد الملعون من فعله ، وإن لم
يكن مسجداً ، فتحرم الصلاة في المقبرة وإلى القبور ، بل لا تعتقد أصلاً لما

في هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها ، من لعن من اتخذها مساجد .
وروى مسلم عن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه قال : قال رسول
الله ﷺ : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » وعن أبي سعيد
الخدري مرفوعاً « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام » ، رواه أحمد
وأهل السنن ، وصححه ابن حبان والحاكم من طرق على شرط الشيخين ،
وفي « صحيح البخاري » أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أنس بن مالك
يصلي عند قبر فقال : القبر القبر . وهذا يدل على أنه كان من المستقر
عند الصحابة ما نهى الله عنهم ﷺ ، من الصلاة عند القبور . وفعل أنس
لا يدل على اعتقاد جوازه ، فإنه لعله لم يره ، ولم يعلم أنه قبر أو ذهل
عنه ، فلما نهى عمر تنبه .

وفي هذا كله إبطال قول من زعم أن النهي عن الصلاة فيها لأجل
النجاسة ، ، فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرسول ﷺ ، بل العلة في ذلك
الخوف على الأمة أن يقعوا فيما وقعت فيه اليهود والنصارى ، وعباد
اللات والعزى من الشرك ، ويدل على ذلك أن النبي ﷺ لعن اليهود
والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد ، ومعلوم قطعاً أن هذا ليس
لأجل النجاسة ، لأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع ، فإن الله حرم على
الأرض أن تأكل أجسادهم ، فهم في قبورهم طريون .

وقد لعن النبي ﷺ متخذي المساجد عليها وموقدي السرج عليها ،
ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما هو لعن فاعله ، لكونه وسيلة إلى
تعظيمها وجعلها نصباً يوفض إليها المشركون كما هو الواقع ، فهكذا اتخاذ
المساجد عليها .

قال ابن القيم : وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه ، ونوائمه ، وفهم عن الرسول ﷺ مقاصده جزم جزماً لا يحتمل النقيض ، أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغتيه : صيغة (لا تفعلوا) وصيغة (إني أنا كرم) ليس لأجل النجاسة ، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه ، وارتكب ما عنه ناه واتبع هواه ولم يخش ربه ومولاه ، وقل نصيبه ، أو عدم من تحقيق لا إله إلا الله ، فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه ، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواء ، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكاباً لنيه ، وغرم الشيطان بأن هذا التعظيم لقبور المشايخ والصالحين ، وكلما كنتم أشد لها تعظيماً ، وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد ، ومن أعدائهم أبعد . ولعمر الله من هذا الباب بعينه دخل على عباد يغوث ويعوق ونسر ، ودخل عباد الأصنام منذ كانوا الى يوم القيامة . فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم ، وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية ، وسلب خصائص الإلهية . قلت : وممن علل بخوف الفتنة والشرك الشافعي وأبو بكر الأنثوم وأبو محمد المقدسي وشيخ الإسلام وغيرهم وهو الحق .

قوله : فإن الصحابة لم يكونوا لينوا حول قبره مسجداً ، أي : لما علموا من تشديده في ذلك وتخليظه ، ولعن من فعله ، فكيف يتخذون على قبره مسجداً ؟ وإنما خشوا أن يعتاده بعض الجاهل للصلاة عنده ، من غير شعور من الصحابة بذلك ، فلذلك دفنوه في بيته .

قوله : وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً ، أي : وإن لم يكن مسجداً .

قوله : بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً ، الظاهر أن الأول في الأمكنة المعدة للصلاة ، وإن لم يكن فيها مسجداً . وهذا في أي موضع صلى فيه ، وإن لم يعد لذلك ، كالمواضع التي يصلي فيها المسافر ونحو ذلك . فعلى هذا إذا صلى عند القبور ولو مرة واحدة وإن لم يكن هناك مسجد ، فقد اتخذها مساجد .

قوله : كما قال ﷺ « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » . أي : فسمي الأرض مسجداً ، وليست مسجداً مبنياً ، لكن لما كانت يسجد فيها سميت مسجداً . فدل هذا الحديث أن من صلى عند القبور أو إليها فقد اتخذها مساجد . وهذا الحديث طرف من حديث صحيح متفق عليه عن جابر .

قال البخاري في « شرح السنة » : أراد أن أهل الكتاب لم تبع لهم الصلاة إلا في بيعهم وكنائسهم ، وأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا ، تخفيفاً عليهم وتيسيراً ، ثم خص من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس .

وقوله : طهوراً . أراد به التيمم . وفي حديث جندب من الفوائد أيضاً ، العبرة في مبالغة ﷺ في النهي عن بناء المساجد على القبور ، كيف بين لهم ذلك أولاً ، ثم قبل موته بخمس قال ما قال ، ثم لما كان في النزاع لم يكتف بما تقدم ، بل لعن من فعل ذلك . فدل ذلك هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة على تحريم البناء على القبور مطلقاً ، فلذلك اكتفى المصنف بإيرادها عن غيرها ، كحديث جابر أن النبي ﷺ نهى أن يحصص القبر ، وأن يقعد

عليه وأن يبنى عليه . رواه مسلم وغيره وزاد أبو داود والحاكم : وأن يكتب عليه .

قال : ولأحمد بسند جيد ، عن ابن مسعود مرفوعاً « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » رواه أبو حاتم في « صحيحه » .

ش : قوله : إن من شرار الناس . هو بكسر الشين جمع شر .

قوله : من تدركهم الساعة وهم أحياء . أي : من تقوم عليهم الساعة بحيث ينفخ في الصور وهم أحياء ، وهذا كحديثه الآخر الذي في مسلم « لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق » .

فإن قلت : ما الجمع بين هذا وبين حديث ثوبان : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ، وما في معناه » .

قيل : حديث ثوبان مستغرق للأزمة ، عام فيها ، وهذا مخصص وسيأتي زيادة لذلك عند الكلام على حديث ثوبان إن شاء الله تعالى .

قوله : والذين يتخذون القبور مساجد . « الذين » في محل نصب عطفاً على « من » الموصولة ، أي : إن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد ، بالصلاة عندها وإليها ، وبناء المساجد عليها . وهذا المعنى متواتر عن النبي ﷺ ، معلوم بالاضطرار من دينه . وكل ذلك شفقة على الأمة وخوفاً عليهم أن يقودهم ذلك إلى الشرك بها وبأصحابها ، كما قاد إلى ذلك اليهود والنصارى . فأبى عباد القبور إلا الضرب بهذه الأحاديث الجدار ونبذها وراء الظهر ، أو الدفع في صدورهم وأعجازها بحمل ذلك على غير قبور

الأنبياء والصالحين . أما قبورهم فتجوز الصلاة اليها وعندها ، وبناء المساجد والقباب عليها رجاء أن تصل اليهم العواطف الروحانية . ولا ريب أن هذا مراغة ومحادثة لله ورسوله ، وهذا هو قول اليهود : (سمعنا وعصينا) [النساء : ٤٦] فإن النبي ﷺ إنما لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، كما هو نص حديث عائشة رضي الله عنها وغيره ، وقبور غيرهم إنما أخذ النهي عن البناء عليها من هذه الأحاديث ونحوها بقياس الأولى ، أو من عموم أحاديث آخر ، فمن أعظم المراغة والمناسبة والمحادثة لله ورسوله ، أن تحمل على غير ما وردت فيه ، ويباح ما وردت بالنهي عنه ، ولعن من فعله ، ولكن هذا شأن عباد القبور (إنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين) [القصص : ٥١] .

وقد أجمع العلماء على النهي عن البناء على القبور وتحريمه ووجوب هدمه لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة التي لا مطعن فيها بوجه من الوجوه ، ولا فرق في ذلك بين البناء في مقبرة مسبلة ، أو مملوكة ، إلا أنه في المملوكة أشد . ولا عبرة بمن شذ من المتأخرين فأباح ذلك ، إما مطلقاً ، وإما في المملوكة .

قال الإمام أبو محمد بن قدامة : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لأن النبي ﷺ قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا . ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب اليها ، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم والتمسح بها والصلاة عندها .

وقال شيخ الاسلام : أما بناء المساجد على القبور ، فقد صرح عامة علماء

الطوائف بالنهي عنه متابعة للأحاديث الصحيحة ، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي ، بتحريمه قال : ولا ريب في القطع بتحريمه ، ثم ذكر الأحاديث في ذلك ... إلى أن قال : فهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين ، أو الملوك وغيرهم ، تتعين إزالتها بهدم أو بغيره هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين .

وقال ابن القيم : يجب هدم القباب التي على القبور ، لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ . وقال أبو حفص : تحرم الحجرة بل تهدم . فإذا كان هذا كلامه في الحجرة فكيف بالقبة . وقال الشافعي : أكره أن يعظم مخلوق ، حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه ، وعلى من بعده من الناس . وقال أيضاً : تسطح القبور ولا تبنى ولا ترفع ، وتكون على وجه الأرض . وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة من الأبنية ، منهم ابن الجيزي والظاهر الترميني وغيرهما . وقال القاضي ابن كج : ولا يجوز أن تجصص القبور ، ولا أن يبنى عليها قباب ولا غير قباب ، والوصية بها باطلة . وقال الأذري : وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية العظيمة ، وإنفاق الأموال الكثيرة ، فلا ريب في تحريمه . قلت : وجزم النووي في « شرح المذهب » بتحريم البناء مطلقاً ، وذكر في « شرح مسلم » نحوه أيضاً . وقال القرطبي في حديث جابر : نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه ، وبظاهر هذا الحديث قال مالك ، وكره البناء والجلس على القبور ، وقد أجازته غيره ، وهذا الحديث حجة عليه ، ووجه النهي عن البناء والتجصيص في القبور أن ذلك مباهاة ، واستعمال زينة الدنيا في أول منازل الآخرة ، وتشبه بمن كان يعبد القبور ويعظمها ، وباعتبار هذه المعاني وبظاهر هذا

النص ينبغي أن يقال : هو حرام كما قال به بعض أهل العلم . وقال ابن مرشد : كره مالك البناء على القبر ، وجعل البلاطة المكتوبة ، وهو من بدع أهل الطول ، أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة ، وهو بما لا اختلاف فيه . وقال الزيلعي في « شرح الكنز » : ويكره أن يبنى على القبر . وفي « الخلاصة » ولا يخصص القبر ولا يطين ، ولا يرفع عليه بناء . وذكر أيضاً قاضي خان أنه لا يخصص القبر ، ولا يبنى عليه ، لما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن التخصيص وعن البناء فوق القبر ، والمراد بالكراهة عند الحنفية كراهة التحريم التي هي في مقابلة ترك الواجب . وقد ذكر ذلك ابن نجيم في « شرح الكنز » . ومثل هذا كثير في كلام العلماء أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم ، والمقصود أن كلام العلماء موافق لما دلت عليه السنة الصحيحة في النهي عن البناء على القبور .

واعلم أنه قد وقع بسبب البناء على القبور من المفسدات التي لا يحيط بها على التفصيل إلا الله ما يغضب من أجله كل من في قلبه رائحة إيمان ، كما نبه عليه ابن القيم وغيره .

فمنها اعتيادها للصلاة عندها ، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك . ومنها تحري الدعاء عندها . ويقولون : من دعا الله عند قبر فلان استجاب له ، وقبر فلان الترياق المجرب ، وهذا بدعة منكورة .

ومنها ظنهم أن لها خصوصيات بأنفسها في دفع البلاء وجلب النعماء . ويقولون : إن البلاء يدفع عن أهل البلدان بقبور من فيها من الصالحين ، ولا ريب أن هذا مخالف للكتاب والسنة والإجماع . فاليتم المقدس كان عنده من قبور الأنبياء والصالحين ما شاء الله ، فلما عصوا الرسول وخالفوا

ما أمرهم الله به ، سلط الله عليهم من انتقم منهم . وكذلك أهل المدينة لما تغيروا بعض التغير ، جرى عليهم عام الحرة من النهب والقتل وغير ذلك من المصائب ما لم يحجر عليهم قبل ذلك . وهذا أكثر من أن يحصر .

ومنها الدخول في لعنة رسول الله ﷺ ، باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها ، ومنها أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد ، وخراب المساجد ، كما هو الواقع ، ودين الله بضد ذلك .

ومنها اجتماعهم لزيارتها واختلاط النساء بالرجال ، وما يقع في ضمن ذلك من الفواحش وترك الصلوات ، ويزعمون أن صاحب التربة تحملها عنهم ، بل اشتهر أن البغايا يسقطن أجرتهم على البغاء في أيام زيارة المشايخ ، كالبدوي وغيره تقرباً إلى الله بذلك ، فهل بعد هذا في الكفر غاية .

ومنها كسوتها بالثياب النفيسة المنسوجة بالحرير والذهب والفضة ونحو ذلك .

ومنها جعل الخزائن والأموال ووقف الوقوف لما يحتاج إليه من ترميمها ونحو ذلك .

ومنها إهداء الأموال ونذر النذور ولسدنها العاكفين عليها الذين هم أصل كل بلية وكفر ، فإنهم الذين يكذبون على الجبال والطغام بأن فلاناً دعا صاحب التربة فأجابه ، واستغاثه فأغاثه ، ومرادهم بذلك تكثير النذر والهدايا لهم .

ومنها جعل السدنة لها كسدنة عباد الأصنام .

ومنها الإقسام على الله في الدعاء بالمدفون فيها .

ومنها أن كثيراً من الزوار إذا رأى البناء الذي على قبر صاحب التربة سجد له .

ولاريب أن هذا كفر بنص الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، بل هذا هو عبادة الأوثان ، لأن السجود للقبّة عبادة لها ، وهو من جنس عبادة النصارى للصور التي في كنائسهم على صور من يعبدونه بزعمهم الباطل ، فإنهم عبدوها ومن هي صورته ، وكذلك عباد القبور لما بنوا القباب على القبور آل بهم إلى أن عبدت القباب ومن بنيت عليه من دون الله عز وجل .

ومنها النذر للمدفون فيها ، وفرض نصيب من المال والولد ، وهذا هو الذي قال الله فيه : (وجعلوا لله بما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) [الأنعام : ١٣٧] بل هذا أبلغ فإن المشركين ما كانوا يبيعون أولادهم لأوثانهم .

ومنها أن المدفون فيها أعظم في قلوب عباد القبور من الله وأخوف ، ولهذا لو طلبت من أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الأيمان كاذباً أو صادقاً ، وإذا طلبت بصاحب التربة لم يقدم إن كان كاذباً . ولاريب أن عباد الأوثان ما بلغ شركهم إلى هذا الحد ، بل كانوا إذا أرادوا تغليظ اليمين ، غلظوها بالله كما في قصة القسامة وغيرها .

ومنها سؤال الميت قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، والإخلاص له من دون الله في أكثر الحالات .

ومنها التضرع عند مصارع الأموات والبكاء بالهية والخشوع لمن فيها أعظم مما يفعلونه مع الله في المساجد والصلوات .

ومنها تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله وهي المساجد ، فيعتقدون أن العبادة والعكوف فيها أفضل من العبادة والعكوف في المساجد ، وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين ، فإنهم يعظمون المسجد الحرام أعظم من بيوت الأصنام يرون فضله عليها ، وهؤلاء يرون العكوف في المشاهد أفضل من العكوف في المساجد .

ومنها أن الذي شرعه الرسول ﷺ في زيارة القبور إنما هو تذكرة الآخرة ، كما قال : « زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة » والإحسان إلى المزور بالترحم عليه ، والدعاء له والاستغفار ، وسؤال العافية له ، فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت ، فقلب عباد القبور الأمر ، وعكسوا الدين ، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعائه والدعاء به ، وسؤاله حوائجهم ونصرهم على الأعداء ونحو ذلك . فصاروا مسيئين إلى نفوسهم وإلى الميت ولولم يكن إلا بحرماته بركة ما شرعه الله من الدعاء والترحم عليه والاستغفار له .

ومنها إيذاء أصحابها بما يفعله عباد القبور بها ، فإنه يؤذيهم ما يفعلونه عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهة ، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى ، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم ، ويوم القيامة يتبرؤن منهم كما قال تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) [الأحقاف : ٦ - ٧] .

ومنها محادة الله ورسوله ومناقضة ما شرعه فيها . ومنها التعب العظيم مع الوزر الكبير ، والإثم العظيم ، وكل هذه المفاصد العظيمة وغيرها مما لم يذكر ، إنما حدثت بسبب البناء على القبور ، ولهذا تجدد القبور التي ليس عليها قباب لا يأتيا أحد ولا يعتادها شيء مما ذكر إلا ما شاء الله ، وصاحب الشرع أعلم بما يؤول إليه هذا الأمر ، فذلك غلظ فيه وأبدأ وأعاد ، ولعن من فعله ، فالحير والهدى في طاعته ، والشر والضلال في معصيته ومخالفته . والعجب بمن يشاهد هذه المفاصد العظيمة عند القبور ، ثم يظن أن النبي ﷺ إنما نهى عن اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة ، كما يظنه بعض متأخري الفقهاء ، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر المجازر والحشوش بل ذكر التحرز من البول والغائط أولى . وإنما ذلك لأجل نجاسة الشرك التي وقعت من عباد القبور لما خالفوا ذلك ونهضوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون .

باب

ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله
ش : أراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة أموراً : الأول : التحذير من الغلو في قبور الصالحين . الثاني : أن الغلو فيها يؤول إلى عبادتها . الثالث : أنها إذا عبدت سميت أوثاناً ولو كانت قبور الصالحين . الرابع : التنبيه على العملة في المنع من البناء عليها واتخاذها مساجد . والأوثنان هي المعبودات التي لا صرورة لها ، كالقبور والأشجار والعمد والحيطان والأحجار ونحوها ، وقد تقدم بيان ذلك . وقيل : الوثن هو الصنم ، والصنم هو

الوثن ، وهذا غير صحيح إلا مع التجريد ، فأحدهما قد يعنى به الآخر ،
وأما مع الاقتران ، فيفسر كل واحد بمعناه .

قال : روى مالك في « الموطأ » أن رسول الله ﷺ قال :
« اللهم لاتجعل قبوري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور
أنبيائهم مساجد » .

ش : هذا الحديث رواه مالك في « باب جامع الصلاة » مرسلان ،
زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قاله . ورواه ابن أبي شيبة
في « مصنفه » عن أبي خالد الأحمر عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم به
ولم يذكر عطاء . ورواه البزار عن عمر بن محمد عن زيد عن عطاء عن
أبي سعيد الخدري مرفوعاً ، وعمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن
الخطاب ثقة من أشراف أهل المدينة روى عنه مالك والثوري وسليمان بن
بلال ، فالحديث صحيح عند من يحتج بمواسيل الثقات . وعند من قال
بالمسند لإسناد عمر بن محمد له بلفظ « الموطأ » سواء ، وهو ممن تقبل
زيادته . وله شاهد عند الإمام أحمد والعقيلي من طريق سفيان عن حمزة
ابن المغيرة عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رفعه :
« اللهم لاتجعل قبوري وثناً يعبد ، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم
مساجد » .

قوله : روى مالك في « الموطأ » هو الإمام مالك بن أنس بن مالك
ابن أبي عامر بن عمر الأصبحي أبو عبد الله المدني الفقيه ، إمام دار الهجرة
وأحد الأئمة الأربعة ، وأحد المتقنين في الحديث ، حتى قال البخاري :
أصح الأسانيد كلها : مالك عن نافع عن ابن عمر . مات سنة تسع وسبعين

ومائة . وكان مولده سنة ثلاث وتسعين . وقال الواقدي : بلغ تسعين سنة .
قوله : اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد . قد استجاب الله دعاء
رسوله ﷺ ، فمنع الناس من الوصول إلى قبره لئلا يعبد استجابة لدعاء
رسوله ﷺ كما قال ابن القيم : فأجاب رب العالمين دعاءه ، وأحاطه بثلاثة
من الجدران . ودل الحديث على أن قبر الرسول ﷺ لو عبد لكان وثناً ،
فما ظنك بقبر غيره من القبور التي عبدت هي وأربابها من دون الله ،
وإذا أريد تغيير شيء من ذلك أنف عبادها ، واشتأزت قلوبهم ، واستكبرت
نفوسهم ، وقالوا : تنقص أهل الرتب العالية ، ورموم بالعظام ، فماذا
يقولون لو قيل لهم : إنها أوثان تعبد من دون الله ؟ ! فאלله المستعان على
غربة الإسلام ، وهذه هي الفتنة العظمى التي قال فيها عبد الله بن مسعود :
كيف أنتم إذا لبستم فتنة يرم فيها الكبير ، وينشأ فيها الصغير ،
تجري على الناس يتخذونها سنة ، إذا غيوت قيل : غيوت السنة .

ويؤخذ من الحديث المنع من تتبع آثار الأنبياء والصالحين كقبورهم
وبجاسمهم ، ومواضع صلاتهم للصلاة ، والدعاء عندها ، فإن ذلك من
البدع ، أنكره السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم . ولا نعلم أحداً
أجازاه أو فعله إلا ابن عمر على وجه غير معروف عند عباد القبور ، وهو
إرادة التشبه برسول الله ﷺ في الصلاة فيما صلى فيه ونحو ذلك . ومع
ذلك فلا نعلم أحداً وافقه عليه من الصحابة ، بل خالفه أبوه وغيره ، لئلا يفضي
ذلك إلى اتخاذها أوثاناً كما وقع . قال ابن عبد الباقي في « شرح الموطأ » ،
روى أشهب عن مالك أنه كره لذلك أن يدفن في المسجد قال : وإذا
منع من ذلك فسائر آثاره أخرى بذلك . وقد كره مالك طلب موضع شجرة
بيعة الرضوان مخالفة لليهود والنصارى . انتهى .

وقال ابن وضاح : سمعت عيسى بن يونس يقول : أمر عمر بن الخطاب
بقطع الشجرة التي يبيع تحتها النبي ﷺ فقطعها ، لأن الناس كانوا يذهبون
فيصلون تحتها ، فخاف عليهم الفتنة . قال عيسى بن يونس : وهو عندنا
من حديث ابن عون عن نافع : أن الناس كانوا يأتون الشجرة فقطعها
عمر رضي الله عنه .

وقال المعرور بن سويد : صليت مع عمر بن الخطاب في طريق مكة
صلاة الصبح ، فقرأ فيها (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل)
[الفيل : ٢] و (لإيلاف قريش) [قريش : ٢] ثم رأى الناس
يذهبون مذاهب فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين مسجد
صلى فيه رسول الله ﷺ فهم يصلون فيه ، فقال : إنما أهلك من كان قبلكم
بمثل هذا ، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ، ويتخذونها كنائس وبيعاً ، فمن
أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل ، ومن لا فليمض ولا يتعمدها . وفي
« مغازي ابن إسحاق » من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة :
خالد بن دينار ، حدثنا أبو العالية قال : لما فتحنا تستر وجدنا في بيت
مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف
فعملناه إلى عمر ، فدعا له كعباً ففسخه بالعربية ، فأنا أول رجل قرأه من
العرب ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن ، فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟
قال : سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم ، وما هو كائن بعد . قلت :
فما صنعتُم بالرجل ؟ قال : حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة ، فلما
كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينبشونه قلت :
وما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره

فيسطرون . فقلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له : دانيال .
فقلت : منذ كم وجدتموه مات ؟ قال : منذ ثلاث مائة سنة . قلت :
ما كان تغير منه شيء ؟ قال : لا إلا شعيرات من قفاه ، إن لحوم
الأنبياء لا تبليها الأرض .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون
والأنصار من تعمية قبره لئلا يفتن به ، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك
به ، ولو ظفر به المتأخرون جالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دوت
الله . قال شيخ الإسلام رحمه الله : وهو إنكار منهم لذلك ، فمن قصد
بقعة يرجو الخير بقصدها ولم يستحب الشارع قصدها ، فهو من المنكرات ،
وبعضه أشد من بعض ، سواء قصدها ليصلي عندها ، أو يدعو عندها أو
ليقرأ عندها ، أو ليدكر الله عندها ، أو ليسكن عندها بحيث يخص تلك
البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيصها به لا نوعاً ولا عيناً ، لأن
ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها ، كمن يدعو الله في طريقه ،
ويتفق أن يمر في طريقه بالقبور أو كمن يزورها ويسلم عليها ، ويسأل الله
العافية له وللموتى كما جاءت به السنة ، فإن ذلك ونحوه لا بأس به .

وأما تحري الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه
في غيره ، فهذا هو المنهي عنه . والفرق بين النوعين ظاهر ، فإن الرجل
لو كان يدعو الله واجتاز في ممره بصنم أو صليب أو كنيسة أو دخل
إليها لبيت فيها مبيتاً جائزاً ودعا الله في الليل ، أو أتى بعض أصدقائه
ودعا الله في بيته لم يكن بهذا بأس . ولو تحرى الدعاء عند هذه المواضع
لكان من العظام بل قد يكون كفراً .

قوله : اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . هذه الجملة بعد الأولى تلييه على سبب لحوق اللعن بهم ، وهو توسلهم بذلك إلى أن تصير أوثاناً تعبد . ففيه إشارة إلى ما ترجم له المصنف ، وفيه تحريم البناء على القبور ، وتحريم الصلاة عندها . وقد روى أصحاب مالك عنه أنه كره أن يقول القائل : زرت قبر النبي ﷺ . وعلل وجه الكراهة بقوله : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » فكره إضافة هذا اللفظ إلى القبر لئلا يقع التشبه بفعل أولئك سداً للذريعة ، وحسماً للباب . ذكره الطبري . وفيه أنه ﷺ لم يستعذ إلا بما يخاف وقوعه . ذكره المصنف .

قال : ولا بن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد (أفروايتم اللات والعزى) [النجم : ٢٠] قال : كان يلت لهم السوق فمات ، فعكفوا على قبره . وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس : كان يلت السوق للحاج .

ش : قوله : ولا بن جرير . هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبري صاحب « التفسير » و « التاريخ » وغيرهما . قال ابن خزيمة : لا أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير ، وكان من الأئمة المجتهدين ، لا يقلد أحداً وله أصحاب يتفقون على مذهبه . ولد سنة أربع وعشرين ومائتين ، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة .

قوله : عن سفيان . هو أحد السفينين ؛ إما ابن عيينة وإما الثوري ، فإن كان ابن عيينة فقد تقدمت ترجمته ، وإن كان الثوري وهو الاظهر فهو سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله الكوفي ، ثقة حافظ فقيه

إمام حجة عابد . وكان مجتهداً ، له أتباع وأصحاب يتفقهون على مذهبه .
مات سنة إحدى وستين ومائة ، وله أربع وستون سنة .

قوله : عن منصور . هو ابن المعتز بن عبد الله السلمي أبو عتاب
- بثناة ثقيلة ثم موحدة - الكوفي ، ثقة ثبت فقيه . مات سنة اثنتين
وثلاثين ومائة .

قوله : عن مجاهد هو ابن جبر - بالجيم والموحدة - أبو الحجاج الخزومي
مولاهم المكي ، ثقة إمام في التفسير والعلم ، أخذ التفسير عن ابن عباس
وغيره . مات سنة أربع ومائة ، قاله يحيى القطان ، وقال ابن حبان :
مات سنة اثنتين أو ثلاث ومائة وهو ساجد ، وكان مولده سنة إحدى
وعشرين في خلافة عمر رضي الله عنه .

قوله : كان يلت لهم السوق فمات ، فعكفوا على قبره . لت السوق
هو خلطه بسمن ونحوه . وقد قيل : إن إمام الرجل صرمة بن غنم ،
وعن ابن عباس : كان يلت السوق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا
سمن فعبدوه ، رواه ابن أبي حاتم . وعن مجاهد : كان اللات رجلاً في
الجاهلية ، وكان له غنم فكان يسلو من رسلها ويأخذ من زبيب الطائف
والأقط ، فيجعل منه حيساً ويطعم من يمر من الناس ، فلما مات
عبدوه وقالوا : هو اللات . وكان يقرأ اللات مشددة ، رواه سعيد بن
منصور والفاكهي .

قوله : وكذا قال أبو الجوزاء : إلى آخره . هو أوس بن عبد الله
الربيعي ، بفتح الراء والباء ، ثقة مشهور ، مات سنة ثلاث وثمانين . وهذا
الأثر ذكره المصنف ولم يعزه ، وقد رواه البخاري ، ولا تخالف بين هذا

التفسير والقراءة وبين قراءة من قرأ بالتخفيف . وقال : إنه كان حجراً فعبده ، واشتقوا له من اسم الله الإله ، كما تقدم تقريره في باب : من تبرك بشجرة . وايضاً فيجاب على الأول بأن أصله التشديد ، وخفف لكثرة الاستعمال ، وأما كونهم اشتقوا هذا الاسم من اسم الله الإله ، فلا ينافي ذلك أيضاً ، فقد رأيت أن سبب عبادة اللات هو الغلو في قبره حتى صار وثناً يعبد ، كما كان ذلك هو السبب في عبادة الصالحين : ود سواع ويغوث ويعوق ونسر وغيرهم ، وكما كان ذلك هو السبب في عبادة الصالحين من الأموات وغيرهم اليوم ، فإنهم غلوا فيهم ، وبنوا على قبورهم القباب والمشاهد ، وجعلوها ملاذاً لقضاء المآرب .

وبالجملة فالغلو أصل الشرك في الأولين والآخرين إلى يوم القيامة . وقد أمرنا الله تعالى بحبة أوليائه وإنزالهم منازلهم من العبودية ، وسلب خصائص الإلهية عنهم ، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم ، ونهانا عن الغلو فيهم ، فلا نرفعهم فوق منزلتهم ، ولا نخطئهم منها لما يعلمه تعالى في ذلك من الفساد العظيم ، فما وقع الشرك إلا بسبب الغلو فيهم ، فإن الشرك بهم غلو فيهم ، وأنزلوهم منازل الإلهية ، وعصوا أمرهم ، وتنقصوهم في صورة التعظيم لهم ، فتجد أكثر هؤلاء الغالين فيهم ، العاكفين على قبورهم ، معرضين عن طريقة من فيها وهدية وسلته ، عاثين لها مشغلين بقبورهم عما أمروا به ودعوا إليه . وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما هي ناتجة ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح ، واقتفاء آثارهم ، وسلوك طريقهم . ومن عبادتهم وعبادة قبورهم ، والعكوف عليها كالذين يعكفون على الأصنام واتخاذها أعياداً وجامع للزيارات والفواحش وترك الصلوات ، فإن من اقتفى آثارهم كان متسبباً في كثير

أجورهم باتباعه لهم ، ودعوته الناس إلى اتباعهم ؛ فإذا أعرض عما دعوا إليه واشتغل بضده حرم نفسه وحرّمهم ذلك الأجر . فأي تعظيم لهم واحترام في هذا . .

قال . وعن ابن عباس قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » . رواه أهل السنن .

ش : قوله : لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور . أي : من النساء وهذا يدل على تحريم زيارة القبور عليهن كما هو مذهب أحمد وطائفة . وقيل في تعليل ذلك : إنه يخرجها إلى الجزع والندب والنياحة والافتتان بها وبصورتها وتؤدي الميت بيكاتها ، كما في حديث آخر : « فإنكن تفتن الحي وتؤذين الميت » ، وإذا كان زيارة النساء مظنة وسبباً للأمر المحرمة في حقهن وحق الرجال ، وتقدير ذلك غير مضبوط ، لأنه لا يمكن حد المقدار الذي لا يفضي إلى ذلك ولا التمييز بين نوع ونوع .

ومن أصول الشريعة أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها ، فتعوم سداً للذريعة ، كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة لما في ذلك من الفتنة ، وكما حرمت الخلوة بالأجنبية ، وليس في زيارتها من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة ، لأنه ليس في زيارتها إلا دعواها للميت أو اعتبارها به ، وذلك ممكن في بيتها .

وقد روى الامام أحمد وابن ماجه والحاكم عن حسان بن ثابت مرفوعاً : « لعن الله زوارات القبور » ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور . رواه أحمد وابن ماجه ، والترمذي وصححه ، وضعفه عبد الحق ، وحسنه ابن القطان . ولا يعارض هذا حديث : « كنت نهيتكم

عن زيارة القبور فزوروه ، رواه مسلم وغيره . لأن هذا إن سلم دخول النساء فيه ، فهو عام والأول خاص ، والخاص مقدم عليه ، وأيضاً ففي دخول النساء في خطاب الذكور خلاف عند الأصوليين .

قوله : « والمتخذين عليها المساجد » تقدم في الباب قبله شرحه وتعليقه .

قوله : والسرج . هذا دليل على تحريم اتخاذ السرج على القبور . قال أبو محمد المقدسي : لو أبيع اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله ، لأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة ، وإفراطاً في تعظيم القبور ، أشبه تعظيم الأصنام .

وقال ابن القيم : اتخذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر . ووجه إيراد المصنف هذا الحديث في هذا الباب دون الذي قبله ، هو أنه لعن المتخذين عليها المساجد والسرج ، وقرن بينهما ، فهما قرينان في اللعنة ، فدل ذلك على أنه ليس المنع من اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة ، بل لأجل نجاسة الشرك ، ولذلك قرن بينه وبين من لا سراج عليها ، وليس النهي عن الإسراج لأجل النجاسة ، فكذلك البناء .

قوله : رواه أهل « السنن » يعني هنا أبا داود ، وابن ماجه ، والترمذي فقط ، ولم يروه النسائي .

باب

ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك .

الجناب : هو الجانب . واعلم أن في الأبواب المتقدمة شيئاً من حمايته ﷺ لجناب التوحيد ، ولكن أراد المصنف هنا بيان حمايته الخاصة . ولقد بالغ ﷺ ، وحذر وأنذر ، وأبدأ وأعاد ، وخص وعم في حماية الحنيفية

السمعة التي بعثه الله بها ، فهي حنيئة في التوحيد ، سمجة في العمل ، كما قال بعض العلماء : هي أشد الشرائع في التوحيد والابعاد عن الشرك ، وأصح الشرائع في العمل .

قال : وقوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) [التوبة : ١٣٠]
ش : قوله : « لقد جاءكم رسول » هذا خطاب من الله تعالى للعرب في قول الجمهور ، وهذا على جهة تعديده نعمه عليهم ، إذ جاءهم بلسانهم ، وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة ، وشرفوا به أبد الآبدين .

وقوله : رسول ، أي : رسول عظيم أرسله الله إليكم من أنفسكم ، أي : ترجعون معه إلى نفس واحدة ، لأنه وأنتم من أب قريب ، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : (ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) [البقرة : ١٣٠] وذلك أقرب وأسرع إلى فهم الحجة ، وأبعد من المحك والبجاجة ، وهذا يقتضي مدحا لنسب النبي ﷺ ، وأنه من صميم العرب .

قال جعفر بن محمد في قوله (من أنفسكم) قال : لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية .

وقوله : (عزيز عليه) أي : شديد عليه جدا ماعنم ، أي : عنتكم وهو لحاق الأذى الذي يضيق به الصدر ، ولا يتندي للمخرج ، وهي هنا لفظ عام أي : ماشق عليكم من كفر وضلال وقتل وأسر وامتحان بسبب الحق . و « ما » مصدرية وهي مبتدأ ، و « عزيز » خبر مقدم ، ويجوز أن يكون « ماعنم » فاعلاً بـ « عزيز » و « عزيز » صفة للرسول ، وهذا أصوب .

وقوله : (حريص عليكم) أي : بليغ الحرص عليكم ، أي : على نفعكم وإيمانكم وهداكم . والحرص : شدة طلب الشيء على الاجتهاد فيه .

وروى الطبراني بإسناد جيد عن أبي ذر رضي الله عنه . قال : تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الموى إلا وهو يذكر لنا منه علماً . قال : وقال : « ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم » .

وروى مسلم في « صحيحه » عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من لي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبهن فيتقحمن فيها قال : « فذلك مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار . هلم عن النار ، هلم عن النار ، فتغلبوني وتقعمون فيها » .

وقوله : (بالمؤمنين) أي : لابغيوهم ، كما يفيد تقديم الجار رؤوف ، أي : بليغ الشفقة . قال أبو عبيدة : الرأفة أرق الرحمة (رحيم) . أي : بليغ الرحمة ، كما هو اللائق بشريف منصبه ، وعظيم خلقه ، فتأمل هذه الآية وما فيها من أوصافه الكريمة ومحاسنه الجملة التي تقتضي أن ينصح لأمته ، وبليغ البلاغ المبين ، ويسد الطرق الموصلة إلى الشرك ، ويحمي جناب التوحيد غاية الحماية ، ويبالغ أشد المبالغة في ذلك لئلا تقع الأمة في الشرك ، وأعظم ذلك الفتنة بالقبور ، فإن الغلو فيها هو الذي جر الناس في قديم الزمان وحديثه إلى الشرك ، لاجرم فعل النبي ﷺ ذلك ، وحى جناب التوحيد حتى في قبره الذي هو أشرف القبور ، حتى نهى عن جعله عيداً ، ودعا الله أن لا يجعله وثناً يعبد .

وفي الآية مسائل : منها التنبيه على هذه النعمة العظيمة ، وهي إرسال الرسول ﷺ فينا ، كما قال تعالى : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) [عمران : ١٦٥] ومنها كونه منا نعمة أخرى عظيمة ، ومنها كونه بهذه الصفات نعم متعددة ، ومنها مدح نسبة ﷺ ، فهو أشرف العرب بيتا ونسبا ومنها رأفته بالمؤمنين ، ومنها غلظته على الكفار والمنافقين .

قال : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبوري عيداً ، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » ، رواه أبو داود بإسناد حسن . ورواه ثقات .

ش قوله : « لا تجعلوا بيوتكم قبورا » قال شيخ الإسلام نور الله ضريحه : أي : لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور ، فأمر بتعوي العباد في البيوت ، ونهى عن تحريمها عند القبور ، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ، ومن تشبه بهم .

وفي « الصحيحين » عن ابن عمر مرفوعاً « اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً » .

وفي « صحيح مسلم » عن ابن عمر مرفوعاً « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه ، وفيه أن الصلاة في المقبرة لا تجوز ، وأن التطوع في البيت أفضل منه في المسجد . وفي حديث أبي هريرة الذي ذكرنا كراهة القراءة في المقابر ، وكل هذا لإبعاد لأمته عن الشرك .

قوله : « ولا تجعلوا قبوري عيداً » قال شيخ الإسلام : العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد ، عائداً إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك وتقدم ذلك .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : العيد ما يعتاد بحجته وقصده من زمان ومكان ، مأخوذ من المعاودة والاعتیاد ، فإن كان اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيا به للعبادة أو لغيرها ، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة ، كما جعل أيام العيد فيها عيداً ، وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية ، فلما جاء الله بالاسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى ، كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر . وقال غيره : هذا أمر بملزمة قبره والعكوف عنده واعتیاد قصده وانتيا به ، ونهى أن يجعل كالعيد الذي إنما يكون في العام مرة أو مرتين ، فكانه قال : لا تجعلوه كالعيد الذي يكون من الحول إلى الحول ، واقصدوه كل ساعة وكل وقت .

قال ابن القيم رحمه الله : وهذا مراغة ومحاداة ومناقضة لما قصده الرسول ﷺ وقلب للحقائق ، ونسبة الرسول ﷺ إلى التلييس والتدليس بعد التناقض ، فقاتل الله أهل الباطل أنى يؤفكون . ولا ريب أن من أمر الناس باعتیاد أمر وملازمته وكثرة انتيا به بقوله : لا تجعلوا عيداً ، فهو إلى التلييس وضد البيان أقرب منه إلى الدلالة والبيان ، وهكذا غيرت أديان الرسل ، ولولا أن الله أقام لدينه الأنصار والأعوان الذابين عنه ، لجوى عليه ماجرى على الأديان قبله . ولو أراد رسول الله ﷺ ما قاله هؤلاء الضلال

لم ينه عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ، ويلعن فاعل ذلك ، فإنه إذا لعن من اتخذها مساجد يعبد الله فيها ، فكيف يأمر ببلازمتها والعكوف عندها وأن يعتاد قصدها وانتباها ولا تجعل كالعيد الذي يجيء من الحول إلى الحول وكيف يسأل ربه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ، وكيف يقول أعلم الخلق بذلك : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن خشي أن يتخذ مسجداً ، وكيف يقول : لا تجعلوا قبوري عيداً ، وصلوا علي حيثما كنتم ، ؟ ! وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضلال الذين جمعوا بين الشرك والتحريف ؟ ! وهذا أفضل التابعين من أهل بيته علي بن الحسين رضي الله عنها ، نهى ذلك الرجل أن يتحرى الدعاء عند قبره ﷺ ، واستدل بالحديث وهو الذي رواه وسمعه من أبيه الحسين عن جده علي رضي الله عنها ، وهو أعلم بعنايه من هؤلاء الضلال ، وكذلك ابن عمه الحسن بن الحسن شيخ أهل بيته ، كره أن يقصد الرجل القبر إذا لم يكن يريد المسجد ، ورأى أن ذلك من اتخاذ عيداً . انتهى .

قلت : وكيف يريد النبي ﷺ هذا المعنى ويعبر عنه بهذا الكلام ، مع أنه أفصح الخلق وأنصحهم ، وكان يمكنه أن يقول : أكثرُوا زيارة قبوري ، أو اجعلوه عيداً تعتادون المجيء إليه والعبادة عنده ؟ ! فظهر بطلان هذا القول .

إذا تبين ذلك ، فعنى الحديث نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص ، واجتماع معبود كالعيد الذي يكون على وجه مخصوص ، في زمان مخصوص وذلك يدل على المنع في جميع القبور وغيرها ، لأن قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض ، وقد نهى عن اتخاذ عيداً فقبر غيره أولى بالنهي كائناً من كان . قال المصنف : وفيه النهي عن الاكثار من الزيارة .

قوله : « وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » ، قال: شيخ الإسلام : يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبوري وبعدمكم ، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً . انتهى . وقد روى أبو داود عن أبي هريرة مرفوعاً « ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام » وعن أوس بن أوس مرفوعاً « أكثروا من الصلاة علي يوم الجمعة ولية الجمعة فإن صلاتكم معروضة علي » قالوا : يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء » ، رواه أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه . فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أن صلاتنا عليه تبلغه سواء كنا عند قبره أو لم نكن ، فلا مزية لمن سلم عليه أو صلى عند قبره ، كما قال الحسن بن الحسن : ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء .

وأما حديث « من صلى علي عند قبوري سمعته » ، ومن صلى علي غائباً بلغته ، فرواه البيهقي وغيره من حديث العلاء بن عمرو الحنفي : حدثنا أبو عبد الرحمن عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكره . قال البيهقي : أبو عبد الرحمن هذا ، هو محمد بن مروان السدي فيما أرى ، وفيه نظر . قلت : محمد بن مروان السدي الصغير قال فيه يحيى بن معين : ليس بثقة ، وقال الجوزجاني : ذاهب الحديث ، وقال النسائي : متروك الحديث ، وكذلك قال أبو حاتم الرازي والأزدي . وقال صالح بن محمد : كان يضع الحديث على أن معناه صحيح معلوم من أحاديث آخر ، كما يخبره بسماع الموتى لسلام من يسلم عليهم إذا مر على قبورهم .

فان قيل : إذا سمع سلام المسلم عليه عند قبره حصلت المزية بسماعه :
قيل : هذا لو حصل الوصول إلى قبره ، أما وقد منع الناس من
الوصول إليه بثلاثة الجدران ، فلا تحصل مزية ، فسواء سلم عليه عند قبره
أو في مسجده إذا دخله ، أو في أقصى المشرق والمغرب ، فالكل يبلغه ،
كما وردت به الأحاديث ، وليس في شيء منها أنه يسمع صوت المصلي
والمسلم بنفسه ، إنما فيها أن ذلك يعرض عليه ويبلغه ﷺ . ومعلوم أنه
أراد بذلك الصلاة والسلام الذي أمر به الله ، سواء صلى عليه في مسجده
أو في مدينته أو في مكان آخر ، فعلم أن ما أمر الله به من ذلك فإنه
يبلغه ، وأما من سلم عليه عند قبره فإنه يرد عليه وذلك كالسلام على سائر
المؤمنين ليس هو من خصائصه ، ولكن لا يوصل إلى قبره ﷺ .

قال : وعن علي بن الحسين أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت
عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو ؛ فنهاه . وقال ألا أحدثكم
حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال « لا تتخذوا
قبوري عيداً ولا يبرئكم قبوراً ، فان تسليمكم يبلغني أين كنتم »
رواه في « المختارة » .

ش : هذان الحديثان جيدان ، حسنا الاسنادين ، أما الحديث الأول
فرواه أبو داود وغيره من حديث عبد الله بن نافع الصائغ قال : أخبرني
ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة فذكره . ورواته ثقات
مشاهير ، لكن عبد الله بن نافع فيه لين لا يمنع الاحتجاج به . قال ابن
معين : هو ثقة ، وقال أبو زرعة : لا بأس به . وقال أبو حاتم الرازي :
ليس بالحافظ تعرف وتنكر . قال شيخ الإسلام رحمه الله : ومثال هذا

قد يخاف أن يغلط أحياناً ، فإذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ ، وهذا له شواهد متعددة . وقال الحافظ ابن عبد الهادي : هو حديث حسن جيد الإسناد ، وله شواهد كثيرة يرتقى بها إلى درجة الصحة .

وأما الحديث الثاني فرواه أبو يعلى والقاضي إسماعيل والحافظ الضياء في « المختارة » .

قال أبو يعلى : حدثنا أبو بكر بن أبي شبة ثنا زيد بن الحباب ثنا جعفر بن إبراهيم من « ولد » ذي الجناحين ثنا علي بن عمرو عن أبيه عن علي بن حسين فذكره . وعلي بن عمرو : هو علي بن عمرو بن علي بن الحسين . قال شيخ الإسلام : فانظر كيف هذه السنة كيف نخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار ، لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم ، فكأنوا أضبط .

قلت : والحديثين شواهد ، منها ما رواه ابن أبي شبة ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن ابن عجلان عن سهيل عن جبير بن حنين قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتخذوا قبوري عيداً ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علي حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني » وقال سعيد بن منصور : حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال : أتى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فنناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى فقال : هلم إلى العشاء . فقلت : لا أريده . فقال : مالي رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلمت على النبي ﷺ ، فقال : إذا دخلت المسجد فسلم ، ثم قال : إن الرسول ﷺ قال : « لاتخذوا قبوري عيداً ولا تتخذوا بيوتكم مقابر وصلوا علي ، فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم ، لعن الله

اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء .
ورواه القاضي إسماعيل في كتاب « فضل الصلاة على النبي ﷺ » ، (١) ولم
يذكر ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء وقال سعيد : أيضاً حدثنا حبان
ابن علي ثنا محمد بن عجلان عن أبي سعيد مولى المهري قال : قال
رسول الله ﷺ : « لا تتخذوا قبوري عيداً ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علي
فإن صلاتكم تبلغني » قال شيخ الإسلام : فهذا المرسلان من هذين
الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث لاسيما وقد احتج به من أرسله ،
وذلك يقتضي ثبوته عنده هذا لو لم يرو من وجوه مسندة غير هذين ،
فكيف وقد تقدم مسنداً .

قوله : عن علي بن الحسين . أي : ابن علي بن أبي طالب المعروف
بزين العابدين رضي الله عنه وهو أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم .
قال الزهري : ما رأيت قرشياً أفضل منه . مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح ،
وأبوه الحسين سبط النبي ﷺ وريحانته ، وحفظ عن النبي ﷺ ، واستشهد يوم
عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة .

قوله : إنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة - هو بضم الفاء وسكون الراء
واحدة الفرج - وهي الكوة في الجدار والحوخة ونحوهما .

قوله : فيدخل فيها فيدعو فنهاه إلى آخر الحديث . وهذا يدل على
النهى عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها كما تقدم بعض
ذلك ، لأن ذلك من اتخاذها عيداً كما فهمه علي بن الحسين من الحديث .
فنهى ذلك الرجل عن المجيء إلى قبر النبي ﷺ للدعاء عنده ، فكيف بقبر

(١) وقد طبع لأول مرة في المكتب الاسلامي .

غيره . ويدل أيضاً على أن قصد الرجل القبر لأجل السلام إذا لم يكن يريد المسجد من اتخاذ عيداً المنهي عنه ، ولهذا لما رأى الحسن بن الحسن سهيلاً عند القبر نهاه عن ذلك وذكر له الحديث مستدلاً به ، وأمر بالسلام عليه عند دخول المسجد . قال شيخ الإسلام : ما علمت أحداً ، أي : من علماء السلف رخص فيه ، لأن ذلك نوع من اتخاذ عيداً ، ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه ، لأن ذلك من اتخاذ عيداً ، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل السان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ ، لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك . قال : ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، بل كان الصحابة والتابعون يأتون إلى مسجده ﷺ فيصلون خلف أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، ثم إذا قضاوا الصلاة قعدوا ، أو خرجوا ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل .

وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم بل نهاهم بقوله : « لا تتخذوا قبوري عيداً وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني » ، فبين أن الصلاة تصل إليه من بعد وكذلك السلام . ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد ، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب إذ كانت عائشة فيها ، وبعد ذلك إلى أن بني الحائط الآخر . وهم مع ذلك يتمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه لا لسلام ولا لصلاة ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم ، ولا لسؤال عن حديث أو علم ، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً فيظنون أنه هو كلمهم وأفتام وبين لهم الأحاديث أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج كما طمع

الشیطان فی غیرهم ، فأضلهم عن قبری وقبر غیره ، حتى ظنوا أن صاحب القبر یأمرهم وینهاهم ویفتیمهم ویحدثهم فی الظاهر ، وأنه یمخرج من القبر ویروونه خارجاً من القبر ، ویظنون أن نفس أبدان الموتی خرجت تکلمهم ، وأن روح المیت تجسدت لهم ، فأروها کما رأهم النبی ﷺ لیلۃ المعراج . والمقصود أن الصعابة ما كانوا یعتادون الصلاة والسلام علیه عند قبری ، كما یفعله من بعدهم من الخلف ، وإنما کان بعضهم یأتی من خارج فیسلم علیه إذا قدم من سفر ، كما کان ابن عمر رضی الله عنه یفعل . قال عید الله بن عمر عن -نافع : کان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبی ﷺ فقال : السلام عليك یا رسول الله ، السلام عليك یا أبا بکر ، السلام عليك یا أبتاه ، ثم ینصرف .

قال عید الله : ما نعلم أحداً من أصحاب النبی ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر . وهذا يدل علی أنه لا یقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما یفعله كثير . قال شیخ الإسلام : إن ذلك لم ینفل عن أحد من الصعابة ، فكان بدعة مجتعة وفي « المبسوط » قال مالک : لا أرى أن یقف عند قبر النبی ﷺ ولكن لیسلم ویبضي . والحکایة التي رواها القاضي عیاض بأسناده عن مالک فی قصته مع المنصور وأنه قال لمالک : یا أبا عبد الله استقبل القبلة وأدعو أم استقبل رسول الله ﷺ ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبیک آدم إلى الله يوم القيامة ، بل استقبله واستشفع به یشفعه الله فیک . فهذه الرواية ضعيفة ، أو موضوعة لأن فی أسنادها من یتهم محمد بن حمید ومن یجهل حاله .

ونص أحمد أنه یستقبل القبلة ، ویجعل الحجرة عن يساره اثلاً یتستبره

وذلك بعد تحيته والسلام عليه ، فظاهر هذا أنه يقف للدعاء بعد السلام .
وذكر أصحاب مالك أنه يدعو مستقبلاً القبلة يولي ظهره . وبالجملة فقد اتفق
الأئمة على أنه إذا دعا لاستقبال القبر وتنازعوا هل يستقبله عند السلام عليه
أم لا ؟ ومن الحجة في ذلك ما روى ابن زبالة وهو في « أخبار المدينة » عن
عمر بن هارون ، عن سلمة بن وردان وهما ساقطان قال : رأيت أنس بن مالك
يسلم على النبي ﷺ ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ، ثم يدعو .

وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ ، وإلى غيره
من القبور والمشاهد ، لأن ذلك من اتخاذها أعياداً ، بل من أعظم أسباب
الإشراك بأصحابها ، كما وقع من عباد القبور الذين يشدون إليها الرحال ،
وينفقون في ذلك للكثير من الأموال ، وليس لهم مقصود إلا مجرد الزيارة
للقبور تبركاً بتلك القباب والجدران فوقعوا في الشرك . هذه المسألة التي
أفتى فيها شيخ الإسلام أعني من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين ،
ومشاهدتهم ونقل فيها اختلاف العلماء في الإباحة والمنع ، فمن مبيح لذلك
كأبي حامد الغزالي وأبي محمد المقدسي ، ومن مانع لذلك كابن بطة وابن
عقيل وأبي محمد الجويني والقاضي عياض ، وهو قول الجمهور نص عليه مالك
ولم يكن يخالفه أحد من الأئمة وهو الصواب . فقام عليه بعض المعاصرين
له كالسبكي ونحوه فنسبه إلى إنكار الزيارة مطلقاً وهو لم ينكر منها إلا
ما كان بشد رحل ، كما أنكره جمهور العلماء قبله أو الزيارة التي يكون
فيها دعاء الأموات والاستغاثة بهم في الملمات ، مع ما ينضم إلى ذلك من
أنواع المنكرات .

وبما يدل على النهي عن شد الرحال إلى القبور ونحوها ما أخرجه

في « الصحيحين » عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » فدخل في ذلك شديها لزيارة القبور والمشاهد فيما أن يكون نهيًا ، وإما أن يكون نهيًا للاستعجاب . وقد جاء في رواية في « الصحيح » بصيغة النهي صريحاً فتعين أن يكون للنهي . ولهذا فهم منه الصعابة المنع ، كما في « الموطأ » و « السنن » عن بصرة بن أبي بصرة الغفاري أنه قال لأبي هريرة وقد أقبل من الطور : لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت سمعت رسول الله ﷺ : « لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » وروى الإمام أحمد وعمر بن شبه في « أخبار المدينة » بإسناد جيد عن قزعة . قال : أتيت ابن عمر فقلت : إني أريد الطور . فقال : إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، والمسجد الأقصى ، فدع عنك الطور فلا تأته . وروى أحمد وعمر بن شبه أيضاً عن شهر بن حوشب . قال : سمعت أبا سعيد وذكر عنده الصلاة في الطور . فقال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي للمطي أن تشد رحالها إلى مسجد يبتغي فيه الصلاة غير المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » . فأبو سعيد جعل الطور مما نهي عن شد الرحال إليه ، مع أن اللفظ الذي ذكره إنما فيه النهي عن شديها إلى المساجد ، فدل على أنه علم أن غير المساجد أولى بالنهي والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة وأن الله تعالى سماه الوادي المقدس والبقعة المباركة ، وكلم الله موسى هناك . وهذا ظاهر لا يخفى على أحد ممن يقول بفحوى الخطاب وتنبيهه ، وهم الجمهور

والأئمة الأربعة وأتباعهم ولهذا لم يوجبوا على من نذر أن يسافر إلى أثر نبي من الأنبياء قبورهم أو غير قبورهم الوفاء بذلك ، بل لو سافر إلى مسجد قباء من بلد بعيد لم يكن هذا مشروعاً باتفاق الأئمة الأربعة ، مع أن النبي ﷺ كان يأتيه كل سبت راكباً وماشيئاً ، وإن كان في وجوب الوفاء بنذر إتيانه خلاف والجمهور على أنه لا يجب . وقد صرح مالك وغيره بأن من نذر السفر إلى المدينة النبوية إن كان مقصوده الصلاة في مسجد النبي ﷺ ، وفي بنذره ، وإن كان مقصوده مجرد زيارة القبر من غير صلاة في المسجد لم يف بنذره . قال : لأن النبي ﷺ . قال : « لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد » ، ذكره اسماعيل ابن اسحق في « المبسوط » ومعناه في « المدونة » و « الجلاب » وغيرهما من كتب أصحاب مالك .

وبالجملة فقد تنازع العلماء في شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة ، فالجمهور على المنع ، وطائفة من المتأخرين على الجواز ، فاستجاب شد الرحال إلى القبور والمشاهد والتقرب به إلى الله كما ظنه السبكي وغيره ، قول مبتدع مخالف للإجماع قبله ، والأحاديث التي احتج بها كحديث « من زارني بعد وفاي فكأنما زارني في حياتي » ونحوها لا يصح منها شيء عن رسول الله ﷺ ، ولا عن أحد من أصحابه البتة ، بل هي ما بين ضعيف وموضوع ، أو كلها موضوعة كما قد بين عليها شيخ الإسلام وغيره . وكثير منها لا يدل على محل النزاع إذ ليس فيه إلا مطلق الزيارة . وذلك لا ينصكره شيخ الإسلام ولا غيره من العلماء ، لأنه محمول على الزيارة الشرعية الجارية على وفق مراد النبي ﷺ ، وهي التي لا يكون

فيها شرك ولا شد رحل إلى قبر ، وبتقدير ثبوتها لا تدل على شد الرحال إلى قبر غيره ، والسبكي أجاز ذلك في سائر القبور فخالف الأحاديث وخرق الإجماع ، والله أعلم .

قال المصنف : وفيه أنه عليه السلام في البرزخ تعرض عليه أعمال أمته في الصلاة والسلام .

قوله : رواه في « المختارة » ، المختارة : كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة على « الصحيحين » ومؤلفه هو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ ضياء الدين الحنبلي ، أحد أعلام الإسلام وحفاظ الحديث . قال الذهبي أفنى عمره في هذا الشأن مع الدين المتين والورع والفضيلة التامة والثقة والاتقان ، انتفع الناس بتصانيفه والمحدثون بكتبه فانه يرحمه ويرضى عنه . وقال شيخ الاسلام : تصحيحه في « مختاراته » خير من تصحيح الحاكم بلا ريب . مات سنة ثلاث وأربعين وستائة .

باب

ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبدون الأوثان

ش : أراد المصنف بهذه الترجمة الرد على عباد القبور ، الذين يفعلون الشرك ويقولون : إنه لا يقع في هذه الأمة المحمدية وهم يقولون : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فبين في هذا الباب من كلام الله وكلام رسوله عليه السلام ، ما يدل على تنوع الشرك في هذه الأمة ورجوع كثير منها إلى عبادة الأوثان ، وإن كانت طائفة منها لا تزال على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى .

قال : وقوله تعالى : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) [النساء : ٥١] .

ش : يقول تعالى لنبيه ﷺ : ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً . أي : أعطوا نصيباً أي : حظاً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت . روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش : ألا ترى إلى هذا الصنوبر^(١) المنبت من قومه ، يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحبيج ، وأهل السدنة وأهل السقاية قال : أنتم خير ، قال فنزلت فيهم : (لمن شئتكم هو الأبر) [الكوثر : ٤] ونزل (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ... إلى ... نصير) وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب ، وأهل العلم فاخبرونا عنا وعن محمد فقال : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننصر الكوماء ، ونسقي الماء على اللبن ، ونفك العناة ، ونسقي الحبيج ، ومحمد صنوبر قطع أرحامنا ، واتبعه سراق الحبيج من غفار . فنحن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلاً فأنزل الله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون الذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً) [النساء : ٥١] قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الجبت : السحر ، والطاغوت : الشيطان . وكذلك قال ابن عباس وأبو العالية . ومجاهد والحسن وغيرهم ، وعن ابن عباس وعكرمة وأبي مالك : الجبت : الشيطان زاد ابن عباس بالجيشة وعن ابن عباس أيضاً الجبت : الشرك ، وعنه الجبت : الاصنام ، وعنه الجبت : حيي

(١) هو الأبر الذي لا عقب له ، وأصله سعة تثبت في جذع التخل لا في الأرض ، وقيل : هي التخل المنفردة التي دق أسفلها . أرادوا إله إذا قلع انقطع ذكره كما يذهب الصنوبر ، لأنه لا عقب له .

ابن أنس . وعن الشعبي الجبت : الكاهن . وعن مجاهد الجبت : كعب .
ابن الأشراف .

قلت : الظاهر أنه يعلم ذلك كله كما قال الجوهري : الجبت : كلمة
تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك . وفي الحديث « الطيرة
والعيافة والطرق من الجبت » قال : وهذا إيس من محض العربية لاجتماع
الجيم والباء في حرف واحد من غير حرف ذولقي^(١) . قال المصنف : وفيه
معرفة الإيمان بالجبت والطاغوت في الموضع ، هل هو اعتقاد قلب ، أو
هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها ؟ وأما الطاغوت فتقدم
الكلام عليه في أول الكتاب .

قال : وقوله تعالى : (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند
الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد
الطاغوت) [المائدة : ٦٤] .

ش : يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا
دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب ، الطاعنين في دينكم الذي هو توحيد
الله وإفراده بالعبادة ، دون ما سواه (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة
عند الله) [المائدة : ٦٤] أي : هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم
القيامة مما تظنونونه بنا ، هم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المذمومة المفسرة
بقوله : من لعنه الله ، أي : أبعدده وطرده من رحمته وغضب عليه ،
أي : غضباً لا يرضى بعده ، وجعل منهم القردة والخنازير ، أي : مسخ
منهم الذين عصوا أمره ، فجعلهم قردة وخنازير كما قال تعالى : (ولقد
علمتم الذين اعتسدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين)

(١) والحروف الدوالية ستة : الزاء واللام والنون والفاء والباء والميم .

[البقرة : ٦٦] وذلك أن الله تعالى أخذ عليهم تعظيم السبت ، والقيام بأمره ، وترك الاصطياد فيه ، وكانت الحيتان لا تأتيهم إلا يوم السبت فتحلوا اصطيادها فيه بما وضعوه لها من الشصوص والحبال والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت الحيتان يوم السبت على عاداتها نشبت تلك الحبال فلم تخلص منها يوماً ذلك ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت ، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله تعالى إلى صورة القردة ، وهي أشبه شيء بالإنساني في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن ، فكان جزاؤهم من جنس عملهم ، قال العوفي عن ابن عباس في قوله : (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) [البقرة : ٦٦] فجعل الله منهم القردة والخنازير فزعم أن شباب القوم صاروا قردة والمشيخة صاروا خنازير .

وروى مسلم في « صحيحه » عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أيهما مسخ الله ؟ فقال : إن الله لم يهلك قوماً أو قال : لم يسخ قوماً فيجعل الله لهم نسلًا ولا عاقبة ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك . وفي هذه القصة دليل قاطع على تحريم الحيل التي يتوصل بها إلى تحليل الحرام وتحريم الحلال ونحو ذلك .

وقوله : وعبد الطاغوت . قال شيخ الإسلام : الصواب أنه معطوف على قوله : (من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير) [المائدة : ٦٤] فهو فعل ماضٍ معطوف على ما قبله من الأفعال الماضية ؛ أي : من لعنه الله ومن غضب عليه ، ومن جعل منهم القردة والخنازير ، ومن عبد الطاغوت . لكن الأفعال المقدمة الفاعل فيها هو اسم الله مظهرًا

ومضمراً ، وهنا الفاعل اسم من عبد الطاغوت ، وهو الضمير في «عبد» . ولم يعد سبحانه لفظ « من » لأنه جعل هذه الأفعال كلها صفة لصنف واحد وهم اليهود .

قال : وقوله : (قال الذين غلبوا على أمورهم لنتخذن عليهم مسجداً) [الكهف : ٢٣] .

ش : يخبر تعالى عن الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف أنهم قالوا هذه المقالة لنتخذن عليهم مسجداً . وقد حكى ابن جرير في القائلين في ذلك قولين ، أحدهما : أنهم المسلمون . والثاني : أنهم المشركون . وعلى القولين فهم مذمومون لأن النبي ﷺ قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا . رواه البخاري ومسلم . ولما يفضي إليه ذلك من الإشراك بأصحابها كما هو الواقع . ولهذا لما فعلته اليهود والنصارى جرم ذلك إلى الشرك ، فدل ذلك على أن هذه الأمة تفعله كما فعلته اليهود والنصارى ، فيجرها ذلك إلى الشرك ، لأن ما فعلته اليهود والنصارى ستفعله هذه الأمة شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى وبهذا يظهر وجه استشهاد المصنف بهذه الآيات .

قال عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا : يا رسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » ! أخرجه .

ش : هذا الحديث أورده المصنف بهذا اللفظ معزواً « للصحيحين » ولعله نقله عن غيره ولفظها ، والسياق لمسلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً

بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لا تبعثوهم ، قلنا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال « فن » ١٢ . ويحتمل أن يكون مروياً عند غيرهما باللفظ الذي ذكره المصنف وأراد أصله لا لفظه .

قوله : لتبعن هو بضم العين وتشديد النون .

قوله : سنن . بفتح المهملة ، أي : طريق من كان قبلكم . أي : الذين قبلكم قال المهلب : الفتح أولى ، وقال ابن التين : قرأناه بضمها .

قوله : حذو القذة بالقذة هو بنصب حذو على المصدر ، والقذة - بضم القاف - واحدة القذذ وهي ريش السهم ، وله قذتان متساويتان ، أي : لتعلن أفعالهم ، ولتبعن طرائقهم حتى تشبهوهم وتحاذوهم ، كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى ، ثم إن هذا لفظ خبر معناه النهي عن متابعتهم ، ومنعهم من الالتفات لغير دين الإسلام ، لأن نوره قد بهر الأنوار وشريعته نسخت الشرائع ، وهذا من معجزاته ، فقد اتبع كثير من أمته سنن اليهود والنصارى وفارس في شيمهم ومواكبهم وملابسهم ، وإقامة شعارهم في الأديان والحروب والعادات من زخرفة المساجد ، وتعظيم القبور واتخاذها مساجد ، حتى عبدوها ومن فيها من دون الله ، وإقامة الحدود والتعزيرات على الضعفاء دون الأقوياء ، وترك العمل يوم الجمعة ، والتسليم بالأصابع ، وعدم عيادة المريض يوم السبت ، والسرور بنجيس البيض ، وأن الحائض لا تمس عجيناً ، واتخاذ الأخبار والرهبان أرباباً من دون الله ، والإعراض عن كتاب الله ، والإقبال على كتب الضلال من السحر والفلسفة والكلام والتكذيب بصفات الله التي وصف الله بها نفسه أو وصفه بها

رسوله ﷺ ، ووصفه بما لا يليق به من النقائص والعيوب إلى غير ذلك مما اتبعوا فيه اليهود والنصارى .

قوله : حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . الجحر - بضم ا ، بعدها حاء مهملة - معروف . وفي حديث آخر : « حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان في أمي من يصنع ذلك » ، وفي حديث آخر « حتى لو أن أحدهم جامع امرأته في الطريق لفعلتموه » ، صحت بذلك الأحاديث ، فأخبر أن أمته ستفعل ما فعلته اليهود والنصارى وفارس من الأديان والعادات والاختلاف .

قال شيخ الإسلام : هذا خروج مخروج الخبر والذم لمن يفعله كما كان يخبر عما يكون بين يدي الساعة من الأشرار والأمور المحرمة . وقال غيره : وجمع ذلك أن كفر اليهود أشد من جهة عدم العمل بعلمهم فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه عملاً ولا قولاً ، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم ، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله ، ويقولون ما لا يعلمون ، ففي هذه الأمة من يحذو حذو الفريقين . ولهذا كانت السلف كسفيان بن عيينة يقولون : من فسد من علمائنا ، ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى ، وقضاء الله نأفد بما أخبر به رسوله ﷺ بما سبق في علمه ، لكن ليس الحديث إخباراً عن جميع الأمة لما تواتر عنه أنها لا تجتمع على ضلالة .

قوله : قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال « فمن ؟ » هو يرفع اليهود خبر مبتدأ محذوف ، أي : أم اليهود والنصارى الذين نتبع سنتهم ؟ وقوله : قال : « فمن » استفهام إنكار ، أي : فمن هم غير

أولئك ؟ ثم إنه فسر هنا باليهود والنصارى ، وفي رواية أبي هريرة في البخاري بفارس والروم ولا تعارض ، كما قال بعضهم لاختلاف الجواب بحسب اختلاف المقام ، فحيث قيل : فارس والروم كان ثم قرينة تتعلق بالحكم بين الناس ، وسياسة الرعية ، وحيث قيل : اليهود والنصارى كان هناك قرينة تتعلق بأمور الديانات ، أصولها وفروعها كذا قال . ولا يلزم وجود قرينة ، بل الظاهر أنه أخبر أن هذه الأمة ستفعل ما فعلته الأمم قبلها من الديانات والعادات والسياسات مطلقاً ، والتفسير ببعض الأمم لا ينفي التفسير بأمة أخرى ، إذ المقصود التمثيل لا الحصر . ووجه مطابقة الحديث للترجمة واضح لأن الأمم قبلنا وجد فيها الشرك ، فكذلك يوجد في هذه الأمة كما هو الواقع .

قال : ولمسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها مازوي لي منها وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة ، وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربي قال : يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ، ويسبي بعضهم بعضاً . ورواه البرقاني في « صحيحه » وزاد : « وإنا أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد فنام من أمتي الأوثان ،

ولأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي ، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى .

ش : هذا الحديث رواه أبو داود في « سننه » وابن ماجه بالزيادة التي ذكرها المصنف ، ورواه الترمذي مختصراً ببعضها .

قوله : عن ثوبان . هو ثوبان مولى النبي ﷺ صحبه ولازمه ونزل بعده الشام ، ومات بمحصر سنة أربع وخمسين .

قوله : زوى لي الأرض . قال التوربشتي : زويت الشيء جمعته وقبضته ، يريد به تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلأعه على القريب . وحاصله أن الله طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة نظره . وقال القرطبي : أي جمعها لي حتى أبصرت ما تملك أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها ، وظاهر هذا اللفظ يقتضي أن الله تعالى قوى إدراك بصره ، ورفع عنه الموانع المعتادة فأدرك البعيد من موضعه كما أدرك بيت المقدس من مكة ، وأخذ يخبرهم عن آياته وهو ينظر إليه وكما قال : « إني لأبصر قصر المدائن الأبيض » ويحتمل أن يكون مثلها الله له ، والأول أولى .

قوله : « وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها » قال القرطبي : هذا الخبر وجيد مخبره كما قاله ، فكان ذلك من دلائل نبوته ، وذلك أن ملك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى بحر طنجة ، بالنون والجيم الذي هو منتهى عمارة المغرب وإلى أقصى المشرق ، ما وراء خراسان والنهر وكثير من بلاد الهند والسند والصغد . ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب

والشجان ، ولذلك لم يفكر عليه السلام أنه أريه ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه . وقوله : زوى ، يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل ، وأن يكون مبنياً للمفعول والأول أظهر .

قوله : وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض . قال القرطبي : يعني بها كنز كسرى وهو ملك الفرس ، وكنز قيصر وهو ملك الروم ، وقصودهما وبلادهما . وقد دل على ذلك قوله عليه السلام حين أخبر عنه هلاكها « والذي نفسي بيده لتتفقن كنوزهما في سبيل الله » وعبر بالأحمر عن كنز قيصر ، لأن الغالب عندهم كان الذهب ، وبالأبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجواهر والفضة . وقد ظهر ذلك ووجد كذلك في زمان الفتوح في أمانة عمر رضي الله عنه - فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته ، وما كان في بيوت أمواله وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها ، وكذلك فعل الله بقيصر لما فتحت بلاده . كذا قال في الغالب على كنوز كسرى وقيصر وعكس ذلك التوربشتي والحلخالي . والأبيض والأحمر منصوبان على البدل .

قوله : « وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة » هكذا ثبت في أصل المصنف بعامة بالباء وهي رواية صحيحة في أصل « مسلم » وفي بعض أصوله بسنة عامة مجذفاً . قال القرطبي : وكأنها زائدة لأن عامة صفة لسنة فكأنه قال : بسنة عامة . ويعني بالسنة : الجذب العام . الذي يكون به الهلاك العام ، ويسمى الجذب والقحط سنة ويجمع على سنين كما قال تعالى : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) [الأعراف : ١٣٠] . أي : بالجذب المتوالي .

قوله : من سوى أنفسهم . أي : من غيرهم يعني الكفار .

قوله : فيستبيح بيضتهم . قال الجوهري : بيضة كل شيء : حوزته ، وبيضة القوم : ساحتهم ، وعلى هذا فيكون معنى الحديث : ان الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض ، ولو اجتمع عليهم كل من بين أقطار الأرض ، وهو جوانبها . وقيل : بيضتهم معظمهم وجماعتهم . قلت : وهذا هو الظاهر ، وأن الله تعالى لا يسلط الكفار على معظم المسلمين وجماعتهم وإمامهم ما داموا بضد هذه الأوصاف المذكورة في قوله ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً . فإما إذا وجدت هذه الأوصاف ، فقد يسلط الكفار على جماعتهم ومعظمهم وإمامهم كما وقع .

قوله : وإن ربي قال : يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد . قال بعضهم : أي : إذا حكمت حكماً مبرماً فإنه نافذ لا يرد بشيء ، ولا يقدر أحد على رده ، بل كل جميع الخلق تمضي عليهم الأقدار طوعاً وكرهاً كما قال النبي ﷺ : « لا راد لما قضيت » قلت : الظاهر أنه سواء في ذلك المبرم والمعلق ، فالكل لا يرد فإن هذا إخبار عن عدم الرد بجنس القضاء ، والنبي ﷺ سأل ذلك مطلقاً فأجيب بهذا واستجاب له دعاءه ما لم يوجد الشرط المقتضي لتسليط العدو ، فإذا وجد ذلك وجد القضاء المعلق .

قوله : حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً إلى آخره . أي : حتى يوجد ذلك منهم فإن وجد فإنه يسلط عليهم عدوهم من الكفار ، فيستبيح جماعتهم وإمامهم ومعظمهم لا كل الأمة ، ثم أيضاً تكون العقوبة لهذه الأمة إن رجعوا عما هم فيه من الأسباب الموجبة للتسليط ، وكذلك وقع

فإن هذه الأمة لما جعل بأسها بينها اقتتلوا فأهلك بعضهم بعضاً ، وسى بعضهم بعضاً فلما فعلوا ذلك تفرقت جماعتهم ، واشتغل بعضهم ببعض عن جهاد العدو ، واستولوا عليهم ، كما وقع ذلك في المائة السابعة في المشرق والمغرب ، فاختلفت ملوك المشرق وتخاذلوا واستولى التتار على غالب أرض خراسان ، وعلى العراق وديار الروم ، وقتلوا الخليفة والعلماء والملوك الكبار ، وكذلك ملوك المغرب اختلفوا وتخاذلوا واستولت الإفرنج على جميع بلاد الأندلس والجزر القريبة منها ، فهي في أيديهم إلى اليوم ، بل استولوا على كثير من بلدان الشام حتى استنقذها منهم صلاح الدين ابن أيوب وغيره .

قوله : ورواه البرقاني في « صحيحه » . البرقاني هو الحافظ الكبير أبو بكر محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي الشافعي ، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، ومات سنة خمس وعشرين وأربع مائة . قال الخطيب : كان ثبثاً ورعاً ، لم نر في شيوخنا أثبت منه ، عارفاً بالفقه كثير التصنيف ، صنف مسنداً ضمنه ما اشتمل عليه « الصحيحان » وجمع حديث الثوري ، وحديث شعبة ، وطائفة وكان حريصاً على العلم منصرف المهمة إليه ، قلت : وهذا « المسند » الذي ذكره الخطيب هو صحيحه الذي عزا إليه المصنف .

قوله : « وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين » . أي : الأمراء والعلماء والعباد ، الذين يقتدي بهم الناس ، ويحكمون فيهم بغير علم فيضلون ويضلون ، فهم ضالون عن الحق مضلون لغيرهم ، كما قال تعالى عن أهل النار : (حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أحرهم لأولام ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار) [الأعراف : ٣٨] وقال

تعالى : (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) [الأحزاب : ٦٨]
 وقال تعالى : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في
 الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) [الكهف : ١٠٥ - ١٠٦]
 ولشدة الضرورة إلى اتباع أئمة الهدى ومعرفتهم ، والتفريق بينهم وبين
 أئمة الضلال المغضوب عليهم والضالين ، أمرنا الله أن نسأله الهداية إلى سلوك
 صراط أئمة الهدى وهم المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ،
 غير المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يعملون به ، ولا الضالين الذين
 يعملون على غير شرع من الله ، بل بما تهوى أنفسهم . فصرط المنعم
 عليهم هو الجامع بين العلم بالهدى والعمل به ، وقد وصف النبي ﷺ أئمة
 الهدى لما ذكر التفريق من بعده ، بأنهم الذين كانوا على ما كان عليه
 النبي ﷺ وأصحابه ، كما رواه أبو داود وغيره . فمن كان على ما كانت
 عليه النبي ﷺ وأصحابه فهو من الأئمة المهديين ، ومن خالفهم فهو من
 الضالين ، كالذي يقول لأصحابه من كانت له حاجة فليأت إلى قبوري فأني
 أقضيها له ، ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب ، أو
 نحو هذا كالذي يدعي أنه يخلص أصحابه ومروءته من النار ، وأنه يحفظ
 الناس ويكلمهم إذا اعتقدوه ، ويضربهم إذا كفروا به وحاربوه ، ويدعي
 أن ذلك من كراماته . وكالذي يمشي في الأسواق عريانا ، ولا يشهد
 بصلاة ولا ذكر الله ولا علما ، بل يعيب علماء الشرع ، ويغمزهم ويسمهم .
 أهل علم الظاهر ، ويدعي أنه صاحب علم الباطن ، وربما يدعي أنه يسعه
 الخروج من شريعة محمد ﷺ ، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة
 موسى عليه السلام ، ونحو ذلك من الكفر والهديان . وكالذي يدعي أن

العبد يصل مع الله إلى حال تسقط عنه التكليف ، أو يدعي أن الأولياء
يدعون ، ويستغاث بهم في حياتهم ومماتهم ، وأنهم ينفعون ويضرون
ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة ، أو أنه يطلع على اللوح المحفوظ ،
ويعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم ، أو يجوز بنساء المساجد على قبور
الأنبياء والصالحين ، وإيقادها بالسرّج والشموع ، وكسوتها بالحرير والديباج ،
والفرش النفيسة ، أو يدعي أن من عمل بالقرآن والسنة في أصول الدين
وفروعه ، فقد ضل وأضل وابتدع ، أو أن ظواهر القرآن في آيات
الصفات تشبه وتمثّل ، وأن الهدى لا يؤخذ منه في هذا الباب ولا في غيره ،
وإنما يؤخذ من الشبهات الوهمية التي يسميها بزعمه براهين عقلية . فكل
هؤلاء وأشباههم من أئمة الضلال الذين خاف النبي ﷺ على أمته وحذر منهم .

والضابط في الفرق بين أئمة المتقين وبين الأئمة المضلين قوله تعالى (قل
إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور
رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن الله لا يحب الكافرين)
[آل عمران : ٣٢ ، ٣٣] فافهم عن ربك وكن على بصيرة ، ولا يغرك
جلالة شخص أو عظمتة في النفوس ، فربك أعظم واتباعك لكلامه وكلام
رسوله ﷺ هو الفرض ، والعصمة منتفية عن غير الرسول ، وربك أدرى
بما في الضمائر ، فرب من تعتقده لإمام هدى ليس كذلك ، وقد قال تعالى
لنبيه ﷺ : (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء
الذين لا يعلمون) [الجاثية : ١٨] فكل من أتى بشيء يخالف ما جاء عن
الله وعن رسوله ، فهو من أهواء الذين لا يعلمون ، ومن لم يستجب للرسول
ﷺ ، فإنما يتبع هواه . قال الله تعالى . (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما

يشبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين) [القصص : ٥١] وقال تعالى : (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون) [الأعراف : ٣] وعن زياد بن حدير قال : قال لي عمرو : هل تعرف ما يهدم الإسلام ؟ قلت : لا . قال : يهدمه زلة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين . رواه الدارمي وقال يزيد بن حميرة : كان معاذ بن جبل لا يجلس مجلساً للذكر إلا قال حين يجلس : الله حكم قسط هلك المرتابون ... الحديث . وفيه : واحذروا زيغة الحكيم ، فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق . قلت لمعاذ : ما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق ؟ قال لي : اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقال : ماهذه ولا يشيك ذلك عنه ، فإنه لعله يراجع الحق ، وتلقى الحق إذا سمعته فإن على الحق نوراً . رواه أبو داود وغيره وما أحسن ما قال ابن المبارك رضي الله عنه :

وهل أفسد الدين إلا الملو ك وأحبار سوء ورهبانها

قوله : وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة . أي : إذا وقعت الفتنة والقتال بينهم بقي إلى يوم القيامة ، وكذلك وقع ، فإن السيف لما وضع فيهم بقتل عثمان رضي الله عنه لم يرتفع إلى اليوم ، وكذلك يكون إلى يوم القيامة ، ولكن يكثر تارة ويقل أخرى ، ويكون في جهة ويرتفع عن أخرى .

قوله : ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين . الحي واحد الأحياء ، وهي القبائل . وفي رواية أبي داود : « ولا تقوم الساعة حتى

يلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، والمعنى : أنهم ينزلون معهم في ديارهم ،
ويصيرون منهم بالردة ونحوها .

قوله : وحتى تعبد فثام من أمتي الأوثان . الفثام - مهموز - الجماعات
الكثيرة ، قاله أبو السعادات ، وفي رواية أبي داود : « وحتى تعبد قبائل من
أمتي الأوثان ، ومعناه ظاهر . وهذا هو شاهد الترجمة ، ففيه الرد على من
قال بخلافه من عباد القبور الذين ينكرون وقوع الشرك ، وعبادة الأوثان
في هذه الأمة . وفي معنى هذا ما في « الصحيحين » عن أبي هريرة مرفوعاً :
« لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات لنساء دوس على ذي الخلصة » قال :
وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية . وروى ابن حبان
عن معمر قال : إن عليه الآن بيتاً مبنياً مغلقاً . وفي « صحيح مسلم » عن
عائشة مرفوعاً : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى » وقيل :
إن القبر المنسوب إلى ابن عباس بالطائف إنه قبر اللات ، وكانوا يعبدونه ،
ويطوفون به ويقربون إليه القرابين وينذرون له الذنور ويسألونه قضاء
حاجتهم وتقريج كربتهم .

قوله : ولأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي .
قال القرطبي : وقد جاء عددهم معيناً في حديث حذيفة قال : قال رسول
الله ﷺ : « يكون في أمتي كذابون دجالون سبع وعشرون ، منهم أربع
نسوة » أخرجه أبو نعيم وقال : هذا حديث غريب تفرد به معاوية بن هشام .
قلت : حديث ثوبان أصح من هذا . قال القاضي عياض : عدد من تنبأ من
زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك ، وعرف واتبعه جماعة

. على ضلالتة ، فوجد هذا العدد فيهم ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا .

وقال الحافظ : قد ظهر مصداق ذلك في زمن النبي ﷺ فخرج مسيامة الكذاب باليامة ، والأسود العنسي باليمن ، ثم خرج في خلافة أبي بكر طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمه ، وسجاح التميمية في بني تميم ، وقتل الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ ، وقتل مسيامة الكذاب في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، وتاب طليحة ومات على الإسلام على الصحيح في زمن عمر رضي الله عنه . ويقال : إن سجاح تابت أيضاً .

ثم خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير فأظهر محبة أهل البيت ، ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين ، فاتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك ، أو أعان عليه فأجبه الناس ، ثم إنه زين له الشيطان أن يدعي النبوة ، وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه .

ومنهم الحارث الكذاب خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل ، وخرج في خلافة بني العباس جماعة . وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم ينشأ عن جنون أو سوداء ، وإنما المراد من قامت له شوكة ، وبدت له شبهة ، كمن وصفنا ، وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك ، وبقي منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر .

قوله : وأنا خاتم النبيين . الخاتم - بفتح التاء - بمعنى الطابع ، وبكسرهما بمعنى فاعل الطبع والختم . قال الحسن : خاتم الذي ختم به ، أي : آخر

النبين ، كما قال تعالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبیین) [الأحزاب : ٤٦] ولما ينزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان حاكما بشريعة محمد ﷺ ، مصليا إلى قبلته ، فهو كآحاد أمته كما قال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكما مقسطا ، فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية » .

قوله : ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوره لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم . قال يزيد بن هارون ، وأحمد بن حنبل : إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم . وكذلك قال : إنهم أهل الحديث عبد الله ابن المبارك ، وعلي بن المديني ، وأحمد بن سنان والبخاري وغيرهم . وقال المديني في رواية : هم العرب ، واستدل برواية من روى هم أهل الغرب ، وفسر الغرب بالدلو العظيمة ، لأن العرب هم الذين يستقون بها . قلت : ولا تعارض بين القولين ، إذ يمتنع أن تكون الطائفة المنصورة لا تعرف الحديث ، ولا سنن رسول الله ﷺ بل لا يكون منصورا على الحق إلا من عمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهم أهل الحديث من العرب وغيرهم ، فإن قيل : فلم خصه بالعرب ؟ قيل : المراد التشييل لا الحصر ، أي : أن العرب إن استقاموا على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فهم الطائفة المنصورة حال استقامتهم . قال القرطبي : وفيه دليل على أن الاجماع حجة ، لأن الأمة إذا أجمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة . وقال المصنف : وفيه الآية العظيمة أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم . والبشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى ، بل لا تزال عليه طائفة .

قوله : حتى يأتي أمر الله . الظاهر أن المراد بأمر الله ما روي من قبض من بقي من المؤمنين بالريح الطيبة ، ووقوع الآيات العظام ، ثم لا يبقى إلا شرار الناس كما روى الحاكم . وأصله في « مسلم » عن عبد الرحمن بن شماس أن عبد الله بن عمرو قال : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، هم شر من أهل الجاهلية . فقال عقبة بن عامر لعبد الله : اعلم ما نقول ، وأما أنا فسمعت النبي ﷺ يقول : « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ، ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة على ذلك » فقال عبد الله : ويبعث الله رجلاً ريحها المسك ، ومسها من الحرير ، فلا تترك أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة .

وفي « صحيح مسلم » عن ابن مسعود مرفوعاً : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس » وفي « صحيحه » أيضاً : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله » وذلك لما يقع بعد طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة وسائر الآيات العظام . وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك إذا انقطع تنائر الخرز بسرعة ، رواه أحمد . ويؤيده حديث عمران بن حصين مرفوعاً : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوهم حتى يقاتل آخرهم الدجال » رواه أبو داود والحاكم . وعلى هذا فالمراد بقوله في حديث عقبة وما أشبهه من الأحاديث « حتى تأتيهم الساعة » ساعتهم وهي وقت موتهم بهبوب الريح ؛ ذكره الحافظ وهو المعتمد .

وقد اختلف في محل هذه الطائفة ، فقال ابن بطال : لأنها تكون بيت المقدس إلى أن تقوم الساعة ، كما روى الطبري من حديث أبي أمامة :

قيل يارسول الله وأين هم؟ قال : « بيت المقدس » وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : « هم بالشام » . وهذا قول أكثر الشارحين . وفي كلام الطبري ما يدل على أنه لا يجب أن تكون في الشام أو في بيت المقدس دائماً إلى أن يقاتلوا الدجال ، بل قد تكون في موضع آخر ، لكن لا تخلو الأرض منها حتى يأتي أمر الله . قلت : وهذا هو الحق فإنه ليس في الشام منذ أزمان أحد بهذه الصفات ، بل ليس فيه إلا عباد القبور ، وأهل الفسق وأنواع الفواحش والمنكرات ، ويمتنع أن يكونوا هم الطائفة المنصورة ، وأيضاً فهم منذ أزمان لا يقاتلون أحداً من أهل الكفر ، وإنما بأسهم وقتالهم بينهم . وعلى هذا فقوله في الحديث : هم بيت المقدس . وقول معاذ : هم بالشام . المراد أنهم يكونون في بعض الأزمان دون بعض ، وكذلك الواقع فدل على ما ذكرنا .

قوله : تبارك وتعالى . قال ابن القيم : البركة نوعان : أحدهما بركة وهي فعله تبارك وتعالى ، والفعل منها بارك ، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة « على » تارة ، وبأداة « في » تارة والمفعول منها مبلرك ، وهو ما جعل كذلك فكان مباركا بجعله تعالى . والنوع الثاني بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة ، والفعل منها تبارك ، ولهذا لا يقال لنبيه ذلك ولا يصلح إلا له عز وجل ، فهو سبحانه المتبارك وعبد ورسوله المبارك . كما قال المسيح عليه السلام : (وجعلني مباركا أينما كنت) [مريم : ٣٢] فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك ، وأما صفة تبارك ، فمختصة به كما أطلقها على نفسه بقوله : (فتبارك الله رب العالمين) [غافر : ٦٥] (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير) [الملك : ٢] أفلا تراها كيف طردت في القرآن جارية عليه

محتصة به لا تطلق على غيره ، وجاءت على بناء السعة والمبالغة ، ك تعالى
وتعاضم ونحوه ، فجاءت تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال
العلو ونهايته ، فكذلك تبارك ، دال على كمال بركته وعظمتها وسعتها .
وهذا معنى قول من قال من السلف تبارك : تعاضم . وقال ابن عباس :
جاء بكل بركة واعلم أن هذا الحديث يجملته بما عد من الأدلة على الشهادتين
فإن كل جملة منه وقعت كما أخبر بها ﷺ .

باب

ما جاء في السحر

ش : السحر في اللغة : عبارة عما خفي ولطف سببه ، ولهذا جاء في
الحديث : « إن من البيان لسحرا » وسمي السحر سحوراً ، لأنه يقع خفياً
آخر الليل وقال تعالى : (سحروا أعين الناس) [الأعراف : ١١٦] أي
أخفوا عنهم علمهم ولما كان السحر من أنواع الشرك إذ لا يأتي السحر
بدونه ، ولهذا جاء في الحديث « ومن سحر فقد أشرك » أدخله « المصنف »
في كتاب « التوحيد » لبيان ذلك تحذيراً منه كما ذكر غيره من أنواع الشرك .

قال أبو محمد المقدسي في « الكافي » : السحر : عزائم ورقى وعقد يؤثر
في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ، ويفرق المراء وزوجته ، يأخذ أحد
الزوجين عن صاحبه قال الله تعالى : (فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المراء
وزوجه) [البقرة : ١٠٣] وقال سبحانه (قل أعوذ برب الفلق) إلى قوله :
(ومن شر النفاثات في العقد) [الفلق : ١-٥] يعني السواحر اللاتي يعقدن
في سحرهن وينفثن في عقدهن ، ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر بالاستعاذة منه .
وروت عائشة أن النبي ﷺ سحر حتى انه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء .

وما يفعله ، وانه قال لها ذات يوم : « أتاني ملكان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : من طبه ؟ قال : لبيد بن أعصم في مشط ومشاطة في جف طلعة ذكر في بئر ذي اروان ، رواه البخاري . انتهى .

وقد زعم قوم من المعتزلة وغيرهم أن السحر تخيل لا حقيقة له ، وهذا ليس بصحيح على إطلاقه ، بل منه ما هو تخيل ، ومنه ما له حقيقة كما يفهم مما تقدم .

قال : وقول الله تعالى : (ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق) [البقرة : ١٠٣] .

ش : أي : ولقد علم اليهود الذين استبدلوا السحر عن متابعة الرسل والإيمان بالله لمن اشتراه ، أي : استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله ومتابعة رسله ، ما له في الآخرة من خلاق . قال ابن عباس : من نصيب . قال قتادة : وقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله اليهم أن السحر لا خلاق له في الآخرة . وقال الحسن : ليس له دين . فدلّت الآية على تحريم السحر ، وهو كذلك ، بل هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام كما قال تعالى : (ولا يفلح الساحر حيث أتى) [طه : ٧٠] واستدل بها بعضهم على كفر الساحر لعموم قوله : (لمن اشتراه) يدل عليه قوله : (فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه) [البقرة : ١٠٣] وقد نص أصحاب أحمد على أنه يكفر بتعلمه وتعليمه . وروى عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعلم شيئاً من السحر قليلاً كان أو كثيراً كان آخر عهده من الله ، وهذا مرسل .

واختلفوا هل يكفر الساحر أو لا ؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر ، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد ، قال أصحابه : إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء يضر فلا يكفر ، وقيل : لا يكفر إلا أن يكون في سحره شرك فيكفر ، وهذا قول الشافعي وجماعته . قال الشافعي رحمه الله : إذا تعلم السحر قلنا له : صف لنا سحرَكَ ، فإن وصف ما يوجب الكفر ، مثل ما اعتقد أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة ، وأنها تفعل ما يلتمس منها ، فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر ، فإن اعتقد إباحته ، كفر .

وعند التحقيق ليس بين القولين اختلاف ، فإن من لم يكفر لظنه أنه يتأتى بدون الشرك وليس كذلك بل لا يأتي السحر الذي من قبل الشياطين إلا بالشرك وعبادة الشيطان والكواكب ، ولهذا سماه الله كفراً في قوله : (إنما نحن فتنة فلا تكفر) وقوله : (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) وفي حديث مرفوع رواه رزين : « الساحر كافر » وقال أبو العالية : السحر من الكفر . وقال ابن عباس في قوله : (إنما نحن فتنة فلا تكفر) وذلك أنها علماء الخير والشر والكفر والإيمان فعرفوا أن السحر من الكفر وقال ابن جريج في الآية : لا يجتريء على السحر إلا الكافر . وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر ، وإن سمي سحرأ فعلى سبيل المجاز كتسمية القول البليغ والنميمة سحرأ ، ولكنه يكون حراماً لمضرته يعزى من يفعله تعزيراً بليغاً .

قال : وقوله : (يؤمنون بالجبوت والطاغوت) .

ش : تقدم الكلام عليها في الباب الذي قبله ، ووجه إيرادها هنا ظاهر ،
لأن السحر من الجبت ، كما قال عمر بن الخطاب .

قال « المصنف » : قال عمر بن الخطاب : الجبت : السحر ،
والطاغوت : الشيطان .

ش : هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم وغيره ، وفيه معرفة الجبت
والطاغوت والفرق بينها .

قال : وقال جابر : الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان في
كل حي واحد .

ش : هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم بنحوه مطولا عن وهب بن منبه
قال : سألت جابر بن عبد الله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها .
قال : إن في جهنمة واحداً ، وفي أسلم واحداً ، وفي هلال واحداً ، وفي كل حي
واحداً ، وهم كهان تنزل عليهم الشياطين .

قوله : قال جابر . هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام أبو عبد الله
الأنصاري ثم السامي بفتحين . صحابي جليل ابن صحابي جليل مكثر عن
النبي ﷺ . مات بالمدينة بعد السبعين ، وقد كف بصره وله أربع
وتسعون سنة .

قوله : الطواغيت كهان إلى آخره . المراد بهذا أن الكهان من
الطواغيت لا أنهم الطواغيت لا غير . وقوله : كان ينزل عليهم الشيطان .
أراد الجنس لا الشيطان الذي هو إبليس فقط ، بل تنزل عليهم الشياطين
ويخاطبونهم ويخبرونهم ببعض الغيب ، مما يسترقونه من السمع فيصدقون
مرة ويكذبون مائة .

قوله : في كل حي واحد . الحي : واحد الأحياء ، وهم القبائل ، أي : في كل قبيلة من قبائل العرب كاهن يتحاكمون إليه ، ويسألونه عن الغيب . وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبي ﷺ ، فأبطل الله ذلك بالإسلام ، وحرس السماء بالشهب ، ومطابقة هذا لترجمة ظاهر من جهة أن الساحر طاغوت من الطواغيت إذ كان هذا الاسم يطلق على الكاهن فالساحر أولى ، لأنه أشر وأخبث .

قال : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

ش : هكذا أورد المصنف هذا الحديث غير معزو ، وقد رواه البخاري ومسلم .

قوله : اجتنبوا السبع . أي : أبعادوا ، وهو أبلغ من : لاتفعلوا ، لأن نهي القربان أبلغ من نهي المباشرة . ذكره الطيبي .

قوله : السبع الموبقات . بموحدة وقاف ، أي : المهلكات : وسميت الكبائر موبقات ، لأنها تهلك فاعلمها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات ، وفي الآخرة من العذاب . قلت : هكذا ثبت في هذه الرواية عن السبع الموبقات ، وكذلك في كتاب عمرو بن حزم الذي أخرجه النسائي وابن حبان في « صحيحه » والطبراني من طريق سليمان بن داود عن الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده قال : كتب .

رسول الله ﷺ كتاب الفرائض والديات والسنن ، وبعث به مع عمرو بن حزم إلى اليمن ... الحديث بطوله . وفيه : وكان في الكتاب : « وإن أكبر الكبائر الشرك » ، فذكر مثل حديث أبي هريرة سواء . وأخرجه البزار وابن المنذر من طريق عمرو بن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رفعه : « الكبائر : الشرك بالله وقتل النفس » ... الحديث . وذكر بدل السحر الانتقال إلى الأعواية بعد الهجرة ، وكذلك في حديث عند الطبراني ، وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن الحسن قال : « الكبائر الإشراف بالله » فذكر مثل الأول سواء إلا أنه قال : « اليمن الفاجرة » بدل السحر وفي حديث ابن عمر عند البخاري في « الأدب المفرد » والطبري في « التفسير » وعبد الرزاق مرفوعاً وموقوفاً قال : « الكبائر تسع » فذكر السبع المذكورة وزاد : « والإلحاد في الحرم وعقوق الوالدين » .

وأخرج اسماعيل القاضي بسند صحيح إلى سعيد بن المسيب قال : « هن عشر » فذكر السبع التي في الأصل وزاد : « عقوق الوالدين » واليمن الغموس ، وشرب الخمر » ولابن أبي حاتم عن علي قال : الكبائر ... فذكر السبع إلا مال اليتيم . وزاد : العقوق والتعرب بعد الهجرة وفراق الجماعة ، ونكث الصفة .

وللطبراني عن أبي أمامة أنهم تذاكروا الكبائر ، فقالوا : الشرك ومال اليتيم والفرار من الزحف والسحر والعقوق وقول الزور والغلول والربا . فقال رسول الله ﷺ : « فإين تجعلون الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم

فتأ قليلاً ؟ ، وقد جاء في أحاديث غير ما ذكرنا جملة من الكبائر منها
اليمين الغموس ، وشهادة الزور والأمن من مكر الله ، والقنوط من
رحمة الله وسوء الظن بالله ، والزنا ، والسرقه وغير ذلك . قال الحافظ :
ويحتاج عندها إلى الجواب عن الحكمة في الاختصار على سبع ، ويجب
بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو جواب ضعيف ، أو بأنه أعلم أولاً
بالمذكورات ، ثم أعلم بما زاد ، فيجب الأخذ بالزائد ، أو أن الاختصار وقع
بحسب المقام بالنسبة للسائل ، أو من وقعت له واقعة ونحو ذلك .

وقد أخرج الطبري واسماعيل القاضي عن ابن عباس أنه قيل له :
الكبائر سبع ؟ فقال : هن أكثر من سبع وفي رواية عنه : هي إلى
السبعين أقرب ، وفي رواية : إلى السبعين . وإذا تقرر ذلك عرف
فساد من عرف الكبيرة بأنها ما وجب فيها الحد ، لأن أكثر المذكورات
لا يجب فيها الحد انتهى . وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله .

قوله : قال : الشرك بالله . هو أن يجعل الله نداً يدعو كما يدعو
الله ، ويرجوه كما يرجو الله ، ويخافه كما يخاف الله ويبدأ به لأنه
أعظم ذنب عصي الله به كما في « الصحيحين » عن ابن مسعود سألت النبي
ﷺ : أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو
خلقك » .

قوله : والسحر . تقدم معناه ، وهذا وجه إيراد المصنف لهذا الحديث
في الباب .

قوله : وقتل النفس التي حرم الله . أي : حرم قتلها إلا بالحق ،

أي: بفعل موجب للقتل ، كقتل المشرك المحارب ، والنفس بالنفس ، والزاني بعد الإحصان ، كما قال تعالى : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها . وغضب الله عليه ولعنه وأعدله عذاباً عظيماً) [النساء : ٩٣] وسواء في ذلك القتل عمداً أو شبه عمد ، كما صرح به طائفة من الشافعية بخلاف قتل الخطأ ، فإنه لا كبيرة ولا صغيرة ، لأنه غير معصية . قلت : ويلتحق بذلك قتل المعاهد كما صح الحديث : « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة . » الحديث .

قوله : وأكل الربا . أي : تناوله بأي وجه كان كما قال تعالى : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) إلى قوله : (ومن عاد فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) [البقرة : ٢٧٦] قال ابن دقيق العيد : وهو مجرب لسوء الحاقمة نعوذ بالله من ذلك .

قوله : وأكل مال اليتيم . يعني التعدي فيه ، وعبر بالأكل ، لأنه أهم وجوه الانتفاع كما قال تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً) [العشاء : ١٠] . قوله : والتولي يوم الزحف أي : الإدبار من وجوه الكفار وقت ازدحام الطائفتين في القتال ، وإنما يكون كبيرة إذا فر إلى غير فئة أو غير متحرف لقتال كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) [الأنفال : ١٦] .

قوله : وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . هو بفتح الصاد المحفوظات من الزنا ، وبكسرهما : الحافظات فوجهن منه . والمراد الحوائر العفيفات ، ولا يختص بالمتزوجات ، بل حكم البكر كذلك بالاجماع كما ذكره الحافظ ، إلا إن كانت دون تسع سنين ، والمراد رمين بزنا أو لواط . والغافلات ، أي : عن الفواحش وما رمين به ، لا خبر عندهن من ذلك ، فهو كناية عن البريئات ، لأن الغافل بريء عما بهت به من الزنا ، والمؤمنات ، أي : بالله تعالى احترازاً عن قذف الكافرات ، فإنه من الصغائر .

قال : وعن جندب مرفوعاً « سجد الساحر ضربة بالسيف »
رواه الترمذي وقال : الصحيح أنه موقوف .

ش : هذا الحديث رواه الترمذي كما قال المصنف من طريق اسماعيل ابن مسلم المكي وقال بعد أن رواه : لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه ، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث من قبل حفظه ، وإسماعيل مسلم العبدي البصري ، قال وكيع : هو ثقة ، ويروى عن الحسن أيضاً ، والصحيح عن جندب موقوف انتهى . ورواه أيضاً الدارقطني والبيهقي والحاكم وقال : صحيح غريب . وقال الترمذي في « العلل » : سألت عنه محمداً يعني البخاري فقال : هذا لا ، وإسماعيل ضعيف جداً وقال الذهبي في « الكبائر » : إنه من قول جندب ، وأشار مغلطاي إلى أنه - وإن كان ضعيفاً يتقوى بكثرة طرقه . وقال : أخرجه جمع : منهم البخاري الكبير والصغير والطبراني والبزار ومن لا يحصى كثرة .
قوله : عن جندب . ظاهر صنيع الطبراني في « الكبير » أنه

جندب بن عبد الله البجلي لا جندب الخير الأزدي قاتل الساحر ، فإنه رواه في « ترجمة » جندب البجلي من طريق خالد العبد عن الحسن عن جندب عن النبي ﷺ وذكره ، وخالد العبد ضعيف .

قال الحافظ : والصواب أنه غيره ، فقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين ، عن الحسن عن جندب الخير أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات ، وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : فذكره .

وجندب الخير هو جندب بن كعب - وقيل : جندب بن زهير ، وقيل : هما واحد كما قاله ابن حبان - أبو عبد الله الأزدي الغامدي صحابي . وروى ابن السكن من حديث بريدة أن النبي ﷺ قال : « يضرب ضربة فيكون أمة وحده » .

قوله : حد الساحر ضربة بالسيف . روي بالماء والتاء وكلاهما صحيح ، وبهذا الحديث أخذ أحمد ومالك وأبو حنيفة ، فقالوا : يقتل الساحر . وروي ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وجندب بن عبد الله وجندب بن كعب وقيس بن سعد وعمر بن عبد العزيز . ولم ير الشافعي عليه القتل بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر . وبه قال ابن المنذر وهو رواية عن أحمد ، والأول أولى للحديث ، ولأثر عمر الذي ذكره المصنف وعمل به الناس في خلافته من غير تكبر فكان إجماعاً .

قال : وفي « صحيح البخاري » عن بجالة بن عبدة قال : كتب عمر بن الخطاب أن يقتلوا كل ساحر وساحرة . قال : فقتلنا ثلاث سواحر .

ش : هذا الأثر رواه البخاري كما ذكره المصنف ، لكنه لم يذكر قتل السحرة . ولفظه : عن بجالة بن عبدة قال : كنت كاتباً لجزء بن

معاوية عم الأحنف ، فأثنا كتاب عمر بن الخطاب قبل موته بسنة :
فوقوا بين كل محرم من المجوس ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى
شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر .
وعلى هذا فعزو المصنف إلى البخاري يحتمل أنه أراد أصله لا لفظه ورواه
الترمذي والنسائي مختصراً ، ورواه عبد الرزاق وأحمد وأبو داود والبيهقي
مطولاً . ورواه القطيعي في الجزء الثاني من « فوائده » بزيادة ، فقال :
حدثنا أبو علي بشر بن موسى الأسدي ، ثنا هوزة بن خليفة ، ثنا عوف عن
عمار مولى بني هاشم عن بجالة بن عبدة قال : كتب إلينا عمر بن الخطاب
أن اعرضوا على من كان قبلكم من المجوس أن يدعوا نكاح أمهاتهم وبناتهم
وأخواتهم ويأكلوا جميعاً كما نلحقهم بأهل الكتاب ، ثم اقتلوا كل كاهن
وساحر . قلت : وإسناده حسن .

قوله : عن بجالة . هو بفتح الموحدة بعدها جيم ابن عبدة بفتح الحين
الشيخي العنبري بصري ثقة .

قوله : كتب إلينا عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ...
إلى آخره . صريح في قتل الساحر والساحرة ، وهو من جميع الجمهور
القائلين بأنه يقتل ، وظاهره أنه يقتل من غير استتابة ، وهو كذلك على
المشهور عن أحمد ، وبه قال مالك : إن الصحابة لم يستتيهوا ، ولأن
علم السحر لا يزول بالتوبة . وعن أحمد يستتاب فإن تاب ، قبلت توبته
وخلي سبيله ، وبه قال الشافعي ، لأن ذنبه لا يزيد على الشرك ، والمشرك
يستتاب وتقبل توبته ، فكذلك الساحر ، وعلمه بالسحر لا يمنع توبته بدليل
ساحر أهل الكتاب إذا أسلم ، ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم .

قلت : الأول أصح لظاهر عمل الصحابة . فلو كانت الاستتابة واجبة لفعلوها أو يبنوها ، وأما قياسه على المشرك فلا يصح ، لأنه أكثر فساداً وتشويهاً من المشرك ، وكذلك لا يصح قياسه على ساحر أهل الكتاب ، لأن الاسلام يجب ما قبله ، وهذا الخلاف إنما هو في إسقاط الحد عنه بالتوبة ، أما فيما بينه وبين الله ، فإن كان صادقاً قبلت توبته .

قال : وصح عن حفصة أنها أموت بقتل جارية لها سحرتها .

ش : هذا الأثر رواه مالك في « الموطأ » عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن حفصة زوج النبي ﷺ قتلت جارية لها سحرتها وكانت قد دبرتها فأمرت بها فقتلت . ورواه عبد الرزاق . وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب تزوجها النبي ﷺ بعد خنيس بن حذافة سنة ثلاث وماتت سنة خمس وأربعين .

قال وكذا صح عن جندب .

ش : المراد به هنا قطعاً جندب الخير الأزدي قاتل الساحر ، وهو جندب بن كعب بن عبد الله . قال أبو حاتم : جندب بن كعب قاتل الساحر ، ويقال : جندب بن زهير ، فجعلها واحداً وفوق بينها ابن الكلبي وغيره قال ابن عبد البر : ذكر الزبير أن جندب بن زهير قاتل الساحر والصحيح أنه غيره وأشار المصنف بهذا إلى قتله الساحر ، كما رواه البخاري في « تاريخه » عن أبي عثمان النهدي قال : كان عند الوليد رجل يلعب ، فذبح إنساناً وأبان رأسه فجعلنا فأعاد رأسه ، فجاء جندب الأزدي فقتله . ورواه البيهقي في « الدلائل » مطولاً وفيه ، فقال الناس : سبحان الله يحسي الموتى . ورواه رجل صالح من المهاجرين ، فنظر إليه فلما كان من الغد

اشتمل على سيفه فذهب يلعب لعبه ذلك ، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنقه ، وقال : إن كان صادقاً ، فليحي نفسه فأمر به الوليد فسيجن . وذكر القصة بتمامها ولها طرق كثيرة .

قوله : قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
ش : أحمد هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل . وقوله : عن ثلاثة
أي : صح قتل الساحر عن ثلاثة أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب
النبي ﷺ ، يعني : عمر ، وحفصة ، وجندباً والله أعلم .

باب

بيان شيء من أنواع السحر

لما ذكر المصنف ما جاء في السحر أراد هنا أن يبين شيئاً من أنواعه
لكثرة وقوعها وخفائها على الناس حتى اعتقد كثير من الناس أن من
صدرت عنه هذه الأمور ، فهو من الأولياء ، وعدوها من كرامات الأولياء
وآل الأمر إلى أن عبد أصحابها ورجي منهم النفع والضر ، والحفظ
والكلاءة والنصر أحياء وأمواتاً ، بل اعتقد كثير في أناس من هؤلاء أن
لهم التصرف التام المطلق في الملك ، ولا بد من ذكر فرقان يفرق به
المؤمن بين ولي الله وبين عدو الله ، من ساحر وكاهن وعائف وزاجر
ومتطير ونحوم ممن قد يجري على يده شيء من الخوارق .

فاعلم أنه ليس كل من جرى على يده شيء من خوارق العادة يجب
أن يكون ولياً لله تعالى ، لأن العادة تنخرق بفعل الساحر والمشعوذ
وخبر المنجم والكاهن بشيء من الغيب ، بما يخبره به الشياطين المسترقون

للسمع . وفعل الشياطين بأناس ممن ينتسبون إلى دين وصلاح ورياسة مخالفة
للشريعة ، كأناس من الصوفية وكرهبان النصارى ونحوهم ، فيطيطون بهم في
الهواء ، ويمشون بهم على الماء ، ويأتون بالطعام والشراب والدرهم ، وقد يكون
ذلك بعزائم ورقى شيطانية وبجمل وأدوية ، كالذين يدخلون النار بحجر
الطلق ودهن النارنج . وقد يكون برؤيا صادقة فيها وما يستدل به على
وقوع ما لم يقع ، وهذه مشتركة بين ولي الله وعدوه . وقد يكون ذلك
بنوع طيرة يجدها الانسان في نفسه فتوافق القدر ، وتقع كما أخبر ، وقد يكون
بعلم الرمل والضرب بالحصى ، وقد يكون ذلك استدراجاً والأحوال
الشيطانية كثيرة . وقد فرق الله بين أوليائه وأعدائه في كتابه فاعتم به
وحده ، لا إله إلا هو ، فإنه لا يضل من اعتم به ولا يشقى . قال الله
تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا
وكانوا يتقون) [يونس : ٦٣-٦٤] فذكر تعالى أن أوليائه الذين لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون هم المؤمنون المتقون ، ولم يشترط أن يجري على أيديهم
شيء من خوارق العادة . فدل أن الشخص قد يكون ولياً لله وإن لم يجر
على يديه شيء من الخوارق إذا كان مؤمناً متقياً . وقال تعالى : (قل إن
كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم)
[آل عمران : ٣٢] فأوليائه الله المحبوبون عند الله هم المتبعون للرسول ﷺ
باطناً وظاهراً ، ومن كان بخلاف هذا فليس بمؤمن فضلاً عن أن يكون
وليّاً لله تعالى ، وإنما أحبهم الله تعالى لأنهم والوه ، فأحبوا ما يحب ، وأبغضوا
ما يبغض ، ورضوا بما يرضى ، وسخطوا ما يسخط ، وأمروا بما يأمر ، ونهوا
عما ينهى ، وأعطوا من يحب أن يعطى ، ومنعوا من يحب أن يمنع ،
وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل العداوة البغض والبعد .

وبالجملة فأولياء الله هم أحبابه المقربون اليه بالفرائض والنوافل وترك
المحارم ، الموحدون له ، الذين لا يشركون بالله شيئاً وإن لم تجر على أيديهم
خوارق ، فإن كانت الخوارق دليلاً على ولاية الله ، فلتكن دليلاً على ولاية
الساحر والكاهن والمنجم والمتفوس ، ورهبان اليهود والنصارى ، وعباد
الأصنام ، فإنهم يجري لهم من الخوارق ألوف ، ولكن هي من قبل
الشياطين ، فإنهم يتنزلون عليهم لمجانستهم لهم في الأفعال والأقوال كما قال
تعالى : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أئيم)
[الشعراء : ٢٢٢-٢٢٣] وقال تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن
نقيض له شيطاناً فهو له قرين) [الزخرف : ٣٧] وقد طارت الشياطين
ببعض من ينتسب إلى الولاية ، فقال : لا إله إلا الله فسقط . وتجد عمدة كثير
من الناس في اعتقادهم الولاية في شخص أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض
الأمر أو بعض الخوارق للعادة ، مثل أن يشير إلى شخص فيموت ، أو
يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها أحياناً ، أو يمشي على الماء ، أو يملأ
إبريقاً من الهواء ، أو يخبر في بعض الأوقات بشيء من الغيب ، أو يحتقي
أحياناً عن أعين الناس ، أو يخبر بعض الناس بما سرق له ، أو بحال غائب
أو مريض ، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت ، فراه
قد جاء فقضى حاجته أو نحو ذلك . وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل
على أن صاحبها مسلم فضلاً عن أن يكون ولياً لله ، بل قد اتفق أولياء الله
على أن الرجل لو طار في الهواء ومشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر
متابعته لرسول الله ﷺ ، وموافقته لأمره ونهيه . ومثل هذه الأمور قد
يكون صاحبها ولياً لله ، وقد يكون عدواً له ، فإنها قد تكون لكثير من
الكفار والمشركين واليهود والنصارى والمنافقين وأهل البدع ، وتكون

لهؤلاء من قبل الشياطين أو تكون استدراجاً ، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور فهو ولي الله ، بل يعرف أولياء الله بصفاتهم وأحوالهم وأفعالهم التي دل عليها الكتاب والسنة ، وأكثر هذه الأمور قد توجد في أشخاص يكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلي المكتوبة ولا يتنظف ولا يتطهر الطهارة الشرعية ، بل يكون ملابساً للنجاسات ، معاشراً للكلاب ، يأوي إلى المزابيل ، رائحته خبيثة ، ركاباً للفواحش ، يمشي في الأسواق كاشفاً لعورته ، غامزاً للشرع ، مستهزئاً به وبجملته ، يأكل العقارب والحبائث التي تحبها الشياطين ، كافراً بالله ، ساجداً لغير الله من القبور وغيرها ، يكره سماع القرآن وينفر منه ، ويؤثر سماع الأغاني والأشعار ومزامير الشيطان على كلام الرحمن . فلو جرى على يدي شخص من الخوارج ماذا عساه أن يجري فلا يكون ولياً لله ، محبوباً عنده حتى يكون متبعاً لرسوله ﷺ باطناً وظاهراً .

فأنت قلت : فعلى هذا ما الفرق بين الكرامة وبين الاستدراج والأحوال الشيطانية ؟

قيل : إن علمت ما ذكرنا عرفت الفرق ، لأنه إذا كان الشخص مخالفاً للشرع ، فما يجري له من هذه الأمور ليس بكرامة ، بل هي إما استدراج وإما من عمل الشياطين ، ويكون سببها هو ارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ ، فإن المعاصي لا تكون سبباً لكرامة الله ، ولا يستعان بالكرامات عليها ، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والدعاء بل تحصل بما تحبه الشياطين كالاستغاثة بغير الله ، أو كانت بما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش ، فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات

الرحمانية ، وكلما كان الإنسان أبعد عن الكتاب والسنة كانت الحوارق الشيطانية له أقوى وأكثر من غيره ، فإن الجن الذين يقترون بالإنس من جنسهم . فإن كان كافراً ووافقهم على ما يختارونه من الكفر والعسوق والضلال والإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه ، وللسجود لهم وكتابة أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة فعلوا معه كثيراً مما يشتهي بسبب ما برطلم به من الكفر وقد باتونه بما يهواه من امرأة وصبي ، بخلاف الكرامة ، فإنها لا تحصل إلا بعبادة الله والتقرب إليه ودعائه وحده لا شريك له ، والتمسك بكتابه ، واجتناب المحرمات ، فما يجري من هذا الضرب فهو كرامة . وقد اتفق على هذا الفرق جميع العلماء .

وبالجملة فإن عرفت الأسباب التي بها تتال ولاية الله عرفت أهلها وعرفت أنهم أهل الكرامة ، وإن كنت ممن يسمع بالأولياء وهو لا يعرف الولاية ولا أسبابها ولا أهلها بل يميل مع كل فاعق وساحر فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون . ولشيخ الإسلام كتاب « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان »^(١) فراجعها فإنه أتى فيه بالحق المبين .

قال رحمه الله : قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ثنا عوف ثنا حبان بن العلاء ، ثنا فطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال : « إن العيافة والطرق والطيرة من الجبوت » قال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط في الأرض ، والجبوت : قال الحسن : رنة الشيطان . إسناده جيد . ولأبي داود والنسائي وابن حبان في « صحيحه » المسند منه .

(١) وهو من مطبوعات المكتب الاسلامي .

ش : قوله : قال أحمد . هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ، ومحمد ابن جعفر هو المشهور بغندر الهذلي البصري ثقة مشهور ، ثبت في شعبة حتى فضله علي بن المديني فيه علي عبد الرحمن بن مهدي بل أقر له ابن مهدي بذلك . مات سنة ثلاث وتسعين ومائة أو أربع وتسعين ومائة (١) . وعوف هو ابن أبي جميلة - بفتح الجيم - العبدي البصري المعروف بعوف الأعرابي ثقة . مات سنة ست أو سبع وأربعين ومائة ، وله ست وثمانون سنة . وحبان بن العلاء هو بالتحية ويقال : حيان بن غمارق أبو العلاء البصري مقبول . وقطن - بفتحين - أبو سهلة البصري صدوق .

قوله : عن أبيه . هو قيصة - بفتح أوله وكسر الموحدة ابن الخارق - بضم الميم وتخفيف المعجمة أبو عبد الله الهلالي ، صحابي نزل البصرة . قوله : إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت . قال عوف : العيافة زجر الطير . هذا التفسير ذكره غير واحد كما قال عوف وهو كذلك . قال أبو السعادات : العيافة : زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وبمرها ، وهو من عادة العرب كثيراً وهو كثير في أشعارهم ، يقال : عاف يعيف عيفاً : إذا زجر وحده وظن .

قوله : والطرق : الخط يخط في الأرض هكذا فسر عوف ، وهو تفسير صحيح . وقال أبو السعادات : هو الضرب بالخصي الذي يفعله النساء . قلت : وأيا ما كان فهو من الجبت ، وأما الطيرة ، فسياقي الكلام عليها في بابها إن شاء الله تعالى .

(١) في الأصل : ست ومائتين وهو خطأ .

قوله : من الجبت . أي :- من أعمال السحر . قال القاضي :
والجبت في الأصل : الجبس الذي لاخير فيه ثم استعير لما يعبد من دون
الله والساحر والسحر . وقال الطيبي : « من » فيه إما ابتدائية أو
تبعية ، فعلى الأول المعنى الطيرة ناشئة من الساحر ، وعلى الثاني المعنى
الطيرة من جملة السحر والكهانة ، أو من جملة عبادة غير الله ، أي :
الشرك يؤيده قوله في الحديث الآتي : « الطيرة شرك » انتهى . وفي
الحديث دليل على تحريم التنجيم ، لأنه إذا كان الخط ونحوه الذي هو من
فروع النجامة من الجبت فكيف بالنجامة ؟!

قوله : قال الحسن : رنة الشيطان . لم أجد فيه كلاماً .

قوله : ولأبي داود والنسائي وابن حبان في « صحيحه » المسند منه .
يعني أن هؤلاء رووا الحديث واقتصروا على المرفوع منه ، ولم يذكروا
التفسير الذي فسره به عوف . وقد رواه أبو داود في التفسير المذكور
بدون كلام الحسن . والنسائي هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي
ابن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن صاحب « السنن » وغيرها من
المصنفات . روى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة بن سعيد وخلق .
وكان إليه المنتهى في الحفظ والعلم لعل الحديث . مات سنة ثلاث وثلاثمائة
وله ثمان وثمانون سنة .

قال : وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتبس
شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد » رواه
أبو داود بإسناد صحيح .

ش : هذا الحديث رواه أبو داود كما قال المصنف بإسناد صحيح ، وكذا صححه النووي والذهبي ورواه أحمد وابن ماجه .

قوله : من اقتبس . قال أبو السعادات : قبست العلم واقتبسته : إذا تعلمته انتهى . وعلى هذا ، فالمعنى من تعلم .

قوله : شعبة ، أي : طائفة وقطعة من النجوم ، والشعبة : الطائفة من الشيء والقطعة منه ، ومنه الحديث « الحياء شعبة من الإيمان » أي : جزء منه .

قوله : فقد اقتبس شعبة من السحر . أي : المعلوم تحريمه قال شيخ الإسلام : فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر . وقد قال الله تعالى : (ولا يفلح الساحر حيث أتى) [طه : ٧٠] . وهكذا الواقع فإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة .

قوله : زاد ما زاد يعني : كلما زاد من علم النجوم زاد له من الإثم مثل إثم الساحر ، أو زاد اقتباس شعب السحر ما زاد اقتباس علم النجوم . قلت : والقولان متلازمان ، لأن زيادة الإثم فرع عن زيادة السحر ، وذلك لأنه تحكم على الغيب الذي استأثر الله بعلمه . فعلم أن تأثير النجوم باطل محرم ، وكذا العمل بمقتضاه ، كالتقرب إليها بتقريب القرابين لها كفر ، قاله ابن رجب .

قال : والنسائي من حديث أبي هريرة « من عقد عقدة ثم نفث فيها ، فقد سحر ، ومن سحر ، فقد أشرك ، ومن تعلق شيئاً ، وكل إليه » .

ش : هذا الحديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي ولم يبين هل هو موقوف أو مرفوع ؟ وقد رواه النسائي مرفوعاً وذكر المصنف عن الذهبي أنه قال : لا يصح ، وحسنه ابن مفلح .

قوله : من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر . اعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر ، عقدوا الحيوط ، ونفشوا على كل عقدة حتى ينعقد ما يريدونه من السحر . ولهذا أمر الله بالاستعاذة من شرهم في قوله : (ومن شر النفاثات في العقد) [الفلق : ٥] يعني : السواحر اللاتي يفعلن ذلك ، والنفث : هو النفخ مع ريق ، وهو دون التقل وهو مرتبة بينها ، والنفث فعل الساحر . فإذا تكيفت نفسه بالحبث والشر الذي يريده بالمسحور ، ويستعين عليه بالأرواح الحبيثة ، نفخ في تلك العقد نفخاً معه ريق ، فيخرج من نفسه الحبيثة نفس بمزج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك . وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور ، فيصيبه السحر بإذن الله الكوني الشرعي ، لا الإذن القدري قاله ابن القيم .

قوله : ومن سحر فقد أشرك . نص في أن الساحر مشرك إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ عن بعضهم .

قوله : ومن تعلق شيئاً وكل إليه . أي : من تعلق قلبه شيئاً بحيث يتوكل عليه ، ويرجو به وكله الله إلى ذلك الشيء . فإن تعلق العبد على ربه وإلهه وسيده ومولاه ، رب كل شيء ومليكه وكله إليه فكفاه ووقاه وحفظه وتولاه ، ونعم المولى ونعم النصير كما قال تعالى : (أليس الله بكاف عبده) [الزمر : ٣٧] ومن تعلق على السحر والشياطين وكله الله إليهم فأهلكوه في الدنيا والآخرة .

وبالجملة فمن توكل على غير الله كائناً من كان وكل إليه ، وأتاه الشر في الدنيا والآخرة من جهته مقابلة له بنقيض قصده ، وهذه سنة الله في

عباده التي لا تبدل ، وعادته التي لا تحول ، أن من اطمأن إلى غيره أو وثق بسواه ، أو ركن إلى مخلوق يديره ، أجرى الله تعالى له بسببه أو من جهته خلاف ما علق به آماله وهذا أمر معلوم بالنص والعيان . ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق بعين البصيرة النافذة رأى ذلك عياناً . وفائدة هذه الجملة بعد ما قبلها الإشارة إلى أن الساحر متعلق على غير الله ، فإنه متعلق على الشياطين .

قال : وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « ألا هل أنبئكم ما العضة هي النيمة القالة بين الناس » رواه مسلم .
ش : قوله هل أنبئكم أي : أخبركم .

قوله : ما العضة هو بفتح العين المهمة وسكون المعجمة . قال أبو السعادات : هكذا يروى في كتب الحديث . والذي جاء في كتب الغريب ألا أنبئكم ما العضة بكسر العين وفتح الضاد . وفي حديث آخر « إياكم والعضة » قال الزمخشري : أصلها العضة فعلة من العضه ، وهو البهت فحذفت لامه ، كما حذفت من السنة والشفة وتجمع على عضين . ثم فسره بقوله : هي النيمة القالة بين الناس وعلى هذا فأطلق عليها العضة ، لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالباً ، ذكره القرطبي . قلت : ظاهر إيراد المصنف لهذا الحديث هنا يدل على أن معنى للعضه عنده هنا هو السحر ، ويدل على ذلك حديث : « كادت النيمة أن تكون سحراً » رواه ابن لال في « مكارم الأخلاق » بإسناد ضعيف . وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثر قال : يفسد التمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة . وقال أبو الخطاب في « عيون المسائل » : ومن السحر السعي بالنيمة والإفساد بين الناس .

قال في « الفروع » ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعلمه على وجه المكر والخيلة ، أشبه السحر ، ولهذا يعلم بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يعمل الساحر أو أكثر فيعطى حكمه تسوية بين المتأثرين أو المتقاربن ، لكنه يقال : الساحر إنما كفر لوصف السحر وهو أمر خاص ، ودليله خاص ، وهذا ليس بساحر وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطى حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة انتهى ملخصاً . وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة . والحديث دليل على تحريم الغيبة والنميمة ، وهو كذلك بالاجماع . وقد قال أبو محمد بن حزم : اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة ، وفيه دليل على أنها من الكبائر .

وقوله : القالة بين الناس . قال أبو السعادات : أي : كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس بما يحكى للبعض عن البعض ، ومنه الحديث « ففشت القالة بين الناس » .

قال : ولها عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان لسحراً » .

ش : البيان : البلاغة والفصاحة ، قال صعصعة بن صوحان : صدق نبي الله أما قوله : « إن من البيان لسحراً » فالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق ، فيسحر القوم ببيانه ، فيذهب بالحق . وقال ابن عبد البر : تأولته طائفة على الذم ، لأن السحر مذموم . وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح ، لأن الله تعالى مدح البيان . قال : وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة ، فأحسن المسألة ، فأعجبه قوله فقال : هذا والله السحر الحلال . قلت : الأول أصح وهو أنه خرج مخرج الذم لبعض البيان لا كله ،

وهو الذي فيه تصويب الباطل وتحسينه ، حتى يتوهم السامع أنه حق أو يكون فيه بلاغة زائدة عن الحد ، أو قوة في الحصومة حتى يسحر القوم ببيانـه ، فيذهب بالحق ونحو ذلك ، فسماء سحراً لأنه يستيل القلوب كالسحر ، ولهذا قال ﷺ لما جاءه رجلان من المشرق ، فخطبا فعجب الناس لبيانها فقال رسول الله ﷺ : « إن من البيان لسحراً » كما رواه مالك والبخاري وغيرهم .

وأما جنس البيان ، فمحمود بخلاف الشعر فجنسه مذموم إلا ما كان حكماً ، ولكن لا يحمّد البيان إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب ، أو تصوير الباطل في صورة الحق ، فإذا خرج إلى هذا الحد فهو مذموم . وعلى هذا تدل الأحاديث كقوله ﷺ : « إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها » . رواه أحمد وأبو داود . وقوله : « لقد رأيت أو لقد أمرت أن أتجوز في القول فإن الجواز هو خير » رواه أبو داود .

باب

ما جاء في الكهان ونحوم

اعلم أن الكهان الذين يأخذون عن مسترقي السمع موجودون إلى اليوم ، لكنهم قليل بالنسبة لما كانوا عليه في الجاهلية ، لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب ، ولم يبق من استراقهم إلا ما يخطئه الأعلى ، فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب . وأما ما يخبر به الجنى مواله من الانس بما غاب عن غيره بما لا يطلع عليه الانسان غالباً فكثير جداً في أفاـس ينتسبون إلى الولاية والكشف ، وهم من الكهان إخوان الشياطين لا من الأولياء .

ولما ذكر المصنف شيئاً مما يتعلق بالسحر ذكر ما جاء في الكهان ونحوم كالعراف لمشابهة هؤلاء للسحرة . والكهانة : ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب . والأصل فيه استراق الجن السمع من كلام الملائكة ، فتلقيه في أذن الكاهن ، والكاهن لفظ يطلق على العراف والذي يضرب الحصى والمنجم . وقال في « المحكم » : الكاهن : القاضي بالغيب . وقال الخطابي : الكهان فيما علم بشهادة الامتحان : قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريفة ، وطبائع نارية ، فهم يفزعون إلى الجن في أمورهم ، ويستفتونهم في الحوادث ، فيلقون إليهم الكلمات . قال : وروى مسلم في « صحيحه » عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً » .

ش : هذا الحديث رواه مسلم كما قال المصنف ، واظفه : حدثنا محمد بن المثنى العنزي ، ثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله - في نسخة : عبد الله - عن نافع عن صفية عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً » .

قوله : عن بعض أزواج النبي ﷺ . هي حفصة ، على ما ذكره أبو مسعود الدمشقي ، لأنه ذكر هذا الحديث في الأطراف في مسندها وكذلك سماه بعض الرواة .

قوله : من أتى عرافاً فسأله عن شيء . العراف سيأتي بيانه وهو من أنواع الكهان ، وظاهر الحديث أن هذا الوعيد مرتب على بغيته وسؤاله سواء صدقه ، أو شك في خبره ، لأن إتيان الكهان منهي عنه

كما في حديث معاوية بن الحكم السلمي قلت : يا رسول الله إن منا رجلاً يأتون الكهان قال : « فلا تأثم » رواه مسلم . ولأنه إذا شك في خبره ، فقد شك في أنه لا يعلم الغيب ، وذلك موجب للوعيد ، بل يجب عليه أن يقطع ويعتقد أنه لا يعلم الغيب إلا الله .

قوله : « لم تقبل له صلاة أربعين يوماً » ، إذا كانت هذه حال السائل ، فكيف بالمسؤول ؟ قال النووي وغيره : معناه : أنه لا ثواب له فيها ، وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه ، ولا يحتاج معها إلى إعادة ، ونظير هذه الصلاة في أرض مغصوبة مجزئة مسقطه للقضاء ، لكن لا ثواب له فيها ، قاله جمهور أصحابنا قالوا : فصلاة الفرض إذا أتى بها على وجهها الكامل ، ترتب عليها شيان : سقوط الفرض ، وحصول الثواب . فإذا أداها في أرض مغصوبة ، حصل له الأول دون الثاني ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث ، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة فوجب تأويله ، هذا كلامه . وهو مبني على الملازمة بين الإجزاء وعدم الاعادة .

والصواب أن عدم الاعادة لا يستلزم الإجزاء ، لكن الصلاة في الأرض المغصوبة في أجزائها نزاع ، والمشهور من مذهب أحمد أنها لا تجزئ وتجب إعادتها . وفي الحديث النبي عن إتيان الكاهن ونحوه قال القرطبي : يجب على من قدر على ذلك من محنسب وغيره أن يقيم على من يتعاطى شيئاً من ذلك من التعزيرات وينكر عليهم أشد النكير وعلى من يجيء إليهم ، ولا يغتر بصدقهم في بعض الأمور ، ولا بكثرة من يجيء إليهم من ينسب إلى العلم ، فإنهم غير راسخين في العلم ، بل من الجهال بما في إتيانهم من المحذور .

قال : وعن أبي هريرة . عن النبي ﷺ قال : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » رواه أبو داود .

ش : هذا الحديث رواه أبو داود ولفظه :

حدثنا موسى بن اسماعيل ثنا حماد .

ح وحدثنا مسدد ثنا يحيى عن حماد بن سلمة عن حكيم الأثرم ، عن أبي تيممة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من أتى كاهناً قال موسى في حديثه : فصدقه بما يقول أو أتى امرأة ، قال مسدد : امرأته حائضاً ، أو أتى امرأة قال مسدد : يعني : امرأته في دبرها ، فقد برىء بما أنزل على محمد ﷺ » ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه بنحوه وقال الترمذي : لا نعرفه إلا من حديث الأثرم ، وضعف محمد هذا الحديث من جهة إسناده وقال البغوي : سنده ضعيف ، وقال الذهبي : ليس إسناده بالقائم قلت : أطال أبو الفتح العمري في بيان ضعفه وادعى أن متنه منكر ، وأخطأ في إطلاق ذلك ، فإن إتيان الكاهن له شواهد صحيحة ، منها ما ذكره المصنف بعده ، وكذلك إتيان المرأة في الدبر له شواهد ، منها ما رواه عبد بن حميد بإسناد صحيح عن طاووس أن رجلاً سأل ابن عباس عن إتيان المرأة في دبرها فقال : تسألني عن الكفر ؟ ومنها ما رواه الترمذي والنسائي وابن حبان في « صحيحه » وصححه ابن حزم عن ابن عباس مرفوعاً : « لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر ، . والأحاديث في ذلك كثيرة . وغاية ما ينكر من متنه ذكر إتيان الحائض والله أعلم .

قال : وللأربعة والخامس وقال : صحيح على شرطها عن

« من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » .

ش : هكذا بيض المصنف اسم الراوي . وقد رواه أحمد والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً ولفظ أحمد :

حدثنا يحيى بن سعيد عن عوف عن خلاص عن أبي هريرة والحسن عن النبي ﷺ فذكره . وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري فقد روي عن عوف عن خلاص عن أبي هريرة ، حديث أن موسى كان رجلاً حياً ... الحديث . قال العواقي في أماليه : حديث صحيح وقال الذهبي : إسناده قوي . وعلى هذا فعزو المصنف إلى الأربعة ليس كذلك ، فإنه لم يروه أحد منهم ، وأظنه تبع في ذلك الحافظ ، فإنه عزاه في « الفتح » إلى أصحاب السنن والحاكم فوهم ، ولعله أراد الذي قبله .

قوله : « من أتى كاهناً » إلى آخره . قال بعضهم : لانتعاض بين هذا الخبر ، وبين حديث « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » ، إذ الغرض في هذا الحديث أنه سأله معتقداً صدقه وأنه يعلم الغيب فإنه يكفر ، فإن اعتقد أن الجن تلقي إليه ما سمعته من الملائكة ، أو أنه بإلهام فصدقه من هذه الجهة لا يكفر كذا قال ، وفيه نظر . وظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان ، لا اعتقاده أنه يعلم الغيب ، وسواء كان ذلك من قبل الشياطين ، أو من قبل الإلهام لاسيما . وغالب الكهان في وقت النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين . وفي حديث رواه الطبراني عن واثلة مرفوعاً « من أتى كاهناً فسأله عن شيء حجبت عنه التوبة أربعين ليلة فإن صدقه بما قال كفر » قال المنذري : ضعيف . فهذا - لو ثبت - نص في المسألة لكن ما تقدم

من الأحاديث يشهد له ، فإن الحديث الذي فيه الوعيد بعدم قبول الصلاة أربعين ليلة ليس فيه ذكر تصديقه والأحاديث التي فيها إطلاق الكفر مقيدة بتصديقه .

قوله : « فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » قال الطيبي : المراد بالمنزل الكتاب والسنة ، أي : من ارتكب هذه فقد برىء من دين محمد ﷺ وما أنزل عليه انتهى . وهل الكفر في هذا الموضوع كفر دون كفر أو يجب التوقف ؟ فلا يقال : ينقل عن الملة . ذكروا فيها روايتين عن أحمد وقيل : هذا على التشديد والتأكيد ، أي : قارب الكفر والمراد كفر النعمة ، وهذان القولان باطلان .

قال : ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً :

ش : أبو يعلى اسمه أحمد بن علي بن المنى الموصلي الإمام صاحب التصانيف كـ « المسند » وغيره روى عن يحيى بن معين وأبي خيثمة وأبي بكر بن أبي شيبة وخلق وكان من الأئمة الحفاظ مات سنة سبع وثلاثمائة . وهذا الأثر رواه البزار أيضاً وإسناده على شرط مسلم ولفظه : « من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر والمصدق لهما ، لأنها يدينان علم الغيب وذلك كفر ، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضاً .

قال : وعن عمران بن الحصين مرفوعاً « ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن له ، أو سحر له ، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » رواه البزار بإسناد جيد

ورواه الطبراني بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله : ومن أتى إلى آخره .

ش : هذا الحديث رواه الطبراني كما قال « المصنف » في « الأوسط » قال المنذري : إسناد الطبراني حسن وإسناد البزار جيد .

قوله : « ليس منا » أي : ليس يفعل ذلك من هو من أشياعنا العاملين باتباعنا المقتفين لشرعنا .

قوله : « من تطير » أي : فعل الطيرة أو تطير له ، أي : أمر من يتطير له ، وكذلك معنى تكهن أو تكهن له أو سحر له .

قوله : رواه البزار . اسمه أحمد بن عمرو بن عبد الخالق أبو بكر البزار البصري صاحب « المسند الكبير » الذي عزا إليه المصنف ، روى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق . قال الدارقطني : ثقة بخطئه ويتكل على حفظه مات سنة اثنين وتسعين ومائتين .

قوله : قال البغوي : العراف الذي يدعي معرفة الامور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك ، وقيل : هو الكاهن ، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل ، وقيل : الذي يخبر عما في الضمير ، وقال أبو العباس ابن تيمية : العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الامور بهذه الطرق .

ش : البغوي بفتحين اسمه الحسين بن مسعود بن الفراء المعروف بميمى السنة الشافعي صاحب التصانيف ، وعالم أهل خراسان وكان ثقة فقيهاً زاهداً مات في شوال سنة ست عشرة وخمسةائة .

قوله : العراف الذي يدعي معرفة الأمور إلى آخره . هذا تفسير حسن وظاهره يقتضي أن العراف هو الذي يخبر عن الواقع كالمسروق والضالة ، وأحسن منه كلام شيخ الاسلام : أن العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ، كالحازر الذي يدعي علم الغيب أو يدعي الكشف . وقال أيضاً : والمنجم يدخل في اسم العراف وعند بعضهم هو في معناه . وقال أيضاً : والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطائي وغيره من العلماء وحكى ذلك عن العرب وعند آخرين من جنس الكاهن وأساء حالاً منه ، فيلحق به من جهة المعنى ، وقال الامام أحمد : العراف طرف من السحر والساحر أخبث . وقال أبو السعادات : العراف المنجم والحازر الذي يدعي علم الغيب وقد استأثر الله تعالى به .

وقال ابن القيم : من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه نغافاً وعرافاً . والمقصود من هذا معرفة أن من يدعي علم شيء من المغيبات ، فهو إما داخل في اسم الكاهن ، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به ، وذلك أن إصابة الخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف ومنه ما هو من الشياطين ويكون بالفال والزجر والطير والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر ونحو هذا من علوم الجاهلية . ونعني بالجاهلية : كل من ليس من اتباع الرسل كالفلاسفة والكهان والمنجمين وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ . فإن هذه علوم قوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل عليهم السلام . وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً وعرافاً أو في معناهما فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد . وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه ، وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة ، ولا ريب

أن من ادعى الولاية ، واستدل عليها بإخباره ببعض المغيبات ، فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ، إذ الكرامة أمر يحويه الله على يد عبده المؤمن المتقي ، إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها ، ولا قدرة له عليها بخلاف من يدعي أنه ولي لله ويقول للناس : اعلّموا أنني أعلم المغيبات فإن مثل هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب وإن كانت أسباباً محرمة كاذبة في الغالب ، ولهذا قال ﷺ في وصف الكهان : « فيكذبون معها مائة كذبة » فين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة . وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس مع أن نفس دعواه دليل على كذبه ، لأن في دعواه الولاية تركية النفس المنهي عنها بقوله : (فلا تركوا أنفسكم) [النجم : ٣٣] وليس هذا من شأن الأولياء ، بل شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيهم لها وخوفهم من ربهم .

فكيف يأتون الناس يقولون : اعرفوا أنا أولياء ، وأنا نعلم الغيب . وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق ، واقتناص الدنيا بهذه الأمور وحسبك بحال الصحابة والتابعين وهم سادات الأولياء أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شيء ؟ لا والله . بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن كالصديق . وكان عمر يسبح نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته ، وكان يمر بالآية في ورده بالليل فيمرض منها ليالي يعود الناس ، وكان تميم الداري يتقلب في فراشه لا يستطيع النوم إلا قليلاً خوفاً من النار ، ثم يقوم إلى صلاته ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكر الله تعالى من صفاتهم في سورة الرعد ، والمؤمنين ، والفرقان ، والذاريات ، والطور ، فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفاء

لا أهل الدعوى والكذب ، ومنازعة رب العالمين فيما اختص من الكبرياء والعظمة ، وعلم الغيب ، بل مجرد دعواه علم الغيب ككفر ، فكيف يكون المدعي لذلك ولياً ؟ ولقد عظم الضرر ، واشتد الخطب هؤلاء المفتريين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين ، ولبسوا بها على خفافيش البصائر . نسال الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة .

فان قلت : كيف يكون علم الخط من الكهانة ؟ وقد روى أحمد ومسلم عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله ﷺ : ومنا رجال يخطون فقال : « كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك » .

قلت : قال النووي : معناه أن من وافق خطه ، فهو مباح له ، لكن لا طريق لنا إلى العلم باليقين بالموافقة ، فلا يباح . والقصد أنه لا يباح إلا بيقين الموافقة وليس لنا يقين . وقال غيره : المراد به النهي عنه والزجر عن تعاطيه ، لأن خط ذلك النبي كان معجزة وعلماً لنبوته ، وقد انقطعت نبوته ولم يقل : فذلك الخط حرام دفعاً لتوهم أن خط ذلك النبي حرام . قلت : ويحتمل أن المعنى أن سبب إصابة صاحب الخط هو موافقته لخط ذلك النبي ، فمن وافق خطه أصاب . وإذا كان كذلك وكانت الإصابة فادرة بالنسبة إلى الخط ، ولا طريق إلى اليقين بالموافقة صار ذلك بالنسبة إلى من يتعاطاه من أنواع الكهانة لمشاركته لها في المعنى إذا علمت ذلك ، فاعلم أن مذهب الإمام أحمد أن حكم الكاهن والعراف الاستتابة ، فإن تابا وإلا قتل . ذكره غير واحد من الأصحاب .

فأما المعزم الذي يعزم على المصروع ، ويزعم أنه يجمع الجن وأنما تطيعه ، والذي يحل السحر ، فقال في « الكافي » ذكرهما أصحابنا في السحرة الذين ذكرنا حكمهم . وقد توقف أحمد لما سئل عن الرجل يحل

السعر ، فقال : قد رخص فيه بعض الناس . قيل : إنه يجعل في الطنجير ماء ويغيب فيه ، فنفض يده وقال : ما أدري ما هذا ؟ قيل له : فترى أن يؤتى مثل هذا مجل ؟ قال : ما أدري ما هذا ؟ قال : وهذا يدل على أنه لا يكفر صاحبه ، ولا يقتل . قلت : إن كان ذلك لا يحصل إلا بالشرك والتقرب إلى الجن ، فإنه يكفر ويقتل ، ونص أحمد لا يدل على أنه لا يكفر ، فإنه قد يقول مثل هذا في الحرام البين .

قوله : وقال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد ، وينظرون في النجوم : ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق .

ش : هذا الأثر ذكره المصنف عن ابن عباس ، ولم يعزه ، وقد رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً ، وإسناده ضعيف ، ولفظه « رب معلم حروف أبي جاد دارس في النجوم ليس له عند الله من خلاق يوم القيامة » ورواه أيضاً حميد بن زنجويه عنه بلفظ « رب ناظر في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق » .

قوله : ما أرى . يجوز فتح الهمزة من « أرى » بمعنى : لا أعلم له عند الله من خلاق ، أي : من نصيب ، ويجوز ضمها بمعنى : لا أظن ذلك لاشتغاله بما فيه من اقتحام الخطر والجهالة وادعاء علم الغيب الذي استأثر الله به ، وكتابة أبي جاد وتعلمها لمن يدعي بها معرفة علم الغيب هو الذي يسمى علم الحروف . وبعض المبتدعة فيه مصنف ، فأما تعليمها للتهجي وحساب الجمل ، فلا بأس بذلك .

قوله : وينظرون في النجوم هذا محمول على علم التأثير لا التسيير ، كما سيبيء في باب التنجيم ، وفيه عدم الاعتراض بما يؤتاه أهل الباطل من

معارفهم وعلومهم ، كما قال تعالى : (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) [غافر : ٨٤] .

باب

ما جاء في النشرة

لما ذكر المصنف حكم السحرة والكهانة ذكر ما جاء في النشرة ، لأنها قد تكون من قبل الشياطين والسحرة ، فتكون مضادة للتوحيد ، وقد تكون مباحة ، كما سيأتي تفصيله .

قال أبو السعادات : النشرة ضرب من العلاج والرقية ، يعالج به من كان يظن أن به مساً من الجن ، سميت نشرة ، لأنه ينشر بها عنه ما خافه من الداء ، أي : يكشف وي زال .

وقال الحسن : النشرة من السحر ، وقد نشرت عنه تشيراً ، ومنه الحديث « فلعل طبا أصابه ثم نشره » (قل أعوذ برب الناس) [الناس : ٢] أي : رقاؤه .

وقال غيره : ونشره أيضاً إذا كتب له النشرة ، وهي كالتعويد والرقية . وقال ابن الجوزي : النشرة حل السحر عن المسحور ، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر .

قال : عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة ، فقال : « هي من عمل الشيطان » رواه أحمد بسند جيد ، وأبو داود ، قال : سئل أحمد عنها ، فقال ابن مسعود : يكره هذا كله .

ش : هذا الحديث رواه أحمد ، ورواه عنه أبو داود في « سننه » والفضل بن زياد في كتاب « المسائل » عن عبد الرزاق عن عقال بن

معقل بن منبه عن عمه وهب بن منبه عن جابر ، فذكره . قال ابن مفلح :
إسناده جيد ، وحسن الحافظ لإسناده ، ورواه ابن أبي شبة ، وأبو داود
في المراسيل عن الحسن رفعه « النشرة من عمل الشيطان » .

قوله : سئل عن النشرة . الألف واللام في النشرة للعهد ، أي :
النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها ، هي من عمل الشيطان ،
لا النشرة بالرقى والتعوذات الشرعية والأدوية المباحة ، فإن ذلك جائز
كما قرره ابن القيم فيما سيأتي .

قوله : وقال : سئل أحمد عنها فقال ابن مسعود : يكره هذا كله .
مراد أحمد - والله أعلم - أن ابن مسعود يكره النشرة التي من عمل الشيطان
والنشرة التي بكتابة وتعليق كالتائم ، فإن ابن مسعود كان يكره التائم
كلها من القرآن وغير القرآن ، أما النشرة بالتعويد والرقى بأسماء الله
وكلامه من غير تعليق ، فلا أعلم أحداً كرهه ، وكذلك ما رواه ابن أبي شبة
عن إبراهيم : كانوا يكرهون التائم والرقى والنشر . محمول على ما ذكرنا .

قال وفي « البخاري » عن قتادة قلت لابن المسيب : رجل به
« طب » ، أو يؤخذ عن امرأته ، أمهل عنه أو ينشر ؟ قال : لا بأس
به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فاما ما ينفع فلم ينفعه عنه ؟

ش : هذا الأثر علقه البخاري ، ووصله أبو بكر الأثرم في كتاب
« السنن » من طريق أبان العطار عن قتادة مثله ، ومن طريق هشام
الدستوائي عن قتادة بلفظ : « يلتمس من يداويه » فقال : إنما نهى الله
عما يضر ولم ينفعه عما ينفع .

قوله : عن قتادة هو ابن دعامة بكسر الدال السدوسي البصري ثقة

ثبت فقيه من أحفظ التابعين ، يقال : إنه ولد آكمه مات سنة بضع عشرة ومائة .

قوله : رجل به طب بكسر الطاء ، أي : سحر ، يقال : طب الرجل بالضم : إذا سحر ، ويقال : كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً ، كما قاله للديغ : سليم ، وقال ابن الأنباري : الطب من الأضداد يقال لعلاج الداء : طب ، والسحر من الداء ، يقال له : طب .

قوله : أو يؤخذ . بفتح الواو مهموز ، وتشديد الحاء المعجمة وبعدها ذال معجمة ، أي : يحبس عن امرأته ، ولا يصل إلى جماعها ولا يتخذ بضم الهمزة : الكلام الذي يقوله الساحر :-

قوله : يحل بضم الياء وفتح الحاء مبني للمفعول .

قوله : وينشر بتشديد المعجمة .

قوله : قال لا بأس به ... إلى آخره يعني أن النشرة لا بأس بها لأنهم يريدون بها الإصلاح ، أي : إزالة السحر ، ولم ينه عما يراد به الإصلاح ، إنما ينهى عما يضر . وهذا الكلام من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم هل هو نوع من السحر أم لا ؟ فأما أن يكون ابن المسيب يقني بجواز قصد الساحر الكافر المأمور بقتله ليعمل السحر ، فلا يظن به ذلك ، حاشاه منه ، ويدل على ذلك قوله : إنما يريدون به الإصلاح ، فأني إصلاح في السحر ؟ بل كله فساد وكفر واقع أعلم .

قال : وروي عن الحسن أنه قال : لا يحل السحر إلا ساحر .

ش : هذا الأثر . ذكره ابن الجوزي في « جامع المسانيد » بغير إسناد ، ولفظه « لا يطلق السحر إلا ساحر » ، وروى ابن جرير في

« التهذيب » من طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأساً إذا كان بالرجل سحر أن يمشي إلى من يطلق عنه ، فقال : هو صلاح ، قال قتادة : وكان الحسن يكره ذلك يقول : لا يعلم ذلك إلا ساحر ، قال : فقال سعيد بن المسيب : إنما نهى الله عما يضر ، ولم ينه عما ينفع .

قوله : عن الحسن هو ابن أبي الحسن ، واسمه يسار بالتحانية والمهمل البصري الأنصاري مولاهم ثقة فقيه إمام فاضل من خيار التابعين . مات سنة عشر ومائة ، وقد قارب التسعين .

قوله : قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور . وهي نوعان : حل بسحر مثله ، وهو الذي من عمل الشيطان . وعليه يحمل قول الحسن ، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يجب ، فيبطل عمله عن المسحور ، والثاني : النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية المباحة ، فهذا جائز .

ش : هذا الثاني هو الذي يحمل عليه كلام ابن المسيب ، أو على نوع لا يدري هل هو من السحر أم لا ؟ وكذلك ما روي عن الإمام أحمد من إجازة النشرة ، فإنه محمول على ذلك وغلط من ظن أنه أجاز النشرة السحرية ، وليس في كلامه ما يدل على ذلك ، بل لما سئل عن الرجل يحل السحر قال : قد رخص فيه بعض الناس . قيل : إنه يجعل في الطنجير ماء ويغيب فيه ؟ فنفض يده وقال : لا أدري ما هذا ؟ قيل له : أفترى أن يؤتى مثل هذا ؟ قال لا أدري ما هذا ؟ وهذا صريح في النهي عن النشرة على الوجه المكروه . وكيف يميزه ؟ وهو الذي روى الحديث

أنها من عمل الشيطان ولكن لما كان لفظ النشرة مشتركاً بين الجائزة والتي من عمل الشيطان ، ورأوه قد أجاز النشرة ظنوا أنه قد أجاز التي من عمل الشيطان ، وحاشاه من ذلك . وبما جاء في صفة النشرة الجائزة ما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال : بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر باذن الله تقرأ في إناء فيه ماء ثم تصب على رأس المسحور الآية التي في يونس (فلما ألقوا قال موسى : ما جئتم به السحر إن الله سببطه إن الله لا يصلح عمل المفسدين . . . إلى قوله : ولو كره المجرمون) [يونس : ٨٢ ، ٨٣] وقوله : (فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون) [الأعراف : ١١٨] إلى آخر أربع آيات . وقوله : (إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) [طه : ٧٠] وقال ابن بطال : في كتاب وهب بن منبه انه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ، ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل ، ثم يحسو منه ثلاث حسوات ، ثم يغتسل به فإنه يذهب عنه كل ما به وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

باب

ما جاء في التطير

مصدر تطير يتطير والطيرة أيضاً - بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن - مصدر تطير ، يقال : تطير طيرة وتخير خيرة ولم يجيء من المصادر هكذا غيرها ، وأصله فيما يقال : التطير بالسوانح ، والبوارح من الطير والظباء وغيرها ، وكان ذلك يصددهم عن مقاصدهم . فإذا أرادوا أمراً ، فإن رأوا الطير مثلاً طار بيته ، تيمنوا به ، وإن طار يسرة ، تشاءموا به ، فنفاه

الشرع وأبطله ونهى عنه وأخبر أنه ليس له . أنير في جلب نفع أو دفع ضرر . قال المدائني : سألت رؤبة بن العجاج ما السانع ؟ قال : ما ولاك ميامنه قلت : فما البارح ؟ قال : ما ولاك ميامره . قال والذي يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح ، والذي يجيء من خلفك هو القاعد والقعيد . ولما كانت الطيرة باباً من الشرك منافياً للتوحيد أو لكماله ، لأنها من القاء الشيطان وتخويفه ووسوسته ، ذكره المصنف في كتاب « التوحيد » تحذيراً منها وإرشاداً إلى كمال التوحيد بالتوكل على الله . واعلم أن ما كان معتنياً بها قابلاً بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره ، وتفتحت له أبواب الوسوس فيأسمعه ويراه ويعطاه ، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه ، وينكد عليه عيشه ، فالواجب على العبد التوكل على الله ومتابعة رسول الله ﷺ ، وأن يمضي لشأنه لا يردده شيء من الطيرة عن حاجته فيدخل في الشرك .

قال : وقول الله تعالى (ألا إنما طائروهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون) [الأعراف : ١٣١] .

ش : أول الآية قوله تعالى : (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بمومي ومن معه) الآية . المعنى أن آل فرعون إذا أصابتهم الحسنة ، أي : الحصب والسعة والعافية على ما فسرهم مجاهد وغيره قالوا : لنا هذه ، أي : نحن الجديرون الحقيقيون به ، ونحن أهلها وإن تصبهم سيئة ، أي : بلاء وضيق وقحط يطيروا بمومي ومن معه فيقولون : هذا بسبب مومي وأصحابه أصابنا بشؤمهم كما يقوله المتطير لمن يتطير به . فأخبر سبحانه أن طائروهم عنده فقال : ألا إنما طائروهم عند الله . قال ابن

عباس : طائرهم ما قضي عليهم وقدر لهم وفي رواية ذكرها ابن جرير عنه قال : الأمر من قبل الله ، وفي رواية شؤمهم عند الله ومن قبله ، أي : إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله . وقيل : المعنى أن الشؤم العظيم هو الذي عند الله من عذاب النار لا هذا الذي أصابهم في الدنيا والظاهر أن هذه الآية كقوله تعالى : (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله) [النساء : ٧٨] أي : أن الكل من الله لكن هذا الشؤم الذي أجراه عليهم من عنده هو بسبب أعمالهم لا بسبب موسى عليه السلام ومن معه . وكيف يكون ذلك وما جاء به خير محض . والطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير ، وقوله : (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ، أي أن أكثرهم جهال لا يدرون ، ولو فهموا أو عقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى عليه السلام شيء يقتضي الطيرة .

وقال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : ألا طائر آل فرعون وغيرهم - وذلك أنصباؤهم من الرخاء والحصب وغير ذلك من أنصباء الخير والشر - إلا عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون أن ذلك كذلك ، فليجهلهم بذلك كانوا يتطيرون بموسى ومن معه .

قال : وقوله : (قالوا : طائركم معكم) الآية [يس : ٢٠] .

ش : المعنى والله أعلم ، أي : حظكم وما نالكم من خير وشر معكم بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا ، بل بيبغكم وعداوتكم فطائر الباغي الظالم معه وهو عند الله كما قال تعالى : (وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند

الله فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ([النساء: ٧٨] ولو فقهوا أو فهموا لما تطيروا بما جئت به ، لأنه ليس فيما جاء به الرسول ﷺ ما يقتضي الطيرة ، كأنه خير محض لا شرف فيه ، وصلاح لا فساد فيه ، وحكمة لا عيب فيها ، ورحمة لا جور فيها . فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا ، لأن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والحكمة والرحمة ، بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم وهو عند الله كسائر مخلوقاتهم ، وأنصابتهم التي ينالونها منه بأعمالهم . ويحتمل أن يكون المعنى (طائرهم معكم) أي : راجع إليكم ، فالتطير الذي حصل لكم إنما يعود إليكم ، وهذا من باب القصاص في الكلام ونظيره قوله عليه السلام : « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم » ذكره ابن القيم .

وقوله : (ألن ذكرتم) أي : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله ، وإخلاص العبادة له قابليتمونا بهذا الكلام ، وتوعدقونا بل أنتم قوم مسرفون .

وقال قتادة : ألن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ؟ ومطابقة الآيتين لمقصود الباب ظاهر ، لأن الله تعالى لم يذكر الطير إلا عن أعدائه ، فهو من أمر الجاهلية ، لا من أمر الإسلام .

قال : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » أخرجاه زاد مسلم : « ولا نوء ولا غول » .

ش : قوله : « لا عدوى » . قال أبو السعادات : بالعدوى اسم من الإعداء كالدعوى والبقوى من الادعاء والابقاء . يقال : أعداء الداء يعديه

عداء ، وهو أن يصيبه مثل ما يصاحب الداء . وذلك أن يكون بيعير
جرب مثلاً يتقي مخالطته بإبل أخرى حذار أن يتعدى ما به من الجرب
إليها ، فيصيبها ما أصابه . انتهى .

وفي بعض روايات هذا الحديث فقال أعرابي : يا رسول الله فما بال
الابل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجبيء البعير الأجرب ، فيدخل فيها
فيجربها كلها ؟ قال : « فن أعدى الأول » . وفي رواية في « مسلم » أن
أبا هريرة كان يحدث بحديث « لا عدوى » ويحدث عن النبي ﷺ أنه قال « لا يورد
مريض على مصح » ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث « لا يورد مريض
على مصح » وأمسك عن حديث « لا عدوى » فراجعوه فيه ، فقالوا :
ممعناك تجدته ، فأبى أن يعترف به . قال أبو سلمة الراوي عن أبي هريرة :
فلا أدري أنسي أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر .

وقد روى حديث « لا عدوى » جماعة من الصحابة منهم أنس بن مالك ،
وجابر بن عبد الله ، والسائب بن يزيد وابن عمر وغيرهم ، فليسان أبي هريرة
له لا يضر . وفي بعض روايات هذا الحديث « وفر من المجدوم كما تفر
من الأسد » وقد اختلف العلماء في ذلك اختلافاً كثيراً فردت طائفة
حديث « لا عدوى » بأن أبا هريرة رجع عنه . قالوا : والأخبار الدالة على
الاجتناب أكثر فالصير إليها أولى ، وهذا ليس بشيء ، لأن حديث
« لا عدوى » قد رواه جماعة كما تقدم .

وعكست طائفة هذا القول ، ورجحوا حديث « لا عدوى » وزيفوا
ما سواه من الأخبار ، وأعلوا بعضها بالشذوذ كحديث « فر من المجدوم
برارك من الأسد » وبأن عائشة أنكرته كما روى ابن جرير عنها : أن

امرأة سألتها عنه فقالت : ما قال ذلك ، ولكنه قال : « لا عدوى » وقال :
« فمن أعدى الأول » قالت : وكان لي مولى به هذا الداء ، فكان يأكل في
صحافي ، ويشرب في أقداحي ، وينام على فراشي . وهذا أيضاً ليس بشيء ،
فإن الأحاديث في الاجتناب ثابتة .

وحملت طائفة أخرى الاثبات والنفي على حالتين مختلفتين ، فحيث جاء
لا عدوى كان المخاطب بذلك من قوي يقينه ، وصح توكله بحيث لا يستطيع
أن يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى ، كما يستطيع أن يدفع التطير الذي
يقع في نفس كل واحد ، لكن القوي اليقين لا يتأثر به ، وهذا كما أن
قوة الطبيعة تدفع العلة وتبطلها . وحيث جاء الاثبات كان المراد به ضعيف
الايان والتوكل ذكره بعض أصحابنا واختاره وفيه نظر . وقال مالك
لما سئل عن حديث « فر من المجدوم » : ما سمعت فيه بكراهية وما أرى
ما جاء من ذلك إلا مخافة أن يقع في نفس المؤمن شيء . ومعنى هذا
أنه نفى العدوى أصلاً ، وحمل الأمر بالمجانبة على حسم المادة وسد الذريعة ،
لئلا يحدث للمخاطب شيء من ذلك فيظن أنه بسبب المخالطة ، فيثبت العدوى
التي نفاها الشارع . وإلى هذا ذهب أبو عبيد وابن جرير والطحاوي وذكره
القاضي أبو يعلى عن أحمد .

قلت : وأحسن من هذا كله ما قاله البيهقي ، وتبعه ابن الصلاح
وابن القيم وابن رجب وابن مفلح وغيرهم أن قوله « لا عدوى » على
الوجه الذي كانوا يعتقدونه في الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى
وأن هذه الأمراض تعدي بطبعها ، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة
الصحيح من به شيء من هذه العيوب سبباً لحدوث ذلك . ولهذا قال :

« فر من المجذوم كما تفر من الأسد » وقال : « لا يورد ممرض على مصح ، وقال في الطاعون : « من سمع به بأرض فلا يقدم عليه ، وكل ذلك بتقدير الله تعالى كما قال : « فمن أعدى الأول » يشير إلى أن الأول انما جوب بقضاء الله وقدره ، فكذلك الثاني وما بعده . وروى الإمام أحمد ، والترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً ، « لا يعدي شيء » قالها ثلاثاً فقال الاعرابي : يا رسول الله ، النقية من الجرب تكون بشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها . فقال رسول الله ﷺ : « فمن أجرب الأول لا عدوى ولا هامة ولا صفر خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصاها ورزقها » فأخبر عليه السلام أن ذلك كله بقضاء الله وقدره كما دل عليه قوله تعالى : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها) [الحديد : ٢٣] .

وأما أمره بالفراغ من المجذوم ، ونفيه عن إيراد الممرض على المصح ، وعن الدخول إلى موضع الطاعون ، فإنه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى ، وجعلها أسباباً للهلاك والأذى ، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية ، فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء أو في النار أو تحت الهدم أو نحو ذلك كما جرت العادة بأنه يهلك ويؤذي ، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم ، وقدم بلد الطاعون ، فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف ، والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره .

وأما إذا قوي التوكل على الله ، والإيمان بقضائه وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله ورجاء منه أن لا يحصل

به ضرر ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك لا سيما إذا كانت فيه مصلحة عامة أو خاصة وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة ثم قال : « كل ثمة بالله وتوكلأ عليه » ، وقد أخذ به الإمام أحمد . وروى ذلك عن عمر وابنه وسلمان رضي الله عنهم . ونظير ذلك ما روي عن خالد بن الوليد من أكل السم ومن مثنى سعد بن أبي وقاص وأبي مسلم الحولاني بالجيش على متن البحر قاله ابن رجب .

قوله : « ولا طيرة » . قال ابن القيم : هذا يحتمل أن يكون نفياً أو يكون نهياً ، أي : لا تطيروا ، ولكن قوله في الحديث : « ولا عدوى ولا صفر ولا هامة » يدل على أن المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانها . والنفي في هذا أبلغ من النهي ، لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره ، والنهي إنما يدل على المنع منه وفي « صحيح مسلم » عن معاوية بن الحكم السلمي أنه قال لرسول الله ﷺ : « وما أنا أناس يتطيرون فقال : « ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم ، فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به ، فوممه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لا ما رآه وسمعه . فأوضح ﷺ لأمته الأمر وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ، ولا فيها دلالة ، ولا نصباً سبباً لما يخافونه ويحذرونه ، ولتطمئن قلوبهم ، وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله ونزل بها كتبه ، وخلق لأجلها السموات والأرض ، وهو الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم ، لئلا يبقى فيها علق منها ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة .

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى واعتصم بحبله المتين ، وتوكل على الله ، قطع هاجس الطيرة من قبل استقوارها ، وبادر خواطرها من قبل استمكانها . قال عكرمة : كنا جلوساً عند ابن عباس فمر طائر يصيح . فقال رجل من القوم : خير خير فقال ابن عباس : لا خير ولا شر فبادره بالانكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر . وخرج طاووس مع صاحب له في سفر ، فصاح غراب ، فقال الرجل : خير ، فقال طاووس : وأي خير عند هذا لاتصحبني انتهى . ملخصاً . ولكن يشكل عليه ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أنس مرفوعاً « لا طيرة ، والطيرة على من تطير » فظاهر هذا أنها تكون سبباً لوقوع الشر بالتطير .

وجوابه : أن المراد بذلك من تطير تطيراً منهياً عنه ، وهو أن يعتد على ما يسمعه ويراه حتى يئنه بما يريد من حاجته ، فإنه قد يصيبه ما يكرهه عقوبة له ، فأما من توكل على الله ، ووثق به بحيث علق قلبه بالله خوفاً ورجاء ، وقطعه عن الالتفات إلى غير الله . وقال : وفعل ما أمر به فإنه لا يضره ذلك . وأما من اتقى أسباب الضرر بعد انعقادها بالأسباب المنهي عنها ، فإنه لا ينفعه ذلك غالباً كمن ردت الطيرة عن حاجته خشية أن يصيبه ما تطير به ، فإنه كثيراً ما يصاب بما يخشى به .

وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة ، منها قوله عليه السلام : « الشؤم في ثلاث في المرأة والدابة والدار » وفي رواية « لا عدوى ولا طيرة » والشؤم في ثلاث « الحديث وفي حديث آخر « إن كان فقي الفرس والمرأة والمسكن » رواهما البخاري فأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك وقالت : كذب والذي أنزل الفرقان على

أبي القاسم من حدث بها ولكن رسول الله ﷺ كان يقول : « كانت
أهل الجاهلية يقولون : إن الطيرة في المرأة والدار والدابة ، ثم قرأت
عائشة (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب
من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير [الحديد : ٢٣] رواه أحمد
وابن خزيمة والحاكم وصححه بمعناه . وقال الخطابي وابن قتيبة : هذا مستثنى
من الطيرة ، أي : الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يكره سكنها
أو امرأة يكره صحبتها أو فرس أو خادم فليفارق الجميع بالبيع والطلاق
ونحوه ، ولا يقيم على الكراهة والتأذي به فإنه شؤم .

وقالت طائفة : لم يجزم النبي ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ، بل علقه
على الشرط كما ثبت ذلك في الصحيح ، ولا يلزم من صدق الشرطية صدق
كل واحد بمفردها ، قالوا : والراوي غلط .

قلت : لا يصح تغليظه مع إمكان حمله على الصحة ، ورواية تعليقه
بالشرط لا تدل على نفي رواية الجزم .

وقالت طائفة أخرى : الشؤم بهذه الثلاثة إنما يلحق من تشاءم بها
فيكون شؤمها عليه ، ومن توكل على الله ولم يتشاءم ولم يتطير لم تكن
مشؤومة عليه ، قالوا : ويدل عليه حديث أنس « الطيرة على من تطير ،
وقد يجعل الله سبحانه تطير العبد وتشؤمه سبباً لحلول المكروه كما يجعل
الثقة به والتوكل عليه ، وإفراذه بالخوف والرجاء من أعظم الأسباب التي
يدفع بها الشر . وقال ابن القيم : إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ،
ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله وإنما غاية أن الله سبحانه قد يخلق
أعياناً منها مشؤومة على من قاربها وسكنها ، وأعياناً مباركة لا يلحق من

قاربها منها شؤم ولا شر . وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولداً مباركاً
يريان الخير على وجهه ، ويعطي غيرهما ولداً مشؤوماً يران الشر على وجهه ،
وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرهما . فكذلك الدار والمرأة
والفرس . والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس فيخلق بعض
هذه الأعيان سعوداً مباركة ، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن
والبركة له ، ويخلق بعضها نحوساً يتنحس بها من قاربها ، وكل ذلك بقضائه
وقدره كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة ، كما خلق
المسك وغيره من الأرواح الطيبة ، ولذ بها من قاربها من الناس ، وخلق
ضدها وجعلها سبباً لألم من قاربها من الناس ، والفرق بين هذين النوعين
مدرك بالحس فكذلك في الديار والنساء والحيل فهذا لون والطيرة الشركية
لون . انتهى .

قلت : ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة أو أمة أو دابة ، أن يسأل
الله من خيرها وخير ما جبلت عليه ، ويستعيذ من شرها وشر ما جبلت
عليه ، وكذلك ينبغي لمن سكن داراً أن يفعل ذلك ولكن يبقى على
هذا أن يقال : هذا جار في كل مشؤوم فما وجه خصوصية هذه الثلاثة
بالذكر ؟ وجوابه أن أكثر ما يقع التطير في هذه الثلاثة فخصت بالذكر
لذلك ، ذكره في « شرح السنن » .

ومنها ما روى مالك عن يحيى بن سعيد قال : « جاءت امرأة إلى
رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله دار سكنناها والعدد كثير والمال
وافر فقل العدد وذهب المال ، فقال النبي ﷺ : دعوها ذميمة » رواه
أبو داود عن أنس بن مالك وجوابه أن هذا ليس من الطيرة المنهي عنها ،

بل أمرهم بالانتقال لأنهم استنقلوها واستوحشوا منها ، لما لحقهم فيها ليتعجلوا الراحة ، ما دخلهم من الجزع ، لأن الله قد جعل في غرائز الناس استنقال ما نالهم الشر فيه ، وإن كان لا سبب له في ذلك وحب من جرى على يديه الخير لهم ، وإن لم يردم به ، ولأن مقامهم فيها قد يقودهم إلى الطيرة ، فيوقعهم ذلك في الشرك ، والشر الذي يلحق المتطير بسبب طيرته ، وهذا بمنزلة الخارج من بلد الطاعون غير فار منه ، ولو منع الناس الرحلة من الدار التي تتوالى عليهم فيها المصائب والمحن ، وتعذر الأرزاق مع سلامة التوحيد في الرحلة ، للزم كل من ضاق عليه رزق في بلد أو قلة فائدة صناعته أو تجارته فيها أن لا ينتقل عنها إلى غيرها .

ومنها فإن قيل : ما الفرق بين الدار وبين موضع الوباء حيث رخص في الانتقال عن الدار دون موضع البلاء ؟ أجاب بعضهم أن الأمور بالنسبة إلى هذا المعنى ثلاثة أقسام ، أحدها : ما لا يقع التطير منه إلا نادراً ، أو لا مكرراً فهذا لا يصغى إليه كنعيب الغراب في السفر ، وصراخ بومة في دار ، وهذا كانت العرب تعتبره . ثانيها : ما يقع به ضرر ، ولكنه يعم ولا يخصص ويندر ولا يتكرر كالوباء ، فهذا لا يقدم عليه ولا يفر منه . وثالثها : سبب محض ولا يعم ويلحق به الضرر لطول الملائمة كالمرأة ، والفرس والدار فيباح له الاستبدال ، أو التوكل على الله ، والإعراض عما يقع في النفس ذكره في « شرح السنن » .

ومنها : حديث اللقمة لما منع النبي ﷺ حرباً ومرة من حلبها وأذن ليعيش رواه مالك .

وجوابه : أن ابن عبد البر قال : ليس هذا عندي من باب الطيرة

لأنه محال أن ينهى عن شيء ويفعله ، وإنما هو من طلب الفأل الحسن .
وقد كان أخبرهم عن أقبح الأسماء أنه حرب ومرة . فالمراد بذلك حتى
لا يتسمى بها أحد . وقد روى ابن وهب في « جامعہ » ما يدل على هذا
فإنه قال في هذا الحديث : « فقام عمر بن الخطاب فقال : أتتكم يا رسول
الله أم أصمت ؟ فقال : بل أصمت وأخبرك بما أردت ، ظننت يا عمر أنها
طيرة ولا طير إلا طيره ، لا خير إلا خيره ، ولكن أحب الفأل الحسن ،
وعلى هذا تجري بقية الأحاديث التي توهم بعضهم أنها من باب الطيرة .

قوله : « ولا هامة » بتخفيف الميم على الصحيح . قال الفراء : الهامة
طائر من طير الليل كأنه يعني : البومة قال ابن الأعرابي : كانوا
يشتمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول : نعت إلى نفسي أو
أحدًا من أهل داري . وقال أبو عبيد : كانوا يزعمون أن عظام الميت
تصير هامة فتطير ، ويسمون ذلك الطائر الصدى ، وبه جزم ابن رجب قال :
وهذا شبهه باعتقاد أهل التناسخ أن أرواح الموتى تنتقل إلى أجساد حيوانات
من غير بعث ولا نشور ، وكل هذه اعتقادات باطلة جاء الإسلام بإبطالها
وتكذيبها . ولكن الذي جاءت به الشريعة أن أرواح الشهداء في حواصل
طير خضر تأكل من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها إلى أن يردها الله إلى
أجسادها . وذكر الزبير بن بكار في « الموفقيات » أن العرب كانت في
الجاهلية تقول : إذا قتل الرجل ، ولم يأخذ بثأره ، خرجت من رأسه
هامة ، وهي دودة فتدور حول قبره وتقول : اسقوني . وفي ذلك
يقول شاعرهم :

يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

قال : وكانت اليهود تزعم أنها تدور حول قبره سبعة أيام ثم تذهب .
 قوله : ولا صفر . بفتح الفاء روى أبو عبيد القاسم بن سلام في « غريب
 الحديث » له عن رؤبة أنه قال : هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس
 وهي أعدى من الجرب عند العرب . فعلى هذا فالمراد بنفيه ما كانوا
 يعتقدونه من العدوى ، ويكون عطفه على العدوى من عطف الخاص
 على العام . ومن قال بهذا : سفيان بن عيينة وأحمد والبخاري وابن جرير ،
 وقال آخرون : المراد به شهر صفر ، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه
 في النسيء ، وكانوا يحلون الحرم ، ويحرمون صفر مكانه . وهذا قول مالك
 وفيه نظر . وروى أبو داود عن محمد بن راشد عن سمعته يقول : إن
 أهل الجاهلية كانوا يستشثمون بصفر ويقولون : إنه شهر مشؤم فأبطل
 النبي ﷺ ذلك ، قال ابن رجب : ولعل هذا القول أشبه الأقوال ، وكثير
 من الجهال يتشائم بصفر ، وربما ينتهي عن السفر فيه . والتشاؤم بصفر
 هو من جنس الطيرة المنهي عنها ، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام ، كيوم
 الأربعاء وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة .

قوله : « ولا نوء » النوء واحد الأنواء وسيأتي الكلام عليه في باب
 ما جاء في الاستسقاء بالأنواء .

قوله : « ولا غول » هو بالفتح مصدر معناه : البعد والمهلك وبالضم
 الاسم ، وجمعه أغوال وغيلان وهو المراد هنا . قال أبو السعادات : الغول
 واحد الغيلان ، وهو جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن
 الغول في القلاة تترامى للناس فتتغول تغولاً ، أي : تقتلون تلوناً في صور
 شتى وتغولهم ، أي : تضلهم عن الطريق وتهلكهم ، فنفاه النبي ﷺ وأبطله .

وقيل : قوله : لاغول ليس نفياً لعين الغول ووجوده ، وإنما فيه إبطال
زعم العرب في تلونه بالصور المختلفة واغتياله . فيكون المعنى بقوله :
« لاغول » أنها لا تستطيع أن تضل أحداً ويشهد له الحديث الآخر « لاغول
ولكن السعالي سحرة الجن ، أي : ولكن في الجن سحرة لهم تليس
وتخييل ، ومنه الحديث « إذا تغولت الغيلان فادروا بالأذان » أي :
ادفعوا شرها بذكر الله ، وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها عدها ، ومنه
حديث أبي أيوب : كان لي تمر في سهوة فكانت الغول تجيء فتأخذ .

قال : ولها عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « لا عدوى ولا
طيرة ويعجبني الفأل ، قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة » .

ش قوله : « ويعجبني الفأل » قال أبو السعادات : الفأل مهموز
فيما يسر ويسوء ، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء ، وربما استعملت فيما
يسر ، يقال : تفاءلت بكذا ، وتفاءلت على التخفيف والقلب . وقد
أولع الناس بترك الهمة تخفيفاً ، وإنما أحب الفأل ، لأن الناس إذا أملوا
فائدة الله ، ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي ، فهم على
خير ، ولو غلطوا في جهة الرجاء ، فإن الرجاء لهم خير ، وإذا قطعوا
أملهم ورجاءهم من الله كان ذلك من الشر .

وأما الطيرة ، فإن فيها سوء الظن بالله ، وتوقع البلاء . ومعنى التفاؤل مثل
أن يكون رجل مريض ، فيتفاءل بما يسمع من كلام فيسمع آخر يقول :
يا سالم ، أو يكون طالب ضالة ، فيسمع آخر يقول : يا واجد ، فيقع
في ظنه أنه برىء من مرضه ويجد ضالته ومنه الحديث قيل : يا رسول الله
ما الفأل فقال « الكلمة الصالحة » .

قوله : قاتوا : وما القاتل ، قال « الكلمة الطيبة » بين لهم ﷺ أن القاتل يعجبه فدل أنه ليس من الطيرة المنهي عنها .

قال ابن القيم : ليس في الاعجاب بالقاتل ومحبة شيء من الشرك بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة ، ومن حب الفطرة الانسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلاتها ، كما أخبرهم أنه حب إليه من الدنيا النساء والطيب . وكان يحب الحلوى والعسل ، ويجب حسن الصوت بالقرآن والأذات ويستمتع إليه ويجب معالي الأخلاق ، ومكارم الشيم ، وبالجملة يجب كل كمال وخير وما يفضي إليها . والله سبحانه وتعالى قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبة ، وميل نفوسهم إليه ، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع ، استبشرت بها النفس ، وانشرح لها الصدر ، وقوي بها القلب ، وإذا سمعت اضدادها ، أوجب لها ضد هذه الحال ، فأحزنها ذلك ، وأفر لها خوفاً وطيرة وانكماشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه ، فأورث لها ضرراً في الدنيا ، ونقصاً في الايمان ، ومقارفة للشرك .

وقال الحليمي : وإنما كان ﷺ يعجبه القاتل ، لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق ، والتفاؤل حسن ظن به ، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال .

قال : ولأبي داود بسند صحيح عن عقبه بن عامر قال : ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : « أحسنها القاتل ولا ترد معاصماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ،

ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

ش : قوله : عن عقبة بن عامر هكذا وقع في نسخ التوحيد ، وصوابه عروة بن عامر كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما ، وهو مكّي اختلف في نسبه ، فقال أحمد بن حنبل في روايته : عن عروة بن عامر القرشي ، وقال غيره الجني ، واختلف في صحبه فقال الباوردي : له صحبة ، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين ، وقال المزي : لا صحبة له تصح .

قوله : فقال « أحسنها الفأل » . قد تقدم أنه ﷺ كان يعجبه الفأل . وروى الترمذي وصححه عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا خرج لحاجته يجب أن يسمع يا نجيح ياراشد . وروى أبو داود عن بريدة أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيء ، وكان إذا بعث عاملاً سأل عن اسمه فإذا أعجبه ، فرح به وإن كره اسمه ، رؤي كراهيته ذلك في وجهه . وإسناده حسن . فهذا في استعمال الفأل . قال ابن القيم في الكلام على الحديث المشروح : أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها ، فأبطل الطيرة ، وأخبر أن الفأل منها ، ولكنه خير منها ، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد ، ونفع أحدهما ومضرة الآخر ، ونظير هذا من الرقى بالشرك ، واذنه في الرقية إذا لم يكن فيها شرك لما فيها من المنفعة الحالية عن المفسدة .

قوله : « ولا ترد مسأماً » قال الطيبي : تعريض بأن الكافر بخلافه .

قوله : « اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، أي : لا تأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات ، بل أنت

وحدك لا شريك لك ، الذي تأتي بالحسنات وتدفع السيئات . وهذا دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة ، وتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً ، ويعد من اعتقدها سقياً مشركاً .

قوله : « ولا حول ولا قوة إلا بك » استعانة بالله تعالى على فعل التوكل ، وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سبباً لوقوع المكروه وعقوبة لفاعلها وذلك إنما يصدر من تحقيق التوكل الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ، ودفع المكروهات . والحول : التحول والانتقال من حال إلى حال ، والقوة على ذلك ، أي : لا حول ولا قوة على ذلك الحول إلا بك ، وذلك يفيد التوكل على الله لأنه علم وعمل ، فالعلم معرفة القلب بتوحد الله بالنفع والضرر ، وعامة المؤمنين بل كثير من المشركين يعلمون ذلك ، والعمل هو ثقة القلب بالله وفراغه من كل ما سواه ، وهذا عزيز ويختص به خواص المؤمنين ، وهو داخل في هذه الكلمة ، لأن فيها التبرؤ من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيته والاقرار بقدرته على كل شيء ، وبعبء العبد عن كل شيء إلا ما أقدره عليه ربه ، وهذا نهاية توحيد الربوبية الذي يثمر التوكل وتوحيد العبادة . -

قال : وعن ابن مسعود مرفوعاً « الطيرة شرك الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهب بالتوكل » رواه أبو داود والترمذي وصححه وجعل آخره من قول ابن مسعود .

ش : هذا الحديث رواه أيضاً ابن ماجة وابن حبان ولفظ أبي داود « الطيرة شرك الطيرة شرك ثلاثاً » .

قوله : « الطيرة شرك » صريح في تحريم الطيرة وأنها من الشرك لما فيها من تعلّق القلب على غير الله . وقال ابن حمدان في « الرعاية » تكره الطيرة ، وكذا قال غير واحد من أصحاب أحمد . قال ابن مفلح : والأولى القطع بتحريمها . ولعل مرادهم بالكراهة التحريم ، قلت : بل الصواب القطع بتحريمها ، لأنها شرك وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهة الاصطلاحية ؟ فإن كان القائل بكراهتها أراد ذلك فلا ريب في بطلانه . قال في « شرح السنن » : وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعاً ، أو يدفع عنهم ضرراً إذ عملوا بموجبه فكأنهم شركوه مع الله تعالى .

قوله : « وما منا إلا » . قال أبو القاسم الأصبهاني والمنذري : في الحديث إضمار والتقدير : وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك انتهى . وحاصله : وما منا إلا من يعتريه التطير ، ويسبق إلى قلبه الكراهة فيه . فحذف ذلك اعتماداً على فهم السامع . وقال الخليلي : حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة وهذا نوع من أدب الكلام .

قوله : « ولكن الله يذهب بالتوكل » أي : ما منا إلا من يقنع في قلبه ذلك ، ولكن لما توكلنا على الله وآمنا به ، واتبعنا ما جاء به الرسول ﷺ ، واعتقدنا صدقه ، أذهب الله ذلك عنا ، وأقر قلوبنا على السنة واتباع الحق .

قوله : وجعل آخره من قول ابن مسعود . قال الترمذي : سمعت محمد بن إسماعيل يقول : كان سليمان بن حرب يقول في هذا : « وما منا » هذا عندي من قول ابن مسعود ، فالترمذي نقل ذلك عن سليمان بن

حرب وواقفه على ذلك العلماء . قال ابن القيم : وهو الصواب ، فإن الطيرة نوع من الشرك .

قال : ولاحمد من حديث ابن عمرو « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك قالوا : فما كفارة ذلك قال : أن تقول : اللهم لاخير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك » .

ش : هذا الحديث رواه الإمام أحمد والطبراني عن عبد الله بن عمرو ابن العاص مرفوعاً وفي إسناده ابن هبة وفيه اختلاف ، وبقيّة رجاله ثقات . قوله : من حديث ابن عمرو . هو عبد الله بن عمرو بن العاص ابن وائل السهمي أبو محمد ، وقيل : أبو عبد الرحمن أحد السابقين الكثيرين من الصحابة وأحد العبادة الفقهاء مات في ذي الحجة ليلالي الحرة على الأصح بالطائف .

قوله : « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك » ، وذلك أن التطير هو التشاؤم بالشئ الموثي أو المسموع فإذا استعملها الإنسان فرجع بها عن سفره ، وامتنع بها عما عزم عليه ، فقد قرع باب الشرك ، بل ولجه وبرئ من التوكل على الله ، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله ، وذلك قاطع له عن مقام إياك نعبد ، وإياك نستعين ، فيصير قلبه متعلقاً بغير الله ، وذلك شرك ، فيفسد عليه إيمانه ، ويبقى هدفاً لسهام الطيرة . ويقضي له الشيطان من ذلك ما يفسد عليه دينه ودنياه ، وكل من هلك بذلك وخسر الدنيا والآخرة .

قوله : فما كفارة ذلك إلى آخر الحديث . هذا كفارة لما يقع من الطيرة ، ولكن يمضي مع ذلك ويتوكل على الله ، وفيه الاعتراف بأن

الطير خلق مسخر مملوك لله ، لا يأتي بخير ولا يدفع شراً ، وأنه لا خير في الدنيا والآخرة إلا خير الله ، فكل خير فيها فهو من الله تعالى تفضلاً على عباده ، وإحساناً إليهم وأن الإلهية كلها لله ليس فيها لأحد من الملائكة والأنبياء عليهم السلام شركة ، فضلاً عن أن يشرك فيها ما يراه ويسمعه بما يتشاهم به .

قوله : من حديث الفضل بن العباس « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك » .

ش : هذا الحديث رواه أحمد في « المسند » ولفظه حدثنا حماد بن خالد قال : ثنا ابن علقمة عن مسلمة الجني قال : سمعته يحدث عن الفضل بن عباس قال : خرجت مع رسول الله ﷺ يوماً فبرح ظبي فمال في شقه فاحتضنته فقلت : يا رسول الله تطيرت قال : « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك » هكذا رواه أحمد وفي إسناده نظر . وقرأت بخط المصنف : فيه رجل يختلف فيه ، وفيه انقطاع أي : بين مسلم وبين الفضل وهو ابن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ وأكبر ولد العباس . قال ابن معين : قتل يوم اليرموك في عهد أبي بكر رضي الله عنه . وقال غيره : قتل يوم مرج الصفر ، سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة . قال أبو داود : قتل بدمشق كان عليه درع النبي ﷺ . وقال الواقدي وابن سعد : مات في طاعون حمراء .

قوله : « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك » . هذا حد للطيرة المنهي عنها بأنها ما أوجب للإنسان أن يمضي لما يريد ولو من الفأل ، فإن الفأل إنما يستحب لما فيه من البشارة والملازمة للنفس ، فأما أن يعتمد عليه ويمضي

لأجله مع نسيان التوكل على الله ، فإن ذلك من الطيرة . وكذلك إذا رأى أو سمع ما يكره فتشام به ورده عن حاجته ، فإن ذلك أيضاً من الطيرة .

باب

ما جاء في التنجيم

المراد هنا ذكر ما يجوز من التنجيم وما لا يجوز وما ورد فيه من الوعيد . قال شيخ الإسلام : التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية . وقال الخطابي : علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكواكب والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان ، كأوقات هبوب الرياح ، ومجيء المطر ، وظهور الحر والبرد ، وتغير الأسعار ، وما كان في معناها من الأمور التي يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها ، ويدعون أن لها تأثيراً في السفليات ، وأنها تجري على قضايا موجباتها ، وهذا منهم تحكم على الغيب ، وتعاطي لعلم قد استأثر الله به لا يعلم الغيب سواه .

قلت : واعلم أن التنجيم على ثلاثة أقسام : أحدها : ما هو كفر بإجماع المسلمين ، وهو القول بأن الموجودات في العالم السفلي مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات ، وأن الكواكب فاعلة مختارة وهذا كفر بإجماع المسلمين ، وهذا قول الصابئة المنجمين الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولهذا كانوا يعظمون الشمس والقمر والكواكب تعظيماً يسجدون لها ويتذللون لها ويسبحونها تساييح معروفة في كتبهم ، ويدعونها دعوات لاتنبغي إلّا لحالقتها وفاطرها وحده لا شريك له ، وبينون

لكل كوكب هيكلاً ، أي : موضعاً لعبادته ويصورون فيه ذلك الكوكب ، ويتخذونه لعبادته وتعظيمه ، ويزعمون أن روحانية ذلك الكوكب تنزل عليهم وتخطبهم وتقضي حوائجهم . وتلك الروحانيات هي الشياطين تنزلت عليهم ، وخطببتهم وقضت حوائجهم . وقد صنف بعض المتأخرين في هذا الشرك مصنفاً وذكر صاحب « التذكرة » فيها .

الثاني : الاستدلال على الحوادث الأرضية بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها ونحو ذلك ، ويقول : إن ذلك بتقدير الله ومشيئته ، فلا ريب في تحريم ذلك ، واختلف المتأخرون في تكفير القائل بذلك . وينبغي أن يقطع بكفره ، لأنها دعوى لعلم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه بما لا يدل عليه .

الثالث : ما ذكره المصنف في تعلم المنازل وسيأتي الكلام عليه .

قوله قال البخاري في « صحيحه » قال قتادة : خلق الله هذه النجوم لثلاث ، زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به

ش : هذا الأثر علقه البخاري في « صحيحه » كما قال المصنف وأخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ والخطيب في كتاب « النجوم » عن قتادة . ولفظه قال : إن الله إنما جعل هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير ذلك ، فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به ،

ولإن ناساً يجهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة : من أعرس
بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان
كذا وكذا ، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والطويل
والقصير والحسن والذميم ، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر
بشيء من هذا الغيب ، ولو أن أحداً علم الغيب ، لعلمه آدم الذي خلقه
الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء .

قوله : خلق الله هذه النجوم لثلاث ... إلى آخره . هذا مأخوذ من
القرآن في قوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً
للشياطين) [الملك : ٦] وقوله تعالى : (وعلامات وبالنجم هم يهتدون)
[النحل : ١٧] . وفيه إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا كما هو
ظاهر الآية ، وفيه حديث رواه ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال
رسول الله ﷺ : « أما السماء الدنيا ، فإن الله خلقها من دخان ، وجعل
فيها سراجاً وقمراً منيراً ، وزينها بمصابيح النجوم ، وجعلها رجوماً للشياطين
وحفظاً من كل شيطان رجيم .

وقوله : وعلامات ، أي : دلالات على الجهات والبلدان ونحو ذلك
يُهتدى بها بصيغة المجهول . أي : يهتدي بها الناس في ذلك كما قال تعالى :
(وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر [الأنعام : ٩٨])
وليس المراد : يهتدون بها في علم الغيب ولهذا قال : فمن تأول فيها ذلك ،
أي : زعم فيها غير ما ذكر الله تعالى في هذه الثلاث ، فادعى بها علم
الغيب ، فقد أخطأ ، أي : حيث تكلم رجماً بالغيب وأضاع نصيبه ،
أي : حظه من عمره ، لأنه اشتغل بما لا فائدة فيه ، بل مضرحة محضة ،

وتكلف ما لا علم له به ، أي : تعاطى شيئاً لا يتصور علمه ، لأن أخبار السماء ، والأمور المغيبة لا تعلم إلا من طريق الكتاب والسنة ، وليس فيها أزيد مما تقدم . قال الداوودي : قول قتادة في النجوم حسن إلا قوله : أخطأ وأضاع نصيبه ، فإنه قصر في ذلك ، بل قائل ذلك كافر .
فان قلت : إن المنجمين قد يصدقون بعض الأحيان .

قل : صدقهم كصدق الكهان يصدقون مرة ويكذبون مرة ، وليس في صدقهم مرة ما يدل على أن ذلك علم صحيح كالكهان .

وقد استدل بعض المنجمين بآيات من كتاب الله على صحة علم التنجيم منها قوله : (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) .

والجواب أنه ليس المراد بهذه الآية أن النجوم علامات على الغيب يهتدي بها الناس في علم الغيب ، وإنما المعنى وعلامات ، أي : دلالات على قدرة الله وتوحيده . وعن قتادة ومجاهد أن من النجوم ما يكون علامة لا يهتدى إلا بها ، وقيل : إن هذا من تمام الكلام الأول وهو قوله : (وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بهم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون وعلامات) [النحل : ١٦ ، ١٧] أي : وألقى لكم معالم يعلم بها الطريق والأراضي من الجبال الكبار والصغار يستدل بها المسافرون في طرقهم . وقوله : (وبالنجم هم يهتدون) قال ابن عباس في الآية : « وعلامات » يعني : معالم الطرق بالنهار (وبالنجم هم يهتدون) قال : يهتدون به في البحر في أسفارهم . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . فهذا القول ونحوه هو معنى الآية ، فالاستدلال بها على صحة علم التنجيم استدلال على ما يعلم فساد بالاضطرار من دين الاسلام بما لا يدل عليه

لا نصاً ولا ظاهراً ، وذلك أفسد أنواع الاستدلال ، فإن الأحاديث جاءت عن النبي ﷺ بإبطال علم التنجيم وذهمه ، منها حديث « من اقتبس شعبة من علم النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر ، الحديث وقد تقدم . وعن عبد الله بن محيريز التابعي الجليل أن سليمان بن عبد الملك دعاه فقال : لو علمت علم النجوم فازددت إلى علمك فقال : قال رسول الله ﷺ : « إن أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث : حيف الأئمة ، وتكذيب القدر ، وإيمان بالنجوم » وعن رجاء بن حيوة أن النبي ﷺ قال : « بما أخاف على أمتي التصديق بالنجوم ، والتكذيب بالقدر ، وحيف الأئمة » رواهما عبد بن حميد فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث ، لاسيما وقد احتج به من أرسله . وعن أبي محجن مرفوعاً : « أخاف على أمتي من بعدي ثلاثاً : حيف الأئمة ، وإيماناً بالنجوم ، وتكذيباً بالقدر » رواه ابن عساكر وحسنه السيوطي . وعن أنس مرفوعاً « أخاف على أمتي بعدي خصلتين تكذيباً بالقدر ، وإيماناً بالنجوم » رواه أبو يعلى وابن عدي والخطيب في كتاب « النجوم » وحسنه السيوطي أيضاً .

وروى الإمام أحمد والبخاري عن ابن عمر مرفوعاً : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، لا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » لفظ البخاري . وعن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد طهر الله هذه الجزيرة من الشرك ما لم تضلهم النجوم » رواه ابن مردويه . وعن ابن عمر مرفوعاً : « تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر

ثم انتهوا ، وعن أبي هريرة قال : « نهى رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم » رواهما ابن مردويه والخطيب .

وعن سمرة بن جندب أنه خطب فذكر حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أما بعد : فإن ناساً يزعمون أن كسوف هذه الشمس ، وكسوف هذا القمر ، وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض ، وأنهم قد كذبوا ولكنهم آيات من آيات الله يعتبر بها عباده لينظر من يحدث له منهم توبة » رواه أبو داود . وفي الباب أحاديث وآثار غير ما ذكرنا . فتبين بهذا أن الاستدلال بالآية على صحة أحكام النجوم من أفسد أنواع الاستدلال . .

ومنها قوله تعالى عن إبراهيم : (فنظر نظرة في النجوم فقال لمي سقيم [الصافات : ٨٩ ، ٩٠] والجواب : أن هذا من جنس استدلاله بالآية الأولى في الفساد ، فأين فيها ما يدل على صحة أحكام النجوم بوجه من وجوه الدلالات ؟ وهل إذا رفع إنسان بصره إلى النجوم ، فنظر إليها ، دل ذلك على صحة علم النجوم عنده ؟ وكل الناس ينظرون إلى النجوم ، فلا يدل ذلك على صحة علم أحكامها . وكان هذا ما شعر أن إبراهيم عليه السلام إنما بعث إلى الصابئة المنجيين مبطلاً لقولهم مناظراً لهم على ذلك .
فإن قيل على هذا : فما فائدة نظراته في النجوم ؟ .

قيل : نظراته في النجوم من معارض الأفعال ليتوصل به إلى غرضه من كسر الأصنام كما كان قوله : (بل فعله كبيرهم هذا) [الأنبياء : ٦٤] فمن ظن أن نظراته في النجوم ليستنبط منها علم الأحكام ، وعلم أن طالعه يقضي عليه بالنحس ، فقد ضل ضلالاً بعيداً . ولهذا جاء في حديث الشفاعة

الصحيح أنه عليه السلام يقول : « لست هناك ويذكر ثلاث كذبات كذبهن » وعدها العلماء قوله : « إني سقيم » . قوله : « بل فعله كبيرهم هذا » وقوله لسارة : هي أختي .

فلو كان قوله : إني سقيم أخذه من علم النجوم لم يعتذر من ذلك ، وإنما هي من معاريض الأفعال ، فلماذا اعتذر منها كما اعتذر من قوله : (بل فعله كبيرهم) ذكر ذلك ابن القيم . لكن قوله : وعدها العلماء . يدل على أنه لم يستحضر الحديث الوارد في عدها . وقد رواه أحمد والبخاري وأصحاب « السنن » وابن جرير وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لم يكذب إبراهيم عليه السلام غير ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله قوله : إني سقيم ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله في سارة هي أختي » لفظ ابن جرير .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد مرفوعاً « في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال : ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دين الله ، فقال : إني سقيم ، وقال : بل فعله كبيرهم هذا ، وقال للملك حين أراد امرأته : هي أختي ، وفي إسناده ضعف . وقال قتادة في الآية : العرب تقول لمن تفكر : نظر في النجوم قال ابن كثير : يعني قتادة : أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يكذبهم به فقال : إني سقيم ، أي : ضعيف .

قال : وكوه قتادة تعلم منازل القمر ولم يرخص ابن عيينة فيه ذكره حرب عنها ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحق .

ش : هذا هو القسم الثالث من علم التنجيم وهو تعلم منازل الشمس والقمر ، للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصلوات والفصول ، وهو كما

ترى من اختلاف السلف فيه ، فما ظنك بدينك القسمين ؟! ومنازل القمر ثمانية وعشرون كل ليلة في منزلة منها ، فكروا قتادة وسفيان بن عيينة تعلم المنازل ، وأجازه أحمد وإسحاق وغيرهما .

قال الخطابي : أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال ، وتعلم به جهة القبلة ، فإنه غير داخل فيما نهي عنه ، وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل مادام متناقصاً ، فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي ، وإذا أخذ في الزيادة ، فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي . وهذا علم يصح دركه بالمشاهدة ، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوا له من الآلات التي يستغني الناظر فيها عن مراعات مدته ومراصدته ، وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة ، فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ، ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها . مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة ، ويشاهدوها على حال الغيبة عنها ، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم ، إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم ، ولا مقصرين في معرفته .

وروى ابن المنذر عن مجاهد أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر قلت : لأنه لا محذور في ذلك . وعن إبراهيم أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به . رواه ابن المنذر . قال ابن رجب : والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير فإنه باطل محرم قليله وكثيره . وأما علم التسيير ، فتعلم ما يحتاج إليه للاهتداء ، ومعرفة

القبلة ، والطرق جائز عند الجمهور ، وما زاد عليه لا حاجة اليه لشغله عما هو أهم منه ، وربما أدى تدقيق النظر فيه إلى إساءة الظن بمحارب المسلمين ، كما وقع من أهل هذا العلم قديماً وحديثاً ، وذلك يفضي اعتقاده إلى خطأ السلف في صلاحهم وهو باطل . انتهى مختصراً .

قلت : وهذا هو الصحيح إن شاء الله ، ويدل على ذلك الآيات والأحاديث التي تقدمت . وهل يدخل في النهي وقت الكسوف الشمسي والقمرى أم لا ؟ رجع ابن القيم أنه لا يدخل .

قوله : ذكره حرب عنها . هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرماني الفقيه من أجلة أصحاب الإمام أحمد روى عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين وأبي خيثمة وابن أبي شبة وغيرهم ، وله مصنفات جليلة منها كتاب « المسائل » التي سئل عنها الإمام أحمد وغيره وأورد فيها الأحاديث والآثار ، وأظنه روى أثر قتادة وابن عينة فيها . مات سنة ثمانين ومائتين . وإسحاق هو إبراهيم بن مخلد أبو يعقوب الخنظلي النيسابوري الإمام المعروف بابن راهويه ، روى عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عينة وطبقته قال أحمد : إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين ، وروى عنه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم ، وروى هو أيضاً عن أحمد مات سنة تسع وثلاثين ومائتين .

قال : وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر » رواه أحمد وابن حبان في « صحيحه » .

ش : هذا الحديث رواه أيضاً الطبراني والحاكم وقال : صحيح وأقره

الذهبي . وقام الحديث « ومن مات وهو مدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة نهر يجري من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهن » .
قوله : عن أبي موسى هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بفتح المهملة وتشديد الضاد المعجمة أبو موسى الأشعري ، صحابي جليل استعمله النبي ﷺ وأمره عمر ثم عثمان ، وهو أحد الحكمين بصفين مات سنة خمسين .

قوله : « ثلاثة لا يدخلون الجنة » هذا من نصوص الوعيد التي كره السلف تأويلها وقالوا : أمروها كما جاءت . وإن كان صاحبها لا ينتقل عن الملة عندهم ، وكان المصنف رحمه الله يميل إلى هذا القول . وقالت طائفة : هو على ظاهره فلا يدخل الجنة أصلاً مدمن الخمر ونحوه ، ويكون هذا مخصصاً لعموم الأحاديث الدالة على خروج الموحدين من النار ودخولهم الجنة ، وحمله أكثر الشراح على من فعل ذلك مستحلاً ، أو على معنى أنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد العذاب إن لم يتوبوا والله أعلم .

قوله : مدمن الخمر ، أي : المداوم على شربها .

قوله : وقاطع الرحم . أي : القرابة كما قال تعالى : (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) [محمد : ٢٣ ، ٢٤] .

قوله : « ومصدق بالسحر » مطلقاً ويدخل فيه التنجيم لحديث : « من اقتبس علماً من النجوم اقتبس علماً من السحر » وهذا وجه مطابقة الحديث للباب . قال الذهبي في « الكبائر » : ويدخل فيه تعلم السيمياء وعملها ، وهو محض السحر ، وعقد المرأة عن زوجته ، ومحبة الزوج .

لأمرأته وبغضها وبغضه ، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة قال : **ودع كثير**
من الكبائر بل عامتها إلا الأقل يجهل خلق من الأمة تحريره ، وما بلغه
الزجر فيه ، ولا الوعيد عليه ، فهذا الضرب فيهم تفصيل ، فينبغي للعالم
أن لا يجهل على الجاهل ، بل يرفق به ويعلمه سببا إذا قرب عهده بجعله ،
كمن أسر وجلب إلى أرض الإسلام وهو تركي فبالجهد أن يتلفظ بالشهادتين
فلا يأثم أحد إلا بعد العلم بحاله وقيام الحجة عليه .

باب

ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

أي : من الوعيد ، والمواد نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء جمع
نوء وهي منازل القمر . قال أبو السعادات : وهي ثمانية وعشرون منزلة
ينزل القمر كل ليلة منزلة منها ومنه قوله تعالى : (والقمر قدرناه منازل)
[يسن : ٤٠] يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع
الفجر ، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت في الشرق فتتقضي جميعها مع
انقضاء السنة . وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة ، وطلوع رقيبا
يكون مطر ، وينسبون له إليها فيقولون : مطرنا بنوء كذا ، وإثنا سمي
نوءاً لأنه إذا سقط الساطط منها بالمغرب ناء الطالع بالشرق ينوء نوءاً ،
أي : نهض وطلع .

قال : **وقول الله تعالى (وتجدلون رزقكم أنكم تكذبون)**
[الواقعة : ٨٣] .

روى الإمام أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم والضياء
في « المختارة » عن علي رضي الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ :

« وتجعلون رزقكم يقول : شكركم أنكم تكذبون ، يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا وينجم كذا وكذا » وهذا أولى ما فسرت به الآية . وروي ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم . وهو قول جمهور المفسرين ، وبه يظهر وجه استدلال المصنف بالآية على الترجمة ، فالمعنى على هذا : وتجعلون شكركم لله على ما أنزل اليكم من الغيث والمطر والرحمة أنكم تكذبون ، أي : تنسبونه إلى غيره .

وقال ابن القيم : أي : تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به يعني : القرآن . قال الحسن : تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون ، قال : وخسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به . قلت : والآية تشمل المعنيين .

قال : عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونها : الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة » ، وقال : النائحة إذا لم تلب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودورق من جرب » رواه مسلم .

ش : قوله : عن أبي مالك الأشعري اسمه الحارث بن الحارث الشامي صحابي تفرد عنه بالرواية أبو سلام ، وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غير هذا ، جزم به الحافظ .

قوله : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونها » أي : من أفعال أهلها بمعنى أنها معاصي ستفعلها هذه الأمة ، إما مع العلم بتحريمها وإما مع الجهل بذلك كما كان أهل الجاهلية يفعلونها . والمراد بالجاهلية هنا

ما قبل المبعث ، سموا بذلك لفرط جهلهم ، وكل ما يخالف ما جاءت به الأنبياء والمرسلون فهو جاهلية منسوبة إلى الجاهل ، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل وإنما يفعله جاهل . قال شيخ الاسلام : أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمًا لمن لم يتركه ، وهذا يقتضي أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم ، فهو مذموم في دين الاسلام وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها . ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم وهذا كقوله تعالى : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) [الأحزاب : ٣٤] فإن في ذلك ذمًا للتبرج ، وذمًا لحال الجاهلية الأولى وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة .

قوله : « الفخر بالأحساب » أي : التشرف بالآباء والتعظيم بعد مناقبهم ومآثرهم وفضائلهم وذلك جهل عظيم ، إذ لا شرف إلا بالتقوى كما قال تعالى : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً) [سبأ : ٣٨] الآية . وقال تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) [الحجرات : ١٤] وروى أبو داود عن أبي هريرة مرفوعاً « إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقى ، أو فاجر شقى ، الناس بنو آدم وآدم من تراب ، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن » والأحساب جمع حسب وهو ما يعده الانسان له ولآبائه من شجاعة وفصاحة ونحو ذلك .

قوله : « والطعن في الأنساب » أي : الوقوع فيها بالذم والعيب أو يقدح في نسب أحد من الناس فيقول : ليس هو من ذرية فلان أو

يعيره بما في آبائه من المطاعن ، ولهذا لما عير أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بأمه ، قال النبي ﷺ لأبي ذر : « أعيرته بأمه ؟ ! إنك امرؤ فيك جاهلية » متفق عليه . فدل ذلك أن التعيير بالأنساب من أخلاق الجاهلية ، وأن الرجل مع فضله وعلمه ودينه قد يكون فيه بعض هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية ، ولا يوجب ذلك كفره وفسقه . قاله شيخ الإسلام .

قوله : والاستسقاء بالنجوم . أي : نسبة السقيا ومجيء المطر إلى النجوم والانواء ، وهذا هو الذي خافه النبي ﷺ على أمته ، كما روى الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أخاف على أمتي ثلاثاً : استسقاء بالنجوم ، وحيف السلطان ، وتكذيباً بالقدر » .

إذا تبين هذا ، فالاستسقاء بالنجوم نوعان : أحدهما أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم ، فهذا كفر ظاهر ، إذ لا خالق إلا الله ، وما كانت المشركون هكذا ، بل كانوا يعلمون أن الله هو المنزل للمطر ، كما قال تعالى : (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) [العنكبوت : ٦٤] وليس هذا معنى الحديث ، فالنبي ﷺ أخبر أن هذا لا يزال في أمته ، ومن اعتقد أن النجم ينزل المطر ، فهو كافر .

الثاني : أن ينسب إنزال المطر إلى النجم ، مع اعتقاده أن الله تعالى هو الفاعل لذلك المنزل له ، إلا أنه سبحانه وتعالى أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم ، فحكى ابن مفلح خلافاً في مذهب أحمد

في تحريمه وكراهته ، وصرح أصحاب الشافعي بجوازه ، والصحيح أنه محرم ، لأنه من الشرك الخفي ، وهو الذي أراده النبي ﷺ ، وأخبر أنه من امر الجاهلية ، ونفاه ، وبطله ، وهو الذي كان يزعم المشركون ، ولم يزل موجوداً في هذه الأمة إلى اليوم ، وأيضاً فإن هذا من النبي ﷺ حماية لجناب التوحيد وسداً لذرائع الشرك ولو بالعبادات الموهمة التي لا يقصدها الانسان ، كما قال لرجل قال له : ما شاء الله وشئت ، قال : « أجعلني لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده » .

وفيه التنبيه على ما هو أولى بالمنع من نسبة السقيا إلى الأنواء كدعاء الأموات ، وسؤالهم الرزق والنصر والعافية ونحو ذلك من المطالب ، فإن هذا من الشرك الأكبر ، سواء قالوا : إنهم شفعاؤنا إلى الله ، كما قال المشركون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، أو اعتقدوا أنهم يخلقون ، ويرزقون وينصرون استقلالاً على سبيل الكرامة ، كما ذكره بعض عباد القبور في رسالة صنفها في ذلك ، لأنه إذا منع من إطلاق نسبة السقيا إلى الأنواء مع عدم القصد والاعتقاد ، فلأن يمنع من دعاء الأموات والتوجه إليهم في الملمات مع اعتقاد أن لهم أنواع التصرفات أولى وأحرى .

قوله : « والنياحه » . أي : رفع الصوت بالندب على الميت ، لأنها سخط لقضاء الله ومعارضة لأحكامه وسوء أدب مع الله ، ولا كذلك ينبغي أن يفعل المملوك مع سيده ، فكيف يفعل مع ربه وسيده ومالكة ولله الذي لا إله له سواه ، الذي كل قضاؤه عدل ، وأيضاً ففيها تفويت الأجر مع ذهاب المصيبة .

وفي الحديث دليل على شهادة أن محمداً رسول الله ، لأن هذه الأخبار من أنباء الغيب ، فأخبر بها النبي ﷺ ، فكان كما أخبر

قوله : وقال « النائحة إذا لم تتب قبل موتها » . فيه تنبيه على أن الوعيد والذم لا يلحق من تاب من الذنب ، وهو كذلك بالاجماع ، فعلى هذا إذا عرف شخص بفعل ذنوب توعده الشرع عليها بوعيد لم يجوز إطلاق القول بلحقه لذلك الشخص المعين ، كما يظنه كثير من أهل البدع ، فإن عقوبات الذنوب ترتفع بالتوبة ، والحسنات الماحية ، والمصائب المكفرة ، ودعاء المؤمنين بعضهم لبعض ، وشفاعة نبيهم ﷺ فيهم ، وعفو الله عنهم .

وفيه أن من تاب قبل الموت ما لم يغفر ، فإن الله يتوب عليه ، كما في حديث ابن عمر مرفوعاً « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغفر » رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان في « صحيحه » .

قوله : تقام يوم القيامة . أي : تبعث من قبرها ، وعليها سربال من قطران ودرع من جرب . قال القوطي : السربال : واحد السراويل ، وهي الثياب والقمص ، يعني أنهن يلبطن بالقطران ، فيصير لهن كالقميص حتى يكون اشتعال النار والتصاقها بأجسادهن أعظم ورائحتهن أنزأ وألها بسبب الجرب أشد . وروي عن ابن عباس أن القطران هو النحاس المذاب ، وروى الثعلبي في « تفسيره » عن عمر بن الخطاب أنه سمع نائحة فأتاها ، فضرها بالدرة حتى وقع خمارها ، فقيل يا أمير المؤمنين : المرأة المرأة قد وقع خمارها قال : إنها لا حرمة لها .

قال : ولها عن زيد بن خالد قال : صلى لنا رسول الله ﷺ

صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل الناس . فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب .

ش : قوله : عن زيد بن خالد . أي : الجني المدني ، صحابي مشهور ، مات سنة ثمان وستين بالكوفة ، وقيل غير ذلك ، وله خمس وثمانون سنة .

قوله : صلى لنا ، أي : صلى بنا ، فاللام بمعنى الباء . قال الحافظ : وفيه جواز إطلاق ذلك مجازاً ، وإنما الصلاة لله .

قوله : بالحديبية . بالمهملة والتصغير وتحذف ياؤها وتثقل .

قوله : على إثر . بكسر الهزة وسكون المثلثة على المشهورة ، وهو ما يعقب الشيء .

قوله : سماء . أي : مطر ، وأطلق عليه سماء لكونه ينزل من جهة السماء .

قوله : فلما انصرف . أي : من صلاته لا من مكانه ، كما يدل عليه قوله : أقبل على الناس . أي : التفت إليهم بوجهه الشريف ، ففيه دليل على أنه لا ينبغي للإمام إذا صلى أن يجلس مستقبل القبلة ، بل ينصرف إلى المأمومين ، كما صحت بذلك الأحاديث .

قوله : « هل تدرون » لفظ استفهام ، ومعناه التنبيه . وفي رواية النسائي « ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة » وهذا من الأحاديث القدسية .

قال الحافظ : وهي تحمل على أن النبي ﷺ أخذها عن الله بواسطة أو بلا واسطة ، وفيه إلقاء العالم المسألة على أصحابه لينبئهم ، وإخراج العالم التعليم المسألة بالاستفهام فيها ذكره المصنف .

قوله : قالوا : الله ورسوله أعلم . فيه حسن الأدب للمسؤول عما لا يعلم ، وأنه يقول ذلك أو نحوه ، ولا يتكلف ما لا يعنيه .

قوله : قال « أصبح من عبادي » . الإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر .

فان قيل : هذا يدل على أن المراد بالكفر هنا هو الأكبر .

قيل : ليس فيه دليل إذ الأصغر يصدر من الكفار .

قوله : مؤمن بي وكافر . المراد بالكفر هنا هو الأصغر بنسبة ذلك إلى غير الله وكفران نعمته ، وإن كان يعتقد أن الله تعالى هو الخالق للمطر المنزل له بدليل قوله في الحديث « فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته » إلى آخره ، فلو كان المراد هو الأكبر ، لقال : أنزل علينا المطر نوء كذا ، فأتى بباء السببية ليدل على أنهم نسبوا وجود المطر إلى ما اعتقدوه سبباً . وفي رواية « فأما من حمدي على سقاي وأثنى علي ، فذاك من آمن بي » فلم يقل فأما من قال : إني المنزل للمطر ، فذاك من آمن بي ، لأن المؤمنين والكفار يقولون ذلك . فدل على أن المراد إضافة ذلك إلى غير الله ، وإن كان يعتقد أن الفاعل لذلك هو الله . وروى النسائي والإسماعيلي نحوه وقال في آخره : « وكفر بي أو كفر نعمتي » . وفي رواية أبي صالح عن أبي هريرة عند مسلم « قال الله تعالى : ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين » وله من حديث

ابن عباس د أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، الحديث . وفي حديث معاوية الليثي مرفوعاً د يكون الناس مجدين فينزل الله عليهم رزقاً من رزقه فيصبحون مشركين ، يقولون : مطرنا بنوء كذا ، رواه أحمد ، فبين الكفر والشرك المراد هنا بأن نسبة ذلك إلى غيره تعالى ، بأن يقال : مطرنا بنوء كذا ، قال ابن قتيبة : كانوا في الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء إما يصنعه على زعمهم ، وإما بعلامته ، فأبطل الشرع قولهم ، وجعله كفراً ، فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنفاً في ذلك ، فكفروه ككفر شرك ، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة ، فليس بشرك ، لكن يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة ، لأنه لم يقع في شيء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة ، فيحمل الكفر فيه على المعنيين .

وقال الشافعي : من قال : مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا في وقت كذا ، فلا يكون كفراً ، وغيره من الكلام أحب إلي منه .

قلت : قد يقال : إن كلام الشافعي لا يدل على جواز ذلك ، وإنما يدل على أنه لا يكون كفر شرك ، وغيره من الكلام أحسن منه . أما كونه يجوز إطلاق ذلك أو لا يجوز ، فالصحيح أنه لا يجوز ، لما تقدم أن معنى الحديث هو نسبة السقيا إلى الأنواء لفظاً ، وإن كان القائل لذلك يعتقد أن الله هو المنزل للمطر ، فهذا من باب الشرك الخفي في الألفاظ ، كقوله : لولا فلان لم يكن كذا ، وفيه معنى قوله تعالى : (وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) [البقرة : ٢١٧] فإن كثيراً

من النعم قد تجر الانسان إلى شر ، كالذين قالوا : مطرنا بنوء كذا بسبب نزول النعمة .

وفيه التفطن للايمان في هذا الموضع . ذكره المصنف ، يشير إلى أن المراد به هنا نسبة النعمة إلى الله وحده عليها ، كما في قوله تعالى : « فأما من حمدني على سقايي وأثنى علي فذاك من آمن بي ، وقوله » فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته « الحديث .

وفيه أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة . ذكره المصنف .

قوله : فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته . أي : من نسبه إلى الله واعتقد أنه أنزله بفضل الله ورحمته من غير استحقاق من العبد على ربه وأثنى به عليه ، فقال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، وفي الرواية الأخرى « فأما من حمدني على سقايي ، وأثنى علي فذاك من آمن بي ، وهكذا يجب على الانسان أن لا يضيف نعم الله إلى غيره ولا يحمد على ما لا يضيفها إلى خالقها ومقدرها الذي أنعم بها على العبد بفضل الله ورحمته ، ولا ينافي ذلك الدعاء لمن أحسن بها إليك ، وذكر ما أولاكم من المعروف إذا سلم لك دينك ، والسر في ذلك - والله أعلم - أن العبد يتعلق قلبه بمن يظن حصول الخير له من جهته وإن كان صنع له في ذلك ، وذلك نوع شرك خفي فمنع من ذلك .

قوله : وأما من قال : مطرنا بنوء كذا إلى آخره . كالصريح فيها ذكرنا أن المراد نسبة ذلك إلى غير الله ، وإن كان يعتقد أن المنزل للمطر هو الله . ولهذا لم يقل : فأما من قال : أنزل علينا المطر أو أمطرنا بنوء كذا . قال المصنف : وفيه التفطن للكفر في هذا الموضع ، يشير

إلى أن المراد بالكفر هنا هو نسبة النعمة إلى غير الله كالتوء ونحوه على ما تقدم ، ولما كان إنزال الغيث من أعظم نعم الله وإحسانه إلى عباده لما اشتمل عليه من منافعهم ، فلا يستغنون عنه أبداً كان من شكره الواجب عليهم أن يضيفوه إلى البر الرحيم المنعم ، ويشكروه فإن النفوس قد جبلت على حب من أحسن إليها ، والله تعالى هو المحسن المنعم على الإطلاق الذي ما بالعباد من نعمة فمنه وحده ، كما قال تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله) [النحل : ٥٤] .

قال : ولها من حديث ابن عباس معناه .

وفيه قال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، فأنزل الله هذه الآية : (فلا أقسم بمواقع النجوم) [الواقعة : ٧٦] إلى قوله : (تكذبون) .

ش قوله : ولها . الحديث لمسلم فقط ، ولفظه عن ابن عباس قال : « مطر الناس على عهد النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، قال فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم) حتى بلغ (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) .

قوله : قال بعضهم : ذكر الواقدي في « مغازيه » عن أبي قتادة أن عبد الله بن أبي هو القائل في ذلك الوقت : مطرنا بنوء الشعري ، وفي صحة ذلك نظر .

قوله : (فلا أقسم بمواقع النجوم) هذا قسم من الله عز وجل ، يقسم بما شاء من خلقه ، وهو دليل على عظمة القسم به وتشریفه .

وتقديره : أقسم بمواقع النجوم ، ويكون جوابه : (إنه القرآن كريم)
[الواقعة : ٧٨] ، فعلى هذا تكون « لا » صلة لتأكيد النفي ،
فتقدير الكلام : ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة ،
بل هو قرآن كريم .

قال ابن جرير : قال بعض أهل العربية : معنى قوله (فلا أقسم)
فليس الأمر كما تقولون ، ثم استؤنف القسم بعد ، فقل : (أقسم) ؛
ومواقع النجوم . قال ابن عباس : يعني نجوم القرآن ، فإنه نزل جملة ليلة
القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفزاً في السنين بعد ،
ثم قرأ ابن عباس هذه الآية . ومواقعها : نزولها شيئاً بعد شيء ، وقيل :
النجوم هي الكواكب ، ومواقعها : مساقطها عند غروبها ، قال مجاهد :
مواقع النجوم يقال : مطالعها ومشارقها ، واختاره ابن جرير . وعلى هذا
فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم وبين المقسم عليه وهو القرآن
من وجوه : أحدها أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ،
وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الغي والجهل ، فتلك هداية في الظلمات
الحسية ، وآيات القرآن هداية في الظلمات المعنوية ، فجمع بين الهدايتين
مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة للعالم وفي القرآن من الزينة الباطنة ،
ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين ، وفي آيات القرآن من رجوم
شياطين الانس والجن ، والنجوم آياته المشهودة العيانية ، والقرآن آياته
المتلوة السمعية مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على
آياته القرآنية ومواقعها عند النزول ، ذكره ابن القيم .

وقوله : (وإله القسم لو تعلمون عظيم) [الواقعة : ٧٧] قال .

ابن كثير : أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمتهم لعظمتم المقسم عليه . وقوله : (إنه لقرآن كريم) [الواقعة : ٧٨] هذا هو المقسم عليه ، وهو القرآن أي : إنه وحي الله وتنزيله وكلامه ، لا كما يقول الكفار : إنه سحر وكمهانة أو شعر ، بل هو قرآن كريم ، أي : عظيم كثير الخير ، لأنه كلام الله . قال ابن القيم : فوصفه بما يقتضي حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته ، فإن الكريم هو البهي الكثير الخير ، العظيم النفع ، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله ، والله سبحانه وصف نفسه بالكريم ، ووصف به كلامه ، ووصف به عرشه ، ووصف به ما أكثر خيره ، وحسن منظره من النبات وغيره ، ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن . قال الأزهري : الكريم : اسم جامع لما يحمد ، والله تعالى كريم جميل الفعال ، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان ، والعلم والحكمة .

وقوله : (في كتاب مكنوث) [الواقعة : ٧٩] قال ابن كثير : أي : معظم في كتاب معظم محفوظ موقر . وقال ابن القيم : اختلف المفسرون في هذا ف قيل : هو اللوح المحفوظ ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة وهو المذكور في قوله : (في صحف مكرومة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة) [عبس : ١٤ ، ١٧] ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة . قوله : (لا يسه إلا المطهرون) [الواقعة : ٨٠] فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه .

وقوله : (لا يسه إلا المطهرون) قال ابن عباس : لا يسه إلا

المطهرون قال : الكتاب الذي في السماء . وفي رواية لا يمسه إلا المطهرون يعني : الملائكة وقال قتادة : لا يمسه عند الله إلا المطهرون ، أما في الدنيا ، فإنه يمس المجوسي النجس والمنافق الرجس . قال : وهي في قراءة ابن مسعود : ما يمس إلا المطهرون . واختار هذا القول كثيرون منهم ابن القيم ورجحه . وقال ابن زيد : زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين فأخبر الله تعالى أنه لا يمس إلا المطهرون كما قال : (وما تنزلت به الشياطين) إلى قوله : (المعزولون) [الشعراء : ١١١ ، ١١٣] . وقال ابن كثير : وهذا قول جيد وهو لا يخرج عن القول قبله . وقال البخاري في « صحيحه » في هذه الآية : لا يجد طعمه إلا من آمن به . قال ابن القيم : وهذا من إشارة الآية وتليها وهو أنه لا يلتذ به وبقرائه وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقاً ، وأنزله على رسوله وحياً ، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه منه حرج بوجه من الوجوه .

وقال آخرون : لا يمس إلا المطهرون ، أي : من الجنابة والحدث قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناه الطلب . قالوا : والمراد بالقرآن هنا المصحف ، كما في حديث ابن عمر مرفوعاً : نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو . واحتجوا على ذلك بما رواه مالك في « الموطأ » عن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم : أن لا يمس القرآن إلا طاهر .

وقوله : (تنزيل من رب العالمين) [الواقعة : ٨١] قال ابن كثير : أي : هذا القرآن منزل من الله رب العالمين ، وليس كما يقولون :

إنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو الحق الذي لا مربة فيه وليس وراءه حق نافع . وفي هذه الآية إثبات أنه كلام الله تكلم به . قال ابن القيم : ونظيره (ولكن حق القول مني) [السجدة : ١٤] وقوله : (قل نزل به روح القدس من ربك بالحق) [النحل : ١٠٣] وإثبات علو الله سبحانه على خلقه ، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول ، وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل ، ولا يرد عليه قوله : (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) [الزمر : ٧] لأننا نقول : إن الذي أنزلها من فوق سمواته قد أنزلها لنا بأمره . قال ابن القيم : وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستزمنة للملكه لهم ، وتصرفه فيهم ، وحكمه عليهم ، وإحسانه وإنعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى ، ويدعهم مهلاً ، ويخلقهم عبثاً ، لا يأمرهم ولا ينههم ، ولا يشيهم ولا يعاقبهم ؟ فن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن نزل على رسوله ، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به . وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس ، وتلك إنما تكون لحواص العقلاء .

وقوله : (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) [الواقعة : ٨٢] قال مجاهد : أي : تريدون أن تمالؤوهم فيه وتركتموا إليهم . قال ابن القيم : ثم وبجهم سبحانه على وضعهم الإدهان في غير موضعه ، وأنهم يدهنون غيا حقه أن يصدع به ، ويفرق به ، ويعض عليه بالنواجذ ، وتثني عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ومحارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوي

عنه يئمة ولا يسرة ، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ، ولا محاكمة إلا إليه ، ولا مخاصمة إلا به ، ولا اعتداء في طرق المطالب العالية إلا بتورده ، ولا شفاء إلا به . فهو روح الوجود ، وحياة العالم ، ومدار السعادة ، وقائد الفلاح ، وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد ، ونور البصائر ، فكيف تطلب المداينة بما هذا شأنه ؟! ولم ينزل للمداينة ، وإنما أنزل بالحق وللحق ، والمداينة إنما تكون في باطل قوي لا يتمكن إزالته ، أو في حق ضعيف لا يتمكن إقامته ، فيحتاج المداين إلى أن يترك بعض الحق ، ويلتزم بعض الباطل . فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداين فيه ؟! وقوله : (وتعملون رزقكم أنكم تكذبون) [الواقعة : ٨٣] ، تقدم الكلام عليها أول الباب ، والله أعلم .

باب

قول الله تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) [البقرة : ١٦٦] .

ش : لما كانت محبة الله سبحانه هي أصل دين الإسلام ، الذي يدور عليه قطب رحاها ، فبكمالها يكمل الإيمان ، وبنقصانها ينقص توحيد الانسان ، نبه المصنف رحمه الله على وجوبها على الأعيان ، ولهذا جاء في الحديث « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه » الحديث رواه الترمذي والحاكم . وفي حديث آخر « أحبوا الله بكل قلوبكم » وفي حديث معاذ بن جبل في حديث المنام « وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك » رواه أحمد والترمذي وصححه .

وما أحسن ما قال ابن القيم في وصفها : هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون ، وإلى عملها شمر السابقون ، وعليها تفرغ المحبون ، فهي قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وقوة العيون ، وهي الحياة التي من حرمها ، فهو من جملة الأموات ، والنور الذي من فقده ، ففي بحار الظلمات ، والشفاء الذي من عدمه ، حلت بقلبه جميع الأسقام ، واللذة التي من لم يظفر بها ، فعيشه كله هموم وآلام ، وهي روح الإيمان والأعمال ، والمقامات والأحوال التي متى خلت منها ، فهي كالجسد الذي لا روح فيه ، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيا ، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا أبداً بدونها واصلها ، وتبوءهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولا هي داخلها .

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة ، وقد قضى الله تعالى يوم قدر مقادير الخلائق ، بمشيئته وحكمته البالغة ، أن المرء مع من أحب ، فيألفها من نعمة على المحبين سابعة . تالله لقد سبق القوم السعاة ، وهم على ظهور الفرس ناثون ، ولقد تقدموا الركب بمراحل وهم في مسيرهم واقفون ، وأجابوا مؤذن الشوق ، إذ نادى بهم : حي على الفلاح ، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم ، وكان بذلهم بالرضى والسجود ، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح ، تالله لقد حمدوا عند الوصول مسراهم ، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم ، وإننا بحمد القوم السرى عند الصباح . وأطال في وصفها فراجعته في « المدايح » .

واعلم أن المحبة قسمان ، مشتركة وخاصة : فالمشتركة ثلاثة أنواع ،

أحدها حبة طبيعية ، كمحبة الجائع للطعام ، والظمان للماء ، ونحو ذلك . وهذه لا تستلزم التعظيم .

الثاني : حبة رحمة وإشفاق ، كمحبة الوالد لولده الطفل ، وهذه أيضاً لا تستلزم التعظيم .

الثالث : حبة أنس والرف ، وهي حبة المشتركين في صناعة ، أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر لبعضهم بعضاً ، ومحببة الإخوة ، بعضهم بعضاً . فهذه الأنواع الثلاثة ، التي تصلح للخلق ، بعضهم من بعض ووجودها فيهم لا يكون شركاً في محبة الله ، ولهذا كانت رسول الله ﷺ يحب الخلوة والعسل ، وكان يحب نساءه ، وعائشة أحبهن إليه ، وكان يحب أصحابه ، وأحبهم إليه الصديق ، رضي الله عنه .

القسم الثاني : المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله ، ومتى أحب العبد بها غيره ، كان شركاً لا يغفره الله ، وهي محبة العبودية ، المستلزمة للذل ، والخضوع والتعظيم ، وكمال الطاعة ، وإيثاره على غيره . فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلاً كما حققه ابن القيم ، وهي التي سوتى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيما . كما قال تعالى في الآية التي ترجم لها المصنف : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً) . [البقرة : ١٦٦] قال ابن كثير : يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا ، وما لهم في الآخرة من العذاب والنكال حيث جعلوا لله أنداداً ، أي : أمثالاً ونظراء ، يحبونهم كحبه ، ويعبدونهم معه ، وهو الله الذي لا إله إلا هو ، ولا ضده ولا ند له ، ولا شريك معه ، وقوله : (يحبونهم كحب الله) . أي : يساوونهم بالله في المحبة والتعظيم ، ولهذا يقولون

لأنّادهم ، وهم في النار : (تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم
برب العالمين) [الشعراء : ٩٨ ، ٩٩] . فهذا هو مساواتهم برب
العالمين ، وهو العدل المذكور ، في قوله : (ثم الذين كفروا بربهم
يعدلون) . أما مساواتهم بالله في الخلق والرزق وتدبير الأمور ،
فما كان أحد من المشركين يساوون أصنامهم بالله في ذلك . وهذا القول
رجحه شيخ الإسلام . والثاني أن المعنى يحبون أنادهم ، كما يحب المؤمنون
الله ، ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأنادهم .
قال شيخ الإسلام : وهذا متناقض ، وهو باطل ، فإن المشركين لا يحبون
الأنداد ، مثل محبة المؤمنين الله ، ودلت الآية على أن من أحب شيئاً ،
كحب الله ، فقد اتخذته نداً لله ، وذلك هو الشرك الأكبر ، قاله المصنف .
وعلى وجوب إفراد الله بالمحبة الخاصة التي هي توحيد الإلهية ، بل الخلق
والأمر والشواب والعقاب ، إنما نشأ عن المحبة ، ولأجلها ، فهي الحق
الذي خلقت به السموات والأرض ، وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي ،
وهي سر التآله ، وتوحيدها هو شهادة أن لا إله إلا الله أو ليس كما زعم
المنكرون ، أن الإله هو الرب الخالق ، فإن المشركين كانوا مقرين ،
بأنه لا رب إلا الله ، ولا خالق سواه ، ولم يكونوا مقرين بتوحيد
الإلهية الذي هو حقيقة لا إله إلا الله ، فإن الإله الذي تأله القلوب حباً
وذاً وخوفاً ورجاء ، وتعظيماً وطاعة ، إله بمعنى مألوه ، أي : محبوب
معبود ، وأصله من التآله ، وهو التعبد الذي هو آخر مراتب الحب ،
فالمحبة حقيقة العبودية ، ودلت أيضاً على أن المشركين يعرفون الله
ويحبونه ، وإنما الذي أوجب كفرهم مساواتهم به الأنداد في المحبة ،

فكيف بمن أحب الأنداد أكثر من حب الله ، فكيف بمن لم يحب الله أصلاً ، ولم يحب إلا الند وحده فالله المستعان .

قوله : (والذين آمنوا أشد حبا لله) [البقرة : ١٦٦] .

لتكلم عليها لتعلقها بما قبلها تكميلاً للفائدة، وإن لم يذكرها المصنف ، وفيها قولان : أحدهما وهو الصحيح أن المعنى : والذين آمنوا أشد حبا لله من محبة المشركين بالأنداد لله ، فإن محبة المؤمنين خالصة ، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة ، والثاني : والذين آمنوا أشد حبا لله من حب أصحاب الأنداد لأندادهم التي يحبونها من دون الله . قال ابن القيم : والقولان مرتبان على القولين في قوله : يحبونهم كحب الله . وفي الآية دليل على أن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وأن الشرك يحبط للأعمال .

قال وقوله : (قل إن كان آباؤكم) إلى قوله : (أحب إليكم من الله ورسوله) [التوبة : ٢٦] .

هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وعشيرته وأمواله ومساكنه ، أو أحد هذه الأشياء على الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، وقد خطب بهذا المؤمنين في آخر الأمر ، كما قاله شيخ الإسلام ، ف قيل لهم : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، أي : حصلتوها ، وتجارة فحشون كسادها ، أي : رخصها وفوات وقت نفاقها ، ومساكن ترضونها ، أي : لحسها وطيبها ، أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، أي : انتظروا ماذا يحل بكم من عذاب الله ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ، أي : الخارجين عن طاعة الله .

وهو تنبيه على أن من فعل ذلك ، فهو من الفاسقين فهذا تشديد ،
ووعيد عظيم ، ولا يخلص منه إلا من صح إيمانه فخلص لله سره وإعلانه ،
وعلى أن المحبة الصادقة تستلزم تقديم مراضي الله على هذه الثمانية كلها ،
فكيف بمن آثر بعضها على الله ورسوله ، وجهاد في سبيله .
فان قلت : قد قال شيخ الإسلام : إن كثيراً من المسلمين أو
أكثرهم بهذه الصفة .

قيل : مراده أن كثيراً من المسلمين قد يكون ما ذكر أحب إليه
من الله ورسوله ، أي : في إثارة ذلك على فعل أمر الله ، وأمر رسوله
الذي ينشأ عن المحبة لا في الحب الذي يوجب قصد المحبوب بالتأله ، فإن
من ساوى بين الله ، وبين غيره في هذا الحب ، فهو مشرك ، فكيف
إذا كان غير الله أحب إليه كما هو الواقع من عباد القبور ، فإنهم يحبون
أندادهم أعظم من حب الله ، وذلك أن أصل الحب يحتمل الشراكة بخلاف
الحلة ، فإنها لا تقبل الشراكة أصلاً ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحسن
وأسماء : د اللهم إني أحبها وأحب من يحبها ، حديث صحيح .

واعلم أن هذه الآية شبيهة بقوله : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني)
[آل عمران : ٣٢] فلما كثر المدعون لمحبة الله ، طولبوا بإقامة البينة ،
فجاءت هذه الآية ونحوها . فمن ادعى محبة الله ، وهو يحب ما ذكر
على الله ورسوله ، فهو كاذب كمن يدعي محبة الله ، وهو على غير طريق
النبي ﷺ ، فإنه كاذب ، إذ لو كان صادقاً لكان متبعاً له ، قال مبارك
ابن فضالة : عن الحسن . قال : كانت فاس على عهد النبي ﷺ ،
يقولون : يا رسول الله إننا نحب ربنا جداً شديداً ، فأحب الله أن

يجعل لجه علماً فانزل الله : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) [آل عمران : ٣٢] وقد وقع لكثير من المدعين نوع انبساط في دعوى المحبة أخرجهم إلى شيء من الرعونة والدعاوي التي تنافي العبودية ، ويدعي أحدهم دعاوي تتجاوز حدود الأنبياء ، ويطلبون من الله ما لا يصلح بكل وجه إلا الله . وسبب هذا ضعف تحقيق المحبة التي هي محض العبودية ، بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته ، ومدعي ذلك فيه شبه من اليهود والنصارى الذين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه .

وشرط المحبة موافقة المحبوب ، فتحب ما يحب ، وتكره ما يكره ، وتبغض ما يبغض ، وذلك كمن يدعي أن الذنوب لا تضره ، لكون الله يحبه فيصر عليها أو يدعي أنه يصل إلى حد في محبة الله تسقط عنه التكليف ، وكقول بعضهم : أي مريد لي ترك في النار أحداً ، فإنه بريء منه ، فقال الآخر : أي مريد لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار ، فإنه بريء منه . ونحو ذلك من الدعاوي مع أن كثيراً من هذا ونحوه لا يصدر إلا من كافر ، والعاقل يتنبه . وما هكذا كان سادات المحبين : الأنبياء والمرسلون ، والصحابة ، والتابعون ، فكان على حذر من ذلك ، فإن كثيراً من جهال المتصوفة وقع فيه ، وقد ينسب ذلك إلى بعض المشايخ المشهورين ، وهو إما كذب عليهم ، وإما خطأ منهم ، فإن العصمة منتفية عن غير الرسول ﷺ .

قال : عن أنس أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » أخرجاه .

ش : قوله : لا يؤمن أحدكم . أي : لا يحصل له الإيمان الذي تبرأ به ذمته ، ويستحق به دخول الجنة بلا عذاب حتى يكون الرسول أحب إليه من أهله وولده ووالده والناس أجمعين ، بل لا يحصل له ذلك حتى يكون الرسول أحب إليه من نفسه أيضاً ، كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ : « لأنك يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا نفسي فقال : والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال له عمر : فإنك الآن والله أحب إلي من نفسي ، فقال : الآن يا عمر ، رواه البخاري . فمن لم يكن كذلك ، فهو من أصحاب الكبائر ، إذا لم يكن كافراً ، فإنه لا يعهد في لسان الشرع نفي اسم مسمى أمر الله به ورسوله إلا إذا ترك بعض واجباته ، فأما إذا كان الفعل مستحباً في العبادة لم ينفيها لانتفاء المستحب ، ولو صح هذا لنفي عن جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة والحج وحب الله ورسوله ، لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه ، وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها النبي ﷺ ، بل ولا أبو بكر ولا عمر ، فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه لجاز أن ينفي عن جمهور المسلمين من الأولين والآخرين ، وهذا لا يقوله عاقل . وعلى هذا فمن قال : إن المنفي هو الكمال ، فإن أراد أنه نفي الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة فقد صدق ، وإن أراد أنه نفي الكمال المستحب فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ﷺ قاله شيخ الإسلام . وأكثر الناس يدعي أن الرسول أحب إليه مما ذكر ، فلا بد من تصديق ذلك بالعمل والمتابعة له ، وإلا فالمدعي كاذب ، فإن القرآن بين أن المحبة التي في القلب تستلزم

العمل الظاهر مجبها كما قال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله [آل عمران : ٣٢] وقال تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) [النور : ٤٨] إلى قوله : (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) [النور : ٥٢] فنفى الإيمان عن تولى عن طاعة الرسول ، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله سمعوا وأطاعوا . فتبين أن هذا من لوازم الإيمان والمحبة ، لكن كل مسلم لابد أن يكون محباً بقدر ما معه من الإسلام كما أن كل مؤمن لابد أن يكون مسلماً ، وكل مسلم لابد أن يكون مؤمناً ، وإن لم يكن مؤمناً الايمان المطلق ، لأن ذلك لا يحصل إلا لخواص المؤمنين ، فإن الاستسلام لله ومحبته لا تتوقف على هذا الإيمان الخاص .

قال شيخ الإسلام : وهذا الفرق يجده الانسان من نفسه ويعرفه من غيره ، فعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر ، أو ولدوا على الإسلام ، والتزموا شرائعه ، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله ، وهم مسلمون ، ومعهم إيمان مجمل ، لكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم يحصل شيئاً فشيئاً إن أعظم الله ذلك ، وإلا فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ، ولا إلى الجهاد ولو شككوا لشكوا ، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا ، وليسوا كفاراً ولا منافقين ، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه على الأهل والمال . وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة ،

وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب ، وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق انتهى .

قوله : أحب . هو بالنصب خبر كون .

قوله : والناس أجمعين . هو من عطف العام على الخاص وهو كثير . وفي الحديث من الفوائد .

إذا كان هذا شأن محبة الرسول ﷺ فما الظن بمحبة الله .

وفيه أن الأعمال من الإيمان ، لأن المحبة عمل ، وقد نفى الإيمان ممن لم يكن الرسول ﷺ أحب إليه مما ذكر فدل على ذلك .

وفيه أن نفى الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام .

وفيه وجوب محبة ﷺ على ما ذكر ، ذكرهما المصنف .

قال : ولها عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يكرهه أن يعرذ في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » وفي رواية « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى » إلى آخره .

ش : قوله : ثلاث . أي : ثلاث خصال . وجاز الابتداء بثلاث ، لأن المضاف إليه منوي ولذلك جاء التنوين .

قوله : من كن فيه . أي : وجدن وحصلن ، فهي تامة .

قوله : وجد بهن حلاوة الإيمان . قال ابن أبي جمرة : إنما عبر بالحلاوة لأن الله شبه الإيمان بالشجرة في قوله : (ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) [إبراهيم : ٢٥] .

قلت : والشجرة لها ثمرة ، والشجرة لها حلاوة ، فكذلك شجرة الإيمان لا بد لها من ثمرة ولا بد لتلك الثمرة من حلاوة . لكن قد يجدها المؤمن وقد لا يجدها وإنما يجدها بما ذكر في الحديث .

قوله : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . « أحب » منصوب لأنه خبر يكون . قال البيضاوي : المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إثمار ما يقتضي العقل السليم رجحانه ، وإن كان على خلاف هوى النفس كالمرضى يعاف الدواء بطبعه ، فينفر عنه بطبعه ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله . فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل ، والعقل يقتضي رجحان جانب ذلك تمون على الائتار بأمره بحيث يصير هواه تبعاً له ، ويلتذ بذلك التذاذاً عقلياً إذ الالتذاذ العقلي إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك .

قلت : وكلامه على قواعد الجهمية ونحوهم من نفي محبة المؤمنين لربهم لهم . والحق خلاف ذلك بل المراد في الحديث أن يكون الله ورسوله عند العبد أحب إليه مما سواهما حباً قليلاً كما في بعض الأحاديث : « أحبوا الله بكل قلوبكم ، فيميل بكيته إلى الله وحده حتى يكون وحده محبوبه ومعبوده ، وإنما يحب من سواه تبعاً لمحبهته كما يحب الأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين لما كان يحبهم ربه سبحانه ، وذلك موجب لمحبة ما يحبه سبحانه وكراهة ما يكرهه ، وإثبات مرضاته على ما سواه والسعي فيما يرضيه ما استطاع وترك ما يكره . فهذه علامات المحبة الصادقة ولوازمها ، وأما مجرد إثمار ما يقتضي العقل رجحانه ، وإن كان على خلاف هوى النفس كالمرضى يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه إلى آخر

كلامه . فهذا قد يكون في بعض الأمور علامة على الحب ولازماً له
لا أنه هو الحب .

وقال شيخ الإسلام : أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه
وجد حلوة الايمان ، لأن وجود الحلوة للشيء يتبع المحبة له فمن أحب
شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلوة واللذة والمرور بذلك .
واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتى قال :
فحلوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح يتبع كمال محبة العبد لله ، وذلك
بثلاثة أمور : تكميل هذه المحبة وتقريبها ودفع ضدها . فتكميلها أن
يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فإن محبة الله ورسوله ، لا يكتفى
فيها بأصل الحب ، بل لابد أن يكون الله ورسوله ، أحب إليه
مما سواهما .

قلت : ولا يكون كذلك ، إلا إذا وافق ربه ، فيما يحبه وما يكرهه ،
قال : وتقريبها أن يحب المرء لايحبه إلا الله .

قلت : فإن من أحب مخلوقاً لله ، لا لغرض آخر ، كان هذا من
تمام حبه لله ، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب ، فإذا
أحب أنبياء الله ، وأوليائه ، لأجل قيامهم بمحوبات الله ، لا لشيء آخر ،
فقد أحبه الله لا لغيره قال : ودفع ضدها أن يكرهه ضد الايمان ، كما
يكرهه أن يقذف في النار .

قلت : وإنما كره الضد ، لما دخل قلبه من محبة الله ، فأنكشف
له بنور المحبة محاسن الإسلام ، ورذائل الجهل ، والكفران ، وهذا هو
الحب الذي يكون مع من أحب ، كما في ، الصحيحين ، عن أنس أن

رجلاً سأل النبي ﷺ متى الساعة ، فقال : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكني أحب الله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : أنت مع من أحببت ، ، وفي رواية للبخاري فقلنا : ونحن كذلك ، قال ، نعم قال أنس : ففرحنا يومئذ ، فرحاً شديداً ، وقوله : بما سواهما ، فيه جمع ضمير الرب سبحانه ، وضمير الرسول ﷺ ، وقد أنكره على الخطيب ، لما قال : ومن يعصها ، فقد غوى ، وأحسن ما قيل فيه قولان : أحدهما ما قاله البيضاوي وغيره ، أنه ثنى الضمير هنا إيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين ، لا كل واحدة ، فإنها وحدها لاغية ، وأمر بالافراد في حديث الخطيب إشعاراً بأن كل واحد من العصيانيين مستقل باستلزام الغواية ، إذ العطف في تقدير التكرير ، والاصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم . قلت : وهذا جواب بليغ جداً .

الثاني : حمل حديث الخطيب على الأدب والأولى ، وهذا على الجواز .

وجواب ثالث ، وهو أن هذا ورد على الأصل ، وحديث الخطيب ناقل ، فيكون أرجح .

قوله : كما يكره أن يقذف في النار ، أي : يستوي عنده الأمران ، الإلقاء في النار ، والعود في الكفر .

قلت : وفي الحديث من الفوائد ، أن الله تعالى يحببه المؤمنين ، وهو تعالى يحبهم ، كما قال : (يحبهم ويحبونه) [المائدة : ٥٨] .

وفيه رد ما يظنه بعض الناس من أنه من ولد على الإسلام أفضل

من كان كافراً فأسلم ، فمن اتصف بهذه الأمور ، فهو أفضل ممن لم يتصف بها مطلقاً ، ولهذا كان السابقون الأولون أفضل ممن ولد على الإسلام .

وفيه رد على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص في حقه مطلقاً ، والصواب أنه إن لم يتب كان نقصاً وإن تاب فلا ، ولهذا كان المهاجرون والأنصار أفضل هذه الأمة ، وإن كانوا في أول الأمر كفاراً يعبدون الأصنام ، بل المنتقل من الضلال إلى الهدى ، ومن السيئات إلى الحسنات يضاعف له الثواب ، قاله شيخ الإسلام .

وفيه دليل على عداوة المشركين وبغضهم ، لأن من أبغض شيئاً أبغض من اتصف به ، فإذا كان يكره الكفر كما يكره أن يلقى في النار ، فكذلك يكره من اتصف به .

قوله : وفي رواية لا يجد أحد ، هذه الرواية أخرجه البخاري في « صحيحه » ، ولفظه « لا يجد أحد حلاوة الايمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا الله وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

قال : وعن ابن عباس قال : من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فأنما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الايمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك . وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهلها شيئاً . رواه ابن جوير .

ش : هذا الأثر رواه ابن جرير بكماله كما قال المصنف ، وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم الجملة الأولى منه فقط .

قوله : من أحب في الله ، أي : أحب المسلمين والمؤمنين في الله .

قوله : وأبغض في الله ، أي : أبغض الكفار والفاسقين في الله لخالفهم لربهم وإن كانوا أقرب الناس إليه كما قال تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) [المجادلة : ٢٣] .

قوله : ووالى في الله . هذا بيان للآزم المحبة في الله وهو الموالاة . فيه إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب ، بل لابد مع ذلك من الموالاة التي هي لازم الحب ، وهي النصرة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين باطنياً وظاهراً .

قوله : وعادى في الله هذا بيان للآزم البغض في الله وهو المعاداة فيه ، أي : إظهار العداوة بالفعل ، كالجهاد لأعداء الله والبراءة منهم ، والبعد عنهم باطنياً وظاهراً إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب ، بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى : (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وبما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) [الممتحنة : ٥] فهذا علامة الصدق في البغض في الله .

قوله : فإنما تنال ولاية الله بذلك . يجوز فتح الواو وكسرها ، أي : لا يكون العبد من أولياء الله ولا تحصل له ولاية الله إلا بما ذكر من

الحب في الله ، والبغض في الله ، والمراعاة في الله ، والمعاداة في الله ، كما روى الإمام أحمد والطبراني عن النبي ﷺ قال : « لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب الله ويبغض الله ، فإذا أحب الله ، وأبغض الله ، فقد استحق الولاية لله » وفي حديث آخر « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله عز وجل » رواه الطبراني وغيره . وينبغي لمن أحب شخصاً في الله أن يأتيه في بيته فيخبره أنه يحبه في الله كما روى أحمد والضياء عن أبي ذر مرفوعاً « إذا أحب أحدكم صاحبه فليأته في منزله فليخبره أنه يحبه لله » وفي حديث ابن عمر عند البيهقي « في « الشعب » فإنه يجد مثل الذي يجد له .

قوله : ولن يجد عبد طعم الإيمان إلى آخره أي : لا يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يحب في الله ، ويبغض في الله ، ويعادي في الله ، ويوالي في الله ، وهذا منتزع من حديث أنس السابق وفي حديث أبي أمامة مرفوعاً « من أحب الله ، وأبغض الله ، وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان » رواه أبو داود . والعجب ممن يدعي محبة الله وهو على خلاف ذلك ، وما أحسن ما قال ابن القيم :

أتحب أعداء الحبيب وتدعي حباً له ما ذاك في إمكان

قوله : وقد صارت عامة مؤاخات الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً ، أي : المؤاخاة على أمر الدنيا لا يجدي على أهله شيئاً ، أي : لا ينفعهم أصلاً ، بل يضرهم ، كما قال تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) [الزخرف : ٦٨] فهذا حال كل خلة ومحبة كانت في الدنيا على غير طاعة الله ، فإنها تعود عداوة وندامة يوم

لقيامته بخلاف المحبة والحلة على طاعة الله ، فإنها من أعظم القربات كما جاء في حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله قال : « ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه » وفي الحديث القدسي الذي رواه مالك وابن حبان في صحيحه « وجبت محبتي للمتحابين في والمتجالسين في ، والمتزاورين في والمتبازلين في » وهذا الكلام قاله ابن عباس رضي الله عنه في أهل زمانه ، فكيف لو رأى الناس فيما هم فيه من المؤاخاة على الكفر والبدع والفسوق والعصيان ولكن هذا مصداق قوله عليه السلام : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ » وفيه إشارة إلى أن الأمر قد تغير في زمن ابن عباس بحيث صار الأمر إلى هذا بالنسبة إلى ما كان في زمن الخلفاء الراشدين فضلاً عن زمن رسول الله ﷺ . وقد روى ابن ماجه عن ابن عمر قال : لقد رأيتنا على عهد رسول الله ﷺ وما منا أحد يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم . وأبلغ منه قوله تعالى : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) [الحشر : ١٠] فهذا كانت حالهم في ذلك الوقت الطيب ، وهؤلاء هم المتحابون لجلال الله كما في الحديث القدسي يقول الله عز وجل : « أين المتحابون لجلالي ، اليوم أظلمهم في ظلي » فهذه هي المحبة النافعة لا محبة الدنيا ، وهي التي أوجبت لهم المواساة والإيثار على الأنفس . (وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) [الحديد : ٢٢] .

قال المصنف وقال ابن عباس : في قوله : وتقطعت بهم الأسباب قال : المودة .

ش : هذا الأثر رواه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ،
وابن أبي حاتم والحاكم وصححه .

قوله : قال : المودة : أي : المحبة التي كانت بينهم في الدنيا تقطعت
بهم وخانتهم أحوج ما كانوا إليها ، وتبرأ بعضهم من بعض ، كما قال تعالى
عن إبراهيم الخليل عليه السلام : أنه قال لقومه ، (إنما اتخذتم من دون
الله - أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض
ويلعن بعضكم بعضاً وما لكم بالثار وما لكم من ناصرين) [العنكبوت :
٢٦] وهذه الآية وإن كانت نزلت في المشركين عباد الأوثان الذين
يحبون أندادهم وأوثانهم كعب الله ، فإنها عامة ، لأن الاعتبار بعموم
اللفظ لا بخصوص السبب . ولهذا قال قتادة : وتقطعت بهم الأسباب
قال : أسباب الندامة يوم القيامة ، والأسباب : المواصلات التي يتواصلون بها
ويتحابون بها ، فصارت عداوة يوم القيامة ، يلعن بعضهم بعضاً . رواه
عبد بن حميد وابن جرير فهذا حال من كانت مودته لغير الله فاحذر
من ذلك .

باب

قول الله تعالى (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوه
وخاصفون إن كنتم مؤمنين) .

الخوف : من أفضل مقامات الدين وأجلها ، فلذلك قال المصنف بوجوب
إخلاصه بالله تعالى . وقد ذكره الله تعالى في كتابه عن سادات المقربين
من الملائكة والأولياء والصالحين قال الله تعالى : (يخافون ربهم من فوقهم)
[النحل : ٥١] وقال الله تعالى : (وهم من خشيته مشفقون)

[الأنبياء : ٢٩] وقال تعالى : (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون)
[المؤمن : ٥٩] وقال تعالى : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه
ولا يخشون أحداً إلا الله) [الأحزاب : ٤٠] وأمر باخلاصه له فقال
تعالى : (وإياي فارهبون) [البقرة : ٤١] وقال تعالى : (فلا
تخشوا الناس واخلشون) [المائدة : ٤٨] وقال تعالى : (أفعير الله
تتقون) [النحل : ٥٣] وهو على ثلاثة أقسام .

أحدها : خوف السر وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء
من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك بقدرته ومشئته ، سواء ادعى أن
ذلك كرامة للمخوف بالشفاعة ، أو على سبيل الاستقلال ، فهذا الخوف
لا يجوز تعلقه بغير الله أصلاً ، لأن هذا من لوازم الإلهية ، فمن اتخذ مع
الله نداً يخافه هذا الخوف فهو مشرك .

وهذا هو الذي كان المشركون يعتقدونه في أصنامهم وآلهتهم ولهذا
يخوفون بها أولياء الرحمن كما خوفوا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام
فقال لهم : (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع
ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون
أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن
إن كنتم تعلمون) [الأنعام : ٨١ ، ٨٢] وقال تعالى عن قوم هود
لهم قالوا له : (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهمتنا بسوء قال : إني
أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فيكيدوني جميعاً ثم
لا تنظرون) [هود : ٥٥ ، ٥٦] وقال تعالى : (ويخوفونك بالذين
من دونه) [الزمر : ٣٧] .

وهذا القسم هو الواقع اليوم من عباد القبور ، فإنهم يخافون الصالحين بل الطواغيت ، كما يخافون الله بل أشد . ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الأيمان كاذباً أو صادقاً ، فإن كان اليمين بصاحب التربة لم يقدم على اليمين إن كان كاذباً ، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أخوف عنده من الله . ولا ريب أن هذا ما بلغ إليه شرك الأولين ، بل جهد أيمانهم اليمين بالله تعالى ، وكذلك لو أصاب أحداً منهم ظلم لم يطلب كشفه إلا من المدفونين في التراب . وإذا أراد أن يظلم أحداً فاستعاذ بالله أو ببيته لم يعذه ، ولو استعاذ بصاحب التربة أو بتوبته لم يقدم عليه أحداً ولم يتعرض له بالأذى حتى أن بعض الناس أخذ من التجار أموالاً عظيمة أيام موسم الحاج ، ثم بعد أيام أظهر الإفلاس ، فقام عليه أهل الأموال ، فالتجأ إلى قبر في جدة يقال له : المظلوم فما تعرض له أحد بمكروه خوفاً من سر المظلوم وأشباه هذا من الكفر . وهذا الخوف لا يكون العبد مسلماً إلا بإخلاصه لله تعالى وإفراده بذلك دون من سواه .

الثاني : أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بغير عذر إلا خوفاً من الناس ، فهذا محرم ، وهو الذي نزلت فيه الآية المترجم لها وهو الذي جاء فيه الحديث « إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذا رأيت المنكر أن لا تغيره فيقول : يا رب خشيت الناس » فيقول إياي كنت أحتق أن تخشى ، رواه أحمد .

الثالث : خوف وعيد الله الذي توعده به العصاة وهو الذي قال الله فيه : (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) [إبراهيم : ١٥] وقال :

(ولن خاف مقام ربه جنتان) [الرحمن : ٤٧] وقال تعالى :
(قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين) [الطور : ٢٧] وقال تعالى :
(ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) [الدهر : ٨] وهذا الخوف من
أعلى مراتب الإيمان ، ونسبة الأول إليه كنسبة الإسلام إلى الإحسان
ولمّا يكون محموداً إذا لم يوقع في القنوط والياس من روح الله ، ولماذا قال
شيخ الإسلام : هذا الخوف ما حيزك عن معاصي الله ، فما زاد على ذلك ،
فهو غير محتاج إليه .

بقي قسم رابع وهو الخوف الطبيعي ، كالخوف من عدو وسبع وهدم
وغرق ونحو ذلك ، فهذا لا ينم وهو الذي ذكره الله عن موسى عليه
الصلاة والسلام في قوله : (فخرج منها خائفاً يترقب) [القصص : ٢٢]
إذا تبين هذا فمعنى قوله تعالى : (لمّا ذلّم الشيطان يخوف أولياءه)
أي يخوفكم أوليائه ويوهمكم أنهم ذوبأس وشدة . قال الله تعالى :
(فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) [آل عمران : ١٧٦] .
أي : فإذا سول لكم وأوهمكم فتوكأوا على الله فإنه كافكم وناصركم عليهم
كما قال تعالى : (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه)
[الزمر : ٣٧] إلى قوله : (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون)
[الزمر : ٣٩] وقال تعالى : (فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان
كان ضعيفاً) [النساء : ٧٦] قاله ابن كثير . وقال ابن القيم : ومن
كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه لئلا يجاهدوهم ولا
يأمرهم بمعروف ، ولا ينههم عن منكر . فأخبر تعالى أن هذا من كيده
وتخريفه ، ونمّا أن نخافهم ، قال : والمعنى عند جميع المفسرين : يخوفكم

بأوليائه قال قتادة : يعظمهم في صدوركم ، ولهذا قال : (لا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) [آل عمران : ١٧٦] فكلمنا قويا بإيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان ، وكلما ضعف إيمان العبد قويا خوفه منهم . قلت : فأمر تعالى بإخلاص هذا الخوف له ، وأخبر أن ذلك شرط في الإيمان ، فمن لم يأت به لم يأت بالإيمان الواجب ، ففيه أن إخلاص الخوف لله من الفرائض .

قال : وقوله تعالى : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) [التوبة : ٢٠] الآية .

لما نفى تبارك وتعالى عبادة المساجد عن المشركين بقوله تعالى : (ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله) [التوبة : ١٩] الآية إذ لا تنفعهم عمارتها مع الشرك ، كما قال تعالى : (وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) [الفرقان : ٢٤] أثبت تعالى في هذه الآية عبادة المساجد بالعبادة للمؤمنين بالله تعالى واليوم الآخر ، المقيمين الصلاة المؤتين الزكاة ، الذين لا يخشون إلا الله ، ولا يخشون معه إلهاً آخر كما قال تعالى : (ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً) [الأحزاب : ٤٠] فهذه هي العبادة النافعة ، وهي الخالصة من الشرك ، فإنه نار تحرق الأعمال .

وقوله : (ولم يخش إلا الله) قال ابن عطية : يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة ، ولا محالة أن الإنسان يخشى غيره ، ويخشى المحاذير الدنيوية ، ويبهني أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه .

قلت : ولهذا قال ابن عباس في الآية : لم يعبد إلا الله ، فإن الخوف

كما قال ابن القيم : عبودية القلب ، فلا يصلح إلا لله ، كالذل والإنابة المحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب ، فلا يصلح إلا لله ، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء ، وغيرها من عبودية القلب .

وقوله : (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) [التوبة : ٢٠] قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس يقول : إن أولئك المهتدون ، كقوله : (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) [الإسراء : ٨٠] وكل « عسى » في القرآن فهي واجبة . وتضمنت الآية أن من عمر المساجد من المسلمين بالعبادة ، هو من المؤمنين كما في حديث « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالآيمان » قال الله : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) [التوبة : ٢٠] رواه أحمد والترمذي والحاكم .

قال وقوله (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) [العنكبوت : ١١] .

قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن قوم من الذين يدعون الإيمان بالسلمة ولم يثبت الإيمان في قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم محنة في الدنيا اعتقدوا أنها من نعمة الله بهم ، فارتدوا عن الإسلام . قال ابن عباس : يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أؤذي في الله . وقال ابن القيم : الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين إما أن يقول أحدهم : آمنا ، وإما أن لا يقول ذلك ، بل يستمر على السيئات والكفر ، فمن قال : آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه ، والفتنة : الابتلاء والاختبار ، ليتبين الصادق من الكاذب ، ومن لم يقل : آمنا فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه فمن آمن بالرسول وأطاعهم ، عاداه أعداؤهم وآذوه ، فابتلي بما يؤله ، ومن لم يؤمن

بهم ، ولم يطعمهم ، عوقب في الدنيا والآخرة ، وحصل له ما يؤله ، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم اتباعهم ، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت ، أو رغبت عن الإيمان ، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ، ثم يصير له الألم الدائم . والانسان لا بد أن يعيش مع الناس ، والناس لهم إرادات وتصورات ، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها ، وإن لم يوافقهم آذوه ، وعذبوه ، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب ، تارة منهم ، وتارة من غيرهم ، كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فجار ظلمة ، ولا يتمكنون من فجورهم إلا بموافقة لهم أو سكوتهم عنهم ، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء ، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم ونخالفهم ، وإن سلم منهم ، فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم ، فالحزم كل الحزم بما قالت أم المؤمنين لمعاوية : من أرضى الله بسخط الناس ، كفاه الله مؤنة الناس ومن أرضى الناس بسخط الله ، لم يغنوا عنه من الله شيئاً . فمن هداه الله ، وألهمه رشده ، ووقاه شر نفسه ، امتنع من الموافقة على فعل المحرم ، وصبر على عداوتهم ، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، كما كانت للرسول وأتباعهم .

ثم أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة ، وأنه إذا أُوذِيَ في الله جعل فتنة الناس له ، وهي أذاًم له ، ونيلهم إياه بالمكروه ، وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم من نخالفهم ، جعل ذلك في قراره منه وتوكله الله . الذي يناله به كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون

بالإيمان . فالمؤمنون لكهال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان ،
وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب ، وهذا لضعف بصيرته
فر من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم ، ففر من ألم عذابهم إلى
ألم عذاب الله ، فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله ،
وغبن كل الغبن إذ استجار من الرمضاء بالنار ، وفر من ألم ساعة إلى
ألم الأبد ، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال : إني كنت معكم والله عليم
بما انطوى عليه صدره من النفاق انتمى .

قلت : وإنما حمل ضعيف البصيرة على أن جعل فتنة الناس كعذاب
الله ، هو الخوف منهم أن ينالوه بما يكره بسبب الإيمان بالله ، وذلك
من جملة الخوف من غير الله ، وهذا وجه مطابقة الآية للترجمة ، وفي
الآية رد على المرجئة والكرامية ، وفيها الخوف على نفسك ، والاستعداد
للبلاء إذ لا بد منه مع سؤال الله العافية .

قال : عن أبي سعيد مرفوعاً : « إن من ضعف اليقين أن ترضي
الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على ما لم
يؤتاك الله ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده
كراهية كاره .

ش : هذا الحديث رواه أبو نعيم في « الحلية » ، والبيهقي ، وأعله
بمحمد بن مروان السدي ، وقال : ضعيف ، وفيه أيضاً عطية العوفي ،
أورده الذهبي في الضعفاء والمتروكين ، وقال : ضعفه وموسى بن بلال ،
قال الأزدي : ساقط قلت : إسناده ضعيف ، ومعناه صحيح ، وقامه
« وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين ، وجعل المم
والحزن في الشك ، السخط .

قوله : إن من ضعف اليقين قال في « المصباح » : والضعف بفتح الضاد في لغة تميم وبضمها في لغة قريش : خلاف القوة والصحة . واليقين المراد به : الإيمان كله كما قال ابن مسعود : اليقين الإيمان كله ، والصبر نصف الإيمان ، رواه الطبراني بسند صحيح ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » والبيهقي في « الزهد » من حديثه مرفوعاً ولا يثبت رفعه . قاله الحافظ : ويدخل في ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق كما في حديث ابن عباس مرفوعاً « فإن استطعت أن تعمل بالرضى في اليقين فافعل ، وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وفي رواية أخرى في إسناده ضعف : قلت : يا رسول الله : كيف أصنع باليقين ؟ قال : أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك .

قوله : أن ترضي الناس بسخط الله . أي : تؤثر رضاهم على رضى الله ، فتوافقهم على ترك الأمور ، أو فعل المخطور استجلاً لرضاهم فلولا ضعف اليقين لما فعلت ذلك ، لأن من قوي يقينه علم أن الله وحده هو النافع الضار ، وأنه لا معول إلا على رضاه ، وليس لسواه من الأمور شيء كائنًا ما كان فلا يهاب أحداً ، ولا يخشاه خوفاً يلحقه من جهته كما قال تعالى : (ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً) [الأحزاب : ٤٠] .

قوله : وأن تحمدهم على رزق الله ، أي : تحمدهم وتشكروهم على ما وصل إليك على أيديهم من رزق ، بأن تضيفه إليهم وتنسى المنعم المتفضل على الحقيقة وهو الله رب العالمين الذي قدر هذا الرزق لك ، وأوصله إليك بطفه ورحمته فإنه لطيف لما يشاء وهو العالم الحكيم فإذا أراد أمراً قص

له أسباباً ولا ينافي ذلك حديث « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » لأن المراد هنا إضافة النعمة إلى السبب ونسيان الخالق ، والمراد بشكر الناس عدم كفر إحسانهم ومجازاتهم على ذلك بما استطعت ، فإن لم تجد فجازم بالدعاء .

قوله : وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله ، أي : إذا طلبتهم شيئاً فمنعوك ذمتهم على ذلك ، فلو علمت يقيناً أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده ، وأن المخلوق مدبر لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره ، وأن الله لو قدر لك رزقاً ؛ أنك ولو اجتهد الخلق كلهم في دفعه ، وإن أرادك بمنع لم يأتك مرادك ولو اجتمع الخلق كلهم في إيصاله إليك ؛ لقطعت العلائق عن الخلائق وتوجهت بقلبك إلى الخالق تبارك وتعالى ، ولهذا قرر ذلك بقوله : « إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره ، فلا ترض الخلق بما يسخط الله ، ولا تحمدم على رزق الله ، ولا تذمهم على ما لم يؤتك الله طلباً لحصول رزق من جهتهم ، فما يسمع الله للناس من رحمة ، فلا يمسك لها ، وما يمسك ، فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم .

قال شيخ الإسلام : اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدييره ، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعده الله ولا برزق الله ، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى ما في أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يربوه منهم ، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة ، فإنك إذا أرضيت الله نصرته ورزقك

وكفاك مؤنتهم ، وإرضائهم بما يسخطه إنما يكون خوفاً منهم ، ورجاء لهم وذلك من ضعف اليقين ، وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم ، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإذا ذمهم على ما يقدر ، كان ذلك من ضعف يقينك فلا تخفهم ولا ترجهم ، ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك ، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود ، ومن ذمه الله ورسوله فهو المذموم ، ولما قال بعض وفد بني تميم : أي محمد أعطني فإن حمدي زين وذمي شين قال ﷺ ، « ذاك الله » ، وفي الحديث أن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأعمال داخلة في الإيمان وإلا لم تكن هذه الثلاث من ضعفه واضدادها من قوته .

قال : وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضي الناس بسخط الله ، سخط الله عليه ، وأسخط عليه الناس » رواه ابن حبان في « صحيحه » .

ش : هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف ، ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة . قال : كتب معاوية إلى عائشة أن اكتب لي كتاباً توصيني فيه ، ولا تكثري علي ، فكتبت عائشة إلى معاوية : سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من التمس رضي الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضي الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ، والسلام عليك . رواه أبو نعيم وغيره .

قوله : من التمس ، أي : طلب قال شيخ الإسلام : وكتبت

عائشة إلى معاوية وروي أنها رفعتة د من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً ، هذا لفظ المرفوع ولفظ الموقوف د من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً ، هذا اللفظ المأثور عنها ، وهذا من أعظم الفقه في الدين والمأثور أحق وأصدق ، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه . وكان عبده الصالح والله يتولى الصالحين وهو كاف عبده (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) [الطلاق : ٣] والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب ، وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد يحصل ذلك ، لكن يرضون إذا سلموا من الاعراض ، وإذا تبين لهم العاقبة ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً ، كالظالم الذي يعرض على يديه ، وأما كون حامده يتقلب ذاماً ، فهذا يقع كثيراً ويحصل في العاقبة ، فإن العاقبة للتقوى لا تفصل ابتداء عند أهوائهم . قلت : وإنما يحمل الانسان على إرضاء الخلق بسخط الخالق هو الخوف منهم ، فلو كان خوفه خالصاً لله لما أرضاهم بسخطه ، فإن العبيد فقراء عاجزون لا قدرة لهم على نفع ولا ضرر البتة ، وما بهم من نعمة فمن الله ، فكيف يحسن بالموحد المخلص أن يؤثر رضاهم على رضاه رب العالمين الذي له الملك كله ، وله الحمد كله ، ويبيده الخير كله ، ومنه الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . وقد أخبر تعالى أن ذلك من صنات المنافقين في قوله : (لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) [الحشر : ١٤] وما أحسن ما قيل :

إذا صح منك الود يا غايه المني فكل الذي فوق التراب تراب
قال ابن رجب : فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب ، فهو تراب ،
فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب ؟ أم كيف
يرضي التراب بسخط الملك الوهاب ؟ إن هذا لشيء عجاب .

وفي الحديث عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على رضى الله ، وأن
العقوبة قد تكون في الدين عياداً بالله من ذلك . فإن المصيبة في الأديان
أعظم من المصيبة في الأموال والأبدان . وفيه شدة الخوف على عقوبات
الذنوب ، لاسيما في الدين ، فإن كثيراً من الناس يفعل المعاصي ويستبين
ولا يرى أثراً لعقوبتها ، ولا يسدري المسكين بهم أصيب فقد تكون
عقوبته في قلبه كما قال تعالى : (فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه
بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) [التوبة : ٧٩] اللهم
إنا نعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك ، وبك منك ،
لأنحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

باب

قول الله تعالى : (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)
[المائدة : ٢٧] .

قال أبو السعادات : يقال : توكل بالأمر إذا ضمن القيام به ، ووكلت
أمري إلى فلان ، أي : ألقاه واعتمدت عليه فيه ، ووكل فلان فلاناً : إذا
استكفاه أمره ثقة بكفائيته ، أو عجز عن القيام بأمر نفسه انتهى .
ومراد المصنف بهذه الترجمة النص على أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله

تعالى لأنه من أفضل العبادات ، وأعلى مقامات التوحيد . بل فيقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين ، كما تقدم في صفة السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ، ولذلك أمر الله به في غير آية من القرآن أعظم بما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة ، بل جعله شرطاً في الإيمان والاسلام ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والاسلام عند انتفائه كما في الآية المترجم لها وقوله تعالى : (إن كنتم آمتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) [يونس : ٨٥] وقوله تعالى : (فاعبدوه وتوكلوا عليه) [هود : ١٢٤] وقوله : (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذوه وكيلاً) [المزمل : ١٠] وقوله : (ألا تتخذوا من دوني وكيلاً) [الإسراء : ٣] وقوله : (وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبِّح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً) [الفرقان : ٥٩] وقوله (فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) [التوبة : ١٣١] وغير ذلك من الآيات . وفي الحديث « من سره أن يكون أقوى الناس إيماناً فليتوكل على الله » رواه ابن أبي الدنيا ، وأبو يعلى والحاكم وفي حديث آخر « لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خفافاً وتروح بظانا » رواه أحمد وابن ماجه . قال الإمام أحمد : التوكل عمل القلب . وقال أبو اسماعيل الأنصاري : التوكل كلمة الأمر إلى مالكه والتعويل على وكالته .

إذا تبين ذلك فعنى الآية المترجم لها أن موسى عليه السلام أمر قومه بدخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم ، ولا يرتدوا على أديبارهم خوفاً من الجبارين ، بل يعضوا قدماً لاجبابونهم ولا يخشونهم ، متوكلين على الله في هزيمتهم ، مصدقين بصحة وعده لهم إن كانوا مؤمنين .

قال ابن القيم : فجعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان ، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه . وفي الآية الأخرى وقال موسى : (يا قوم إني كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) [يونس : ٨٥] فجعل دليل صحة الإسلام التوكل ، وقال : (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) [إبراهيم : ١٢] فذكر اسم الإيمان هنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل ، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه ، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفاً ، فهو دليل على ضعف الأيمان ولا بد . والله تبارك وتعالى يجمع بين التوكل والعبادة ، وبين التوكل والإيمان ، وبين التوكل والتقوى ، وبين التوكل والإسلام ، وبين التوكل والهداية . فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ، وجميع أعمال الإسلام ، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس ، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن ، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقوماته إلا على ساق التوكل .

قلت : وفي الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة ، وعلى أنه فرض ، وإذا كان كذلك فصرفه لغير الله شرك . قال شيخ الإسلام : وما جاء أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فإنه مشرك (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) [الحج : ٣٢]

قلت : لكن التوكل على غير الله قسبان ، أحدهما التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله ، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في

رجاء مطالبهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة ، فهذا شرك أكبر
فإن هذه الأمور ونحوها لا يقدر عليها إلا الله تبارك وتعالى .

الثاني : التوكل في الأسباب الظاهرة العادية ، كمن يتوكل على أمير
أو سلطان ، فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى ونحو ذلك .
فهذا نوع شرك خفي ، والوكالة الجائزة هي توكل الانسان في فعل مقدور
عليه . ولكن ليس له أن يتوكل عليه وإن وكله ، بل يتوكل على الله
ويعتمد عليه في تيسير ما وكله فيه كما قرره شيخ الاسلام .

قال : وقوله : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم)
[الأنفال : ٣] الآية .

قال ابن عباس في الآية : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر
الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون
على الله ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله
أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : (إنما المؤمنون الذين إذا
ذكر الله وجلت قلوبهم) [الأنفال : ٣] فأدركوا فرائضه . رواه ابن
جرير وابن أبي حاتم . وهذه صفة المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه
أي : خاف من الله ففعل أوامره ، وترك زواجره ، فإن وجل القلب
من الله يستلزم القيام بفعل الأمور ، وترك المحظور كما قال تعالى : (وأما
من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى)
[النازعات : ٤٢، ٤١] ولهذا قال السدي في قوله : (إذا ذكر الله وجلت
قلوبهم) هو الرجل يريد أن يظلم ، أو قال : يهجم بمعية ، فيقال له :
اتق الله فيجعل قلبه . رواه ابن أبي شيبه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم

وقوله : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) فقد استدل الصحابة والتابعون ومن تبعهم بهذه الآية وأمثالها على زيادة الإيمان ونقصانه . قال عمر بن حبيب الصحابي : إن الإيمان يزيد وينقص فقليل له : وما زيادته وما نقصانه ؟ قال : إذا ذكرنا الله وخشيناه فذلك زيادته ، وإذا غفلنا ونسينا وضعنا فذلك نقصانه . رواه ابن سعد . وقال مجاهد في هذه الآية : الإيمان يزيد وينقص ، وهو قول وعمل ، رواه ابن أبي حاتم ، وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغيرهم . وقوله : (وعلى ربهم يتوكلون) ، أي : يعتمدون عليه بقلوبهم مفوضين إليه أمورهم وحده لا شريك له ، فلا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يرغبون إلا إليه ، يعلمون أن ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له . وفي الآية وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان وهي الحرف ، وزيادة الإيمان ، والتوكل على الله وحده .

فإن قيل : إذا كان المؤمن حقاً هو الذي فعل المأمور وترك المحذور فلماذا لم يذكر إلا خمسة أشياء ؟ .

قيل : لأن ما ذكر مستلزم لما ترك ، فإنه ذكر وجل قلوبهم إذا ذكر الله ، وزيادة إيمانهم إذا تليت عليهم آياته ، مع التوكل عليه ، وأقام الصلاة على الوجه المأمور به باطناً وظاهراً ، والانفاق من المال والمنافع فكان مستلزماً للباقي . فإن وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والحرف منه ، وذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور ، وترك المحذور . وكذلك زيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله يقتضي زيادته علماً

وعملًا ، ثم لا بد من التوكل على الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ومن طاعة الله فيما يقدر عليه . وأصل ذلك الصلاة ، والزكاة ، فمن قام بهذه الخس كما أمر لزم أن يأتي بسائر الواجبات ، بل الصلاة نفسها إذا فعلها كما أمر فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر ذكر ذلك شيخ الاسلام .

قال : وقوله : (يا أيها النبي حسبك الله) [الأنفال : ٦٥] الآية .

قال ابن القيم : أي : الله وحده كافيك وكافي أتباعك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد ، وقيل : المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون . قال ابن القيم : وهذا خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه ؛ فإن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة . قال تعالى : (وإن يريدوا أن يخذك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين) [الأنفال : ٦٤] ففرق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده ، وجعل التأييد له بنصره وبعياده ، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب فقال تعالى : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) [آل عمران : ١٧٤] ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله ، فإذا كان هذا قولهم ومدح الرب تعالى لهم بذلك فكيف يقول لرسوله : الله وأتباعك حسبك ؟ وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب ، ولم يشركوا بينه وبين رسوله ، فكيف يشرك بينه وبينهم في حسب رسوله ﷺ ؟ هذا من أحمل المحال وأبطل الباطل . ونظير هذا قوله سبحانه : (وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون) [التوبة : ٦١] فتأمل كيف جعل الايتاء لله والرسول كما قال : (وما آتاكم الرسول فخذوه) [الحشر : ٨]

وجعل الحسب له ، فلم يقل : وقالوا حسبنا الله ورسوله ، بل جعله خالص حقه ، كما قال : (إنا إلى الله راغبون) [التوبة : ٦١] ولم يقل وإلى رسوله ، بل جعل الرغبة إليه وحده ، كما قال : (وإلى ربك فارغب) [الانشراح : ٩] فالرغبة والتوكل والإقامة والحسب لله وحده ، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والхلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى انتهى كلامه . وبهذا يتبين مطابقة الآية للتوجه ، لأن الله تعالى أخبر أنه حسب رسوله ، وحسب أتباعه . أي : كافهم وناصرهم ، فنعم المولى ونعم النصير ، وفي ضمن ذلك أمر لهم بأفراده تعالى بالحسب ، استكفاء بكفايته تبارك وتعالى وذلك هو التوكل .

قال : وقوله : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) [الطلاق : ٣] قال ابن القيم : أي : كافيه ، ومن كان الله كافيه وواقيه ، فلا مطمع فيه لعدوه ، ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش . وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً ، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء ، وهو في الحقيقة إحسان إليه ، واضرار بنفسه ، وبين الضرر الذي يشتكى به منه . قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته ، فقال : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) [الطلاق : ٤] ولم يقل : فله كذا وكذا من الأجر ، كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه ، وحسبه ، وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله ، وكادته السموات والأرض ومن فيهن ، لجعل له مخرجاً ، وكفاه ، ونصره ، انتهى .

وفي أثر رواه أحمد في « الزهد » عن وهب بن منبه ، قال إذا عز وجل في بعض كتبه: « بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السموات ومن فيهن ، والأرضون بمن فيهن ، فأني أجعل له بذلك مخرجاً ، ومن لم يعتصم بي ، فأني أقطع يديه من أسباب السماء ، وأخفف من تحت قدميه الأرض ، فأجعله في الهواء ثم أكله إلى نفسه ، كفى بي لعبدي مآلاً ، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني ، واستجيب له قبل أن يدعوني ، فإنا أعلم بحاجته التي ترقى به منه ، وفي الآية دليل على فضل التوكل ، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ، ودفع المضار ، لأن الله علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط ، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه ، لأنه تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له ، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسباً له ، ذكره شيخ الإسلام . وفيها تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل ، لأنه تبارك وتعالى ذكر التقوى ، ثم ذكر التوكل ، كما قال : (واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) [المائدة : ١٣] فجعل التقوى الذي هو قيام بالأسباب الأمور بها ، فحينئذ إذا توكل على الله ، فهو حسبه ، فالتوكل بدون القيام بالأسباب الأمور بها عجز محض ، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل ، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً ، ولا عجزه توكلاً ، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها . ذكر معناه ابن القيم .

قال عن ابن عباس : قال : (حسبنا الله ونعم الوكيل) [آل عمران : ١٧٤] قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار ، وقالها

محمد ﷺ حين قالوا (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً)
رواه البخاري .

ش : قوله : (حسبنا الله) أي : كافينا فلا نتوكل إلا عليه ، كما
قال : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) [الطلاق : ٤] أي كافيه .
كما قال (أليس الله بكاف عبده) [الزمر : ٣٧] .

قوله : (ونعم الوكيل) أي : نعم الموكل إليه المتوكل عليه ؛
كما قال تبارك وتعالى : (واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير)
[الحج : ٧٩] فقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة التوكل على الله والاتجاه
إليه ، قال ابن القيم : وهو حسب من توكل عليه ، وكافي من لجأ إليه ،
وهو الذي يؤمن بخوف الخائف ، ويحير المستجير وهو نعم المولى ، ونعم
النصير ؛ فمن تولاه ، واستنصر به ، وتوكل عليه ، وانقطع بكليته إليه ،
تولاه ، وحفظه وحرسه ، وصانته ، ومن خافه ، واتقاه أمنه بما يخاف
ويحذر ، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع .

قوله : قالها إبراهيم ﷺ حين ألقى في النار ، وفي رواية عن ابن
عباس : قال : كان آخر قوم إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار .
(حسبنا الله ونعم الوكيل) رواه البخاري ، وقد ذكر الله القصة في
سورة الأنبياء عليهم السلام .

قوله : وقالها محمد ﷺ إلى آخره ، وذلك بعدما كان من أمر أحد
ما كان . بلغ النبي ﷺ وأصحابه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا
الكرة عليهم فخرج النبي ﷺ ، ومعه أبو بكر ومهر وعثمان وعلي ،
والزبير وسعد وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ، وحذيفة بن اليان وعبد الله

ابن مسعود ، وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين راكباً حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهي من المدينة على ثلاثة أميال ، ثم ألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان ، فرجع إلى مكة ، ومر به ركب من عبد قيس فقال : أين تريدون ؟ فقالوا : نريد المدينة ، قال : فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إياه ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، فرأى الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه ، فقال : (حسبنا الله ونعم الوكيل) [آل عمران : ١٧٤] والقصة مشهورة في السير والتفاسير .

ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام في الشدائد ، ولهذا جاء في الحديث : إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، رواه ابن مردويه وأن القيام بالأسباب مع التوكل على الله لا يتنافيان ، بل يجب على العبد القيام بهما ، كما فعل الخليلان عليهما الصلاة والسلام ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن عوف بن مالك أن النبي ﷺ قضى بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال رسول الله ﷺ : ردوا علي الرجل ، فقال : ما قلت ؟ قال : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل فقال رسول الله ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر ، قل : حسبي الله ونعم الوكيل ، وفي الآية دليل على أن الإيمان يزيد وينقص . قال بجاهد في قوله : (فزادهم إيماناً) قال : الإيمان يزيد وينقص ، وعلى أن ما يكرهه

الإنسان قد يكون خيراً له ، وإن التوكل أعظم الأسباب في حصول الخير ، ودفع الشر في الدنيا والآخرة .

باب

قول الله تعالى : (أَلَمْ آمَنُوا مَكَرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْغَافِرُونَ) [الأعراف : ٩٩] .

المراد بهذه الترجمة التنبه على الجمع بين الرجاء والخوف ، ولذلك ذكر بعد هذه الآية قوله تعالى : (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) [الحجر : ٥٧] هذا هو مقام الأنبياء والصديقين كما قال تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كاثٌ محذوراً) [الإسراء : ٥٨] فابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب بحبه وطاعته ، ثم ذكر الرجاء والخوف وهذه أركان الإيمان . وقال تعالى : (لهم كانوا يسارعون في الحيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) [الأنبياء : ٩١] وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام : (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون) [الأنعام : ٨١] وقال عن شعيب : (قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلى أن يشاء الله ربنا) [الأعراف : ٨٩] فوكلا الأمر إلى ماله ، وقال تعالى عن الملائكة عليهم السلام : (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) [النحل : ٥١] وقال النبي ﷺ : د إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية ، وكلما قوي إيمان العبد وبقينه قوي خوفه ورجاؤه مطلقاً . قال الله تعالى :

(إنما يخشى الله من عباده العلماء) [فاطر : ٢٩] وقال : (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يأتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) [المؤمنون : ٥٩ ، ٦٢] وقالت عائشة : يا رسول الله هو الرجل يزي ويسرق ويخاف أن يعاقب ؟ قال : لا يا بنت الصديق هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه ، رواه الإمام أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه .

قال ابن القيم : الخوف من أجل منازل الطريق ، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة ، وهم إليه أحوج ، وهم به أليق وله ألزم ، فإن العبد إما أن يكون مستقيماً أو مائلاً عن الاستقامة . فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله ، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف ، وهو ينشأ من ثلاثة أمور : أحدها معرفته بالجناية وقبحها ، والثاني : تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها ، الثالث : أنه لا يعلم أنه ينج من التوبة ، ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب فهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف ، وسبب قوتها وضعفها يكون قوة الخوف ، وضعفه هذا قبل الذنب ، فإذا عمله كان نخوفه أشد . وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة لوجزائها ، وذكر المعصية والتوعد عليها ، وعدم الوقوف باتيانها بالتوبة النصوح ، هاج من قلبه من الخوف ما لا يملكه ، ولا يفارق حتى ينجو وأما إن كان مستقيماً مع الله ، فخوفه يكون من جريات الأنفاس لعلمه بأن الله مقلب القلوب . وما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن - عز وجل - فإن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء

أن يزيغه أزاغه ، كما ثبت عن النبي ﷺ وكانت أكثر يمينه « لا ومقلب القلوب » ، ويكفي في هذا قوله تعالى : (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) [الأنفال : ٢٥] فأي قرار لمن هذه حاله ومن أحق بالخوف منه ، بل خوفه لازم له في كل حال ، وإن توارى عنه بغلبة حال أخرى عليه ، فالخوف حشو قلبه ، ولكن توارى عنه بغلبة غيره ، فوجود الشيء غير العلم به ، فالخوف الأول ثمرة العلم بالوعد والوعيد ، وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرة الله عز وجل وعزته وجلاله ، وأنه الفعال لما يريد ، وأنه المحرك للقلب المصروف له كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم انتهى . فهذا الخوف الثاني هو من خوف المكر .

إذا علمت هذا ، فعنى الآية المترجم لها أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القري المكذبين للرسل ، بين أن الذي حلمهم على ذلك هو الأمن من عذاب الله ، وعدم الخوف منه ، كما قال : (أأمن أهل القري أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . أو أمن أهل القري أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) [الأعراف : ٩٧ ، ٩٨] ثم بين أن ذلك بسبب الجهل والغرور بالله ، فأمنوا مكره فيما ابتلاهم به من السراء والضراء ، بأن يكون استدراجاً ، فقال : (أأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) [الأعراف : ٩٩] أي : المالكون . فدل على وجوب الخوف من مكر الله . قال الحسن : من وسع عليه فلم ير أنه يكر به فلا رأي له ، ومن قتر عليه ، فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له . وقال قتادة : بغت القوم أمر الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سلوتهم وغرتهم ونعمتهم . فلا تغتروا بالله إنه لا يفتر به إلا القوم الفاسقون .

رواهما ابن أبي حاتم . وفي الحديث « إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يجب ؛ فإنما هو استدراج » رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم . وقال إسماعيل بن رافع : من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة . رواه ابن أبي حاتم .

قال : وقوله : (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) [الحجر : ٥٧] ، نبه المصنف رحمه الله بهذه الآية على الجمع بين الرجاء والخوف ، فإذا خاف فلا يقنط من رحمة الله ، بل يربوها مع العمل الصالح . كما قال تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) [البقرة : ٢١٩] فذكر سبحانه أنهم يرجون رحمة الله مع الاجتهاد في الأعمال الصالحة فأما الرجاء مع الاصرار على المعاصي ، فذاك من غرور الشيطان ؛ إذا تبين ذلك ، فقله تعالى : (ومن يقنط) حكاية قول إبراهيم عليه السلام لما بشرته الملائكة بولده إسحاق عليه السلام ، فقال : (أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون) [الحجر : ٥٥] استبعاداً لوقوع هذا في العادة مع كبر السن منه ومن زوجته قالوا : (بشرناك بالحق) [الحجر : ٥٦] أي : الذي لا ريب فيه ولا مشنوية ، بل هو أمر الذي (إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) [يس : ٨٣] وإن بعد مثله في العادة التي أجراها فإن ذلك عليه يسير ، إذا أراحه ، فلا تكن من القاطنين ، أي لا تيأس من رحمة الله ، قال إبراهيم عليه السلام : (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) [الحجر : ٥٧] فأجابهم بأنه ليس بقائض ، ولكن يرجو من الله الولد ، وإن كان قد كبر ، وأسنت امرأته ، فإنه

يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك . قال السدي : (ومن يقنط من رحمة ربه) قال : من يئس من رحمة ربه . رواه ابن أبي حاتم (إلا الضالون) قال بعضهم : إلا المخطئون طريق الصواب ، أو الكافرون ، كقوله : (لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون) [يوسف : ٨٨] وفي حديث مرفوع « العاجز الراجي لرحمة الله أقرب منها من العابد القانط » رواه الحكيم الترمذي والحاكم في « تاريخه » .

قال : عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر قال : « الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله » .

ش : هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان متكئاً ، فدخل عليه رجل ، فقال : ما الكبائر ؟ فقال : « الشرك بالله » وذكر الحديث . ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر فقال ابن معين : ثقة ، ولينه ابن أبي حاتم ، ومثل هذا يكون حسناً . وقال ابن كثير : في إسناده نظر ، والأشبه أن يكون موقوفاً .

قوله : « الشرك بالله » هو أكبر الكبائر ، إذ مضمونه تنقيص رب العالمين والمهم ومالكهم وخالقهم الذي لا إله إلا هو ، وعدل غيره به ، كما قال : (ثم الذين كفروا يربهم يعدلون) [الأنعام : ٢] فهو أظلم الظلم ، وأقبح القبائح ، ولهذا لا يغفر إن لم يتب منه ، بخلاف غيره من الذنوب ، ففي مشيئة الله إن شاء غفرها ، وإن شاء عذب بها .

قوله : « واليأس من روح الله » أي : قطع الرجاء والأمل من الله فيما يرومه ويقصده قال تعالى : (ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يئس

من روح الله (لا القوم الكافرون) [يوسف : ٨٨] وذلك إساءة ظن
بكرم الله ورحمته وجوده ومغفرته .

قوله : « والأمن من مكر الله » أي : من استدراجه للعبد أو
سلبه ما أعطاه من الإيمان - نعوذ بالله من غضبه - وذلك جهل بالله
وبقدرته ، وثقة بالنفس وعجب بها . واعلم أن هذا الحديث لم يرد فيه
حصص الكبائر فيما ذكر ، بل الكبائر كثيرة ، لكن ذكر ما هو أكبرها ،
أو من أكبرها ، ولهذا قال ابن عباس : هي إلى السبعين أقرب منها
إلى السبع ، رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم . وفي رواية هي إلى
سبعائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة
مع إصرار .

قال : وعن ابن مسعود قال : أكبر الكبائر الإشراك بالله ،
والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح
الله ، رواه عبد الرزاق .

ش : هذا الأثر رواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود ،
قال ابن كثير : وهو صحيح إليه بلا شك ، ورواه الطبراني أيضاً .
قوله : أكبر الكبائر : الإشراك بالله . أي : في ربوبيته أو عبادته
وهذا بالاجماع .

قوله : والقنوط من رحمة الله . قال أبو السعادات : هو أشد اليأس
من الشيء قلت : فعلى هذا يكون الفرق بينه وبين اليأس كالفرق بين
الاستغائة والدعاء ، فيكون القنوط من اليأس ، وظاهر القرآن أن اليأس
أشد لأنه حكم لأهل الكفر ، ولأهل القنوط بالضلal ، وفيه التنبيه على

الجمع بين الرجاء والخوف ، فإذا خاف فلا يقنط ولا يئس ، وكان السلف يستحبون أن يقوى في الصحة الخوف ، وفي المرض الرجاء ، هذه طريقة أبي سليمان وغيره ، قال : وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف فإذا كان الغالب عليه الرجاء فسد ، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا خشية في الغيب والشهادة إنه على كل شيء قدير .

باب

من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

لما كان بديع حكمته ، ولطيف رحمته ، قضى أن يبتلي النوع الانساني بالأوامر والنواهي والمصائب التي قدرها عليهم ، أمرهم بالصبر على ذلك ، وافترضه عليهم تسليّة لهم وتقوية على ذلك ، ووعدهم عليه الثواب بغير حساب كما قال : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) [الزمر : ١١] فعلى هذا يكون الصبر ثلاثة أنواع : صبر على المأمور ، وصبر عن المحذور ، وصبر على المقدور ، ويشملها قوله تعالى : (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) [الرعد : ٢٥] وقوله تعالى : (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) [النحل : ٤٣] ولما كان الصبر لا يحصل إلا بالله كما قال : (واصبر وما صبرك إلا بالله) [النحل : ١٢٨] أرشد تبارك وتعالى إلى الجمع بينها . وقال تعالى : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) [الطور : ٤٩] قال الامام أحمد : ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً وقال النبي ﷺ : « والصبر ضياء » رواه أحمد ومسلم . وقال عليه السلام : « ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » رواه البخاري ومسلم . وفي حديث آخر « الصبر نصف الإيمان » رواه أبو نعيم والبيهقي في « الشعب » وقال

عمر : وجدنا خير عيشنا بالصبر . رواه البخاري . وقال علي بن أبي طالب :
ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس بان
الجسد ، ثم رفع صوته فقال : ألا لا إيمان لمن لا صبر له . والأحاديث
والآثار في ذلك كثيرة .

واشتقاه من صبر : إذا حبس ومنع ، فالصبر حبس النفس عن الجزع ،
واللسان عن التشكي والسخط ، والجوارح عن لطم الحدود ، وشق الجيوب
ونحوها ذكره ابن القيم .

قال : وقوله تعالى : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) [التغابن : ١١] .
ش : أول الآية (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله
يهد قلبه والله بكل شيء عليم) [التغابن ١٢] أخبر تعالى أن
ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في الأنفس إلا بإذن الله ، أي : بقدره
وأمره كما قال في الآية الأخرى (إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن
ذلك على الله يسير) [الحديد : ٢٣] قال ابن عباس في قوله : إلا
بإذن الله : إلا بأمر الله ، يعني : من قدره ومشئته ومن يؤمن بالله يهد
قلبه ، أي : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر
واحتسب واستسلم لقضاء الله جازاه الله تعالى بهداية قلبه التي هي أصل
كل سعادة وخير في الدنيا والآخرة . وقد يخلف عليه أيضاً في الدنيا
ما أخذه منه أو خيراً منه كما قال : (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم
مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم
ورحمة وأولئك هم المهتدون) [البقرة : ١٥٦ ، ١٥٨] قال ابن عباس :
يهد قلبه اليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن
ليصيبه . وفي الحديث الصحيح : عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان

خيراً له ، إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له ، وإن أصابته سرء
خشكر كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن ، وقوله : (والله
بكل شيء عليم) تلييه على أن ذلك صادر عن علمه المتضمن لحكمته ،
وذلك يوجب الصبر والرضى .

قوله : قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند
الله فيرضى ويسلم .

ش : هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن علقمة وهو
صحيح ، وعلقمة هو ابن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي ولد في حياة
النبي ﷺ ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود
وعائشة وغيرهم ، وهو من كبار التابعين وأجلاتهم وعلمائهم وثقاتهم مات
بعد الستين .

قوله : هو الرجل تصيبه المصيبة إلى آخره . هذا تفسير للإيمان
المذكور في الآية لكنه تفسير باللائم وهو صحيح ، لأن هذا اللازم
للإيمان الراسخ في القلب ، وقريب منه تفسير سعيد بن جبير : (ومن يؤمن
بأنه يهد قلبه) يعني : يسترجع يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . وفي
الآية أن الصبر سبب لهداية القلب ، وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ،
وأن الأعمال من الإيمان وفيها لإثبات القدر .

قال : وفي « صحيح مسلم » عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ
قال : « الثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة
على الميت » .

ش : قوله : هما . أي الاثنتان .

قوله : بهم كفر . أي : هما بالناس ، أي : فيهم كفر . قال شيخ الاسلام : أي : هاتان الحصلتان هما كفر قائم في الناس . فنفس الحصلتين كفر حيث كانتا في أعمال الكفار ، وهما قائمتان بالناس ، لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق ، حتى تقوم به حقيقة الكفر ، كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً حتى يقوم به أصل الإيمان ، وفوق بين الكفر المعروف باللام كما في قوله : « ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة » وبين كفر منكّر في الاثبات .

قوله : « الطعن في النسب » أي : عيبه ، ويدخل فيه أن يقال : هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه في ظاهر الشرع ذكره بعضهم .

قوله : « والنيابة على الميت » أي : رفع الصوت بالندب بتعدد شمائله لما في ذلك من التسخط على القدر والجزع المنافي للصبر ، وذلك كقول النائحة : وأعضاده ، وأناصره ، وأكاسياه ونحو ذلك . وفيه دليل على أن الصبر واجب ، لأن النيابة منافية له ، فإذا حرمت دل على وجوبه وفيه أن من الكفر ما لا ينقل عن الملة .

قال : ولها عن ابن مسعود مرفوعاً « ليس منا من ضرب الحدود ، وشق الجيوب ، ودعى بدعوى الجاهلية » .

ش : قوله : « ليس منا » هذا من نصوص الوعيد ، وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهة تأويلها ليكون أوقع في النفوس ، وأبلغ في الزجر ، وقيل أي : « ليس من أهل سنتنا وطريقتنا » لأن الفاعل لذلك ارتكب محرماً ، وترك واجباً . وليس المراد اخراجه من الاسلام بل المراد

المبالغة في الردع عن الوقوع في ذلك ، كما يقول الرجل لولده عند معاقبته :
لست مني ولست منك ، فالمراد أن فاعل ذلك ليس من المؤمنين الذين
قاموا بواجبات الإيمان .

قوله : « من ضرب الحدود » قال الحافظ : خص الحد بذلك لكونه
الغالب ، وإلا فضرب بقية الوجه مثله ، قلت : بل ولو ضرب غير الوجه
كالصدر ، فكما لو ضرب الحد ، فيدخل في معنى ضرب الحد ، إذ الكل جزع
مناف للصبر فيحرم .

قوله : « وشق الجيوب » جمع جيب وهو الذي يدخل فيه الرأس
من الثوب ، وكانوا يشقونه حزناً على الميت قال الحافظ : والمراد إكمال
فتحه إلى آخره . قلت : الظاهر أن فتح بعضه كفتحه كله .

قوله : « ودعى بدعوى الجاهلية » قال شيخ الإسلام : هو نذب الميت
وقال غيره : هو الدعاء بالويل والثبور . وقال الحافظ : أي : من النياحة
ونحوها وكذا النذب به كقولهم : واجبله ، وكذا الدعاء بالويل والثبور .
وقال ابن القيم : الدعاء بدعوى الجاهلية ، كالدعاء إلى القبائل والعصية
للإنسان ، ومثله التعصب للمذاهب والطوائف ، والمشايخ وتفضيل بعض على
بعض في الهوى والعصية ، وكونه منتسباً إليه يدعو إلى ذلك ، ويوالي عليه ،
ويعادي ويزن الناس به ، فكل هذا من دعوى الجاهلية .

قالت : الصحيح . دعوى الجاهلية يعم ذلك كله ، وقد جاء لعن من
فعل ما في هذا الحديث عن ابن ماجة ، وصححه ابن حبان عن أبي أمامة
أن رسول الله ﷺ « لعن الخامشة وجهها ، والشاقة جيها ، والداعية بالويل
والثبور » وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر ، لأنها مشتملة على

التسخط على الرب وعدم الصبر الواجب ، والاضرار بالنفس من لطم الوجه ،
واثلاف المال ؛ بشق الثياب وتزيقها وذكر الميت بما ليس فيه ، والدعاء
بالويل والثبور والتظلم من الله تعالى وبدون هذا يثبت التحريم الشديد ،
فأما الكلمات اليسيرة إذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم ،
ولا تنافي الصبر الواجب . نص عليه أحمد لما رواه في « مسنده » عن
أنس أن أبا بكر رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ بعد وفاته فوضع فيه
بين عينيه ، ووضع يديه على صدغيه وقال : وانبياء وأخيلاه واصفياه .
وكذلك صح عن فاطمة رضي الله عنها أنها نذبت أباها ﷺ فقالت :
يا أبتاه أجاب رباً دعاه ... الحديث .

واعلم أن الحديث المشروح لا يدل على النهي عن البكاء أصلاً ، وإنما
يدل على النهي عما ذكر فيه فقط . وكذلك يدل على النهي عما في معناه
كالبكاء برنة ، وحلق الشعر ، وخمش الوجوه ، ونحو ذلك . أما البكاء على
وجه الرحمة والرقه ونحو ذلك فيجوز ، بل قال شيخ الاسلام : البكاء على
الميت على وجه الرحمة حسن مستحب ، ولا ينافي الرضى بقضاء الله ، بخلاف
البكاء عليه لفوات حظه منه .

قلت : ويدل لذلك قوله عليه السلام لما مات ابنه ابراهيم : « تدمع
العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضي الرب وإنما بكى يا ابراهيم
لهزونون » وهو في « الصحيح » وفي « الصحيحين » عن أسامة بن زيد أن
رسول الله ﷺ انطلق الى أحد بناته ولها صبي في الموت فرفع اليه الصبي
ونفسه تقعقع كأنها شن فقاضت عيناه فقال سعد : ما هذا يا رسول الله

قال : « هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وانما يرحم الله من عباده الرحماء » .

قال : وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة » .

ش : هذا الأثر رواه الترمذي ، والحاكم ، وحسنه الترمذي وفي إسناده سعد بن سنان . قال الذهبي في موضع : سعد ليس حجة وفي آخر كأنه غير صحيح . وأخرجه الطبراني ، والحاكم عن عبد الله بن مغفل ، وأخرجه ابن عدي عن أبي هريرة ، والطبراني عن عمار بن ياسر وحسنه السيوطي .

قوله : إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا . قال شارح « الجامع الصغير » : أي : بصب البلاء والمصائب عليه جزاء لما فرط من الذنوب منه ، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافي به يوم القيامة ، كما يعلم من مقابلة الآتي ، ومن فعل ذلك به فقد أعظم اللطف به ، لأن من حوسب بعمله عاجلاً في الدنيا خف جزاؤه عليه حتى يكفر بالشوكة يشاكها ، حتى بالقلم يسقط من الكاتب ، فيكفر عن المؤمن بكل ما يلحقه في دنياه حتى يموت على طهارة من دنسه .

قلت : وفي الصحيح « لا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وأمس عليه خطيئة » وفي « المسند » وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعاً « لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده وماله وفي ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة » .

قال شيخ الإسلام : المصائب نعمة ، لأنها مكفرات للذنوب ، ولأنها تدعو إلى الصبر ، فيثاب عليها ، ولأنها تقتضي الانابة إلى الله والذل له ، والاعراض عن الخلق ، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة فنفس البلاء يكفر الله به الخطايا ، ومعلوم أن هذا من أعظم النعم ، ولو كان رجل من أفجر الناس فإنه لا بد أن يخفف الله عنه عذابه بمصائبه . فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك ، فتكون شراً عليه من جهة ما أصابه في دينه ، فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو جوع حصل له من الجزع والسخط والنفاق ومرض القلب ، أو الكفر الظاهر ، أو ترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له ضرراً في دينه بحسب ذلك . فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة ، لا من جهة المصيبة ، كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة كانت في حقه نعمة دينية ، فهي بعينها فعل الرب عز وجل رحمة للخلق ، والله تبارك وتعالى محمود عليها ، فإن اقترن بها طاعة كان ذلك نعمة ثانية على صاحبها ، وإن اقترن بها للمؤمن معصية ، فهذا مما تتنوع فيه أحوار الناس كما تتنوع أحوالهم في العافية ، فمن ابتلي فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه ، وحصل له بعد ما كفر من خطايا رحمة ، وحصل له بشئائه على ربه صلاة ربه عليه . حيث قال : (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) [البقرة : ١٥٨] فحصل له غفران السيئات ، ورفع الدرجات وهذا من أعظم النعم . فالصبر واجب على كل مصاب ؛ فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك . انتهى ملخصاً .

قوله : « وإذا أراد بعبد الشر أمسك عنه ، أي : أخر عنه العقوبة بذنبه .

قوله : « حتى يوافي به يوم القيامة » هو بضم الياء وكسر الفاء منصوباً بحتى مبنياً للفاعل . قال العزيمي : أي : لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفي الذنوب وأفيها فيستوفي ما يستحقه من العقاب .

قلت : وهذا مما يزهّد العبد في الصحة الدائمة خوفاً أن تكون طبيباته عجلت له في الحياة الدنيا ، والله تعالى لم يرض الدنيا لعقوبة أعدائه ، كما لم يرضها لإثابة أوليائه بل جعل ثوابهم أن أسكنهم في جوارده ورضي عنهم . كما قال تعالى : (إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر) [القمر : ٥٥-٥٦] لهذا لما ذكر النبي ﷺ الأسقام قال رجل : يا رسول الله وما الأسقام ؟ والله ما مرضت قط قال : « ثم عنا فلست منا » رواه أبو داود . وهذه الجملة هي آخر الحديث فأما قوله : وقال النبي ﷺ : « إن عظم الجزاء » إلى آخره فهو أول حديث آخر لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد عن صحابي واحد جعلها المصنف كالحديث الواحد . وفيه من الفوائد أن البلاء للمؤمن من علامات الخير خلافاً لما يظنه كثير من الناس ، وفيه الخوف من الصحة الدائمة أن تكون علامة شر ، وفيه تنبيه على رجاء الله وحسن الظن به فيما يقضيه لك مما تكره ، وفيه معنى قوله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، [البقرة : ٢١٧] .

قال المصنف : وقال النبي ﷺ : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء

وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط » حسنه الترمذي .

ش : هذا الحديث رواه الترمذي ولفظه : حدثنا قتيبة ، ثنا الليث عن يزيد ابن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبده الخير ، الحديث الذي قبل هذا ثم قال : وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال : « ان عظم الجزاء ، الحديث ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . ورواه ابن ماجة وصححه السيوطي . وروى الامام أحمد عن محمود بن لبيد مرفوعاً « إذا أحب الله قوماً ابتلاهم فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع ، قال المنذري : رواه ثقات :

قوله : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، بكسر المهملة وفتح الظاء فيها ، ويجوز ضمها مع سكون الظاء ، أي : من كان ابتلاؤه أعظم فجزاؤه أعظم ، فعظمة الأجر وكثرة الثواب مع عظم البلاء كيفية وكمية جزاء وفاقاً . قلت : ولما كان الأنبياء عليهم السلام أعظم الناس جزاء كانوا أشد الناس بلاء ، كما في حديث سعد سئل النبي ﷺ . أي الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان في دينه صلأ اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » رواه الدارمي ، وابن ماجة ، والترمذي وصححه . وقد محتج بقوله : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء » من يقول : إن المصائب والأسقام يثاب عليها غير تكفير الخطايا ، ورجح ابن القيم وغيره أن ثوابها تكفير الخطايا .

فقط إلا ان كانت سبباً لعمل صالح كالتوبة ، والاستغفار والصبر والرضى ، فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها كما في حديث « إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها ، أو قال : لم ينلها بعمله ابتلاء الله في جسده ، أو في ولده ، أو في ماله ، ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل » رواه أبو داود في رواية ابن داسمة والبخاري في « تاريخه » وأبو يعلى في « مسنده » وحسنه بعضهم . وعلى هذا فيجواب عن الأول « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، أي : إذا صبر واحتسب .

قوله : « وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم » صريح في حصول الابتلاء لمن أحبه الله ولما كان الأنبياء عليهم السلام أفضل الأجواب كانوا أشد الناس بلاء ، وأصابهم من البلاء في الله ما لم يصب أحداً لينالوا بذلك الثواب العظيم « والرضوان الأكبر ولياً نسي بهم من بعدهم ، ويعلموا أنهم بشر تصيبهم المهن والبلايا فلا يعبدونهم .

فان قلت : كيف يبتلي الله أحبابه ١٢

قيل : لما كان أحداً لا يخلو من ذنب كان الابتلاء تطهيراً لهم كما صحت بذلك الأحاديث وفي أثر إلهي « أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعاييب » ولأنه زيادة في درجاتهم لما يحصل مع المصيبة للمؤمن من الأعمال الصالحة كما تقدم في حديث « إذا سبقت للعبد من الله منزلة ، الحديث ولأن ذلك يدعو إلى التوبة فإن الله تعالى يبتلي العباد بعذاب الدنيا ليتوبوا من الذنوب كما قال تعالى : (ليدققهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) [الروم : ٤٢] فمن رزقه الله التوبة بسبب المصيبة كان ذلك من أعظم نعم الله عليه ، ولأن ذلك يحصل به دعاء الله والتضرع إليه ؛ ولهذا ذم

الله من لا يستكين لربه ، ولا يتضرع عند حصول البأساء كما قال تعالى :
 (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) [المؤمنون : ٧٨]
 ودعاء الله والتضرع إليه من أعظم النعم ، فهذه النعمة والتي قبلها من
 أعظم صلاح الدين ، فإن صلاح الدين في أن يعبد الله وحده ويتوكل
 عليه ، وأن لا تدعو مع الله إلهاً آخر لا دعاء عبادة ، ولا دعاء مسألة .
 فإذا حصلت لك التوبة التي مضمونها أن تعبد الله وحده ، وتطيع رسوله
 بفعل الأمور ، وترك المحظور ، كنت بمن يعبد الله ، وإذا حصل لك
 الدعاء الذي هو سؤال الله حاجاتك ، فتسأله ما تلتفع به ، وتستعيز به مما
 تستضر به ، كان هذا من أعظم نعم الله عليك ، وهذا كثيراً ما يحصل
 بالمصائب . وإذا كانت هذه النعم في المصائب ، فأولى الناس بها أحبابه ،
 فعليهم حينئذ أن يشكروا الله . لحصت ذلك من كلام شيخ الإسلام
 رحمه الله .

قوله : « فمن رضي فله الرضى » أي : من رضي بما قضاه الله وقدره
 عليه من الابتلاء فله الرضى من الله جزاءً وفاقاً كما قال تعالى : (رضي
 الله عنهم ورضوا عنه) [البينة : ١٠] وهذا دليل على فضيلة الرضى ،
 وهو أن لا يعترض على الحكم ولا يتسخطه ولا يكرهه ، وقد وصى النبي ﷺ
 رجلاً فقال : « لا تنهم الله في شيء قضاه لك » فإذا نظر المؤمن بالقضاء
 والقدر في حكمة الله ورحمته ، وأنه غير متهم في قضائه ، دعاه ذلك إلى
 الرضى ، قال ابن مسعود : إن الله يقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في
 اليقين والرضى ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط . وقال ابن عون :
 ارض بقضاء الله من عسر ويسر فإن ذلك أقل لهلك ، وأبلغ فيما تطلب

من أمر آخرتك ، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضى حتى يكون
رضاه عند الفقر والبلاء كرضاه عند الغنى والرخاء كيف تستضي الله في
أمرك ، ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفاً لهواك ؟ ولعل ما هويت من ذلك
لو وفق لك لكان فيه هلاكك ، وترضى قضاءه إذا وافق هواك ، وذلك
لقلّة علمك بالغيب ، إذا كنت كذلك ما أنصفت من نفسك ، ولا أصبت
باب الرضى . ذكره ابن رجب قال : وهذا كلام حسن .

قوله : د ومن سخط ، هو بكسر الخاء قال أبو السعادات : السخط
الكراهية للشيء وعدم الرضى به ، أي : من سخط أقدار الله فله السخط
أي : من الله وكفى بذلك عقوبة . قال تعالى : (ذلك بأنهم اتبعوا
ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) [محمد : ٢٩] وفيه
دليل أن السخط من أكبر الكبائر وقد يستدل به على إيجاب الرضى كما
هو اختيار ابن عقيل . واختار القاضي عدم الوجوب ، ورجعه شيخ الإسلام ،
وابن القيم . قال شيخ الإسلام : ولم يجر الأمر به كما جاء الأمر
بالصبر ، وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم . قال وأما ما جاء من الأثر
« من يصبر على بلائى ، ولم يرض بقضائى فليتخذ رباً سراي » فهذا إسرائيلي
ليس يصح عن النبي ﷺ . قلت : قد روى الطبراني في الأوسط معناه عن
أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً « من لم يرض بقضاء الله ويؤمن
بقدر الله ، فليلتبس إلهاً غير الله » قال الهيثمي : فيه حزم بن أبي حزم
وثقه ابن معين ، وضعفه جمع وبقية رجاله ثقات فإن ثبت هذا دل على
وجوبه . قال شيخ الإسلام : وأعلى من ذلك ، أي : من الرضى أن
يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله تعالى عليه بها . انتهى . واعلم

أنه لا تنافي بين الرضى وبين الإحساس بالألم فكثير ممن له آنين من وجع
وشدة مرض قلبه مشحون من الرضى والتسليم لأمر الله .

فان قيل : ما الفرق بين الرضى والصبر ؟

فالجواب قال طائفة من السلف منهم عمر بن عبد العزيز ، والفضيل ،
وأبو سليمان ، وابن المبارك ، وغيرهم : إن الراضى لا يتمنى غير حاله
التي هو عليها بخلاف الصابر ، وقال الخواص : الصبر دون الرضى ، الرضى
أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راض بأي ذاك كان ، والصبر أن
يكون بعد نزول المصيبة يصبر . قلت : كلام الخواص هذا عزم على الرضى
ليس هو الرضى ، فإنه إنما يكون بعد القضاء كما في الحديث « وأسألك
الرضى بعد القضاء » لأن العبد قد يعزم على الرضى بالقضاء قبل وقوعه
فاذا وقع انفسخت تلك العزيمة ، فمن رضى بعد وقوع القضاء فهو الراضى
حقيقة . قاله ابن رجب .

باب

ما جاء في الرياء

أي : من الوعيد ولما كان خلوص العمل من الشرك والرياء شرطاً
في قبوله لمنافاة الشرك والرياء للتوحيد ، نبه المصنف على ذلك تحقيقاً للتوحيد .
والرياء مصدر راءى يرأى مرأاة ورياء ؛ وهو أن يري الناس أنه يعمل
عملاً على صفة وهو يضمّر في قلبه صفة أخرى ، فلا اعتداد ولا ثواب إلا
بما خلصت فيه النية لله تعالى . ذكره القاضي أبو بكر بمعناه ، وقال
الحافظ : هو مشتق من الرؤية ، والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس

لما فيحمد صاحبها انتهى . والفرق بينه وبين السمعة أن الرياء هو العمل لرؤية الناس ، والسعة العمل لأجل سماعتهم ، فالرياء يتعلق بحاسة البصر ، والسمعة بحاسة السمع ، ويدخل فيه أن يخفي عمله لله ثم يحدث به الناس .

قال . وقول الله تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد) [الكهف : ١١٢] .

يقول تعالى لنبيه ﷺ : قل يا محمد للناس : إنما أنا بشر مثلكم ، أي : في البشرية ولكن الله من علي وفضلني بالرسالة وليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء ، بل ذلك لله وحده لا شريك له كما قال : (يوحى إلي أنما إليكم إله واحد) أي : معبودكم الذي أدعوكم إلى عبادته إله واحد لا شريك له (فمن كان يرجو لقاء ربه) أي : من كان يخاف لقاء الله يوم القيامة . قال شيخ الإسلام : أما اللقاء ، فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة والمشاركة بعد السلوك والسير وقالوا : إن لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى وأطال في ذلك واحتج له . وقال سعيد ابن جبير : (فمن كان يرجو لقاء ربه) قال : من كان يخشى البعث في الآخرة رواه ابن أبي حاتم . (فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) أي : كائناً ما كان . قال ابن القيم أي : كما أنه إله واحد لا إله سواه ، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح هو الخالص من الرياء ، المقيد بالسنة انتهى . وهذان ركنا العمل المتقبل لا بد أن يكون صواباً خالصاً ، فالصواب أن يكون على السنة وإليه الإشارة بقوله : « فليعمل عملاً صالحاً ، والخالص : أن يخلص من الشرك الجلي والخيبي وإليه الإشارة بقوله : (ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) روى عبد الرزاق وابن

❦ أبي الدنيا في كتاب « الإخلاص » وابن أبي حاتم والحاكم عن طاوس
 قال : قال رجل يا نبي الله إني أقف المواقف أبتغي وجه الله وأحب أن
 يرى موطني فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية (فمن كان يرجو لقاء
 ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) [الكهف : ١١٢]
 رواه الحاكم وصححه موصولاً عن طاوس عن ابن عباس ، وفي الآية دليل
 على الشهادتين ، وأن الله تعالى فرض على نبينا ﷺ أن يخبرنا بتوحيد
 الإلهية ، ولما فتوحيد الربوبية لم ينكره الكفار الذين كذبوه وقاتلوه
 ذكره المصنف . وفيها تسمية الرباء شركاً وفيها أن من شروط الايمان
 بالله واليوم الآخر أن لا يشرك بعبادة ربه أحداً . فلهذا التصريح بأن
 الشرك الواقع من المشركين إنما هو في العبادة لا في الربوبية . وفيها الرد
 على من قال : أولئك يتشفعون بالأصنام ونحن نتشفع بصالح لأنه قال :
 (ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) فليس بعد هذا بيان ، افتتح الآية بذكر
 براءة النبي ﷺ الذي هو أقرب الخلق إلى الله وسيلة ، أي : براءته من
 الإلهية وختمها بقوله : أحداً . واعلم رحمك الله أن هذه الآية لا ينتفع
 بها إلا من ميز بين توحيد الربوبية وبين توحيد الإلهية تمييزاً تاماً وعرف
 ما عليه غالب الناس إما طواغيت ينازعون الله في توحيد الربوبية الذي لم
 يصل إليه شرك المشركين ، وإما مصدق لهم تابع لهم ، وإما شاك
 لا يدري ما أنزل الله على رسوله ، ولا يميز بين دين الرسول ﷺ وبين
 دين النصارى ، ذكره المصنف . وفيها أن أصل دين النبي ﷺ الذي بعث
 به هو الإخلاص كما في هذه الآية وقوله : (كنساب أحكمت آياته ثم
 فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله إني لكم منه نذير

وبشير ([هود : ٢ ، ٣] وذلك هو دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم كما قال تعالى . (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) [الأنبياء : ٢٦] وذلك هو الخيفية الإبراهيمية جعلنا الله من أهلها بنه وكرمه .

قال : عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً قال الله تعالى :
(انا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه) رواه مسلم .

ش : قوله : « انا أغنى الشركاء عن الشرك » ، لما كان المرادي قاصداً بعمله الله تعالى وغيره ، كان قد جعل الله تعالى شريكاً ، فإذا كان كذلك ، فالله تعالى هو الغني على الإطلاق ، والشركاء بل جميع الخلق فقراء إليه بكل اعتبار ؛ فلا يليق بكرمه وغناه التام أن يقبل العمل الذي جعل له فيه شريك ، فإن كماله تبارك وتعالى وكرمه وغناه يوجب أن لا يقبل ذلك ولا يلزم من اسم التفضيل إثبات غنى للشركاء ، فقد تقع المفاضلة بين الشئين وإن كان أحدهما لا فضل فيه كقوله تعالى : (الله خير أما يشركون) [النمل : ٦٠] وقوله تعالى : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً) [الفرقان : ٢٥] .

قوله : من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري ، أي : من قصد بذلك العمل الذي يعمل له لوجهي غيري من المخلوقين « تركته وشركه » وفي رواية عند ابن ماجة وغيره « فأنا منه بريء وهو الذي أشرك » . قال الطيبي : الضمير المنصوب في « تركته » يجوز أن يرجع الى العمل والمراد من الشرك الشريك .

قال ابن رجب : واعلم أن العمل لغير الله أقسام فتارة يكون رياء محضاً ، فلا يراد به سوى مراعاة المخلوقين لغرض دنيوي ، كحال المنافقين في صلاتهم كما قال تعالى : (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس) [النساء : ١٤٢] وكذلك وصف الله الكفار بالرياء في قوله : (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس) [الأنفال : ٤٩] وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام ، وقد يصدر في الصدقة الواجبة ، أو الحج أو غيرها من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها ، فإن الاخلاص فيها عزيز ، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط ، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة ، وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء ، فإن شاركه من أصله ، فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه ، ثم ذكر أحاديث تدل على ذلك ، منها الحديث الذي ذكره المصنف ، وحديث شداد بن أوس مرفوعاً « من صلى يراني فقد أشرك » ، ومن صام يراني فقد أشرك ، ومن تصدق يراني فقد أشرك ، وإن الله عز وجل يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بي فمن أشرك بي شيئاً فإن جسده ^(١) وعمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به أنا عنه غني » رواه أحمد . وحديث الضحاك بن قيس مرفوعاً إن الله عز وجل يقول : « أنا خير شريك لمن أشرك معي شريكاً ، فهو لشريكي يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله عز وجل ، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ولا تقولوا : هذا لله والرحم فإنها للرحم وليس لله منه شيء ، ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم ، فإنه لوجوهكم وليس لله منه شيء » رواه البزار وابن مردويه والبيهقي بسند قال المنذري : لا بأس به ، وحديث أبي أمامة الباهلي أن رجلاً جاء إلى

(١) في الطبعة السابقة : جنة .

رسول الله ﷺ ، فقال يا رسول الله أرأيت رجلاً غزا يلتمس الاجر والذكر ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا شيء له » فأعادها عليه ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ : « لا شيء له » ثم قال : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه » رواه أبو داود والنسائي بإسناد جيد . ثم قال : فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء مثل أخذ أجره للخدمة ، أو أخذ شيء من الغنيمة ، أو التجارة ، نقص بذلك أجر جهادهم ولم يبطل بالكلية . وفي « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمرو^(١) عن النبي ﷺ : « إن الغزاة إذا غنموا غنيمة تعجلوا ثلثي أجرهم ، فإن لم يغنموا شيئاً تم لهم أجرهم » قلت : هذا لا يدل على أنهم غزوا لأجلها فلا يدل على ثبوت الأجر لمن غزا يلتمس عرضاً . قال : وقد ذكرنا فيما مضى أحاديث تدل على أن من أراد بجهاده عرضاً من الدنيا أنه لا أجر له وهي محمولة على أنه لم يكن له غرض في الجهاد إلا الدنيا . قلت : ظاهر حديث أبي هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله رجل يريد الجهاد وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا فقال رسول الله ﷺ : « لا أجر له » فأعاد عليه ثلاثاً والنبي ﷺ يقول : « لا أجر له » رواه أبو داود . يدل على أن نية الجهاد إذا خالطها نية أجره للخدمة أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة لم يكن له أجر ، ويحتمل أن يكون معنى : يريد الجهاد أي : يريد سفر الجهاد ولم ينو الجهاد ، إنما نوى عرض الدنيا . قال ابن رجب ، وقال الامام أحمد : التاجر والمستاجر والمكاري أجرهم على قدر ما يخلص من نيتهم في غزواتهم ، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه ، وماله لا يخلط به غيره . وقال أيضاً : فيمن يأخذ جعلاً على الجهاد : إذا لم يخرج

(١) في الطبعة السابقة : عمر دون الواو وهو خطأ .

لأجل الدرام فلا بأس ، كأنه خرج لدينه ، فإن أعطي شيئاً أخذه وكذا روي عن عبد الله بن عمرو قال : إذا أجمع أحدكم على الغزو ، فعرضه الله رزقاً فلا بأس بذلك وأما إن أحدكم إن أعطي درهما غزا ، وإن لم يعط درهما لم يغز ، فلا خير في ذلك . قلت : هذا يدل على الفرق بين ما كانت نية الدنيا مخالطة له من أول مرة ، بحيث تكون هي الباعث له على العمل ، أو من جملة ما يبعث عليه ، كالذي يلتبس الأجر والذكر ، فهذا الأجر له وبين ما كانت النية خالصة لله من أول مرة ، ثم عرض له أمر من الدنيا لا يبالي به ، سواء حصل له أو لم يحصل ، كالذي أجمع على الغزو سواء أعطي أو لم يعط . فهذا لا يضره ونحوه التجارة في الحج كما قال تعالى : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) [البقرة : ١٩٩] وعلى هذا ينزل ما روي عن مجاهد أنه قال في حج الجمال وحج الأجير وحج التاجر : هو ثم لا ينقص من أجورهم شيء ، أي : لأن قصدهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب . قال : وأما إن كان أصل العمل لله ، ثم طرأ عليه نية الرياء ، فإن كانت خاطراً ودفعه ، فلا يضره بغير خلاف ، وإن استقر معه ، فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك ، ويجازى على أصل نيته ؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف ، حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري ، ورجحوا أن عمله لا يبطل بذلك ، وأنه يجازى بنيته الأولى ، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره . ويستدل لهذا القول بما أخرجه أبو داود في مراسيله عن عطية الحارثي أن رجلاً قال : يا رسول الله إن بني سلمة كلهم يقاتل ، فمنهم من يقاتل للدنيا ، ومنهم من يقاتل فجدة ، ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله ،

قال : « كلهم إذا كان أصل أمره أن تكون كلمة الله هي العليا ، وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل مرتبط آخره بأوله ، كالصلاة والصيام والحج ، فأما ما لا ارتباط فيه ، كالقراءة والذكر ، وإنفاق المال ونشر العلم ، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه ، ويحتاج إلى تجديد نية . فأما إذا عمل العمل لله خالصاً ، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين ، ففرح بفضل الله ورحمته ، واستبشر بذلك ؛ لم يضره .

وفي هذا المعنى جاء في حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير ، يحمده الناس عليه ، فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » رواه مسلم انتهى ملخصاً . إذا تبين هذا ؛ فقد دل الكتاب والسنة على حبوط العمل بالرياء ، وجاء الوعيد بالعذاب عليه ، قال الله تعالى : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) [هود : ١٦] والآية بعدها وروى مسلم في « صحيحه » حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار ، المقاتل ليقال جريه ، والمتعلم ليقال عالم ، والمتصدق ليقال جواد . فأما ما رواه البزري وابن منده والبيهقي عن معاذ بن جبل مرفوعاً : « من عمل رياء لا يكتب له ، ولا عليه » ذكره السيوطي في « الدر » ولم أقف على إسناده فما أظنه ثبت ، والكتاب والسنة يدلان على خلافه ، بل هو موضح .

قال : وعن أبي سعيد مرفوعاً : (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ قالوا : بلى قال : « شرك الخلفي » يقوم

الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل « رواه أحمد .

ش : هذا الحديث رواه أحمد كما قال المصنف ، ورواه ابن ماجة ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي ، وفيه قصة ، ولفظ ابن ماجة والبيهقي : خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال « ألا أخبركم » الحديث وفي سنده ضعف (١) ، ومعناه صحيح . وروى ابن خزيمة في « صحيحه » معناه عن محمود بن لبيد (٢) قال خرج النبي ﷺ فقال : « يا أيها الناس إياكم وشرك السرائر » قالوا : يا رسول الله وما شرك السرائر ؟ قال : « يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الرجل إليه فذلك شرك السرائر » .

قوله : عن أبي سعيد هو الحذري تقدمت ترجمته

قوله : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال » وإنما كان الرياء كذلك ، لحفائه وقوة الداعي إليه ، وعسر التخلص منه لما يزينه الشيطان ، والنفس الأمارة في قلب صاحبه .

قوله : قالوا : بلى . فيه الحرص على العلم ، وأن من عرض عليك أن يخبرك بما فيك فلا ينبغي لك رده ، بل قابله بالقبول والتعلم .

قوله : قال : « الشرك الخفي » سمي الرياء شركاً خفياً ، لأن صاحبه يظهر أن عمله لله ، ويخفي في قلبه أنه لغيره ، وإنما تزين باظهاره أنه لله بخلاف الشرك الجلي . وفي حديث محمود بن لبيد الذي تقدم في باب الخوف من الشرك تسميته بالشرك الأصغر . وعن شداد بن أوس قال : كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ ، الشرك الأصغر . رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الإخلاص » وابن جرير في « التهذيب » .

(١) كلا فإن سنده حسن ، وحسنه البوصيري في (الزوائد) .

(٢) في الطبعة السابقة : « لبيدة » وهو خطأ .

والطبراني والحاكم وصححه . فظاهره أنه من الأصغر مطلقاً ، وهو ظاهر قول الجمهور . وقال ابن القيم : وأما الشرك الأصغر ؛ فكيسر الرياء والتصنيع للخلق ، والحلف بغير الله ، وقول الرجل للرجل : ما شاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك ، وأنا بالله وبك ، ومالي إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا . وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده انتهى . ففسر الشرك الأصغر باليسير من الرياء ، فدل على أن كثيره أكبر ، وضد الشرك الأكبر والأصغر التوحيد والإخلاص ، وهو أفراد الله تعالى بالعبادة باطنياً وظاهراً كما قال تعالى : (فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص) [الزمر : ٣ ، ٤] وقال تعالى : (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) [الزمر : ١٢] وقال تعالى : (قل لله أعبد مخلصاً له ديني) [الزمر : ١٥] وقيل : الإخلاص استواء أحوال العبد في الظاهر والباطن ، والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه ، أي : للملاحظة الخلق ، والصدق في الإخلاص أن يكون باطنه أحر من ظاهره .

قوله : د فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل ، فسر الشرك الخفي بهذا أن يعمل الرجل العمل لله ، لكن يزيد فيه صفة كتحيينه وتطويله ونحو ذلك ، لما يرى من نظر رجل فهذا هو الشرك الخفي ، وهو الرياء ، والحاصل له على ذلك هو حب الرياسة ، والجاه عند الناس . قال الطيبي : وهو من أضر غوائل النفس ، وبواطن مكائدها ، يبتلى به العلماء والعباد ، والمشمرون عن ساق الجذ لسلك طريق الآخرة .

فإنهم مها قهروا أنفسهم ، وفطموها عن الشهوات ، وصانوها عن الشهات ، عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة ، الواقعة على الجوارح ، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر^(١) بالخير ، وإظهار العلم والعمل ، فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ، ولم تقنع^(٢) بإطلاع الخالق تبارك وتعالى ، وفرحت بحمد الناس ، ولم تقنع بحمد الله وحده ، فأحب^(٣) مدحهم ، وتبركهم بمشاهدته وخدمته وإكرامه وتقديمه في المحافل فأصابته النفس في ذلك أعظم اللذات ، وأعظم الشهوات . وهو يظن أن حياته بالله تعالى وبعبادته ، وإنما حياته هذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول الناقدة^(٤) ، قد أثبت اسمه عند الله من المنافقين ، وهو يظن أنه عند الله من عباده المقربين . وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون ، ولذلك قيل : آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة . انتهى كلامه . وفي الحديث من الفوائد شفقتة ﷺ على أمته ونصحه لهم ، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال ، والحذر من الرياء ومن الشرك الأكبر ، إذ كان ﷺ يخاف الرياء على أصحابه مع علمهم وفضلهم ، فغيرهم أولى بالخوف .

باب

من الشرك إرادة الانسان بعمله الدنيا

قد ظن بعض الناس أن هذا الباب داخل في الرياء ، وأن هذا مجرد تكرير فأخطأ ، بل المراد بهذا أن يعمل الانسان عملاً صالحاً يريد به الدنيا كالذي يجاهد للاقطيفة والحمية ونحو ذلك ، ولهذا سماه النبي ﷺ ، عبداً لذلك بخلاف المرائي ، فإنه إنما يعمل ليراه الناس ويعظموه ، والذي

(١) في الطبعة السابقة: (الظاهر) و (يقتنع) و (فأجبت) و (النافذة) .

يعمل لأجل الدرامم والقطيفة ونحو ذلك أعقل من المراتي ، لأن ذلك عمل لدنيا يصيبها . والمراتي عمل لأجل المدح ، والجلالة في أعين الناس ، وكلامها خامر نعوذ بالله من موجبات غضبه ، وأليم عقابه .

قال : وقوله تعالى : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها) [هود : ١٦] .

قال ابن عباس : (من كان يريد الحياة الدنيا) أي : ثوابها أي : مآلها وزينتها نوف إليهم : نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في الأهل والمال والولد ، وهم فيها لا يبغضون لا ينقصون ، ثم نسختها (ومن كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) [الاسراء : ١٩] رواه النحاس في « ناسخه » وقوله : ثم نسختها ، أي : قيدتها أو خصصتها ، فإن السلف كانوا يسمون التقييد والتخصيص نسخاً ، وإلا فالآية محكمة . وقال الضحاك : من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى ، عجل له ثواب عمله في الدنيا ، واختاره الفراء . قال ابن القيم : وهذا القول أرجح . ومعنى الآية على هذا : من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وقالت طائفة : هذه الآية في حق الكفار بدليل قوله : (أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار) [هود : ١٧] أي : أنهم لم يعملوا إلا للحياة الدنيا وزينتها (وحبط ما صنعوا فيها) قال بعض المفسرين : أي : وحبط في الآخرة ما صنعوه ، أو ضيعهم يعني : لم يكن لهم ثواب ، لأنهم لم يريدوا به الآخرة ، إنما أرادوا به الدنيا ، وقد وفى إليهم ما أرادوا (وباطل ما كانوا يعملون) [الأعراف : ١٣٩] أي : كان عمله في نفسه باطلاً ، لأنه لم يعمل لوجه صحيح ، والعمل الباطل لا ثواب له . انتهى

فان قيل : الآية على القول الأول تقتضي تخليد المؤمن من المريد بعمله الدنيا في النار .

قيل : إن الله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها ، وهو النار ، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه ، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل ، لم يبق معه ما ينجيه . فإن كان معه إيمان لم يرد به الحياة الدنيا وزينتها ، بل أراد به الله والدار الآخرة ، لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل . ونجاة هذا الإيمان من الخلود في النار ، وإن دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة . فالإيمان إيمانان إيمان : يمنع دخول النار ، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله وحده يستغني بها وجهه وثوابه ، وإيمان يمنع الخلود في النار ، فإن كان مع المرائي شيء منه ، وإلا كان من أهل الخلود ، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد . ذكره ابن القيم . وقد سئل شيخ الإسلام المصنف عن معنى هذه الآية فأجاب بما ملخصه : ذكر عن السلف من أهل العلم فيها أنواع بما يفعله الناس اليوم ، ولا يعرفون معناه .

فمن ذلك العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله من صدقة وصلاة وإحسان إلى الناس ، وترك ظلم ، ونحو ذلك بما يفعله الانسان ، أو يتركه خالصاً لله ، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة ، وإنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته ، أو حفظه أهله وعياله ، أو ادامة النعم عليهم ، ولاهمة له في طلب الجنة ، والهروب من النار ، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا ، وليس له في الآخرة نصيب . وهذا النوع ذكره ابن عباس .

النوع الثاني : وهو أكبر من الأول وأخوف ، وهو الذي ذكر مجاهد في الآية أنها نزلت فيه ، وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ، وينته رياء الناس لا طلب ثواب الآخرة .

النوع الثالث : أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالا مثل أن يبيع مالا يأخذه ، لا لله ، أو يهاجر لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، أو يجاهد لأجل الغنم ، فقد ذكر أيضاً هذا النوع في تفسير هذه الآية . وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكتبهم أو رياستهم ، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد ، كما هو واقع كثيراً ، وهؤلاء أعقل من الذين قبلهم ، لأنهم عملوا لمصلحة يحصلونها ، والذين قبلهم عملوا من أجل المدح والجلالة في أعين الناس ، ولا يحصل لهم طائل ، والنوع الأول أعقل من هؤلاء ، لأنهم عملوا لله وحده لا شريك له ، لكن لم يطلبوا منه الخير الكثير الدائم وهو الجنة ، ولم يهربوا من الشر العظيم وهو النار .

النوع الرابع : أن يعمل بطاعة الله غلصاً في ذلك لله وحده لا شريك له ، لكنه على عمل يكفره ككفره يخرجهم عن الإسلام مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية إذا أطاعوا الله طاعة خالصة ، يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة ، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم . فهذا النوع أيضاً قد ذكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره . وكان السلف يخافون منها ، قال بعضهم : لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت ، لأن الله يقول : (إنما يتقبل الله من

المتقين ([المائدة : ٣١] ثم قال : بقي أن يقال : إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله طالباً ثواب الآخرة ، ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصداً بها الدنيا مثل أن يحج فرضه الله ، ثم يحج بعده لأجل الدنيا ، كما هو واقع ، فهو لما غلب عليه منها . وقد قال بعضهم : القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخالص ، وأهل النار الخالص ، ويسكت عن صاحب الشائبين وهو هذا وأمثاله . انتهى . وقد أجاب وأفاد رحمه الله .

وفي الآية من الفوائد أن الشرك يحبط للأعمال ، وأن إرادة الدنيا وزينتها بالعمل كذلك ، وأن الله يجازي الكافر بحسناته ، وكذلك طالب الدنيا ، ثم يقضي إلى الآخرة وليس له حسنة . الخامسة شدة الوعيد على ذلك . السادسة الفرق بين الحبوط والبطلان .

قال في : « الصحيح » عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « تعس عبد الدينار ، وتعس عبد الدرهم ، وتعس عبد الحمصة ، وتعس عبد الحملة إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه ، مغبرة قدماء إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع » .

قوله : « في » الصحيح ، أي : صحيح البخاري .

قوله : « تعس عبد الدينار » هو بكسر العين ، ويجوز الفتح ، أي : سقط والمراد هنا : هلك ، قاله الحافظ . وقال في موضع آخر :

وهو ضد سعد ، أي : شقي . وقيل معنى التعس : الكبة على الوجه .
قال أبو السعادات : يقال : تعس يتعس ، إذا عثر ، وانكب لوجهه ،
وهو دعاء عليه بالهلاك .

قوله : « تعس عبد الخيصة » قال أبو السعادات : هو ثوب خز
أو صوف معلم وقيل : لا تسمى خيصة إلا أن تكون سوداء معلمة ،
وكانت من لباس الناس قديماً ، وجمعها الخناص . والخيصة بفتح الخاء
المعجمة ، قال أبو السعادات : الخيل والخيصة : القطيفة ، وهي ثوب له
نمل من أي شيء كان ، وقيل : الخيل الأسود من الثياب .

قوله : « تعس وانتكس » قال الحافظ : هو بالمهمل أي : عاوده
المرض . وقال أبو السعادات ، أي : انقلب على رأسه ، وهو دعاء عليه
بالخيبة ، أن من انتكس في أمره فقد خاب وخسر . وقال الطيبي :
وفيه الترقى بالدعاء عليه ، لأنه إذا تعس انكب على وجهه ، فإذا انتكس
انقلب على رأسه بعد أن سقط .

قوله : « وإذا شبك » أي : أصابته شوكة « فلا انتقش » قال
أبو السعادات ، أي : إذا شاكته شوكة ؛ فلا يقدر على انتقاشها ، وهو
إخراجها بالانتقاش . وقال الحافظ : أي : إذا دخلت فيه شوكة لم يجد
من يخرجها بالانتقاش ، قال : وفي الدعاء عليه بذلك إشارة إلى عكس
مقصوده ، لأن من عثر فدخلت في رجله الشوكة ، فلم يجد من يخرجها
بصير عاجزاً عن السعي والحركة في تحصيل مصالح الدنيا . وقال الطيبي :
المعنى أنه إذا وقع في البلاء لا يترحم عليه ، فإن من وقع في البلاء إذا
ترحم له الناس ربما هان الخطب عليه ، ويتسلى بعض التسلي ، وهؤلاء
بخلافه ، بل يزيد غيظهم بفرح الأعداء أو شماتتهم .

فإن قيل : لم سماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم .

قيل : لما كان ذلك هو مقصوده ومطلوبه الذي عمل له ، وسعى في تحصيله بكل ، مكن حتى صارت نيته مقصورة عليه يغضب ويرضى له صار عبداً له ، قال شيخ الإسلام : فسماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم ، وعبد القطيفة ، وعبد الخبيصة ، وذكر فيه ما هو دعاء وخبر . وهو قوله : « تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » وهذه حال من أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس ، فلا فال المطلوب ، ولا خلص من المكروه ، وهذه حال من عبد المال . وقد وصف ذلك بأنه إن أعطي رضي وإن منع سخط كما قال تعالى : (ومنهم من يلزمك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) [التوبة : ٦٠] فراضهم لغير الله ، وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة ، أو نحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضى ، وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك ، وهو رقيق له ، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته ، فما استرق القلب واستعبده ، فهو عبده إلى أن قال : وهكذا أيضاً طالع المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه .

وهذه الأمور نوعان ، فمنها ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشربه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك ، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه فيكون المال عنده ، يستعمله في حاجته بنزلة حمارة الذي يركبه ، وبساطه الذي يجلس عليه من غير أن يستعبده فيكون هالوعاً . ومنها ما لا يحتاج إليه العبد ، فهذه ينبغي أن لا يعلق قلبه بها ، فإذا تعلق قلبه بها ،

صار مستعبداً لها وربما صار مستعبداً معتمداً على غير الله فيها ، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ، ولا حقيقة التوكل عليه ، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله ، وشعبة من التوكل على غير الله ، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ : « تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار وتعس عبد الخيصة تعس عبد الخيلة » وهذا هو عبد لهذه الأمور ، ولو طلبها من الله ، فإن الله إذا أعطاه إياه رضي ، وإن منعه إياها سخط . وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله ، ويسخط ما يسخط الله ، ويجب ما أحب الله ورسوله ، ويبغض ما أبغض الله ورسوله ، ويرالي أولياء الله ، ويعادي أعداء الله فهذا الذي استكمل الإيمان . انتهى ملخصاً .

قوله : « طوبى لعبد » قال أبو السعادات : طوبى اسم الجنة ، وقيل : هي شجرة فيها . قلت : قد روى ابن وهب عن عمرو بن الحارث أن دراجاً حدثه أن أبا الهيثم حدثه عن أبي سعيد في حديث فقال رجل : يا رسول الله وما طوبى ؟ قال : « شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » رواه حرمله عنه ورواه أحمد في « مسنده » من حديث عتبة بن عبد السامي جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله عن الحوض وذكر الجنة . ثم قال الأعرابي : وفيها فاكهة ؟ قال : « نعم وفيها شجرة تدعى طوبى » الحديث . قال الزجاج : في قوله : طوبى لهم . معناه : العيش الطيب . وقال ابن الأنباري : الحال المستطابة لهم ، لأنه « فعلى » من الطيب ، وقيل : معناه هنيئاً بطيب العيش لهم وهذه الأقوال ترجع إلى قول واحد .

قوله : « اخذ بعنان فرسه في سبيل الله » ، أي : في طريق الجهاد .

قوله : « أشعث رأسه » هو بنصب أشعث صفة لعبد لأنه غير مصروف للصفة ووزن الفعل ، ورأسه مرفوع على الفاعلية لأشعث وهو مغبر الرأس وفيه فضل إصابة الغبار في سبيل الله .

قوله : « مغبرة قدماء » هو كأشعث في الإعراب والمراد به كثرة الغبار له في سبيل الله لكثرة جهاده ومصابرته .

قوله : « إن كان في الحراسة » قال بعضهم : هو بكسر الحاء أي : حماية الجيش ومحافظتهم عن أن يهجم عليهم عدوهم .

قوله : « كان في الحراسة » أي : امثل غير مقصر فيها بالنوم والغفلة ونحوهما .

قوله : « وإن كان في الساقة كان في الساقة » أي : إن جعل في مؤخرة الجيش صار فيها ولزمها . وقال ابن الجوزي : المعنى : أنه خامل الذكر ، لا يقصد السمر ، فأى موضع اتفق له كان فيه . وقال الخليلي : المعنى إثارة لما أمر ، وإقامته حيث أقيم لا يفقد من مكانه ، وإثنا ذكر الحراسة والساقة ، لأنها أشد مشقة وأكثر آفة . قلت : وفيه فضيلة الحرس في سبيل الله .

قوله : « إن استأذن لم يؤذن له » أي : إن استأذن على الأمراء ونحوهم لم يأذنوا له ، لأنه ليس بنبي جاء ولا يقصد بعمله الدنيا فيطلبها منهم ، ويتردد إليهم لأجلها بل هو مخلص لله .

قوله : « وإن شفع » بفتح أوله وثانيه مبني للفاعل ، ويشفع بتشديد الفاء ، مبني للمفعول ، والمراد والله أعلم أنه لا يشفع عند الملوك ونحوهم ، لعدم جاهه عندهم وعلى تقدير شفاعته إن شفع لم يشفع بل يرون شفاعته .

من بعضهم : قيل : إن هذا إشارة إلى عدم التفاته إلى الدنيا وأربابها بحيث لا يبتغي مالا ولا جاهاً عند الناس ، بل يكون عند الله وجيهاً ولم يقبل الناس شفاعته ، ويكون عند الله شافعاً مشفعاً ، كما في الحديث الذي رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً : رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره ، وقال الحافظ : فيه ترك حب الرئاسة والشهرة ، وفضل الخول والتواضع .

قلت : وفيه أن هذه الأمور ونحوها لا تكون لهوان المؤمن على الله بل لكرامته ، وفيه الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات . قاله المصنف .

باب

« من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله ، أو تحليل ما حرمه الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله » .

ش : لما كانت الطاعة من أنواع العبادات بل هي العبادات فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على السنة رسوله عليهم السلام ؛ نبه المصنف رحمه الله تعالى بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الخالق تبارك وتعالى بها ، وأنه لا يطاع أحد من الخلق إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله وإلا فلا تجب طاعة أحد من الخلق استقلالاً . والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام ، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك غير الرسول ﷺ فإنه لا ينطق عن الهوى ، فهو مشرك كما بينه الله تعالى في قوله : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم) [التوبة : ٣٣] أي : علماءهم (أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) وفسرها النبي ﷺ بطاعتهم في تحريم الحلال ، وتحليل الحرام كما سيأتي في حديث عدي .

فان قيل : قد قال الله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) [النساء : ٥٩] قيل : هم العلماء ، وقيل : هم الأمراء وهما روايتان عن أحمد . قال ابن القيم : والتحقيق بآث الآية تعم الطائفتين .

قيل : إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله وطاعة رسوله ، فكان العلماء مبلغين لأمر الله وأمر رسوله ، والأمراء منفذين له ، فحينئذ تجب طاعتهم تبعاً لطاعة الله ورسوله كما قال ﷺ : « لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف » وقال : « على المرء المسلم السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » حديثان صحيحان فليس في هذه الآية ما يخالف آية براءة .

قال : وقال ابن عباس : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء . أقول : قال رسول الله ﷺ وتقولون : قال أبو بكر وعمر . ش : قوله : يوشك بضم أوله وكسر الشين المعجمة . قال أبو السعادات أي : يقرب ويدنو ويسرع ، وهذا الكلام قاله ابن عباس لمن ناظره في متعة الحج . وكان ابن عباس يأمر بها ، فاحتج عليه المناظر بنهي أبي بكر وعمر عنها ، أي : هما أعلم منك وأحق بالاتباع فقال هذا الكلام الصادر عن بعض الأيمان وتجريد المتابعة للرسول ﷺ وإن خالفه من خالفه كائناً من كان ، كما قال الشافعي : أجمع العلماء على أن من استبان له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد . فإذا كان هذا كلام ابن عباس لمن عارضه بأبي بكر وعمر وهما [هما]^(١) فماذا تظنه يقول لمن يعارض سنن الرسول ﷺ بإمامه وصاحب مذهبه الذي ينتسب

(١) سقطت من الطبعة السابقة .

إليه ؟ ويجعل قوله عياراً على الكتاب والسنة ، فما وافقه قبله ، وما خالفه رده ، أو تأوله فافقه المستعان . وما أحسن ما قال بعض المتأخرين :
فإن جاءهم فيه الدليل موافقاً لا كان للآيات إليه ذهاب
رضوه وإلا قيل : هذا مؤول ويركب للتأويل فيه صعب
ولا ريب أن هذا داخل في قوله تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم
أرباباً من دون الله) [التوبة : ٣٣] .

قال المصنف ، وقال أحمد بن حنبل : عجبت لقوم عرفوا الاسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان والله تعالى يقول : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة) [النور : ٦٤] ألدري ما الفتنة ؟
الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك .

ش : هذا الكلام عن أحمد رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب ، قال الفضل عن أحمد : نظرت في المصنف فوجدت طاعة الرسول في ثلاثة وثلاثين موضعاً ، ثم جعل يتلو : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة) الآية وجعل يكررها ويقول : وما الفتنة إلا الشرك لعله إذا أراد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك قلبه ، فيهلكه وجعل يتلو هذه الآية : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) [النساء : ٦٥] وقال أبو طالب عن أحمد وقيل له : إن قوماً يدعون الحديث ، ويذهبون إلى رأي سفيان ؟ فقال : أعجبت^(١) لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الاسناد وصحته يدعون ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره ، قال الله : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم

(١) في الطبعة السابقة : أصحبت .

عذاب أليم) [النور : ٦٤] وتدرى ما الفتنة ؟ الكفر قال الله تعالى :
(والفتنة أكبر من القتل) [البقرة : ١٩١] فيدعون الحديث عن
رسول الله ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي . ذكر ذلك شيخ الاسلام
أقلت : وكلام أحمد في ذمه التقليد وإنكار تأليف كتب الرأي كثير مشهور .
قوله : عرفوا الاسناد ، أي : إسناد الحديث وصحته ، أي :
صحة الاسناد وصحته دليل على صحة الحديث .

قوله : يذهبون إلى رأي سفيان ، أي : الثوري الإمام الزاهد العابد
الثقة الفقيه ، وكان له أصحاب ومذهب مشهور فانقطع .

ومراد أحمد الانكار على من يعرف إسناد الحديث وصحته ، ثم بعد
ذلك يقلد سفيان أو غيره ، ويعتذر بالأعذار الباطلة إما بأن الأخذ بالحديث
اجتهاد والاجتهاد انقطع منذ زمان ، وإما بأن هذا الإمام الذي قلده أعلم
مني ، فهو لا يقول إلا بعلم ، ولا يترك هذا الحديث مثلاً إلا عن علم ،
وإما بأن ذلك اجتهاد ، ويشترط في المجتهد أن يكون عالماً بكتاب الله
عالماً بسنة رسول الله ﷺ ، وناسخ ذلك ومنسوخه ، وصحيح السنة
وسقيمها ، عالماً بوجوه الدلالات ، عالماً بالعربية والنحو والأصول ، ونحو
ذلك من الشروط التي لعلها لا توجد تامة في أبي بكر ومهر رضي الله عنها ،
كما قاله المصنف ، فيقال له : هذا إن صح ، فإرادهم بذلك المجتهد المطلق ،
أما أن يكون ذلك شرطاً في جواز العمل بالكتاب والسنة ، فكذب على
الله ، وعلى رسوله ﷺ ، وعلى أئمة العلماء ، بل الفرض والحتم على المؤمن
إذا بلغه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلم معنى ذلك في أي شيء كان
أن يعمل به ولو خالفه من خالفه ، فبذلك أمرنا ربنا تبارك وتعالى

ونبينا ﷺ ، وأجمع على ذلك العلماء قاطبة إلا جهال المقلدين وجفاتهم ،
ومثل هؤلاء ليسوا من أهل العلم ، كما حكى الإجماع على أنهم ليسوا
من أهل العلم ^(١) أبو عمر بن عبد البر وغيره قال الله تعالى :
(اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون)
[الأعراف : ٣] وقال تعالى : (وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول
إلا البلاغ المبين) [النور : ٥٥] فشهد تعالى لمن أطاع الرسول ﷺ
بالمهذبة ، وعند جفافة المقلدين أن من أطاعه ﷺ ليس بمهتد وإنما المهتدي
من عصاه ، وعدل عن أقواله ، ورغب عن سنته إلى مذهب أو شيخ
ونحو ذلك ، وقد وقع في هذا التقليد المحرم خلق كثير ممن يدعي العلم
والمعرفة بالعلوم ، ويصنف التصانيف في الحديث والسنة ، ثم بعد ذلك
تجده جامداً على أحد هذه المذاهب ، ويرى الخروج عنها من العظام .

وفي كلام أحمد إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم ، إنما
المذموم المنكر الحرام الإقامة على ذلك بعد بلوغ الحجة ، نعم وينكر
الإعراض عن كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، والإقبال على تعلم الكتب
المصنفة في الفقه استغناء بها عن الكتاب والسنة ، بل إن قرؤوا شيئاً من
كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإنما يقرؤون تبركاً لا تعلماً وتفهماً ، أو ليكون
بعض الموقفين وقف على من قرأ البخاري مثلاً ، فيقرؤونه لتحصيل الوظيفة
لا لتحصيل الشريعة ، فهؤلاء من أحق الناس بدخولهم في قول الله تعالى :
(وقد آتيناك من لدنا ذكراً . من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة
وزراً . خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملًا) [طه : ١٠٠ ، ١٠٣]
وقوله تعالى : (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره

(١) في الطبعة السابقة : زيادة كلمة « منهم » .

يوم القيامة أممها) [طه : ١٢٥] إلى قوله : (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) [طه : ١٢٨] .

فإن قلت : فإذا يجوز للإنسان من قراءة هذه الكتب المصنفة في المذاهب ؟ قيل : يجوز من ذلك قراءتها على سبيل الاستعانة بها على فهم الكتاب والسنة ، وتصوير المسائل ، فتكون من نوع الكتب الآلية أما أن تكون هي المقدمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، الحاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه ، المدعو إلى التعاكم إليها دون التعاكم إلى الله والرسول ﷺ ، فلا ريب أن ذلك مناف للإيمان مضاد له كما قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً) [النساء : ٦٥] .

فإذا كان التعاكم عند المشاجرة إليها دون الله ورسوله ، ثم إذا قضى الله ورسوله أمراً وجدت المخرج في نفسك ، وإن قضى أهل الكتاب بأمر أ تجد حرجاً ، ثم إذا قضى الرسول ﷺ بأمر لم تسلم له ، إذا " قضوا بأمر سلت له ، فقد أقسم الله تعالى سبحانه وهو أصدق القائلين بأجل قسم به ، وهو نفسه تبارك وتعالى أنك لست بمؤمن والحالة هذه وبعد ذلك ، فقد قال الله تعالى : (بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره) [القيامة : ١٥ ، ١٦] .

على أنه الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل العلم ، قد نهوا عن تقليدهم مع ظهور السنة ، فكلام أحمد الذي ذكره المصنف كاف من تحكيرو النقل عنه . وقال أبو حنيفة : إذا جاء الحديث عن الرسول ﷺ فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن الصحابة فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن التابعين ، فنحن رجال وهم رجال .

(١) في الطبعة السابقة : « إنا » بدل « إذا » .

وفي « روضة العلماء » سئل أبو حنيفة إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه؟ قال : اتركوا قولي لكتاب الله ، قيل : إذا كان قول الرسول يخالفه؟ قال : اتركوا قولي لخبر الرسول ﷺ ، قيل : إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال : اتركوا قولي لقول الصحابة ، فلم يقل : هذا الامام ما يدعيه جفأة المقلدين له أنه لا يقول قولاً يخالف كتاب الله ، حتى أنزلوه بمنزلة المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى .

وروى البيهقي في « السنن » عن الشافعي أنه قال : إذا قلت قولاً وكان عن النبي ﷺ خلاف قولي فما يصح من حديث رسول الله ﷺ أولى فلا تقلدوني . وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول : إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ، ودعوا ما قلت . وتواتر عنه أنه قال : إذا صح الحديث أي : بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط .

وقال مالك : كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وكلام الأئمة مثل هذا كثير . فعالف المقلدون ذلك ، وحمدوا على ما وجدوه في الكتب المذهبية ، سواء كان صواباً أم خطأ مع أن كثيراً من هذه الأقوال المنسوبة إلى الأئمة ليست أقوالاً لهم منصوفاً عليها ، وإنما هي تفريعات ووجوه واحتمالات وقياس على أقوالهم ، ولنا نقول : إن الأئمة على خطأ ، بل هم إن شاء الله على هدى من ربهم ، وقد قاموا بما أوجب الله عليهم من الإيمان بالرسول ﷺ ومتابعته ، ولكن العصمة منتفية عن غير الرسول ، فهو الذي (ما ينطق عن الهوى . إن هوى إلا وحي يوحى) [النجم : ٣ ، ٤] فما العذر في اتباعهم وترك اتباع الذي لا ينطق عن الهوى ؟!

قوله : لعنه ، أي : لعل الانسان الذي تصح عنده سنة رسول الله ﷺ .

قوله : إذا رد بعض قوله ، أي : قول النبي ﷺ .

قوله : أن يقع في قلبه شيء من الزيف فيهلك . هذا تنبيه على أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيف القلب الذي هو سبب الهلاك في الدنيا والآخرة فإذا كانت إساءة الأدب معه في الخطاب سبباً لحبوط الأعمال كما قال تعالى : (لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) [الحجرات : ٣] فما ظنك برد أحكامه وسنته لقول أحد من الناس كائناً من كان ؟ . قال شيخ الاسلام : فإذا كان المخالف عن أمره قد حذر من الكفر والشرك ، أو من العذاب الأليم ، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر والعذاب الأليم ، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب هو مجرد فعل المعصية ، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يفترون به من استخفاف بحق الأمر ، كما فعل إبليس لعنه الله .

فإذا علمت أن المخالفة عن أمره ﷺ سبب لفقته ، التي هي الشرك والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، علمت أن من رد قوله وخالف أمره لقول أبي حنيفة ، أو مالك أو غيرهما ، لهم النحيب الكامل ، والحظ الوافر من هذه الآية ، وهذا الوعيد على مخالفة أمره ﷺ ، وقد استدل بهذه الآية كثير من العلماء على أن أصل الأمر للوجوب حتى يقوم دليل على استجابته .

قال : عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقول هذه الآية :

(اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) [التوبة : ٣٣]
 فقلت له : إنا لسنا نعبدكم . قال : « أليس يحرمون ما أحل الله
 فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه فقلت بلى قال : فتلك
 عبادتهم » . رواه أحمد ^(١) والترمذي وحسنه .

ش : هذا الحديث قد روي من طرق ^(٢) فرواه ابن سعد ، وعبد بن
 حميد ، وابن المنذر ، وابن جرير وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ،
 وابن مردويه ، والبيهقي في « السنن » وفيه قصة اختصرها المصنف .

قوله : عن عدي بن حاتم ، أي : الطائي المشهور وهو ابن عبد الله
 ابن سعد بن الحذرج بفتح المهلة وسكون المعجمة وآخره جيم ، مات
 مشركاً وعدي يكنى أبا طريف بفتح المهلة صغاري شهر ، حسن الاسلام ،
 مات سنة ثمان وستين وله مائة وعشرون سنة .

قوله : فقلت : إنا لسنا نعبدكم عن ظن عدي أن العبادة المراد بها
 التقرب إليهم بأنواع العبادة ، من السجود والذبح والنذر ونحو ذلك فقال :
 إنا لسنا نعبدكم .

قوله : « أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه » . إلى آخره ؟

(١) حزو الحديث لأحمد عند الإطلاق يراد به المسند وهذا الحديث ليس
 في مسنده ، والسيوطي في « الدر المنثور » ٢٣٠/٣ لم يعزه إليه مع أنه عزاه
 إلى من هو دون أحمد كما نقل عنه الشارح .

(٢) للحديث طريق واحد فقط أخرجه الترمذي (٣٠٩٤) وابن جرير
 (١٦٦٣١) و (١٦٦٣٢) و (١٦٦٣٣) عن غطفان بن أهين عن مصعب
 ابن سعد عن عدي بن حاتم ، وغطفان ضعيف ، وقال الترمذي : هذا حديث
 غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطفان بن أهين ليس
 بالمعروف في الحديث . أقول : لكن له شاهد موقوف من حديث حذيفة عن
 ابن جرير (١٦٦٣٤) بنحوه ربما يتقوى به .

صرح ﷺ في هذا الحديث بأن عبادة الأحرار والرهبان هي طاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام ، وهو طاعتهم في خلاف حكم الله ورسوله . قال شيخ الإسلام : وهؤلاء الذين اتخذوا أحرارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وعكسه يكونون على وجهين . أحدهما : أنهم يعلمون أنهم بدلوا دين الله ، فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون .

الثاني : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال ، وتحليل الحرام ثابتاً ، لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت في « الصحيحين » عن النبي ﷺ أنه قال : « إنما الطاعة في المعروف » . ثم نقول : اتباع هذا المحلل للحرام والمحرّم للحلال إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول ﷺ ، ليكن خلفي عليه الحق في نفس الأمر ، وقد اتقى الله ما استطاع ، فهذا لا يؤاخذ به الله بخطئه ، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه . ولكن من علم أن هذا الخطأ فيما جاء به رسول الله ﷺ ، ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول ﷺ ، فله نصيب من الشرك الذي ذمه الله ، لاسيما إن اتبعه في ذلك لهواه ونصره باللسان واليد مع علمه بأنه مخالف للرسول ﷺ ، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه ، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز تقليد أحد في خلافه ، وأما إن كان المتبع المجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل ، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد ، فهذا لا يؤاخذ به خطأ كما في القبة . وأما إن قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن الحق معه ، فهذا من أهل الجاهلية ، فإن

كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً ، وإن كان متبوعه مخطئاً ، ندر
آثماً كمن قال في القرآن برأيه ، فإن أصاب فقد أخطأ ، وإن أخطأ ،
فليتبوأ مقعده من النار . انتهى ملخصاً .

قال المصنف : وفيه تغير الأحوال إلى هذه الغاية صار عند
الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال ويسمونهم الولاية . وعبادة
الأحبار هي العلم والفقه ، ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من
الصالحين ، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين .

قوله : صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال . يشير
إلى ما يعتقده كثير من الناس فيمن ينتسب إلى الولاية من الضر والنفع ،
والعطاء والمنع ، ويسمون ذلك الولاية والسر ونحو ذلك وهو الشرك .
قوله : وعبادة الأحبار هي العلم والفقه ، أي : هي التي تسمى اليوم
العلم والفقه المؤلف على مذاهب الأئمة ونحوم ، فيطيعونهم في كل
ما يطيعونك سواء وافق حكم الله أم خالفه ، بل لا يعاؤون بما خالف ذلك
من كتاب وسنة ، بل يريدون كلام الله وكلام رسوله لأقوال من قلده ،
ويصرحون بأنه لا يحل العمل بكتاب ولا سنة ، وأنه لا يجوز تلقي العلم
والهدى منها ، وإنما الفقه والهدى عندهم هو ما وجدوه في هذه الكتب .
بل أعظم من ذلك وأطم رمي كثير منهم كلام الله وكلام رسوله بأنه
لا يفيد العلم ولا اليقين في باب معرفة أسماء الله وصفاته وتوحيده ،
ويسمون ما وضعه الفلاسفة المشركون القواطع
العقلية ، ثم يقدمونها في باب الأسماء والصفات والتوحيد على ما جاء من
عند الله ، ثم يرمون من خرج عن عبادة الأحبار والرهبان إلى طاعة رب
العالمين ، وطاعة رسوله وتحكيم ما أنزل الله في موارد النزاع بالبدعة
أو الكفر .

وقوله : ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من ليس من الصالحين ،
وذلك كاعتقادهم في كثير ممن يلتبس إلى الولاية من الفساق والمجاذيب .
وقوله : وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين ، وذلك كاعتقادهم العلم
في أناس من جهلة المقلدين فيحسنون لهم البدع والشرك فيطيعونهم ، ويظنون
أنهم علماء مصلحون (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)
[البقرة : ١٣] .

باب

قول الله تعالى : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل
إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت
وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً)
[النساء : ٦٠] .

ش : لما كان التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله
مشتبلاً على الإيمان بالرسول ﷺ ، مستلزماً له ، وذلك هو الشهادتان ،
ولهذا جعلها النبي ﷺ ركناً واحداً في قوله : « بني الإسلام على خمس
شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء
الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً » ، فبني الإسلام على خمس
هذا الباب على ما تضمنه التوحيد ، واستلزمه من تحكيم الرسول ﷺ في
موارد النزاع ، إذ هذا هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله ، ولازمها
الذي لا بد منه لكل مؤمن ، فإن من عرف أن لا إله إلا الله ، فلا بد
من الانقياد لحكم الله والتسليم لأمره الذي جاء من عنده على يد رسوله
محمد ﷺ .

فمن شهد أن لا إله إلا الله ، ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول ﷺ

في موارد النزاع ، فقد كذب في شهادته ، وإن شئت قلت : لما كان التوحيد مبنيًا على الشهادتين ، إذ لا تنفك إحداها عن الأخرى لتلازمها ، وكان ما تقدم من هذا الكتاب في معنى شهادة أن لا إله إلا الله التي تتضمن حق الله على عباده ، نبه في هذا الباب على معنى شهادة أن محمداً رسول الله ، التي تتضمن حق الرسول ﷺ ، فإنها تتضمن أنه عبد لا يعبد ، ورسول صادق لا يكذب ، بل يطاع ويتبع ، لأنه المبلغ عن الله تعالى . فله عليه الصلاة والسلام منصب الرسالة ، والتبليغ عن الله ، والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، إذ هو لا يحكم إلا بحكم الله ومحبه على النفس ، والأهل والمال والوطن ، وليس له من الإلهية شيء ، بل هو عبد الله ورسوله كما قال تعالى : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) [الجن : ٢٠] وقال ﷺ : « إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

ومن لوازم ذلك متابعته وتحكيمه في موارد النزاع ، وترك التحاكم إلى غيره ، كالمناقضين الذين يدعون الإيمان به ، ويتحاكمون إلى غيره ، وبهذا يتحقق العبد بكمال التوحيد وكمال المتابعة ، وذلك هو كمال سعادته ، وهو معنى الشهادتين .

إذا تبين هذا فمعنى الآية المترجم لها : ان الله تبارك وتعالى أنكر على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله ، وعلى الأنبياء قبله ، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ، كما ذكر المصنف في سبب نزولها . قال ابن القيم : والطاغوت : كل من تعدى به حده من الطغيان وهو مجاوزة الحد ، فكل ما تحاكم إليه

متنازعان غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو طاغوت إن قد تعدى به حده . ومن هذا كل من عبد شيئاً دون الله فإنما عبد الطاغوت ، وجاوز بعبوده حده فأعطاه العبادة التي لا تنبغي له ، كما أن من دعا إلى تحكيم غير الله تعالى ورسوله ﷺ ، فقد دعا إلى تحكيم الطاغوت . وتعالى تصديره سبحانه الآية منكرًا لهذا التحكيم على من زعم أنه قد آمن بما أنزله الله على رسوله ﷺ ، وعلى من قبله ثم هو مع ذلك يدعو إلى تحكيم غير الله ورسوله ﷺ ، ويتحاكم إليه عند النزاع وفي ضمن قوله : (يزعمون) نفي لما زعموه من الإيمان ، ولهذا لم يقل : ألم تر إلى الذين آمنوا ، فإنهم لو كانوا من أهل الإيمان حقيقة لم يريدوا أن يتحاكموا إلى غير الله تعالى ورسوله ﷺ . ولم يقل فيهم « يزعمون » فإن هذا إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب ، أو منزل منزلة الكاذب ، لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها . قال ابن كثير : والآية دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت ههنا .

وقوله تعالى : (وقد أمروا أن يكفروا به) .

أي بالطاغوت وهو دليل على التحاكم إلى الطاغوت مناف للإيمان مضاد له ، فلا يصح الإيمان إلا بالكفر به ، وترك التحاكم إليه فمن لم يكفر بالطاغوت لم يؤمن بالله .

وقوله : (ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً) .

أي : لأن إرادة التماكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من طاعة الشيطان ، وهو إنما يدعو أحزابه ليكونوا من أصحاب السعير . وفي

الآية : نزل على أن ترك التحاكم إلى الطاغوت ، الذي هو ما سوى الكتاب والسنة من الفرائض وأن التحاكم إليه غير مؤمن بل ولا مسلم .

وقوله تعالى : (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) [النساء : ٦١] .

أي : إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا إعراضاً مستكبرين كما قال تعالى : (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون) [النور : ٤٩] قال ابن القيم : هذا دليل على أن من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة ، فلم يقبل ، وأبى ذلك أنه من المنافقين . و « يصدون » هنا لازم لامتعد ، وهو بمعنى يعرضون ، لا بمعنى يمنعون غيرهم ، ولهذا أتى مصدره على صدود ، ومصدر المتعدي « صدأ » . فإذا كان المعرض عن ذلك قد حسم الله سبحانه بنفاقهم ، فكيف بن ازداد إلى إعراضه منع الناس من تحكيم الكتاب والسنة ، والتحاكم إليها بقوله وعمه وتصانيفه ؟ ثم يزعم مع ذلك أنه إنما أراد الإحسان والتوفيق : الإحسان في فعله ذلك ، والتوفيق بين الطاغوت الذي حكمه ، وبين الكتاب والسنة . قلت : وهذا حال كثير من يدعي العلم والايان في هذه الأزمان ، إذا قيل لهم : تعالوا نتحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيتهم يصدون وهم مستكبرون ، ويعتذرون أنهم لا يعرفون ذلك ، ولا يعقلون ، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون .

وقوله تعالى : (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم) .

ابن كثير : أي : فكيف بهم إذا أصابتهم المقادير إليك في

المصائب بسبب ذنوبهم ، واحتاجوا إليك في ذلك . وقال ابن القيم قيل :
المصيبة فضيحتهم إذا أنزل القرآن مجالهم ، ولا ريب أن هذا أعظم المصيبة
والأضرار فالمصائب التي تصيبهم بما قدمت أيديهم في أبدانهم وقلوبهم
وأديانهم بسبب مخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أعظمها مصائب القلب
والدين ، فيرى المعروف منكراً ، والهدى ضلالاً ، والرشاد غياً ، والحق
باطلاً ، والصالح فساداً ، وهذا من المصيبة التي أصيب بها في قلبه ، وهو
الطبع الذي أوجبه مخالفة الرسول ﷺ وتحكيم غيره ، قال سفيان الثوري
في قوله : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة) قال :
هي أن تطبع على قلوبهم .

وقوله تعالى : (ثم جاوزوك يحلفون بالله إن أردنا بذهابنا إلى غيرك
وتوفيقاً) [النساء : ٦٢] .

قال ابن كثير : أي : يعتذرون ويحلفون إن أردنا بذهابنا إلى غيرك
إلا الإحسان والتوفيق ، أي : المداراة والمصانعة . وقال غيره : إلا
إحساناً ، أي : لإساءة ، وتوفيقاً ، أي : بين الخصمين ، ولم نرد
مخالفة لك ، ولا تسخطاً لحكمك .

قلت : فإذا كان هذا حال المنافقين يعتذرون عن أمرهم ، ويلبسونه
لئلا يظن أنهم قصدوا مخالفة حكم النبي ﷺ ، أو التسخط ، فكيف
من يصرح بما كان المنافقون يضمونه حتى يزعم أنه من حكم الكتاب
والسنة في موارد النزاع ، فهو إما كافر وإما مبتدع ضال ؟ وفعل
المنافقين الذي ذكره الله عنهم في هذه الآية هو بعينه الذي يفعله المحرفون
لكلم عن مواضعه الذين يقولون : إنما قصدنا التوفيق بين القواطع

العقلية بزعمهم التي هي الفلسفة والكلام ، وبين الأدلة النقلية ، ثم يجعلون الفلسفة التي هي سفاهة وضلالة الأصل ، ويردون بها ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة ، زعموا أن ذلك يخالف الفلسفة التي يسمونها القواطع ، فتطلبوا له وجوه التأويلات البعيدة ، وحملوه على شواذ اللغة التي لا تكاد تعرف .

وقوله تعالى : (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم) .

قال ابن كثير : أي : هذا الضرب من الناس هم المنافقون ، والله أعلم بما في قلوبهم ، وسيجزئهم على ذلك ، فإنه لا تخفى عليه خافية ، فاكتم به يا محمد فيهم ، فإنه عالم ببواطنهم وظواهرهم .

وقوله تعالى : (فاعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً) [النساء : ٦٣] .

قال ابن القيم : أمر الله رسوله ﷺ فيهم بثلاثة أشياء :

أحدها : الإعراض عنهم إهانة لهم ، وتحقيراً لشأنهم ، وتصغيراً لأمرهم لا إعراض متاركة وإهمال ، وبهذا يعلم أنها غير منسوخة .

الثاني : قوله : وعظهم وهو تخويفهم عقوبة الله وبأسه ونقمته إن أصرروا على التحاكم إلى غير رسوله ﷺ ، وما أنزل عليه .

الثالث : قوله : وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ، أي : يبلغ تأثيره إلى قلوبهم ليس قولاً ليناً لا يتأثر به المقول له ، وهذه المادة تدل على بلوغ المراد بالقول ، فهو قول يبلغ به مراد قائله من الزجر والتخويف ويبلغ تأثيره إلى نفس المقول له ، ليس هو كالقول الذي يمر على الأذن صفحاً .

وهذا القول البليغ يتضمن ثلاثة أمور :

أحدها : عظم معناه ، وتأثر النفوس به .

الثاني : فخامة ألفاظه وجزالتها .

الثالث : كيفية القائل في إلقائه إلى المخاطب فإن القول كالسهم ، والقلب كالقوس الذي يدفعه كالسيف ، والقلب كالساعد الذي يضرب به .

وفي متعلق قوله : (في أنفسهم) قولان .

أحدهما : بقوله (بليغاً) أي : قولاً بليغاً في أنفسهم ، وهذا حسن من جهة المعنى ، ضعيف من جهة الإعراب ، لأن صفة الموصوف لا تعمل فيما قبلها .

والقول الثاني : أنه متعلق بقل وفي المعنى على هذا قولان .

أحدهما : قل لهم في أنفسهم خالياً بهم ليس معهم غيرهم بل مسراً لهم النصيحة .

والثاني : أن معناه قل لهم في معنى أنفسهم ، كما يقال : قل لفلان في كيت وكيت ، أي : في ذلك المعنى قلت : وهذا القول أحسن ثم قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بأذن الله) [النساء : ٦٤] قال ابن كثير : أي : إنما فرضت طاعته على من أرسله إليهم . وقال ابن القيم : هذا تنبيه على جلالة منصب الرسالة ، وعظم شأنها ، وأنه سبحانه لم يرسل رسوله عليهم الصلاة والسلام إلا ليطاعوا بإذنه ، فتكون الطاعة لهم لا لغيرهم ، لأن طاعتهم طاعة مرسلهم ، وفي ضمنه أن من كذب رسوله محمداً ﷺ ، فقد كذب الرسل . والمعنى أنك واحد منهم تجب طاعتك ، وتتعين عليهم كما وجبت طاعة من قبلك من المرسلين ،

فإن كانوا قد أطاعوهم كما زعموا وآمنوا بهم ، فما لهم لا يطيعونك ، ويؤمنون بك ؟! والإذن هنا هو الإذن الأمري لا الكوني ، إذ لو كانت إذناً كونياً قدرياً لما تخلفت طاعتهم ، وفي ذكره نكتة وهي أنه بنفس إرساله تعين طاعته ، وإرساله نفسه إذن في طاعته ، فلا تتوقف على نص آخر سوى الإرسال بأمر فيه بالطاعة ، بل متى تحققت رسالته ، وجبت طاعته . فرسالته نفسها متضمنة للإذن في الطاعة . ويصح أن يكون الإذن هنا إذناً كونياً قدرياً ، ويكون المعنى : ليطاع بتوفيق الله وهدايته ، فتضمن الآية الأمرين الشرع والقدر ، ويكون فيها دليل على أن أحداً لا يطيع رسوله إلا بتوفيقه وإرشاده وهدايته ، وهذا حسن جداً . والمقصود أن الغاية من الرسل هي طاعتهم ومتابعتهم ، فإذا كانت الطاعة والمتابعة لغيرهم ، لم تحصل الفائدة المقصودة من إرسالهم .

وقوله : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) [النساء : ٦٤] .

قال ابن القيم : لما علم سبحانه أن المرسل إليهم لا بد لهم من ظلم لأنفسهم ، واتباع لأهوائهم ، أرشدهم إلى ما يندفع عنهم شر ذلك الظلم وهو حبه ، وهو شيطان : أحدهما منهم ، وهو استغفارهم ربهم عز وجل ، والثاني من غيرهم وهو استغفار الرسول ﷺ لهم إذا جاؤوه ، وانقادوا له ، واعترفوا بظلمهم ، فمضى فعلوا ذلك وجدوا الله تواباً رحيماً يتوب عليهم فيمحو أثر سيئاتهم ويقيم شرها ، ويزيدهم مع ذلك رحمته وبره وإحسانه .

فإن قلت : فما حظ من ظلم نفسه بعد موت النبي ﷺ من هذه الآية ؟ وهل كلام بعض الناس في دعوى الجيء إلى قبره ﷺ ، والاستغفار عنده ،

والاستشفاع به ، والاستدلال بهذه الآية على ذلك صحيح أم لا ؟

قيل : أما حظ من ظلم نفسه بعد موت النبي ﷺ من هذه الآية فلاستغفار ، وأن يتوب إلى الله توبة نصوحاً في كل زمان ومكان ، ولا يشترط في صحة التوبة المجيء إلى قبره ، والاستغفار عنده بالإجماع . وأما المجيء إلى قبره ، والاستغفار عنده ، والاستشفاع به ، والاستدلال بالآية على ذلك ، فهو استدلال على ما لا تدل الآية عليه بوجه من وجوه الدلالات ، لأنه ليس في الآية إلا المجيء إليه ﷺ لا المجيء إلى قبره ؛ واستغفاره لهم ، لاستشفاعهم به بعد موته ، فعلم أن ذلك باطل ، يوضح ذلك أن الصحابة الذين هم أعلم الناس بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ما فهموا هذا من الآية ، فعلم أن ذلك بدعة . وأكثر ما استدل به من أجاز ذلك رواية العتيبي عن أعواني مجهول على أن القصة لانعلم لها إسناداً . ومثل هذا لو كان حديثاً ، أو أثراً عن صحابي لم يجوز الاحتجاج به ، ولم يلزمنا حكمه لعدم صحته ، فكيف يجوز الاحتجاج في هذا بقصة لانصح عن بدوي لا يعرف ١٩ .

ثم قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحسبوك لها شجر
بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً)
[النساء : ٦٥] .

قال ابن القيم : أقسم سبحانه بأجل مقسم به ، وهو نفسه عز وجل على أنه لا يثبت لهم الإيمان ، ولا يكونون من أهله حتى يحكم لرسوله ﷺ في جميع موارد النزاع ، وفي جميع أبواب الدين فإن لفظة « ما » من صيغ العموم ، ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه ،

بحيث لا يجدون في أنفسهم حرجاً ، وهو الضيق والحصر من حكمه ، بل يقبلون حكمه بالانشراح ، ويقابلونه بالقبول ، لا يأخذونه على إغماض ، و[لا] ^(١) يشربونه على قذى ، فإن هذا مناف للآيمان ، بل لابد أن يكون أخذه بقبول ورضى ، وانشراح صدر . ومتى أراد العبد شاهداً فليتنظر في حاله ، ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه ، أو على خلاف ما قلده فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها (بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره) [القيامة : ١٥ ، ١٦] فسبحان الله ! كم من حزاة في نفوس كثير من النصوص ، وبودهم أن لو لم ترد ، وكم من حرارة في أكبادهم منها ، وكم من شجى في حلقهم من موردها ، ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله : (ويسلموا تسلياً) فذكر الفعل مؤكداً له بالمصدر القائم مقام ذكره مرتين ، وهو الخضوع والانقياد لما حكم به طوعاً ورضى وتسلياً ، لا قهراً أو مضطرة ، كما يسلم المقهور لمن قهره ككها ، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيد الذي هو أحب شيء إليه ، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسلياته . انتهى .

وقد ورد في الصحيح ، أن سبب نزولها قصة الزبير لما اختصم هو والأنصاري في شراج الحوة ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإذا كان سبب نزولها محاسبة في مسيل ما قضى فيه رسول الله ﷺ بقضاء ، فلم يرضه الأنصاري ، فنفى تعالى عنه الإيمان بذلك ، فما ظنك بمن لم يرض بقضائه ﷺ ، وأحكامه في أصول الدين وفروعه ؟! بل إذا دعوا إلى ذلك تولوا وهم معرضون ، ولم يكفهم ذلك حتى صدوا الناس عنه ، ولم يكفهم ذلك حتى كفروا ، أو بدعوا من اتبعه ﷺ وحكمه

(١) سقطت لا من الطبعة السابقة .

في أصول الدين وفروعه ، ورضي بحكمه في ذلك ، ولم يبخ عنه حولاً .
وقوله تعالى : (ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا
من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم) .

المعنى والله أعلم أي : لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بني إسرائيل
من قتلهم أنفسهم ، أو خروجهم من ديارهم حين استتيبوا من عبادة العجل
(ما فعلوه إلا قليل منهم) ، وهذا توبيخ لمن لم يحكم الرسول ﷺ في
موارد الشجار ، أي : نحن لم نكتب عليهم ذلك ، بل إنما أوجبنا عليهم
ما في وسعهم ، فما لم لا يحكمونك ، ولا يرضون بحكمك ؟!

ثم قال تعالى : (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم
وأشدّ تثبيتاً وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً)
[النساء : ٦٦ ، ٦٧] .

قال ابن القيم : أخبر تعالى أنهم لو فعلوا ما يعظّم به ، وهو أمره
ونهيه المقرون بوعده ووعيده لكان فعل أمره ، وترك نهيه خيراً لهم في
دينهم ودنياهم ، وأشدّ تثبيتاً لهم على الحق ، وتحقيقاً لإيمانهم ، وقوة
لعزائمهم وإراداتهم ، وثباتاً لقلوبهم عند جيوش الباطل ، وعند واردات
الشبهات المضلة ، والشهوات المردية . فطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ هي
سبب ثبات القلب ، وقوته قوة عزائمه وإراداته ، ونفاذ بصيرته ، وهذا
دليل على أن طاعة الرسول ﷺ تثمر الهداية ، وثبات القلب عليها ،
ومخالفته تضر القلب ، واضطرابه ، وعدم ثباته .

ثم قال تعالى : (وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ، ولهديناهم
صراطاً مستقيماً) فهذه أربعة أنواع من الجزاء المرتب على طاعة الرسول ﷺ

أحدها : حصول الخير المطلق بها . الثاني : التثبت والقوة المتضمن للنصر والغلبة . والثالث : حصول الأجر العظيم لهم في الآخرة . والرابع : هدايتهم الصراط المستقيم . وهذه الهداية هي هداية ثانية أوجبها طاعة الرسول ﷺ فطاعته ﷺ ثمرة الهداية السابقة عليها فهي عفوقة بهدائيتين : هداية قبلها وهي سبب الطاعة ، وهداية بعدها هي ثمرة لها ، وهذا يدل على انتفاء هذه الأمور الأربعة عند انتفاء طاعة الرسول ﷺ .

ثم قال تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) [النساء : ٦٩] .

قال ابن القيم : فأخبر سبحانه أن طاعته وطاعة رسوله ﷺ توجب مرافقة المنعم عليهم ، وهم أهل السعادة الكاملة ، وهم أربعة أصنافه النبيون وهم أفضلهم ثم الصديقون وهم بعدهم في الدرجة ، ثم الشهداء ، ثم الصالحون فهؤلاء المنعم عليهم النعمة التامة وهم السعداء الفائزون ، ولا فلاح لأحد إلا بموافقتهم ، والكون معهم ، ولا سبيل إلى مرافقتهم إلا بطاعة الرسول ﷺ ، ولا سبيل إليها إلا بمعرفة سنته وما جاء به فدل على أن من عدم العلم بسنته وما جاء به ، فليس له إلى مرافقة هؤلاء سبيل ، بل هو بمن يعرض على يديه يوم القيامة ، ويقول : ياليتني انخضت مع الرسول سبيلاً .

قلت : ما لمن لم يحكم الرسول ﷺ في موارد النزاع إلى مرافقة هؤلاء المنعم عليهم سبيل ، وكيف يكون له سبيل إلى ذلك ، وعنده أن من حكم الرسول ﷺ في موارد النزاع ، فهو إما زنديق أو مبتدع ، وأنى

له بطاعة الله ورسوله ، وهذا أصل اعتقاده الذي بنى عليه دينه ، ومع ذلك يحسبون أنهم مهتدون إذا حكموا غير الرسول ﷺ ، ونبدوا حكمه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون .

قال المصنف وقوله : (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) [الأعراف : ٥٦] .

قال أبو بكر بن عياش في الآية : إن الله بعث محمداً ﷺ إلى أهل الأرض ، وهم في فساد فأصلحهم الله بمحمد ﷺ ، فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ ، فهو من المفسدين في الأرض . وقال ابن القيم : قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل ، وبيان الشريعة ، والدعاء إلى طاعة الله ، فإن عبادة غير الله ، والدعوة إلى غيره ، والشرك به هو أعظم فساد في الأرض ، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ، ومخالفة أمره . فالشرك والدعوة إلى غير الله ، وإقامة معبود غيره ، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ ، هو أعظم الفساد في الأرض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا .

وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ ، فإذا أمر بمعصيته ومخلاف شريعته ، فلا سمع له ولا طاعة ، ومن تدبر أحوال العالم ، وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته ، وطاعة رسوله ، وكل شر في العالم ، وفتنة وبلاء ، وقحط وتسلط عدو وغير ذلك ، فسببه مخالفة رسوله ، والدعوة إلى غير الله ورسوله انتهى . وبهذا يتبين وجه مطابقة

الآية للترجمة ، لأن من يدعو إلى التحاكم إلى غير ما أنزل الله وإلى الرسول ، فقد أتى بأعظم الفساد .

قال وقوله : (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) [البقرة : ١٢] .

قال أبو العالية في الآية يعني : لاتعصوا في الأرض ، وكان فسادهم ذلك معصية الله ، لأن من عصى الله في الأرض ، أو أمر بمعصية الله ، فقد أفسد في الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة . قلت : ومطابقة الآية للترجمة ظاهر ، لأن من دعا إلى التحاكم إلى غير ما أنزل الله ، فقد أتى بأعظم الفساد . وفي الآية دليل على وجوب اطراح الرأي مع السنة ، وإن ادعى صاحبه أنه مصلح ، وأن دعوى الإصلاح ليس بعبد في ترك ما أنزل الله ، والحد من العجب بالرأي .

قال وقوله (أفحكم الجاهلية يبغون) [المائدة : ٥٤] .

قال ابن كثير : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير وعدل ، الناهي عن كل شر إلى ما سواه من الآراء والآهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلامستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكز خان الذي وضع لهم كتاباً مجموعاً من أحكام اقتبسها من شرائع شتى من الملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره ، فصار في بنيه شرعاً يقدمونه على الحكم بالكتاب والسنة ، ومن فعل ذلك ، فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير

قال تعالى : (أفحكم الجاهلية يبغون) ، أي : يريدون (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) ، أي : ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه ، وآمن وأيقن ، وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين ، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها فإنه تعالى العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء . قلت وفي الآية إشارة إلى أن من ابتغى غير حكم الله ورسوله ، فقد ابتغى حكم الجاهلية كائناً ما كان .

قال : عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » قال النووي : حديث صحيح رويناه في كتاب « الحجة » بإسناد صحيح .

ش : هذا الحديث رواه الشيخ أبو اللتح نصر بن إبراهيم المقدسي . الشافعي في كتاب « الحجة على ترك الحجة » بإسناد صحيح كما قال المصنف عن النووي ، وهو كتاب يتضمن ذكر أصول الدين على قواعد أهل الحديث والسنة . ورواه الطبراني وأبو بكر بن عاصم ، والحافظ أبو نعيم في « الأربعين » التي شرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار .

وقال ابن رجب : تصحيح هذا الحديث بعيداً جداً من وجوه ذكرها ، وتعبه بعضهم . قلت : ومعناه صحيح قطعاً وإن لم يصح إسناده وأصله في القرآن كثير كقوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) [النساء : ٦٥] . وقوله : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) [الأحزاب : ٣٧] . وقوله : (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) [القصص : ٥١] وغير ذلك من الآيات ، فلا يضر عدم صحة إسناده .

قوله : « لا يؤمن أحدكم ، أي : لا يحصل له الإيمان الواجب ولا يكون من أهله .

قوله : « حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » قال بعضهم : هواه بالقصر ، أي : ما يهواه ، أي : نجه نفسه وتميل إليه ، ثم المعروف في استعمال الهوى عند الإطلاق أنه الميل إلى خلاف الحق ومنه (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) [ص : ٢٧] وقد يطلق على الميل والمحبة ليشمل الميل للحق وغيره ، وربما استعمل في محبة الحق خاصة ، والانقياد إليه ، كما في حديث صفوان بن عسال أنه سئل هل سمعت النبي ﷺ يذكر الهوى ... الحديث .

قال ابن رجب : أما معنى الحديث ، فهو أن الإنسان لا يكون مؤمناً كاملاً بالإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها ، فيحب ما أمر به ويكره ما نهى عنه . وقد ورد القرآن بمثل هذا في غير موضع ، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله تعالى ، أو أحب ما كره الله كما قال : (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) [محمد : ١٠] وقال : (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) [محمد : ٢٩] فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما وجب عليه منه ، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً . وأن يكره ما كرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه ، فازدادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلاً . فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه ، أوجب ذلك له أن

يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله ويكره ما يكرهه الله ورسوله ، ويرضى بما يرضى به الله ورسوله ، ويسخط ما يسخط الله ورسوله ، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض .

فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك ، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله ، أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه ، دل ذلك على نقص محبة الواجبة ، فعليه أن يتوب من ذلك ، ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة . فجميع المعاصي تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله ، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه فقال تعالى : (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) [القصص : ٥١] ، وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع ، ولهذا سمي أهلها أهل الأهواء ، وكذلك المعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه الله وكذلك حب الأشخاص الواجب فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ . فيجب على المؤمن محبة ما يحبه الله من الملائكة والرسل والصديقين ، والأنبياء والشهداء والصالحين عموماً . ولهذا كان علامة وجود حلاوة الإيمان أن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عموماً ، وبهذا يكون الدين كله لله . و من أحب الله ، وأبغض الله ، وأعطى الله ، ومنع الله ، فقد استكمل الإيمان . ومن كان حبه ، وبغضه ، وعطاؤه ، ومنعه لهوى نفسه ، كان ذلك نقصاً في إيمانه الواجب ، فتجب عليه التوبة من ذلك ، والرجوع إلى اتباع ما جاء به الرسول ﷺ من تقديم محبة الله ورسوله ، وما فيه رضى الله

ورسوله على هوى النفس ومرادها . انتهى ملخصاً . ومطابقة الحديث للباب ظاهرة من جهة أن الرجل لا يؤمن حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في كل شيء حتى في الحكم وغيره . فإذا حكم بحكم أو قضى بقضاء ، فهو الحق الذي لا يحيد المؤمن عنه ، ولا اختيار له بعده .

قال المصنف : وقال الشعبي : كان بين رجل من المنافقين ، ورجل من اليهود خصومة فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد ، عرف أنه لا يأخذ الرشوة ، وقال المنافق : نتحاكم إلى اليهود ، لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ، فاتفقا على أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه فنزلت (ألم تر إلى الذين يزعمون) [النساء : ٦٠] .

ش : هذا الأثر رواه ابن جرير ، وابن المنذر بنحوه .

قوله : كان بين رجل من المنافقين ، ورجل من اليهود خصومة لم أقف على تسمية هذين الرجلين ، وقد روى ابن إسحاق وابن المنذر ، وابن أبي حاتم قال : كان الجلاس بن الصامت قبل توبته ، ومعتب بن قشير ، ورافع بن زيد وبشير ، كانوا يدعون الإسلام ، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ ، فدعاهم إلى الكهان حكام الجاهلية فأنزل الله فيهم (ألم تر إلى الذين يزعمون) الآية . فيحتمل أن يكون المنافق المذكور في قصة الشعبي أحد هؤلاء ، بل روى الثعلبي عن ابن عباس أن المنافق اسمه بشر .

قوله : عرف أنه لا يأخذ الرشوة هي بتثليث الرأ قال أبو السعادات : وهو الوصلة إلى الحاجة بالمصانعة ، وأصله من الرشاء الذي يتوصل به إلى

الماء ، والرامي : من يعطي الذي يعينه على الباطل ، والمرثي : الآخذ .
قلت : فعلى هذا رشوة الحاكم هي ما يعطاه ليحكم بالباطل ، سواء طلبها
أم لا . وفيه دليل على شهادة أن محمداً رسول الله ، لأن أعداءه يعلمون
عدله في الأحكام ، ونزاهته عن قذر الرشوة ﷺ بخلاف حكام الباطل .
قوله : فاتفقا على أن يأتيا كاهناً في جبهة . لم أقف على تسمية هذا
الكاهن ، وفي قصة رواها ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن السدي في
سبب نزول الآية قال : فتفاخرت النضير وقريظة ، فقالت النضير : نحن
أكرم من قريظة ، وقالت قريظة : نحن أكرم منكم ، فدخلوا المدينة إلى
أبي بردة الأسلمي وذكر القصة .

قال المصنف : وقيل : نزلت في رجلين اختصما ، فقال أحدهما : ترفع
إلى النبي ﷺ ، وقال الآخر : إلى كعب بن الأشرف ، ثم ترفعا
إلى عمر فذكر له أحدهما القصة . فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ :
أ كذلك ؟ قال : نعم ، فضربه بالسيف فقتله .

ش : هذه القصة قد رويت من طرق متعددة من أقربها لسياق
المصنف ما رواه الثعلبي وذكره البخاري عن ابن عباس في قوله : (ألم
تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا) [النساء : ٦٠] قال : نزلت في
رجل من المنافقين يقال له : بشر خاسم يهودياً فدعاه اليهودي إلى رسول
الله ﷺ ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ، ثم إنهما احتكما للنبي ﷺ .
فقضى لليهودي فلم يرض المنافق ، وقال : تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب
فقال اليهودي لعمر : قضى لنا رسول الله ﷺ ، فلم يرض بقضائه .
فقال للمنافق : أ كذلك ؟ قال نعم ، فقال عمر : مكانكما حتى أخرج

إليكما ، فدخل عمر فاشتعل على سيفه ، ثم خرج فضرب عتق المناق حتى
برد ، ثم قال : هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله ، فنزلت .
وروى الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » هذه القصة عن مكحول
وقال في آخرها : فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ ، فقال : إن
عمر قد قتل الرجل ، وفوق الله بين الحق والباطل على لسان عمر ، فسمي
الفاروق . ورواه أبو إسحاق بن دحيم في تفسيره على ما ذكره شيخ
الإسلام ، وابن كثير ، ورواه ابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طريق
ابن لهيعة عن أبي الأسود ، وذكر القصة ، وفيه : فقال رسول الله ﷺ :
« ما كنت أظن أن يجزىء عمر على قتل مؤمن ، فأنزل الله (فلا وربك
لا يؤمنون) الآية ، فهدم دم ذلك الرجل ويرى عمر من قتله ، فكروه
الله أن يسن ذلك بعد ، فقال : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم)
إلى قوله : (وأشد تبييناً) .

وبالجملة فهذه القصة مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولاً يغني
عن الإسناد ، ولها طرق كثيرة ، ولا يضرها ضعف إسنادها ، وكعب
ابن الأشرف المذكور هنا هو طاغوت من رؤساء اليهود وعلمائهم ، ذكر
ابن إسحاق وغيره أنه كان مرادعاً للنبي ﷺ في جملة من وادعه من يهود
المدينة ، وكان عربياً من بني طيء وكانت أمه من بني النضير قالوا :
فلما قتل أهل بئر ، شق ذلك عليه ، وذهب إلى مكة ورتاهم لقريش ،
وفضل دين الجاهلية على دين الإسلام حتى أنزل الله فيه (ألم تر إلى الذين
أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا
هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلاً) [النساء : ٥١] ثم لما رجع إلى

المدينة أخذ ينشد الأشعار يمجو بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشبب
بنساء المسلمين حتى آذاهم حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : من لكعب
ابن الأشراف ، فإنه قد آذى الله ورسوله ، وذكر قصة قتله ، وقتله
محمد بن مسلمة ، وأبو نائلة وأبو عيسى بن جبر ، وعباد بن بشر رضي
الله عنهم .

وفي القصة من الفوائد أن الدعاء إلى تحكيم غير الله ورسوله من
صفات المنافقين ، ولو كان الدعاء إلى تحكيم إمام فاضل ، ومعرفة أعداء
رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان عليه من العلم والعدل في الأحكام ،
وفيها الغضب لله تعالى ، والشدة في أمر الله كما فعل عمر رضي الله عنه ،
وفيها أن من طعن في أحكام النبي صلى الله عليه وسلم أو في شيء من دينه
قتل كهذا المنافق بل أولى ، وفيها جواز تغيير المنكر باليد ، وإن لم
يأذن فيه الإمام ، وكذلك تعزيز من فعل شيئاً من المنكرات التي يستحق
عليها التعزيز . لكن إذا كان الإمام لا يرضى بذلك ، وربما أدى إلى
وقوع فريسة أو فتنة فيشترط لإذنه في التعزيز فقط ، وفيها أن معرفة الحق
لا تكفي عن العمل والانقياد ، فإن اليهود يعلمون أن محمداً رسول الله
ويتعاكفون إليه في كثير من الأمور .

باب

من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

أي : من أسماء الله وصفاته ، والمراد ما حُصِّصَ له هو تاج أو
هالك ؟ ولما كان تحقيق التوحيد بل التوحيد لا يحصل إلا بالإيمان بالله
والإيمان بأسمائه وصفاته ، نه المصنف على وجوب الإيمان بذلك وأيضاً

فالتوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وتوحيد العبادة . والأولان وسيلة إلى الثالث ، فهو الغاية والحكمة المقصود بالخلق والأمر . وكلها متلازمة فناسب التنبيه على الإيمان بتوحيد الصفات .

قال : وقول الله تعالى : (وهم يكفرون بالرحمن) [الرعد : ٣٣] .
أي : يمجدون هذا الاسم ، لا أنهم يمجدون الله ، فإنهم يقولون به كما قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) [الزخرف : ٨٨]
والمراد بهذا كفار قريش أو طائفة منهم ، فإنهم جحدوا هذا الاسم عناداً أو جهلاً ، ولهذا لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي يوم الحديبية : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقالوا : لانعرف الرحمن ولا الرحيم ، وفي بعض الروايات لانعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة . يعنون مسيلة الكذاب ، فإنه قبيح الله كان قد تسمى بهذا الاسم وأما كثير من أهل الجاهلية فيقولون بهذا الاسم كما قال بعضهم :

وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

قال ابن كثير : (وهم يكفرون بالرحمن) أي : لا يقولون به ، لأنهم يابون من وصف الله بالرحمن الرحيم . ومطابقة الآية للترجمة ظاهرة ، لأن الله تعالى سمى بجمود اسم من أسمائه كقراً ، فدل على أن جمود شيء من أسماء الله وصفاته كفر ، فمن جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته من لفلسفة ، والجهمية والمعتزلة ونحوهم ، فله نصيب من الكفر بقدر ما جحد من الاسم أو الصفة ، فإن الجهمية والمعتزلة ونحوهم ، ولأن كانوا يقولون بجنس الأسماء والصفات فعند التحقيق لا يقولون بشيء ، لأن الأسماء عندهم علامة محضة ، لاتدل على صفات قائمة بالرب تبارك وتعالى وهذا نصف كفر الذين جحدوا اسم الرحمن .

وقوله : (قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه
متاب) [الرعد : ٣٣] .

أي : قل يا محمد راداً عليهم في كفرهم بالرحمن تبارك وتعالى (هو) أي :
الرحمن عز وجل (ربي لا إله إلا هو) أي : لا معبود سواه (عليه توكلت
وإليه متاب) أي : إليه مرجعي وأوطني ، وهو مصدر من قول القائل :
تبت متاباً وتوبة ، قاله ابن جرير .

وفي الآية دليل على أن التوكل عبادة ، وعلى أن التوبة عبادة ، وإذا
كان كذلك فالتوبة إلى غيره شرك . ولما قال سارق وقد قطعت يده
رسلم : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد قال
رسلم : « عرف الحق لأهله » رواه أحمد .

« صحيح البخاري » قال علي : حدثوا الناس بما
أريدون أن يكذب الله ورسوله .

ش : هذا الأثر رواه البخاري مسنداً لا معلقاً لكنه في بعض الروايات
علقه أولاً ثم ذكر إسناده ، وفي بعضها ساق إسناده أولاً فرواه عن
عبيد الله بن موسى عن معروف بن خربوذ عن أبي الطفيل عن علي به
ولفظه « أتحبون أن يكذب الله ورسوله » .

قوله : بما يعرفون . أي : بما يفهمون . قال الحافظ : وزاد آدم
ابن أبي إياس في كتاب « العلم » له عن عبد الله بن داود عن معروف
في آخره : ودعوا ما ينكرون . أي : ما يشتبه عليهم فهمه . قال :
وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة . ومثله قول
ابن مسعود : ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم

ختة . رواه مسلم قال : ومن رأى التحديث ببعض دون بعض أحد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان ومالك في أحاديث الصفات ، وأبو يوسف في « الغرائب » ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرايين وأن المراد ما يقع من الفتن ، ونحوه عن حذيفة . وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنين ، لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمد من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي ، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة ، وظاهره في الأصل غير مراد فالإمسك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظواهره مطلوب انتهى .

وما ذكره عن مالك في أحاديث الصفات ما أظنه يثبت عن مالك ، وهل في أحاديث الصفات أكثر من آيات الصفات التي في القرآن ؟ فهل يقول مالك أو غيره من علماء الإسلام : إن آيات الصفات لا تنلي على العوام ، وما زال العلماء قديماً وحديثاً من أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم يقرؤون آيات الصفات ، وأحاديثها بحضرة عوام المؤمنين وخواصهم ، بل شرط الإيمان هو الإيمان بالله ، وصفات كماله التي وصف بها نفسه في كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ ، فكيف يكتم ذلك عن عوام المؤمنين ؟ بل نقول : من لم يؤمن بذلك فليس من المؤمنين ، ومن وجد في قلبه حرجاً من ذلك ، فهو من المنافقين . ولكن هذا من بدع الجهمية وأتباعهم الذين ينفون صفات الرب تبارك وتعالى ، فلما رويوا أحاديث الصفات مبطله لمذاهبهم ، قامعة لبدعهم تواصلوا بكتمانها عن عوام المؤمنين ، لئلا يعلموا ضلالهم ، وفساد اعتقادهم فاعلم ذلك .

وفي الأثر دليل على أنه إذا خشي ضرر من تحديث الناس ببعض

ما يعرفون فلا ينبغي تحديثهم به ، وليس ذلك على إطلاق ، وإن كثيراً من الدين والسنن يجبهه الناس ، فإذا حدثوا به كذبوا بذلك وأعظموه ، فلا يترك العالم تحديثهم ، بل يعلمهم برفق ويدعوهم بالتقوى هي أحسن .

قال : وروى عبد الرزاق عن معمر عن طاوس عن أبيه عن ابن عباس أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ ، في الصفات استنكاراً لذلك فقال : ما فرق هؤلاء يجدون رقعة عند عسكره ، ويهلكون عند متشابهه . انتهى .

ش : قوله : روى عبد الرزاق هو ابن همام الصنعاني ، الإمام الحافظ صاحب التصانيف كـ « المصنف » وغيره . روى عنه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، وخلق لا يحصون مات سنة إحدى عشرة ومائتين .

ومعمر هو ابن راشد الأزدي أبو عروة البصري ، نزل اليمن ، ثقة ثبت ، مات سنة أربع وخمسين ومائة ، وله ثمان وخمسون سنة .

وابن طاوس هو عبد الله بن طاوس البجلي ، ثقة فاضل عابد ، مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة . وأبوه طاوس بن كيسان البجلي ثقة فقيه فاضل من جلة أصحاب ابن عباس وعلمائهم ، مات سنة ست ومائة . قوله : إنه رأى رجلاً . لم يسم هذا الرجل .

قوله : انتفض أي : ارتعد لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ فاستنكره ، إما لأن عقله لا يحمّله ، أو لكونه اعتقد عدم صحته فأنكره .

قوله : فقال ، أي : ابن عباس وهو عبد الله رضي الله عنه .

قوله : ما فرق هؤلاء . يحمّل وجهين :

أحدهما : أن تكون « ما » استهامة إنكارية . وفرق بفتح الفاء والراء .

وهو الخوف والفرع ، أي : ما فرع هذا وأضرابه من أحاديث الصفات واستنكارهم لها ؟ . والمراد الانكار عليهم ، فإن الواجب على العبد التسليم والاذعان والإيمان بما صح عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم وإن لم يحط به علماً . ولهذا قال الشافعي : آمنت بالله ، وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنت برسول الله ، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله .

والثاني : أن يكون بفتح الفاء وتشديد الراء ، ويجوز تخفيفها . و « ما » نافية أي : ما فرق هذا وأضرابه بين الحق والباطل ، ولا عرفوا ذلك ، فلماذا قال : يجدون رقة وهي ضد القسوة ، أي : ليناً وقبولاً للمعك ، ويهلكون عند متشابهه ، أي : ما يشبهه عليهم فهمه ، لأن آيات الصفات هي المتشابه كما تقوله الجهمية ونحوهم ، ولأن في القرآن متشابهاً لا يعرف معناه كالألفاظ الأعجمية ، فإن لفظ التشابه والمتشابه يدلان على بطلان ذلك ، وإنما المراد بالمتشابه ، أي : ما يشبه فهمه على بعض الناس دون بعض ، فالمتشابه أمر نسبي إضافي ، فقد يكون مشتبهاً بالنسبة إلى قوم بينما جلياً بالنسبة إلى آخرين . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج على قوم يتراجعون في القرآن فغضب وقال : « بهذا ضلت الأمم قبلكم ؛ باختلافهم على أنبيائهم ، وضرب الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، ولكن نزل لأن يصدق بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه عليكم فآمنوا به » رواه ابن سعد ، وابن الضريس وابن مردويه .

وأما قوله تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات

من أم الكتاب وآخر متشابهات) [آل عمران : ٨] . فقال ابن كثير :
يجوز تعالى أن في القرآن آيات محكمات ، أي : بينات واضحات الدلالة
لا التباس فيها على أحد ، ومنه آيات آخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير
من الناس أو بعضهم . فمن رد ما اشبه عليه إلى الواضح منه ، وحكم
بحكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ، ومن عكس انعكس ، ولهذا
قال : (من أم الكتاب) ، أي : أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه
(وآخر متشابهات) أي : تحتل دلالتها موافقة الحكم ، وقد تحتل أشياء
أخرى من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد ، ولهذا قال تعالى :
(فاما الذين في قلوبهم زيغ) أي : ضلال ، وخروج عن الحق إلى
الباطل فيتبعون ما تشابه منه ، أي : إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم
أن يعرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه .
فاما الحكم ، فلا نصيب لهم فيه ، لأنه دافع لهم ، وحجة عليهم ، ولهذا قال :
(ابتغاء الفتنة) أي : الاضلال لأتباعهم ، إيهاماً لهم أنهم يبتغون على
بدعتهم بالقرآن ، وهو حجة عليهم لا لهم . انتهى .

وقال ابن عباس : (فاما الذين في قلوبهم زيغ) يعني أهل الشك ،
فيحملون الحكم على المتشابه ، والمتشابه على الحكم ، ويلبسون ، فلبس الله عليهم
(وما يعلم تأويله إلا الله) قال : تأويله يوم القيامة لا يعلمه إلا الله .
رواه ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم . وقوله : (وما يعلم
تأويله إلا الله) تقدم كلام ابن عباس . وقال مقاتل والسدي : يبتغون
أن يعلموا ما يكون ، وما عواقب الأشياء من القرآن .

قلت : فهذا التأويل الذي انفرد الله بعلمه هو العلم بحقائق الأشياء

وما تؤول إليه وعواقبها ، كالأخبار بما يكون ، وما في الجنة من النعيم ، وما في النار من العذاب ؛ فإن هذه الأمور وإن علمناها لكن العلم بمحققاتها بما لا يعلمه إلا الله . ولهذا قال ابن عباس : ليس في الدنيا بما في الجنة إلا الأسماء . فعلى هذا يكون الوقف على الجلالة كما روي عن جماعة من السلف ، وقيل : الوقف على قوله : (والراسخون في العلم) أي : ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم . فأما أهل الزيغ فلا يعلمون تأويله ، وعلى هذا فالمراد بتأويله هو تفسيره وفهم معناه ، وهذا هو المروي عن ابن عباس وجماعة من السلف . قال ابن أبي نجيع عن مجاهد عن ابن عباس : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله . وقال مجاهد : (والراسخون في العلم) يعرفون تأويله . ويقولون : آمنا به ، وكذا قال الربيع بن أنس وغيره . فقد تبين والله الحمد أنه ليس في الآية حجة للمبطلين في جعلهم ما أخبر الله به من صفات كماله هو المتشابه ، ويحتجون على باطلهم بهذه الآية ، فيقال : وأين في الآية ما يدل على مطلوبكم ؟ وهل جاء نص عن الله أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جعل ما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله متشابهاً ؟ ! ولكن أصل ذلك أنهم ظنوا أن التأويل المراد في الآية هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى ما يحتمله اللفظ لدليل يقتضيه بذلك ، وهذا هو اصطلاح كثير من المتأخرين ، وهو اصطلاح حادث ، فأرادوا حمل كلام الله على هذا الاصطلاح فضلوا ضلالاً بعيداً ، وظنوا أن لنصوص الصفات تأويلاً يخالف ما دلت عليه ، لا يعلمه إلا الله كما يقوله أهل التجهيل ، أو يعلمه المتأولون كما يقوله أهل التأويل . وفي الأثر المشروح دليل على ذكر آيات الصفات ، وأحاديثها بحضرة عوام المؤمنين

وخواصهم ، وأن من رد شيئاً منها أو استنكره بعد صحته ، فهو بمن
لم يفرق بين الحق والباطل ، بل هو من المالكين وأنه ينكر عليه استنكاره .

قال : ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا
ذلك فأنزل الله (وهم يكفرون بالرحمن) [الرعد : ٣٣] .

ش : هكذا ذكر المصنف هذا الأثر بالمعنى ، وقد روى ابن جرير
وابن المنذر عن ابن جريج في الآية ، قال : هذا لما كاتب رسول الله
صلى الله عليه وسلم قريشاً في الحديبية ، كتب : بسم الله الرحمن الرحيم .
فقالوا : لانكتب الرحمن ، ولا ندرى ما الرحمن ، ولا نكتب إلا باسمك
الهم ، فأنزل الله (وهم يكفرون بالرحمن) . وفيه دليل على أن من
أنكر شيئاً من الصفات ، فهو من المالكين ، لأن الواجب على العبد الإيمان
بذلك ، سواء فهمه أم لم يفهمه ، وسواء قبله عقله أو أنكره . فهذا هو
الواجب على العبد في كل ما صح عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو
الذي ذكر الله تعالى عن الراسخين في العلم أنهم (يقولون آمنا به كل
من عند ربنا) [آل عمران : ٧] .

باب

قول الله تعالى : (يعرفون لعمرة الله ثم ينكرونها) [النحل : ٨٤] .

ش : المراد بهذه الترجمة التأديب مع جناب الربوبية عن الألفاظ
الشركية الخفية ، كنسبة النعم إلى غير الله ؛ فإن ذلك باب من أبواب
الشرك الخفي ، وضده باب من أبواب الشكر كما في الحديث الذي رواه
ابن حبان في « صحيحه » عن جابر مرفوعاً « من أولي معروفاً فلم يجد
له جزاء إلا الثناء فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره » وفي رواية

جيدة لأبي داود « من أبلي فذكره فقد شكره ، ومن كتبه فقد كفره »
قال المنذري « من أبلي ، أي : من أنعم عليه ، الإبلاء الانعام . فإذا
كان ذكر المعروف الذي يقدره الله على يدي إنسان من شكره ، فذكر
معروف رب العالمين ، وآلاله وإحسانه ونسبة ذلك إليه أولى بأن
يكون شكراً .

قال المصنف : قال مجاهد ما معناه : هو قول الرجل : هذا
مالي وورثته عن آبائي .

ش : هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، ولفظه كما في « الدر »
قال : المساكن والأنعام وسرايل الثياب ، والحديد يعرفه كفار قريش
ثم ينكرونه بأن يقولوا : هذا كان لأبائنا وورثناه عنهم .

قال ابن القيم ما معناه : لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا
نعمة الله بنسبتها إلى غيره ، فإن الذي يقول هذا جاحد لنعمة الله عليه
غير معترف بها ، وهو كالأبرص والأقرع اللذين ذكرهما الملك بنعم الله
عليها فأنكراها وقالوا : إنما ورثنا هذا كابراً عن كبر ، وكونها موروثة
عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم إذ أنعم بها على آبائهم ثم ورثهم إياها
فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمه .

وقال عون بن عبد الله : يقولون : لولا فلان لم يكن كذا .
ش : هذا الأثر رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ولفظه
كما في « الدر » لولا فلان أصابني كذا وكذا ، ولولا فلان لم أصب
كذا وكذا . وعون هذا هو ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي
أبو عبد الله الكوفي ثقة عابد مات قبل سنة عشرين ومائة .

قوله : لولا فلان إلى آخره . قال ابن القيم ما معناه : هذا يتضمن قطع إضافة النعمة عن من لولاه لم تكن ، وإضافتها إلى من لم يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره ، وغايته أن يكون جزءاً من أجزاء السبب أجرى الله نعمته على يده ، والسبب لا يستقل بالإنجاد وجعله سبباً هو من نعم الله عليه . فهو المنعم بذلك النعمة ، وهو المنعم بما جعله من أسبابها ، فالسبب والمسبب من إنعامه ، وهو تعالى كما أنه قد ينعم بذلك السبب ، فقد ينعم بدونه ولا يكون له أثر ، وقد يسلبه سببته ، وقد يجعل لها معارضاً يقاومها ، وقد يرتب على السبب ضد مقتضاه ، فهو وحده المنعم على الحقيقة .

قال : وقال ابن قتيبة : يقولون هذا بشفاعة آلهتنا .

ش : ابن قتيبة هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الديلمي الحافظ ، صاحب التفسير والمعارف وغيرها . وثقه الخطيب وغيره ، مات سنة سبع وستين ومائتين . أو قبلها .

قوله : يقولون هذا بشفاعة آلهتنا قال ابن القيم : هذا يتضمن الشرك مع إضافة النعمة إلى غير وليها ، فالآله التي تعبد من دون الله أحقر وأذل من أن تشفع عند الله ، وهي محضرة في الهوان والعذاب مع عابديها وأقرب الخلق إلى الله ، وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاء ؛ فالشفاعة بإذنه من نعمه ، فهو المنعم بالشفاعة ، وهو المنعم بقبولها ، وهو المنعم بتأهيل المشفوع له ، إذ ليس كل أحد أهلاً أن يشفع له . فمن المنعم على الحقيقة سواه ؟ قال تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله) [النحل : ٥٤] فالعبد لا خروج له عن نعمة الله

وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا
ذم سبحانه وتعالى من آتاه شيئاً من نعمه فقال : (إنما أوتيته على علم
عندي) [القصص : ٧٩] .

قال المصنف : وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي
فيه أن الله تعالى قال : « أصبح من عبّادي مؤمن بي وكافر »
الحديث . وقد تقدم وهذا كثير في الكتاب والسنة ، يذم سبحانه
من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به . قال بعض السلف : هو
كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقاً ، ونحو ذلك مما هو
جار على ألسنة كثير .

ش : قوله : وقال أبو العباس : هو شيخ الإسلام ابن تيمية
رحمه الله .

قوله : قال بعض السلف : لم أقف على تسمية هذا البعض .

قوله : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقاً ، الملاح : هو سائس السفينة .
والمعنى أن السفن إذا جرين بريح طيبة بأمر الله جرياً حسناً نسبوا ذلك
إلى طيب الريح ، وحذق الملاح في سياسة السفينة ، ونسوا ربهم الذي
أجرى لهم الفلك في البحر رحمة بهم كما قال تعالى : (ربكم الذي يزجي
لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً) [الامراء :
٦٧] فيكون نسبة ذلك إلى طيب الريح وحذق الملاح من جنس نسبة
المطر إلى الأنواء . وإن كان المتكلم بذلك لم يقصد أن الريح والملاح
هو الفاعل لذلك من دون خلق الله وأمره وإنما أراد أنه سبب . لكن
لا ينبغي أن يضيف ذلك إلا وحده ، إلى الله لأن غاية الأمر في ذلك

أن يكون الريح والملاح سبباً ، أو جزء سبب . ولو شاء الرب تبارك وتعالى لسلبه سببته ، فلم يكن سبباً أصلاً . فلا يليق بالمنعم عليه المطلوب منه الشكر أن ينسى من بيده الخير كله وهو على كل شيء قدير ، ويضيف النعم إلى غيره ، بل يذكرها مضافة منسوبة إلى مولاه والمنعم بها ، وهو المنعم على الإطلاق كما قال تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله) [النحل : ٥٤] فهو المنعم بجميع النعم في الدنيا والآخرة وحده لا شريك له . فإن ذلك من شكرها ، وضده من إنكارها . ولا ينافي ذلك الدعاء والإحسان إلى من كان سبباً أو جزء سبب في بعض ما يصل إليك من النعم من الخلق . قال المصنف : وفيه اجتماع الضدين في القلب .

باب

قول الله : (فلا تجعلوا لله أنداداً وألتم تعلمون) [البقرة : ٢٢٣]
اعلم أن من تحقيق التوحيد الاحتراز من الشرك بالله في الألفاظ ، وإن لم يقصد المتكلم بها معنى لا يجوز ، بل ربما تجري على لسانه من غير قصد ، كمن يجري على لسانه اللفاظ من أنواع الشرك الأصغر لا يقصدها .

فإن قيل : الآية نزلت في الأكبر .

قيل : السلف يحتجون بما أنزل في الأكبر على الأصغر ، كما فسرهما ابن عباس ، وغيره فيما ذكره المصنف عنه بأنواع من الشرك الأصغر ، وفسرها أيضاً بالشرك الأكبر ، وفسرها غيره بشرط الطاعة ، وذلك لأن الكل شرك . ومعنى الآية : أن الله تبارك وتعالى نهى الناس أن يجعلوا له أنداداً ، أي : أمثالاً في العبادة والطاعة ، وهم يعلمون إن الذي فعل

تلك الأفعال ، فهو ربههم وخالقهم ، وخالق من قبلهم ، وجاعل على الأرض فراشاً ، والسماء بناءً ، والذي أنزل من السماء ماء فأخرج به من أنواع الثمرات رزقاً لهم . فإذا كنتم تعلمون ذلك فلا تجعلوا له أنداداً . قال ابن القيم : فتأمل هذه ، وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها ، وظفر العقل بها بأول وهلة ، وخلوصها من كل شبهة وريب وقادح إذا كانت الله وحده هو الذي فعل هذه الأفعال ، فكيف تجعلون له أنداداً وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله ؟ ١٩ .

قال المصنف : قال ابن عباس في الآية : الأنداد هو الشرك أخفى من ديب النمل على صفة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلانة ، وحياتي . وتقول : لولا كلبه هذا لأتانا المصوص ، ولولا البط في الدار لأتى المصوص . وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها « فلان » هذا كله به شرك رواه ابن أبي حاتم .

ش : هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم ، كما قال المصنف وسنده جيد . قوله : هو الشرك أخفى من ديب النمل إلى آخره أي : إن هذه الأمور من الشرك خفية في الناس ، لا يكاد يتفطن لها ولا يعرفها إلا القليل ، وضرب المثل لحفائها بما هو أخفى شيء وهو أثر النمل ، فإنه خفي ، فكيف إذا كان على صفة ؟ فكيف إذا كانت سوداء ، فكيف إذا كانت في ظلمة الليل ؟ وهذا يدل على شدة خفائه على من يدعي الإسلام ، وعسر التخلص منه ، ولهذا جاء في حديث أبي موسى قال : خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « أيها الناس اتقوا هذا الشرك ،

فإنه أخفى من ديبب النمل ، فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من ديبب النمل بإرسول الله ؟ قال : « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه » رواه أحمد والطبراني .

قوله : وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلانة وحياتي ، أي : إن من الحلف بغير الله ، الحلف بحياة المخلوق وميأتي الكلام عليه .
قوله : وتقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص أي : السراق . والمعنى أن من الشرك نسبة عدم السرقة إلى الكلبة التي إذا رأت السراق نبهتهم ، فاستيقظ أهلها وهرب السراق . وربما امتنعوا من إتيان المثل الذي هم فيه خوفاً من نباحها ، فيعلم بهم أهلها كما روى ابن أبي الدنيا في « الصمت » عن ابن عباس قال : إن أحدهم ليـشـرك حقـي يشرك بكلبه يقول : لولاه لسرقنا الليلة .

قوله : ولولا البط في الدار لأتى اللصوص . البط بفتح الموحدة : طائر معروف يتخذ في البيوت ، وإذا دخلها غريب صاح^(١) واستنكره ، وهو الإرز بكسر الهمزة وفتح الواو ومعناها كالذي قبله . والواجب نسبة ذلك إلى الله تعالى ، فهو الذي يحفظ عباده ويكلؤهم بالليل والنهار كما قال تعالى : (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون) [الأنبياء : ٤٣] .

قوله : وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله .

قوله : وقول الرجل : لولا الله وفلان لا نجعل فيها « فلان » هكذا

(١) في الطبعة السابقة : صلح .

ثبت بخط المصنف بلا توين ، والمعنى : لا تجعل فيها أي : في هذه الكلمة فلاناً فتقول : لولا الله وفلان ، بل قل : لولا الله وحده ، ولا تقل : لولا الله وفلان فهو نهي عن ذلك .

قوله : هذا كله به . أي : بالله شرك ، وأعاد الضمير على الله ، لأنه قد تقدم ذكر اسمه عز وجل ، فتبين أن هذه الأمور ونحوها من الألفاظ الشركية الخفية كما نص عليه ابن عباس رضي الله عنه .

قال : وعن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » رواه الترمذي وحسنه ، وصححه الحاكم .

ش : قوله : عن عمر بن الخطاب . هكذا وقع في الكتاب ، وصوابه عن ابن عمر كذلك أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والحاكم . وصححه ابن حبان . وقال الزين العراقي في « أماليه » إسناده ثقات .

قوله : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » قال بعضهم ما معناه : رواه الترمذي بأو التي للشك ، وفي ابن حبان والحاكم عدمها . وفي رواية للحاكم « كل من يحلف بها دون الله شرك » وفي « الصحيحين » من حديث ابن عمر مرفوعاً « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وعن بريدة مرفوعاً « من حلف بالأمانة فليس منا » رواه أبو داود . والأحاديث في ذلك كثيرة ، وقد تقدم كلام ابن عباس في عدة ذلك من الأنداد ، وقال كعب : إنكم تشركون في قول الرجل : كلا وأبيك ، كلا والكعبة ، كلا وحياتك ، وأشباه

هذا ، احلف بالله صادقاً أو كاذباً ، ولا تحلف بغيره . رواه ابن أبي الدنيا .
في « الصمت » . وأجمع العلماء على أن اليمين لا تكون إلا بالله ، أو
بصفاته ، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره . قال ابن عبد البر : لا يجوز
الحلف بغير الله بالاجماع . انتهى ولا اعتبار بمن قال من المتأخرين : إن
ذلك على سبيل كراهة التنزيه ، فإن هذا قول باطل . وكيف يقال ذلك
لما أطلق عليه الرسول ﷺ أنه كفر أو شرك ، بن ذلك عزم . ولهذا
اختار ابن مسعود رضي الله عنه أن يحلف بالله كاذباً ، ولا يحلف بغيره
صادقاً . فهذا يدل على أن الحلف بغير الله أكبر من الكذب . مع أن
الكذب من المحرمات في جميع الملل فدل ذلك أن الحلف بغير الله من
أكبر المحرمات .

فإن قيل : إن الله تعالى أقسم بالخلق في القرآن .

قيل : ذلك يختص بالله تبارك وتعالى ، فهو يقسم بما شاء من خلقه ،
لما في ذلك من الدلالة على قدرة الرب ووحدانيته ، وإلهيته وعلمه وحكمته
وغير ذلك من صفات كماله . وأما المخلوق فلا يقسم إلا بالخالق تعالى ،
فإنه تعالى يقسم بما يشاء من خلقه . وقد نهانا عن الحلف بغيره فيجب
على العبد التسليم والإذعان لما جاء من عند الله . قال الشعبي : الخالق
يقسم بما شاء من خلقه والمخلوق لا يقسم إلا بالخالق ، قال : ولأن أقسم
بالله فأحنت أحب إلي من أن أقسم بغيره فأبر . وقال مطرف بن عبد الله :
إنما أقسم الله بهذه الأشياء ليعجب بها المخلوقين ، ويعرفهم قدرته لعظم شأنها
عندهم ، ولدلائها على خالقها ، ذكرهما ابن جرير .

فان قيل : قد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال للأعرابي الذي سأله عن أمور الاسلام فأخبره ، فقال النبي ﷺ : « أفلح وأبيه إن صدق » رواه البخاري ، وقال للذي سأله : أي الصدقة أفضل « أما وأبيك لتنبأنه » رواه مسلم ونحو ذلك من الأحاديث .

قيل : ذكر العلماء عن ذلك أجوبة . .

أحدها : ما قاله ابن عبد البر في قوله : « أفلح وأبيه إن صدق » . هذه اللفظة غير محفوظة ، وقد جاءت عن راويها إسماعيل بن جعفر « أفلح والله إن صدق » قال : وهذا أولى من رواية من روى عنه بلفظ « أفلح وأبيه » لأنها لفظة منكورة ترددها الآثار الصحاح ، ولم تقع في رواية مالك أصلاً ، وزعم بعضهم أن بعض الرواة عنه ضعف قوله : « وأبيه » من قوله : « والله » انتهى . وهذا جواب عن هذا الحديث الواحد فقط ولا يمكن أن يجاب به عن غيره .

الثاني : أن هذا اللفظ كان يجري على ألسنتهم من غير قصد للقسم به ، والنهي إنما ورد في حق من قصد حقيقة الحلف ذكره البيهقي وقال النووي : إنه المرضي .

قلت : هذا جواب فاسد ، بل أحاديث النهي عامة مطلقة ليس فيها تفريق بين من قصد القسم وبين من لم يقصد ، ويؤيد ذلك أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حلف مرة باللات والعزى ، ويبعد أن يكون أراد حقيقة الحلف بها ، ولكنه جرى على لسانه من غير قصد على ما كانوا يعتادونه قبل ذلك ، ومع هذا نهى النبي ﷺ . غاية ما يقال : أن من جرى ذلك على لسانه من غير قصد معفو عنه ، أما أن يكون ذلك أمراً

جائزاً للمسلم أن يعتاده فكلاً . وأيضاً فهذا يحتاج إلى نقل ذلك كات
يجري على ألسنتهم من غير قصد للتسم ، وأن النهي إنما ورد في حق من
قصد حقيقة الحلف وأنى يوجد ذلك ؟ .

الثالث : أن مثل ذلك يقصد به التأكيد لا التعظيم ، وإنما وقع النهي
هما يقصد به التعظيم .

قلت : وهذا أفسد من الذي قبله ، وكان من قال ذلك لم يتصور
ما قال ، فهل يراد بالحلف إلا تأكيد المحلوف عليه بذكر من يعظمه الحالف
والمحلوف له ؟ فتأكيد المحلوف عليه بذكر المحلوف به مستأنز لتعظيمه .
وأيضاً فالأحاديث مطلقة ليس فيها تفريق ، وأيضاً فهذا يحتاج إلى نقل
أن ذلك جائز للتأكيد دون التعظيم وذلك معلوم .

الرابع : أن هذا كان في أول الأمر ثم نسخ ، لما جاء من الأحاديث
فيه ذكر شيء من الحلف بغير الله فهو قبل النسخ ، ثم نسخ ذلك ونهى
عن الحلف بغير الله . وهذا الجواب ذكره الماوردي . قال السهيلي :
أكثر الشراح عليه ، حتى قال ابن العربي : روي أنه ﷺ كان يحلف
بأبيه حتى نهى عن ذلك قال السهيلي : ولا يصح ذلك ، وكذلك قال
غيرهم . وهذا الجواب هو الحق ، يؤيده أن ذلك كان مستغلاً شائعاً .
حتى ورد النهي عن ذلك كما في حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم
أدرك عمر بن الخطاب يسير في ركب يحلف بأبيه فقال : « ألا إن الله
يهاكم أن تحلفوا بأبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .
رواه البخاري ، ومسلم . وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله » ، وكانت قريش تحلف بأبائهم فقال :

« ولا تحلفوا بآبائكم » ، رواه مسلم . وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : حلفت مرة باللات والعزى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ثم انفت عن يسارك ثلاثاً وتعوذ ولا تعد » . رواه النسائي ، وابن ماجه ، وهذا لفظه . وفي هذا المعنى أحاديث ، فما ورد فيه ذكر الحلف بغير الله ، فهو جار على العادة قبل النهي ، لأن ذلك هو الأصل حتى ورد النهي عن ذلك .

وقوله : « فقد كفر أو أشرك » أخذ به طائفة من العلماء فقالوا : يكفر من حلف بغير الله كفر شرك ، قالوا : ولهذا أمره النبي ﷺ بتجديد إسلامه بقول : لا إله إلا الله . فلولا أنه كفر ينقل عن الملة لم يؤمر بذلك . وقال الجمهور : لا يكفر كفراً ينقله عن الملة ، لكنه من الشرك الأصغر كما نص على ذلك ابن عباس وغيره ، وأما كونه أمر من حلف باللات والعزى أن يقول : لا إله إلا الله ، فلأن هذا كفارة له مع استغفاره كما قال في الحديث الصحيح : « ومن حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل : لا إله إلا الله » وفي رواية « فليستغفر » فهذا كفارة له في كونه تعاطى صورة تعظيم الصنم ، حيث حلف به لا أنه لتجديد إسلامه ، ولو قدر ذلك فهو تجديد لإسلامه لنقصه بذلك لا لكفره لكن الذي يفعله عباد القبور إذا طلبت من أحدهم اليمين بالله ، أعطاك ما سئلت من الأيمان صادقاً أو كاذباً . فإذا طلبت منه اليمين بالشيخ أو تربته أو حياته ، ونحو ذلك ، لم يقدم على اليمين به إن كان كاذباً . فهذا شرك أكبر بلا ريب ، لأن المحلوف به عنده أخوف وأجل وأعظم من الله . وهذا ما بلغ إليه شرك عباد الأصنام ، لأن جهد اليمين عندهم

هو الحلف بالله كما قال تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يوت) [النحل : ٣٨] فمن كان جهد يمينه الحلف بالشيخ أو بحياته ، أو تربته فهو أكبر شركاً منهم ، فهذا هو تفصيل القول في هذه المسألة . والحديث دليل على أنه لا تجب الكفارة بالحلف بغير الله مطلقاً ، لأنه لم يذكر فيه كفارة للحلف بغير الله ولا في غيره من الأحاديث ، فليس فيه كفارة إلا النطق بكلمة التوحيد ، والاستغفار . وقال بعض المتأخرين : تجب الكفارة بالحلف برسول الله ﷺ خاصة ، وهذا قول باطل ما أنزل الله به من سلطان ، فلا يلتفت إليه وجوابه المنع .

قال المصنف : وقال ابن مسعود : لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً .

ش : هكذا ذكر المصنف هذا الأثر عن ابن مسعود ولم يعزه . وقد ذكره ابن جرير بغير سند أيضاً . قال : وقد جاء عن ابن عباس وابن عمر نحوه ، ورواه الطبراني بإسناد موقوفاً هكذا . قال المنذري : ورواه رواية الصحيح .

قوله : لأن أحلف بالله إلى آخره . « أن » هي المصدرية ، والفعل بعدها منصوب في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء . « أحب » خبره ، ومعناه ظاهر . وإنما رجع ابن مسعود رضي الله عنه الحلف بالله كاذباً على الحلف بغيره صادقاً ، لأن الحلف بالله توحيد ، والحلف بغيره شرك ، وإن قدر الصدق في الحلف بغير الله فحسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق ، وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك . ذكره شيخ الإسلام . وفيه دليل على أن الحلف بغير الله صادقاً أعظم من اليمين الغموس ، وفيه

دليل على أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر ، وفيه شاهد للقاعدة المشهورة وهي : ارتكاب أقل الشرين ضرراً إذا كان لا بد من أحدهما . قال : وعن حذيفة عن النبي ﷺ قال : « لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان » . رواه أبو داود بسند صحيح .

ش : هذا الحديث رواه أبو داود ، كما قال المصنف ، ورواه أحمد وابن أبي شبة ، والنسائي ، وابن ماجه ، والبيهقي وله علة وله شواهد ، وهو صحيح المعنى بلاريب . وسيأتي الكلام على معناه في باب ما شاء الله وثبت إن شاء الله .

قال : وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك ، ويمحوز أن يقول : بالله ثم بك . قال : ويقول : لولا الله ثم فلان ، ولا تقولوا : لولا الله وفلان .

هذا الأثر رواه المصنف غير معزو ، وقد رواه عبد الرزاق ، وابن أبي الدنيا في كتاب « الصمت » عن مغيرة قال : كان إبراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك ، ويرخص أن يقول : أعوذ بالله ثم بك ، ويكره أن يقول : لولا الله وفلان ، ويرخص أن يقول : لولا الله ثم فلان . لفظ ابن أبي الدنيا . وذلك - والله أعلم - لأن الواو تقتضي مطلق الجمع ، فمنع منها للجمع ، لئلا توهم الجمع بين الله وبين غيره ، كما منع من جمع اسم الله ، واسم رسوله في ضمير واحد . و« ثم » انما تقتضي الترتيب فقط ، فجاز ذلك لعدم المانع ، ومطابقة الحديثين والأثرين للترجمة ظاهرة على ما فسر به ابن عباس رضي الله عنه الآية .

باب

ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

أي : من الوعيد ؛ لأن ذلك يدل على قلة تعظيمه لجناب الربوبية ،
إذ القلب الممتلئ بمعرفة عظمة الله وجلاله وعزته وكبرياله لا يفعل ذلك .
قال : عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« لا تحلفوا بآبائكم ، من حلف بالله فليصدق ، ومن حلف له بالله فليرض
ومن لم يرض فليس من الله » رواه ابن ماجة بسند حسن .

ش : هذا الحديث رواه ابن ماجة في « سننه » وترجم عليه من « حلف
له بالله فليرض » حدثنا محمد بن اسماعيل بن ميمونة ، ثنا أسباط بن محمد عن
محمد بن عجلان ، عن نافع عن ابن عمر قال : سمع النبي ﷺ رجلاً يحلف بأبيه
فقال : « لا تحلفوا بآبائكم » الحديث . وهذا إسناد جيد على شرط مسلم
عند الحاكم وغيره ، فإنه متصل ورواته ثقات ، بل قد روى مسلم عن
ابن عجلان عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يأتي قباء راصباً
وماشياً ، وأصل هذا الحديث في « الصحيحين » عن ابن عمر بلفظ « لا تحلفوا
بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله وليصمت » وليس فيه هذه الزيادة .
قوله : « لا تحلفوا بآبائكم » تقدم ما يتعلق به في الباب قبله .

قوله : « من حلف بالله فليصدق ، أي : وجوباً ؛ لأن الصدق واجب ،
ولو لم يحلف بالله فكيف اذا حلف به ؟ وأيضاً فالكذب حرام لو لم يؤكد
الخبر باسم الله فكيف إذا أكد باسم الله ؟

قوله : « ومن حلف له بالله فليرض ، أي : وجوباً كما يدل عليه قوله :

« ومن لم يرض فليس من الله » ولفظ ابن ماجة « ومن لم يرض بالله فليس من الله » وهذا وعيد كقوله تعالى : (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) [آل عمران : ٢٨] قال ابن كثير : أي : فقد برىء من الله ، وهذا عام في الدعاوي وغيرها ، ما لم يفض إلى إلغاء حكم شرعي كمن تشهد عليه البيعة الشرعية ، فيحلف على تكذيبها فلا يقبل حلفه ، ولهذا لما رأى عيسى عليه السلام رجلاً يسرق فقال له : سرقت قال : كلا والله الذي لا إله إلا هو ، فقال عيسى : آمنت بالله وكذبت عيني . رواه البخاري وفيه وجهان .

أحدهما : قال القرطبي : ظاهر قول عيسى عليه السلام للرجل سرقت أنه خبر جازم ، لكونه أخذ مالا من حوز في خفية ، وقول الرجل : كلا نفي لذلك ، ثم أكده باليمين . وقول عيسى : آمنت بالله وكذبت عيني أي : صدقت من حلف بالله ، وكذبت ما ظهر لي من كون الأخذ سرقة ، فإنه يحتمل أن يكون الرجل أخذ ماله فيه حق ، أو ما أذن له صاحبه في أخذه ، أو أخذه لقلبه ، وينظر فيه ولم يقصد الغصب والاستيلاء .

قلت : وهذا فيه نظر وصدر الحديث يردده وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم : « رأى عيسى رجلاً يسرق ، فأثبت صلى الله عليه وسلم سرقة » . الثاني : ما قاله ابن القيم : إن الله تعالى كان في قلبه أجل من أن يحلف به أحد كاذباً . فدار الأمر بين تهمة الخالف ، وتهمة بصره ، فورد التهمة إلى بصره ، كما ظن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له أنه ناصح . قلت : هذا القول أحسن من الأول وهو الصواب إن شاء الله تعالى . وحدثت عن المصنف أنه حمل حديث الباب على اليمين في الدعاوي ،

كمن يتعاجل عند الحاكم فيحكم على خصمه باليمين ، فيعلف فيجب عليه
أن يرضى .

باب

قول : ما شاء الله وشئت

أي ما حكم التكلم بذلك ، هل يجوز أم لا ؟ وإذا قلنا : لا يجوز
فهل هو من الشرك أم لا ؟

قال : عن قتيلة أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال : إنكم تشركون
تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة فأمرهم النبي ﷺ
إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : « ورب الكعبة » وأن يقولوا ما شاء
الله ثم شئت « رواه النسائي وصححه .

ش : هذا الحديث رواه النسائي في « السنن » و « اليوم والليلة » وهذا
لفظه في « اليوم والليلة » أخبرنا يوسف بن عيسى قال : ثنا الفضل بن موسى
قال : أنا مسعر عن معبد بن خالد ، عن عبد الله بن يسار ، عن قتيلة امرأة
من جبهة أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال : إنكم تنددون وتشركون
تقولون : ما شاء الله وشئت وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبي عليه السلام
إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : « ورب الكعبة » ويقول أحدكم :
ما شاء الله ثم شئت ، ورواه عن أحمد بن حنبل حدثني أبي ، حدثني إبراهيم
بن طهان ، عن مغيرة عن معبد بن خالد عن قتيلة امرأة من جبهة
قالت : دخلت يهودية على عائشة فقالت : إنكم تشركون وساق الحديث ،
ولم يذكر عبد الله بن يسار ، والمشهور ذكره ، وقد رواه ابن سعد ،
والطبراني ، وابن منده ، وأشار ابن سعد إلى أنها ليس لها غيره .

قوله : عن قتيلة ، هو بضم القاف وفتح التاء بعدها مثناة تحية مصغراً
بنبت صيفي الجهنية ، أو الأنصارية صحابية .

قوله : إنكم تشركون تقولون : ما شاء الله وشئت . هذا نص في أن
هذا اللفظ من الشرك ، لأن النبي ﷺ أقر اليهودي على تسمية هذا اللفظ
تنديداً أو شركاً . ونهى النبي ﷺ عن ذلك ، وأرشد إلى استعمال اللفظ
البعيد من الشرك . وقول : ما شاء الله ثم شئت ، وإن كان الأولى قول :
ما شاء الله وحده ، كما يدل عليه حديث ابن عباس وغيره ، وعلى النهي عن
قول : ما شاء الله وشئت جمهور العلماء ، إلا أنه حكى عن أبي جعفر الداودي
ما يقتضي جواز ذلك احتجاجاً بقوله تعالى : (وما نعموا إلا أن أغناهم الله
ورسوله من فضله) [التوبة : ٧٤] وقوله : (وإذ تقول للذي أنعم الله
عليه وأنعمت عليه) [الأحزاب : ٣٧] ونحو ذلك . والصواب القول
الأول ، فإن النبي ﷺ أنكر ذلك وقال لمن قال له ذلك : أجعلني لله نداً .
وأقر اليهودي على تسميته تنديداً وشركاً ، ومن المحال أن يكون هذا
أمراً جائزاً . وأما ما احتج من القرآن ، فقد ذكروا عن ذلك جوايين :
أحدهما : ان ذلك لله وحده ، لا شريك له ، كما أنه تعالى يقسم بما شاء
من مخلوقاته فكذلك هذا .

الثاني : أن قوله : ما شاء الله وشئت تشريك في مشيئة الله ، وأما
الآية فإنما أخبر بها عن فعلين متغايرين ، فأخبر تعالى أنه أغناهم وأمر
رسوله أغناهم . وهو من الله حقيقة ، لأنه الذي قدر ذلك ، ومن الرسول
ﷺ حقيقة باعتبار تعاطي الفعل ، وكذا الإنعام أنعم الله على زيد بالإسلام ،
والنبي ﷺ أنعم عليه بالعتق ، وهذا بخلاف المشاركة في الفعل الواحد ،

فالكلام إنما هو فيه ، والمنع إنما هو منه . فإن قلت : قد ذكر النعاة أن « ثم » تقتضي اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم كالواو فلم جاز ذلك بثم ؟ ومنع منه الواو . وغاية ما يقال : إن « ثم » تقتضي الترتيب بخلاف الواو ، فإنها تقتضي مطلق الجمع ، وهذا لا يغير صورة الاشتراك قبل النهي عن ذلك ، إنما هو إذا أتى بصورة التشريك جميعاً ، وهذا لا يحصل إلا بالواو بخلاف ثم ، فإنها لا تقتضي الجمع ، إنما تقتضي الترتيب ، فإذا أتى بها زالت صورة التشريك والجمع في اللفظ . وأما المعنى ، فله تعالى ما يختص به من المشيئة ، والمخلوق ما يختص به ، فلو أتى بثم وأراد أنه شريك لله تعالى في المشيئة كالولا الله ثم فلان ، مثلاً لم يوجد ذلك فالنهي باق بحاله ، بل يكون في هذه الصورة أشد من أتى بالواو مع عدم هذا الاعتقاد . ويشبه ذلك الجمع بين اسم الله واسم غيره في ضمير واحد ، ولهذا أنكره النبي ﷺ على الخطيب قال : ومن يعصها فقد غوى ، فقال له : « بئس الخطيب أنت » .

قوله : فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : « ورب الكعبة » ، تقدم ما يتعلق بالحلف بغير الله قريباً .

وفي الحديث من القوائد معرفة اليهود بالشرك الأصغر ، وكثير من يدعي الإسلام لا يعرف الشرك الأكبر ، بل يصرف خالص العبادات من الدعاء والذبيح ، والنذر لغير الله ويظن أن ذلك من دين الإسلام ، فعلمت أن اليهود في ذلك الوقت أحسن حالاً ومعرفة منهم . وفيه نهي الإنسان إذا كان له هوى كما نهى عليه المصنف ، وأن المعرفة بالحق لا تستلزم الإيمان ولا العمل ، وقبول الحق من جاء به ، وإن كان عدواً

مخالفاً في الدين ، وان الحلف بغير الله من الشرك الأصغر لا يبرق به .
الإنسان من الإسلام .

قال : وله أيضاً عن ابن عباس أن رجلاً قال للنبي ﷺ ما شاء
وشئت . قال : « أ جعلتني لله نداً ما شاء الله وحده » .

ش : هذا الحديث رواه النسائي ، كما قال المصنف لكن في « اليوم
والليلة » وهذا لفظه . أخبرنا علي بن خشرم عن عيسى ، عن الأجلح
عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، فكلّمه في
بعض الأمر فقال : ما شاء وشئت فقال النبي ﷺ : « أ جعلتني لله عدلاً ؟
قل : ما شاء الله وحده » . ورواه ابن ماجه في الكفارات من « السنن »
عن هشام بن عمار ، عن عيسى نحوه . ولفظه « إذا حلف أحدكم فلا يقل :
ما شاء الله وشئت » الحديث وقد تابع عيسى على هذا الحديث سفيان
الثوري ، وعبد الرحمن وجعفر بن عون عن الأجلح وكلهم
ثقات . وخالفهم القاسم بن مالك وهو ثقة فرواه عن الأجلح ، عن أبي
الزبير عن جابر ، والأول أرجح . ويحتمل أن يكون عن الأجلح
عنهما جميعاً .

قوله : « أ جعلتني لله ندا » هذه رواية ابن مردويه ، والرواية عند
النسائي وابن ماجه « أ جعلتني لله عدلاً » والمعنى واحد . قال ابن القيم :
ومن ذلك أي : من الشرك بالله في الألفاظ قول القائل المخلوق : ما شاء
الله وشئت ، كما ثبت عن النبي ﷺ ، أنه قال له رجل : ما شاء الله
وشئت ، وذكر الحديث المشروح . ثم قال : هذا مع أن الله قد أثبت
للعبد مشيئة . لقوله : (لمن شاء منكم أن يستقيم) [التكوير : ٣٨]

فكيف بن يقول : أنا متوكل على الله وعليك ، وأنا في حسب الله وحسبك ، ومالي إلا الله وأنت ، وهذا من الله ومنك ، وهذا من بركات الله وبركاتك ، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض . والله وحياة فلان أو يقول : نذراً لله ولفلان ، وأنا نائب لله ولفلان ، وأرجو الله ولفلانا . فوازن بين هذه الألفاظ ، وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت ، ثم انظر أيها أفحش . يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبي ﷺ لقائل قد بك الكلمة ، وأنه إذا كان قد جعله ندأ بها ، فهذا قد جعل من لا بداني رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء ، بل لعله أن يكون من أعدائه ندأ لرب العالمين . فالسجود ، والعبادة ، والتوكل ، والابانة ، والتقوى ، والخشية ، والتوبة ، والنذر ، والخلق ، والتسبيح ، والتكبير ، والتهليل ، والتحميد ، والاستغفار ، وحق الرأس خضوعاً وتعبداً ، والطواف بالبيت والدعاء ، كل ذلك محض حق لله الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه ، من ملك مقرب ولا نبي مرسل . وفي « مسند » الإمام أحمد أن رجلاً أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، قد أذنب فلما وقف بين يديه قال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال : « عرف الحق لأهله » .

قلت : إذا كان هذا كلامه صلى الله عليه وسلم إن قال له : ما شاء الله وشئت فكيف بن يقول فيه ؟

فإن من جودك الدنيا وضررها ومن علومك علم اللوح والقلم ويقول في همزته :

هذه علتي وأنت طيبي ليس يخفى عليك في القلب داء
وأشبه هذا من الكفر الصريح .

قال : ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال : رأيت
كأني أُنَجِّتُ على نفر من اليهود قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم
تقولون : عزيز بن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون :
ما شاء الله ، وشاء محمد . ثم مررت بنفر من النصارى فقلت : إنكم
لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله ، قالوا : وإنكم
لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد . فلما أصبحت
أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته قال : هل أخبرت
بها أحداً ؟ قلت : نعم قال : فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما
بعد فان طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وإنكم قلتم : كلمة
كان ينبغي كذا وكذا أن أنهارم عنها فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء
محمد ولكن قولوا : ما شاء الله وحده » .

ش : هذا الحديث لم يروه ابن ماجه بهذا اللفظ عن الطفيل ، إنما
رواه عن حذيفة ولفظه : حدثنا هشام بن عمار ثنا سفيان بن عيينة عن
عبد الملك بن عمير ، عن ربعي بن حراش ، عن حذيفة بن اليمان أن
رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلاً من أهل الكتاب فقال :
نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون ، تقولون : ما شاء الله وشاء محمد ،
وذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال : « أما والله إن كنت لأعرفها لكم
قولوا : ما شاء الله ثم شاء محمد ، » ورواه أحمد والنسائي بنحوه . وفي
رواية للنسائي أن الراوي لذلك هو حذيفة نفسه . هذه رواية ابن عيينة ،
ثم ذكر ابن ماجه حديث الطفيل هذا فساق إسناده ولم يذكر اللفظ .
فقال : حدثنا ابن أبي الشوارب ، ثنا ابن عوانة عن عبد الملك ، عن

ربيعي بن حراش ، عن الطفيل بن سخبرة أخيه عائشة لأُمها ، عن النبي ﷺ بنحوه ، هذا لفظ ابن ماجة . وهكذا رواه حماد بن سامة وشعبة وابن إدريس عن عبد الملك ، فقالوا : عن الطفيل وهو الذي رجحه الحفاظ ، وقالوا : ابن عينة وهم في قوله : عن حذيفة فقد تبين أن هذا الحديث المذكور لم يروه ابن ماجة بهذا اللفظ ، لكن رواه أحمد والطبراني بنحو مما ذكره المصنف .

قوله : عن الطفيل هو ابن سخبرة وفي حديثه هذا أنه أخو عائشة لأُمها ، وكذا قال الحارثي . وقال : الذي عندي أن الحارث بن سخبرة قدم مكة ، فحالف (١) أبا بكر فهاث ، فخلف أبو بكر على أم رومان فولدت له عبد الرحمن وعائشة ، وكان لها من الحارث الطفيل بن الحارث ، وهو أخو عائشة لأُمها . وقيل غير ذلك . وهو صحابي ليس له إلا هذا الحديث قال البخاري : لا أعلم له غيره .

قوله : رأيت فيما يرى النائم . كما روى أحمد ، والطبراني .

قوله : على نفر من اليهود وفي رواية أحمد ، والطبراني ، . -تجاني مررت برهط من اليهود فقلت : من أنتم فقالوا : نحن اليهود . والنفر رهط الانسان وعشيرته ، وهو اسم جمع يقع على جماعة من الرجب . ال خاصة ، ما بين الثلاثة إلى العشرة ، ولا واحد له من لفظه . قاله أبو السحاب .

قوله : فقلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : عزيز ابن أمه أي : نعم القوم أنتم لولا ما أنتم عليه من الشرك ، والمسبة به بنسبة الولد إليه وهذا لفظ الطبراني ، ولفظ أحمد قال : أنتم القوم .

قوله : قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله

(١) في الطبعة السابقة : فخالف وهو تصحيح .

وشاء محمد . عارضوه بذكر شيء مما في المسلمين من الشرك الأصغر فقالوا له : هَذَا الْكَلَامُ ، أَي : نعم القوم أنتم لولا ما فيكم من الشرك ، وكذلك جرى له مع النصارى .

قوله : فلما أصبحت أخبرتها بها من أخبر . وفي رواية أحمد : فلما أصبح أخبر بها من أخبر ، وفي رواية الطبراني : فلما أصبحت أخبرتها بها أناساً .

قوله : ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته . فيه حسن خلقه صلى الله عليه وسلم ، وعدم احتجابه عن الناس كالمملوك بحيث إذا أراد أحد الوصول إليه أمكنه ذلك بلا كلفة ولا مشقة ، بل يصاون إليه ويقضي حاجتهم ويخبرونه بما يحتاجون إليه من أمر دينهم ودنياهم ، ويقصون عليه ما يرونه في المنام ، بل كان صلى الله عليه وسلم يعتني بالرؤيا لأنها من أقسام الوحي ، وكان إذا صلى الصبح كثيراً ما يقول : « هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ » .

قوله : فحمد الله وأثنى عليه . وفي رواية أحمد : فلما أصبحوا خطبهم فحمد الله وأثنى عليه . وفي رواية الطبراني : فلما صلى الظهر قام خطيباً . ففيه مشروعية حمد الله والثناء عليه في الخطب ، وفيه الخطبة في الأمور المهمة . وأما معنى الحمد ، فقد تقدم في باب قول الله تعالى : (أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً) [الأعراف : ١٩١] وأما الثناء فقال ابن القيم : هو تكرار الحمد .

قوله : ثم قال : أما بعد . في رواية أحمد ، والطبراني : ثم قال : إن طفيلاً رأى رؤيا ولم يذكر أما بعد . وفي رواية للطبراني : فقام نبي

الله على المنبر فقال : « إن أخاكم رأى رؤيا قد حدثكم بها رأى ، فيه مشروعية (أما بعد) في الخطب في هذا الحديث ، وإلا فلا يضر فإنها ثابتة في خطبه عليه السلام ، وفي غيره .

قوله : « وإنكم قلتم كلمة كان ينبغي كذا وكذا أن أنها لم عنها » وفي رواية أحمد ، والطبراني « وإنكم كنتم تقولون كلمة كان ينبغي الحياء منكم أن أنها لم عنها » . وهذا الحياء منهم ليس على سبيل الحياء من الإنكار عليهم ، بل كان صلى الله عليه وسلم يكرهها ويستحي أن يذكرها ، لأنه لم يأمر بإنكارها ، فلما جاء الأمر الإلهي بالرؤيا الصالحة أنكرها ، ولم يستحي في ذلك . وفيه دليل على أنها من الشرك الأصغر ، إذ لو كانت من الأكبر لأنكرها من أول مرة قالوها . وفيه ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الحياء وأنه من الأخلاق المحمودة .

قوله : « فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، واجتنب قولوا : ما شاء الله وحده » هذا على سبيل الاستحباب وإلا فيجوز أن يقول : ما شاء الله ثم شاء فلان كما تقدم . وفيه أن الرؤيا قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام كما في هذا الحديث ، وحديث لأذان ، وحديث الدعي بعد الصلوات .

باب

من سب الدهر فقد آذى الله

ش : مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة ، لأن سب الدهر يتضمن الشرك كما سيأتي بيانه . واللفظ الأذى في اللغة هو ما خلف أمره ، وضعف أثره من الشرك والمكره . ذكره الحنطلي . قال شيخ الإسلام :

وهو كما قال . وهذا بخلاف الضرر ، فقد أخبر سبحانه أن العباد لا يضرونه كما قال تعالى : (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر لئن لم ينزلوا الله شيئاً) [آل عمران : ١٧٦] فبين سبحانه أن الخلق لا يضرونه ، لكن يؤذونه إذا سبوا مقلب الأمور .

وقال وقول الله تعالى (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) [الجاثية : ٢٤] .

ش : قال ابن كثير : يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا) قال ابن جرير : أي : ما حياة إلا حياتنا التي نحن فيها ، ولا حياة سواها تكذيباً منهم بالبعث بعد الموت (نموت ونحيا) قال ابن كثير : أي : يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة . وهذا يقوله مشركوا العرب المنكرون للمعاد ، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البدأ والرجعة ، وتقوله الفلاسفة الدورية المنكرون للصانع ، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كانت عليه . فزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابرو العقول وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا : (وما يهلكنا إلا الدهر) . قال ابن جرير : أي : ما يهلكنا فيفنيها إلا مر الليالي والأيام ، وطول العمر إنكاراً منهم أن يكون لهم رب يفنيهم ويهلكهم . ثم روى بإسناد على شرط الصحيحين ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا ، فقال الله في كتابه : (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت

ونحياً) قال فيسبون الدهر فقال الله تبارك وتعالى : « يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقاب الليل والنهار » .

قوله . (وما لهم بذلك من علم) [الجاثية : ٢٤] قال ابن جرير : يعني : من يقين علم (إن هم إلا يظنون) قال ابن كثير : يتوهمون ويتخيلون .

فان قلت : فان مطابقة الآية للترجمة إذا كانت خبراً عن الدهرية المشركين ؟ .

قيل : المطابقة ظاهرة ، لأن من سب الدهر فقد شاركهم في سبه ، وإن لم يشاركهم في الاعتقاد .

قال في « الصحيح » عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : قال الله تعالى « يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقاب الليل والنهار » وفي رواية « لا تسبوا الدهر فان الدهر هو الله » .

ش : قوله : في « الصحيح » أي : « صحيح البخاري » ورواه أحمد بهذا اللفظ ، وأخرجه مسلم بلفظ آخر .

قوله : « يؤذيني ابن آدم يسب الدهر » فيه أن سب الدهر يؤذي الله تبارك وتعالى . قال الشافعي في تأويله والله أعلم : إن العرب كان من شأنها أن تدم الدهر ، وتسبه عند المصائب التي تنزل بهم ، من موت ، أو هرم ، أو تلف ، أو غير ذلك ، فيقولون : إنما يهلكنا الدهر وهو الليل والنهار ، ويقولون : أصابتهم قوارع الدهر ، وأبادهم الدهر . فيجعلون الليل والنهار يفعلان الأشياء ، فيذمون الدهر بأنه الذي يفتنيهم ، ويفعل بهم . فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا الدهر » . على أنه الذي يفتنكم

والذي يفعل بكم هذه الأشياء ، فإنكم إذا سببتم فاعل هذه الأشياء ، فإنما تسبون الله تبارك وتعالى ، فإنه فاعل هذه الأشياء . انتهى .

قلت : والظاهر أن المشركين نوعان .

أحدهما : من يعتقد أن الدهر هو الفاعل ، فيسبه لذلك . فهو لاهم الدهرية .

الثاني : من يعتقد أن المدبر للأمور هو الله وحده لا شريك له ، ولكن يسبون الدهر لما يجري عليهم فيه من المصائب والحوادث ، فيضيفون ذلك إليه من إضافة الشيء إلى محله ، لا لأنه عندهم فاعل لذلك .

والحديث صريح في النهي عن سب الدهر مطلقاً ، سواء اعتقد أنه فاعل أو لم يعتقد ذلك ، كما يقع كثيراً ممن يعتقد الإسلام .

كقول ابن المعتز :

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحداً وأنت والد سوء تأكل الولدا
وقول أبي الطيب :

قبحاً لوجهك يا زمان كأنه وجه له من كل قبح برقع
وقول الطرقي :

إن تبتلى بأشام الناس يرفعهم عليك دهر لأهل الفضل قد خافا
وقول الحريري :

ولاتأمن الدهر الحزون ومكره فكم خامل أخى عليه وثابه
ونحو ذلك كثير . وكل هذا داخل في الحديث .

قال ابن القيم : وفي هذا ثلاث مفسد عظيمة .

أحدها : سبه من ليس أهلاً للسب ، فإن الدهر خالق مسخر من خلق الله مقاد لأمره ، متذلل لتسخيره ، فسابه أولى بالذم والسب منه .

والثانية : أن سبه متضمن للشرك ، فإنه إنما سبه اظنه أنه يضر وينفع . وأنه مع ذلك ظالم قد ضر من لا يستحق العطاء ، ورفع من لا يستحق الرفعة ، وحرّم من لا يستحق الحرمان . وهو عند شأنيّه من أظلم الظلمة وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة في سبه كثيرة جداً . وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقبيحه .

الثالثة : أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتبع الحق فيها أهواءهم افسدت السموات والأرض ، وإذا وافقت أهواءهم حمدوا الدهر وأثنوا عليه ، وفي حقيقة الأمر ، قرب الدهر هو المعطي المانع الخافض الرافع المعز المذل ، والدهر ليس له من الأمر شيء ، فسبهم الدهر مسبة لله عز وجل ، ولهذا كانت مؤذبة الرب تعالى ، فسب الدهر دائر بين أمرين لا بد له من أحدهما : إما مسبة الله أو الشرك به ، فإنه إن اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك ، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك ، وهو يسب من فعله فهو يسب الله تعالى . انتهى . وأشار ابن أبي جرة^(١) إلى أن النهي عن سب الدهر تنبيه بالأعلى على الأدنى ، وأن فيه إشارة إلى ترك سب كل شيء مطلق ، إلا ما أذن الشرع فيه ، لأن العلة واحدة .

قوله : د وأنا الدهر ، قال الخطابي : معناه : أنا صاحب الدهر ، ومدير الأمور التي ينسبونها إلى الدهر ، فمن سب الدهر من أجل أنه

(١) في الطبعة السابقة . حرة وهو تصحيف .

فاعل هذه الأمور عاد سبه إلى ربه الذي هو فاعلها ، وإنما الدهر زماناً ،
جعل ظرفاً لمواقع الأمور .

قلت : ولهذا قال في الحديث : « وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب
الليل والنهار » وفي رواية لأحمد « بيدي الليل والنهار أجده وأبليه وأذهب
بالمملوك » وفي رواية « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » الأيام والليالي
أجدها وأبليها وآتي بملوك بعد ملوك ، قال الحافظ : وسنده صحيح . فقد
تبين بهذا خطأ ابن حزم في عده الدهر من أسماء الله الحسنى ، وهذا
غلط فاحش ، ولو كان كذلك لكان الذين قالوا : (وما يهلكنا إلا
الدهر) مصيبين .

قوله : وفي رواية . هذه الرواية رواها مسلم وغيره . قال المصنف :
وفيه أنه قد يكون سباً ولو لم يقصده بقلبه .

باب

التسمي بقاضي القضاة ونحوه

كأقضى القضاة ، وساحم الحكام ، أو سيد الناس ونحو ذلك . أي :
ما حكم التسمي بذلك هل يجوز أم لا ؟

قال في « الصحيح » عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن
أخنع اسم عند الله رجل يسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله » قال
سفيان : مثل شاهان شاه وفي رواية « أغبط رجل على الله وأخبطه » .
قوله : « أخنع » يعني أوضع .

ش : قوله : في « الصحيح » أي : « صحيحين » .

قوله : « إن أخنع » ذكر المصنف أن معناه : أوضع . وهذا التفسير رواه مسلم عن الامام أحمد ، عن أبي عمرو الشيباني ، قال عياض : معناه : إنه أشد الأسماء صغارا ، وبنحو ذلك فسرّه أبو عبيد . والخانع : الذليل ، وخنع الرجل : ذل . قال ابن بطال : وإذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمى به أشد ذلاً . وقد فسر الحليل أخنع . أفجر ، فقال : الخنع : الفجور . وفي رواية « أخنى الأسماء » من الخنا بفتح المعجمة وتخفيف النون مقصور ، وهو الفحش في القول . وفي رواية « اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك » رواه الطبراني .

قوله : رجل يسمى . بصيغة المجهول من التسمية ، أي : يدعى بذلك ويرضى به . وفي بعض الروايات : تسمى بفتح الفوقانية وتشديد الميم ماض معلوم من التسمي ، أي : سمي نفسه .

قوله : « ملك الأملاك » هو بكسر اللام من ملك . والأملاك جمع ملك ، ثم أكد النبي ﷺ التشديد في تحريم التسمي بذلك بقوله : « لا مالك إلا الله » فالذي تسمى بهذا الاسم قد كذب وفجر وارقى إلى ما ليس له بأهل ، بل هو حقيق برب العالمين ، فإنه الملك في الحقيقة ، ولهذا كان أذل الناس عند الله يوم القيامة . والفرق بين الملك والمالك أن المالك هو المتصرف بفعله وأمره ، ذكره ابن القيم . والذي يسمى ملك الأملاك ، أو ملك الملوك قد بانغ الغاية في الكفر والكذب . ولقد كان بعض السلاطين المساكين يفتخر بهذا الاسم وأدله الله .

قوله : قال سفيان : هو ابن عيينة تقدمت ترجمته .

قوله : مثل شاهان شاه . هو بكسر الدون والهاء في آخره ، وقد

تتون وليست هاء تأنث فلا يقال بالمتناة أصلاً ، وإنما مثل سفيان بشاهان شاه لأنه قد كثرت التسمية به في ذلك العصر ، فنه سفيان بشأن الاسم الذي ورد الخبر بزمه لا ينحصر في ملك الأملاك ، بل كل ما أدى معناه بأي لسان كان ، فهو مراد بالذم ، ذكره الحافظ . والحديث صريح في تحريم التسمي بملك الأملاك ونحوه ، كملك الملوك وسلطان السلاطين .

قال ابن القيم : لما كان الملك لله وحده لا ملك على الحقيقة سواه ، كان أخضع اسم وأوضعه عنده ، وأبغضه له اسم شاهان شاه ، أي : ملك الملوك ، وسلطان السلاطين ، فإن ذلك ليس لأحد غير الله . فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل ، والله لا يحب الباطل وقد ألحق أهل العلم بهذا قاضي القضاة وقالوا : ليس قاضي القضاة إلا من يقضي الحق وهو خير الفاصلين الذي إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . وبلي هذا الاسم في القبح والكراهة والكذب سيد الناس وسيد الكل ، وليس ذلك إلا لرسول الله ﷺ خاصة كما قال : « أنا سيد ولد آدم » فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره : هو سيد الناس . كما لا يجوز له أن يقول : أنا سيد ولد آدم عليه السلام .

وقال ابن أبي جمرة : يلتحق بملك الأملاك قاضي القضاة ، وإن كان قد اشتهر في بلاد الشرق من قديم الزمان إطلاق ذلك على كبير القضاة . وقد سلم أهل المغرب من هذا ، فامم كبير القضاة عندهم قاضي الجماعة . وقد زعم بعض المتأخرين أن التسمي بقاضي القضاة ونحوها جائز ، واستدل له بحديث « أقضاكم علي » . قال : فيستفاد منه أن لا حرج على من أطلق على قاض أن يكون أعدل القضاة ، وأعلمهم في زمانه أقضى القضاة ، أو يريد إقليبه ، أو بلده . وتعقبه العالم العراقي ، فصوب المنع ، ورد

ما احتج به بأن التفضيل في ذلك وقع في حق من خوطب به ، ومن يلتحق بهم ، فليس مساوياً لإطلاق التفضيل بالألف واللام . قال : ولا يخفى ما في ذلك من الجراءة وسوء الأدب . ولا عبرة بقول من ولي القضاة ، فنعت بذلك ، فلذ في سمعه واحتال في الجواز ، فإن الحق أحق أن يتبع .

قلت : وقد تبين بهذا مطابقة الحديث للترجمة .

قوله : وفي رواية « أغبط رجل على الله يوم القيامة وأخبته ، هذه الرواية رواها مسلم في « صحيحه » قال ابن أبي جمرة : وفي الحديث مشروعية الأدب في كل شيء ، لأن الزجر عن ملك الأملاك ، والوعيد عليه يقتضي المنع منه مطلقاً سواء أراد من تسمى بذلك أنه ملك على ملوك الأرض ، أم على بعضها . وسواء كان محققاً في ذلك أم مبطلاً ، مع أنه لا يخفى الفرق بين من قصد ذلك وكان فيه صادقاً ، ومن قصده وكان فيه كاذباً .

قلت : يعني أن الثاني أشد إثمًا من الأول .

باب

احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

ش : أي : لأجل احترامها وهو تعظيمها . وذلك من نوعين الترجيد . ويستفاد منه المنع من التسمي بهذا ابتداء من باب الأولى ، أم حسن في الأسماء المختصة بالله تعالى .

قال : عن أبي شريح أنه كان يسمى أبا الحكم فقال له النبي ﷺ : « إن الله هو الحكم ، وإليه الحكم فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فوضي كلا الفريقين فقال : ما أحسن

هذا ، فما لك من الولد ؟ فقلت : شريح ، ومسلم ، وعبد الله .
قال : فمن أكبرهم ؟ قلت : شريح قال : أنت أبو شريح »
رواه أبو داود وغيره .

ش : هذا الحديث رواه أبو داود كما قال المصنف ، ورواه النسائي
ولفظ أبي داود من طريق يزيد بن المقدم بن شريح عن أبيه عن جده
عن أبيه هانيء ، وهو أبو شريح أنه لما وفد على رسول الله ﷺ مع قومه
سمعهم يكتنونه بأبي الحكم ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فقال : « إن الله
هو الحكم ، وإليه الحكم فلم تكني أبا الحكم ؟ » فقال : « إن قومي إذا
اختلفوا في شيء ، الحديث . قال ابن مفلح : وإسناده جيد ، ورواه الحاكم
وزاد : « فدعا له ولولده » .

قوله : عن أبي شريح . هو بضم المعجمة وفتح الراء وآخره مهملة
مصغر ، واسمه هانيء بن يزيد الكندي ، قال الحافظ : وقيل : الحارثي
الضبابي قاله المزي . وقيل : المذحجي وقيل : غير ذلك : صحابي نزل
الكوفة ، ولا عبرة بقول من قال : إنه الحزاعي ، ولا من ظن أنه
للنخعي والد شريح القاضي ، فإن ذلك خطأ فاحش .

قوله : إنه كان يكنى أبا الحكم . قال بعضهم : الكنية قد تكون
بالأوصاف كأبي الفضائل ، وأبي المعالي ، وأبي الخير ، وأبي الحكم .
وقد تكون بالنسبة إلى الأولاد كأبي سامة ، وأبي شريح وإلى ما يلبسه
كأبي هريرة فإنه عليه السلام رآه ومعه هرة فكناه بأبي هريرة ، وقد
تكون للعلمية الصرفة كأبي بكر .

قوله : « إن الله هو الحكم وإليه الحكم » أما الحكم فهو من أسماء

الله تبارك وتعالى كما في هذا الحديث ، وقد ورد عدة في الأسماء الحسنى مقروناً بالعدل ، فسبحان الله ما أحسن اقتران هذين الاسمين . قال في شرح السنة ، الحكم : هو الحاكم الذي إذا حكم لا يرد حكمه ، وهذه الصفة لا تليق بغير الله تعالى كما قال تعالى : (والله يحكم لا معقب لحكمه) [الرعد : ٤٤] وقال بعضهم : عرف الخبر في الجملة الأولى ، وأتى بضمير الفصل فدل على الحصر . وإن هذا الوصف يختص به لا يتجاوز إلى غيره . وأما قوله : « وإليه الحكم » أي : إليه الفصل بين العباد في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : (له الحكم وإليه ترجعون) [القصص : ٨٩] وقال : (إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين) [الأنعام : ٥٨] وفيه الدليل على المنع من التسمي بأسماء الله المختصة به ، والمنع مما يؤهم عدم الاحترام لها كالتكني بأبي الحكم ونحوه .

قوله : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكم بينهم . أي : أنا لم أكن نفسي بهذه الكنية ، وإنما كنت أحكم بين قومي فكنوني بها . وفيه جواز التعاكم إلى من يصلح للأضاء ، وإن لم يكن قاضياً ، وأنه يلزم حكمه . ولهذا قال النبي ﷺ : « ما أحسن هذا ، قال الخافعي : للتعجب ، أي : الحكم بين الناس حسن ، ولكن هذه الكنية غير حسنة . وقال غيره : أي : الذي ذكرته من الحكم بالعدل . وقيل : ما أحسن هذا ، أي : ما ذكرت من وجه الكنية . قال بعضهم : وهو الأولى . قلت : فعلى هذا يكون حكمه لقومه قبل إسلامه ، إذ يبعد أن يكون قاضياً لهم قبل أن يلقى رسول الله ﷺ ، ويتعلم منه ؛ لأن هذه القصة كانت بعد إسلامه بقليل ، لأنه كان مع وفد قومه حين

أسلموا ، وقدموا على رسول الله ﷺ . ولا يظن أن رسول الله ﷺ يحسن أمر حكام الجاهلية .

قوله : قال : شريح ومسلم وعبد الله . صريح في أن الواو لا تقتضي الترتيب وإنما تقتضي مطلق الجمع ، فلذا سأل رسول الله ﷺ عن الأكبر ، إذ لو كانت دالة على الترتيب لم يحتج إلى سؤال عن أكبرهم .

قوله : « فأنت أبو شريح » أي رعاية للأكبر منا في التكريم والإجلال ، فإن الكبير أولى بذلك .

قال في « شرح السنة » : فيه أن يكنى الرجل بأكبر بنيه ، فإن لم يكن له ابن ، فبأكبر بناته . وكذلك المرأة تكنى بأكبر بناتها فإن لم يكن لها ابن فبأكبر بناتها . انتهى . وفيه تقديم الأكبر ، وفيه أن استعمال اللفظ الشريف الحسن مكروه في حق من ليس كذلك ، ومنه أن يقول المملوك لسيده وغيره : « ربي » بـ « به عليه ابن القيم .

باب

من هزل بشيء فيه ذكر الله ، أو القرآن أو الرسول

ش : أي : إنه يكفر بذلك لاستخفافه بجناب الربوبية والرسالة ، وذلك منافي للتوحيد . ولهذا أجمع العلماء على كفر من فعل شيئاً من ذلك فمن استهزأ بالله ، أو بكتابه أو برسوله ، أو بدينه ، كفر ولو هازلاً لم يقصد حقيقة الاستهزاء إجماعاً .

قال : وقول الله تعالى : (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) [التوبة : ٦٧] .

ش : يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ : (واثن سائهم) أي . سألت المنافقين الذين تكلموا بكلمة الكفر استهزاء (ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) أي : يعتذرون بأنهم لم يقصدوا الاستهزاء والتكذيب ، إنما قصدوا الخوض في الحديث واللعب : (قل أباة ورسوله وآياته كنتم تستهزؤن) لم يعبا باعتذارهم إما لأنهم كانوا كاذبين فيه ، وإما لأن الاستهزاء على وجه الخوض واللعب لا يكون صاحبه معذوراً ، وعلى التقديرين فهذا عذر باطل ، فإنهم أخطؤوا موقع الاستهزاء . وهل يجتمع الايمان بالله ، وكتابه ، ورسوله ، والاستهزاء بذلك في قلب ؟ ! بل ذلك عين الكفر . فلذلك كان الجواب مع ما قبله (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) [التوبة : ٦٨] قال شيخ الإسلام : فقد أمره أن يقول : كفرتم بعد إيمانكم . وقول من يقول : إنهم قد كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم لا يصح ، لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر . فلا يقال : قد كفرتم بعد إيمانكم فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر ، وإن أريد : إنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان ، فهم لم يظهروا ذلك إلا لخوضهم ، وهم مسع خوضهم مازالوا هكذا ، بل لما نافقوا وحذروا أن تنزل عليهم سورة تبين ما في قلوبهم من النفاق وتكلموا بالاستهزاء ، أي : صاروا كافرين بعد إيمانهم . ولا يدل اللفظ على أنهم مازالوا منافقين إلى أن قال تعالى : (واثن سائهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) فاعترفوا ولهذا قيل (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة فدل على أنهم لم يكتوتوا عند أنفسهم قد أتوا كفراً ، بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر .

فتبين أن الاستهزاء بآيات الله ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه ، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف ، ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم . ولكن لم يظنوه كفراً وكان كفراً ككفروا به ، فإنهم لم يعتقدوا جوازه . وقوله : (إن نعت عن طائفة منكم نعت طائفة) قال ابن كثير : أي : لا يعفى عن جميعكم ، ولا بد من عذاب بعضهم بأنهم كانوا مجرمين بهذه المقالة الفاجرة . قيل : إن الطائفة نخشي بن مخير عفا الله عنه وتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم مقتله ، فقتل يوم اليمامة ، ولم يعلم مقتله ، ولا من قتله ، ولا يدري له عين ولا أثر . وقيل : إن الطائفة زيد بن وداعة . والأول أشهر ، ويحتمل أن الله عفا عنها جميعاً . وفي الآية دليل على أن الرجل إذا فعل الكفر ولم يعلم أنه كفر لا يعذر بذلك ، بل يكفر ، وعلى أن الشاك^(١) كافر بطريق الأولى نبه عليه شيخ الإسلام .

قال : عن ابن عمر ، وعبد بن كعب ، وزيد بن أسلم ، وقنادة . دخل حديث بعضهم في بعض أنه قال رجل في غزوة تبوك : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ، ولا أكذب ألسناً ، ولا أجبن عند اللقاء . يعني : رسول الله ﷺ ، وأصحابه القراء . فقال له عوف ابن مالك : كذبت ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ ، وقد ارتحل وركب ناقته فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ولتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق قال ابن عمر : كأني انظر إليه متعلقاً بنسعة^(٢)

(١) في الطبعة السابقة : الساب .

(٢) بكسر فسكون : سير مضفور يجعل زماماً للبعير .

ناقة رسول الله ﷺ ، وإن الحجارة لتنكب رجله وهو يقول :
إنا كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله ﷺ : (أبالله وآياته
ورسوله كنتم تستهزؤون) ما يلتفت إليه وما يزيد عليه .

ش : هذا الأثر ذكره المصنف مجموعاً من رواية ابن عمر ، ومحمد بن
كعب ، وزيد بن أسلم ، وقتادة ، وقد ذكره قبله كذلك شيخ الإسلام .
فأما أثر ابن عمر فرواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وغيرهما بنحو ما
ذكره المصنف . وأما أثر محمد بن كعب ، وزيد بن أسلم ، وقتادة
فهي معروفة لكن بغير هذا اللفظ .

قوله : عن ابن عمر . هو عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله
عنها ، ومحمد بن كعب هو محمد بن كعب بن سالم أبو حمزة القرظي المدني .
قال البخاري : إن أباه كان من لم يثبت من بني قريظة ، وهو ثقة عالم
مات سنة عشرين ومئة . وزيد بن أسلم هو مولى عمر بن الخطاب ،
والد عبد الرحمن وإخوته ، يكنى أبا عبد الله ، ثقة مشهور مات سنة
ست وثلاثين ومئة . وقتادة هو ابن دعامة وتقدم .

قوله : دخل حديث بعضهم في بعض أي : إن الحديث مجموع من
رواياتهم ، فلذلك دخل بعضه في بعض .

قوله : إنه قال رجل في غزوة تبوك ، لم أقف على تسمية القائل
لذلك أبهم اسمه في جميع الروايات التي وقفت عليها . ولكن قد ورد
تسمية جماعة من نزلت فيهم الآية مع اختلاف الرواية فيما قالوه من الكلام .
ففي بعض الروايات أنهم قالوا ما ذكره المصنف . وعن مجاهد في الآية :
قال رجل من المنافقين يحدثنا محمد أن ناقة فلان براد كذا وكذا في

يوم كذا وكذا وما يدريه بالغيب؟! رواه ابن أبي شبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم . وعن قتادة قال : بينا رسول الله ﷺ ، في غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناس من المنافقين ، فقالوا : يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟! هيأت هيأت ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فقال نبي الله ﷺ : « احبسوا علي الركب » فأتاهم فقال : « قلم كذا ، وقلم كذا » قالوا : يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب . فأنزله الله فيهم ما تسمعون . رواه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم . وفي رواية جابر بن عبد الله عند ابن مردويه : كان فيمن تخلف من المنافقين بالمدينة وداعه بن ثابت أحد بني عمرو بن عوف ، فقليل له : ما خلفك عن رسول الله ﷺ ، فقال : الخوض واللعب ؛ فأنزله الله فيه وفي أصحابه (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) إلى (بجرمين) [التوبة : ٦٧ ، ٦٨] وسمى ابن عباس في رواية عند ابن مردويه منهم وديعة بن ثابت ونخشي بن حمير ، وأنهم قالوا : أنحسبون أن قتال بني الأصفر كقتال غيرهم ، والله لكأنكم غداً تفرون في الجبال ... القصة بكاملها . فيحتمل أنهم قالوا ذلك كله ، فإن المنافقين إذا خلوا إلى شياطينهم أخذوا في الاستمراء بالله وآياته ورسوله والمؤمنين ، فلا يبعد أنهم قالوا ذلك . فكل ذكر بعض كلامهم ، والآية نعم ذلك . وفي هذه الروايات ذكر أسماء القائلين لبعضهم ذلك ، منهم وديعة بن ثابت وقيل وداعة ، وزيد ابن وديعة ، ونخشي بن حمير الذي تاب الله عليه ، لكنه لم يقل ذلك إنما حضره . وفي بعض الروايات أن عبد الله بن أبي هو الذي قال ذلك ، لكن رواه ابن القيم بأن ابن أبي تخلف عن غزوة تبوك . وذكر ابن اسحاق أسماء الذين هموا بالقتل برسول الله ﷺ ، فعد جماعة ، فيحتمل

أنهم من المستهزلين ، ويحتمل أنهم غيرهم . ولهذا قال تعالى في المستهزلين :
(قد كفرتم بعد إيمانكم) وفي الآخرين : (واقد قالوا كلمة الكفر
وكفروا بعد إسلامهم) .

قوله : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء . القراء جمع قارىء وهم عند السلف
الذين يقرؤون القرآن ويعرفون معانيه ، أما قراءته من غير فهم لمعناه ،
فلا يوجد في ذلك العصر ، وإنما حدث بعد ذلك من جملة البدع .

قوله : أرغب بطوناً ، أي : أوسع بطوناً . الرغب والرغيب : الواسع
يقال : جوف رغيب وواد رغيب يصفونهم بسعة البطون ، وكثرة الأكل ،
كما روى أبو نعيم عن شريح بن عبيد أن رجلاً قال لأبي الدرداء : ما بالك
أجبن منا وأجمل إذا سئلتهم ، وأعظم لقماً إذا أكلتم ، فأعرض عنه أبو الدرداء
ولم يرد عليه شيئاً ، وأخبر بذلك ممر بن الخطاب ، فانطلق ممر إلى الرجل
الذي قال ذلك ، فأخذه بثوبه وخنقه ، وقاده إلى النبي ﷺ ، فقال الرجل :
إنما كنا نخوض ونلعب .

قوله : فقال له عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق . فيه المبادرة
في الإنكار والشدة على المنافقين ، وجواز وصف الرجل بالنفاق إذا قال
أو فعل ما يدل عليه .

قوله : لأخبرن رسول الله ﷺ . فيه أن هذا وما أشبهه لا يكون
غيباً ولا نهيمة ، بل هو من النصيح لله ورسوله ، فيبلغ الفرق بين الغيبة
والنهيمة ، وبين النصيحة لله ورسوله ، فذكر أفعال المنافقين والفاسق
لولاة الأمور ؛ ليذبحروهم ، ويقيموا عليهم أحكام الشريعة ليس من الغيبة
والنهيمة . انتهى .

قوله : فوجد القرآن قد سبقه أي : جاءه الوحي من الله بما قالوه
في هذه الآية (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) [التوبة : ٦٧]
وفيه دلالة على علم الله سبحانه ، وعلى قدرته وإلهيته ، وعلى أن محمداً
رسول الله .

قوله : فجاء ذلك الرجل ، قد تقدم أنه ابن أبي كما رواه ابن المنذر ،
وابن أبي حاتم عن ابن عمر ، لكن رواه ابن القيم ^(١) [بأن ابن أبي
تخلف عن غزوة تبوك .

وفي هذا الحديث من الفوائد ؛ أن الانسان قد يكفر بكلمة يتكلم
بها أو عمل يعمل به ، وأشدّها خطراً إرادات القلوب فهي كالبحر الذي
لا ساحل له .

ويفيد الخوف من النفاق الأكبر ، فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيماناً
قبل أن يقولوا ما قالوه ، كما قال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من
أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ، نسأل الله السلامة
والعفو والعافية في الدنيا والآخرة .

باب

قول الله تعالى : (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته
ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعنا إلى ربي إن لي عنده
للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ)
[فصلت : ٥٠] .

(١) كان منا في الأصل سقط استدركتناه من «فتح الميبد» للشيخ عبد الرحمن
ابن حسن آل الشيخ رحمهم الله تعالى .

ذكر المصنف رحمه الله تعالى عن ابن عباس وغيره من المفسرين في معنى هذه الآية وما بعدها ما يكفي في المعنى ويشفي .

قوله : قال مجاهد : هذا بعلمي وأنا محقوق به . وقال ابن عباس : يريد من عندي . وقوله : (قال إنما أوتيته على علم عندي) [القصص : ٧٩] . قال قتادة : على علم مني بوجوه المكاسب . وقال آخرون : على علم من الله أني له أهل ، وهذا معنى قول مجاهد : أوتيته على شرف .

قوله : باب : قول الله تعالى : (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته) .

وليس فيما ذكره اختلاف ، وإنما هي أفراد المعنى .

قال ابن كثير رحمه الله في معنى قوله تعالى : (ثم إذا خولناه نعمة قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة) [الزمر : ٤٩] يخبر أن الإنسان في حال الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه ، ثم إذا خوله نعمة منا طغى وبغى وقال : (إنما أوتيته على علم) أي لما يعلم من استحقاقه له ، ولولا أني عند الله حظيظ لما خولاني هذا . فقال تعالى : (بل هي فتنة) أي ليس الأمر كما زعمتم ، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة ، لنختبره فيما أنعمنا عليه ، أيطيع أم يعصي ؟ مع علمنا المتقدم بذلك . (بل هي فتنة) أي اختبار (ولكن أكثرهم لا يعلمون) فلهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون (قد قالها الذين من قبلهم) أي قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير من سلف من

الأمم (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أي : فما صبح قولهم ، ولا نفعمهم جمعهم وما كانوا يكسبون ، كما قال تعالى مخبراً عن قارون (إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فبا آثاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) [القصص : ٧٧ - ٧٨ - ٧٩] وقال تعالى : (وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعزين) [سبا : ٧٦] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص ، وأقرب ، وأعمى ، فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قد قدرني الناس به . قال : فمسحه فذهب عنه قدره ، فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً . قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل أو البقر ، شك إسحاق ، فأعطي ناقةً عشرةا وقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأقرع فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عني الذي قد قدرني الناس به ، فمسحه فذهب عنه وأعطي شعراً حسناً . فقال : أي المال أحب إليك ؟ قال : البقر أو الإبل . فأعطي بقرة حاملاً . قال : بارك الله لك فيها . فأتى الأعمى فقال : أي

شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس ،
فسمعه فرد الله إليه بصره . قال فأي المال أحب إليك ؟ قال :
الغنم . فأعطي شاة والدآ ، فأنج هذا ، وو"لد هذا ، فكان لهذا
واد من الابل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم . قال : ثم إليه
أتى الأبرص في صورته وهياته فقال : رجل مسكين قد انقطعت
به الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي
أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن والمال بعبراً أبلغ به في سفري .
فقال : الحقوق كثيرة فقال : كافي أعرفك ؟ ألم تكن أبرص يقظرك
الناس ؟ فقيراً فأعطاك الله عز وجل المال ؟ فقال : إنما ورثت هذا
المال كبراً عن كابر . فقال : إن كنت كاذباً فصبرك الله إلى ما كنت
به ، وأنى الاقترع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه
مثل ما رد عليه هذا . فقال : إن كنت كاذباً فصبرك الله إلى
ما كنت . قال : وأنى الأعمى في صورته ، فقال : رجل مسكين وابن
سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله
ثم بك ، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أبلغ بها في سفري .
فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري ، فخذ ما شئت ودع
ما شئت ، فوأنه لا أجهدك اليوم بشيء أخذته . فقال : أمسك
مالك فإنما ابتليتكم ، فقد رضي الله عنك وسمعت على صاحبك ،
أخرجاه .

قوله : أخرجاه . أي : البخاري ومسلم .

والناقة العشرة : بضم العين وفتح الشين وبالد : هي الحامل .

قوله : أنتج . وفي رواية : فنتج ؛ معناه : تولى نتائجها ، والنتائج
لثاقفة كالتقابلة للمرأة .

قوله : ولد هذا . هو بتشديد اللام . أي : تولى ولادتها ، وهو
بمعنى : أنتج في الثاقفة ، فالمولد والنتائج والتقابل بمعنى واحد ، لكن هذا
للحيوان ، وذلك لغيره .

قوله : انقطعت بي الحبال : هو بالحاء المهملة والباء الموحدة :
هي الأسباب .

قوله : لا أجهدك . معناه : لا أشق عليك في رد شيء تأخذه ، أو
تطلبه من مالي . ذكره النووي .

وهذا حديث عظيم ، وفيه معتبر ، فإن الأولين جحدا نعمة الله ،
فما أقرا الله بنعمته ، ولا نسبا للنعمة إلى المنعم بها ، ولا أديا حق الله ،
فعل عليها السخط . وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله ، ونسبها إلى من
أنعم عليه بها ، وأدى حق الله فيها ، فاستحق الرضى من الله بقيامه
بشكر النعمة لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التي لا يقوم الشكر إلا بها ،
وهي : الإقرار بالنعمة ونسبتها إلى المنعم ، وبذلها فيما يجب .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : أصل الشكر هو الاعتراف بانعام
المنعم على وجه الخضوع له ، والذل ، والحنة ، فمن لم يعرف النعمة ،
بل كان جاهلا بها ، لم يشكورها ، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها ، لم
يشكورها أيضا ، ومن عرف النعمة والمنعم ، لكن جحدها كما يجحدها
المكر لنعمة المنعم عليه بها ، فقد كفرها ، ومن عرف النعمة والمنعم بها
وأقر بها ولم يجحدها ، ولكن لم يخضع له ولم يحبه ولم يرض به وعنه ، لم

يشكره أيضاً ، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي به وعنه ، واستعملها في محابه وطاعته ، فهذا هو الشاكر لها . فلا بد في الشكر من علم القلب ، وعمل يتبع العلم ، وهو الميل إلى المنعم ومحبه والخضوع له .

قوله : فذرني الناس . بكراهة رؤيته وقربه منهم .

باب

قول الله تعالى: (فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) [الأعراف : ١٩٠] .

قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله ، كعبد عمرو ، وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك ، حاشا عبد المطلب .

وعن ابن عباس في الآية فقال : لما تغشى آدم حملت ، فأتاهما إبليس ، فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة ، لتطيعني أو لأجعلن له قرني أيل فيخرج من بطنك فبشقه ولأفعلن ولأفعلن يخوفها ، فسمياه عبد الحارث ، فأبيا أنت يطيعاه فخرج ميتاً ، ثم حملت فأتاهما فقال مثل قوله ، فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً ثم حملت فأتاهما فذكر لها فأدر كهها حب الولد ، فسمياه عبد الحارث فذلك قوله : (جعلا له شركاء فيما آتاهما) رواه ابن أبي حاتم .

وله بسند صحيح عن قتادة قال : شركاء في طاعته ولم يسكن في عبادته .

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله : (لن آتينا صالحاً)

قال : أشفقنا أن لا يكون انساناً ، وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما .

قوله : باب قول الله تعالى : (فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) [الأعراف : ١٩٠] .

قال الإمام أحمد رحمه الله في معنى هذه الآية : حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ ، قال : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس ، وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سميه عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش ، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره ، رواه أحمد ، والترمذي وحسنه ، وابن جرير ، والحاكم وصححه .^(١) ولهذا ذكر الضمير في آخرها بصيغة الجمع استطراداً من ذكر الشخص إلى المجلس . ومعنى الآية : أنه تعالى يخبر عن مبدأ المجلس الإنساني ، وما فيه لله من عجائب القدرة ، فأوجد هذا المجلس على كثرته واختلاف أنواعه من نفس واحدة ، وهو آدم عليه السلام ، وجعل منها زوجتها ، ليسكن إليها ، فلما تغشاها أي : وطئها وحملت حملاً خفيفاً ، وذلك ~~بأنه~~ لا تجد المرأة له ألماً ، إنما هي النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة .

وقوله : (فمرت به) قال مجاهد : استمرت عليه ، وقال مهران : استخفته ، وقال ابن جرير : استمرت بالماء وقامت به وقعدت (فلما أثقلت) أي : صارت ذات ثقل بجملها . قال السدي : كبر في بطنها (دعوا الله ربهما) أي : أن آدم وحواء عليها السلام ، دعوا الله (لئن آتيتنا صالحاً) بشراً سويّاً . قال ابن عباس :

(١) انظر طعن الحافظ ابن كثير في تفسيره ٦١٢/٣ في هذا الحديث وإحلاله من ثلاثة وجوه .

أشفقنا أن يكون بهيمة (لنكونن من الشاكركن) أي : لشكرك على ذلك . انتهى ملخصاً من ابن كثير وفيه زيادة .

وقوله : (فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء) أي : لله شركاء فيما آتاهما أي : لم يقوما بشكرك ذلك على الوجه المرضي كما وعدا بذلك ، بل جعلاً لي فيه شركاء فيما أعطيتها من الولد الصالح ، والبشر السوي ، بأن سميا عبد الحارث ، فإن من تمام الشكر أن لا يعبد الاسم إلا الله ، وإذا تأملت سياق الكلام من أوله إلى آخره مع ما فسره به السلف تبين قطعاً أن ذلك في آدم وحواء عليها السلام ، فإن فيه غير موضع يدل على ذلك^(١) . والعجب ممن يكذب بهذه القصة ، وينسى ما جرى أول مرة ويكابر بالتفسير المبتدعة ، ويترك تفاسير السلف وأقوالهم . وليس المحدثون في هذه القصة بأعظم من المحدثون في المرة الأولى . وقوله تعالى : (مما يشركون) هذا والله أعلم عائداً إلى المشركين من القدرية ، فاستطرد من ذكر الشخص إلى الجنس وله نظائر في القرآن .

قوله : قال ابن حزم : هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري المشهور صاحب كتاب « الإجماع » و « الإيصال » و « المحلى » وغيرها من المصنفات .

قوله : اتفقوا . الظاهر أن المراد أجمعوا ، فقصوده حكاية الإجماع لا حكاية الاتفاق على طريقة المتأخرين .

(١) قال ابن كثير ٦١٤/٣ : وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المراد المشركون من ذريته ، ولهذا قال تعالى : (فتعال الله مما يشركون) .

قوله : حاشا عبد المطلب . قال ابن القيم : لا تحمل التسمية بعبد علي ، وعبد الحسين ، ولا عبد الكعبة ، وقد روى ابن أبي شيبة عن هانيء بن شريح قال : وفد على النبي ﷺ قوم فسمعهم يسمون رجلاً عبد الحجر فقال له : « ما اسمك » قال : عبد الحجر . فقال له رسول الله ﷺ : « إنما أنت عبد الله » . فقل : كيف يتفقون على تحريم الاسم للمعبد لغير الله ؟ وقد صح عنه ﷺ « تعس عبد الدينار » الحديث . وصح عنه أنه قال : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » .

فالجواب : أما قوله : « تعس عبد الدينار » . فلم يرد الاسم ، وإنما أراد به الوصف والدعاء على من يعبد قلبه الدينار والدرهم ، فرضي بعبوديتها عن عبودية الله تبارك وتعالى . وأما قوله : « أنا ابن عبد المطلب » فهذا ليس من باب إنشاء التسمية بذلك ، وإنما هو من باب الاخبار بالاسم الذي عرف به المسمى دون غيره ، والاخبار بمثل ذلك على وجه تعريف المسمى لا يحرم . ولا وجه لتخصيص أبي محمد ذلك بعبد المطلب خاصة ، فقد كان أصحابه يسمون بعبد شمس ، وبني عبد الدار بأسمائهم ، ولا ينكر عليهم النبي ﷺ ذلك . فباب الاخبار أوسع من الإنشاء فيجوز فيه ما لا يجوز في الإنشاء . انتهى ملخصاً ، وهو حسن ، ولكن بقي إشكال وهو أن في الصحابة من اسمه المطلب بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب .

فالجواب : أما من اسمه عبد شمس ، فغيره النبي ﷺ إلى عبد الله كما ذكروا ذلك في تراجمهم ، وأما المطلب بن ربيعة فذكر ابن عبد البر أن اسمه عبد المطلب وقال : كان على عهد رسول الله ﷺ يغير اسمه

فما علمت . وقال الحافظ : وفيما قاله نظر ، فإن الزبير أعلم من غيره
بنسب قريش ، ولم يذكر أن اسمه إلا المطلب ، وقد ذكر العسكري
أن أهل النسب إنما يسمونه المطلب .

وأما أهل الحديث فمنهم من يقول : المطلب ، ومنهم من يقول : عبد
المطلب . وأما عبد يزيد أبو ركانة فذكره الذهبي في « التجريد » وقال
أبو ركانة : طلق امرأته وهذا لا يصح ، والمعروف أن صاحب القصة
ركانة ، وروى حديثه أبو داود في « السنن » عن ابن عباس قال : طلق
عبد يزيد أبو ركانة وإخوته أم ركانة وذكر الحديث ، ثم قال : وحديث
نافع بن عجير ، وعبد الله علي بن يزيد بن ركانة عن أبيه عن جده أن
ركانة طلق امرأته البتة ، فجعلها النبي ﷺ ، واحدة ، أصح ، لأنهم ولد
الرجل وأهله ، وهم أعلم به . فقد تبين أنه ليس من الصحابة من أولاء
[من] تصح له صحبته . فعلى هذا لا تجوز التسمية بعبد المطلب ولا غيره بما
عبد لغير الله ، وكيف تجوز التسمية وقد أجمع العلماء على تحريم التسمية بـ : عبد
النبي ، وعبد الرسول ، وعبد المسيح ، وعبد علي ، وعبد الحسين ، وعبد
الكعبة ؟ وكل هذه أولى بالجواز من عبد المطلب لو جازت التسمية به .
وأيضاً فقد نص النبي ﷺ على أن التسمية بعبد الحارث من وحي الشيطان ،
وأمره بعبد المطلب كعبد الحارث ، لا فرق بينهما ، إلا أن أصدق الأسماء
الحارث وهام ، فلعله أولى بالجواز . لا يقال : إن الحارث اسم للشيطان ،
لأنه وإن كان اسماً له ، فلا فرق في ذلك بين جميع من اسمه الحارث .
فلا يجوز التسمية به وإن نوى عبد الحارث بن هشام أو غيره .

فإن قلت : إذا كان ابن حزم قد حكى الإجماع على جواز التسمية بعبد المطلب ، فكيف يجوز خلافه ؟

قلت : كلام ابن حزم ليس صريحاً في حكاية الإجماع على جواز ذلك بعبد المطلب ، فإن لفظه : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله ، كعبد العزى ، وعبد هبل ، وعبد عمرو ، وعبد الصكبة ، وما أشبه ذلك حاشاً عبد المطلب . واتفقوا على إباحة كل اسم بعد ما ذكرنا ما لم يكن اسم نبي ، أو اسم ملك إلى آخر كلامه . فيحتمل أن مراده حكاية الخلاف فيه ، ويكون التقدير : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله حاشاً بعبد المطلب ، أي : فإنهم لم يتفقوا على تحريمه ، بل اختلفوا ، ويؤيده أنه قال بعده : واتفقوا على إباحة كل اسم بعبد ما ذكرنا إلى آخره . ويكون المراد حاشاً عبد المطلب ، فلا أحفظ ما قالوا فيه ، ويكون سكوتاً منه عن حكاية إجماعاً ، أو خلاف فيه ، وعلى تقدير أن مراده حكاية الإجماع من جواز ذلك ، فليس كل من حكى إجماعاً يسلم له ، ولا كل إجماع يكون حجة أيضاً ، فكيف والخلاف موجود ، والسنة فاصلة بين المتنازعين ؟ وغاية حجة من أجازة قوله عليه السلام : « أنا ابن عبد المطلب » ونحوه ، أو أن بعض الصحابة اسمه عبد المطلب . وقد تقدم الجواب عن ذلك ، وأيضاً فلو كان قوله : « أنا ابن عبد المطلب » حجة على جواز التسمية به لكان قوله : « إنما بنو هاشم ، وبنو عبد مناف شيء واحد » حجة على جواز التسمية بعبد مناف ، ولكن فرق بين إنشاء التسمية وبين الاخبار بذلك عن هو اسمه .

وقوله : في الآية ، أي : المترجم لها .

قوله : تغشاها ، أي : حواء ، أي : وطئها ، عليها السلام .

قوله : أو لأجعلن له ، أي : لولد كما .

قوله : قرني أيل . هو بالثنية أو الإضافة ، وأيل بفتح الهزة وكسر المثناة التحتيّة المشددة : ذكر الأوعال ، والمعنى : أنه يخوفها بكونه يجعل للولد قرني وعل ، فيخرج من بطنها فيشقه كما قال : فيخرج من بطنك فيشقه .

قوله : ولأفعلن ولأفعلن يخوفها بغير ما ذكر ، ويزعّم أنه يفعل بها غير ذلك .

قوله : « سميّاه عبد الحارث » ، قال سعيد بن جبير : كان اسمه في الملائكة الحارث ، وكان مراده أن سميّاه بذلك ، ليكون قد وجد له صورة الإشرّاك به ، فإن هذا من باب كيد إبليس إذا عجز عن الآدمي أن يوقعه في المعصية الكبيرة ، فنع منه بالصغيرة ، وأيضاً فإنه يحصل له منها طاعته كما أطاع أول مرة ، كما روى ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « خدعها مرتين » قال : زيد خدعها في الجنة وخدعها في الأرض .

قوله : فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً .. الخ . هذا والله أعلم من الامتناع فإن الإنسان لا عزم له ، وإن عابن ماذا عساه أن يعلن من الآيات إلا بتوفيق الله تعالى . فإن الطبيعة البشرية تغلب عليه كما غلبت على الأبوين مرتين ، مع ما وقع لهما قبل من التعذير والإنذار عن كيد إبليس وعداوته لهما ، ومع ذلك أدركها حب الولد فسميّاه عبد الحارث ،

وكان ذلك شركاً في التسمية وإن لم يقصد العبادة للشيطان ، بل قصداً به فيما ظننا ، إما دفع شره عن حواء ، وإما الخوف على الولد من الموت . كما روى عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن أبي بن كعب قال : لما حملت حواء ، أتاها الشيطان فقال : أتطيعيني وبسلم ولدك ؟ سميه عبد الحارث فلم تفعل فولدت فمات ، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل . ثم حملت الثالثة فقال : أتطيعيني يسلم لك ولدك وإلا فإنه يكون بهيمة فهيها فأطاعاه . رواه ابن أبي حاتم . قلت : وإسناده صحيح . ورواه سعيد ابن منصور وابن المنذر . وعن ابن عباس قال : كانت حواء تلد لآدم أولاداً فتعبد لهم الله ، وتسميه عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت ، فأتاها إبليس وآدم فقال : إنكما لو تسميانه بغير ما تسميانه لعاش ، فولدت له رجلاً فسمياه عبد الحارث ففيه أنزل (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) [الأعراف : ١٨٩] إلى آخر الآية . رواه ابن مردويه .

قوله : شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته ، أي : لكونها أطاعاه في التسمية بعبد الحارث ، لا لأنها عباده فهو دليل على الفرق بين شرك الطاعة وبين شرك العبادة . قال بعضهم : تفسير قتادة في هذه الآية بالطاعة ، لأن المراد بها على كلام كثير من المفسرين آدم وحواء عليهما السلام ، فناسب تفسيرها بالطاعة ، لأنها أطاعا الشيطان في تسمية الولد بعبد الحارث . وقد استشكله بعض المعاصرين بما حاصله أنهم قد فسروا العبادة بالطاعة ، فيلزم على قول قتادة أن يكون الشرك في العبادة .

والجواب : أن تفسير العبادة بالطاعة من التفسير اللازم ، فإنه لازم العبادة أن يكون العابد مطيعاً لمن عبده بها ، فلذا فسرت بالطاعة . أو

يقال : هو من التفسير بالملزوم وإرادة اللازم ، أي : لما كانت الطاعة ملزوماً للعبادة ، والعبادة لازمة لها ، فلا تحصل إلا بالطاعة ، جاز تفسيرها بذلك وهو أصح . وبالجمله فلا إشكال في ذلك بحمد الله .

فإن قلت : قد سمي النبي ﷺ طاعة الأحرار والرهبان في معصية الله عبادة .

قلت : راجع الكلام على حديث عدي يتضح الجواب .

قوله : أشفقنا ، أي : خافنا أي : آدم وحواء أن لا يكون إنساناً . قال أبو صالح : أشفقنا أن يكون بهيمة فقال : لأن آتينا بشراً سوياً . رواه ابن أبي حاتم . وفي هذا أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم ذكره المصنف ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعلها غير سوية ، وأن يجعلها من غير الجنس . فلا ينبغي للرجل أن يسخط بها وهبه الله له كما يفعل أهل الجاهلية ، بل بحمد الله الذي جعلها بشرية سوية . ولهذا كانت عائشة رضي الله عنها إذا بشرت بمرلود لم تسأل إلا عن صورته لاعتن ذكره وأنثيته .

قوله : وذكر . أي : ذكر ابن أبي حاتم فإنه روى ذلك عن ذكر المصنف معناه عن الحسن ، وهو البصري .

قوله : وسعيد ، أي ابن جبير وغيره كالسدي . وغيره .

باب

قول الله تعالى : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه) [الأعراف : ١٨٠] .

يخبر تعالى أن له أسماء وصفها بكونها حسنى أي : حسان . وقد بلغت الغاية في الحسن فلا أحسن منها ، كما يدل عليه من صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، فأسماءه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها ، فليس في الأسماء أحسن منها ، ولا يقوم غيرها مقامها . وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيراً بمواد محض ، بل هو على سبيل التقريب والتفهم ، فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمل وأتم معنى وأبعده ، وأزهره عن سائبة نقص ، فله من صفة الإدراكات العليم الخبير دون العالم الفقيه ، والسميع البصير دون السامع والباصر ، ومن صفات الإحسان البر الرحيم الودود ، دون الرفيق والشفيق والمشوق . وكذلك العلي العظيم ، دون الرفيع الشريف ، وكذلك الكريم ، دون السخي . والخالق الباري المصور ، دون الصانع الفاعل المشكل ، والعمو الغفور ، دون الصفوح السائر . وكذلك سائر أسماء الله تعالى يجري على نفسه أكملها وأحسنها ، ولا يقوم غيره مقامه فأسماءه أحسن الأسماء ، كما أن صفاته أكمل الصفات ، فلا تعدل عما سمي به نفسه إلى غيره ، كما لا يتجاوز ما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ﷺ إلى ما وصفه به المبطلون . ومن هنا يتبين لك خطأ من أطلق عليه اسم الصانع والفاعل والمربي ونحوها ؛ لأن اللفظ الذي أطلقه سبحانه على نفسه ، وأخبر به عنها أتم من هذا ، وأكمل وأجل شأناً ، فإنه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلها . فيوصف من الإرادة بأكملها ، وهو الحكمة وحصول كل ما يريد بإرادته . كما قال تعالى : (فاعمال لما يريد) [البروج ١٧] وإرادة اليسر لا العسر . كما قال تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) [البقرة :

[١٨٦] وإرادة الإحسان وتمام النعمة على عباده كقوله تعالى : (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً) [النساء : ٢٧] وإرادة التوبة له وإرادة الميل لمبتغي الشهوات . وقوله : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) [المائدة : ٨] وكذلك العليم الخبير أكمل من الفقيه العارف ، والكريم الجواد أكمل من السخي ، والرحيم أكمل من الشفيق ، والخالق الباري المصور أكمل من الفاعل الصانع ؛ ولهذا لم تجيء هذه في أسمائه الحسنی ، فعليك بمراجعة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الأسماء والصفات ، والوقوف معها وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه ، ما لم يكن مطابقاً لمعنى أسمائه وصفاته . وحينئذ فيطلق المعنى لمطابقتها لها دون اللفظ ، ولا سيما إذا كان مجعلاً ، أو منقسماً ، أو ما يمدح به وغيره ، فإنه لا يجوز إطلاقه إلا مقيداً ، وهذا كلفظ الفاعل والصانع ، فإنه لا يطلق عليه في أسمائه الحسنی إلا إطلاقاً مقيداً كما أطلقه على نفسه كقوله : (فعال لما يريد) [البروج : ١٧] ، (ويفعل الله ما يشاء) [إبراهيم : ٢٧] وقوله : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) [النمل : ٨٩] فإن اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى إلى ما يمدح عليه ويذم ، فلمذا المعنى - والله أعلم - لم يجيء في الأسماء الحسنی المرید ، كما جاء فيها السميع البصير ، ولا المتكلم الأمر الناهي ، لانقسام معنى هذه الأسماء ، بل وصف نفسه بكمالاتها ، وشرف أنواعها . ومن هذا يعلم غلط بعض المتأخرين ، وزلة الفاحش في اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسماً مطلقاً ، وأدخله في أسمائه الحسنی ، فاشتق منها اسم الماكر ، والمخادع ، والقاتل ، والمضل ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . انتهى ملخصاً من كلام الإمام ابن القيم .

وقيل : فصل الخطاب في أسماء الله الحسنى ، هل هي توقيفية أم لا ؟
وحاصله أن ما يطلق عليه من باب الأسماء والصفات توقيفي ، وما يطلق
من باب الاخبار لا يجب أن يكون توقيفياً ، كالقديم والشيء الموجود ،
والقائم بنفسه ، والصانع ، ونحو ذلك . فادعوه بها ، أي : اسألوه ، وتوسلوا
إليه بها كما تقول : اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم . فإن
ذلك من أقرب الوسائل وأحبها إليه ، كما في « المسند » والترمذي
« أظفوا بي إذا الجلال والاكرام » والحديث الآخر سمع النبي ﷺ رجلاً
يدعو وهو يقول : اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله
إلا أنت ، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ،
فقال : « والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي
به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » . رواه الترمذي وغيره . وقوله
عليه السلام : « اللهم إني أعوذ بك بوضائك من سخطك ، وبعبفوك من
غفوبتك ، وبك ومنك ، لانحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .
حديث صحيح رواه مسلم ، وغيره . ومنه « اللهم إني أسألك بأن لك
الحمد ، لا إله إلا أنت ، المنان ، بديع السموات والأرض ، باذا الجلال
والإكرام » . رواه الترمذي بنحوه ، واللفظ لغيره .

قال ابن القيم : فهذا سؤال له ، وتوسل إليه بحمده وأنه لا إله إلا
هو المنان . فهو توسل إليه بأسمائه ، وصفاته ، وما أحق ذلك بالإجابة ،
وأعظمه موقعاً عند السؤال . واعلم أن الدعاء بها أحد مراتب إحصائها
الذي قال فيه النبي ﷺ « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل
الجنة » رواه البخاري ، وغيره . وهي ثلاثة مراتب :

المرتبة الأولى : إحصاء ألفاظها ، وأسماؤها ، وعددها .

المرتبة الثانية : فهم معانيها ، ومدلولها .

المرتبة الثالثة : دعاؤه بها كما في الآية ، وهو نوعان :

دعاء ثناء وعبادة ، ودعاء طلب ومسألة ، فلا يثنى عليه إلا بأسماله
الحسنى ، وصفاته العلى ، وكذا لا يسأل إلا بها . فلا يقال : يا موجود
ويا شيء ويا ذات اغفر لي ، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً
لذلك المطلوب . فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم . ومن تأمل
أدعية الرسل ، لاسيما خاتمهم عليه وعليهم السلام ، وجدها مطابقة لهذا كما
تقول : رب اغفر لي وارحمي إنك أنت الغفور الرحيم . ولا يحسن :
إنك أنت السميع العليم البصير ، ولكن أسأله تعالى منها ما يطلق عليه
مفرداً ، وهو غالب الأسماء كالقدير ، والسميع ، والبصير ، والحكيم .
فهذا يسوغ أن يدعى به مفرداً ، ومقترناً بغيره . فتقول : يا عزيز ،
يا حكيم ، يا قدير ، يا سميع ، يا بصير ، وإن انفرد كل اسم . وكذلك
في الثناء عليه ، والخبر عنه . وبه يسوغ لك الأفراد والجمع . ومنه ما
ما يطلق عليه مفرداً ، بل مقروناً بمقابله . كالمانع ، والضرار ، والمنتقم ،
والمذل ، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله ، فإنه مقرون بالمعطي ،
والنافع ، والعفو ، والعزير ، والمعز . فهو المعطي المانع ، الضرار النافع ،
المنتقم العفو ، المعز المذل ؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذا
بمقابله ، لأنه يراد به أنه المتفرد بالربوبية ، وتقدير الخلق ، والتصرف
فيهم إعطاء ومنعاً ، ونفعاً وضرراً ، وانتقاماً ، وإعزازاً وإدلالاً . فاما
الثناء عليه بمجرد المنع والانتقام والاضرار ، فلا يسوغ ، فهذه الأسماء

الممزوجة بحري الاسمان منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه من بعض . ولذلك لم تجيء مفردة ، ولم تطلق عليه إلا مقترنة . فلو قلت : يا ضار يا مانع ، يا مذل ، لم تكن مثنياً عليه ، ولا حامداً له حتى تذكر مقابلتها . انتهى ملخصاً من كلام ابن القيم . وفيه بعض زيادة ، وبه يظهر الجواب عما قد يرد على ما سبق ذكر الأسماء الحسنى التي ورد عدها في الحديث . لما كان إحصاء الأسماء الحسنى والعمل بها أصلاً للعلم بكل معلوم ، وكانت سعادة الدنيا والآخرة مرتبة عليها فما حصل من آثارها للعباد ، هو الذي أوجب لهم دخول الجنة ، ولهذا جاء الحديث الصحيح المتفق عليه أن « من أحصاها دخل الجنة » . وذكرنا مراتب الاحصاء ، لأن العبد محتاج ، بل مضطر إلى معرفتها فوق كل ضرورة . وقد قيل : إن الله ذكرها كلها في القرآن . ولا ريب أن الله تعالى ذكر أكثرها بلفظها ، ولم يذكره بلفظه ، ففي القرآن ما يدل عليه . قال الترمذي : حدثنا إبراهيم بن يعقوب ، أخبرنا صفوان بن صالح ، أخبرنا الوليد بن مسلم أخبرنا شعيب بن أبي حمزة : عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة ، هو الله الذي لا إله إلا هو . الرحمن . الرحيم . الملك القدوس . السلام . المؤمن . المهيمن . العزيز . الجبار . المتكبر . الخالق . البارئ . المصور . الغفار . القهار . الوهاب . الرزاق . الفتاح . العليم . القابض . الباسط . الخافض . الرافع . المعز . المذل . السميع . البصير . الحكم . العدل . اللطيف . الخبير . الحليم . الوهاب . الغفور . الشكور . العلي . الكبير . الحفيظ . المقيت . الحنيب . الجليل . الكريم . الرقيب . المجيب . الواسع . الحكيم .

الودود . المجيد . الباعث . الشهيد . الحق . الوكيل . القوي .
المتين . الولي . الحميد . المحصي . المبدئ . المعيد . الهبى . الميث .
الحي . القيوم . الواجد . الماجد . الواحد . الأحد . الصمد . القادر .
المقتدر . المقدم . المؤخر . الأول . الآخر . الظاهر . الباطن .
الولي . المتعال . البر . التواب . المنعم . المنتقم . العفو . الرؤوف .
مالك الملك . ذو الجلال والإكرام . المقسط . الجامع . الغنى .
المغنى . المانع . الضار . النافع . النور . الهادي . البديع . الباقي .
الوارث . الرشيد . الصبور .

قال الترمذي : هذا حديث غريب جداً حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح ، وهو ثقة عند أهل الحديث . وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ولا نعلم في كبير شيء من الروايات ذكر الأسماء الحسنى إلا (١) في هذا الحديث ، وقد روى آدم بن (٢) أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وذكر فيه الأسماء ، وليس له إسناد صحيح . قلت : يشير إلى عدد الأسماء مردأ ، وإلا فصدر الحديث متفق عليه . وقد خرج به بالعدد المذكور ابن المنذر ، وابن خزيمة في « صحيحه » ، وابن حبان والطبراني ، والحاكم في « المستدرک » ، وغيرهم به ، ولم يذكروا فيه « المعطي » ، وإسناده صحيح ، ولكن المستغرب منه ذكر العدد . ورواه ابن ماجه من طريق عبد الملك بن الصنعاني عن زهير ابن محمد التميمي عن موسى بن عقبة عن الأعرج ، وساق الأسماء ، وخالف سياق الترمذي في الترتيب والزيادة والنقص ، فأما الزيادة فهي الباري ،

(١) سقطت من الطبعة السابقة « ٧ » .

(٢) في الطبعة السابقة « عن » وهو خطأ .

الراشد البرهان الشديد الواقي القائم الحافظ الناظر السامع المعطي الأبد
المتبر التام القديم الوتر ، وعبد الملك لين الحديث ، وزهير مختلف فيه ،
وحديث الوليد أصح إسناداً وأحسن سياقاً ، وأجدر أن يكون مرفوعاً
ولهذا قال النووي : هو حديث حسن . قال بعضهم : والعلة في كونها
لم يخرجها بذكر الأسامي تفرد الوليد بن مسلم عالم الشاميين الثقة . وقد
قل : إن العدد المذكور مدرج . قال في « الإرشاد » ، ما معناه : ذكر
جماعة من الحفاظ المحققين المتقنين أن سرد الأسماء في حديث أبي هريرة
مدرج فيه ، وأن جماعة من أهل العلم جمعوها من القرآن ، كما روي ذلك
عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة ، وأبي زيد اللغوي . وقال البيهقي :
يحتمل أن يكون التفسير للأسماء وقع من بعض الرواة ، ولهذا الاحتمال
ترك الشيخان إخراج حديث الوليد في « الصحيح » ، قال في « البدر » :
والدليل على ذلك وجهان أحدهما : أن أصحاب الحديث لم يذكروها ،
والثاني : أن فيها تغييراً بزيادة ونقصان ، وذلك لا يليق بالمرتبة العليا النبوية ،
كذا قال ، وفيه نظر ، فإن الزيادة والنقصان قد تكون من الرواة ،
وإن كان الحديث صحيحاً كما في غير ذلك من الأحاديث . وقد رواه
الطبراني في « الدعاء » ، والحاكم وغيرهما ، فزادوا « الرب الإله الخانات
المتان البارئ » ، وفي لفظ « القائم الفرد » ، وفي لفظ « القادر » بدل
الفرد و « المغيث الدائم الحميد » ، وفي لفظ « الجليل الصادق المولى النصير
القديم الوتر الغافر العلام المليك الأكرم المدير المالك الشاكر الرفيع ذو
الجل ، ذو المعارج ذو الفضل الخلاق » ، ولا أقله يثبت ، وإن كانت بعض
العدد صحيحاً . وعد جعفر بن محمد منها « المنعم المتفضل السريع »

وقال ابن حزم : جاءت في إحصائها أحاديث مضطربة ، لا يصح منها شيء أصلاً ، ونقل عنه أنه قال : صح عندي قريباً من ثمانين اسماً ، اشتمل عليها الكتاب ، والصحيح من الأخبار ، فليطلب الباقي بطريق الاجتهاد .

وقال القرطبي في « شرح الأسماء الحسنى » : العجب من ابن حزم ذكر من الأسماء الحسنى نيماً وثمانين فقط ، والله يقول : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) [الانعام : ٣٩] ثم ساق ما ذكره ابن حزم . وفيه من الزيادة على ما تقدم « الرب الإله الأعلى » الأكبر الأعز السيد السبح الوتر المحسن الجميل الرفيق الدهر . وقد عدها الحافظ فزاد « الحلي السريع » الغالب العالم الحافظ المستعان . وفي هذا نظر يفهم مما تقدم ، وإن كان قد ذكر بعضها فيما لا يثبت من الحديث ، فهذه خمسة وستون ومائة اسم ، أقربها من جهة الإسناد سيق الترمذي ، وما عدا ذلك فليح اسماء صحيحة ثابتة ، وفي بعضها توقف ، وبعضها خطأ محض ، كالأبد والناظر والسامع والقائم والسريع ، فهذه وإن ورد عداها في بعض الأحاديث ، فلا يصح ذلك أصلاً . وكذلك الدهر والفعال والعالق والمخرج والعالم ، مع أن هذه لم ترد في شيء من الأحاديث إلا حديث « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » وقد مضى معناه ، وبيننا خطأ ابن حزم في عده من الأسماء الحسنى هناك . واعلم أن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ، ولا تحد بعدد فإن الله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده ، ولا يعلمها ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، كما في الحديث الصحيح « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمت أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك » رواه أحمد وابن حبان في « صحيحه » وغيرهما .

قال ابن القيم : فجعل أسماء ثلاثة أقسام : قسم سمي به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ، ولم ينزل به كتابه ، وقسم أنزل به كتابه ، وتعرف به إلى عبادهم ، وقسم استأثر به في علم غيبه ، فلم يطلع عليه أحدًا من خلقه ، ولهذا قال « استأثرت به » أي : انفردت بعلمه ، وليس المراد انفراجه بالمسمى به ، لأن هذا الانفرد ثابت في الأسماء التي أنزل بها كتابه . ومن هذا قوله عليه السلام في حديث الشفاعة « فيفتح علي من محامده بما لا أحسنه الآن » وتلك المحامد هي بأسمائه وصفاته ومنه قوله « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وأما قوله ﷺ « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » فالكلام جملة واحدة ، وقوله « من أحصاها دخل الجنة » صفة لا خبر مستقبل ، والمعنى : له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة ، وهذا كقولك : لفلان ألف شاة أعدها للأضياف فلا يدل على أنه لا يملك غيرها . وهذا لا خلاف بين العلماء فيه . وقوله تعالى (وذروا الذين يلحدون في أسمائه) [الأعراف : ١٨٠] أي : اتركوهم ، وأعرضوا عن مجادلهم ، قال ابن القيم : والإلحاد في أسمائه : هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، وهو مأخوذ من الميل ، كما يدل عليه مادة اللحد ، ومنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط ، ومنه اللحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل .

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه أحدها : أن يسمي الأصنام بها ، كتسميتهم اللات من الإله ، والعزى من العزيز ، وتسميتهم الصنم إلهاً ، وهذا إلحاد حقيقة ، فهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة . الثاني :

تسميته بما لا يليق بجلاله ، كتسمية النصارى له أباً وتسمية الفلاسفة له مروجاً بذاته ، أو علة فاعلة بالطبيع ، ونحو ذلك . وثالثها : وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص ، كقول أخبث اليهود : إنه فقير ، وقولهم : إنه استراح بعد أن خلق خلقه ، وقولهم : يد الله مغولة ، وأمثال ذلك ، ما هو إلحاد في أسمائه وصفاته . ورابعها : تعطيل الأسماء الحسنى عن معانيها ، وجحد حقائقها ، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم : إنها ألفاظ مجردة ، لا تتضمن صفات ، ولا معاني ، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم ، ويقولون : لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به ، وهذا من أعظم الإلحاد فيما عقلنا وشرعاً ولغة وفطرة ، وهو يقابل إلحاد المشركين ، فإن أولئك أعطوا من أسمائه وصفاته لا قيمة ، وهؤلاء سلبوا كماله ، وجحدوها وعطلوها ، وكلاهما ألد في أسمائه ، ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد ، فمنهم الغالي والمتوسط والمتلوث ، وكل من جحد شيئاً بما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ فقد ألد في ذلك فليقل أو ليستكثر . وخامسها : تشبيه صفاته بصفات خلقه ، تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً ، فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة ، فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها ، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه ، فجحدتهم الإلحاد ، وتفرقت بهم طرقه ، وبرأ الله أتباع رسوله ، وورثته القائلين بسنته عن ذلك كله ، فلم يصرفه إلا بما وصف به نفسه ، ولم يجحدوا صفاته ، ولم يشبهوها بصفات خلقه ، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى ، بل أثبتوا له الأسماء والصفات ، ونفروا عنه مشابة المخلوقات فكان إنباتهم بريئاً من التشبيه ، وتنزيهم خالياً من التعطيل ،

لا كمن شبه كأنه يعبد صنماً ، أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً ، وأهل السنة وسط في النحل ، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة زيتونة ، لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ، ولو لم تسمه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء . (سيجزون ما كانوا يعملون) وعيد وتهديد .

قوله : (يلحدون في أسمائه) : يشركون ، أي : يشركون غيره في أسمائه كتسميتهم الصنم إلهاً ، ويحتمل أن المراد الشرك في العبادة ، لأن أسماءه تعالى تدل على التوحيد ، فالإشراك بغيره إلحاد في معاني أسمائه سبحانه وتعالى لاسيما مع الإقرار بها ، كما كانوا يقولون بالله ويعبدون غيره ، فهذا الاسم وحده أعظم الأدلة على التوحيد ، فمن عبد غيره ؛ فقد ألحد في هذا الاسم ، وعلى هذا بقية الأسماء ، وهذا الأثر لم يروه ابن أبي حاتم عن ابن عباس إنما رواه عن قتادة فاعلم ذلك .

قوله : وعنه : سمو اللات من الإله ، والعزى من العزيز . هذا الأثر معطوف على سابقه ، أي : رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وكذلك الأثر الثاني عن الأعمش معطوف على سابقه أي : رواه ابن أبي حاتم عنه . والأعمش اسمه سليمان بن مهران أبو محمد الكوفي الفقيه ثقة حافظ ورع مات سنة ١٤٧ وكان مولده أول سنة ٦١ .

قوله : يدخلون فيها ما ليس منها أي : كتسمية النصارى له أباً ونحوه كما سبق .

باب

لا يقال السلام على الله

لما كان حقيقة لفظ الإسلام السلامة والبراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب ، فإذا قال المسلم : السلام عليكم فهو دعاء للمسلم عليه ، وطلب له أن يسلم من الشر كله ، والله هو المطلوب منه لا المطلوب له ، وهو المدعو لا المدعو له ، وهو الغني له ما في السموات وما في الأرض ، استحال أن يسلم عليه سبحانه وتعالى ، بل هو المسلم على عباده كما قال تعالى : (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) [النمل : ٦٠] وقال : (وسلام على المرسلين) [الصافات : ١٨٢] وقال : (تحييم يوم يلقونه سلام) [الأحزاب : ٤٥] فهو السلام ومنه السلام لا إله غيره ولا رب سواه .

في « الصحيح » عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا إذا كنا مع رسول الله ﷺ في الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان ، فقال النبي ﷺ : « لا تقولوا السلام على الله ، فإن الله هو السلام » .

ش : قوله ؛ في « الصحيح » أي « الصحيحين » .

قوله : قلنا : السلام على الله أي : يقولون ذلك في الشهادتين الأخير كما هو مصرح به في بعض ألفاظ الحديث : كنا نقول قبل أن يقرض الشهادتين : السلام على الله ، فقال النبي ﷺ : « إن الله هو السلام ، ولكن قولوا التحيات لله » .

قوله : فقال النبي ﷺ : « لاتقولوا السلام على الله » أي : والله أعلم - لما تقدم ، وكان السلام اسمه ، كما يرشد إليه آخر الحديث .
قوله : فإن الله هو السلام . أنكر عليه السلام التسليم على الله ، وأخبر أن ذلك عكس ما يجب له سبحانه ، فإن كل سلام ورحمة له ومنه فهو مالكتها ومعطيا ، وهو السلام . قال ابن الأنباري : أمرهم أن يعرفوه إلى الخلق لحاجتهم إلى السلامة ، وقال غيره : وهذا كله حماسة منه ﷺ لجانب التوحيد حتى يعرف الله تعالى ما يستحقه من الأسماء والصفات وأنواع العبادات .

قوله : السلام على فلان وفلان . اختلف العلماء في معنى السلام المطلوب عند التحية على قولين :

أحدهما : أن المعنى اسم السلام عليكم ، والسلام هنا هو الله عز وجل . ومعنى الكلام : نزلت بركة اسم السلام عليكم ، وحملت عليكم فاختر في هذا المعنى من أسمائه اسم السلام دون غيره ، ويدل عليه قوله في آخر الحديث .

قوله : فإن الله هو السلام . فهذا صريح في كون السلام اسماً من أسمائه ، فإذا قال المسلم : السلام عليكم ؛ كان معناه : اسم السلام عليكم ، يدل عليه ما رواه أبو داود ، عن ابن عمر أن رجلاً سلم على النبي ﷺ ، فلم يرد عليه حتى استقبل الجدار ، ثم تيمم ورد عليه وقال : « إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر » ففي هذا بيان أن السلام ذكر لله وإنما يكون ذكراً إذا تضمنت اسماً من أسمائه .

الثاني : أن السلام مصدر بمعنى السلامة ، وهو المطلوب المدعوه عند التحية ، لأنه ينكر بلا ألف ولام ، فيجوز أن يقول المسلم : سلام عليكم ،

ولو كان اسماً من أسمائه تعالى لم يستعمل كذلك ، بل كان يطلق عليه معروفاً كما يطلق على سائر أسمائه الحسنی . فيقال : السلام ، المؤمن ، المهيمن ، فإن التنكير لا يصرف اللفظ إلى معين ، فضلاً عن أن يصرفه إلى الله وحده ، بخلاف المعروف فإنه ينصرف إليه تعييناً إذا ذكرت أسماءه الحسنی . وبديل على ذلك عطف الرحمة والبركة عليه في قوله : سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ولأنه لو كان اسماً من أسمائه تعالى لم يستعمل الكلام بالإضمار ، وذلك بخلاف الأصل ولا دليل عليه ، ولأنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى ، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خيراً ودعاء .

قال ابن القيم : والصواب في مجموعها أي : القولين ، وذلك أن من دعا الله بأسمائه الحسنی يسأل في كل مطلوب ويترسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله ، حتى كان الداعي مستشفع إليه ، متوسل به . فإذا قال : رب اغفر لي ، وتب علي إنك أنت التواب الرحيم الغفور ، فقد سأله أمرين ، وتوسل إليه باسمين من أسمائه ، مقتضيين لحصول مطلوبه وهذا كثير جداً وإذا ثبت هذا فالمقام لا كان مقام " طلب السلامة التي هي أم ما عند الرجل أتى في طلبها بصيغة اسم من أسمائه تعالى ، وهو السلام الذي تطلب منه السلامة . فتضمن لفظ السلام معنيين .

أحدهما : ذكر الله تعالى كما في حديث ابن عمر .

والثاني : طلب السلامة وهو مقصود المسلم . فقد تضمن " سلام عليكم ، اسماً من أسماء الله ، وطلب السلامة منه . انتهى ملخصاً .

في الطبعة السابقة : هذا المقام لا كان طلب .

باب

قول : اللهم اغفر لي إن شئت

ش : لما كان العبد لاغناء له عن رحمة الله ومغفرته طرفة عين ، بل فقير بالذات إلى الغني بالذات كما قال تعالى : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد) [فاطر : ١٦] نهي عن قول ذلك ؛ لما فيه من إيهام الاستغناء عن مغفرة الله ورحمته كما سيأتي ، وذلك مضاد للتوحيد .

في « الصحيح » عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ليعزم المسألة ، فإن الله لا مكروه له » . ولمسلم « وليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه » .

ش : قوله : في « الصحيح » أي : « الصحيحين » .

قوله : « اللهم اغفر لي إن شئت » قال القرطبي : إنما نهى الرسول ﷺ عن هذا القول ، لأنه يدل على فتور الرغبة ، وقلة الاهتمام بالمطلوب . وكان هذا القول يتضمن أن هذا المطلوب إن حصل وإلا استغنى عنه ، ومن كان هذا حاله لم يتحقق من حاله الافتقار والاضطرار الذي هو روح عبادة الدعاء ، وكان ذلك دليلاً على قلة معرفته بذنوبه ، وبرحمته ربه . وأيضاً فإنه لا يكون موقناً بالإجابة . وقد قال عليه السلام : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة » واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل . قوله : ليعزم المسألة . قال القرطبي أي : ليجزم في طلبته ، ويحقق

رغبته ، ويتيقن الإجابة ، فإنه إذا فعل ذلك دل على علمه بعظيم ما يطلب من المغفرة والرحمة ، وعلى أنه مفتقر إلى ما يطلب مضطر إليه ، وقد وعد الله المضطر بالإجابة بقوله : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) [النمل: ٦٣] .

قوله : فإنه لا مكره له . أي : فإن الله لا مكره له . هذا اللفظ البخاري في الدعوات ، ولفظ مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يقول أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ليعزم المسألة في الدعاء ، فإن الله صانع ما شاء ، لا مكره له ، قال القرطبي : هذا إظهار لعدم فائدة تقبل الاستغفار والرحمة بالمشيئة . كان الله تعالى لا يضطره إلى فعل شيء دعاء ولا غيره ، بل يفعل ما يريد وبحكم ما يشاء . ولذلك قيد الله تعالى الإجابة بالمسألة في قوله : (فيكشف ما تدعون إليه إن شاء) [الأنعام : ٤٢] فلا معنى لاشتراط المشيئة بقوله .

قوله : « ولمسلم ، أي : من وجه آخر .

قوله : « وليعظم الرغبة » هو بالتشديد ، فإن الله لا يتعاضده شيء أعطاء يقال : تعاضم زيد هذا الأمر ، أي : كبر عليه وعسر . قال : والرغبة يعني الطلبة والحاجة التي يريد .

وقيل : السؤال والطلب بتكرار الدعاء والإلحاح فيه ، والأول أظهر ، أي : لسعة جوده وكرمه ، لا يعظم عليه إعطاء شيء ، بل جميع الموجودات في أمره يسير ، وهو أكبر من ذلك ، وهذا هو غاية المطالب ، فلاقتصار على الداني في المسألة إساءة ظن بجوده وكرمه .

باب

لا يقول : عبدي وأمتي

ش : أي : لما في ذلك من الإيهام من المشاركة في الربوبية ، فنهى عن ذلك أدباً مع جناب الربوبية ، وحماية لجناب التوحيد .

قال في « الصحيح » عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وضئ ربك ، وليقل : سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدي وأمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي وغلامي .

ش : قوله : في « الصحيح » ، أي : « الصحيحين » .

قوله : « لا يقل أحدكم » هو بالجزم على النهي ، والمراد أن يقول ذلك لملوكه أو مملوك غيره ، فالكل منهي عنه .

قوله : « أطعم ربك » بفتح الهمزة من الإطعام .

قوله : « وضئ ربك » أمر من الوضوء وفيها في هذا الحديث زيادة « اسق ربك » وكان المؤلف اختصرها . قال الخطابي : وسبب المنع أن الإنسان مربيوب معبد باخلاص التوحيد لله تعالى ، وترك الإشراك به ، فترك المضاهاة بالاسم لئلا يدخل في معنى الشرك ، ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد . وأما من لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجمادات ، فلا يكره أن يطلق ذلك عليه عند الإضافة كقوله : رب الدار والثوب .

قال ابن مفلح في « الفروع » : وظاهر النهي التحريم ، وقد يحتمل أنه للكراهية ، وجزم به غير واحد من العلماء . فإن قلت : قد قال الله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : (اذكرني عند ربك) .

[يوسف : ٤٣] وقال النبي ﷺ في اشتراط الساعة : « أن تلد الأمة ربها ، فهذا يدل على الجواز .

قيل : فأما الآية ففيها جوابان .

أحدهما وهو الأظهر : أن هذا جائز في شرع من قبلنا ، وقد ورد شرعنا بخلافه .

والثاني : أنه ورد لبيان الجواز ، والنهي للأدب والتنزيه دون التعريم . وأما الحديث فليس من هذا الباب للتأنيث ، والنهي عنه أن يقول ذلك للذكر لما فيه من إيماء المشاركة ، وهو معدوم في الأنثى . أو يقال : بحمله على الكراهة في الأنثى أيضاً لورود الحديث بذلك دون الذكر ، لأنه لم يرد فيه إلا النهي ، ويقال وهو أظهر : إن هذا ليس فيه إلا وصفها بذلك لادعاءها به ، وتسميتها به ، وفرق بين الدعاء والتسمية ، وبين الوصف ، كما تقول : زيد فاضل ، فتصفه بذلك ولا تسميه به ولا تدعوه به .

قوله : « وليقل سيدي » قيل : إن الفرق بين الرب والسيد ، أن الرب من أسماء الله تعالى اتفاقاً ، واختلف في السيد هل هو من أسماء الله تعالى ؟ ولم يأت في القرآن أنه من أسماء الله . لكن في حديث عبد الله بن الشخير « السيد الله » وسيأتي . فإن قلنا : ليس من أسماء الله فالفرق واضح ، إذ لا التباس ، وإن قلنا : إنه من أسماء الله فليس في الشهرة والاستعمال ، كلفظ الرب فيحصل الفرق . وأما من حيث اللغة فالسيد من السؤدد وهو التقدم ، يقال : ساد قومه إذا تقدمهم ، ولاشكر في تقديم السيد على غلامه ، فلما حصل الافتراق جاز الإطلاق .

قلت : وحديث ابن الشخير لا ينبغي إطلاق لفظ السيد على غير الله ، بل المراد أن الله هو الأحق بهذا الاسم بأنواع العبارات ، كما أن غيره لا يسمى به . ومولاي . قال النووي : المولى يطلق على ستة عشر معنى ، منها الناظر والمولى والمالك ، وحيث أن فلا بأس أن يقول : مولاي .

قال في « الفروع » ولا يقل : عبدي وأمتي ، كلكم عبيد الله ، وإماء الله . ولا يقل العبد لسيدته : ربي . وفي مسلم أيضاً « ولا مولاي فولاكم الله » . وظاهر النهي للتحريم . وقد يحتمل أنه للكراهة ، وجزم به غير واحد من العلماء كما في « شرح مسلم » انتهى كلامه .

قلت : فظاهر رواية مسلم معارضة لحديث الباب ، وأجيب بأن مسلماً قد بين الاختلاف فيه عن الأئمة ، وأن منهم من ذكر هذه الزيادة ، ومنهم من حذفها .

قال عياض : وحذفها أصح . فظهر أن اللفظ الأول أرجح ، وإثما صرنا للترجيح للتعارض بينها والجمع متعذر ، والعلم بالتاريخ مفقود ، فلم يبق إلا الترجيح .

قلت : الجمع ممكن بحمل النهي على الكراهة ، أو على خلاف الأولى . قوله : « ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي » ، لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالى ، ولأن فيها تعظيماً لا يليق بالخلق ، وقد بين النبي ﷺ العلة في ذلك . كما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً : « لا يقول أحدكم : عبدي وأمتي ، ولا يقول المملوك : ربي وربتي ، وليقل المالك : فتاي وفتاتي ، وليقل المملوك : سيدي وسيدي ، فإنكم المملوكون » ، والرب الله عز وجل ، ورواه أيضاً بإسناد صحيح موقوفاً ،

فهذه علة له . وفي رواية لمسلم « لا يقول أحدكم : عبدي فإن كسب عبداً
الله » . قال في « مصابيح الجامع » النهي إنما جاء متوجهاً إلى السيد إذ
هو في مظنة الاستطالة ، وأما قول الغير : هذا عبد زيد ، وهذه أمة
خالد فجائز ، لأنه يقول إخباراً أو تعريضاً ، وليس في مظنة الاستطالة .
قلت : وهو حسن ، وقد رويت أحاديث تدل على ذلك ، وقال
أبو جعفر النحاس : لا نعلم بين العلماء خلافاً أنه لا ينبغي لأحد أن
يقول لأحد من المخلوقين : مولاي ، ولا يقول : عبدك وعبدي ، وإن
كان مملوكاً ، وقد حظر رسول الله ﷺ على المملوكين ، فكيف
للأحرار ؟ .

قوله : ويلعل : فتاي وثنائي ، وغلامي أي : لأنها ليست دالة على
الملك كدلالة عبدي وأمتي ، فأرشد عليه السلام إلى ما يؤدي المعنى
من السلامة من الإيham والتعظيم مسع أنما تطلق على الحر والمملوك ،
لكن إضافته تدل على الإخلاص .

باب

لا يرد من سئل بالله

ش : أي : إعظماً وإجلالاً لله تعالى أن يسأل به في شيء ، ولا يجاب
السائل إلى سؤاله ومطلوبه ، ولهذا أمر النبي ﷺ ، بأبرار القسم وتنازعوا
هل هو أمر استحباب ، أو إيجاب ؟ وظاهر كلام شيخ الإسلام التفريق
بين أن يقصد إلزامه بالقسم فتجب إجابته ، أو يقصد إكرامه فلا تجب
عليه . ولهذا أوجب على القسم في الأولى الكفارة ، إذا لم يفعل لهولف

عليه ، دون الثانية ، لأنه كالأمر ، ولا يجب إذا كان للإكرام لأمر
النبي ﷺ أبا بكر بوقوفه في الصف ولم يقف ، ولأن أبا بكر أقسم
على النبي ﷺ ، ليخبرنه بالصواب والخطأ لما فسر الرؤيا ، فقال النبي ﷺ :
« لا تقسم » كما في « الصحيحين » قال : لأنه علم أنه لم يقصد الإقسام
عليه مع المصلحة المقتضية للكم .

قال : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :
« من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه ، ومن دعاكم
فاجيبوه ، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه ، فان لم تجدوا ما تكافئوه
فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه » رواه أبو داود ، والنسائي
بسند صحيح .

ش : قوله : من استعاذ بالله فأعيذوه ، أي : من سألكم أن تدفعوا
عنه شركم أو شر غيركم بالله ، كقوله : بالله عليك أن تدفع عني شر
فلان أو شرك ، أعوذ بالله من شرك أو شر فلان ونحو ذلك ، فأعيذوه
أي : امنعوه بما استعاذ منه وكفوه عنه لتعظيم اسم الله تعالى ، ولهذا
قالت الجونية للنبي ﷺ : أعوذ بالله منك قال : « لقد عذت بمعاذ ،
الحقني بأهلك » . ولفظ أبي داود « من استعاذكم بالله فأعيذوه ومن سألكم
بالله فأعطوه » .

قوله : « ومن سأل بالله فأعطوه » وفي حديث ابن عباس عند
أحمد وأبي داود « ومن سألكم بوجه الله فأعطوه » ومعناه ظاهر ، وهو يقول
أسألك بالله أو بوجه الله ونحو ذلك ، أن تفعل أو تعطيني كذا ، ويدخل
في ذلك القسم عليه بالله أن يفعل كذا ، وظاهر الحديث ، وجوب إعطائه

ما سأل ما لم يسأل إثمًا ، أو قطيعة رحم . وقد جاء الوعيد على ذلك في عدة أحاديث ، منها حديث أبي موسى مرفوعاً « ملعون من سئل بوجه الله ، وملعون من يسأل بوجهه ثم منع سائله ما لم يسأل هجرأ » ، رواه الطبراني . قال في « تنبيه الغافلين » : رجال إسناده رجال الصحيح ، إلا شيخه يحيى بن عثمان بن صالح ، والأكثر على توثيقه ، فإن بلغ هذا الإسناد أو إسناد غيره مبلغاً يحتاج به كان ذلك من الكبار . وعن أبي عبيدة مولى رفاع بن رافع مرفوعاً « ملعون من سأل بوجه الله وملعون من سئل بوجه الله فمنع سائله » ، رواه الطبراني أيضاً . وعن ابن عباس مرفوعاً : « ألا أخبركم بشر الناس : رجل يسأل بالله ولا يعطي » ، رواه الترمذي وحسنه ، وابن حبان في « صحيحه » ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أخبركم بشر البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله قال : « الذي يسأل بالله ولا يعطي » ، رواه أحمد .

إذا تبين هذا فهذه الأحاديث دالة على إجابة من سئل بالله أو أقسم به ، ولكن قال شيخ الإسلام : إنما تجب على معين ، فلا تجب على سائل يقسم على الناس ، وظاهر كلام الفقهاء أن ذلك مستحب كإبرار القسم ، والأول أصح .

قوله : « ومن دعاكم فاجبيوه » . أي : من دعاكم إلى طعام فاجبيوه فإن كانت وليمة عرس وتوفرت الشروط المبينة في كتب الفقه وجبت الإجابة ، وإن كان لغيرها استحب إجابتها ، ونجس مطلقاً وهو الصحيح لظاهر الأحاديث ، وهي لم تفرق بين وليمة العرس وغيرها ، وإن كانت وليمة العرس أكد وأوجب .

قوله : « ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه » المعروف : اسم جامع للخير . وقوله « فكافئوه » أي : على إحسانه بمثله أو خير منه ، وقد أشار شيخ الاسلام إلى مشروعية المكافأة ، لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها ، فهو إذا أحسن إليه ولم يكافئه يبقى في قلبه نوع تاله لمن أحسن إليه ، فشرع قطع ذلك بالمكافأة ، فهذا معنى كلامه . وقال غيره : إنما أمر بالمكافأة ليخلص القلب من إحسان الخلق ويتعلق بالحق . ولفظ أبي داود : « من أتى إليكم معروفاً » .

قوله : « فإن لم تجدوا ما تكافئوه » هكذا ثبت بحذف النون في خط المصنف ، وهكذا هو في غيره من أصول الحديث . قال الطيبي : سقطت من غير ناصب ولا جازم ، إما تخفيفاً أو سهواً من الناسخ .

قوله : « فادعوا له إلى النعم » يعني من أحسن إليكم أي إحسان فكافئوه بمثله ، فإن لم تجدوا فبالغوا في الدعاء له جهـدكم حتى تحصل المسألة ، ووجه المبالغة أنه رأى في نفسه تقصيراً في المجازاة لعدم القدرة عليها ، فأحالهـا إلى الله ، ونعم المجازي هو ، وهذا الحديث رواه أيضاً أحمد بإسناد صحيح ، وابن حبان ، والحاكم ، وصححه النووي . وقد روى الترمذي وصححه النسائي وابن حبان عن أسامة بن زيد مرفوعاً : « من صنع إليكم معروفاً فقال الفاعل : جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء » .

باب

لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

أي إعظاماً وإجلالاً وإكراماً لوجه الله أن يسأل به إلا غاية المطالب ،

وهذا من معاني قوله تعالى : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام)
[الرحمن : ٢٨] .

قال : عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة » . رواه أبو داود أيضاً .

ش : قوله : عن جابر . هو جابر بن عبد الله .

قوله : « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة » ، روي بالنهي والنهي ، وروي
بالبناء للمجهول ، وهو الذي في الأصل ، وروي بالخطاب للمفرد ، وفيه
إثبات الوجه خلافاً للجهمية ونحوهم ، فإنهم أولوا الوجه بالذات ، وهو
باطل ، إذ لا يسمى ذات الشيء وحقيقته وجهاً ، فلا يسمى الإنسان وجهاً ،
ولا تسمى يده وجهاً ، ولا تسمى رجله وجهاً . والقول في الوجه عند
أهل السنة كالقول في بقية الصفات ، فيثبتونه لله على ما يليق بجلاله وكبريائه
من غير كيف ولا تحديد ، إثبات بلا تثليل ، ونزبه بلا تعطيل .

قوله : « إلا الجنة » ، كأن يقول : « اللهم إني أسألك بوجهك
الكريم أن تدخلني الجنة » ، وقيل : المراد لا تسألوا من الناس شيئاً بوجه
الله « كأن يقول : أعطني شيئاً بوجه الله ، فإن الله أعظم من أن يسأل
به شيء من الخطام .

قلت : والظاهر أن كلا المعنيين صحيح ، قال الحافظ العراقي :
وذكر الجنة إنما هو للتبنيء به على الأمور العظام لا لتخصيص ، فلا يسأل
بوجهه في الأمور الدنيئة ، بخلاف الأمور العظام تحصيلاً أو دفعاً ، كما
يشير إليه استعاذة النبي ﷺ به .

قلت : والظاهر أن المراد لا يسأل بوجه الله إلا الجنة ، أو ما هو
وسيلة إليها ، كاستعاذة بوجه الله من غضبه ومن النار ونحو ذلك مما هو

وارد في أدعيته ﷺ وتعوذاته ، ولما نزل قوله تعالى : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) قال النبي ﷺ أعوذ بوجهك (أو من تحت أرجلكم) [الأنعام : ٦٦] قال : « أعوذ بوجهك » رواه البخاري . وهذا الحديث رواه في « المختارة » أيضاً ولكن في إسناده سليمان بن معاذ . قال ابن معين : ليس بشيء ، وضعفه عبد الحق وابن القطان .

باب

ما جاء في اللو

اعلم أن من كمال التوحيد الاستسلام للقضاء والقدر رضا بالله رباً فإن هذا من جلس المصائب ، والعبد مأمور عند المصائب بالصبر والارجاع والتوبة . وقول « لو » لا يجدي عليه إلا الحزن والتحسر مع ما يخاف توحيده من نوع المعاندة للقدر الذي لا يكاد يسلم منها من وقع منه هذا إلا ما شاء الله ، فهذا وجه إirاده هذا الباب في التوحيد .

قال وقول الله تعالى : (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا) [آل عمران : ١٥٥] .

ش : قال ابن كثير : فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله : (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا) أي : يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ .

قال ابن اسحاق : حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال : لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد

الحوف علينا : أرسل الله علينا النوم ، فما منا رجل إلا ذقته في صدره فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعُه إلا كالحلم (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هنا) فحفظتها منه وفي ذلك أنزل الله عز وجل (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هنا) . لقول معتب . رواه ابن أبي حاتم . قال الله تعالى : (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) أي : هذا قدر مقدر من الله عز وجل ، وحكم حكم لازم لا يحيد عنه ولا مناص منه .

قلت : فتبين وجه إيراد المصنف الآية على الترجمة ، لأن قول « لو » في الأمور المقدرة من كلام المنافقين ، ولهذا رد الله عليهم ذلك بأن هذا قدر ، فمن كتب عليه شيء فلا بد أن يناله ، فماذا يغني عنكم قول « لو » ، و« ليت » ، إلا الحسرة والندامة ؟ فالواجب عليكم في هذه الحالة الإيمان بالله والتعزي بقدره مع ما توجعون من حسن ثوابه ، وفي ذلك عين الفلاح لكم في الدنيا والآخرة ، بل يصل الأمر إلى أن تغلب المخاوف أماناً والأحزان صبراً وفرحاً كما قال عمر بن عبد العزيز : أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر .

قال : وقوله تعالى : (الذين قالوا لإخوتهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا) [آل عمران : ١٦٩] .

ش : روى ابن جرير عن السدي قال : خرج رسول الله ﷺ يوم أحد في ألف رجل ، وقد وعدم الفتح إن صبروا ، فلما خرجوا رجع عبد الله بن أبي في ثلاثمائة ، فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوم ، فلما غلبوه وقالوا له : ما نعلم قتالاً ولئن أطعنا لترجعن معنا فنزل (الذين قالوا لإخوتهم وقعدوا

لو أطاعونا ما قتلوا) [آل عمران : ١٦٩] . وعن ابن جرير في الآية . قال : هو عبد الله بن أبي (الذين قعدوا وقالوا لإخوانهم) الذين خرجوا مع النبي ﷺ ، يوم أحد . رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم . فعلى هذا لإخوانهم هم المسلمون المجاهدون ، وسموا لإخوانهم لموافقتهم في الظاهر . وقيل : لإخوانهم في النسب لا في الدين (لو أطاعونا ما قتلوا) قال ابن كثير : لو سمعوا مشورتنا عليهم في القعود ، وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل قال الله تعالى : (قل فادّروا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين) أي : ان كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون ، والموت لا بد آت اليكم ولو كنتم في بروج مشيدة . فادفعوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين . قال مجاهد : عن جابر بن عبد الله نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي . قلت : وكان أشار على رسول الله ﷺ ، يوم أحد بعدم الخروج ، فلما قدر الله الأمر قال ذلك تصويهاً لرأيه ، ورفعاً لشأنه فرد الله عليه وعلى أمثاله (قل فادّروا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين) فلا تعذرون عن ذلك . فعلم أن ذلك بقضاء الله وقدره أي : يستوي الذي في وسط الصفوف والذي في البروج المشيدة في القتل والموت . بل (لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) [آل عمران : ١٥٥] فلا ينبغي حذر من قدر . وفي ضمن ذلك قول « لو » ونحوه في مثل هذا المقام ؛ لأن ذلك لا يجدي شيئاً ، إذ المقدر قد وقع فلا سبيل إلى دفعه أبداً (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) [الطور : ٤٩] .

قال في « الصحيح » عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله

ﷺ قال : « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز .
وان أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن
قل : قدر الله وما شاء فعل ، فان لو تفتح عمل الشيطان » .

ش : قوله : في « الصحيح » ، أي : « صحيح مسلم » .

قوله : « احرص على ما ينفعك » الخ . هذا الحديث اختصره المصنف
رحمه الله ولفظه أن النبي ﷺ قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله
من المؤمن الضعيف . وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك » الى آخره .
فقوله عليه السلام : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف »
فيه أن الله سبحانه موصوف بالهبة ، وأنه يحب على الحقيقة كما قال (يحبهم
ويحبونه) [المائدة : ٥٨] وفيه أنه سبحانه يحب مقتضى أسمائه وصفاته ،
وما يوافقها فهو القوي ، ويحب المؤمن القوي ، وهو وتر يحب الوتر ،
وجميل يحب الجمال ، وعليم يحب العلماء ، وعسن يحب المحسنين ، وصبور
يحب الصابرين ، وشكور يحب الشاكرين .

قلت : الظاهر أن المراد القوة في أمر الله وتنفيذه ، والمسابقة بالخير ،
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على ما يصيب في ذات الله
ونحو ذلك ، لا قوة البدن . ولهذا مدح الله الأنبياء بذلك في قوله :
(واذكر عبادنا إبراهيم واسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار) [ص : ١٦]
فالأيدي : القوة ، والعزائم في تنفيذ أمر الله . وقوله : (واذكر عبدنا داود
ذا الأيد) [ص : ١٨] وقوله : « وفي كل خير ، أي : كل
من المؤمن القوي والمؤمن الضعيف على خير وعافية ، لا اشتراكها في الإيمان
والعمل الصالح . ولكن القوي في إيمانه ودينه أحب إلى الله . وفيه أن

محبة المؤمنين تتفاضل فيجب بعضهم أكثر من بعض . وقوله : « احرص على ما ينفعك » هو بفتح الراء وكسرها قال ابن القيم : سعادة الانسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده . والحرص : هو بذل الجهد واستفراغ الوسع . فاذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً ، وكاله كله في مجموع هذين الأمرين أن يكون حريصاً ، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به . فإن حرص على ما لا ينفعه أو فعل ما ينفعه بغير حرص ، فانه من الكمال بحسب ما فاته من ذلك ، فالخير كله في الحرص على ما ينفع .

قوله : « واستعن بالله » قال ابن القيم : لما كان حرص الانسان وفعله إنما هو بمعونة الله ، ومشيتته ، وتوفيقه ، أمره أن يستعين به ليجتمع له مقام إياك نعبد وإياك نستعين فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله ، ولا تتم الا بمعونته . فأمره بأن يعبد ويستعين به . وقال غيره : « استعن بالله » أي : اطلب الإعانة في جميع أمورك من الله لا من غيره . كما قال تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) [الفاتحة : ٥] فإن العبد عاجز لا يقدر على شيء إن لم يعنه الله عليه ، فلا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل . فمن أعانه الله فهو المعان ، ومن خذله فهو المخذول . وقد كان النبي ﷺ يقول في خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا : « الحمد لله نستعينه ونستهديه » ومن دعاء القنوت « اللهم إنا نستعينك » وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول : « اللهم أعني ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » . وكان ذلك من دعائه ﷺ . ومنه أيضاً « اللهم أعني ولا تعن علي » وإذا حقق العبد مقام الاستعانة وعمل به ، كان مستعيناً

بإله عز وجل ، متركلًا عليه ، راغبًا وراهبًا إليه ؛ فيستحق له مقام التوحيد إن شاء الله تعالى .

قوله : « ولا تعجز » وهو بكسر الجيم وفتحها . استعمل الحرص والاجتهاد ، وفي تحصيل ما ينفعك من أمر دينك ودنياك التي تستعين بها على صيانة دينك ، وصيانة عيالك ، ومكارم أخلاقك . ولا تفرط في طلب ذلك ، ولا تتعاجز عنه متكلاً على القدر ، أو منهاوياً بالأمر . فتنسب للتقصير وتلام على التفريط شرعاً وعقلاً مع انتهاء الاجتهاد نهايته ، وبلاغ الحرص غايته . فلا بد من الاستعانة بإله والتوكل عليه والالتجاء في كل الأمور إليه ، فمن ملك هذين الطريقتين حصل على خير الدارين .

وقال ابن القيم : العجز ينافي حرصه على ما ينفعه ، وينافي استعانته بإله ، فالحرص على ما ينفعه المستعين بإله ضد العاجز ، فهذا ارشاد له قبل رجوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله ، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمه الأمور بيده ، ومصدرها منه ، ومردّها إليه .

قوله : « فإن أصابك شيء » إلى آخره . العبد إذا فاته ما لم يقدر له فله حالتان : حالة عجز وهي مفتاح عمل الشيطان بإيقاعه العجز إلى « لو » ولا فائدة في « لو » هنا ، بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن ، وذلك كله من عمل الشيطان فنهائهم ^{عن} عن امتناع عمله بهذا المفتاح ، وأمره بالحالة الثانية ، وهي النظر إلى القدر وملاحظته ، وأنه لو قدر له لم يفته ، ولم يغلبه عليه أحد فلم يبق له هنا أنفع من شهود القدر ، ومشيئة الرب النافذة ، التي توجب وجود المقدور وإذا انتفت امتنع وجوده ، فلماذا قال : « وإن أصابك شيء » أي : غلبك الأمر ولم

يحصل المقصود بعد بذل جهده والاستعانة بالله فلا تقل : « لو أني فعلت
 لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل » . فأرشدته إلى
 ما ينفعه في الحالتين . حالة حصول مطلوبه ، وحالة فواته . فلماذا كانت
 هذا الحديث بما لا يستغني عنه العبد أبداً ، بل هو أشد شيء إليه ضرورة ،
 وهو يتضمن إثبات القدر والكسب ، والاختيار ، والقيام بالعبودية باطناً
 وظاهراً في حالتي حصول المطلوب وعدمه ، هذا معنى كلام ابن القيم .
 وقال القاضي : قال بعض العلماء : هذا النهي إنما هو لمن قاله معتقداً ذلك
 حتماً ، وأنه لو فعل ذلك لم يصبه قطعاً . فأما من رد ذلك إلى مشيئة
 الله تعالى ، وأنه لن يصبه إلا ما شاء الله ، فليس من هذا ، واستدل
 بقول أبي بكر الصديق في الغار : لو أن أحدهم رفع رأسه لرآنا . قال
 القاضي : وهذا ما لا حجة فيه ، لأنه أخبر عن مستقبل ، وليس فيه دعوى
 لرد القدر بعد وقوعه . قال : وكذا جميع ما ذكره البخاري فيما يجوز
 من « اللو » كحديث « لولا حدثان قومك بالكفر ، لأقمتم البيت على قواعد
 إبراهيم » و « لو كنت راجعاً بغير بينة لرجعت هذه » و « لولا أن
 أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك » وشبه ذلك ، وكله مستقبل لا اعتراض فيه
 على قدر ولا كراهة فيه ، لأنه إنما أخبر عن اعتقاده فيما كان يفعل لولا
 المانع وعما هو في قدرته ، فأما ما ذهب فليس في قدرته . فإن قيل :
 ما تصنعون بقوله ﷺ « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت
 الهدي ، ولجعلتها عمرة » ؟ قيل : هذا كقوله : « لولا حدثان قومك
 بالكفر » ونحوه بما هو خبر عن مستقبل لا اعتراض فيه على قدر ، بل
 هو إخبار لهم أنه لو استقبل الإحرام بالحج ، ما ساق الهدي ولا أحرم

بالعمرة بقوله لهم لما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة حثاً لهم وتطلياً لقلوبهم
لما رأهم توقفوا في أمره ، فليس من المنهي عنه ، بل هو إخبار لهم عما
كان يفعل في المستقبل لو حصل ، ولا خلاف في جواز ذلك ، وإنما ينهى
عن ذلك في معارضة القدر مع اعتقاد أن ذلك المانع لو يقع لوقع
خلاف المقدور .

قوله : « فإن لو تفتح عمل الشيطان » أي : من الجزع والعجز
واللوم والسخط من القضاء والقدر ونحو ذلك ، ولهذا من قالها على وجه
النهي عنه ، فإن سلم من التكذيب بالقضاء والقدر لم يسلم من المعاندة
له ، واعتقاد أنه لو فعل ما زعم لم يقع المقدور ونحو ذلك ، وهذا من عمل
الشیطان . فإن قيل : ليس في هذا رد للقدر ولا تكذيب به ، إذ تلك
الأسباب التي تمنّاها من القدر ، فهو يقول : لو أتى وقت لهذا القدر
لاندفع به عني ذلك القدر ، فإن القدر يدفع بعضه ببعض . قيل : هذا
حق ، ولكن ينفع قبل وقوع القدر المكروه ، أما إذا ما وقع فلا سبيل
إلى دفعه ، وإن كان له سبب إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر ، فهو أولى به
من قول : لو كنت فعلت ، بل وحقيقته في هذه الحال أن يستقبل فعله
الذي يدفع به المكروه ، ولا يتمنى ما لا مطمع في وقوعه ، فإنه عجز بخلاف
واقفه يلوم على العجز ، ويحب الكيس ويأمر به ، والكيس مباشرة الأسباب
التي ربط الله بها بسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده . انتهى ملخصاً من
كلام ابن القيم .

باب

النهي عن سب الريح

ش : أي لأنها مأمورة ولا تأثير لها في شيء إلا بأمر الله فسبها كسب الدهر ، وقد تقدم النهي عنه ، فكذلك الريح .

قال : عن أبي بن كعب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا الريح ، فإذا رأيتم ما تكوهون ؛ فقولوا : اللهم إنا لسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به » صححه الترمذي .

ش : قوله : عن أبي بن كعب ، أي : ابن قيس بن عبيد بن زيد ابن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري الحزرجي أبو المنذر . صحابي بدري جليل وكان من قراء الصحابة وقضاة وعلمائهم وله مناقب مشهورة اختلف في سنة موته ، فقال الهيثم بن عدي : مات سنة تسعة عشر وقال خليفة بن خياط : سنة اثنين وثلاثين ، يقال فيها مات أبي بن كعب ، ويقال : بل مات في خلافة عمر . قلت : وقيل غير ذلك .

قوله : « لا تسبوا الريح » أي : لا تشتموها ولا تلعنوها للحوق ضرر فيها فإنها مأمورة مقمورة ، فلا يجوز سبها ، بل تجب التوبة عند الضرر بها وهو تأديب من الله تعالى لعباده ، وتأديبه رحمة للعباد ، فلهذا جاء في حديث أبي هريرة مرفوعاً « الريح من روح الله تأتي بالرحمة والعذاب ، فلا تسبوها ولكن سلوا الله من خيرها وتعوذوا بالله من شرها » رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه . وكونها قد تأتي بالعذاب لا ينافي كونها من رحمة

الله وعن ابن عباس أن رجلاً لعن الريح عند النبي ﷺ ، فقال :
« لا تلعنوا الريح ، فإنها مأمورة ، وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهل
رجعت اللعنة إليه » . رواه الترمذي ، وقال : غريب .

قال الشافعي : لا يلغى شتم الريح فإنها خلق مطيع لله ، وجند من
جنوده ، يجعلها الله رحمة إذا شاء ، ونعمة إذا شاء . ثم روي بإسناده
حديث منقطع أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ الفقر ، فقال له :
« لعلك تسب الريح » ، وقال مطرف : لو حبست الريح عن الناس لأنتن
ما بين السماء والأرض .

قوله : « فإذا رأيتم ما تكرهون » أي : من الريح إما شدة حرها ،
أو بردها ، أو قوتها .

قوله : فقولوا : « اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح » ،
أمر ﷺ بالرجوع إلى خالقها وأمرها الذي أزمه الأمور كلها بيده ،
ومصدرها عن قضائه ، لما استجلبت نعمة بمنل طاعته وشكره ، ولا استهدمت
نقمة بمنل الالتجاء إليه والتعوذ به ، والاضطرار إليه والاستئانة له
ودعائه ، والتوبة إليه والاستغفار من الذنوب . قالت عائشة : كانت
رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إني أسألك من خيرها
وخير ما فيها وخير ما أرسلت به » وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر
ما أرسلت به ، وإذا تغيلت السماء تغير لونه ، وخروج ودخل وأدبر وأقبل ،
فإذا مطرت سري ذلك عنه ، فعرفت عائشة ذلك فسألته ، فقال : « ال :
« لعله يا عائشة كما قال قوم عاد (فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم)
قالوا : هذا عارض ممطرنا » [الأحقاف : ٢٥] . رواه البخاري .

ومسلم ، فهذا ما أمر به ﷺ ، وفعله عند الريح وغيرها من الشدائد
المكروهات ، فأين هذا من يستغيث بغير الله من الطواغيت والأموات ،
فيقولون : يا فلان الزمها أو أزلها . فإله المستعان .

باب

قول الله تعالى : (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون :
هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل إن الأمر كله لله) [آل عمران :
١٥٥] .

ش : أراد المصنف بهذه الترجمة التنبيه على وجوب حسن الظن بالله ،
لأن ذلك من واجبات التوحيد ، ولذلك ذم الله من أساء الظن به ، لأن
مبنى حسن الظن على العلم برحمة الله وعزته وإحسانه وقدرته وعلمه وحسن
اختياره وقوة المتوكل عليه ، فإذا تم العلم بذلك أُمِر له حسن الظن بالله .
وقد ينشأ حسن الظن من مشاهدة بعض هذه الصفات وبالجملة فمن قام بقلبه
حقائق معاني أسماء الله وصفاته ، قام به من حسن الظن ما يناسب كل
اسم وصفة ، لأن كل صفة لها عبودية خاصة ، وحسن ظن خاص . وقد
جاء الحديث القدسي ، قال الله تعالى : « أنا عند ظن عبدي بي وأنا
معه حين يذكرني » رواه البخاري ومسلم . وعن جابر رضي الله عنه ،
أنه سمع النبي ﷺ ، قبل موته بثلاثة أيام يقول : « لا يموتن أحدكم إلا
وهو يحسن الظن بالله عز وجل » رواه مسلم وأبو داود . وفي حديث
عند أبي داود وابن حبان « حسن الظن من حسن العبادة » رواه
الترمذي والحاكم ، ولفظها : « حسن الظن بالله من حسن العبادة »

قوله : (يقولون : هل لنا من الأمر شيء) [آل عمران : ١٥٤]
قال ابن القيم : ثم أخبر عن الكلام الذي صدر عن ظنهم الباطل وهو
قولهم : (هل لنا من الأمر شيء) [آل عمران : ٥٦]
وقولهم : (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هنا) ، فليس مقصودهم
بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر ورد الأمر كله لله ، ولو كان مقصودهم
لما ذموا عليه ، ولما حسن الرد عليهم بقوله : (قل إن الأمر كله لله)
ولا كانت مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية ، ولهذا قال غير واحد من
المفسرين : إن ظنهم الباطل هنا هو التكذيب بالقدر ، وظنهم أن الأمر
لو كان إليهم لكان رسول الله ﷺ ، وأصحابه تبعاً لهم يسمعون منهم ،
لما أصابهم القتل ، ولكان التصرف والظفر لهم ، فكذبهم الله عز وجل
في هذا الظن الباطل الذي هو ظن الجاهلية ، وهو الفتن المنسوبة
إلى أهل الجبل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم
يكن بد من نقضه : أنهم كانوا قادرين على دفعه وإبطال الأمر
لو كان إليهم لما نفذ القضاء ، ما كذبهم الله بقوله : (قل إن الأمر
كله لله) فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره ، وجرى به قلمه وكتابه
السابق ، وما شاء الله كان ولا بد ، شاء الناس أم أبوا ، وما لم يشأ لم
يكن ، شاءه الناس أو لم يشأوه ، وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل
بنأمرة الكوفي الذي لا سبيل إلى دفعه ، سواء كان لكم من الأمر شيء
أو لم يكن ، فإنكم لو كنتم في بيوتكم وقد كتب القتل على بعضكم
لخرج من كتب عليه القتل من بيته إلى مضجعه ولا بد ، سواء كان له
من الأمر شيء أو لم يكن . وهذا من أظهر الأشياء إبطالا لقول القدرية

النفاء ، الذين يجوزون أن يقع ما لا يشاء الله وأن يشاء ما لا يقع .
وقوله : (وليبتلي الله ما في صدوركم) أي : يختبر ما فيها من
الإيمان والنفاق ، فالؤمن لا يزداد بذلك إلا إيماناً وتسليماً ، والمنافق ومن في
قلبه مرض لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه .

قوله : « ولیمحص ما في قلوبكم » هذه حكمة أخرى ، وهي
تمحيص ما في قلوب المؤمنين وهو تخليصه وتنقيته وتهذيبه ، فإن القلوب
يخالطها تغليب الطباع وميل النفوس ، وحكم العادة ، وتزين الشيطان ،
واستيلاء الغفلة بما يصاد ما أودع فيها من الإيمان والاسلام والبر والتقوى
فلو تركت في عافية دائمة مستمرة ، لم تتخلص من هذه المخاطر ولم
تتمحص منه ، فاقتضت حكمة العزيز الرحيم أن قيض لها من الحزن والبلاء
ما يكون كاللدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيب
بإزالته وتنقيته ممن هو في جسده ، وإلا خيف عليه من الفساد والهلاك ، فكانت
نعمته سبحانه عليهم بهذه الكثرة والمزينة ، وقتل من قتل منهم تعادل^(١) نعمته
عليهم بنصره ، وتأيدهم وظفرهم بقدرتهم ، فله عليهم النعمة التامة في
هذا وهذا .

قوله : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة ناعساً يغشى
طائفة منكم) [آل عمران : ١٥٥] يعني أهل الإيمان واليقين
والثبات والتوكل الصادق ، وهم الجازمون بأن الله عز وجل
سينصر رسوله ، وينجز له مأموله ، ولهذا قال : (وطائفة قد أهمتهم
أنفسهم) يعني : لا يغشاهم النعاس من القلق (يظنون بالله غير الحق ظن
الجاهلية) كما قال في الآية الأخرى : (بل ظنتم أن لن ينقلب الرسول

(١) في الطبعة السابقة : تعاد .

والمؤمنون إلى أهلكم أبداً وزين ذلك في قلوبكم) [الفتح : ١٣]
وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفاصلة
وأن الاسلام قد باء وأهلكه .

قال ابن القيم : ظن الجاهلية : هو المنسوب إلى أهل الجبل وظن غير
الحق ، لأنه غير ما يليق بأسمائه الحسن وصفاته العلى وذاته المبرأة من
من كل عيب وسوء ، أو خلاف ما يليق بحكمته وحده وتكرره بالربوبية
والإلهية ، وما يليق بوعدده الصادق الذي لا يخلفه . وقد ذكر المؤلف
تفسير ابن القيم لهذه الآية ، وهو أحسن ما قيل فيها وسيأتي ما يتعلق به
إن شاء الله تعالى .

وقوله : (يقولون هل لنا من الأمر من شيء) [آل عمران : ١٥٥]
هذا أيضاً من حكاية مقال المنافقين والظاهر أن المعنى : إنا أخرجنا كرهاً ،
ولو كان الأمر إلينا ما أخرجنا ، كما أشار إليه ابن أبي بديك ، ولفظه
استفهام ، ومعناه النفي ، أي : ما إن شيء من الأمر ، أي : أمر
الخروج ، وقيل غير ذلك فرد الله عليهم بقوله : (إن الأمر كله لله)
أي : ليس لكم من الأمر شيء ولا لغيركم ، بل الأمر كله لله ، هو
الذي إذا شاء فلا مرد له ، وقوله : (يقولون : لو كان لنا من الأمر
شيء ما قتلنا هبنا) تقدم الكلام عليها في باب ما جاء في اللو . وقوله :
(وليبتي الله ما في صدوركم) أي : قدر الله هذه المزية والفضل ، ليحضر
الله ما في صدوركم بأعمالكم ، لأنه قد علمه غيباً فيعلم شهادة لأن الجاهزة
إنما تقع على من يعلم مشاهدة ، لا على ما هو معلوم منهم غير مضمون
(وليمحص ما في قلوبكم) أي : يطهرها من الشدة والمرض بما يربكم

من عجائب آياته وباهر قدرته ، وهذا خاص بالمؤمنين دون المنافقين (والله
عليهم بذات الصدور) قيل معناه : إن الله لا يبتليكم ليعلم ما في صدوركم
فإنه عليم بذلك وإنما ابتلاكُم ليظهر أسراركم والله أعلم .

قال وقوله : (الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء)

[الفتح : ٧] .

ش : قال ابن كثير : يتهمون الله تعالى في حكمه ، ويظنون
بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال : (عليهم
دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم) [الفتح : ٧] أي : أبعدهم
من رحمته (وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) .

قال ابن القيم في الآية الأولى : فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر
رسوله ، وأن أمره سيضحل ، وفسر أن ما أصابهم لم يكن بقدر
الله وحكمته ، ففسر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن
يتم أمر رسوله ، وأن يظهره على الدين كله ، وهذا هو ظن السوء
الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح ، وإنما كان هذا
ظن السوء ، لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه ، وما يليق بحكمته
وحمده ووعد الصادق ، فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة
مستقرة يضمحل معها الحق ، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه
وقدره ، وأنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ،
بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة ؛ (فذلك ظن الذين كفروا ، فويل
للذين كفروا من النار) . وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما
يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم ، فقل من يسلم من ذلك إلا من عرف

الله وأسماءه وصفاته ، وهو موجب حكمته وحجده ، فليعتن اليبس
للتأصح لنفسه بهذا ، وليتب إلى الله تعالى ويستغفروه من ظنه بربه
ظن السوء ، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعناً على القدر ، وملازمة
له ، يقول : إله كان ينبغي أن يكون كذا وكذا فستقل ومستكثر ،
وفتش نفسك هل أنت سالم .

فإن تنج منها تنج من ذي عظمة وإلا فاني لا إخالك ناجياً
ش : قوله : فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر - قوله ... إلى
آخروه . هذا تفسير غير واحد من المفسرين وهو مأخوذ من تفسير قتادة
والسدي ، وذكر ذلك عنها ابن جرير وغيره بالمعنى وقوله : وإنت
أمره سيضمحل . أي : سيذهب جملة حتى لا يبقى له أثر . والاضمحلال :
ذهاب الشيء جملة .

قوله : وفسر أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته . قال القرطبي :
وقال جرير عن الضعك عن ابن عباس في قوله : (يظنون بأنه غير الحق
ظن الجاهلية) [آل عمران : ١٥٥] يعني التكذيب بالقدر وذلك أنهم
تكلموا فيه ، فقال الله : قل إن الأمر كله لله ، يعني : القدر خير
وشهر من الله وأما تفسيره بإنكار الحكمة ، فلم أذف عليه عن السلف ،
فهو تفسير صحيح فمن أنكر أن ذلك لم يكن لحكمة فالغة يستحق عليها
الحمد والشكر ، فقد ظن بالله ظن السوء ، وقد أشار تعالى إلى بعض
الحكم والغايات المأمودة في ذلك ، في سورة « آل عمران » فذكر شيئاً
كثيراً منها في الآتية المفسرة (وليبتلي الله ما في صدوركم ، وإيضاح
ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور) فهذا بعض الحكمة في ذلك فمن

أنكره ، فقد ظن ظن السوء بالله وحكمته وعلمه ورحمته لكمال علمه وقدرته ورحمته ، ولأن من أسمائه الحق ، وذلك هو موجب لهيبته وربوبيته .

قوله : لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه . أي : لأن الذي يليق به سبحانه أنه يظهر الحق على الباطل وينصره ، فلا يجوز في عقل ولا شرع أن يظهر الباطل على الحق . قال تعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) [الأنبياء ١٩] وقال تعالى : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) [الاسراء : ٨٢] .

قوله : ولا يليق بحكمته وحده ، أي : إن الذي يليق بحكمته وحده أن لا يكون في السموات ولا في الأرض حركة ولا سكون إلا وله في ذلك الحكمة البالغة والحمد الكامل التام عليها ، فكيف بمثل هذا الأمر العظيم الذي وقع على سيد المرسلين ﷺ ، وعلى سادات الأولياء ، رضي الله عنهم ، فله سبحانه وتعالى في ذلك الحكمة ، وله عليه الحمد ، بل والشكر . ومن تأمل ما في سورة (آل عمران) في سياق القصة ؛ رأى من ذلك العجب ، فمن ظن بالله تعالى أنه لا يفعل ذلك بقدرته وحكمته يستحق عليها الحمد والشكر ، فقد ظن به ظن السوء .

قوله : فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق ؛ فهذا ظن السوء ، لأنه نسه - أي سبحانه - إلى ما لا يليق بجلاله وكماله ونعوته وصفاته ، فإن حمده وحكمته وعزته تأبى ذلك ، وتأبى أن يذل حربه وجنده وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين المعاندين له ، فمن ظن به ذلك ، فما عرفه ولا عرف أسمائه وصفاته وكماله .

قوله : أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره ، أي : فذلك ظن السوء ، لأنه نسبة له إلى ما لا يليق بربوبيته وملكه وعظمته .
قوله : أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة (ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) [ص : ٢٨] .

قال ابن القيم : وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية حميدة يستحق عليها الحمد ، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فواتها ، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لانضمامها إلى ما يحب ، وإن كانت مكروهة له ، فإقذارها سدى ولا شاءها عبثاً ، ولا خلقها باطلاً (ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) [ص : ٢٨] .

قوله : ووعده الصادق . لأن الله تعالى وعد رسوله ﷺ أن يظهر أمره ودينه على الدين كله ولو كره المشركون ، فمن ظن به تعالى أن دين نبيه سيضمحل ويبطل ، ولا يظهر على الدين كله ، فقد ظن به ظن السوء ، لأنه ظن أنه يخلف الميعاد والله تعالى لا يخلف الميعاد .

قوله : وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم ، وفيما يفعله بغيرهم . قال ابن القيم : فمن قنط من رحمته ، وأيس من روحه ، فقد ظن به ظن السوء ، ومن جوز عليه أن يعذب أوليائه مع إحسانهم وإخلاصهم ويسري بينهم وبين أعدائه ، فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهي ، ولا يرسل إليهم

(١) في الطبعة السابقة : قوتها .

رسله ، ولا ينزل إليهم كتبه ، فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه
 أن يجمعهم بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي فيها المحسن بإحسانه ،
 والمسيء بإساءته ، وبين خلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ، ويظهر للعالمين كلهم
 صدقه ، وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا المصدقين ، فقد ظن به ظن
 السوء ، ومن ظن أنه بضيق عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه على
 امثال أمره ، ويبطله عليه بلا سبب من العبد ، أو أنه يعاقبه على فعله
 سبحانه به ، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه
 بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله ، وأنه يحسن منه كل شيء حتى يعذب
 من آمن ممره في طاعته ، أي : كـ محمد ﷺ ، فيخلده في الجحيم ، أو
 في أصل سافلين ، ومن استنفذ ممره في عداوته ، وعداوة رسله ودينه ،
 ككافي جبل يرفعه إلى أعلى عليين ، وكلا الأمرين في الحسن سواء عنده ،
 ولا يعرف امتناع أحدهما ، ووقوع الآخر إلا بخبر صادق ، وإلا فالعقل
 لا يقضي ببيع أحدهما ، وحسن الآخر ، فقد ظن به ظن السوء . ومن
 ظن أنه أخير عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل ، وتشبيه وتمثيل ،
 وتوكل الحق لم يخبر به ، وإنما رمز إليه " رموزاً بعيدة ، وصرح دائماً
 بالتمثيل والتشبيه والباطل ، وأراد من خلقه أن يتعبروا أذهانهم وقوام
 وأحكامهم في تحريف كلامه عن مواضعه ، وتأويله على غير تأويله ، وإعانتهم
 في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه مع قدرته على
 أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به ، ويريجهم من الألفاظ التي
 توفهم في اعتقاد الباطل ، فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن به أن
 يكون له في ملكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجادهِ وتكوينه ، فقد ظن
 به ظن السوء ، ومن ظن أنه لا شيء له ، ولا بصر ، ولا علم ،

(١) في الطلعة السابقة إليهم .

ولا إرادة ، ولا كلام يقوم به ، وأنه لم يكلم أحداً من الخلق ، ولا يستكلم أبداً ، فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه ليس فوق سمواته على عرشه بائناً من خلقه ، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتهم إلى أسفل سافلين ، وأنه أسفل كما أنه أعلى ، وأن من قال : سبحان ربي الأسفل كمن قال : سبحان ربي الأعلى ، فقد ظن به أقبح الظن ، ومن ظن أنه يحب الكفر والفسق والعصيان والفساد ، ولا يحب الإيمان والبر والطاعة والصلاح ، فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه لا يحب ، ولا يرضى ، ولا يغضب ، ولا يرالي ، ولا يعادي ، ولا يقرب من أحد من خلقه ، ولا يقرب عنده أحد ، وأن ذوات الشياطين في القرب منه ، كذوات الملائكة المقربين ، فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه يسري بين المتضادين ، أو يفرق بين المتساويين في كل وجه ، أو يجهط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدما ، فيخلده في الجحيم لتلك الكبيرة ، كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين ، واستند عمره في مساخطه ، ومعاداة رسله ودينه ؛ فقد ظن به ظن السوء .

وبالجملة فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه ، أو وصله به رسوله ، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه ، ووصله به رسله ؛ فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أن له ولداً أو شريكاً ، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه ، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه ، يتقربون بهم إليه ، ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم فيدعونهم ، ويخافونهم ، ويرجونهم ؛ فقد ظن به أقبح الظن وأسوأ ، ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمصيته ومخالفته ، كما ينال

بطاعته ، والتقرب إليه ، فهو من ظن السوء ، ومن ظن أنه إذا ترك لأجله شيئاً لم يعرضه خيراً منه ، أو من فعل شيئاً لأجله ، لم يعطه أفضل منه ؛ فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه يغضب على عبده ، ويعاقبه بغير جرم ، ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة ؛ فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه إذا صدق في الرغبة والرهبة ، وتضرع إليه وسأل واستعان به ، وترك كل عليه أنه يخيه ، فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه يثيبه إذا عصاه ، كما يثيبه إذا أطاعه ، وسأله ذلك في دعائه ، فقد ظن به خلاف ما هو أهل له ، وما لا يفعله ، ومن ظن أنه إذا أغضبته وأسخطه ، ووقع في معاصيه ، ثم اتخذ من دونه أولياء ، ودعا من دونه ملائكة ، أو بشرأ حياً أو ميتاً يرجو بذلك أن يثبته عند ربه ، ويخلصه من عذابه ، فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن به أنه يسلم على رسوله محمد ﷺ أعداءه تسليطاً مستقراً دائماً في حياته ومماته ، وابتلاء بهم لا بقارعهونه ، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيه ، وأهل بيته ، وسلبوهم حقهم ، وأدلوهم من غير جرم ، ولا ذنب لأوليائه ، وأهل الحق ، وهو يرى ذلك ، ويقدر على نصرة أوليائه وحزبه ، ولا ينصرهم ، ثم جعل المبدلين لديه مضاجعهم في حقونه تسلم أمته عليه وعليهم كل وقت ، كما تظنه الرافضة ؛ فقد ظن به أقبح الظن . انتهى اختصاراً . وهو ينهك على إحسان الظن بنائه في كل شيء . فليعقل اللبيب . اللب : العقل ، واللبيب : العاقل .

قوله : ولو فشت من فشت لم أيت عنده نعتاً على القدر ، وملامة له ، وأنه كان يجهل أن يكون كذا وكذا .

قلت : بنى يوحون بذلك ، ويصرحون به جهاراً في أشعارهم وكلامهم .

قال ابن عقيل في « الفنون » : الواحد من العوام إذا رأى مراكب مقلدة بالذهب والفضة ، وداراً مشيدة بمروة بالخدم والزينة ؛ قال : انظر إلى إعطائهم مع سوء أفعالهم ، ولا يزال يلعنهم ، ويذم معطيهم حتى يقول : فلان يصلي الجماعات والجمع ، ولا يؤذي الذر ، ولا يأخذ ما ليس له ، ويؤدي الزكاة إذا كان له مال ، ويحج ويجهاد ، ولا ينال خلة بقلبه ، ويظهر الإعجاب كأنه ينطق إنه لو كانت الشرائع حقاً لكان الأمر بخلاف ما ترى ، وكان الصالح غنياً ، والفاسق فقيراً .

قال أبو الفرج ابن الجوزي : وهذه حالة قد شملت خلقاً كثيراً من العلماء والجهال ، أولهم إبليس فإنه نظر بعقله ، فقال : كيف يفضل الطين على جوهر النار ؟ وفي ضمن اعتراضه : إن حكمتك قاصرة وأنا أجود . واتبع إبليس في تفضيله واعتراضه خلق كثير ، مثل الراوندي والمعري ، ومن قوله :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق بمنونا وترزق أحول
ولا ذنب يارب السماء على امرئ رأى منك مالا ينتهى فتزندقا
[وأمثال ذلك كثير في أولئك الذين ابتعدوا عن كتاب الله وسنة رسوله ، وانطلقوا إلى أهوائهم ، واعتمدوا على عقولهم القاصرة التي جعلتهم يعترضون على الله جل وعلا] .

وكان أبو طالب المسكي يقول : ليس على الخلق أضر من الخالق . قال ابن الجوزي : ودخلت على صدقة بن الحسين الحداد ، وكان فقيهاً غير أنه كان كثير الاعتراض ، وكان عليه جرب ، فقال : هذا ينبغي أن يكون على حمد لا علي . وكان يتفقد بعض الأكبر أكولا ، يقول :

بحث إلي هذا على الكبر وقت لا أقدر على أكله . وكان رجل يصعبني .
 قد قارب ثمانين سنة ، كثير الصلاة والصوم ، فمرض واشتد به المرض ،
 فقال : إن كان يريد أن أموت فيميتني ، وأما هذا التعذيب ، فإياه
 معنى ، والله لو أعطاني الفردوس كان مكفوراً . ورأيت آخر تزياً بالعلم
 إذا ضاق عليه رزقه يقول : إيش هذا التديير ؟ وعلى هذا كثير من
 العرب إذا ضاقت أرزاقهم اعترضوا ، وربما قالوا : ما يريد يصلي . وإذا
 رأوا رجلاً صالحاً مؤذياً قالوا ما يستحق قدساً في القدر ، وكانت قد
 جرى في زماننا ساطع من الظلمة ، وقال بعض من تزياً بالدين : هذا حكم
 بارد . وما فهم ذلك الأحق ، فإن الله على الظالم [أن يساط عليه أظلم
 منه] ، وفي الحق من يقول : أي فائدة في خالق الحيات والعقارب ،
 وما علم أن ذلك نموذج العقوبة الخسالف ، وهذا أمر قد شاع ، ولهذا
 مددت النفس فيه . وأعلم أن الاعتراض قد ارتفع أن يكون شريكاً وعلا
 الخلق على ، هؤلاء كلهم كفرة ، لأنهم رأوا حكم الخالق
 قاصرة ، وإذا كان قد سلف القلب عن الرضى بحكم الرسول ﷺ ، يخرج
 عن الإيمان قال : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم)
 [النساء : ٦٥] فتأيت يصح الإيمان مع الاعتراض على الله . وكان
 في زمن ابن عقيل رجل رأى هجمة على غابة من السقم ، فقال : وارحمي^١
 لك ، واقلة حياتي في إقامة التأويل لمذهبك . فقال له ابن عقيل : إن لم
 تقلد على حل هذا الأمر لأجل رقتك الجوانية ومناسبتك الجنسية ، فعندك
 عقل تعرف به حكم الصانع وحكمته يوجب عليك التأويل ، فإن لم تجد
 استطرحت الفاطر العقل ، حيث خدك انك العقل عن معرفة الحكمة في
 ذلك . انتهى .

(١) في العلة السابقة وراحمي .

يقوله : وفتش نفسك هل أنت سالم . قال ابن القيم : أكثر الخلق إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق ، وظن السوء ، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ، ناقص الحظ ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ، ولسان حاله يقول : ظلمني ربي ، ومنعني ما أستحقه ، ونفسي تشهد عليه بذلك ، وهو بلسانه ينكوه ، ولا يتجاسر على التصريح به ، ومن فتش نفسه ، وتغلغل في معرفة دفائها وطواياها ، رأى ذلك فيها كامناً كمرور النار في الزناد ، فاقزع زناد من شئت ينبئك شرارها عما في زناده ، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع ، وليتب إلى الله ويستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء ، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء وصنيع كل شر ، المركبة على الجهل والظلم ، فهو أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين ، وأرحم الراحمين ، الغني الحميد الذي له الغنى التام ، والحكمة التامة ، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه ، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه ، وصفاته كذلك وأفعاله كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل ، وأسمائه كلها حسنى .

| | |
|-------------------------|------------------------|
| فلا تظن بربك ظن سوء | فإن الله أولى بالجميل |
| ولا تظن بنفسك قط خيراً | فكيف بظالم جان جهول |
| وظن بنفسك السوأى نجدها | كذاك وخيرها كالمستحيل |
| وما بك من تقى فيها وخير | فتلك مواهب الرب الجليل |
| وليس لها ولا منها ولكن | من الرحمن فاشكر للدليل |

قوله : فإن تنج منها . أي : من هذه الخصلة العظيمة .

وله : من ذي عظمة . أي : تنج من شر عظيم .

حوله : وإني لا إخالك . هو بكسر الهمزة . أي : أظنك والله أعلم

باب

ما جاء في منكوري القدر

ش : أي من الوعيد . والقدر بالفتح والسكون : ما يقدره الله من القضاء . ولما كان توحيد الربوبية لا يتم إلا بإثبات القدر قال القرطبي : القدر : مصدر قدرت الشيء بتخفيف الدال أقدره وأقدره قدرأ وقدرأ إذا حصلت بمقداره ، ويقال فيه : قدرت أقدر تقديرأ مشدد الدال ، فإذا قلنا : إن الله تعالى قدر الأشياء ، فمعناه : إنه تعالى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجد على نحو ما سبق في علمه ، فلا يحدث في العالم العلوي والسفلي إلا هو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته ، هذا هو المعلوم من دين السلف الماضين الذي دلت عليه البراهين ؛ ذكر المصنف ما جاء في الوعيد فيمن أنكره تنبيهاً على وجوب الإيمان ، ولهذا عده النبي ﷺ من أركان الإيمان كما ثبت في حديث جبريل عليه السلام لما سئل عن الإيمان ، فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » قال : صدقت . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص . قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » قال : وعرضه على الماء . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » رواهما مسلم في « صحيحه » وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع :

يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله بعثني بالحق ، ويؤمن بالموت ،
والبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر ، رواه الترمذي ، وابن ماجه ،
والحاكم في « مستدركه » والأحاديث في ذلك كثيرة جداً ، قد أفردوا
العلماء بالتصنيف . قال البغوي في « شرح السنة » : الإيمان بالقدر فرض
لازم ، وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد خيرها وشرها
كتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم . قال الله تعالى : (والله
خالقكم وما تعملون) [الصافات : ٩٧] فالإيمان والكفر ، [والطاعة
والمعصية كلها بقضاء الله وقدره وإرادته ومشئته غير أنه يرضى الإيمان
والطاعة]^(١) ووعد عليها الثواب ، ولا يرضى الكفر والمعصية وأوعد عليها بالعقاب .
قال الله تعالى : (ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) [إبراهيم : ٢٨] .

قال : والقدر سر من أسرار الله تعالى لم يطلع عليه ملكاً مقرباً ،
ولا نبياً مرسلًا ، ولا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل ، بل
يعتقد أن الله تعالى خلق الخلق ، فجعلهم فريقين : أهل يمين خلقهم للنعيم
فضلاً ، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلاً . قال الله تعالى : (ولقد ذرأنا
لجهنم كثيراً من الجن والإنس) [الأعراف : ١٧٩] وقد سأل رجل
علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر
قال : طريق مظلم ، فلا تسلكه ، فأعاد السؤال فقال : بحر عميق
لا تلجه ، فأعاد السؤال فقال : سر الله خفي عليك فلا تفشه .

وقال شيخ الإسلام : مذهب أهل السنة في هذا الباب وغيره ما دل عليه
الكتاب والسنة ، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين
اتبعوهم بإحسان ، وهو أن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه ، وقد دخل

(١) ما بين المعقنين استدركتاه من شرح السنة .

في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد ، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته ، لا يمتنع عليه شيء شاء ، بل هو قادر على كل شيء ، ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه ، وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها ، وقد قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم ، قدر أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم ، وكتب ذلك وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة ، فهم يؤمنون بخلقهم لكل شيء ، وقدرته على كل شيء ، ومشيئته لكل ما كان ، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون ، وتقديره لها وكتابته إياها قبل أن تكون . وغلاة القدرية ينكرون علمه المتقدم وكتابته السابقة ، ويؤمنون أنه أمر ونهي ، وهو لا يعلم من يطيعه بمن يعصيه ، بل الأمر أنف ، أي : مستأنف ، وهذا القول أول ما حدث في الإسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين ، وبعد إمارة معاوية بن أبي سفيان في زمن الفتنة التي كانت بين ابن الزبير وبني أمية في آخر عصر عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس وغيرهما من الصحابة ، وكان أول من ظهر ذلك عنه بالبصرة معبد الجهنبي ، فلما بلغ الصحابة قول هؤلاء تبرؤوا منهم وأنكروا مقالهم ، ثم لما كثرت خوض الناس في القدر صار جمهورهم يقر بالعلم المتقدم والكتاب السابق ، ولكن ينكرون عموم مشيئة الله وعموم خلقه وقدرته ، ويظنون أنه لا معنى لمشيئته إلا أمره ، فما شاء فقد أمر به ، وما لم يشأ لم يأمر به ؛ فلزمهم أنه قد يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء . وأنكروا أن يكون

الله خالقاً لأفعال العباد ، أو قادراً عليها ، أو أن يخص بعض عباده من النعم بما يقتضي إيمانهم به وطاعتهم له . وزعموا أن نعمته التي بما يمكن الإيمان والعمل الصالح على الكفار كأبي جهل وأبي لهب مثل نعمته بذلك على أبي بكر وعمر وثمان وعلي ، بمنزلة رجل دفع إلى والديه مال قسمه بينهم بالسوية ، ولكن هؤلاء أحدثوا أعمالهم الصالحة ، وهؤلاء أحدثوا أعمالهم الفاسدة من غير نعمة خص الله بها المؤمنين ، وهذا قول باطل ، وقد قال الله تعالى : (ينون عليك أن أسلموا ، قل لا تتموا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) [الحجرات : ١٨] وقال : ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم) [الحجرات : ٨-٩] .

وقال ابن القيم ما معناه : مراتب القضاء والقدر أربع مراتب :

الأولى : علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها .

الثانية : كتابة ذلك عنده في الأزل قبل خلق السموات والأرض .

الثالثة : مشيئته المتناولة لكل موجود فلا خروج لكائن كما لا خروج

له عن علمه .

الرابعة : خلقه لها وإيجاده وتكوينه ، فالله خالق كل شيء ، وما

سواه مخلوق .

قال : وقال ابن عمر والذي نفس ابن عمر بيده : لو كان لأحدهم

مثل أحد ذهباً ثم ألفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر .

ثم استدل بقول النبي ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه

ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » رواه مسلم .
ش : قوله : وقال ابن عمر : هو عبد الله بن عمر بن الخطاب .
قوله : لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ، ثم أنفقه في سبيل الله
ما قبله الله منه الخ . هذا قول ابن عمر لغلاة القدرية الذين أنكروا
أن يكون الله تعالى عالماً بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منهم ، وإنما
يعلمها بعد كونها منهم كما تقدم عنهم . قال القرطبي : ولا شك في تكفير
من يذهب إلى ذلك ، فإنه جحد معلوم من الشرع بالضرورة ، ولذلك
قبوا منهم ابن عمر ، وأفقأ بأنهم لا تقبل منهم أعمالهم ولا نفقاتهم ، وأنهم
كمن قال الله فيهم : (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا
بالله وبرسوله) [التوبة : ٥٦] وهذا المذهب قد ترك اليوم ، فلا يعرف
من ينسب إليه من المتأخرين من أهل البدع المشهورين . فقال شيخ
الإسلام لما ذكر كلام ابن عمر هذا : وكذلك كلام ابن عباس ، وجابر
ابن عبد الله ، ووائل بن الأسقع وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان
إلى يوم الدين ، وسائر أئمة المسلمين فيهم كثير ، حتى قال فيهم الأئمة ،
كمالك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل وغيرهم : إن المنكرين لعلم الله
المتقدم ينكرون القدر (١) .

وقوله : ثم استدل بقول النبي ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله ،
وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره
وشره » فجعل النبي ﷺ في هذا الحديث كأنه لما سئل عن الإسلام ،
ذكر أركان الإسلام الخمسة لأنها أصل الإسلام ، ولما سئل عن الإيمان

(١) كلمة القدر لم تكن في الأصل ، ولكن يقتضيا سياق الكلام .

أجاب بقوله : « أن تؤمن بالله » إلى آخره . فيكون المراد حينئذ بالإيمان جنس تصديق القلب ، وبالإسلام جنس العمل ، والقرآن والسنة مملوءان باطلاق الإيمان على الأعمال ، كما هما مملوءان باطلاق الإسلام على الإيمان الباطن ، مع ظهور دلالتها أيضاً على الفرق بينهما ، ولكن حيث أفرد أحد الاسمين دخل فيه الآخر ، وإنما يفرق بينهما حيث فرق بين الاسمين ، ومن أراد تحقيق ما أشرنا إليه فليراجع كتاب « الإيمان »^(١) الكبير لشيخ الإسلام . إذا تبين هذا ، فوجه استدلال ابن عمر بالحديث من جهة أن النبي ﷺ عد الإيمان بالقدر من أركان الإيمان ، فمن أنكره لم يكن مؤمناً ، إذ الكافر ببعض كافر بالكل ، فلا يكون مؤمناً متقياً ، والله لا يقبل إلا من المتقين . وهذا قطعة من حديث جبريل عليه السلام ، وقد أخرجه مسلم بطوله أول كتاب الإيمان في « صحيحه » من حديث يحيى بن معمر عن ابن عمر ، ولفظه : عن يحيى بن معمر قال : كان أول من قال في القدر بالبدعة معبد الجهنى ، فانطلقت أنا وحيد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين ، فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخل المسجد ، فاكتفتته أنا وصاحبي ، أحدنا عن يمينه ، والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكمل الكلام إلي ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرؤون القرآن ويتقفرون^(٢) العلم ، وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف . قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم براء مني ،

(١) وهو من مطبوعات المكتب الإسلامي .

(٢) أي يطلبونه ويتنبعونه .

والذي يحلف به عبد الله بن عمر : لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ، ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر . ثم قال : حدثني أبي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبته إلى ركبته ، ووضع كفيه على فخذيه ، فقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، وذكر الحديث . وقوله : خيره وشره ، أي : خير القدر وشره ، أي : أنه تعالى قدر الخير والشر قبل خلق الخلق ، وأن جميع الكائنات بقضائه وقدره وإرادته ، لقوله تعالى : (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) [الفرقان : ٣] (والله خلقكم وما تعملون) [الصافات : ٩٧] (إنا كل شيء خلقناه بقدر) [القمر : ٥٠] وغير ذلك .

فإن قلت : كيف قال : « وتؤمن بالقدر خيره وشره » وقد قال في الحديث : « والشر ليس إليك » .

قيل : إثبات الشر في القضاء والقدر إنما هو بالاضافة إلى العبد ، والمفعول إن كان مقدرًا عليه ، فهو بسبب جهله وظلمه وذنوبه ، لا إلى الخالق ، فله في ذلك من الحكم ما تقصر عنه أفهام البشر ، لأن الشر إنما هو بالذنوب وعقوباتها في الدنيا والآخرة ، فهو شر بالاضافة إلى العبد ، أما بالاضافة إلى الرب سبحانه وتعالى ، فكاه خير وحكمة ، فانه صادر عن حكمه وعلمه ، وما كان كذلك فهو خير محض بالنسبة إلى الرب سبحانه وتعالى ، إذ هو موجب أسمائه وصفاته ، ولهذا قال : « والشر ليس إليك » أي : تمتنع إضافته إليك بوجه من الوجوه ، فلا يضاف الشر إلى

ذاته وصفاته ، ولا أسمائه ولا أفعاله ، فان ذاته منزهة عن كل شر ، وصفاته كذلك ، إذ كلها صفات كمال ، ونعوت جلال ، لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، وأسمائه كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا عيب ، وأفعاله حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل ، لا تخرج عن ذلك البتة ، وهو المحمود على ذلك كله ، فتستحيل إضافة الشر اليه ، فانه ليس شر في الوجود الا الذنوب وعقوبتها ، وكونها ذنباً تأتي من نفس العبد ، فان سبب الذنب الظلم والجهل ، وهما في نفس العبد . فانه ذات مستزمنة للجهل والظلم ، وما فيه من العلم والعدل فانما حصل له بفضل الله عليه ، وهو أمر خارج عن نفسه ، فمن أراد الله به خيراً أعطاه الفضل فصدر منه الاحسان والبر والطاعة ، ومن أراد به شراً أمسكه عنه وخلاه ودواعي نفسه وطبعه وموجبها ، فصدر عنه موجب الجهل والظلم من كل شر وقبيح ، وليس منعه من ذلك شراً ، والله في ذلك الحكمة التامة ، والحجة البالغة ، فهذا عدله ، وذلك فضله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهو العلي الحكيم . هذا معنى كلام ابن القيم ، وهو الحق .

وحاصله أن الشر راجع إلى مفعولاته ، لا إلى ذاته وصفاته ، ويتبين ذلك بمثال والله المثل الأعلى . لو أن ملكاً من ملوك العدل كان معروفاً بقمع الخالفين وأهل الفساد ، مقيماً للحدود والتعزيرات الشرعية على أرباب أصحابها ، لعدوا ذلك خيراً يحمدونه عليه الملوك ، ويمدحونه الناس ويشكروونه على ذلك ، فهو خير بالنسبة إلى الملوك ، يمدح ويثنى به ويشكر عليه وإن كان شراً بالنسبة إلى من أقبح عليه ، فرب العالمين أولى بذلك ، لأن له الكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات . وأيضاً فلولا الشر هل كان

يعرف الخير ، فان الضد لا يعرف إلا بضده ، فان لم تحط به خبراً فاذا ذكر كلام ابن عقيل في الباب الذي قبل هذا ، وأسلم تسلم ، والله أعلم .

قال : وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه : يا بني إنك لن تجد طعم الايمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال : اكتب قال : رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ، يا بني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من مات على غير هذا فليس مني » :

ش قوله : يا بني إنك لن تجد طعم الايمان إلى آخره . ابنه هذا هو الوليد بن عبادة كما صرح به الترمذي في روايته ، وفيه أن للإيمان طعماً ، وهو كذلك ، فان له حلاوة وطعماً ، من ذاقه تسلى به عن الدنيا وما عليها وقد قال النبي ﷺ « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ... » الحديث وانما يكون العبد كذلك إذا كان مؤمناً بالقدر ، إذ يتمتع أن توجد الثلاث فيه وهو لا يؤمن بالقدر بل يكذب به ويرد على الله كلامه وعلى الرسول ﷺ مقالته ، فإن المحبة التامة تقتضي المتابعة التامة ، فمن لم يؤمن بالقدر ، لم يكن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فلا يجد حلاوة الايمان ولا طعمه ، بل إن كان منكراً للعلم القديم ، فهو كافر كما تقدم ، ولهذا روي عن بعض الأئمة القدرية الكبار بأسناد صحيح أنه قال لما ذكر حديث ابن مسعود رضي الله عنه « حدثني الصادق المصدوق ، الحديث : لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبت ، ولو سمعت زيد بن وهب يقول هذا لأجبت ، ولو سمعت عبد الله بن مسعود يقول هذا ما قبلته ، ولو سمعت رسول الله ﷺ

يقول هذا لردده ، وذكر كلمة بعدها . فهذا كفر صريح نعوذ بالله من موجبات غضبه ، وألم عقابه . وقد بين في الحديث كيفية الإيمان بالقدر : أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطاه لم يكن ليصيبه ، وهذا كما قال النبي ﷺ في حديث جابر رضي الله عنه : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره حتى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطاه لم يكن ليصيبه » ، رواه الترمذي ، والمعنى : أن العبد لا يؤمن حتى يعلم أن ما يصيبه إنما أصابه في القدر ، أي : ما قدر عليه من الخير والشر ، لم يكن ليخطئه ، أي : يجاوزه فلا يصيبه ، وإنما أخطاه من الخير والشر في القدر ، أي : لم يقدر عليه ، ما لم يكن ليصيبه ، كما قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) [الحديد : ٢٣] وقال تعالى : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) [التوبة : ٥٣] قوله : « إن أول ما خلق الله القلم » قال شيخ الإسلام : قد ذكرنا أن للسلف في العرش والقلم أيها خاق قبل الآخر قولين ، كما ذكر ذلك الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره .

أحدهما : أن القلم خلق أولاً ، كما أطلق ذلك غير واحد ، وهذا هو الذي يفهم من ظاهر كتب المصنف في « الأوائل » للحافظ أبو عروبة الحراني ولد القاسم الطبراني ، للحديث الذي رواه أبو داود في « سننه » عن عبادة ابن الصامت ، وذكر الحديث المشروح .

والثاني : أن العرش خلق أولاً . قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في تصنيفه في « الرد على الجهمية » (١) : حدثنا محمد بن كثير العبدي ، أنبأنا

(١) وهو من مطبوعات المكتب الإسلامي .

سفيان الثوري ، ثنا أبو هاشم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إن الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً ، فكان أول ما خلق الله القلم ، فأمره أن يكتب ما هو كائن ، وأن ما يجري على الناس على أمر قد فرغ منه ، وكذلك ذكر الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب « الأسماء والصفات » لما ذكر بدء الخلق ، ثم ذكر حديث الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه سئل عن قول الله تعالى : (وكان عرشه على الماء) [هود : ٨] على أي شيء ؟ قال : على متن الريح . وروى حديث القاسم بن مرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « أول شيء خلقه الله القلم ، وأمره فكتب كل شيء يكون » قال البيهقي : وإنما أراد - والله أعلم - أول شيء خلقه بعد خلق الماء والريح والعرش ، وذلك في حديث عمران بن حصين الذي أشار إليه ، وهو ما رواه البخاري من غير وجه مرفوعاً عنه : « كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء » ورواه البيهقي كما رواه محمد هارون الروياني في « مسنده » وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهما ، من حديث الثقات المتفق على ثقتهم ، عن أبي إسحق ، عن الأعمش ، عن جامع بن شداد ، عن صفوان بن محرز ، عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، ثم كتب في الذكر كل شيء ، ثم خلق السموات ، وذكر أحاديث وآثاراً ، ثم قال ما معناه : فنبت في النصوص الصحيحة أن العرش خلق أولاً . وقال ابن كثير : قال قائلون : خلق القلم أولاً ، وهذا اختيار ابن جرير وابن

الجوزي وغيرهما . قال ابن جرير : وبعد القلم السحاب الرقيق ، وبعد العرش ، واحتجوا بحديث عبادة .

والذي عليه الجمهور أن العرش مخلوق قبل ذلك ، كما دل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في « صحيحه » يعني حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص الذي تقدم . قالوا : وهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير ، وقد دل الحديث أن ذلك بعد خلق العرش ، فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجاهيل . ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم . انتهى بمعناه .

قوله : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة . قال شيخ الإسلام : وكذلك في حديث ابن عباس وغيره ، وهذا يبين أنه إنما أمره حينئذ أن يكتب مقدار هذا الخلق إلى قيام الساعة ، لم يكن حينئذ ما يكون بعد ذلك .

قوله : من مات على غير هذا لم يكن مني . أي : لأنه إذا كان جاحداً للعلم القديم فهو كافر ، كما قال كثير من أئمة السلف : ناظروا القدرة بالعلم ، فإن أقروا به خصموا ، وإن جحدوا كفروا . يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد ، وأن الله قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد ، وكتب ذلك عنده في كتاب حفيظ ، فقد كذب القرآن ، فيكفر بذلك ، كما نص عليه الشافعي وأحمد وغيرهما ، وإن أقروا بذلك وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد ، وشاءها وأرادها بينهم إرادة كونية قدرية ، فقد خصموا ، لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه . وفي تكفير هؤلاء نزاع مشهور ، وبالجملة فهم أهل بدعة

شنيعة ، والرسول ﷺ بريء منهم ، كما هو بريء من الأولين ، وقد
بيض المصنف آخر هذا الحديث ليعزوه ، وقد رواه أبو داود وهذا لفظه ،
ورواه أحمد والترمذي وغيرهما .

قال : وفي رواية لابن وهب قال : قال رسول الله ﷺ :
« فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار » .

ش : قوله : وفي رواية لابن وهب . هو الإمام الحافظ عبد الله
ابن وهب بن مسلم القرشي مولاهم المصري الفقيه ، ثقة إمام مشهور عابد ،
له مصنفات ، منها « الجامع » وغيره ، مات سنة سبع وتسعين ومائة
وله اثنا عشر وسبعون سنة .

قوله : « أحرقه الله بالنار » أي : لكفره أو بدعته إن كان بمن
يقر بالعلم السابق وينكر خلق أفعال العباد ، فإن صاحب البدعة متعرض
للعيد كأصحاب الكبائر ، بل أعظم .

قال : وفي « المسند » و « السنن » عن أبي الديلمي قال :
أثبت أبي بن كعب فقلت : في نفسي شيء من القدر ، فحدثني بشيء
لهل الله يذهب من قلبي . فقال : لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله
الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ،
وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل
النار . قال : فأنبت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليان ، وزيد بن
ثابت ، كلهم حدثني بثب ذلك عن النبي ﷺ . حديث صحيح رواه
الحاكم في « صحيحه » .

ش : قوله : وفي « المسند » أي « مسند الإمام أحمد » و « السنن »

أي « سنن أبي داود » وابن ماجه فقط ، بمعنى ما ذكر المصنف ، وفيه زيادة اختصرها المصنف ، ولفظ ابن ماجه : حدثنا علي بن محمد ، حدثنا إسحاق بن سليمان ، قال : سمعت أبا سنان عن وهب بن خالد الحمصي عن أبي الديلمي قال : وقع في نفسي شيء من هذا القدر خشيت أن يفسد علي ديني وأمرني ، فأتيت أبي بن كعب فقلت : يا أبا المنذر إنه قد وقع في قلبي شيء من هذا القدر ، فخشيت على ديني وأمرني ، فحدثني من ذلك بشيء لعل الله أن ينفعني . فقال : لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكنت رحمة خيراً لهم من أعمالهم ، ولو كان لك مثل أحد ذهباً أو مثل جبل أحد تنفقه في سبيل الله ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وإنك إن مت على غير هذا دخلت النار ، ولا عليك أن تأتي يا أخي عبد الله بن مسعود فسأل ، فأتيت عبد الله فسألته ، فذكر مثل ما قال أبي ، وقال لي : لا عليك أن تأتي حذيفة ، فأتيت حذيفة فسألته ، فقال مثل ما قال : أنت زيد ابن ثابت فأسأله ، فأتيت زيد بن ثابت فسألته فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكنت رحمة خيراً لهم من أعمالهم ، ولو كان لك مثل أحد ذهباً أو مثل جبل أحد ذهباً تنفقه في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر كله ، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وإنك إن مت على غير هذا دخلت النار ، هذا حديث ابن ماجه . ولفظ أبي داود كما ذكره المصنف إلا أنه قال : ثم أتيت عبد الله بن

مسعود فقال مثل ذلك ، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ بمثل ذلك .

قوله : عن أبي الديلمي . هو عبد الله بن فيروز الديلمي . وفيروز قاتل الأسود العنسي الكذاب . وعبد الله هذا ثقة من كبار التابعين ، بل ذكره بعضهم في الصحابة . والديلمي نسبة إلى جبل الديلم ، وهو من أبناء الفرس الذين بعثهم كسرى إلى اليمن .

قوله : وقع في نفسي شيء من القدر . أي : شك أو اضطراب يؤدي إلى شك فيه ، أو جحد له .

قوله : لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك . هذا قليل على سبيل الفرض لا تحديد ، إذ لو فرض إنفاق ملء السموات والأرض كان ذلك .

قوله : حتى تؤمن بالقدر . أي : بأن جميع الأمور الكائنة خيرها وشرها ، وحالها ومرها ، ونفعها وضرها ، وقليلها وكثيرها ، وكبيرها وصغيرها بقضائه وقدره وإرادته ومشيتته وأمره ، كما ذكر عن علي رضي الله عنه (١) .

(١) إل هنا قام المؤلف رحمه الله بشرح هذا الكتاب ولم يتيسر له إقامه ، وقد التمسنا من الأستاذ العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم بارك الله فيه أن يتم شرحه ، ولكن الوقت لم يسعفه ، فلم نر بداً من إتمام هذا النقص بنقل ما تبقى من أبواب الكتاب مع الشرح من كتاب « فتح المجيد شرح كتاب التوحيد » للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وبالله التوفيق .

باب

ما جاء في المصورين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة » أخرجه .

ولها عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » .

ولها عن ابن عباس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل مصور في النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم » .
ولها عنه مرفوعاً « من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » .

ولمسلم عن أبي الهياج قال : قال لي علي : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته » .

فيه مسائل :

الأولى : التغليظ الشديد في المصورين .

الثانية : التنبيه على العلة ، وهو ترك الأدب مع الله ، لقوله : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي » .

الثالثة : التنبيه على قدرته ، وعجزهم ، لقوله : « فليخلقوا ذرة أو حبة أو شعيرة » .

الرابعة : التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً .
الخامسة : أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور
في جهنم .

السادسة : أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح .

السابعة : الأمر بطمسها إذا وجدت .

قوله : باب ما جاء في المصورين .

أي : من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه . وقد ذكر النبي ﷺ العلة ،
وهي المضاعفة بخلق الله ، لأن الله تعالى له الخلق والأمر ، فهو رب كل
شيء ومليكه ، وهو خالق كل شيء ، وهو الذي صور جميع المخلوقات ،
وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة ، كما قال الله تعالى : (الذي
أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله
من سلاله من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه . وجعل لكم
السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) [السجدة : ٨ - ٩ - ١٠]
فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة
صار مضاهياً لخلق الله ، فصار ما صور عذاباً له يوم القيامة ، وكلف أن
ينفخ فيها الروح وليس بنافخ . فكان أشد الناس عذاباً ، لأن ذنبه من
أكبر الذنوب .

فاذا كانت هذه فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من
الحيوان ، فكيف بحال من سوى المخلوق برب العالمين ، وشبهه بخلق الله ،
وصرف له شيئاً من العبادة التي ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بما
لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه ؟ فتسوية المخلوق

بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه ، وجعله شريكاً له فيما اختص به تعالى وتقدس ، هو أعظم ذنب عصي الله تعالى به . ولهذا أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، لبيان هذا الشرك والنهي عنه ، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى . فنبه الله تعالى رسله ومن أطاعهم ، وأهلك من جحد التوحيد ، واستمر على الشرك والتنديد ، فما أعظمه من ذنب (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) [النساء : ٤٨ ، ١١٦] (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوي به الريح في مكان سحيق) [الحج : ٣٢] .

قوله : ولمسلم عن أبي الهياج الأسدي - حيان بن حصين - قال : قال لي علي رضي الله عنه . هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

قوله : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ أن لاتدع صورة إلا طمستها ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته .

فيه تصريح بأن النبي ﷺ بعث علياً لذلك . أما الصور ، فلمضاهاتها لخلق الله ، وأما تسوية القبور ، فلما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها ، وهو من ذرائع الشرك ووسائله ، فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته . ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور ، وعظمت الفتنة بأرباب القبور ، وصارت محطاً لرحال العابدين المعظمين لها ، فصرفوا لها جل العبادة من الدعاء والاستعانة والاستغاثة ، والتضرع لها ، والذبح لها ، والنذور ، وغير ذلك من كل شرك محظور .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ

في القبور وما أمر به ، ونهى عنه ، وما كان عليه أصحابه ، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم ، رأى أحدهما مضاداً للآخر ، مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً . فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور ، وهؤلاء يصابون عندها وإليها ، ونهى عن اتخاذها مساجد ، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله ، ونهى عن إيقاد السرج عليها ، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها ، ونهى عن أن تتخذ عيداً ، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ، ومناسك ، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر . وأمر بتسويتها ، كما روى مسلم في « صحيحه » عن أبي الهياج الأسدي - فذكر حديث الباب - وحديث ثمانية بن شفي وهو عند مسلم أيضاً قال : « كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم بروديس ، فتوفي صاحب لنا ، فأمر فضالة بقبوره فسوي ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها » وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديتين ، يرفعونها عن الأرض كالبيت ، ويعقدون عليها القباب . ونهى عن تجميع القبور والبناء عليه ، كما روى مسلم في « صحيحه » عن جابر رضي الله عنه قال « نهى رسول الله ﷺ عن تجميع القبور ، وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه » ونهى عن الكتابة عليها ، كما روى أبو داود في « سننه » عن جابر : أن رسول الله ﷺ نهى عن تجميع القبور ، وأن يكتب عليها ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ، ويكتبون عليها القرآن وغيره ، ونهى أن يزاد عليها غير تراها ، كما روى أبو داود عن جابر أيضاً : أن رسول الله ﷺ نهى أن يخصص القبور ، أو يكتب عليه ، أو يزاد عليه ، وهؤلاء يزيدون عليه الآجر

والجص والأحجار . قال إبراهيم النخعي : كانوا يكرهون الآجر على قبورهم .

والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور ، المتخذين أعياداً ، الموقدين عليها السرج ، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ ، محادون لما جاء به ، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد ، وإيقاد السرج عليها وهو من الكبائر ، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه .

قال أبو محمد المقدسي : ولو أيسح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله ، ولأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة ، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام . قال : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر ، ولأن النبي ﷺ قال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . يحذر ما صنعوا . متفق عليه . ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها ، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم والتمسح بها والصلاة عندها . انتهى .

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً ، ووضعوا لها مناسك ، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً سماه « مناسك حج المشاهد » ، مضاهاة منه القبور بالبيت الحرام ، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ، ودخول في دين عباد الأصنام ، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور ، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه ، ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره .

فمنها : تعظيم الموقع في الافتتان بها ، ومنها : اتخاذها أعياداً ،
وفتها : السفر إليها ، ومنها : مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من
العكوف عليها والمجاورة عندها ، وتعليق الستور عليها ، وعبادها يرجعون
المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام ، ويرون سدانتها أفضل من خدمة -
المسجد ، والويل عندهم لقيمها ليلة يطفئ القنديل المعلق عليها . ومنها : النذر لها
ولسدنتها ، ومنها : اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء ، وينصر
على الأعداء ، ويستنزل غيث السماء ، وتفرج الكروب ، وتقضى الحوائج ،
وينصر المظلوم ، ويجار الخائف إلى غير ذلك . ومنها : الدخول في لعنة
الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها ، وإيقاد السرج عليها ، ومنها : الشرك
الأكبر الذي يفعل عندها .

ومنها : إهداء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم ، فإنهم يؤذيهم
ما يفعل عند قبورهم ، ويكرهونه غاية الكراهية ، كما أن المسيح عليه
السلام يكره ما يفعله النصارى عند قبوره ، وكذلك غيره من الأنبياء
والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم ، ويرى القيامة يتبرؤون
منهم ، كما قال تعالى : (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ،
فيقول : أنتم أضللتم عبادي هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبعتك !
ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم
حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً) [الفرقان : ١٨ - ١٩] وقال الله تعالى
للمشركين (فقد كذبواكم بما تقولون) وقال تعالى (وإذا قال الله
يا عيسى ابن مريم ، أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟
قال : سبعتك ! ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) [المائدة :

١٢٠] وقال تعالى (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ! أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) [سبأ : ٤١-٤٢] .

ومنها : إمامة السنن وإحياء البدع .

ومنها : تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله ، فإن عباد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام ، والحشوع ورقة القلب ، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ، ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريباً منه .

ومنها : أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكرة الآخرة ، والإحسان إلى المزور بالدعاء له والترحم عليه ، والاستغفار له ، وسؤال العافية له ، فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت ، فقلب هؤلاء المشركون الأمر ، وعكسوا الدين ، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعائه والدعاء به ، وسؤاله حوائجهم ، واستئصال البركة منه ، ونصره لهم على الأعداء ، ونحو ذلك ، فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت .

وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور سداً للذريعة . فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه ، ونهاهم أن يقولوا هجراً ، ومن أعظم الهجر : الشرك عندها قولاً وفعلًا .

وفي « صحيح مسلم » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « زوروا القبور ، فإنها تذكركم الموت » وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة ، فأقبل عليهم

بوجهه . فقال : « السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم ، أنتم
سلفنا ونحن بالأثر » رواه أحمد والترمذي وحسنه .

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته ، وعالمهم إياها . هل
تجد فيها شيئاً مما يعتمد به أهل الشرك والبدع ؟ أم تجد لها مضادة لما هم
عليه من كل وجه ؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله : لن
يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها . ولكن كلما ضعف تمسك
الأمم بعبود أنبيائهم ، ونقص إيمانهم ، أعرضوا عن ذلك بما أحدثوه من
البدع والشرك ؟

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحوا جانبهم ، حتى كان أحدهم إذا
سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة ، وجعل ظهره إلى جدار
القبر ، ثم دعا . ونص على ذلك الأئمة الأربعة أنه يستقبل القبلة وقت
الدعاء ، حتى لا يدعوا عند القبر ، فإن الدعاء عبادة ، وفي الترمذي وغيره
« الدعاء هو العبادة » فجرد السلف العبادة لله ، ولم يقعوا عند القبور
منها إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ من الدعاء لأصحابها والاستغفار لهم
والترحم عليهم ، وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال : قال رسول الله
ﷺ « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قُبُورِي عيداً ، وصلوا علي فإن
صلاتكم تباركني حيث كنتم » وإسناده جيد ، ورواه ثقات مشاهير .

وقوله : « ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً » أي : لا تعطلوها عن الصلاة
فيها والدعاء والقراءة ، فتكون بمنزلة القبور ، فأمر بتحريم النافلة في
البيوت ، ونهى عن تحريم النافلة عند القبور ، وهذا ضد ما عليه المشركون
من النصارى وأشباههم .

ثم إن في تعظيم القبور ، واتخاذها أعياداً ، من المفاصد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقصار الله وغيره على التوحيد ، وتهجين وتقييح للشرك ، ولكن ما لجرح يمت إيلام .

فمن المفاصد : اتخاذها أعياداً والصلاة لإنها ، والطواف بها ، وتقيلها واستلامها ، وتعفير الحدود على ترابها ، وعبادة أصحابها ، والاستغاثة بهم ، وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الدين ، وتفريج الكربات وإغاثة الالهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم . فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيداً ، وقد نزلوا عن الأكرار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد ، فوضعوا لها الجباه ، وقبلوا الأرض ، وكشفوا الرؤوس ، وارتفعت أصواتهم بالضجيج ، وتباكوا حتى تسمع لهم النسيج ، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج ، فاستغاثوا بمن لا يبدى ولا يعيد ، ونادوا ولكن من مكان بعيد ، حتى إذا دنوا منها صاوا عند القبر ركعتين ، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ما لم يحوزه من صلى إلى القبلتين ، فتراهم حول القبر ركعاً سجداً ، يبتغون فضلاً من الميت ورضواناً ، وقد ملؤوا أكفهم خيبة وخسراناً .

فلغير الله - بل للشيطان - ما يراق هناك من العبرات ، ويرتفع من الأصوات ، ويطلب من الميت من الحاجات ، ويسأل من تفريج الكربات ، وإغاثة الالهفات ، وإغناء ذوي الفاقات ، ومعافاة ذوي العاهات والبلبات ، ثم اننوا بعد ذلك حول القبر طائفين ، تشبهاً له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركاً وهدى للعالمين ، ثم أخذوا في التقيل والاستلام . أرايت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام ؟ ثم عفروا لديه

تلك الجباه والحدود التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود . ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق ، واستمتعوا بمخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق ، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين ، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين ، فلو رأيتهم يهتف بعضهم بعضاً ويقول : أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظاً ، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبسع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام . فيقول : لا ولا بحجك كل عام .

هذا ، ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم ، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم ، إذ هي فوق ما يخطر بالبال ، ويدور في الخيال ، وهذا مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم . وكل من ثم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور سد الذريعة إلى هذا المحذور ، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه ، وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه ، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته ، والشر والضلال في معصيته ومخالفته . انتهى كلامه .

باب

ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالى : (واحفظوا أيمانكم) [المائدة : ٩٣] .
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحلف منفقة للسلعة ، محقة للكسب » أخرجاه .
وعن سلمان : أن رسول الله ﷺ قال « ثلاثة لا يكلمهم الله

ولا يذكهم ولهم عذاب أليم : أشمط زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله بضاعته ، ولا يشتري إلا بيمينه ، ولا يبيع إلا بيمينه »
رواه الطبراني بسند صحيح .

وفي الصحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .
قال عمران : فلا أدري : أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ؟ - ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون ، ويخولون ولا يؤقنوت ، ويندرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن » .

وفيه عن ابن مسعود : أن النبي ﷺ قال « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » .

وقال إبراهيم : كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار .
فيه مسائل :

- الأولى : الوصية بحفظ الأيمان .
- الثانية : الاخبار بأن الحلف منقطة للسلعة ، بحقة للبركة .
- الثالثة : الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه .
- الرابعة : التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي .
- الخامسة : ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون .
- السادسة : ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة ، وذكر ما يحدث .
- السابعة : ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون .

الثامنة : كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد .

قوله : باب ما جاء في كثرة الحلف .

أي : من النهي عنه والوعيد . وقول الله تعالى : (واحفظوا أيمانكم)
[المائدة : ٩٣] .

قال ابن جرير : لا تتركوها بغير تكفير . وذكر غيره من المفسرين
عن ابن عباس يريد : لا تحلفوا . وقال آخرون : احفظوا أيمانكم عن
الحنث فلا تحنثوا .

والمصنف أراد من الآية المعنى الذي ذكره ابن عباس ؛ فإن القولين
متلازمان ، فيأزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف
وعدم التعظيم لله ، وغير ذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب أو عدمه .
قوله : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول
« الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للبركة » أخرجاه . أي : البخاري ومسلم .
وأخرجه أبو داود والنسائي .

والمعنى : أنه إذا حلف على سلعة أنه أعطي فيها كذا وكذا ، أو أنه
اشترأها بكذا وكذا ، وقد يظنه المشتري صادقاً فيما حلف عليه ، فيأخذها
بزيادة على قيمتها ، والبائع كذاب ، وحلف طمعاً في الزيادة ، فيكون قد
عصى الله تعالى ، فيعاقب بمحق البركة ، فإذا ذهب بركة كسبه دخل عليه
من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه ، وربما ذهب
ثمن تلك السلعة رأساً ، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته ، وإن ترخفت
الدنيا للعاصي ، فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب .

قوله : وعن سلمان رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال « ثلاثة

لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : أشمط زان ، وعائل مستكبر ،
ورنجل جعل الله بضاعته ، لا يشتري إلا يمينه ، ولا يبيع إلا يمينه ،
رواه الطبراني بسند صحيح .

و « سلمان » لعنه سلمان الفارسي ، أبو عبد الله ، أسلم مقدم النبي ﷺ
المدينة وشهد الخندق ، روى عنه أبو عثمان النهدي ، وشرحبيل بن السمط
وغيرهما . قال النبي ﷺ « سلمان منا أهل البيت » ، إن الله يحب من أصحابي
أربعة : علياً ، وأبا ذر ، وسلمان ، والمقداد ، أخرجه الترمذي وابن ماجه .
قال الحسن : كان سلمان أميراً على ثلاثين ألفاً يخطب بهم في عبادة يقترش
نصفها ويلبس نصفها . توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه . قال أبو عبيدة
سنة ست وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة . ويحتمل أنه سلمان بن عامر
بن أوس الضبي .

قوله : « ثلاثة لا يكلمهم الله » نفي كلام الرب تعالى وتقدس عن
هؤلاء العصاة دليل على أنه يكلم من أطاعه ، وأن الكلام صفة من صفات
كآله ، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه ، وهذا هو
الذي عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله سبحانه ، وأن
الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً ولم يزل متصفاً به ، فهو حادث
الآحاد قديم النوع ، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب
الشافعي وأحمد وسائر الطوائف ، كما قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً
أن يقول له : كن ، فيكون) [يس : ٨٣] فأنى بالحروف الدالة على
الحال والاستقبال أيضاً ، وذلك في القرآن كثير .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : فإذا قالوا لنا - يعني النفاة - :

فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به ؟ ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة ؟! ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . ولفظ الحوادث مجمل ، فقد يراد به الأعراض والنقائص ، والله تعالى منزّه عن ذلك - ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك ، بما دل عليه الكتاب والسنة . والقول الصحيح : هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون : لم يزل الله متكلماً إذا شاء ، كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة . اهـ

قلت : ومعنى قيام الحوادث به تعالى ، قدرته عليها ، وإيجاده لها بمشيئته وأمره . والله أعلم .

قوله : « ولا يذكهم ولهم عذاب أليم » لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم ، فعوقبوا بهذه الثلاث التي هي أعظم العقوبات .

قوله : « أشمط زان » صغره تحقيراً له وذلك لأن داعي المعصية ضعف في حقه ، فدل على أن الحامل له على الزنا بحجة المعصية والفجور ، وعدم خوفه من الله ، وضعف الداعي إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليب العقوبة عليه ، بخلاف الشاب ؛ فإن قوة داعي الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله ، وقد يرجع على نفسه بالندم ، ولومها على المعصية ، فينتهي ويرجع .

وكذا العائل المستكبر ليس له ما يدعوه إلى الكبر ، لأن الداعي إلى الكبر في الغالب كثرة المال والنعم والرياسة . و « العائل » الفقير لا داعي له إلى أن يستكبر ، فاستكباره مع عدم الداعي إليه يدل على أن الكبر طبيعة له ، كامن في قلبه ، فعظمت عقوبته ، لعدم الداعي إلى هذا الخلق الذميمة الذي هو من أكبر المعاصي .

قوله : « ورجل جعل الله بضاعته ، بتصب الاسم الشريف ، أي :
الحلف به ، جعله بضاعته ، لئلا يمتنه له وغلبته عليه . وهذه أعمال تدل على
أن صاحبها إن كان موحداً فتوحيدة ضعيف ، وأعماله ضعيفة بحسب
ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصي العظيمة على قلة الداعي
إليها . نسأل الله السلامة والعافية ، ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبه
ربنا ولا يرضاه .

قوله : وفي « الصحيح » أي : « صحيح مسلم » . وأخرجه أبو داود
والترمذي . ورواه البخاري بلفظ « خيركم » .

قوله : عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ
« خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » - قال عمران : فلا
أدري : أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ؟ - ثم إن بعدكم قوماً يشهدون
ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤمنون ، وينذرون ولا يوفون ويظهر
فيهم السمن » .

قوله : « خير أمتي قرني » لفظة أهل ذلك القرن في العلم والإيمان ،
والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون ، ويتفاضل فيها العاملون ،
فغلب الخير فيها وكثر أهله ، وقل الشر فيها وأهله ، واعتز فيها بالإسلام
والإيمان ، وكثر فيها العلم والعلماء « ثم الذين يلونهم » فضلوا على من
بعدهم لظهور الإسلام فيهم ، وكثرة الداعي إليه ، والراغب فيه والقائم به ،
وما ظهر فيه من البدع أنكر واستعظم وأزيل ، كبعدة الخوارج والقدرية
والرافضة فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت ، فأهلها في غاية الذل والمقت
والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب .

قوله : فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ؟. هذا شك من راوي الحديث عمران بن حصين رضي الله عنه . والمشهور في الروايات : أن القرون المفضلة ثلاثة ، الثالث دون الأولين في الفضل ، لكثرة البدع فيه ، لكن العلماء متوافرون ، والاسلام فيه ظاهر ، والجهاد فيه قائم ، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدين وكثرة الأهواء .

فقال « ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون » لاستخفافهم بأمر الشهادة ، وعدم تحريمهم للصدق ، وذلك لقلة دينهم ، وضعف إسلامهم .

قوله : « ويخونون ولا يؤمنون » يدل على أن الحيانه قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم .

قوله : وينذرون ولا يوفون » أي لا يؤدون ما وجب عليهم ، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم ، وعدم إيمانهم .

قوله : « ويظهر فيهم السمن » لرغبتهم في الدنيا ، ونيل شهواتهم والتنعيم بها ، وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها . وفي حديث أنس « لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم » قال أنس : سمعته من نبيكم ﷺ ، فما زال الشر يزيد في الأمة ، حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم ، حتى فيمن ينتسب إلى العلم ، ويتصدر للتعليم والتصنيف .

قلت : بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع ، وصنفوا في ذلك نظماً ونثراً ، فنعوذ بالله من موجبات غضبه .

قوله : وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « خير الناس قوتي ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته »

قلت : وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ، ونسي المعاد ، فخفف أمر الشهادة واليمين عنده تحملاً وأداء ، لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك وهذا هو الغالب على الأكثر ، والله المستعان . فإذا كان هذا قد وقع في صدر الإسلام الأول فما بعده أكبر بأضعاف ، فكن من الناس على حذر .

قوله : قال إبراهيم - هو النخعي - : كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار . وذلك لكثرة علم التابعين وقوة إيمانهم ومعرفتهم برهم ، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأنه من أفضل الجهاد ، ولا يقوم الدين إلا به . وفي هذا الرغبة في تمرين الصغار على طاعة ربهم ، ونهيهم عما يضرهم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

باب

ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

وقوله : (وأفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً) [النحل : ٩٢] .
وعن بريدة قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا أمر أميراً على جيش أو سرية ، أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، فقال : «اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله .

اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تقتلوا ، ولا تقتلوا وليدآ . وإذا لقيت عدوك من المشركين ، فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتن ما أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم . ثم ادعهم إلى الاسلام ،

فإن أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين .

فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله تعالى ، ولا يكون لهم في الغنينة والقيء شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فاسألهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، ولكن اجعل لها ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم أن تخفروا ذمكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري : أتصيب قبيح حكم الله أم لا ؟ » رواه مسلم .

فيه مسائل :

الأولى : الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين .

الثانية : الارشاد إلى أقل الأمرين خطراً .

الثالثة : قوله : « اغزوا بسم الله في سبيل الله » .

الرابعة : قوله : « قاتلوا من كفر بالله » .

الخامسة : قوله : « استعن بالله وقاتلهم » .

السادسة : الفرق بين حكم الله وحكم العلماء .

**السابعة : في كون الصحابي يحكم عند الحاجة ، بحكم لا يدري :
أيرافق حكم الله أم لا ؟**

قوله : « باب ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله » .

وقول الله تعالى : (وأفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً) [النحل : ٩٢] .

قال العباد ابن كثير : وهذا بما يأمر الله تعالى به ، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة . ولهذا قال (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) ولا تعارض بين هذا وقوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) وبين قوله (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم) أي : لا تتركوها بلا تكفير . وبين قوله ﷺ في « الصحيحين » « إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير منها وتحللنها - وفي رواية - وكفرت عن يميني » لا تعارض بين هذا كله وبين الآية المذكورة هنا وهي (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) لأن هذه الأيمان المراد بها : الداخلة في العهود والمواثيق ، لا الأيمان الواردة على حث أو منع ، ولهذا قال مجاهد في الآية : يعني : الحلف أي : حلف الجاهلية . ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ « لا حلف في الاسلام ، وأما حلف كان في الجاهلية لم يزد الاسلام الا شدة » وكذا رواه مسلم ، ومعناه : أن الاسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه ، فإن في التمسك بالاسلام كفاية عما كانوا فيه .

وقوله تعالى (لمن الله يعلم ما تفعلون) تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها .

قوله : « عن بريدة » هو ابن الحبيب الأسلمي . وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه . قاله في « المفهم » .

قوله : قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى . فيه من الفقه : تأمير الأمراء ، ووصيتهم .

قال الحربي : السرية : الحيل تبلغ أربعائة ونحوها . والجيش : ما كان أكثر من ذلك . وتقوى الله : التحرز بطاعته من عقوبته .

قلت : وذلك بالعمل بما أمر الله به والانتفاء عما نهى عنه .

قوله : ومن معه من المسلمين خيراً ، أي : ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيراً ، من الرفق بهم ، والإحسان إليهم ، وخفض الجناح لهم ، وترك التعاضم عليهم .

قوله : « اغزوا باسم الله » أي : اشرعوا في فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له . قلت : فتكون الباء في « بسم الله » هنا للاستعانة ، والتوكل على الله .

قوله : « قاتلوا من كفر بالله » هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاريين وغيرهم ، وقد خصص منهم من له عهد ، والرهبان والنسوان ، ومن لم يبلغ الحلم ، وقد قال متصلاً به « ولا تقتلوا وليداً » وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان ، لأنه لا يكون منها قتال غالباً ، وإن كان منهم قتال أو تدبير قتلوا .

قلت : وكذلك الذراري والأولاد .

قوله : « ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا » الغلول : الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها . والغدر : نقض العهد . والمثيل هنا : التشويه بالقتل ؛

كقطع أنفه وأذنه والعبث به . ولا خلاف في تحريم الغلول والغدر ، وفي كراهية المثلة .

قوله : « وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال - أو خصال ، الرواية بالشك وهو من بعض الرواة ، ومعنى الخلال والحصال واحد .

قوله : « فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم » قيدناه عن يوثق بعلمه وتقييده بنصب « أيتهن » على أن يعمل فيها « أجابوك » لا على إسقاط حرف الجر . و « ما » زائدة . ويكون تقدير الكلام : فإلى أيتهن أجابوك فاقبل منهم ، كما تقول : جئتكم إلى كذا وفي كذا ، فيعدي إلى الثاني بحرف الجر .

قلت : فيكون في ناصب « أيتهن » وجهان : ذكرهما الشارح . الأول : منصوب على الاشتغال . والثاني : على نزع الخافض .

قوله : « ثم ادعهم إلى الإسلام » كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم « ثم ادعهم » بزيادة « ثم » والصواب إسقاطها . كما روي في غير كتاب مسلم . كمصنف أبي داود ، وكتاب الأموال لأبي عبيد ؛ لأن ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث الخصال .

وقوله : « ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين » يعني المدينة . وكانت في أول الأمر وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل في الإسلام ، وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرهم .

قوله : « فإن أبوا أن يتحولوا » يعني : أن من أسلم ولم يهاجر

ولم يجاهد لا يعطى من الخمس ولا من الفية شيئاً . وقد أخذ الشافعي رحمه الله بالحديث في الأعراب ، فلم ير لهم من الفية شيئاً ، وإنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فتود على فقرائهم ، كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم في الصدقة عنده ، ومصرف كل مال في أهله . وسوى مالك رحمه الله وأبو حنيفة رحمه الله بين المالكين ، وجوزوا صرفها للضعيف .

قوله : « فإن هم أبوا فاسألمهم الجزية » فيه حجة للمالك وأصحابه ، والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر ، عريباً كان أو غيره ، كتابياً كان أو غيره . وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنها تؤخذ من الجميع ، إلا من مشركي العرب ومجوسهم . وقال الشافعي : لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب ، عرباً كانوا أو عجماء ، وهو قول الامام أحمد في ظاهر مذهبه ، وتؤخذ من المجوس .

قلت : لأن النبي ﷺ أخذها منهم ، وقال : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

وقد اختلفوا في القدر المفروض من الجزية ، فقال مالك : أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعون درهماً على أهل الوريق ، وهل ينقص منها الضعيف أولاً ؟ قولان . وقال الشافعي : فيه دينار على الغني والفقير ، وقال أبو حنيفة رحمه الله ، والكوفيون : على الغني ثمانية وأربعون درهماً ، والوسط أربعة وعشرون درهماً ، والفقير اثنا عشر درهماً وهو قول أحمد بن حنبل رحمه الله .

قال يحيى بن يوسف الصرصري الحنبلي رحمه الله :

وقاتل يهوداً والنصارى وعصبة المجوس ، فإن هم سلموا الجزية اصدد على الأدون اثني عشر درهماً افوضن وأربعة من بعد عشرين زد

لأوسطهم حالاً ، ومن كان موسراً ثمانية مع أربعين لتتقد
وتسقط عن صبيانهم ونسائهم وشيخ لهم فاني وأمي ومقعد
وذوي الفقر والمجنون أو عبد مسلم ومن وجبت منهم عليه فيبتدي
وعند مالك وكافة العلماء على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون
غيرهم ، وإنما تؤخذ من كان تحت قهر المسلمين ، لا من نأى بداره
ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حريهم .

قوله : « وإذا حاصرت أهل حصن ، الكلام إلى آخره فيه حجة
لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول : إن المصيب في مسائل الاجتهاد
واحد ، وهو المعروف من مذهب مالك وغيره ، ووجه الاستدلال به :
أنه ﷺ قد نص على أن الله تعالى قد حكم حكماً معيناً في المجتهدات .
فمن وافقه فهو المصيب ، ومن لم يوافقه فهو الخطيء .

قوله : « وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله
وذمة نبيه ، الحديث . الذمة : العهد ، وتخفر : تنقض . يقال :
أخفرت الرجل : إذا نقضت عهده ، وخفرتة : أجزتة ، ومعناه : أنه
خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء للعهد ، كجملة الأعراب ، فكأنه
يقول : إن وقع نقض من متعدد معتد ، كان نقض عهد الخلق أهون
من نقض عهد الله تعالى . والله أعلم .

قوله : « وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال ، ذكر فيه :
أن مذهب مالك يجمع بين الأحاديث في الدعوة قبل القتال . قال : وهو
أن مالكاً قال : لا يقاتل الكفار قبل أن يدعوا ، ولا تلتبس غرتهم إلا
أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة ، فيجوز أن تلتبس غرتهم . وهذا الذي صار

إليه مالك هو الصحيح ، لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصية ، وإنما يقاتلون للدين ، فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سبباً مميلاً لهم إلى الانقياد إلى الحق ، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين ، فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك والدنيا فيزيدون عتواً وبغضاً . والله أعلم .

باب

ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل : من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان ؟ إني قد غفرت له ، وأحببت عملك » رواه مسلم .

وفي حديث أبي هريرة : أن القائل رجل عابد . قال أبو هريرة :
تكلم بكلمة أو بقت دلياه وآخرته .

فيه مسائل :

الأولى : التحذير من التألي على الله .

الثانية : كون النار أقرب إلى أحدنا من شركاء نعله .

الثالثة : أن الجنة مثل ذلك .

الرابعة : فيه شاهد لقوله : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة » الخ .

الخامسة : أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره

الأمور إليه .

قوله : باب ما جاء في الإقسام على الله .

ذكر المصنف فيه حديث جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ :
« قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان . قال الله عز وجل : من ذا
الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان ، إني قد غفرت له وأحببت عملك ،
رواه مسلم .

قوله : « يتألى ، أي : يحلف ، والألية بالتشديد الحلف . وصح
من حديث أبي هريرة قال البغوي في « شرح السنة » - وساق بالسند
إلى عكرمة بن عمار - قال : دخلت مسجد المدينة فناداني شيخ قال :
يا يامي ، تعال ، وما أعرفه ، قال : لا تقولن لرجل : والله لا يغفر لك
أبداً ولا يدخلك الجنة . قلت : ومن أنت يرحمك الله ؟ قال : أبو هريرة ،
فقلت : إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب ، أو لزوجته
أو لخدمه ، قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن رجلين كانا
في بني إسرائيل متحابين ، أحدهما مجتهد في العبادة ، والآخر كأنه يقول :
مذنب ، فجعل يقول : أقصر عما أنت فيه . قال فيقول : خلني وربي ،
قال : فوجده يوماً على ذنب استعظمه فقال : أقصر ، فقال : خلني وربي ،
أبعثت علي رقيباً ، فقال : والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبداً .
قال : فبعث الله إليها ملكاً ، فقبض أرواحها ، فاجتمعا عنده ، فقال
للمذنب : ادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : أتستطيع أن تحظر علي
عبدي رحمتي ؟ قال : لا يارب . قال اذهبوا به إلى النار » ، قال
أبو هريرة : والذي نفسي بيده ، تكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته .
رواه أبو داود في « سننه » وهذا لفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول :

« كان رجلان في بني إسرائيل متآخيين فكان أحدهما يذنب ، والآخر
يحْتَمِد في العبادة . فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول :
أقصر ، فوجده يوماً على ذنب فقال له : أقصر ، فقال : خلني وربي ،
أبعثت علي رقيباً ؟ قال : والله لا يغفر الله لك ، ولا يدخلك الجنة .
فقبضت أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : أكنت
بي عالماً ، أو كنت على ما في يدي قادراً ؟ فقال للمذنب : اذهب
فادخل الجنة ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار . »

قوله : « وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد ، يشير إلى
قوله في هذا الحديث « أحدهما مجتهد في العبادة » وفي هذه الأحاديث :
بيان خطر اللسان ، وذلك يفيد التحرز من الكلام ، كما في حديث معاذ
قلت : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : « ثكلتك أمك
يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال : على مناخرهم -
إلا حصائد ألسنتهم ؟ » والله أعلم .

باب

« لا يستشفع بالله على خلقه »

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : « جاء أعرابي إلى
النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، نهكت الأنفس ، وجام العيال ،
وهلكت الأموال ، فاستسقى لنا ربك ، فإنا نستشفع بالله عليك ،
وبك على الله ، فقال النبي ﷺ : سبحان الله ! سبحان الله ! فما زال
يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : ويحك ، أندري

ما الله ؟ إن شأن الله أعظم من ذلك إنه لا يستشفع بالله على أحد «
وذكر الحديث ... رواه أبو داود .

فيه مسائل :

الأولى : إنكاره على من قال « نستشفع بالله عليك » .

الثانية : تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة .

الثالثة : أنه لم ينكر عليه قوله « نستشفع بك على الله » .

الرابعة : التنبية على تفسير سبحانه الله .

الخامسة : ان المسامين يسألونه ﷺ الاستسقاء .

قوله : « باب لا يستشفع بالله على خلقه » .

وذكر الحديث وسياق أبي داود في « سننه » أتم بما ذكره المصنف
رحمه الله ولفظه : عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده
قال : « أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال : يا رسول الله ، جهدت
الأنفس ، وضاعت العيال ، ونهكت الأموال ، وهلكت الأنعام ،
فاستسق الله لنا ، فإننا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، قال
رسول الله ﷺ : ويحك أتدري ما تقول ؟ وسبح رسول الله ﷺ فما زال
يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : ويحك ، إنه لا يستشفع
بالله على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك ، أتدري ما الله ؟
إن عرشه على سمواته لهكذا - وقال بأصابعه مثل القبة عليه - وإنه ليضط
به أطيظ الرجل بالراكب » .

قال ابن بشار في حديثه « إن الله فوق عرشه ، وعرشه فوق سمواته » .

قال الحافظ الذهبي : رواه أبو داود بإسناد حسن عنده في الرد على الجهمية ، من حديث محمد بن إسحاق بن يسار .

قوله : « ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه » فإنه تعالى رب كل شيء ومليكه ، والخير كله بيده ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولا راد لما قضى ، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض لأنه كان عليا قديراً . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون . والخلق وما في أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء ، وهو الذي يشفع الشافع إليه ، ولهذا أنكر على الأعوان .

قوله : « وسبح الله كثيراً وعظمه » لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبمجده ، وإن شأن الله أعظم من ذلك .

وفي هذا الحديث : إثبات علو الله على خلقه ، وأن عرشه فوق سماواته . وفيه : تفسير الاستواء بالعلو كما فسره الصعابة والتابعون والأئمة ، خلافاً للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم ، كالأشاعرة ونحوهم ممن ألحد في أسماء الله وصفاته ، وصرفها عن المعنى الذي وضعت له ودلت عليه ، من إثبات صفات الله تعالى التي دلت على كماله جل وعلا ، كما عليه السلف الصالح والأئمة ومن تبعهم من تمسك بالسنة ، فإنهم أثبتوا ما أثبتته الله لنفسه وأثبتته له رسوله من صفات كماله ، على ما يليق بجلاله وعظمته ، إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في « مفتاح دار السعادة » - بعد كلام سبق فيما يعرف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته - قال بعد ذلك .

والثاني : أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة ، فتفتح له أبواب السماء ، فيجول في أقطارها وملكوها وبين ملائكتها ، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن ، فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ويرى السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، ويرى الملائكة حافين من حول العرش لهم زجل بالتسبيح والتحميد ، والتقديس والتكبير ، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها ، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين ، وإعزاز قوم وإذلال آخرين ، وإنشاء ملك وسلب ملك ، وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتبائنها وكثرتها ؛ من جبر كسير ، وإغناء فقير ، وشفاء مريض ، وتفريج كرب ، ومغفرة ذنب ، وكشف ضر ، وانصر مظلوم ، وهداية حيران ، وتعليم جاهل ورد آبق ، وأمان خائف ، وإجارة مستجير ، ومدد لضعيف ، وإغاثة للهموم ، وإعانة لعاجز ، وانتقام من ظالم ، وكف لعدوان ، فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة ، تنفذ في أقطار العوالم ، لا يشغله سمع شيء منها من سمع غيره ، ولا تغلظه كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها وتباينها واتحاد وقتها ، ولا يتبرم بالالحاح الملحين ، ولا تنقص ذرة من خزائنه ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

فحيثما يقوم القلب بين يدي الرحمن مطوقاً لهيبته ، خاشعاً لعظمته ، عالياً لعزته ، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد ، فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه ، وهذا من أعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته ، سفر هو حياة

الأرواح ، ومفتاح السعادة ، وغنيمة العقول والألباب لا كالسفر الذي هم
قطعة من العذاب اه كلامه رحمه الله .

وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته ، فالمراد به استجلاب دعائه
وليس خاصاً به صلى الله عليه وسلم ، بل كل حي صالح يرجى أن يستجاب
له ، فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة ،
كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر لما أراد أن يعتصر من المدينة
« لاتنسنا يا أخي من صالح دعائك » ، وأما الميت ، فإنما يشرع في حقه
الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفي غير ذلك . وهذا هو الذي يشرع
في حق الميت . وأما دعاؤه ، فلم يشرع ، بل قد دل الكتاب والسنة
على النهي عنه والوعيد عليه ، كما قال تعالى : (والذين تدعون من دونه
ما يملكون من قطير . إنا تدعوم لا يسمعون دعاءكم ، ولو سمعوا
ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم) [فاطر : ١٤ ، ١٥]
فبين الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفوه به المدعو
يوم القيامة ، أي : ينكره ويعادي من فعله ، كما في آية الأحقاف (وإذا
حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين) [الأحقاف : ٧]
فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر .
والصحابه رضي الله عنهم ، لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين ،
لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم أنهم أنزلوا حاجاتهم بالنبي ﷺ بعد
وفاته ، حتى في أوقات الجذب . كما وقع لعمر رضي الله عنه لما خرج
ليستسقي بالناس خرج بالعباس عم النبي ﷺ ، فأمره أن يستقي لأنه حي
حاضر يدعو ربه ، فلو جاز أن يستقي بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر
رضي الله عنه والسابقون الأولون بالنبي ﷺ .

وبهذا يظهر الفرق بين الحي والميت ، لأن المقصود من الحي دعاؤه إذا كان حاضراً ، فإنهم في الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوهم ويتضرع إليه ، وهم كذلك يدعون ربهم ، فمن تعدى المشروع إلى ما لا يشرع ضل وأضل . ولو كان دعاء الميت خيراً لسكان الصحابة إليه أسبق وعليه أحرص ، وبهم أليق ، وبحقه أعلم وأقوم . فمن تمسك بكتاب الله نجا ، ومن تركه واعتمد على عقله ، هلك . وبالله التوفيق .

باب

ما جاء في حماية النبي ﷺ حتى التوحيد ، وسده طرق الشرك عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : « انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ ، فقلنا : أنت سيدنا فقال : السيد الله تبارك وتعالى . قلنا : وأفضلنا فضلاً ، وأعظمنا طولاً ، فقال : قولوا بقولكم ، أو بعض قولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان » رواه أبو داود بسند جيد .

وعن أنس رضي الله عنه : « أن أناساً قالوا : يا رسول الله ، يا خيرنا ، وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا . فقال : « يا أيها الناس ، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل » . رواه النسائي بسند جيد .

فيه مسائل :

الأولى : تحذير الناس من الغلو .

الثانية : ما ينبغي أن يقول من قيل له : أنت سيدنا .

الثالثة : قوله : « لا يستجوبينكم الشيطان » مع أنهم لم يقولوا إلا الحق .

الرابعة : قوله « ما أحب أن ترفعوني فوق منزلي » .

قوله : باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك .

حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص ، وهذا كثير في السنة الثابتة عنه ﷺ كقوله : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » وتقدم قوله « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله عز وجل » ونحو ذلك . ونهى عن التماذج وشدد القول فيه ، كقوله لمن مدح إنساناً : « ويلك قطعت عتق صاحبك » الحديث . أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه « أن رجلاً أتى على رجل عند النبي ﷺ فقال له : « قطعت عتق صاحبك ثلاثاً » وقال : « إذا لقيتم المداحين ، فاحشوا في وجوههم التراب » أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه عن المقداد ابن الأسود .

وفي هذا الحديث نهى عن أن يقولوا : أنت سيدنا ، وقال : السيد الله تبارك وتعالى ، ونهاهم أن يقولوا : وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً . وقال « لا يستجوبينكم الشيطان » .

وكذلك قوله في حديث أنس أن ناساً قالوا : يا رسول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا إلى الخ . كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح فيفضي بهم إلى الغلو ، وأخبر ﷺ أن مواجهة المدح للمدوح بمدحه ولو بما هو فيه - من عمل

الشیطان ، لما تقضي محبة المدح إلیه من تعاضل الممدوح فی نفسه ، وذلك ینافی کمال التوحید ، فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذي لا تدور إلا علیه ، وذلك غاية الذل فی غاية المحبة ، وکمال الذل یقتضي الخضوع والخشية والاستکالة لله تعالى ، وأن لا یرى نفسه إلا فی مقام الذم لها ، والمعاناة لها فی حق ربه ، وكذلك الحب لانهصل غایته إلا إذا کانت یحب ما یحبه الله ، ویکره ما یکرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات ، ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما یحبه الله منه ، والمادح یغره من نفسه فیكون آثماً ، فمقام العبودية یقتضي کراهة المدح رأساً ، والنهي عنه صيانة لهذا المقام ، فمتی أخلص العبد الذل لله والمحبة له ، خلصت أعماله وصحت ، ومتی أدخل علیها ما یشوہا من هذه الشوائب ، دخل علی مقام العبودية بالنقص أو الفساد ، وإذا أداه المدح إلی التعاضل فی نفسه والإعجاب بها ، وقع فی أمر عظیم ینافی العبودية الخاصة ، كما فی الحديث « الکبرياء ردائی ، والعظمة إزاری » ، فمن نازعني شیئاً منها عذبتہ ، وفي الحديث « لا یدخل الجنة من کان فی قابله مثقال ذرة من کبر » ، وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سبباً لها وسداً إلیها ، والعجب يأکل الحسنات کما تأکل النار الحطب ، وأما المادح فقد یفضي به المدح إلی أن ینزل الممدوح منزلة لا یستحقها ، کما یوجد کثیراً من أشعارهم من الغلو الذي نهى عنه الرسول ﷺ وحذر أمته أن یقع منهم ، فقد وقع الکثیر منه حتی صرحوا فیہ بالشرك فی الربوبية والإلهية والملك ، كما تقدمت الإشارة إلی شيء من ذلك . والنبي ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار یکره أن یمدح صيانة لهذا المقام ، وأرشد الأمة إلی ترک ذلك

نصحاً لهم ، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده أو يضعفه ،
من الشرك ووسائله (فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم) ،
[البقرة : ٦٠] ورأوا أن فعل ما نهام ﷺ عن فعله قربة من أفضل
القربات ، وحسنة من أعظم الحسنات .

وأما تسمية العبد بالسيد ، فاختلف العلماء في ذلك .

قال العلامة ابن القيم في « بدائع الفوائد » : اختلف الناس في جواز
إطلاق السيد على البشر ، فمنعه قوم ، ونقل عن مالك ، واحتجوا بقول
النبي ﷺ لما قيل له : يا سيدنا قال « السيد الله تبارك وتعالى » وجوزوه
قوم ، واحتجوا بقول النبي ﷺ للأَنْصار « قوموا إلى سيدكم » وهذا أصح
من الحديث الأول . قال هؤلاء : السيد أحد ما يضاف إليه ، فلا يقال
للتيمي : سيد كندة ، ولا يقال : الملك سيد البشر . قال : وعلى هذا
فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم وفي هذا نظر ، فإن السيد إذا أطلق
عليه تعالى ، فهو في منزلة المالك ، والمولى ، والرب ، لا بمعنى الذي يطلق
على المخلوق . انتهى .

قلت : فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنها أنه قال في معنى
قول الله تعالى (قل أغير الله أبغي رباً) [الأنعام : ١٦٥] أي :
إلهاً وسيداً ، وقال في قول الله تعالى (الله الصمد) : إنه السيد الذي
انتهى سؤدده . وأما استدلالهم بقول النبي ﷺ للأَنْصار « قوموا إلى
سيدكم » فالظاهر : أن النبي ﷺ لم يواجه سعداً به ، فيكون في هذا
المقام تفصيل . والله أعلم .

باب

ما جاء في قول الله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) [الزمر : ٦٨] .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال « جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله يجعل السموات على اصبع ، والأرضين على اصبع ، والشجر على اصبع ، والثرى على اصبع ، وسائر الخلق على اصبع . فيقول : أنا الملك . ففحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ، تصديقاً لقول الخبر . ثم قرأ (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) » .

وفي رواية لمسلم : « والجبال والشجر على اصبع ، ثم يزهن ، فيقول : أنا الملك ، أنا الله » .

وفي رواية للبخاري « يجعل السموات على اصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على اصبع » أخرجه .

ومسلم عن ابن عمر مرفوعاً « يطوي الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين السبع ، ثم يأخذهن بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » .

وروي عن ابن عباس قال : « ما السموات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم » .

وقال ابن جرير : حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن

زيد : حدثني أبي قال : قال رسول الله ﷺ : « ما السموات السبع في الكرسي إلا كدوام سبعة ألقيت في ترس » .

قال : وقال أبو ذر رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض » .

وعن ابن مسعود قال : « بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام ، وبين كل سماء خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام ، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام ، والعرش فوق الماء . والله فوق العرش ؛ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم » أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم بن زر عن عبد الله .

ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله .

قاله الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى قال : وله طرق .

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : بينها مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة . وبين السماء السابعة والعرش بحر ، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله تعالى فوق ذلك ، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم » أخرجه أبو داود وغيره .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله تعالى : (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) .

الثانية : أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ ، لم ينكروها ولم يتأولوها .

الثالثة : أن الخبر لما ذكر للنبي ﷺ صدقه ، ونزل القرآن بتقرير ذلك .

الرابعة : وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الخبر هذا للعلم العظيم .

الخامسة : التصريح بذكر اليدين ، وأن السموات في اليد اليمنى والارضين في الاخرى .

السادسة : التصريح بتسميتها الشمال .

السابعة : ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك .

الثامنة : قوله : كخردلة في كف أحدكم .

التاسعة : عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء .

العاشرة : عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي .

الحادية عشرة : أن العرش غير الكرسي والماء .

الثانية عشرة : كم بين كل سماء إلى سماء .

الثالثة عشرة : كم بين السماء السابعة والكرسي .

الرابعة عشرة : كم بين الكرسي والماء .

الخامسة عشرة : أن العرش فوق الماء .

السادسة عشرة : أن الله فوق العرش .

السابعة عشرة : كم بين السماء والارض .

الثامنة عشرة : كثف كل مائة سنة .

التاسعة عشرة : أت البحر الذي فوق السموات أسفله وأعلاه
خمسة سنة والله أعلم .

قوله : باب قول الله تعالى :

(وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات
مطويات يمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) [الزمر : ٦٨] .

أي : من الأحاديث والآثار في معنى هذه الآية الكريمة .

قال العباد بن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى : ما قدر المشركون
الله حق قدره ، حتى عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه ،
القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته .
قال مجاهد : نزلت في قريش ، وقال السدي : ما عظموه حق تعظيمه ،
وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوه ، وقال علي بن
أبي طلحة عن ابن عباس : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم ،
فمن آمن أن الله على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم
يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره .

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية ، الطريق فيها وفي
أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف
وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف رحمه الله في هذا الباب ،
قال : ورواه البخاري في صحيحه في غير موضع من « صحيحه » ، والامام أحمد
ومسلم والترمذي والنسائي كلهم من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش
عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود بنحوه .

قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن
 علقمة عن عبد الله قال : جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ
 فقال : يا أبا القاسم ، أبلغك أن الله تعالى يجعل الخلائق على إصبع ،
 - السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ،
 والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع ، فيقول : أنا الملك ؟
 فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصدقاً لقول
 الخبر ، قال : وأنزل الله (وما قدروا الله حق قدره) [الزمر : ٦٨]
 وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن الأعمش به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسين بن حسن الأشقر ، حدثنا أبو
 كدينة عن عطاء عن أبي الضحى عن ابن عباس قال : مر يهودي برسول
 الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فقال : كيف تقول يا أبا القاسم يوم
 يجعل الله السماوات على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه ، والجبال
 على ذه ، وسائر الخلائق على ذه ؟ كل ذلك يشير بإصبعه ، فأنزل الله
 (وما قدروا الله حق قدره) . وكذا رواه الترمذي في التفسير بسنده
 عن أبي الضحى مسلم بن صبيح به ، وقال : حسن صحيح غريب ،
 لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، ثم قال البخاري : حدثنا سعيد بن عفير
 حدثنا الليث حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن
 أبي سلمة بن عبد الرحمن ، أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : سمعت
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يقبض الله الأرض ، ويطوي السماء
 بيمينه ، فيقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ ، تفرد به من هذا
 الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر .

وقال البخاري في موضع آخر : حدثنا مقدم بن محمد حدثنا عبيد الله بن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع ، وتكون السماء يمينه ، ثم يقول : أنا الملك » تفرد به أيضاً من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر .

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول فقال : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أنبأنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، عن عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) [الزمر : ٦٨] ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده بحركتها يقبل بها ويدبر ، يعجد الرب تعالى نفسه : « أنا الجبار المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا : ليخزن^(١) به » . اهـ قوله « ولمسلم عن ابن عمر - الحديث » كذا في رواية مسلم . قال الحميدي : وهي أتم ، وهي عند مسلم من حديث سالم عن أبيه . وأخرجه البخاري من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين ، وتكون السماء يمينه » وأخرجه مسلم من حديث عبيد الله بن مقسم .

قلت : وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة الله ، وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته ، وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته ، وعجائب مخلوقاته ، وكلها تدل على كماله ، وأنه هو المعبود وحده ، لا شريك

(١) في الطبعة السابقة : ليخزن وهو تصحيد .

له في ربوبيته وإلهيته ، وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل ، وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان ، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان .

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي ﷺ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته ، وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه ، ولم يقل النبي ﷺ في شيء منها : إن ظاهرها غير مراد ، وإنما تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه ، فلو كان هذا حقاً بلغه أمينه أمته ، فإن الله أكمل به الدين ، وأتم به النعمة فبلغ البلاغ المبين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين .

ونلقى الصحابة رضي الله عنهم عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلالة ، فأمنوا به ، وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جل وعلا ، كما قال تعالى (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) [آل عمران : ٨] وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم ، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يجحدوا شيئاً من الصفات ، ولا قال أحد منهم : إن ظاهرها غير مراد ، ولا إنه يلزم من إثباتها التشبيه ، بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار ، فصنفوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة .

قال شيخ الاسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى : وهذا كتاب الله

من أوله إلى آخره وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة والتابعين ، وكلام سائر الأئمة مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر أن الله تعالى فوق كل شيء ، وأنه فوق العرش فوق السموات مستو على عرشه مثل قوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) [فاطر : ١١] وقوله تعالى (يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي) [آل عمران : ٥٦] وقوله تعالى (بل رفعه الله إليه) [النساء : ١٥٨] وقوله تعالى (ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه) [المعارج : ٥٤] وقوله تعالى (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) [السجدة : ٦] وقوله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) [النحل : ٥١] وقوله تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) [البقرة : ٣٠] وقوله تعالى (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، يغطي الليل النهار يطابه حديثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) [الأعراف : ٥٤] وقوله تعالى (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه) [يونس : ٤] فذكر التوحيد في هذه الآية . وقوله تعالى (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) [الرعد : ٣] وقوله تعالى (تنزيلاً من خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى) [طه : ٦٥] وقوله تعالى (وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً . الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن

فأسأل به خبيراً) [الفرقان : ٦٠،٥٩] وقوله تعالى (الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لَكُمْ من دونه من ولي ولا شفيع أ فلا تتذكرون . يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) [السجدة : ٦٥] وقوله تعالى (هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) [الحديد : ٥] فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته ، وقوله تعالى (أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ؟ أم أنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ؟ فستعلمون كيف نذير) [بآرك : ١٧، ١٨] وقوله تعالى (تنزيل من حكيم حميد) [فصلت : ٤٣] وقوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) [الزمر : ٢] وقوله تعالى (وقال فرعون : يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذباً) [غافر : ٣٧، ٣٨] انتهى كلامه رحمه الله .

قلت : وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه في الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين ، فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب « العلو » وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : أنها قالت في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) قالت : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر . رواه ابن المنذر واللالسكاني وغيرهما

بأسانيد صحاح . قال : وثبت عن سفیان بن عیینة رحمه الله تعالى أنه قال : لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن : كيف الاستواء ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلىنا التصديق . وقال ابن وهب : كنا عند مالك فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله (الرحمن على العرش استوى) [طه : ٦] كيف استوى ؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرضاء . وقال : الرحمن على العرش استوى ، كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف ؟ و « كيف » عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة . أخرجه . رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب ، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً . ولفظه قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .

قال الذهبي : فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله ، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير ، ونفوا عنه الكيفية . قال البخاري في « صحيحه » : قال مجاهد : استوى : علا على العرش . وقال اسحاق ابن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقول (الرحمن على العرش استوى) ، أي : ارتفع . وقال محمد بن جرير الطبري في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) أي : علا وارتفع .

وشاهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم . فمن ذلك قول عبد الله ابن رواحة رضي الله عنه :

| | |
|-------------------------|--------------------------|
| شهدت بأن وعد الله حق | وأن النار مشوى الكافرينا |
| وأن العرش فوق الماء طاف | وفوق العرش رب العالمينا |
| وتحملة ملائكة شداد | ملائكة الإله مسومينا |

وروى الدارمي والحاكم والبيهقي بأصح إسناد إلى علي بن الحسين ابن شقيق قال : سمعت عبد الله بن المبارك يقول : نعرف ربنا بأنه فوق سبع سماواته على العرش استوى ، بآن من خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية . قال الدارمي : حدثنا حسن بن الصباح البزار ، حدثنا علي بن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك : قيل له : كيف نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق السماء السابعة على العرش بآن من خلقه .

وقد تقدم قول الأوزاعي : كنا - والتابعون متوافرون - نقول : إن الله تعالى ذكره بآن من خلقه ، ونؤمن بما وردت به السنة .

وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب « الأصول » : أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته . وقال في هذا الكتاب أيضاً : أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز ، ثم ساق بسنده عن مالك قوله : الله في السماء وعلمه في كل مكان ، ثم قال في هذا الكتاب : أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله (وهو معكم أينما كنتم) [الحديد : ٤] ونحو ذلك من القرآن : أن ذلك علمه ، وأن الله فوق السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء ، وهذا لفظه في كتابه .

وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين والأئمة ، أثبتوا ما أثبتته الله في كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين ، ولم يمثلوا ، ولم يكتفوا كما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب .

وقال الحافظ الذهبي : وأول من أنكر أن الله فوق عرشه : هو الجعد بن درهم ، وكذلك أنكر جميع الصفات ، وقتله خالد بن عبد الله القسري وقصته مشهورة ، فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية ، فأظهرها واحتج لها بالشبهات ، وكان ذلك في آخر عصر التابعين ، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل الأوراعي ، وأبي حنيفة ومالك ، والليث بن سعد ، والثوري ، وحمام بن زيد ، وحمام بن سلمة ، وابن المبارك ، ومن بعدهم من أئمة الهدى ، فقال الأوزاعي إمام أهل الشام على رأس القرنين ومائة . عند ظهور هذه المقالة ما أخبرنا عبد الواسع الأبهري بسنده إلى أبي بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرني محمد بن علي الجوهري - ببغداد - حدثنا إبراهيم بن الهيثم ، حدثنا محمد بن كثير المصيصي سمعت الأوزاعي يقول : كنا - والتابعون متوافرون - نقول : إن الله فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته . أخرجه البيهقي في «الاضافات» ورواه ~~أئمة الثقات~~ .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : لله أسماء وصفات لا يسع أحدا ردها ، ومن خالفت بعد ثبوت احتجاجه عليه كفر ، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل ، وثبتت هذه الصفات ونفي عنه التشبيه ، كما نفى عن نفسه فقال (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) اهـ من «فتح الباري» . قوله : عن العباس بن عبد المطلب ساقه المصنف رحمه الله مختصراً . والذي في «سنن أبي داود» : عن العباس بن عبد المطلب قال : «كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ ، فترت بهم سحابة ، فنظر إلينا» فقال : ما تسمون هذه ؟ قالوا : السحاب ، قال : «والمزن قالوا : والمزن» . قال : والعنان . قالوا : والعنان . قال أبو داود : لم ألق العنان جيداً . قال : هل تدرون ما بين السماء والأرض ؟ قالوا : لا ندري ،

قال : إن بعد ما بينها إما واحدة ، أو اثنتان ، أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء التي فوقها كذلك ، حتى عد سبع سموات ، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله ، وأعله مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال ، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء ثم على ظهورهم العرش ، بين أسفله وأعله ، كما بين سماء إلى سماء ، ثم الله تعالى فوق ذلك ، وأخرجه الترمذي وابن ماجة ، وقال الترمذي : حسن غريب (١) ، وقال الحافظ الذهبي : رواه أبو داود بإسناد حسن ، وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة وفيه « ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام ، ولا منافاة بينها ، لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلا ، وسبعون سنة على سير البريد ، لأنه يصح أن يقال : بيننا وبين مصر عشرون يوما باعتبار سير العادة ، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد ، وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك فوقه ، هذا آخر كلامه .

قلت : فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم في الآيات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة وفي كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم . وهذا الحديث له شواهد في « الصحيحين » وغيرهما ، ولا عبرة بقول من ضعفه ، لكثرة شواهد التي يستحيل دفعها ، وصرفها عن ظواهرها . وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله وكماله ، وعظم مخلوقاته ، وأنه المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في كتابه ، ووصفه بها رسول الله ﷺ ، وعلى كمال قدرته ، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له ، دون كل ما سواه . وبالله التوفيق ،

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

(١) هو حديث ضعيف في مسنده عبد الله بن مسعود . قال الذهبي : فيه جهالة .

الفهرس

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| مقدمة الناشر | ٩ |
| ترجمة المؤلف | ١٠ |
| الافتتاح بذكر الله | ٢٦ |
| تفسير كلمة (الله) | ٢٨ |
| تفسير (الرحمن الرحيم) | ٣١ |
| توحيد الربوبية | ٣٣ |
| توحيد الأسماء والصفات | ٣٤ |
| توحيد الإلهية | ٣٦ |
| بعض أنواع توحيد الإلهية | ٣٩ |
| أقسام الشرك وأنواعه | ٤٣ |
| تعريف العبادة وحقيقتها | ٤٦ |
| الأمر بعبادة الله واجتناب عبادة الطاغوت | ٤٩ |
| الأمر بعبادة الله والإحسان إلى الوالدين | ٥١ |

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| المأمورات والمنهيات في الوصايا الواردة في سورة الأنعام | ٥٣ |
| الأمر بعبادة الله وحده وعدم الاثراك به | ٦٢ |
| حق الله على العباد وحق العباد على الله | ٦٤ |
| باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب | ٦٩ |
| ذكر نصوص العلماء في معنى الإله | ٧٤ |
| تفسير قوله تعالى : وروح منه | ٨٤ |
| فضل من قال : لا إله إلا الله | ٨٦ |
| معنى حدث أبي ذر د ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة | ٨٧ |
| فضل لا إله إلا الله ورجعائها في الميزان | ٩١ |
| بيان سعة مغفرة الله تعالى | ٩٦ |
| باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب | ٩٩ |
| صفات المتوكلين الذين يدخلون الجنة بغير حساب | ١٠٢ |
| باب الخوف من الشرك | ١١٤ |
| بيان أن الرياء من الشرك الأصغر | ١١٧ |
| من مات وهو يدعو لله ندأ دخل النار | ١١٩ |
| باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله | ١٢٢ |
| وصية رسول الله ﷺ لعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن | ١٢٤ |
| إعطاء الرسول الراية لعلي بن أبي طالب يوم خيبر | ١٣٢ |

| <u>الموضوع</u> | <u>الصفحة</u> |
|---|---------------|
| باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله | ١٣٩ |
| شرح حديث من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله | ١٤٦ |
| باب من الشرك لبس الحلقة والحيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه | ١٥٢ |
| باب ما جاء في الرقى والتائم | ١٦٢ |
| باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما | ١٧٤ |
| ذكر صفة الأوثان التي كانت تعبد من دون الله | ١٧٥ |
| باب ما جاء في الذبيح لغير الله | ١٨٧ |
| حديث علي في لعن من ذبح لغير الله | ١٨٩ |
| باب لا يذبح لله بمكان لا يذبح فيه لغير الله | ١٩٦ |
| باب من الشرك النذر لغير الله | ٢٠٣ |
| باب من الشرك الاستعاذة بغير الله | ٢٠٩ |
| باب من الشرك أن يستغيث المرء بغير الله أو يدعو غيره | ٢١٤ |
| ذكر بعض ما نظمته الشعراء من الغلو المنهي عنه في المذبح | ٢٢١ |
| كلام العلماء في الغلو والمغالين | ٢٢٧ |
| النفع والضر من الله وحده | ٢٣٦ |
| لا يجيب المضطر إلا الله | ٢٤٠ |
| تحريم الاستغاثة بغير الله | ٢٤١ |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| ٢٥٠ | باب قول الله تعالى (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصراً) |
| ٢٥٨ | إنذاره عليه الصلاة والسلام لأقاربه وعشيرته |
| ٢٦٣ | باب قول الله تعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير) |
| ٢٦٥ | صفة وحي الله تعالى وسماع الملائكة له |
| ٢٧٣ | باب الشفاعة |
| ٢٨٠ | بيان أنه لا شفاعة إلا بإذن الله |
| ٢٩٤ | أنواع الشفاعة التي تكون للرسول ﷺ يوم القيامة |
| ٢٩٨ | باب قول الله تعالى (إنك لانهدي من أحببت) |
| ٣٠٠ | سبب نزول قوله تعالى (إنك لانهدي من أحببت) |
| ٣٠٤ | ما ورد من النهي عن الاستغفار للمشركين |
| ٣٠٥ | باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين |
| ٣٠٦ | سبب عبادة الأصنام |
| ٣١٣ | النهي عن الإطراء ومجاورة الحد في المدح |
| ٣١٧ | النهي عن التنطع في الدين |
| ٣١٩ | باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح |
| ٣٢٢ | لعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد |

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| النهي عن اتخاذ القبور مساجد | ٣٢٥ |
| شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد | ٣٣١ |
| باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أولئنا تعبد من دون الله | ٣٣٨ |
| باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك | ٣٤٧ |
| باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان | ٣٦٢ |
| إخبار الرسول ﷺ بأن أمر أمته سيتسع | ٣٦٩ |
| خوف الرسول ﷺ على أمته من الأئمة المضلين | ٣٧٣ |
| لا تقوم الساعة حتى تعبد فئام من الناس الأوثان | ٣٧٧ |
| إخبار الرسول ﷺ بأنه سيكون في هذه الأمة دجالون كذابون | ٣٧٧ |
| لاتزال طائفة من هذه الأمة على الحق حتى يأتي أمر الله | ٣٧٩ |
| لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض : الله الله . | ٣٨٠ |
| باب ما جاء في السحر | ٣٨٢ |
| أمر الرسول ﷺ أمته باجتنب السبع الموبقات | ٣٨٦ |
| ما ورد في حد الساحر | ٣٩٠ |
| أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتل الساحر | ٣٩١ |
| باب بيان شيء من أنواع السحر | ٣٩٤ |
| الفرق بين الكرامة والاستدراج | ٣٩٧ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| العبادة والطرق والطيرة من الجبت | ٣٩٨ |
| باب ما جاء في الكهان ونحوم | ٤٠٥ |
| من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً | ٤٠٦ |
| من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ | ٤٠٨ |
| تعريف الكاهن والعراف | ٤١١ |
| باب ما جاء في النشرة | ٤١٦ |
| النشرة من عمل الشيطان | ٤١٦ |
| أنواع النشرة | ٤١٩ |
| باب ما جاء في التطير | ٤٢٠ |
| لاعدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر | ٤٢٣ |
| أقوال العلماء في الشؤم | ٤٢٨ |
| الكلام على الهامة وصفر | ٤٣٢ |
| كان رسول الله ﷺ يعجبه الفأل | ٤٣٤ |
| تعريف الفأل | ٤٣٥ |
| الطيرة شرك | ٤٣٨ |
| باب ما جاء في التنجيم | ٤٤١ |
| التنجيم على ثلاثة أقسام | ٤٤١ |
| خلق الله النجوم لثلاث | ٤٤٢ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| النجوم علامات يهتدى بها | ٤٤٣ |
| ثلاثة لا يدخلون الجنة ... | ٤٤٩ |
| باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء | ٤٥١ |
| أربع من أمر الجاهلية | ٤٥٢ |
| تعريف الاستسقاء بالنجوم | ٤٥٤ |
| تفسير قوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم) | ٤٦١ |
| الكلام على القرآن الكريم المقسم عليه | ٤٦٣ |
| المراد من قوله تعالى (لا يمسه إلا المطهرون) | ٤٦٣ |
| تفسير قوله تعالى (تنزيل من رب العالمين) | ٤٦٤ |
| باب قول الله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله | ٤٦٦ |
| أقسام المحبة وأنواعها | ٤٦٧ |
| توعد من قدم شيئاً على محبة الله ورسوله | ٤٧٠ |
| لا يكمل إيمان العبد حتى يحب الرسول ﷺ أكثر من جميع البشر | ٤٧٢ |
| ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان | ٤٧٥ |
| لاتنال ولاية الله إلا بالحب في الله والبغض في الله | ٤٨٠ |
| باب قول الله تعالى (إنما ذاكم الشيطان يخوف أولياءه | ٤٨٣ |
| فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) | |

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| الخوف على ثلاثة أقسام | ٤٨٤ |
| (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) | ٤٨٧ |
| إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله | ٤٩٠ |
| من التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه | ٤٩٥ |
| باب قول الله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) | ٤٩٥ |
| التوكل قسمان | ٤٩٧ |
| تفسير قول الله تعالى (يا أيها النبي حسبك الله) | ٥٠٠ |
| تفسير قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) | ٥٠١ |
| (حسبنا الله ونعم الوكيل) قول إبراهيم ومحمد عليهما السلام | ٥٠٢ |
| باب قول الله تعالى (أفأمنوا مكر الله فلا يأت من مكر الله إلا القوم الخاسرون) | ٥٠٥ |
| لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون | ٥٠٨ |
| باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله | ٥١١ |
| من يؤمن بالله يهد قلبه | ٥١٢ |
| اثنان في الناس هما كفر | ٥١٣ |
| ليس منا من ضرب الحدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية | ٥١٤ |
| إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا | ٥١٧ |
| إن عظم الجزاء مع عظم البلاء | ٧١٩ |

| <u>الموضوع</u> | <u>الصفحة</u> |
|--|---------------|
| كيف يبتلي الله أحبابه | ٥٢١ |
| الفوق بين الرضى والصبر | ٥٢٤ |
| باب ما جاء في الرياء | ٥٢٤ |
| الرياء من الشرك الأصغر | ٥٢٦ |
| الرياء من الشرك الخفي | ٥٣٢ |
| باب من الشرك ارادة الانسان بعمله الدنيا | ٥٣٤ |
| أنواع الأعمال التي يقوم بها الإنسان | ٥٣٦ |
| تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم ... | ٥٣٨ |
| باب من أطاع العلماء والامراء في تحريم ما أحل الله | ٥٤٣ |
| أو تحليل ما حرم الله فقد اغتدوا أرباباً من دون الله | |
| لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق | ٥٤٤ |
| التحذير من مخالفة الرسول ﷺ | ٥٤٥ |
| قراءة كتب الفقه ينبغي أن تكون للاستعانة على فهم | ٥٤٨ |
| الكتاب والسنة وتصوير المسائل | |
| باب قول الله تعالى (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل | ٥٥٤ |
| إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) | |
| تفسير قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك | ٥٦٢ |
| فيما شجر بينهم) | |
| ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم | ٥٦٥ |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| ٥٦٨ | لا يؤمن العبد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ |
| ٥٧١ | سبب نزول قوله تعالى (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) |
| ٥٧٤ | باب من جعد شيئاً من الأسماء والصفات |
| ٥٧٦ | قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : حدثوا الناس بما يعرفون |
| ٥٧٩ | تفسير قوله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) |
| ٥٨٢ | باب قول الله تعالى (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) |
| ٥٨٥ | حكم الايمان بالأنواء |
| ٥٨٦ | باب قول الله تعالى (ولا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) |
| ٥٨٧ | بعض أنواع الشرك الأصغر الخفي |
| ٥٨٩ | تأويل قوله ﷺ من حلف بغير الله فقد أشرك |
| ٥٩١ | أقوال العلماء في قوله ﷺ « أفلح وأبيه إن صدق » |
| ٥٩٦ | باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله |
| ٥٩٨ | باب قول ما شاء الله وشئت |
| ٦٠٦ | باب من سب الدهر فقد آذى الله |
| ٦٠٨ | النهي عن سب الدهر |
| ٦١١ | باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه |
| ٦١٤ | باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم من أجل ذلك |

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| يكفى الرجل بأكبر أولاده | ٦١٧ |
| باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول | ٦١٧ |
| النهي عن الخوض بآيات الله والاستهزاء بها . | ٦١٩ |
| باب قول الله تعالى (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ...) | ٦٢٣ |
| حديث الأبرص والأقرع والأعمى الذين ابتلام الله | ٦٢٥ |
| بحث في الشكر | ٦٢٧ |
| باب قول الله تعالى : (فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون) | ٦٢٨ |
| تحريم كل اسم معبد لغير الله | ٦٣١ |
| باب قول الله تعالى : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه) | ٦٣٦ |
| الخلاف في أسماء الله الحسنى هل هي توقيفية أم لا | ٦٣٩ |
| إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة | ٦٤١ |
| الإلحاد في أسماء الله : تسميته بما لا يليق بجلاله | ٦٤٥ |
| باب لا يقال : السلام على الله | ٦٤٨ |
| اختلاف العلماء في معنى السلام المطلوب عند التسمية | ٦٤٩ |
| باب قول : اللهم اغفر لي إن شئت | ٦٥١ |
| باب : لا يقول عبدي وأمتي | ٦٥٣ |

| <u>الصفحة</u> | <u>الموضوع</u> |
|---------------|---|
| ٦٥٦ | باب : لا يرد من سأل بالله |
| ٦٥٧ | الأمر باعطاء من سأل بالله |
| ٦٥٨ | الأمر بإجابة الداعي |
| ٦٥٩ | الأمر بكفاة من صنع معروفًا |
| ٦٥٩ | باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة |
| ٦٦١ | باب ما جاء في اللو |
| ٦٦٢ | تفسير قوله تعالى (الذين قالوا لآخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا) |
| ٦٦٦ | تفسير قول رسول الله ﷺ : « وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتتح عمل الشيطان ، |
| ٦٦٩ | باب النهي عن سب الرياح |
| ٦٧٠ | ما يدعو به المسلم إذا هبت الرياح |
| ٦٧١ | باب قول الله تعالى (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله) |
| ٦٧٥ | تفسير قوله تعالى (الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء) |
| ٦٧٨ | بعض أنواع ظن السوء برب العالمين |

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| من ظن بالله خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله فقد ظن به ظن السوء | ٦٨٠ |
| بعض المعترضين على الله تعالى | ٦٨٢ |
| النهي عن ظن السوء برب العالمين | ٦٨٤ |
| باب ما جاء في منكري القدر | ٦٨٥ |
| معنى القدر | ٦٨٦ |
| من أركان الايمان : الايمان بالقدر خيره وشره | ٦٨٨ |
| إثبات الشر في القضاء والقدر انما هو بالاضافة إلى العبد | ٦٩١ |
| ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك | ٦٩٣ |
| لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره | ٦٩٤ |
| الكلام على القلم والعرش وأيهما خلق أول | ٦٩٤ |
| من لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار | ٦٩٧ |
| باب ما جاء في المصورين | ٧٠٠ |
| أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون | ٧٠١ |
| الأمر بطمس الصور وتسوية القبور | ٧٠١ |
| النهي عن تجصيص القبور | ٧٠٣ |
| لعن من اتخذ القبور مساجد | ٧٠٤ |
| بعض ما يفعله الناس عند انقبور من البدع | ٧٠٤ |
| مشروعية زيارة القبور والدعاء للأموات | ٧٠٦ |
| بعض المفاسد التي تحصل عند القبور | ٧٠٨ |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---|
| ٧٠٩ | باب ما جاء في كثرة الحلف |
| ٧١١ | الحلف بمنققة للسلعة بمنققة للبركة |
| ٧١٢ | ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ... |
| ٧١٤ | خير القرون قرن محمد ﷺ |
| ٧١٦ | باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه |
| ٧١٩ | النهي عن الغدر والتمثيل بالمشركون |
| ٧٢٠ | ما يدعى إليه المشركون قبل فتلهم |
| ٧٢٣ | باب ما جاء في الإقسام على الله |
| ٧٢٥ | باب لا يستشفع بالله على خلقه |
| ٧٢٧ | لأثبت علو الله على خلقه وأن عرشه فوق سماواته |
| ٧٢٩ | المراد في الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته |
| ٧٣٠ | باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حتى التوحيد وسده طرق الشرك |
| ٧٣١ | النهي عن الإطراء وهو مجاوزة الحد في المدح |
| ٧٣٣ | اختلاف العلماء في جواز إطلاق السيد على البشر |
| ٧٣٤ | باب ما جاء في قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) |
| ٧٤١ | ما ورد من الأدلة في الكتاب والسنة على أن الله فوق العرش |
| ٧٤٢ | مصنفات العلماء في الرد على نفقات الصفات من الجهمية والمعتزلة وغيرهم |
| ٧٤٥ | أول من أنكر أن الله فوق عرشه هو الجعد بن درهم |
| ٧٤٦ | الكلام على حديث الأروال وبيان أنه ضعيف |